اللواء حسن صادق

جذور الفتنة في

الفرق الإسلامية

منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات

الشيعة

الصوفية

أهل السنة

المرجئة

المعتزلة

الأباضية

الخوارج

الزيدية

الأشاعرة

المذاهب الفقهية

مكتبة مدبولي

جذور الفتنة في

الفرق الإسلامية

منذ وفاة الرسول حتى اغتيال السادات



الكتاب : جذور الفتنة بين الفرق الإسلامية

التأليف : اللواء حسن صادق

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٥٩٣٤

الترقيم الدولي : 977-208-425-2

جذُور الفتنة فى

الفرق الإسلامية

منذ وفاة الرسول حتى اغتيال السادات

اللواء حسن صادق

الناشر
مكتبة مدبولى

إهداء

إلى روح والدتـــى العظـــيمة التى ظلت جبهتها تلامس الأرض متعبدة فى هـــدوء مـــن يوم وعت ذاكرتى وحتى لاقت ربها . وقد رأيتها وهى تسجد لماضـــيها ويومها وغدها . لا يطرق أذنى من لسانها الرطب إلا الدعاء للناس بالهداية والسكينة حتى فاضت روحها إلى بارئها ساجدة خاشعة فكانت أمامى وستظل مثلاً يحتذى لروح الإسلام وتعاليمه الحقة .

فإليك يا أماه أهدى كتابى هذا وقد استلهمت روحك وسمات عملك فى كل ما خطه قلمى .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

قال سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾(سورة المائدة ٧٧) .

إن الله خلــق العــالم وخلــق فيه الإنسان والحيوان كل ليعبده ويسعى لرزقه ولو شاء الله لجعــل الجمــيع يهــتدون ويؤمــنون ولكن خلق الله العقل لنتدبر ونفكر ثم يحاسبنا على أفعالــنا وأفكارنا وأنزل القرآن العظيم لنهتدى بآياته ولو شاء الله لأدخله فى قلوبنا دون جهد أو عناء .

وبعــد وفــاة الرسول صلوات الله عليه وسلم بدأ الخلاف فى الرأى كل يفكر حسب اجتهاده وكل يفكر حسب غرضه وكل يفكر حســب أهوائه ثم يتعرض كل منهم لآيات الله سبحانه وتعالى وحديث رسوله عليه الســلام ليستنبط منها ما يراه لفكره .. وكل يطعن فيمن سبقوه وكل يهاجم من عداه .

ويتولى هذا الكتاب شرح فكر الجماعات الإســلامية المختلفة الذين يقررون أن الإسلام هــو ما يعتنقه أفرادهم فقط وأما ما خلا ذلك فلا يوجد مسلمون من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى الآن وعلى ذلك فجميع المسلمين على الأرض لا يستحقون الحياة ويحل دمهم وعرضهم ومالهم .

وقد جاء القرآن الكريم سمحًا ويســرًا للكافة كما جاءت أحاديث الرسول عليه السلام مفسرة لسماحة الدين الإسلامى ويظهر ذلك كله من الآتى :

الآيات الكريمة :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

الأحاديث النبوية :

(من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان) (سيأتي بعدى حكام تعرفون منهم وتنكرون قال الصحابة أنقاتلهم يا رسول الله قال لا ما أقاموا الصلاة) (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا قد بلغت اللهم فاشهد) (لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم أعناق بعض) (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إذا لم يكن كذلك رجعت عليه) (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه) .

أما بالنسبة للدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فقد نص الدستور فى مادته الثانية عـلى أن الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع وتقوم حاليًا الـلجان التشريعية المختلفة بدورها فى تطبيق هذه الأحكام من الناحية الجنائية بعد أن تم فعلاً تطبيقها فى قوانين الأحوال المدنية ، إلا أن التطبيق بالنسبة للأحكام الجنائية يستلزم التدرج كما فعل الرسول (ﷺ) عندما تلقى آيات التحريم ، فنجد تحريم الخمر مثلاً نزل بالتدريج ، فإذا طبقنا حد قطع يد السارق فى السـرقة فيجب أن نلجأ إلى القرآن والسنة والقياس والإجماع والاجـتهاد فـنوفر لـلمواطن المسكن والمأكل والملبس والعمل ثم نقطع يده بعد ذلك حتى إذا اكتشف القاضى أن السارق كفلت له الدولة كل هذه الاحتياجات ثم سرق فيحكم عليه بقطع اليد، وكذلك فى عقوبة الزنا فإن إثباتها فى غاية الصعوبة وقد فرق الرسول (ﷺ) بين زنا المتزوج وزنا الأعزب فالأول له الرجم والثانى له الجلد ولم يطبق الرسول (ﷺ) هذه العقوبة إلا مرتين إحداهما بعد اعتراف الجانى وإصراره (وهو الصحابى ماعز) وكان الرسول (ﷺ) يحاول أن ينقذه قائلاً له (لعلك قبلت لعلك فخذت .. إلخ) وثانيهما عندما أعترفت له امرأة (الغامدية) بأنها حامل من الزنا فانتظر عليها حتى وضعت ، ووقع على الحالتين عقوبة الرجم نتيجة اعترافهما .

وهكذا تسير الدولة فى إجراءات تقنين الشـريعة الإسلامية وتطبيقها مما ينفى الحـكم بتكفير الدولة لعدم التطبيق .

هذا الكتاب يتعرض للمفاهيم المختلفة للتفسـير من شتى الجماعات الإسلامية للدراسة وبيان الخطأ من الصواب وحتى يظهر القول الحق الصحيح لمفاهيم الإسلام .

أما من يجتهد لتنفيذ هوى فى نفسه ساعيًا وراء زعامة أو رئاسـة زائفة متجنبًا النصوص الإسلامية الصحيحة فهو يسعى إلى حتفه ، ولا يجنى الشر إلا من يزرعه .

الفصل الأول

الصراع على السلطة بعد وفاة الرسول واغتيال الخلفاء الراشدين

بدأت خلافات المسلمين بعد وفاة الرسول (ﷺ) فى السياسة وليس فى الدين ، وتركزت الخلافات وما أدت إليه من صراعات فى موضوع الخلافة وأصول الحكم وفلسفته بالذات .. لم يختلفوا على أن « لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله » ولا على الإيمان بالغيب والملائكة والجزاء ، ومن سبق من الأنبياء والرسل وما نزل عليهم من الصحائف والكتب والألواح ، كما أنهم لم يختلفوا على الصلاة والصوم والحج إلى بيت الله الحرام .. وحتى الخلاف الذى حدث حول الزكاة على عهد أبي بكر والذى أدى إلى الحروب التى سميت بـ « حروب الردة » حتى هذا الخلاف كان سياسيًا لا دينيًا ، والحرب والصراع من حوله دار بين « أهل القبلة » .

وكان أول ما حدث من خلاف بين المسلمين بعد الرسول (ﷺ) اختلافهم فى الإمامة .. ولم يحدث خلاف غيره فى حياة أبي بكر وأيام عمر . إلى أن ولى عثمان بن عفان ، وأنكر قوم عليه فى آخر أيامه أفعالاً ... ثم بويع على بن أبي طالب فاختلف الناس فى أمره ، فمن بين منكر لإمامته قاعد عنه ، ومن مؤيد لإمامته معتقدًا لخلافته .. ثم بدأ الخلاف أيام على مع طلحة والزبير وحربهما إياه ، ثم تلاه الصدام الدموى مع معاوية ومن والاه .

وهذا الخلاف السياسى لم يكن فقط أول خلاف بل كان كذلك « أعظم خلاف » والمسلمون لم يقاتل بعضهم بعضًا لأسباب دينية ، وإنما جردوا السيف فقط لهذا السبب السياسى ، وقد كان هذا الخلاف هو الوحيد والأعظم حتى أمد طويل فى عصر الإسلام والمسلمين ، وحتى تمت الفتوح وتفاعلت الأفكار العربية الإسلامية ثم تصارعت مع الملل والعقائد الأخرى فظهر الخلاف فى العقائد من نحو التجسيد والتتريه وقدم الكلمة وخلقها وغيرها من خلافات الأصول ، أما قبل ذلك فلقد ظل الخلاف فى الإمامة ومن حولها هو الخلاف الوحيد بين المسلمين .. ففى السقيفة وقبل دفن جثمان الرسول (ﷺ) حدث بين المهاجرين والأنصار أول خلاف على الإمامة .

وبعـد البـيعة لأبى بكر مباشرة حدث الخلاف بينه وبين أنصاره من جانب ، وبين نفر من بنى هاشم ومعهم فئة قليلة أرادوا أن تكون البيعة لعلى بن أبى طالب من جانب آخر ، وبعد أشهر من هذه البيعة الأولى حدثت حروب الردة للخلاف حول سلطة الخليفة الجديد ، عندما استمرت بعض القبائل تدين بالإسلام ولكنها رفضت الانصياع لما حدث فى المدينة من نقل سـلطة الرسول الزمنية إلى أبى بكر وعهد عمر وإن لم يشهد « خلافًا » حول الإمامة إلا أنه قد شهد « جدلاً » من حولها وما يشبه الصراع عليها .

وفى السـنوات الأخـيرة من عهد عثمان بن عفان برم الكثيرون بما أحدث من أحداث وطالـب البعض خلعه ورفض هو محتجًا بما يشبه منطق القائلين « بالحق الإلهى » ثم انتهى هذا الخـلاف تلـك النهاية الدامية التى نقلت الصراع حول الخلافة من نطاق الخاصة إلى نطاق العامة ، ومن رحاب العاصمة ليعم جميع الأصقاع والأطراف ، ومن الصراع بالوسائل السلمية إلى الاستعانة بالقتال .

وكان عهد على سلسلة من الخلافات والصراعات والحروب حول الخلافة .. بينه وبين بقية أهل الشورى إذ حاربه بعضهم واعتزله البعض الآخر .. وبينه وبين معاوية وأهل الشام .. وبينه وبين الخوارج بعد التحكيم .

وفى أواخـر عهد على ظهر الخلاف النظرى حول الإمامة عندما ظهرت فكرة الغلو فى عـلى المنسوبة إلى عبد الله بن سبأ والتى ربما كانت رد فعل لبواكير الفكر النظرى عن الخلافة التى ظهرت بتكون الخوارج كأول فرقة منظمة من فرق الإسلام .

ثم كان ظهور الفكر الجبرى على عهد معاوية ، ومن بعده خلفاء بنى أمية ، تبريرًا لانتقال السـلطة إلى الطلقاء ، وتغير طبيعتها ، إذ كان معاوية يقول : « لو لم يرنى ربى أهلاً لهذا الأمر مـا تركنى وإياه ، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره .. وأنا خازن من خزان الله تعالى أعطى من أعطاه الله ، وأمنع من منعه الله ولو كره الله أمرًا لغيره » ؟ .

وعـندما اشتدت ثورات الخوارج وانتشرت ضد سلطة بنى أمية ظهرت نظرية الخوارج فى تفكيرهم وظهر الإرجاء ردًا على الخوارج ، ثم ظهرت نظرية المنزلة بين المنزلتين .. كل ذلك فى خضـم الصـراع على السلطة والخلافة وأصول الحكم وفلسفته : أول خلاف ، وأعظم خلاف ، وأطول خلاف .

عهد أبى بكر :

وإذا تناولنا الصراع على السلطة فى عهد أبى بكر نجد أن النبى (ﷺ) كان قد أصدر دستورًا للدولة الإسلامية سماه « الصحيفة » أو « الكتاب » . وهو تعاقد تم بين أطراف عدة اجتمعت على تكوين هذه الجماعة الجديدة ودولتها الجديدة .

السطور الأولى لهذا الدستور تقول : « هذا كتاب من محمد النبى بين : المؤمنين المسلمين من قريش ، ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس » .

ثم يمضى الدستور ليعدد بالتفصيل لبنات هذا الكيان الذى حولته هذه الدولة إلى « أمة واحدة من دون الناس » فيذكر المهاجرين من قريش كحى مستقل له ذاتية متميزة وبين أفراد روابط خاصة لا يشتركون فيها مع غيرهم من أعضاء هذه الأمة الجديدة « فالمهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » .

ثم يذكر قبائل المدينة وأحياءها فيجعل لكل حى تلك الذاتية المتميزة ويقر أفراده على نفس الروابط الخاصة التى تربطهم والتى لا يشتركون فيها مع أعضاء الأمة الجديدة .. وفى هذا الصدد يذكر أحياء بنى عوف .. وبنى الحارث .. وبنى ساعدة .. وبنى جشم .. وبنى النجار .. وبنى عمرو .. وبنى النبيت .. وبنى الأوس .

ثم يقرر الدستور نوعًا من الاتحاد الذى يجمع بين المؤمنين ، المهاجرين والأنصار فى صورة حقوق مشتركة وواجبات واحدة ومميزات متساوية وعلائق متحددة .. فيقرر « إن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل وأنه لا يحالف مؤمن من دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم .. ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر ، ولا ينصر كافرًا على مؤمن .. وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليه أدناهم .. وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم وأن المؤمنين ينبئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .. وأن من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا ولا يأويه .. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله وإلى محمد » .

ثم يمضى الدستور فيتحدث عن يهود المدينة ، الذين يكونون لبنة من لبنات هذه الجماعة الجديدة ، فيذكر أحياءهم كما ذكر أحياء الأنصار : يهود بنى عوف .. ويهود بنى النجار .. ويهود بنى الحارث .. ويهود بنى سعادة .. ويهود بنى جشم .. ويهود بنى الأوس .. ويهود بنى ثعلبة .

ثم يتحـــدث عما لليهود بعضهـــم مع بعض من روابط خاصـــة وعلائق متميزة ، وعما يجمعهم مع المؤمنين من روابط ومسئوليات وحقوق وواجبات تكون وحدقم فى هذه الجماعة الجـــــديدة .. وكذلك يمضى الدستور إلى الحديث بنفس المنهج عن الموالى الذين يتبعون تلك القـــبائل وهذه الأحياء فالوحدة التى تكونت على أساس هذه الجماعة الجديدة هى مزيج من « وحدة القبيلة » و « الوحدة الدينية » و « الوحدة السياسية » التى تجمع المسلمين واليهود ضد مشركى قريش وحلفائهم .. قبائل المســـلمين كان منها وحـــدة بذاها ثم المسلمون جميعًا وحـــدة واحدة ، وقبائل اليهود . أو بالأحرى الأجزاء والأحياء اليهودية من هذه القبائل كل مـــنها تكون وحدة ، ثم اليهود معًا يكونون وحدة واحدة ثم المسلمون واليهود جميعًا يكونون وحـــدة هـــذه الجماعة الجديدة وبتعبير الصحيفة « إن اليهود أمة مع المؤمنين » ، لقد بقيت إذن وعاشت داخل هذه الوحدة الجديدة ذاتية القبيلة ونعراها ومصالحها وتقاليدها وطموحاها ولم تكن السلطة فى عهد الرسول (ﷺ) مطمع أحد لأنه المتلقى عن السماء الذى ضم السلطة الزمنية إلى سلطات الدين ، أما وقد انتقـــل إلى بارئه والتقى المهاجـــرون والأنصار فى سقيفة بـــنى ساعدة فما كان غريبًا ولا شاذًا أن يحـــدث التنافس والخلاف والصـــراع على السلطة والإمارة . فهم جميعًا مسلمون ولم يختلفوا فى الدين ولكنهم أبناء دولة واحدة احتفظ دستورها لكل قبيلة من قبائلها بذاتية متميزة ، ولقـــد جمعهم بالأمس الولاء لسلطان الرســـول فى حياته فخلافهم على هذا السلطان فى جانبه الزمنى بعد وفاته هو أمر مشروع لا يقدح فى إيمانهم بالله ولا فى وفائهم لرسوله (ﷺ) .

ليس بالشاذ إذن أن يقع الخـــلاف بين قريش والأنصـــار بل لقد كان الطبيعى والمنتظر أن يقع هذا الخلاف ، فقريش كانت تشعر بأن الأنصار بعد الهجرة وبالإسلام يحاولون أن يحتلوا بـــين العـــرب مكانتهم وهى قبل الإسلام ومدينتهم يثرب قد انتزعت أهمية العاصمة من مكة ناهيك عن دخول الأنصار فى جيش الفتح على قريش فى عقر دارها الأمر الذى أدخل مسلمى الفـــتح القرشـــيين فى الدين الجديد رهبة من سيف الإسلام الذى كان أغلب حملته يومئذ من

الأنصار .. بل إن موقف سعد بن عبادة الذى طمح إلى الإمارة يوم السقيفة قبل أن تنتزعها منه قريش لأبى بكر ليعد مقدمة لخلاف السقيفة . فلقد كانت راية جيش الفتح فى ذلك اليوم مع سعد بن عبادة وكانت أوامر الرسول (ﷺ) ألا يبدأ المسلمون بقتال ولكن يبدو أن سعد بن عبادة كان يريد أن يستأصل شأفة القرشيين الذين لم يدخلوا بعد فى الإسلام ، وهم الذين سبق أن قبضوا عليه عند رجوعه ليثرب من بيعة العقبة وعادوا به لمكة وعذبوه فجعلوا يده إلى عنقه وظلوا يضربونه ويجزون شعره ، وعندما مر بأبى سفيان زعيم قريش نظر إليه سعد وقال « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشًا » .

فلما حاذى موكب الرسول (ﷺ) مكان أبى سفيان فزع إليه وناداه « يا رسول الله أأمرت بقتل قومك فإن سعدًا زعم ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا وقال اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشًا وإننى أناشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأوصلهم وأرحمهم » .

وذهب العباس بن عبد المطلب إلى الرسول (ﷺ) يقول : يا رسول الله هلكت قريش لا قريش بعد اليوم إن سعد بن عبادة قال كذا وكذا وإنه ضيق على قريش ولابد أن يستأصلهم . فهدأ رسول الله (ﷺ) من روع أبى سفيان وقال له « يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشًا » . وعالج الرسول (ﷺ) الأمر بحكمته فأمر أن تنتزع الراية من سعد بن عباده وتدفع إلى ابنه قيس بن سعد لئلا يجد فى نفسه شيئًا .

لقد كانت ضغينة فى نفس سعد بن عبادة ضد قريش التى غزت المدينة يوم الأحزاب وقتلت من قومه يوم أحد وحاربها الأنصار عشر سنوات قبل يوم الفتح ، وإذا جاز للباحثين والمؤرخين أن يروا فى بعض مسلمى الفتح لعلى بن أبى طالب شعورًا له ما يبرره لقتله بعض أهلهم وهم على الكفر ، أفلا نجد لبغض سعد بن عبادة لمشركى قريش ما يبرره وهم الذين قتلوا من قومه أبطالاً حاربوا تحت رايات الإسلام ؟

وموقف ثان يجسد المشاعر غير الودية التى كانت لدى سعد بن عبادة وقومه الأنصار تجاه قريش ، فعقب غزوة حنين قسم الرسول (ﷺ) غنائمها فى قريش وقبائل أخرى واستثنى الأنصار « فوجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة » فذهب سعد بن عبادة إلى رسول الله (ﷺ) وقال له يا رسول الله : « إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك فى أنفسهم بما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت : قسمت فى قومك وأعطيت قومًا من العرب

عطايا عظامًا ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شىء ؟» . وأراد الرسول (ﷺ) أن يعلم: هل وجد سعد كما وجدت الأنصار؟ فسأله : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » فقال يا رسول الله مــا أنــا إلا مــن قومى .. عند ذلك طلب الرسول (ﷺ) من سعد أن يجمع الأنصار ، وخطبهم فطيّب خاطرهم عندما قال : « ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار . ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار .. فبكى القوم وقالوا رضينا برسول الله قسمًا وحظًا » .

كانــت الأنصــار قد أدركت منذ بيعة العقبة أنها بهجرة الرسول (ﷺ) إلى يثرب إنما تؤســس ملــك العــرب بقيادتها وتجعل من مدينتها عاصمة الرسول (ﷺ) والعرب ومنارة الإســلام ، ومنذ ذلك اليــوم كانت تخشى أن تعــود القيادة والعاصمة إلى قريش ومكة من جديد .. فلقد استوثقوا من الرسول (ﷺ) منذ تلك البيعة أن انحيازه إليهم ليس موقوتًا وذلك عــندما ســألوه : هل عسيت إن نحن فعلنا ذلك – فوفينا بما عاهدناك عليه ثم أظهرك الله أن تــرجع إلى قومك وتدعنا؟ .. فأجابهم الرسول (ﷺ): بل الدم الدم ، الهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

كانــت الأنصــار قد طمحت إلى القيادة وكان سعد بن عبادة زعيم الخزرج والمتحدث فى المواطن باسم الأنصار ، وأحد النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا باسم قومهم رسول الله (ﷺ) فى بــيعة العقــبة ، كان مؤهلاً للقيادة وطامحًا إليها كذلك ، وكان هذا الحى من قريش الذى يــتزعمه المهاجرون الأولون هو الند المنافس فى هذا المقام . وبينما المهاجرون الأولون فى شغل بأمر تجهيز الرسول (ﷺ) لدفنه ، وبأمر تهدئة النفوس التى أفزعها موته وبعد أن تواعدوا على إرجاء البت فى أمر الإمارة إلى الغد .

اجتمعــت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة كى يتدبروا أمرهم وأمر الإمارة وموقفهم من المهاجــرين ، إذا هم نازعوهم الأمر ، وفى الاجتماع ومن بين الأنصار كانت هناك (عيون) لأبى بكر تحبه وترى أحقيته فى الخلافة ومن هذه العيون رجلان من الأنصار ، ممن شهدوا بدرًا همــا : عويم بن ساعدة ، ومعن بن عدى .. كان هذان الرجلان ذوى حب لأبى بكر فى حياة رســول الله (ﷺ) واتفق مع ذلك بغض وشحناء كانت بينهما وبين سعد بن عبادة .. فلما نصب الأنصار سعدًا قال عويم بن ساعدة : يا معشر الخزرج إن كان هذا الأمر فيكم فعرفونا

ذلــك وبرهنوا حتى نبايعكم وإن كان لهم (المهاجرون) دونكم فسلموا إليهم فوالله ما هلك رســول الله حــتى عرفــنا أبي بكر خليفة .. فشتمه الأنصار وأخرجوه فانطلق مسرعًا حتى الــتحق بــأبي بكــر فشــحذ عزمه على طلب الخلافة .. ولقد عرف أبي بكر لمعن بن عدى وعويم بن ساعدة صنيعًا فأكرمهما فى خلافته ، بينما أقبلت الأنصار عليهما فعيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين وأكبروا فعلهما فى ذلك .

كان الأنصار قد استمعوا إلى خطبة سعد بن عبادة التى كان يجهر بها نيابة عنه – لمرضه – ولــده قــيس بن سعد .. وفى هذه الخطبة اجتهد أن يضيف إلى الأنصار الميزة التى يفخر بها المهاجرون الأولون ميزة (السابقة فى الدين) .. فحدثهم أن الذين أسلموا بمكة قبل الهجرة فى بضــع عشرة سنة هم نفر قليل كانوا ضعفاء لا يستطيعون الجهر بدينهم ومن ثم فإن لكم – للأنصــار – ســابقة الديــن وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . وتحدث عن دور الأنصــار فى نشر الإسلام وتأييد رسوله، ثم خلص إلى الغاية المرجوة فقال : « فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم به » .

ولقــد وافــق الأنصــار جميعًا سعدًا على رأيه بل واختاروه للإمارة .. وكتب التاريخ ومصــادره تشير إلى أن هناك ما يشبه البيعة أو الشراع فى البيعة . هذا ما حدث من الأنصار لســعد بــن عبادة ، فابن قتيبة يقول : إنهم أجابوه جميعًا : « أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القــول ولــن نعد ما رأيت ، نوليك هذا الأمر ، فإنك مقنع ولصالح المؤمنين رضى » .. وعــبارة الطــبرى فأجــابوه بأجمعهم : « أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعد ما رأيت ، نوليك هذا الأمر ، فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى » .

ثم تدارس الأنصار ما يصنعون باعتراض المهاجرين على استئثار الأنصار بالإمارة ، وظهر فــيهم تياران ، تيار يرى طرد المهاجرين من المدينة إن هم أبوا الانصياع لإمارة سعد بن عبادة وتــيار يرى اقتسام الإمارة معهم يليها المهاجرون فإذا هلك وليها الأنصار ، وهكذا دواليك . وعندما سمع سعد بن عبادة هذا الحل الوسط ، رأى فيه تراجعًا من الأنصار عن تصميمهم على الاستئثار بالإمارة ، وقال : « هذا أول الوهن » .

وفى تلك الأثناء دخل إلى اجتماع السقيفة ثلاثة من هيئة المهاجرين الأولين ، هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فتحدث أبو بكر عن حق المهاجرين الأولين فى هذا الأمر وتقدمهم فــيه عــلى الأنصــار دون أن يــنكر فضل الأنصار وبلاءهم ولكنه وضعهم فى الترتيب بعد

المهاجرين الأولين « فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نفتات دونكم بمشورة ولا تنقضى دونكم الأمور » . وتحدث عن امتياز المهاجرين الأولين بأنهم (أول الناس إسلامًا) وأنهم عشيرة رسول الله وأشار إلى ضرورة سياسية تجعل من وضع الإمارة فى قريش عامل توحيد للعرب أكثر مما لو وضعت الإمارة فى غير قريش فقال : « لأننا نحن أوسط العرب أنسابًا ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة » .

وعند ذلك عرض الأنصار حلهم الوسط : تعاقب أمير من الأنصار بعد أمير من قريش وهكذا ، فرفضه أبو بكر وقدم بدلاً منه اقتراح « نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا نفتات دونكم بمشورة ولا تنقضى دونكم الأمور » فأعلن الحُباب بن المنذر بن زيد بن حرام اقتراحه طرد المهاجرين من المدينة واستئثار الأنصار بالإمارة ورد عليه عمر : « إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولو الأمر منهم .. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة » .. وعند هذا الطور من المناظرة والجدل ، عملت بعض المتناقضات فى صفوف الأنصار عملها فساعدت على حسم الموقف لصالح المهاجرين ، إذ يجمع المؤرخون على أن بشير بن سعد كان يخشى إمارة ابن عمه سعد بن عبادة ، حسدًا له وعلى أن الأوس وزعيمها أسيد بن حضير كانت تخشى استئثار الخزرج بتأمير سعد بن عبادة حذرًا من بقاء الإمارة فى الخزرج دون الأوس .. وعندما زكى بشير بن سعد إمارة المهاجرين وبادر عمر إلى طلب البيعة لأبى بكر فسبق بشير بن سعد إلى بيعته ، بايعت الأوس والخزرج ، وكل من بالسقيفة خلا سعد بن عبادة الذى ظل على موقفه بل غدا (لا يصلى بصلاتهم ولا يجمع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم) حتى قتل بالشام فى عهد عمر بن الخطاب .. وعندما انطلق الخبر إلى أحياء المدينة (اجتمعت بنو أمية إلى عثمان واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن واجتمعت بنو هاشم إلى بيت على بن أبى طالب) .

والأربعة من أعضاء هيئة المهاجرين الأولين – فطاف عمر وأبو عبيدة على هؤلاء المجتمعين ودعوهم إلى بيعة أبى بكر ، فبادر بنو أمية وبنو زهرة إلى البيعة وتأخرت بيعة على ورهطه إلى حين .. ذلك أن بنى هاشم ، بل وبعض بنى أمية الذين يلتقون مع الهاشميين فى النسب عن جدهم عبد مناف قد اعترضوا على تولى (تيم) الخلافة ممثلة فى أبى بكر ونصرة (عدى) لها فى ذلك ممثلة فى عمر بن الخطاب ، ورأى الهاشميون أن هذا الفوز الذى أحرزته قريش على الأنصار فى السقيفة يجب أن يكون من نصيبهم هم ، لسبب أوحد يميزهم ويمتازون

بـه وهو القرب من رسول الله (ﷺ) .. فهذا الموقف من على بن أبي طالب ومن وقف معه قد طرح فى الفكر الإسلامى منذ ذلك الوقت المبكر ، ذلك السؤال : ما علاقة الدنيا بالدين ؟ وما هو الموقف من قضية الجمع بين الخلافة كمنصب سياسى والقرابة النسبية والعرقية برسول الله (ﷺ) ؟؟ تلـك القضية التى اختلف المسلمون من حولها طوال عصور تاريخهم ولا زالوا عليها يختلفون .

فعـلى لم يمتـنع عن بيعة أبى بكر إلا لأنه رأى نفسه الأحق بهذا الأمر ، وهو لم ير نفسه الأحق لأنه أكثر علمًا أو بلاءً أو أسبق إسلامًا إلخ .. إلخ . فهذه أسباب تحدث عنها الذين أتوا من بعد عندما فصلوا وبرروا الحجج والنظريات ، وهو إن ذكر بعض هذه الأسباب فإنما كان يذكـرها كأمور ثانوية مساعدة .. أما حجته على أنه الأحق فتتركز فى علاقته النسبية بالنبى وقرابته للرسول عليه السلام .. فهو ممثل بنى هاشم فى هيئة المهاجرين الأولين التى تكونت فى عهـد الـنبى الهاشمى وفوق صفته الهاشمية فإنه زوج بنت الرسول ، ووالد النسل الباقى للنبى الحسن والحسين ، ومن ثم فإنه الوحيد من بين أعضاء هذه الهيئة الذى ينطبق عليه أنه من (بيت الرسول) وهى صفة أخص من القريشية بل وأخص من الهاشمية أيضًا. فنحن إذن بإزاء (نظرية) تـريد الاسـتمرار على نحو ما ، لما كان على عهد الرسول (ﷺ) من الجمع بين السلطتين ، الدينية ، والدنيوية فى (بيت واحد) وأنه إذًا كان رحيل رسول الله (ﷺ) عن الدنيا قد أنهى جمـع السلطتين فى (ذات واحدة) ، فيجب أن نستبدل بذلك جمعها فى (ذات البيت) بدلاً مـن (ذات الفـرد) .. ولذلك كانت حجة على الأولى والأخيرة فى أول مواجهة ناظر فيها الأعضـاء الـثلاثة من هيئة المهاجرين الأولين الذين أداروا دفة السلطة وإقامة نظام الخلافة ، أبـو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح .. كانت حجة على الأولى والأخيرة ، بل الوحيدة : إن الخلافة يجب أن تكون فى بيت الرسول (ﷺ) ، وأنه هو الوحيد من هذا البيت الموجود فى « هيـئة المهاجـرين الأولين » فهو الأحق بها . وفى هذه المناظرة التى دارت عندما حضر إلى مجلسـى أبى بكـر كى يبايع .. اشتد عليه عمر فقال : « إنك لست متروكًا حتى تبايع .. » وكرر أبو بكر له القول فقال له : « إن لم تبايع فلا أكرهك .. » وعرض عليه أبو عبيدة منطقه وحججه فقال : « يا ابن عم ، إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفـتهم بالأمور ، فإنك إن تعش ويطل بقاء بك فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك » .

وهـــنا قدم على حجته موجزة فى نظرية (أحقية أهل البيت) فقال : « الله الله يا معشر المهاجـــرين لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعـــون أهله عن مقامه فى الناس فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأنا أهل البيـــت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله العالم بسنن رسول الله المتطلع لأمر الرعية الدافع عنهم الأمور السيئة القاسم بينهم بالسوية والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدًا » .

كانت تلك حجة على ونظريته .. وكان سلاحه الذى شهره فى سعيه لانتزاع الخلافة من (تـيم) أبى بكر إلى بيت الرسول وإليه ، كان سلاحه هو ذلك الرباط الذى يربطه بالرسول ويجعلــه مـــن بيته ، أى فاطمة بنت الرسول عليه السلام .. فكان يخرج بها ليلاً راكبة جملاً ، ويطـــوف بهـــا على مجالس الأنصار وأحيائهم تسألهم النصرة لعلى فى قضية الخلافة ، ولكنهم كانوا يقولون لها : « يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل » أبى بكر الصديق .

كانـــت تلك حجة على ونظريته التى داوم على تكرارها مدة امتناعه عن بيعة أبى بكر ، وظـــل يذكر الناس بها بعد ذلك فى مواطن التذكر .. فعندما تجدد الصراع معه على الإمارة ، مـــع معاويـــة بن أبى سفيان ، ذكّر الناس بذلك الصراع القديم ، وبأحقيته فى الأمر ، فقال : « .. أمـــا الاســـتبداد علينا بهذا المقام ، ونحن الأعلون نسبًا والأشدون برسول الله نوطًا (أى تعلقًا وآثره) فإنها كانت آثرة شحت عليها نفوس قوم .. » وفى موطن آخر يتعجب من حجر الآخرين فيقول : « واعجباه أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة ؟؟؟ » .

والأمر الذى يؤكد أن تلك كانت نظرية على الوحيدة وأن وجود فاطمة زوجة له كان سلاحه الأول والأقوى فى طلب الإمارة يومئذ ، أن موت فاطمة قد أفقده هذا السلاح فانهارت مقاومته وبايع أبا بكر ودخل فيما دخل فيه المسلمون . والطبرى يتحدث عن هذا التطور الهام فى موقـــف على فيقول : « وكان لعلى وجه من الناس فى حياة فاطمة ، فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عن على » .

فمـــوت فاطمـــة لم يغير من صفات على وكفاءته شيئًا وهو لم يؤثر فى التسابه إلى الفرع الهـــاشمى مـــن قريش بل ولا فى علاقته ببيت الرسول (ﷺ) ، لأنه ظل الأب الوحيد للنسل الوحـــيد الباقى للرسول (ﷺ) الحسن والحسين .. ولكن تقاليد العرب وعاداتهم كانت تقيم وزنًـــا كبيرًا لعلاقة النسب المتمثلة فى وجود امرأة من قبيلة لدى قبيلة أخرى ، فالعلاقة قائمة لأن فلانة عند القبيلة الفلانية والعلاقة حميمة وخاصة لأن فلانة عند فلان .

أما وقد ماتت فاطمة فإن العلاقة المباشرة والخاصة التى ربطت عليًا ببيت محمد قد زالت، ومن هنا كانت المعانى التى حملها على كلماته وهو يدفن فاطمة عندما ناجى أباها فقال : « أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم .. وستخبرك ابنتك بتضامر أمتك على هضمها فأحفها » – أى استقصها – السؤال واستخبرها الحال .. ويتحدث الطبرى عن ارتباط بيعة على لأبى بكر بموت فاطمة فيقول : « فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر ، فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ، ولا يأتنا معك أحد فانطلق أبو بكر فدخل على علي ، وقد جمع بنى هاشم عنده فقام علي فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًا فاستبددتم به علينا .. » ثم تواعدا على البيعة بالمسجد فى العشية فتمت .. وعند ذلك أقبل الناس على على فقالوا « أصبت يا أبا حسن وأحسنت .. » ولكن هناك شبهة على تفسيرنا هذا لسبب انتهاء مقاطعة على لبيعة أبى بكر ، تأتى من كلمات عدة رويت عن علي تفسر سبب تغييره لموقفه بأنه الخوف من تفرق كلمة المسلمين وضياع دولة الإسلام وتشير إلى أنه قد بايع عندما برزت مخاطر (حروب الردة) بالذات . وليس بسبب فاطمة وموتها وانقطاع السبب المتين الذى كان يجعله جزءًا من (بيت محمد) وليس من هاشم فقط . وهذه الشبهة تعتمد على أن فاطمة قد ماتت بعد الرسول (ﷺ) بستة أشهر ، وهو القول المشهور فى تاريخ وفاتها ، بينما حروب الردة قد حدثت قبل ذلك .

فالثابت أن الرسول (ﷺ) قد توفى فى ربيع الأول والثابت كذلك أن بدايات (حروب الردة) قد حدثت فى جمادى الأولى أو جمادى الآخرة ، أى بعد ثلاثة أشهر أو أربعة من وفاة الرسول عليه السلام ، والثابت أيضًا أن على بن أبى طالب قد أسهم فى المشورة لأبى بكر فى هذه الحروب ونهض بواجباته العملية فيها .

والأرجح – أن حروب الردة قد حدثت بعد وفاة فاطمة وبيعة على لأبى بكر ، ذلك أن تاريخ وفاة فاطمة فيه خلاف كبير .. صحيح أن المشهور أنها قد ماتت بعد ستة أشهر من وفاة الرسول (ﷺ) ، ولكن هناك رأيًا ثانيًا يقول : إنها ماتت بعد وفاته بثلاثة أشهر ، ورأيًا ثالثًا يقول : بل عاشت بعده سبعين يومًا فقط .. وهذا الرأى الأخير وكذلك الذى قبله يجعل من وفاتها أمرًا سابقًا على (حروب الردة) فتكون تلك الحروب قد نشبت بعد أن ماتت فاطمة ، وانصرفت وجوه الناس عن على ، وبايع بالخلافة أبا بكر الصديق .

فـأبو بكــر الصديق قد أنفذ جيش أسامة بن زيد فى آخر شهر ربيع الأول ، وعاد هذا الجيش بعد أربعين يومًا من شخوصه ويقال بعد سبعين يومًا ، وعقب عودة جيش أسامة خرج أبــو بكــر فى أولى جولاتــه (بحــروب الردة) وهى الجولة التى حدثت فى المكان المعروف بــذى القصة وكانت ثغرات المدينة وأبوابها يومئذ تحت حراسة على والزبير وطلحة وعبد الله ابــن مسعود .. فلو أن جيش أسامة قد مكث فى أرض الشراة بالشام أربعين يومًا تكون جولة ذى القصــة فى جمــادى الآخــرة وعــلى الرأى الأول أنها أربعون يومًا ، تكون حرب الردة قد حدثت بعد وفاة فاطمة حتى ولو كانت قد عاشت بعد الرسول سبعين يومًا تكون (حرب الردة) قد حدثت بعد وفاة فاطمة ، وحتى إذا قلنا إن وفاتها بعد النبى بثلاثة أشهر .

ففى كل الحالات يستقيم لنا التفسير الذى قدمناه لعدول على بن أبي طالب عن موقفه ودخوله فيما دخل فيه الناس .. ولقد كان هذا التغيير إيذانًا بتدعيم حجج النظرية التى ولدت منذ ذلك التاريخ فى مواجهة نظرية علي ، إذ فى مواجهة الدعوة لجمع السلطتين فى بيت واحد كانت هناك النظرية الداعية للفصل بين مواطن كل من هاتين السلطتين ، وهى النظرية التى عبر عنها عمر بن الخطاب عندما قال لعبد الله بن عباس : « يا عبد الله ، أنت أهل رسول الله وآله، وبنو عمه ، فما تقول فى منع قومكم منكم ؟؟ » قال : « لا أدرى علتها ، والله ما أضمرنا لهم إلا خيرًا » فقال عمر ، معبرًا عن نظرية فصل السلطتين : « إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة ، فتذهبوا فى السماء شمخًا بذخًا » .

بــل إن فى كــلام على بن أبي طالب نفسه ما يؤكد قيام هذه النظرية منذ ذلك التاريخ وما يؤكد أن قريشًا قد اتخذت هذا الموقف ، ففصلت بين بيت النبوة وبيت الخلافة ، وانتقلت بالخلافــة مــن بيت إلى بيت متحاشية بيت النبوة حتى لا تكون شبهة توحد السلطتين وتربط بينهما ربطًا دينيًا أى أبديًا ، ولقد ظل هذا الموقف حتى حدوث الثورة على عثمان وتولى على الخلافــة من قبل الثوار .. يعبر علي عن هذه الحقيقة الهامة فيقول فى مداولات هيئة المهاجرين الأولين التى أفضت إلى تنصيب عثمان ، بعد وفاة عمر يقول : « إنى لا أعلم ما فى أنفسكم ، إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر فى صلاحها فتقول : إن ولى الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدًا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش ؟ » .

وحتى بعد بيعة على ورهطه وحتى بعد انتهاء حروب الردة فلقد ظل سعد بن عبادة وهو مــن هو صحبة وبلاء فى الإسلام ، ناهيك عن أنه أحد النقباء الاثنى عشر الذين عقدوا عقد

تأسيس الدولة الإسلامية مع الرسول عند العقبة ، ظل سعد هذا على خلافه مع أبي بكر حتى مـات أبو بكر وعلى خلافه مع عمر حتى لقى عمر فى خلافته وهو على فرس وعمر على بعير فقال له عمر : « هيهات يا سعد » فقال سعد هيهات عمر : « فإنه من كره جوار رجل انتقل إلى جوار من هو أحب إلى جوار منك ومن أصحابك » فلم يلبث سعد بعد ذلك إلا قليلاً حتى خرج إلى الشام فمات بحوران ولم يبايع لأحد لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما وكان لا يصلى بصلاة القوم ولا يجمع جمعهم ، وإذا حج لا يفيض معهم .. وعندما قتل بحوران قال البعض : إن الجن قد قتلته .

ولا يستبعد ابن أبي الحديد أن خالد بن الوليد هو المدبر لقتل سعد بن عبادة تقربيًا لأبي بكـر الصـديق ، دون أن يكـون لأبي بكر أو لعمر علاقة أو علم بهذا الاغتيال .. وفى كل الحالات فإن موقف سعد بن عبادة قد ظل ثغرة تمنع انعقاد الإجماع على خلافة أبي بكر طوال مـدة هـذه الخلافـة والسنوات التى عاشها من خلافة عمر فهل استندت خلافة أبي بكر إلى الإجماع وهل كان العهد إلى عمر من خليفة تم له الإجماع فيستند هذا الانتقال فى السلطة إلى ذلـك الإجمـاع ، إن من المعتزلة من يرى حدوث الإجماع على إمامة أبي بكر ، ويترتب هذا الإجماع على نص من السنة النبوية استند إليه الناس فى إجماعهم . ولكن لما كان هذا النص غير موجود أو موجود ولكن المعتزلة لا يصححونه قالوا : إن الرواة قد استغنوا بشهرته عن روايته وليست هذه الحجة المقنعة ، خصوصًا بمقاييس المعتزلة فى الاحتجاج والإقناع .

ولقـد هـون هذا الفريق من خلاف على ورهطه على أبي بكر وقال : إن هذا الخلاف قـد انـتهى بعدول علي عن موقفه .. ولكن يبقى أنه قد كان هناك خلاف يمثل ثغرة فى هذا الإجماع ويحول بين السلطة وبين الشرعية فى اتخاذ القرارات إذا كان لابد لشرعيتها من حدوث الإجمـاع خصوصًـا أن الذين تأخروا عن البيعة كانوا كثرة وكانوا من جلة الصحابة ففضلاً عن عامة بنى هاشم كان هناك غير على : العباس عم الرسول ، ومن بنى أمية : خالد بن سعيد بـن العـاص وكان على اليمين عندما مات الرسول أى أنه كان من ولاة الأمور فى الدولة ، والبعض يقول إنه امتنع عن البيعة سنة كاملة والزبير بن العوام وهو أحد العشرة الذين تتكون منهم هيئة المهاجرين الأولين .. كما كان هناك رأس بنى أمية : أبو سفيان بن حرب وكان النبى قـد عينه مباشرًا لجمع الصـدقات فى بعض الأنحاء ولقد امتنع عن بيعة أبي بكر وأرادها لعلى ولم يـبايع حتى طلب عمر من أبي بكر أن يمنحه ما جمعه من صدقات لقاء بيعته ، إذ قال عمر لأبي بكر : « إن أبا سفيان قد قدم، وإنا لا نأمن من شره » فدفع له ما فى يده فتركه فرضى ..

كمــا كان هناك من غير بنى هاشم وبنى أمية : أبو ذر ، وحذيفة ، والمقداد ، وعمار ، وذلك فضلاً عن سعد بن عبادة الذى استمر خلافه حتى عهد عمر بن الخطاب .. وهذا الفريق الذى يجتهد لإثبات الإجماع على خلافة أبي بكر فيقول : « إنه قد اشتهر الأمر فى إمامة أبي بكر إلى أن لم يكــن فى الــزمان إلا راضٍ بإمامــته وكاف للنكير » .. يحاول التهوين من شأن هؤلاء المخالفين الذين امتنعوا عن البيعة لأبي بكر ، فيقول مثلاً عن سعد بن عبادة : « إنه لم يبق على الخلاف » .. وهو أمر تنكره كل المصادر ، أو يقول « لا يعتد بخلافه » .. وهو أمر لا يستقيم مع مكانة سعد ومع التمسك بمبدأ وضرورته ، أو يقول إن الإجماع الذى حدث فى عهد عمر وخاصة بعد موت سعد يستدل به على الإجماع على أبي بكر لأن خلافة عمر فرع من خلافة أبي بكر ، وإجماعهم على فرع الأصل يتضمن تثبيت الأصل .. وهو عكس للقضية الصحيحة ، فصــحة الأصل تزكى الفرع لا العكس إذ ربما صح الفرع لعوامل جديدة لم تتوافر للأصل .. ولا شــك أن ضــعف حجــج هذا الفريق إنما نبعت من تمسكه بضرورة استناد بيعة أبي بكر إلى الإجمــاع لأنهــا السابقة الأولى التى تستند البيعات الأخرى إليها وهم قد جاهدوا لإثبات أن هناك إجماعًا حتى يردوا هجوم الشيعة على شرعية خلافة أبي بكر وصحة بيعته التى لم تستند إلى الإجماع ، فقالوا إنه قد حدث إجماع وإطباق وأن الصحابة توقفت فى الإمامة ثم أطبقت على إمامة أبي بكر .

ومــع فــريق المعــتزلة هذا وقف فريق من أهل السنة فقالوا : إنه قد أجمع المهاجرون والأنصــار وأهــل بيعة الرضوان على إمامة أبي بكر الصديق وسموه خليفة رسول الله وبايعوه وانقــادوا له ولكــن فريقًا آخر من المعــتزلة وأهل السنة أيضًا يقول بصحة إمامة أبي بكر وباســتنادها إلى الاختيار وأن مخالفة البعض عن البيعة لحين أو دائمًا هو أمر لا يقدح فى صحة هــذه الإمامــة والبــيعة بهــا ، وإن قدح فى الإجماع الذى هو غير ضرورة بل وغير مقصود ولا منتظر ، كذلك وأن هجوم الشيعة على بيعة أبي بكر لافتقارها إلى الإجماع هو سلاح أولى أن يرتد إلى حجتهم وموقفهم ومنطقهم ، لأن الخلاف على إمامة على أوضح وأوسع وأعمق وأشــهر مــن الخــلاف على إمامة أبي بكر بما لا يقبل المقارنة والقياس .. فلقد صحت إمامة أبي بكــر لأن الجمهــور أقرها سواء ظهر هذا الإقرار بموقف إيجابي كموقف من بايع أو كان ضــمنيًا كالرضــا بهــا والتسليم للسلطان الذى تولاه بمقتضاها .. وذلك لا ينفى أن هناك صــراعات قــد حدثــت على السلطة فى عهد أبي بكر وأن هناك من تخلف عن البيعة حينًا من الدهر أو كل الدهر وهو الصراع الذى قدمنا نماذجه الشهيرة فى هذا المقام .

وقد توفى أبو بكر عن ثلاثة وستين عامًا ، ويقال إنه اغتيل وكان أول من قُتل من الخلفاء الراشـــدين . فقد كان أبو بكر والحارث بن كلدة يأكلان خزيرة أهديت إلى أبى بكر ، فقال الحـــارث لأبى بكر ارفع يدك يا خليفة رسول الله ، والله إن فيها لسمّ وإنا وأنت نموت فى يوم واحد ، قيل فرفع أبو بكر يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد قبل انقضاء السنة .

عهد عمر :

لم يحـــدث فى عهـــد عمر صراع على السلطة بالمعنى الدقيق والعميق ، ولكن حدث فيه جدل من حولها وتطلع واستعداد لتلقفها أو اقتناصها .

فطـــلحة بن عبيد الله عضو هيئة المهاجرين الأولين وهو تيمى كأبى بكر كان يتطلع إليها عقـــب وفاة الخليفة الأول ، ولقد جادل أبا بكر فى مرضه عندما استشارهم فى العهد إلى عمر وقال لأبى بكر ماذا تقول لربك إذا لقيته وقد وليت علينا فظًا غليظًا ؟ .. ولى عهد عمر كانت لطـــلحة بطانة تسعى كى يخلف عمر فى إمارة المؤمنين .. ويروى المؤرخون أنه كان (فى أيام عمر قوم يجلسون إلى طلحة ويحادثونه سرًا فى معنى الخلافة ويقولون له : لو مات عمر لبايعناك بغتة، جلب الدهر علينا ما جلب) وبلغ ذلك عمر وكان فى (منى) يؤدى فريضة الحج فقال : « إنى لقائم العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوا الناس أمرهم » وبعد العودة للمدينة صعد المنبر وخطب الناس فقال : « إن قومًا يقولون أن بيعة أبى بكر كانت فلتة وإنه لو مات عمر بايعنا فلانًا .. أما بيعة أبى بكر كانت فلتة إلا أن الله وقى شرها وليس فـــيكم من تتطلع إليه الرقاب كأبى بكر فأى امرئ بايع امرءًا من غير مشورة المسلمين فإنهما بغرة أن يقتلا » .

وغـــير تطلـــع طلحة الخاص كان هناك من يروج لعثمان كى يليها بعد عمر . والقاضى عبد الجبار يروى هذه العبارات ذات الدلالة ويقول « روى عن حذيفة أنه قال : قال لى عمر — من ترى الناس يؤمرون بعدى ؟ قال : قلت : قد سموا لها عثمان . قال فسكت . وروى عن حارثة بن مضرب قال : فسمعت الحادى يقول : ألا إن الأمير بعده ابن عفان » أى أن حداة الإبل وأراجيزهم كانت أجهزة دعاية تهيئ الأمر للطامحين فيه.. وملأ قريش أولئك الذين أرادوا استثمار الاستثمار السياسى لقريش بالإمارة فى الثراء وحيازة الإقطاعات .. هؤلاء قد تطلعوا للانتشار فى البلاد المفتوحة وجمع الثروات ، ولقد تصدى لهم عمر كما تصدى لتطلعات الذين

يبيتون لاقتناص الإمارة دون مشورة للمسلمين حتى لقد بلغ تصدى عمر لملأ قريش والمهاجرين منهم خاصة أن حبسهم بالمدينة ومنعهم من مغادرتها حتى ولو كانت مغادرتهم لها تحت ستار الغزو فى سبيل الله ؟ والمؤرخون يروون (أن عمر كان قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل .. حتى إن الرجل كان يستأذنه فى غزوة الروم والفرس وهو ممن حبسه بالمدينة ولا سيما من المهاجرين فيقول له : إن لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك » وإن ملأ قريش المهاجرين قد شكوا منه ذلك فقال : « إن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات على ما فى أنفسهم . ألا إن قريش فيها من يضمر الفرقة ، ويروم خلع الربقة ، أما وابن الخطاب حى فلا إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » ولذلك لم يمت عمر حتى ملته قريش .. فلما ولى عثمان خلى عنهم فانتشروا فى البلاد ، ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر .

وقد كان عمر بن الخطاب كريمًا وشهمًا وشجاعًا ، زاهدًا فى الحياة متقشفًا لا يختص أهله بخير دون باقى المسلمين وكان لحقد الفرس عليه بعد زوال ملكهم أن دبروا له مكيدة قاتلة فأوعزوا إلى أحد مواليهم فيروز الملقب بأبى لؤلؤة وهو غلام المغيرة بن شعبة ليقضى عليه .

وذات يوم خرج عمر قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة فلم يكد يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين من خنجر له رأسان إحداهما فى عنقه والأخرى فى خاصرته وقيل ثلاث طعنات إحداهما تحت السرة وقيل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة ولكنها لم تشغله عن الصلاة وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس وأغمى عليه ولم ينتبه عندما دعوه وعندما نودى للصلاة فتح عينيه وقال بكلمات متقطعة « الصلاة » ثم قال « لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة » ولما علم أن قاتله أبو لؤلؤة قال : « قاتله الله وقد أمرت به معروفًا » ثم حمد الله وقال : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة يسجدها له قط ما كانت العرب لتقتلنى » واشتد بكاء الناس عليه فنهاهم أن يبكوا عليه ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدم هو أم النقيع خرج بلونه فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد وجاؤوه بالطبيب الذى أشار عليه أن يعبد الله فقال : « لو قلت غير هذا لكذبتك » ثم جعل يتدبر أمر الخلافة فجعلها شورى ليستقر بها القرار وقال « أما لقد جهزت نفسى وحرمت أهلى وإن نجوت كفانا » فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ثم دعا ابنه عبد الله لينطلق إلى عائشة ويقرئها السلام ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس للمؤمنين أمير اليوم ثم يستأذنها أن يدفن إلى جوار

صاحبيه النبى وأبو بكر ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها وقالت « كنت أريده لنفسى ولأوثرنه به اليوم على نفسى » فلم يكفه هذا وأراد الاستيثاق وخاطب ابنه « يا عبد الله بن عمر انتظر فإذا أنا قبضت فاحملونى على سريرى ثم قف على الباب وقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لى فأدخلنى وإن ردتنى فردنى إلى مقابر المسلمين فإنى أخشى أن يكون إذنها لمكان السلطان » .

وتوفى عمر عن ثلاثة وستين عامًا فى شهر ذى الحجة لسنة ٢٣هـ بعد أن ظل بالخلافة عشر سنين وستة شهور ودفن بجوار صاحبيه وقال شهود دفنه (فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ) .

عهد عثمان :

الأمر الذى كان يخشاه عمر ، ويجاهد للحيلولة دون وقوعه ، حدث منذ أن ولى الخلافة عثمان بن عفان - فلقد وثبت قريش على السلطة واستأثرت بها ، سواء أكانت متمثلة فى الخلافة العامة أم فى ولاية أمور الناس فى الأقاليم والإمارات والعمالات .

وليس لقائل أن يقول : لقد كان عثمان قريشيًا كما كان عمر وأبو بكر فليس هناك جديد ، ذلك أن عثمان كان أمويًا وفى أمية دون غيرها من البطون كانت عصبية قريش .. وابن خلدون يذكر هذه الحقيقة الهامة فيقول : « إن عصبية مضر كانت فى قريش وعصبية قريش فى عبد مناف وعصبية عبد مناف إنما كانت فى بنى أمية .. » فإذا أضفنا إلى ذلك ضعف الخليفة الجديد إذا ما قيس بأبى بكر وعمر أدركنا المدى الذى بلغته قريش وأمية خاصة فى الانفراد بالسلطان والسلطان أما ولاة الأقاليم فيكفى أن نقارن بين أنسابهم القبلية على عهد عمر وأنسابهم على عهد عثمان لتتأكد لنا هذه الحقيقة .

- فمكة كان واليها على عهد عمر نابع بن عبد الله الخزاعى .. وهو ليس من قريش ..
- والطائف كان واليها سفيان بن عبد الله الثقفى وهو ليس من قريش ..
- والكوفة كان واليها المغيرة بن شعبة وهو من ثقيف لا قريش ..
- والبصرة كان واليها أبو موسى الأشعرى وهو ليس من قريش بل يمنى ..

- وحمص كان واليها عمير بن سعد وهو من الأنصار لا من المهاجرين ..
- و فلسطين كان واليها عبد الرحمن بن علقمة وهو كنانى ..
- والبحرين كان واليها عثمان بن أبي العاص وهو ثقفى لا قرشى ..

أما الولاة من قريش فى عهد عمر فكانوا ثلاثة :

- والى دمشق — وهو معاوية بن أبي سفيان .. من أمية .
- ووالى مصر وهو عمرو بن العاص من بنى سهم .
- ووالى الجند باليمن وهو عبد الله بن أبي ربيعة من مخزوم .

أمـــا والى صنعاء فكان قرشـــيًا بالحلف لا بالصليبة وهو يعلى ابن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف .

فمـــن بين إحدى عشرة ولاية لم يكن لأمية سوى ولاية واحدة ، ولم يكن لقريش سوى ثلاث ولايات ولم يكن لعدى فرع عمر ولاية واحدة من هذه الولايات ،

وكـــان عمـــر قد أوصى أن تظل الولايات دون تغيير فى أشخاص ولاتها عامًا من خلافة الخليفة الجديد وبعد هذا العام حدثت تغييرات فى عهد عثمان لصالح قريش والأمويين بالذات.. فمعاويـــة بعد أن كان واليًا على دمشق ضمت إليه الشام كلها (دمشق ، وحمص ، والأردن) فغـــدت فى أمـــية الولايات الثلاث .. وغدت الكوفة تحت ولاية الوليد بن عقبة الأموى كما ولى البصـــرة عـــبد الله بن عامر الأموى وولى مصر عبد الله بن أبي سرح الأموى .. وفضلاً عـــن أن هؤلاء الولاة من أمية ، فلقد كان منهم أخو عثمان لأمه ، وأخوه فى الرضاعة وأهم مـــن ذلك قبض مروان بن الحكم الأموى على زمام الأمور عندما عمل كاتبًا لعثمان أى وزير الأول ومصـــرف الأمـــور نيابة عن الخليفة الصالح الضعيف .. وبعد سنوات ست من حكم عثمان ظهرت آثار هذه التغيرات فى شكل سخط عام على استئثار قريش بالسلطة .. ويحاول عـــثمان تفـــادى اشتعال الفتنة بنفى زعماء الكوفة إلى الشام كى يؤدهم معاوية بن أبي سفيان وتحـــدث بين معاوية وعثمان وبين أبي ذر تلك الأحداث الشهيرة الشائعة فى مصادر التاريخ ، حتى انتهى الأمر بنفيه إلى الربذة والتنبيه بمقاطعته والامتناع عن وداعه .. ويجمع عثمان ولاته يستشيرهم فى علاج السخط الذى تفشى والذى يكاد يعصف بمنصب الخلافة وولايات الولاة

ويقـــول لهـــم : « إن لكل أمير وزراء ونصحاء وأنتم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى وقد صنع الـــناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجـــتهدوا بـــرأيكم » . فأمـــا عبد الله بن عامر الأموى فقال : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن نشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلوا لك ولا تكون همة أحدهم إلا فى نفسه وما هو فيه من دبر دابته ، وقمل فروته ؟ » .. وأما معاوية فإنه يخيّر الخليفة بين أمرين : إما أن يسمح لجيش من فرسان أهل الشام أتباع معاوية قوامه أربعة آلاف فارس باحتلال المدينة وتأمين سلطته فيها .. وإمـــا أن ينفى عن العاصمة (شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله ﷺ وبقية الشورى) حتى (لا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد) ثم أردف قائلاً لعثمان : « وأضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته ؟ » .

وأمـــام هذا الرفض من قبل الولاة الأمويين لمطالب الساخطين ودعاة الإصلاح ، وأمام استســـلام عثمان لولاته هؤلاء تصاعد السخط وارتقت مطالب الثائرين من طلب تغيير الولاة إلى طلب التغيير فى قمة السلطة فطلبوا من عثمان أن يعتزل الإمارة كى يختار المسلمون خليفة سواه .

وكان عثمان قد أخذ عليه أيضًا أنه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث ابن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال وأنه توسع فى بناء القصور وضرب الصحابة بعضهم ببعض مما أشاع البغضاء والحقد بين الأفراد .

وكـــان عثمان يندم ويعلن توبته بعد ارتكابه التصرفات المعينة ويقصى عنه بعض المشكو فى حقهـــم ثم يغلبونه ثانية فيعيدهم إلى مكانتهم وعلى رأسهم مروان بن الحكم أبغض هؤلاء الأعـــوان إلى المسلمين . وكانوا يشكون ولاتهم فإذا عيّن غيرهم يفاجأ الوالى الجديد برسول يحمـــل خطابًـــا للوالى المعزول يأمره بقتل من يفد إليه وهذا ما حدث مع وفد مصر فبعد أن احتـــدت الاضطرابات التى حدثت بالعراق ومصر وفوجئ عثمان ذات يوم بالمدينة تعج بالثوار يحاصرون منزله وخرج إليهم على بن أبى طالب سائلاً : ماذا تطلبون فرد عليه أهل مصر بأنهم أمسكوا رجلاً أرسله مروان بكتاب ممهور بختم الخليفة فيه أمر بقتلهم وقد جاء معهم قوم من الكوفة والبصرة يؤيدونهم ويستنكرون هذا التصرف .. ولم يعرف سبب أو مصدر هذا الكتاب ومن الذى أصدره إلا أنه من المستبعد كلية أن يكون الخليفة هو الذى كتبه أو أملاه أو علم به وقد أقسم لهم على ذلك وهو صادق وثار الشك عمن يكون كاتبه ، إنه أحد اثنين إما (نفر)

مـــن زعمـــاء الثوار .. وإما (مروان) .. أما الأولون فلهم سابقة فى مثل هذا التزوير فحين عـــزموا أمـــرهم عـــلى الخـــروج مـــن مصر ومن الكوفة ومن البصرة إلى المدينة دبر بعض زعمائهم حيلة يحملون بها أكبر عدد من المسلمين على الخروج فزوروا كتبًا على لسان (طلحة) و (الزبير) يدعون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة لقتال (عثمان) .. ولم تعرف حقيقة هـــذه الخدعة الكاذبة الخاطئة إلا بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة .. وهكذا لا يبدو غريبًا عـــلى الظـــن أن يكـــون مزور تلك الكتب هم الذين افتعلوا هذه الأكذوبة الجديدة وأتقنوا إخـــراجها فـــإن لم يكونوا فهو إذن (مروان) .. ومروان – كما يعرفنا به التاريخ – لم يكن له من دينه ولا من خلقه ما يردعه عن اقتراف مثل ذلك العمل .. ولقد طالب الثوار بتسليمه عـــلى الفـــور ولكـــن (الخليفة) الرحيم كان يرى مصيره المحتوم إن وقع فى أيديهم فرفض تسليمه .

لم يفعل الخليفة ذلك رضًا بما فعل مروان .. وإنما هى طبيعة رجل لا يطيق أبدًا أن يسلم بـــيديه إنســـانًا إلى ســـاحة القتل والإعدام .. وأخيرًا طالب الثوار باعتزال عثمان وقتله .. وفى ثـــبات رفض الخليفة الاعتزال ذاكرًا وصية الرسول (ﷺ) له (يا عثمان إذا الله كساك يومًـــا سربالاً وأراد لك المنافقون خلعه فلا تخلعه لظالم) ، وقد كساه الله « سربال الخلافة » ، وهاهم المتمردون يريدون بالقوة أن يكرهوه على خلعه .. أفيسلم مصيرالإسلام وكرامة الدولة لعصابة آثمة ؟ ولكى يستوثق من سلامة موقفه وسداده ، أرسل إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنه وهو من خيار أصحاب الرسول (ﷺ) يستشيره فقال له : هل إذا رأيت أن خلعت نفسك تبقى فى الدنيا مخلدًا ؟ فأجابه بالنفى ، فقال له : وإذا رأيت إن لم تخلع نفسك هل يزيدون على قتلك شىء ؟ وأجابه بالنفى – فرد عليه قائلاً : إذن فلا تسن هذه السنة فى الإسلام ولا تخلع قميصًا ألبسك له الله ، وكان ذلك الرد بمثابة شد أزر لرأى عثمان ، ولكن الفتنة كانت تزداد وأحكـــم الثوار حصارهم القاسى حول الخليفة ومنعوا عنه زواره ثم منعوا عنه الماء بل زادوا على ذلك بأن توقحوا عليه بشتائم بذيئة على مرأى ومسمع من الناس ولم يكفهم حلمه وصبره خاصة عندما قال لهم من قبل « إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمرى .. أما والله لـــئن فارقتهـــم ليتمنوا لو أن عمـــرى طال فيهم كل يوم بســـنة وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة » .. وكان ذلك إدراكًا منه لهذا المصير الذى تحققت فيه نبوءته وطال صـــبره وهم يطـــيلون الحصار حول منزل الخليفة حتى تعوّد على هذا المسلك وأصبحوا يروحون ويغدون وهـــم فى حياتهم العادية لا يشعرون بشئ ، ولم يكن أحد يتوقع رغم ضراوة هذه الثورة وهذا التمرد أن يدًا ستمتد إلى حياة الخليفة لتغتاله ..

كـــان عثمان بن عفان شيخًا جاوز الثمانين من عمره من أوائل المؤمنين بالإسلام ، صهر رســـول الله (ﷺ) وخليفـــته ، بلغ به الإيمان ذروته حتى بشّره الرسول (ﷺ) بالجنة وكان فى هذا الوقت العصيب قائمًا يصلى الليل ويقرأ من القرآن بعض آياته ثم ألقى بنفسه بين يدى ربـــه ضارعًا مبتهلاً وآوى إلى فراشه ونام حالمًا بالقرب من الرسول (ﷺ) حتى رآه فى المنام يقول له « أفطر عندنا غدًا يا عثمان » .

وفى نفـــس الدار كان يقبع مروان مع نفر من أتباعه المسلمين ، كما كانت هناك جماعة كـــريمة من الصحابة خفوا بسلاحهم لافتداء الخليفة منهم الحسن والحسين أبناء على أرسلهما أبوهما وفيهم عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر وآخرون جاءوا ليحرسوا الدار ومن فيها .

وخارج الدار وحواليها كانت صفوف الثوار المدججين تعضدهم الأنباء التى جاءت بأن معاوية أرسل قوة من الجيش بالشام فى الطريق إلى المدينة ..

وأصـــبح عـــثمان صـــائمًا كعادته فى معظم الأيام منذ إسلامه ، فدعا جميع من فى الدار ممـــن يحملـــون الســـلاح دفاعًا عنه وطلب منهم أن يلقوا سلاحهم ويغادروا الدار ويتركونه فى رعايـــة الله ، ولكنهم أبوا جميعًا وعلى الأخص الحسن والحسين وابن الزبير وابن عمر فألح عليهم أن يلقوا سلاحهم قائلاً لهم « أناشدكم الله ألا تريقوا بسببى دمًا » .

واشتد الهرج والمرج خارج الدار عندما التحم بعض من أهل المدينة مع المتمردين ، فأطل عليهم عثمان من شرفة داره ونادى المتمردين إبراءًا لذمته لقتله « أيها الناس لا تقتلونى فوالله لئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدًا ولا تصلون جميعًا بعدى أبدًا » .

وعندئذ ازداد الحقد ضرامًا وضاقت صدور زعماء الفتنة فهاجموا الدار ، ولكن تصدت لهم جماعة الصحابة وردتهم عن الأبواب صاغرين فازداد حقدهم وفكروا فى اقتحام الدار عن طـــريق تســـورهم للـــدار المجاورة وتم بالفعل تنفيذ الخطة وكان على رأسها محمد بن أبى بكر ومـــا هـــى إلا دقائق حتى كانوا أمام الخليفة وأمسك محمد بلحية عثمان يهزها متوعدًا فقال له معاتبًا « يا ابن أخى دع لحيتى فوالله لقد كان أبوك يكرمها ولو رآك فى مكانك هذا لاستحيا مما تصنع » فارتدت يد محمد إلى جانبه وخرج من الدار مع الجماعة التى تسورتها معه ، ولكن بقية المتمردين لم يرق لهم هذا الموقف فشدوا على الدار المجاورة من سورها ودخلوا على الخليفة وهو يتلوا آيات الله خاشعًا فأصابوه بعدة إصابات ومنها إصابة فى كفه فقال : « والله إنها لأول يـــد خطت المفصل وكتبت آى القرآن » . وطمست دماؤه المصحف المفتوح فضمه إليه وهو يسلم الروح ، ومات عثمان عن اثنى عشر سنة فى خلافة المسلمين .

عهد على : (الفتنة الكبرى)

إذا كانت الخلافة الراشدة قد شهدت صراعًا على السطلة فى عهد أبى بكر ، ثم اتجه هذا الصراع إلى الوفاق والمصالحة فى جزئه الهام ، ثم شهدتل دلاً على السلطة وطموحًا فيها فى عهد عمـــر بن الخطاب تحول إلى صراع حاد ودموى فى نهاية عهد عثمان بن عفان ، فإن عهد على بـــن أبى طالـــب كـــان قمـــة الصراع على السلطة بل كانت كل سنواته صراعًا داميًا على هـــذه الســـلطة فبعد أن قتل الثائرون عثمان وجدوا أنفسهم فى حيرة ، فقد كانوا يعلمون أن لابـــد للـــناس من إمام وأن يبايع هذا الإمام فى أسرع وقت ممكن قبل أن يستبد عمال عثمان بما فى أيديهم ويرسل أقواهم معاوية جنده إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثائرين على ما قدموا .. ثم كانت أهواؤهم بعد ذلك مختلفة : هوى أهل مصر مع علي وهوى أهل الكوفة مع الزبير وهوى أهل البصرة مع طلحة وقد جعل كل فريق منهم يختلف إلى صاحبه وجعل الثلاثة يأبون عليهم ويمتنعون عن قبول الإمامة منهم .

وأخـــيرًا أقـــبلوا عـــلى علي يعرضون عليه الإمامة ويلحون عليه فى قبولها ، والثائرون يؤيدونهـــم فى ذلك .. وحاول على أن يمتنع فلم يجد إلى الامتناع سبيلاً وما يرده عن القبول وقـــد رفـــض الخلافـــة حين قدمها إليه الثائرون وهؤلاء المهاجرون والأنصار يعرضونها عليه ويريدون أن يبايعوه كما بايعوا الخلفاء من قبله .. وأخيرًا قبل الخلافة وجلس للبيعة على منبر النبى كما جلس الخلفاء من قبله وأقبل الناس فبايعوه .

وعقب البيعة خطب علي الناس فأعلن منهاجه فى الحكم وقراراته لتغيير الأوضاع التى ثار ضـــدها الذين قتلوا عثمان ، فعزل ولاة عثمان على الأمصار والأقاليم وأعلن العودة إلى نظام التســـوية فى العطاء الذى كان يطبقه الرسول (ﷺ) وأبو بكر الصديق .. ولما احتج زعماء قريش على التسوية بينهم وبين مواليهم قال لهم : « أنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالتسوية لا فضل فيه لأحد على أحد » كما أعلن عزمه على العودة إلى شدة عمر تجاه الذين أطلقهم حلم عثمان وضعفه فجمعوا الثروات فى الأمصار وقال « ألا لا يقولن رجال منكم غدًا قـــد غمـــرهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارًا وشنارًا إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرهم إلى حقوقهم التى يعلمون فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون : حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا » وأعلن عزمه

على انتزاع المال الذى احتازه أشراف قريش دون حق وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن فى العدل سعة ومن شاق عليه العدل فالجور عليه أضيق ».
وفى اليوم التالى لخطبته الأولى هذه بدأ خلافه مع طلحة والزبير ومن ناصرهما فى هذا الصراع وعندما احتج علي عليهما بالبيعة التى بايعاه قال الزبير : « ما بايعتك قط وإن كنت على يقين أنك أولى بها ، فاجعلها شورى » وقال طلحة : « بايعت واللج على قفى » .. يشير إلى ضغط الثوار عليه كى يبايع عليًا . وانضمت عائشة إلى طلحة (وكانت تيمية) تأمل أن يليها طلحة التيمى . لم يكن علي إذًا مترددًا ولا شاكًا ولا قلق الضمير حين همّ بقتال أهل الشام حين رفضوا البيعة وحين تحول عنهم إلى أمر طلحة والزبير عندما أظهرا النكث والخلاف ، ولكنه فى بعض مواطنه قال كالنادم المحزون : « لو علمت أن الأمر يبلغ هذا المبلغ ما دخلت فيه » ، يريد أنه لم يكن يظن بهذين الشيخين وبأم المؤمنين عائشة أن يبلغ الأمر بهم ما بلغ من تفريق كلمة المسلمين وجعل بعضهم على أن يسلوا سيوفهم على بعض ولو قد علم أن خلافته ستكون مصدر فتنة وفرقة لأعرض عنها إيثارًا لعاقبة المسلمين واجتماع كلمتهم ولصبر نفسه على ما تكره كما فعل حين بويع للخلفاء الثلاثة من قبله ، فأما وقد بايعه من عامة المسلمين وخاصتهم فقد مضى فى أمره على بصيرة وكره أن يرجع بعد أن مضى ويحجم بعد أن أقدم .. وكان كثيرًا ما يقول : « والله إنى لعلى بينة من ربى ما كذبت ولا كذبت ولا ضللت ولا ضل بى » .

كان علي على بصيرة من أمره ، وكان أصحابه يمضون معه على بصائرهم يشفقون من أن يسلوا سيوفهم على قوم من المسلمين أمثالهم ولكنهم لا يرون أن يعرضوا عن ذلك إذا لم يكن منه بد .

وكان علي يريد أن يعارض القوم فى الصلح ويناظرهم على الحق ولا يبدأهم بقتال إلا أن يبدؤه به ، لقد كان الأمر مختلفًا إذًا بين هذين الفريقين : أهل البصرة مختلفون وأصحاب علي متفقون .

وكان علي صباح يوم حين استيأس من طلحة وعرف أنه يأبى إلا الحرب قد كفّ أصحابه كفًا شديدًا عن أن يبدءوا بالقتال حتى يأمرهم . وجعل شباب أهل البصرة والسفهاء منهم خاصة يحاولون إنشاب القتال فينضحون أصحاب علي بالنبل حتى أصابوا منهم نفرًا .

فجعـــل أصحاب علي يحملون من أصيب منهم إلى علي ويتعجلون إذنه بالقتال وهو مع ذلك مســـتأن لا يجيـــبهم إلى ما يطلبون ، فلما كثر ذلك من أهل البصرة دفع علي مصحفًا إلى فتى من أهل الكوفة وأمره أن يقف به بين الصفين وأن يدعو القوم إلى ما فيه ، وأنذره بأنه مقتول إن نهض بهذه المهمة . فشك الفتى غير طويل ثم أخذ المصحف وانطلق به حتى وقف بين الصفين وجعل يدعو القوم إلى ما فيه فرشقوه بالنبل رشقًا واحدًا فقتلوه .

والشيء المحقق أن الفتى قتل وهو يدعوهم إلى ما فى القرآن . فقال علي لأصحابه : الآن طـــاب الضراب .. وكانت الموقعة الأولى صدر النهار وكانت الهزيمة لأعداء علي حتى زالت الشمس ، فلما انهزم الناس أقبل المتحمسون من أصحاب طلحة والزبير وعلى رأسهم عبد الله بـــن الـــزبير (فى أكـــبر الظن) فأخرجوا أم المؤمنين من بيتها فى المسجد الذى استترت فيه وأدخلوها هودجًا مصفحًا بالدروع وحملوها على جملها ذاك وأشهدوها ميدان الوقيعة ، فثاب المـــنهزمون إلى أمهم ورأوا أنهم لا يحمون أمهم فحسب وإنما يحمون زوج رسول الله وحبيبته . فـــثارت فى نفوسهم عقدة غريبة فيها الشعور الدينى القوى وفيها الشعور بحرمة العرض وحماية الأم والذود عن الذمار .. واجتمع الناس حول أمهم مستقتلين يكرهون أن تصاب أم المؤمنين بـــأذى فى بلدهم وهم شهود . وكان جمل عائشة فيما يقول بعض من شهد الواقعة راية أهل البصـــرة يلوذون به كما يلوذ المقاتلون براياتهم . وما أسرع ما أفاق المنتصرون من انتصارهم حتى أقبلوا على خصمهم أولئك يريدون أن يهزموهم آخر النهار كما هزموهم وجه النهار .. وهـــنا يظهـــر كعب بن ثور قاضى البصرة وقد برز بين الصفين وعلق فى عنقه مصحفًا وجعل يدعـــو أولئك وهؤلاء إلى كتاب الله وما فيه وينهاهم عن الشر . ولكن أصحاب علي رشقوه بالنبل رشقًا واحدًا فقتلوه كأنهم ثأروا لفتاهم ذلك الذى قتل وهو يحمل المصحف بين الصفين حين ارتفع الضحى .

واقتـــتل الفـــريقان قتالاً شديدًا منكرًا يريد أصحاب علي ألا يفلت منهم النصر بعد أن أحـــرزوه ويريد أصحاب عائشة أن يحملوا أم المؤمنين ويموتوا دونها ، واقتتل القوم حتى كره بعضهم بعضًا وحتى يئس بعضهم من بعض .

وقد كاد أصحاب عائشة أن ينهزموا ولكن الجمل قائم لا يريم وعليه هودجه لا يضرب وفى الهـــودج أم المؤمـــنين تحرض الناس فتردهم إلى الحماسة والجرأة بعد الخوف والفرق وهم يثبتون حول الجمل لا يريدون انتصارًا ولا يريدون فوزًا وإنما يريدون أن يحموا أمهم .

وهى تتحدث إلى من عن يمينها محرضة وإلى من عن شمالها محمسة وإلى من أمامها مذكرة . وما يزال أولئك يستقتلون وهؤلاء يشتدون عليهم حتى كان لا يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل من دونه ، وقد رأى على هذا القتل الذريع فراعة نكر ما رأى وصاح بأصحابه : أعقروا الجمل فـــإن فى بقائه فناء العرب . فيهوى إليه رجل من أصحابه بالسيف فيعقره ويخر الجمل إلى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله ، وهنالك فحسب يتفرق حماة الجمل كما ينتشر الجراد ويقبل محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فيحتملان الهودج وينحيانه ناحية ويضرب محمد على هودج أخته فسطاطًا ويأمره علي أن ينظر أأصابها مكروه .

فـــتقول : مشقص فى عضدى ، فينتزعه ، ويأتى على مغضبًا ولكنه على ذلك متماسك يملـــك نفســـه ويضـــبطها أشد الضبط فيضرب الهودج برمحه ويقول : كيف رأيت صنيع الله يـــا أخت إرم فتقول : يا ابن أبي طالب ملكت فأسجح . فيقول علي : غفر الله لك ، وتجيب عائشة : وغفر لك .

ثم يأمـــر عـــلي محمد بن أبي بكر أن يدخل أخته دارًا من دور البصرة ، فيحملها حتى يدخلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي فتقيم فيها أيامًا .

وكذلـــك اقتتل الناس حول طلحة حتى انهزموا وجه النهار وقتل طلحة ثم اقتتلوا آخر النهار حتى انهزموا حين أقبل الليل وسلمت عائشة ورأى المسلمون يومًا لم يروا مثله شـــناعة ولا بشاعة ولا نكرًا ، سَلّ المسلمون فيه سيوفهم على المسلمين وقتل خيار المسلمين فيه خيار المســـلمين . فقتل من أولئك وهؤلاء جماعة من جلة أصحاب النبى ومن خيرة فقهاء المسلمين وقـــرائهم وحـــزن علي لذلك أشد الحزن وأقساه فكان يتعرف على القتلى من أصحابه ومن خصمه ويتوجع لأولئك وهؤلاء ويترحم على أولئك وهؤلاء .

وكـــان الليل قد رد إلى القوم عوازب أحلامهم وأصبحوا جميعًا محزونين لا فرق فى ذلك المنتصـــر والمنهزم ، وأقبل علي من غده فصلى على القتلى جميعًا من شيعته ومن خصمه وأذن للـــناس فى دفـــن موتـــاهم وجمـــع الأطـــراف الكثيرة فاحتفر لها قبرًا كبيرًا ودفنها فيه وأقام فى معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاث .

وسار علي فى أهل البصرة سيرة الرجل الكريم الذى يقدر فيعفو ويملك فيسجح .

ثم جلـــس لهـــم فـــبايعوه على راياتهم ، بايعه منهم الصحيح والجريح ثم عمد بعد ذلك إلى بيـــت المـــال فقسّم ما وجد فيه على الناس وقوم يرون أنه قسّمه فى أصحابه دون خصمه من أهل البصرة ووعدهم مثل ذلك إلى أعطياتهم إن أظفرهم الله بأهل الشام .. والأشبه بسيرة علي أنه قسّم المال فى الغالبين والمغلوبين جميعًا .

وكان من الأمور ذات الخطر التى أراد علي أن يفرغ منها قبل أن يترك البصرة رد عائشة إلى المديـــنة لتقر فى بيتها كما أمرها الله ، وقد تعجلها فى الرحيل فاستأجلته أيامًا كأنها تريد أن تطمئن على الجرحى . فأجلها علي أيامًا ثم جهزها بجهاز ملائم لمكانتها وأرسل معها جماعة من رجال ونساء ، وخرجت عائشة يوم سفرها فسلم الناس عليها وودعوها وأمرتهم بالخير وأنبأتهم أنه لم يكن قط بينها وبين علي إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها .

وقـــد انصرف على عما كان يتأهب له من حرب معاوية وأهل الشام واشتغل بالشيخين وأم المؤمنين يريد أن يردهم إلى الطاعة ويريد إن أبوا أن يقاتلهم ، ورضى معاوية كل الرضى عـــن اشـــتغال هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار بأنفسهم وفرغ هو لأمره يدبره ويحكم تدبيره .

ونظـــر معاوية فإذا هو قد أصبح يلقى عليًا وجهًا لوجه وهو بعد ذلك لم يتعرض لحرب لم يكـــلم أحـــدًا ولم يكـــلمه أحـــد ، قوته موفورة وعدته كاملة وأصحابه وافرون لم يصابوا فى أنفســـهم ولا فى أموالهـــم وهـــم قد اجتمعوا على حبه ونصره حتى يثأر لابن عمه الخليفة المظلوم .

فأمـــا عـــلي فقد خاض حربًا منكرة قُتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير ، فعدوه واجدون عليه لأنه وترهم فيمن قتل منهم ، وشيعته لا تبرأ من الواجدين عليه لأنه قتل إخوانهم فى حرب البصرة .

أرســـل علي رجلاً من أصحاب النبي هو جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يطلب إليه أن يبايع وأن يدخل فيما دخل فيه الناس ويبين له حجة علي فيما يطلب إليه.. وانتهى جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألح عليه في الكلام والوعظ ، ولكن معاوية جعل يسمع منه ولا يقول شيئًا وإنما يطاوله ويسرف في مطاولته ويدعو مع ذلك وجوه أهل الشام ورؤساء الأجناد فيظهر مشـــاورتهم فيما يطلب إليه علي ويعظم لهم قتل عثمان ويحرضهم على الوفاء للخليفة المظلوم والطلب بدمه .

وهـــنا يظهر عمرو بن العاص الذى لم يكن أقل دهاءً ولا أدنى مكرًا ولا أهون كيدًا من معاويـــة ، وكان عمرو بن العاص قد وجد على عثمان حين عزله عن مصر فلما ظهرت الفتنة كان من المعارضين لعثمان وكانت معارضته الخفية أشد من معارضته الظاهرة فكان يؤلب الناس ويحرضهم ما وسعه ذلك سرًا .

فـــلما اشـــتدت الفتنة وعرف عمرو أنها منتهية على غايتها آثر أن يعتزلها فى طورها ذاك فخرج إلى أرض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها وجعل يتنسم الأخبار .

وخرج معه إلى فلسطين ابناه عبد الله ومحمد .. وكان عبد الله رجل صدق مخلصًا فى دينه زاهدًا فى دنياه قد صحب النبى وأخذ عنه كثيرًا من سننه والتزم سيرة الورع والتقوى والترفع عـــن الدنيات ، وكان أخوه محمد فتى من فتيان العرب ثم من فتيان قريش لم يعرض عن الدنيا ولم يزهد فيها وإنما طمع فيما يطمع فيه أمثاله من السعة والدعة والتقدم وبعد الصيت .

ولم يكن عمرو قد نسى ولاية مصر التى أتيحت له أيام عمر ولم يكن قد طاب نفسًا عن عزل عثمان إياه عن هذه الولاية ، فكان فيما يظهر يحن إلى مصر حنينًا متصلاً ولم يسفر الصبح لـــه حتى كان رأيه قد استقر على أن يلحق بمعاوية ، فارتحل إلى دمشق وارتحل معه ابناه فلما بلغهـــا ألفى أهل الشام يحرضون معاوية على الطلب بدم عثمان ويحضونه على النهوض لحرب علي فما أسرع ما انضم عمرو إلى المحرضين والمحضضين .

وكان عمرو يتعجل الحرب لتظهر حاجة معاوية إليه .

وعمرو بعد ذلك صاحب حرب ومكيدة فتح فلسطين وفتح مصر واطمأن إليه عمر منذ فتح مصر إلى أن قتل ، وهو بعد هذا كله داهية من دواهى العرب وشيخ ذو مكانة من شيوخ

قــريش ويقــول المؤرخون : (إن معاوية سأل عمرو عما يريده ثمنًا لانضمامه إليه فطلب إليه عمــرو أن يطعمــه مصر فى حياته واستكثر معاوية هذا الثمن . ولكنه كتب بهذا الاتفاق بين الرجلين عهد مؤكد) .

فــلما اجــتمع لمعاويــة أمره رد جرير بن عبد الله البجلى سفير على إلى الكوفة دون أن يعطيه شيئًا ، وعاد جرير فأنبأ عليًا بامتناع معاوية عليه وعظم له من أمر أهل الشام .

ثم أخــذ معاويــة يتأهب للحرب ولكنه هو أيضًا أسفر إلى علي كما أسفر علي إليه ، ولم يأت شهر ذى الحجة من سنة ست وثلاثين حتى كان علي قد قدم طلائعه بين يديه وأمرهم إن لقــوا أهل الشام ألا يبدؤوهم بقتال حتى يدركهم ، وسار هو فى معظم جيشه حتى انتهى وانتهت طلائعه إلى صفين بعد خطوب كثيرة .

وكــان معاوية قد سار فى جموع أهل الشام حين علم بتأهب علي للسير وقدّم بين يديه الطلائــع أيضًا ، وقد انتهى قبل علي إلى صفين فأنزل أصحابه أحسن منزل وأرحبه وأقربه إلى شــريعة الفرات .. وأقبل على فى جيشه الضخم فأنزل أصحابه بإزاء أصحاب معاوية ولكن أصحاب علي لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها فأرسل علي سفرائه إلى معاوية يطلبون إليه أن يخلى الماء حرًا يشرب منه الجيشان .. وقد ناظر السفراء معاوية فى ذلك فلم يظفروا منه بجواب وعادوا إلى علي بغير طائل ، ثم لم يلبث أصحاب علي أن رأوا معاوية يكثر من الحرص عــلى شريعة الفرات ليقهر عليًا وأصحابه بالظمأ يزيد أن يحرمهم الماء كما حرموا الماء عثمان حــين كــان محصــورًا .. وقال إن عمرو بن العاص ألحّ على معاوية فى أن يخلى بين أصحاب علي وبين الماء ليؤخر المناجزة فإن أصحاب علي لن يظمئوا وخصمهم راوون ، ولكن عصبية بــنى أمية غلبت مشورة أصحاب الرأى وانقاد معاوية لهذه العصبية فلم يكن بد من أن يقتتل الــناس على الماء .. واشتد القتال على الشريعة حتى كان يبلغ الحرب وأتيح النصر لأصحاب علي فغلبوا خصمهم على مورد الماء وأرادوا أن يضطروهم إلى الظمأ ويقهروهم به كما كانوا هــم يريدون بهم مثل ذلك ولكن عليًا أبى عليهم ما أرادوا وآثر العافية حتى لا يتعجل الحرب قبل الإعذار إلى خصمه وقبل مناظرتهم فيما بينهم من خلاف ، وكره كذلك أن يظمئ خصمه والله قــد أجرى النهر ليشرب منه الناس جميعًا لا ليستأثر به فريق دون فريق . وكذلك أتيح للقوم أن يلتقوا آمنين أيامًا يلتقون على الماء ويسعى بعضهم لبعض ليس بينهم قتال ولكن بينهم

جــدالاً شديدًا وخصامًا عنيفًا .. ثم رأى علي أن يعذر إلى معاوية وأصحابه فاختلف السفراء بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى صلح أو شيء يشبه الصلح ، فلما استيأس علي من خصمه عبأ أصحابه على راياقم وجعلت فرقهم تخرج إلى فرق معاوية تخرج فرقة فى هذا اليوم من أصحاب عــلي فــتخرج لهــا فــرقة من أصحاب معاوية فتقتتل الفرقتان نهارهما أو وجهًا من نهارهما ثم تتحاجزان وعلي لا يتجاوز ذلك إلى الحرب العامة رجاء أن يثوب خصومه إلى رشدهم وأن يفيــئوا إلى أمــر الله ويؤثروا العافية بين المسلمين . ومضى الأمر على هذا أيامًا عشرة أو أقل أو أكــثر من آخر ذى الحجة ثم أظل الناس شهر المحرم وهو شهر حرام فتوادعوا شهرهم كله وآمــن بعضــهم بعضًا وسعت بينهم السفراء سعيًا متصلاً ولكنهم أنفقوا شهرهم كله دون أن يصــلوا إلى صلح أو شيء يشبه الصلح ، واستبان لأولئك وهؤلاء فى غير شك ولا لبس أن ليس بد من أن يصطدم الجمعان .

وذات يــوم عــبأ علي أصحابه للهجوم العام ورأى معاوية منه ذلك ففعل مثل ما فعل وتزاحف الجيشان العظيمان فالتقوا صباح نهارهم كله وشطرًا من ليلهم دون أن يبلغ أحد من صاحبه ما كان يريد ، ثم أصبحوا فاقتتلوا نهارهم كله أشد قتال وأعظمه نكرًا وانكشفت ميمنة علي انكشافًا بلغ الهزيمة أو كاد يبلغها وتضعضع ما كان يليها من قلب الجيش وانحاز علي إلى ميسرته من ربيعة فاستقتلت ربيعة من دونه .

ثم ثابــت ميمنة علي بفضل الأشتر ومن ثبت معه من أصحابه فالتأم جيش علي كعهده أول الــنهار ، وأقبل الليل فلم يكف بعض القوم عن بعض وإنما مضوا فى حربهم تلك المجنونة حــتى استقبلوا صباح اليوم الثالث وحتى ظهر الضعف فى جيش معاوية وكاد أصحاب معاوية يبلغون فسطاطه وهمّ معاوية نفسه أن يفر .

وارتفع الضحى والقوم ماضون فى حربهم تلك لا يريحون ولا يستريحون وأصحاب علي لا يشــكون فى النصر وإنهم لفى ذلك وإذا المصاحف قد نشرت ورفعت على الرماح من قبل أهل الشام وإذا المنادى من أهل الشام يقول : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته الله الله فى العــرب الله الله فى الإسلام ، الله الله فى الثغور من لثغور الشام إذا هلك أهل الشام ومــن لــثغور العــراق إذا تفانى أهل العراق – ويرى أصحاب علي هذه المصاحف المنشورة ويسمعون هذا الدعاء إلى ما فيها من أمر الله ويسمعون الدعاء إلى العافية والبقية فيبهر كثرهم

ما ترى وما تسمع وإذا الأيدى تكف عن الحرب وإذا القلوب تتردد ثم تذكر السلم ثم تحبها ثم تطمع فيها وإذا رؤساء الجيش من أصحاب علي يسرعون إليه يدعونه إلى قبول ما يعرض القوم فيأبى عليهم ويبين لهم أن القوم ليسوا بأصحاب قرآن ولم يرفعوا المصاحف تائبين إلى ما فيها رفعوها كائدين يبغون خصمهم الفتنة ويبين لهم كذلك أنهم لم يبتكروا رفع المصاحف وإنما عرفوا أنه رفع المصاحب لأهل البصرة قبل القتال فقلدوه وليس بعد القتال وحين جزعوا من الحرب ولم يشكوا فى الهزيمة . ولكن أصحاب علي يلحون عليه فى الاستجابة إلى ما يدعى إليه من كتاب الله ويشتدون فى الإلحاح حتى ينذروا عليًا بمفارقته ومنهم من أنذره بتسليمه إلى معاوية . وقوم آخرون رأوا رأى علي ولم ينخدعوا بكيد أهل الشام وقالوا : إنما حاربنا القوم على كتاب الله لا نشك فى أنا على الحق وفى أن صاحبنا هو أمير المؤمنين وفى أن عدونا هم الفئة الباغية ، ولو قد شككنا فى شئ من ذلك ما قاتلنا ولا استبحنا سفك الدماء منا ومنهم .. ولكن أصحاب علي قد اختلفوا ما فى ذلك شك ، قوم يرون الكف عن القتال وقوم يرون المضى فيه .. وإذا وقع الخلاف بين رؤساء الجيش وبلغ هذا الحد فليس ينتظر من الجيش نفسه خير . ومن أجل ذلك اضطر علي إلى كف القتال ، ولم يكف الأشتر عن المضى فيه إلا بعد جهد متصل وعزيمة مؤكدة .. ثم قارب معاوية وأرسل إليه الرسل يسألونه عما أراد إليه برفع المصاحف فأجابهم معاوية : أردت إلى أن نختار منا رجلاً وتختارون منكم رجلاً ونأمرهما أن يحكما بما فى كتاب الله فيما شجر بيننا من الخلاف .. وعاد الرسل إلى علي بجواب معاوية فرضيت كثرة أصحابه وسخطت قلتهم ونزل علي عند رأى الكثرة كارهًا .

وليس من اليسير أن نقطع برأى فى عدد الجيشين اللذين التقيا بصفين واقتتلا قتالاً طويلاً منكرًا لم ير مثله قط فى الإسلام ، أى لم ير مثله قط بين المسلمين ، فقوم يبلغون بجيش على مئة ألف ويبلغون بجيش معاوية سبعين ألفًا ، وقوم ينزلون بهذين الرقمين إلى أقل من ذلك وليس من اليسير كذلك أن نحصى عدد القتلى من أولئك وهؤلاء .. وقد زعم قوم أن القتلى من أهل الشام بلغوا خمسة وأربعين ألفًا وأن القتلى من أهل العراق بلغوا خمسة وعشرين ألفًا .

والواقع أن مكيدة عمرو بن العاص تلك التى كادها برفع المصحف لم تكن من عند نفسه لا لأنه قلّد فيها عليًا فحسب ، بل لشيء آخر .. فقد ينبغى أن نذكر أن عليًا إنما رفع المصاحف بين الصفين فى حرب البصرة قبل أن ينشب القتال يريد أن يعذر إلى خصمه ..

وينبغي أن نذكر أيضًا أن مكان طلحة والزبير وأم المؤمنين من النبي كان يدعوه إلى أن يحتاط ويتأنى ويذكرهم بالقرآن وما فيه ولا يقاتلهم حتى يستيئس من استجابتهم إلى ما دعاهم إليه فلما رشق أهل البصرة ذلك الفتى الذى أمره علي برفع المصحف بين الصفين بالنبل حتى قتلوه، قال علي : الآن طاب الضراب . فلو قد أراد أهل الشام أن يتقوا الفتنة والحرب حقًا لرفعوا المصاحب ودعوا إلى ما فيها قبل بدئ القتال ولكنهم لم يفعلوا ، وما أكثر ما ذكروا بالقرآن فلم يذكروه وما أكثر من ردوا سفراء علي دون أن يعطوهم الرضى أو شيئًا يشبه الرضى فما كان رفعهم للمصاحف بعد أن اتصلت الحرب أيامًا وأسابيع وبعد أن توادع الجيشان شهر المحرم كله إلا كيدًا لا يتقون به الفتنة وإنما يتقون به الهزيمة .. وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب علي لم يكونوا يخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم ولم يكونوا ينصحون له ، لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين وكانوا يندمون فى دخائل أنفسهم على تلك الأيام الهينة اللينة التى قضوها أيام عثمان ينعمون بالصلات والجوائز والإقطاع .

ويجب أن نذكر أيضًا أن عليًا لم ينهض إلى الشام بأهل الكوفة وبمن تابعه من أهل الحجاز وحدهم وإنما نهض كذلك بألوف من أهل البصرة كان منهم من ولى له يوم الجمل وكان منهم من اعتزل الناس فى ذلك اليوم أيضًا وكان منهم مع ذلك كثير من الذين انهزموا بعد مقتل طلحة والزبير . فهم إذًا كانوا عثمانية لا يقاتلون مع علي عن رضى وصدق وإنما يقاتلون معه كارهين ، وهم إذا كانوا واجدين عليه لأنه قتل منهم من قتل واضطرهم إلى الهزيمة اضطرارًا ، لم يكن أصحاب علي إذًا كلهم مخلصين له مؤمنين به وإنما كان منهم المخلص والمدخول .

كذلك أن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد وإنما تجاوزته إلى ما هو أشد منه خطرًا ، وهو اختيار الحكمين .. فلأمر ما ألحّ الأشعث ومن تبعه من اليمانية فى أن يختار علي أبا موسى الأشعرى ولم يطلقوا له الحرية فى اختيار حكم يثق به ويطمئن إليه ، وهم يعلمون أن أبا موسى قد خذل الناس عن علي فى الكوفة حتى عزله عن عمله ، فقد كان علي إذًا مُكرهًا على قبول التحكيم ومُكرهًا على اختيار أحد الحكمين ولم تأت الأمور مصادفة وإنما جاءت عن ائتمار وتدبير بين طلاب الدنيا من أصحاب علي وأصحاب معاوية جميعًا .

ومهما يكن من شيء فقد اتفق الطرفان على أن يُحكّموا هذين الحكمين ، يُحكّمون عمرًا من قبل معاوية ويُحكّمون أبا موسى من قبل علي ، وأبى أصحاب علي على إمامهم أن

يختار ابن عباس لأنه شديد القربْ منه وأبوا عليه أن يختار الأشتر لأن إجهاده فى الحرب كان عظيمًا وحرصه على الغلب كان شديدًا . ولم يستطع علي أن يقبل ما عرضه عليه الأحنف بن قيس من أن يكون مندوبه فى الحكم بل لم يستطع أن يجعله تاليًا لأبي موسى لأن أصحابه أبوا إلا أن يندبوا أميرهم القديم الذى كره لهم الفتنة والذى لم يشترك فى الحرب مع هذا الخصم أو ذاك ، ولم يذكروا أن عمرو بن العاص قد شارك فى الحرب برأيه ولسانه وسيفه بل لعلهم ذكروا ذلك ولكنهم لم يقفوا عنده ولم يلتفتوا إليه .. واجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجلوا فيها ما اتفق عليه الخصمان من وضع الحرب وإيثار الحكمة واختيار الحَكَمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما مهما يكن حكمهما واستنصار الأمة كلها على من خالف عما فى هذه الصحيفة .

ففيم كانا يختلفان بالفعل ؟ كان معاوية يطالب بدم عثمان ويريد أن يسلم إليه علي قتلة الخليفة المظلوم ، وكان علي لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه ولا يقدر على أن يسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قتل . أفكان الفريقان يريدان من الحَكَمين أن يفصلا فى هذه القضية ؟ وإذًا فما بالهما لم ينصا عليها بل لم يذكرا عثمان وقتلته فى الصحيفة أصلاً . وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير وبعد أن استحصد أمره واشتد بأسه أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وكان علي يرى أنه بويع كما بويع الخلفاء من قبله .. بايعه أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد ، وبايعه أهل الأمصار إلا الشام .. فقد اجتمعت له إذًا بيعة الكثرة الكثير من المسلمين عامة ومن المهاجرين والأنصار خاصة ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس ويدخل معه أصحابه من أهل الشام فإن لم يفعلوا فهم الفة الباغية التى أمر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح وكرهت العافية حتى تفئ إلى أمر الله ، وإذًا فما بال الفريقين لم ينصا على ذلك فى صحيفتهما بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى فى الصحيفة أصلاً .

وكان على وأصحابه وهم كثرة المسلمين يرون أن معاوية وأصحابه قد بغوا .. وقد أسفر علي إلى معاوية ومن معه من أهل الشام فردوا سفراءه وأبوا أن يكون بينه وبينهم إلا السيف ، ثم سبق معاوية وأصحابه إلى الماء فآثروا به أنفسهم وأرادوا تظميء علي وأصحابه فاقتتل الفريقان على الماء حتى خلص لعلي ثم أذن لمعاوية وأصحابه أن يردوا وأن يشربوا فهاتان طائفتان من المؤمنين قد اقتتلوا . ثم أرسل على سفراءه إلى معاوية يعرضون عليه أن يدخل فى

الطاعــة وألا يفرق المسلمين فلم يجدا عنده خيرًا فاقتتلوا أيامًا ثم توادعوا شهر المحرم ، وحاول علــي وأصحابه الصلح فلم يجدوا من أهل الشام استجابة إليه فاقتتلوا فى صفر وكان يجب أن يمضــوا فى القتال بحكم الآية الكريمة حتى يفيء معاوية وأهل الشام إلى أمر الله وحينئذ . تكف عــنهم الحــرب ويرفع عنهم السيف ويصبحون لخصمهم أولئك إخوانًا ويجب الإصلاح بين الأخويــن . وقد كاد جيش علي أن يظفر بالطائفة الباغية ويضطرها إلى أن تفيء إلى أمر الله ولكن المصاحف ترفع وإذًا الحرب تكف وإذا القوم يدخلون فى حومة غامضة مبهمة لاحظ لها مــن وضوح أو جلاء ، فلم يخطئ الذين قالوا « لا حكم إلا لله » إذ حكم الله هو أن يستمر القــتال حــتى يخضع معاوية وأصحابه وليس أدل على ذلك من أن عليًا نفسه وهو الإمام أبى أن ينخدع برفع المصاحف وقال : « إن معاوية ورهطه الأدنين ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وإنما هم يكيدون ويخادعون ويتقون حر السيف » .. فقد كان الإمام يرى ألا حكم إلا لله وأن الســبيل إلى حكم الله هو القتال حتى يذعن أهل الشام ولكن كثرة أصحابه لم تذهب مذهبه واســتكرهته على غير ما أحب فكانت هذه الحكومة . وهنا يبدأ خطأ هؤلاء الذين حكموا ، كانوا على صواب حتى شاوروا الإمام فنصح لهم واستأنى بهم وأمرهم بالقصد وهم ليسوا أعلم بالقــرآن من علي ولا أحفظ منه للسنة ولا أبصر منه بالمصلحة .. وقد ينبغى أن يترك للإمام شيء من حرية يمضى به الأمر بين رعيته فهذه كثرة أصحابه تطالبه بالسلم والحكومة وهذه قلة أصحابه تطالبه بالحرب ورفض الحكومة وأولئك وهؤلاء يركبون رءوسهم ويغلون فيما يذهبون إليه وليس للإمام خيار إلا أن يمضى مع الكثرة إلى السلم والحكومة والأمل فى صلح يحقن الدم ويجمــع الشــمل أو يمضــى مع القلة إلى الحرب واليأس المبير .. وقد أثر المضى مع الكثرة فكان على القلة أن تؤثر ما آثرت محتفظة برأيها منتظرة مع الإمام فإن كان الصلح المقنع فذاك وإن لم يكــن رجعــت الكــثرة إلى رأى القلة وعادوا جميعًا إلى الحرب . ولكن كلا الفريقين مــن الكثرة والقلة أبى أن يتبع إلا رأيه والحاز علي إلى الكثرة كارهًا .. ولم يمضى يومان على كــتابة الصــحيفة الفقهما القوم فى دفن القتلى حتى أذن مؤذن علي فى أصحابه بالرحيل عن صــفين ، فــرجعوا إلى الكوفة شر مرجع .. خرجوا منها أشد ما يكونون مودة وإلفًا وتصافيًا وعــادوا إليها أشد ما يكونون موجدة وفرقة واختلافًا يتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، تقول القلة للكثرة : خالفتم أمر الدين والحرفتم عن حكم القرآن وحكمتم الرجال فيما لا حكم فيه إلا لله . وتقول الكثرة للقلة : خالفتم الإمام وفرقتم الجماعة وابتديتموها عوجًا ، ثم لم يدخلوا

الكوفة جميعًا وإنما انحازت المحكمة إلى حروراء فاعتزلوا فيها وكانوا ألوفًا يصل بها المكثرون إلى اثنى عشر ألف ويهبط بها المقللون إلى ستة آلاف .. وقد اعتزلوا فى حروراء فنسبوا إليها وأذن مؤذنهـــم أن على الحرب شبث بن ربيعى التميمى وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى والبيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومنذ ذلك اليوم نشأ فى الإسلام حـــــزب جديد كان له فى تاريخه أثر بعيد . ودخل علي الكوفة منقلبه من صفين كما دخلها منقلـــبه من البصرة فلم ير فى مدخله هذا كما لم ير فى مدخله ذاك فرحًا بقدومه ولا ابتهاجًا بلقائـــه وإنما رأى فى مدخله هذا كما رأى فى مدخله ذاك لوعة وحسرة وبكاء إلا أن ما رأى مـــن ذلك بعد عودته من صفين كان أكثر كثرة وأشد نكرًا فقد كان قتلى صفين بالقياس إلى قتـــلى يوم الجمل أضعافًا وأضعافًا . فلم يكن علي وأصحابه مطمئنين إلى خروج هذه الخارجة التى انتبذت من الجماعة مكانها بحروراء ، ولم تكن هذه الجماعة نفسها مطمئنة الاطمئنان كله إلى مـــا هى مستقبلة من أمرها وآية ذلك أنهم أقاموا على حربهم شبث بن ربيعى التميمى فلم يلبـــث إلا قليلاً حتى رجع إلى الكوفة وأقام مع الجماعة على ما كانت مقيمة عليه وكان على يرجو أن يستصلح هؤلاء الناس وكان هؤلاء الناس أنفسهم يأملون أن ينتهى الأمر بينهم وبين قومهـــم إلى مخرج من هذا المأزق الذى تورطوا فيه فكانوا يوفدون وفودهم إلى علي يفاوضونه ويدعونه إلى استئناف القتال مع عدوهم من أهل الشام وكان علي يرد على أولئك الوفود بأنه لم يكره القتال وإنما هم الذين كرهوه وجزعوا منه وبأنه قد أعطى معاوية وأصحابه ميثاقًا على القضية فليس ينبغى له إلا أن ينزل على ما أعطى من الميثاق وكانت الوفود ترجع إلى أصحابها بما سمعت من كلام علي فيزداد إصرارهم على المقاطعة والمخاصمة ثم أرسل إليهم علي عبد الله بـــن عـــباس فى جماعة من أصحابه فناظرهم تلك المناظرة المشهورة عند أهل الفرق وأصحاب الكلام .

والمرجح أن عليًا اكتفى أول الأمر بإرسال ابن عباس فى جماعة من أصحابه فلما رأى أنهم لم يغـــنوا الغناء الذى كانوا يرجوه ذهب بنفسه إلى الخوارج بعد أن أرسل إليهم فى أن يندبوا للمناظرة اثنى عشرة رجلاً منهم ويأتى هو فى مثلهم ، ثم خرج علي حتى أتى فسطاط يزيد بن مالك الأرحبى وكان الخوارج يعظمونه ويطوفون به فصلى فى الفسطاط ركعتين ثم تقدم فناظر الناس .. سمع منهم حجتهم وهى واضحة ثم رد عليهم بما تعود أن يقول دائمًا من أنه لم يكره القـــتال ولم يدع إلى تركه وإنما كرهه أصحابه واستكرهوه على وضع الحرب كما استكرهوه

عـلى قـبول الحكومة .. وكأن الخوارج قبلوا منه أن يذعن حين استكرهه أصحابه على ترك القتال ولكنهم لم يفهموا كيف استكرهوه على قبول الحكومة ، فهو لا يستطيع أن يقاتل وحده ولا يسـتطيع أن يقـاتل بالقلة من أصحابه حين ينخذل عنه أكثرهم .. ولكنه فى رأيهم كان يستطيع أن يرفض الحكومة وليس لأحد أن يكرهه عليها فرد عليهم بأنه كره أن يتأول الناس عليه قول الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِـيَحْكُمَ بَيْـنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ . كما كره أن يتأول الناس عليه آية التحكـيم فى الصـيد وآيـة التحكيم فى الشقاق وقالوا : فلم لم تثبت فى الصحيفة أنك أمير المؤمـنين ؟ أتـراك شـككت فى إمرتك ؟ قال علي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم محا مـن صـحيفة الحديبـية وصفه بأنه رسول الله وما شك فى نبوته ولا فى رسالته . ثم عاد إلى أمـر الحَكَمين فقال : إنه أخذ عليهما العهد أن يحكما بما فى كتابه الله . فإن وفيا بما أعطيا من العهد فالحكم له ما فى ذلك شك ، وإن خالفا عما فى كتاب الله فلا حكم لهما وليس بد حينئذ من النهوض لحرب أهل الشام .

إلا أن الـرجلين الذين اخترتموهما حَكَمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهورهما وارتأيا الـرأى من قبل أنفسهما ، فأماتا ما أحيا القرآن وأحييا ما أمات القرآن ثم اختلفا فى حكمهما فكلاهما لم يرشد ولم يسدد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين : فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسيرة وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله .

ومع هذا كله لم يرد علي أن يهيجهم وإنما أزمع المضى إلى الشام وقال : لعلهم يتدارسون أمـرهم ويثوبون إلى رشدهم ولكن الأنباء تصل إليه بأنهم قد نشروا الفساد فى الأرض فقتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت ، وخبّاب من خيار الصحابة وقتلوا نسوة كُنّ مع عبد الله وجعلوا يستعرضـون الـناس ويشيعون الذعر ، فأرسل إليهم علي رجلاً من أصحابه يسألهم عن هذا الفساد ويطلب إليهم أن يسلموا إليه أولئك الذين استحلوا قتل النفس التى حرّم الله بغير الحق ، فـلم يكـد الرسول يدنو منهم حتى قتلوه .. وجاء الخبر عليًا فكره أصحابه أن ينهضوا إلى الشـام ويتركوا من ورائهم هؤلاء الخوارج يفسدون فى الأرض ويستبيحون أموالهم وعيالهم وهـم غائبون .. وألحوا على إمامهم فى أن ينهض بهم إلى هؤلاء الخوارج حتى إذا فرغوا منهم تحولـوا إلى عدوهم من أهل الشام فحاربوا وهم مطمئنون على ما وراءهم .. وسمع لهم علي

فســـار بهم إلى النهروان حتى إذا صار بإزاء الخوارج جعل يطلب إليهم قتلة عبد الله بن خبّاب ومن كان معه وقتلة رسوله إليهم فلا يظفر منهم إلا بجواب واحد هو : « كلنا هؤلاء القتلة » وجعـــل علي يعظهم بالكتابة مرة وبالخروج إليهم ووعظهم مشافهة مرة أخرى ، وقد أجدى وعظه هذا فجعل كثير من الخوارج يتسللون ويعودون إلى الكوفة وجعلت طوائف منهم تعتزل جـــيش الخـــوارج ، مـــنهم من يعود إلى جيش علي ومنهم من يعتزل الحرب دون أن يعود إلى الجماعـــة حتى لم يبق حول عبد الله بن وهب الراسى ذى الثفنات رئيس الخوارج إلا ثلاثة آلاف أو أقل من ذلك أو أكثر من ذلك قليلاً .. فلما استيأس علي من هؤلاء عبّأ جيشه وأمر بألا يبدؤوهم بقتال حتى يقاتلوهم .. ولم يكد الخوارج يرون التعبئة حتى تعبئوا .

ثم يشـــدون عـــلى جيش علي شدة منكرة تنفرج لها خيل على فرقين : فرق يمضى إلى الميمـــنة وفـــرق يمضـــى إلى الميسرة والخوارج يندفعون بين الفرقين فيلقاهم رماة علي بالنبل فيصـــرعون منهم خلقًا كثيرًا ، ثم يلتئم الفرقان من الخيل وما هى إلا ساعة حتى يقتل الخوارج عـــن آخـــرهم وفـــيهم رئيسهم ذو الثفنات وجماعة كانوا قبل التحكيم من أشد نصحًا لعلي وجهادًا فى سبيله لأنهم كانوا يرون سبيله هى سبيل الله .

ظن علي أن الأمور قد استقامت له فلم يبق إلا أن يرمى بجيشه هذا المنتصر أهل الشام ، ولكـــن الشئ الذى لم يكن يفكر فيه على ولم ينتبه إليه أحد يومئذ هو أن هذه الآلاف الثلاثة من الرجال الذين قتلوا كانوا كلهم من أهل العراق أكثرهم من أهل الكوفة وبعضهم من أهل البصـــرة ولـــيس مـــنهم إلا مـــن ينتمى إلى عشرة فى أحد هذين المصرين وكثير منهم كانت عشائرهم فى جيش علي ذاك الذى قتلهم .

وقد ابتهج أهل الكوفة فى حزن بعد يوم الجمل بانتصارهم على أهل البصرة ، وشجعهم هـــذا الانتصار على أن ينهضوا إلى صفين .. أما فى هذا اليوم – يوم النهروان – فأهل الكوفة يقتلون أهل الكوفة وأهل البصرة يقتلون أهل البصرة فأى غرابة فى أن يشيع الحزن فى القلوب وتغشـــى النفوس كآبة لا تؤذن بخير ؟ . وأى غرابة فى أن يدعوهم علي إلى النهوض إلى الشام فيعتل عليه رؤساؤهم منهم الصادق ومنهم الماكر الكاذب ؟ . يقولون له : قد نفدت الســـهام وتكســـرت السيوف ونصلت الرماح فأعدنا إلى مصرنا لنريح ونجدد أداتنا ثم ننهض معك إلى عدونـــا . ولا يكاد علي يعود بهم إلى معسكرهم فى النخيلة خارج الكوفة ويحرج عليهم ترك

المعســـكر ودخول المصر حتى ينظر فإذا هم يتسللون أفرادًا وجماعات حتى لا يبقى فى المعسكر إلا عـــدد يسير لا يغنون عنه شيئًا وحتى يضطر هو إلى أن يدخل الكوفة ويفكر فى الاستعداد مـــن جديد .. وكان معاوية قد بلغه نهوض علي إلى الشام فنهض فى أصحابه يسبق إلى صفين ولكـــن عليًا لم يقدم فلما عرف معاوية ما كان من أمره مع الخوارج ومن رجوعه إلى الكوفة وتخاذل أصحابه عن القتال عاد إلى دمشق موفورًا دون أن يلقى كيدًا .

يلتقون فيه فإذا التقوا أظهروا المعصية وسلوا السيف .وقد كانت حياة علي بعد النهروان محـــنة متصـــلة .. محنة شاقة إلى أقصى حدود المشقة .. كان يرى الحق واضحًا مضيئًا صريحًا له كما تضيء الشمس ، وكان يرى فى أصحابه من القوة والبأس ومن العدد والعدة ما يمكنه مـــن بلوغ هذا الحق وإعلاء كلمته ولكنه كان يرى أصحابه قاعدين عن حقهم متخاذلين عن نصره يدعون فلا يجيبون ويؤمرون فلا يطيعون ويوعظون فلا يتعظون قد أحبوا الحياة وكرهوا الموت وآثروا العافية وضاقوا بالحرب واستلذوا الراحة وسئموا التعب حتى أخذ معاوية ينتقص أطـــرافهم فى العراق ويغير على الأقاليم خارج العراق وعلي يدعو فلا يجاب ويأمر فلا يُطاع ويقول فلا يسمع له إلا قليل من أصحابه لا يكادون يغنون عنه شيئًا .

ثم لم تقـــف محنـــته فى أصحابه عند هذا الحد ولكنها تجاوزته إلى شر منه وأقسى .. فقد استبان له بعد قليل أن انتصاره فى النهروان لم يغن عنه شيئًا على ما كلّفه من مشقة وما أعقب فى نفســـه وفى نفوس أصحابه من حزن وحسرة ، فهو لم يقتل الخوارج فى النهروان وإنما قتل منهم جماعة ليس غير وقد ظل الخوارج معه بعد ذلك يعايشونه فى الكوفة ويعايشون عامله فى البصرة وينبثون فى أطراف السواد بين المصرين .

وقد رسمت الظروف لهؤلاء الخوارج خطة محتومة لم ينحرفوا عنها قط أثناء تاريخهم وهى أن يكيدوا للإمام ويمكروا به ويخذلوا عنه ويحرضوا عليه ويدعون إلى مذهبهم حين لا تواتيهم القوة ولا يسعفهم اليأس ، فإذا كثر عددهم واستطاعوا مكابرة السلطان خرجوا من أمصارهم مستخفين أو ظاهرين ثم ابتعدوا مكانًا يلتقون فيه فإذا التقوا أظهروا المعصية وسلوا السيف .

ومضى امتحان علي على هذا النحو المر .. خيانة من الولى وكيدًا من العدو .. وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة لا يرضى الدنية من الأمر ولا يدهن فى دينه ولا يتحول عن سياسته الصريحة قليلاً ولا كثيرًا والمحن تتابع عليه ويقفوا بعضها أثر بعض ، وهو فى طريقه

لا ينحرف عنه إلى يمين أو إلى شمال يبلغ منه الغيظ أقصـــاه ويضيق بحياته أشد الضيق فلا يزيد عـــلى أن يجمجم ويظهر غيظه دون أن يلفته شيء من ذلك عما صمم عليه . ولم يكد يفرغ مـــن أمر النهروان حتى امتحن فى دولته نفسها .. فقد أخذ معاوية يغير على أقطارها وينتقص أطـــرافها وقـــد أطاعـــه أهـــل الشام مخلصين فى الطاعة لا يناقشونه إذا أمرهم ويقبلون عليه إذا دعاهم .. وكانت نفسه قد تعلقت بمصر منذ نهض علي بالخلافة لقربها منه وبعدها من علي ولأن الثائرين من أهلها كانوا أشد أهل الأقاليم على عثمان وأسرعهم إلى الفتك به .. وقد همّ معاويـــة أن يصل بالكيد إلى ما أراد من مصر وكأنه قد بلغ بكيده ما أحب بعد خطوب طوال ثقـــال . كان علي قد ولّى قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجي أمر مصر ، وكان لهذا الأمـــر كفئًا ولهذا العبء حاملاً . قدم مصر وقرأ على أهلها عهد علي فقام الناس إليه فبايعوا لعلي واستقام له الأمر ، إلا أن فريقًا منهم اعتزلوا وكتبوا إلى قيس أنهم لا يريدون أن ينصبوا لـــه حـــربًا ولا أن يمنعوه خراجًا ولكنهم ينتظرون بالبيعة حتى يروا ما يصير إليه أمر الناس .. فوادعهم قيس ولم يهجهم ثم كتب إليه معاوية وعمرو بن العاص يستميلانه إليهما فرد عليهما ردًا رقيقًا لم يؤنسهما من نفسه ولم يطمعهما فيها ، وإنما أراد أن يتقى شرهما ويأمن مكرهما فى إقليمه هذا البعيد من مركز الخلافة .. ولكن معاوية لم يرضى منه بذلك وإنما كتب إليه ليعرف الصريح من رأيه وليتبين أصديق هو أم عدو .. فلما استيأس منه فسد الأمر بينهما حتى كتب إلـــيه يســـبه ويدعـــوه .. اليهودى ابن اليهودى .. فردّ عليه قيس سبًا بسبٍّ ودعاه الوثنى ابـــن الوثنى ووصفه وأباه بأنهما دخلا فى الإسلام كارهين وخرجا منه طائعين .. فعرف معاوية أن أمر قيس لن يستقيم له بالكيد الرقيق ولا بالنذير العنيف ، فلم يكد له فى مصر وإنما كاد له فى العـــراق .. كتب على لسانه كتابًا أظهر فيه انحرافه عن علي وغضبه لعثمان ومطالبته بدم الخلـــيفة المظلـــوم ، ودسّ الكتاب إلى أهل الكوفة .. فأما علي فلم يصدق ما جاء فى الكتاب ولم يـــزد على أن قال لأصحابه : إنى أعلم بقيس منكم وليست هى فعلة من فعلاته .. ولكن أصـــحابه صدقوا وثاروا وألحوا فى عزل قيس .. وتريث علي مع ذلك وكتب إلى قيس يأمره أن يـــناجز القـــوم الذين اعتزلوا ولا يقبل منهم إلا البيعة .. فأجابه قيس متعجبًا من إسراعه إلى حـــرب هـــؤلاء القوم الوادعين طالبًا إليه أن يخلّى بينه وبين إقليمه يديره كما يرى ، لأنه قريب وعلي بعيد ولأنه يخشى إن هاج هؤلاء الناس أن يفسد عليه الأمر وأن يجدوا من قومهم من ينصرهم وأن يستعينوا بمعاوية فيعينهم . ولم يشك أهل الكوفة بعد أن عرفوا ذلك من أمر

قيس فى أنه قد أضمر الشـــر وخالف عن أمر إمامه فألحوا فى عزله ومازالوا يلحون حتى عزله علي وولى مكانه محمد بن أبي بكر .

فلما وصل محمد بن أبي بكر إلى مصر رحل عنها قيس إلى المدينة فلم يقم فيها إلا قليلاً ، ثم قدم على علي فشهد معه صفين ونصح له فى المحضـــر والمغـــيب .. ودعا محمد بن أبي بكر أولـــئك المعتزلة إلى الطاعة فلما أبوا عليه أخذ فى حربهم فأرسل إليهم جندًا لم يلبث أن الهزم وأرسل إليهم جيشًا آخر لم يلبث أن الهزم أيضًا .. وثار هؤلاء الناس قوم من أنصارهم وظهرت الدعـــوة للثأر بعثمان فى مصر ، واضطرب أمر الإقليم وعرف علي ذلك فولّى الأشتر النخعى مصـــر وعزل عنها محمد بن أبي بكر .. ولكن الأشتر لم يكد يصل إلى القلزم حتى مات وأكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية أغوى صاحب الخراج فى القلزم وحط عنه الخراج ما بقى فاحتال فى مـــوت الأشتر وبأن هذا الرجل دسّ للأشتر سمًا فى شربة من عسل فقتله ليومه أو لغده .. وكـــان معاوية وعمرو يتحدثان فيقولان : إن لله جندًا من عسل . ثم جهز معاوية جيشًا لغزو مصـــر وأمّر عليه ابن العاص .. واضطر علي إلى أن يثبّت محمد بن أبي بكر فى ولايته ويأمره بالتحرز والاحتراس ويعده بإرسال المال والجند ، وجعل يدعو أهل الكوفة إلى نصر إخوانهم فى مصر فلم ينتدبوا لذلك فلما اشتد عليهم فى الإلحاح انتدب له جند ضئيل .. فأرسلهم علي إلى مصر ، ولكنه لم يلبث أن تلقى الأنباء بأن عمرًا قد دخل مصر فاحتازها وأن محمد بن أبي بكر قـــد قتل وحرقت جثته فى النار ، فرد جنده الضئيل وخطب أهل الكوفة لائمًا مشتدًا فى اللوم كعادته ولكن أهل الكوفة لم يزيدوا على أن سمعوا ثم تفرقوا . ومنذ ذلك اليوم انقسمت الدولة الإسلامية شطرين : شطر المغرب وأمره إلى معاوية وقوامه الشام ومصر وما فتح على المسلمين من أفريقيا وما وراء ذلك من أرض كانت تنتظر الفتح ، وشطر المشرق وأمره إلى علي وقوامه العراق وما فتح على الفرس وجزيرة العرب .. على أن معاوية لم يقنع بما احتاز من هذا المغرب وإنمـــا أطمعه انتصاره واجتماع أصحابه عليه وطاعتهم له وكيده لعلي فى العراق ونجاحه فيما كـــان يحـــاول مـــن استهواء أصحاب علي .. فلم يلبث أن فكر ثم حاول يخطئه النجاح فيما فكـــر ولا فيما حاول ولم يفكر فى أقل من أن يغزو أهل العراق فى عقر دارهم ، ولم يحاول أقل من أن يشيع الذعر والهلع فيما بقى لعلى من الأرض .

ومع أن معاوية لم ينجح فيما قصد إليه من أخذ البصرة كما أخذ مصر أو إثارة الفتنة فيها والكيد لعلي ، ولم يزد على أن أرسل ابن الحضرمى إلى الموت المفكر فإنه على ذلك قد أفسد من أمر البصرة شيئًا كثيرًا .. فليس قليلاً أن يثير فيها الفتنة وقتًا طويلاً أو قصيرًا وأن يلجئ زيادًا وبيت ماله إلى حى من أحياء العرب يجيرونه من سائر الناس صنيعة العرب فى جاهليتهم وأن يترك البلد مضطربًا قد اختلط فيه الأمر والتشرت فيه الضغائن والإحن وفسد بعض أهله على بعض ، ثم هو بعد ذلك قد انتفع بالتجربة وعرف أن الحرب الظاهرة المجاهرة لعلي فى العراق لم يئن أوانها بعد فاتخذ لنفسه خطة أخرى ليست أقل من الحرب الظاهرة شرًا ولا أهون منها شأنًا ، ولعلها أن تكون أشد ترويعًا للنفوس وإشاعةً للذعر ونشرًا للقلق ، ولعلها أن تكون أبلغ فى إشعار أهل العراق بالخوف المتصل والفزع المقيم وإقناعهم بأن سلطان علي قد بلغ من الضعف والوهن وكلال الحد أنه أصبح لا يغنى عنهم شيئًا ولا يدفع عنهم شرًا ولا يرد عنهم مكروهًا وإنما هم معرضون لمعاوية يصيب من أموالهم ودمائهم ما شاء ومتى شاء وكيف شاء .

والشيء المحقق هو أن معاوية قد طمع فى علي وأهل العراق فاتخذ خطة الهجوم الخاطف المتصل وألزم خصمه خطة الدفاع البطيء الذى لا يدفع شرًا ولا يصلح فسادًا .

وأمعن معاوية فى هذه التجارب فتجاوز بغاراته العراق إلى بلاد العرب .. وكانت بلاد العرب موطأة لمعاوية .. فمكة حرام لا يقاتل أهلها ولا يحب أحد من الخصمين أن يقاتل حولها، وأهل المدينة وادعون يرون أن مكانهم من دار الهجرة ونزولهم حول مسجد النبى وانتقال السلطان عنهم إلى الكوفة قد أمنهم أن يغير عليهم أحد ومقاتلتهم بعد ذلك .. فقد لحق أكثرهم بعلي ولحق أقلهم بمعاوية . وفى اليمن شيعة لعثمان يناوئون عامل علي عليها وهو عبيد الله بن عباس ، ولكنهم لا يبلغون بمناوأته الحرب وإنما يضطرونه إلى أن يصطنع فيهم الشدة فيلقونه بالنكير .. وقد عظم أمر هذه الشيعة حتى كتب العامل فيهم إلى علي وأرسل علي من يحاول إصلاحهم ويرهبهم بمقدم الجند فكتبوا إلى معاوية يستنصرونه ويستحثونه .

وقد أقام معاوية فى الشام يرى ويسمع من أمر خصمه ما يزيده فيه طمعًا ، وها هو ذا قد طمع فى أن يرسل من قبله من يقيم للناس الحج فى الموسم .. وما له لا يفعل وقد بايعه أهل الشام بالخلافة ودانت له مصر واستقام له كثير من أهل البادية وضعف خصمه عن النهوض

لحـــربه ، بـــل ضعف حتى عن الدفاع عن سلطانه فى داخل حدوده نفسها . وكذلك أرسل معاويـــة يـــزيد بن شجرة الرهاوى أميرًا على الموسم يقيم للناس حجهم ، وكان يزيد عثمانيًا مخلـــص الحب لمعاوية ولكنه كان يكره القتال فى المكان الحرام والشهر الحرام .. فلما استيقن أن معاوية لا يرسله للحرب وإنما يرسله لأمر ظاهره الدين ومن ورائه السياسة مضى لمهمته .

وقد انتهت كل هذه الأمور بعلي إلى عزيمة أتمها الله له فيها كثير من اليأس وفيها كثير من المغامرة ، ولكنها كادت أن تبلغه مآربه لولا أن الناس يدبرون وأمر الله غالب والكلمة الأخيرة للقضاء المحتوم لا لما يدبرن .. فقد خطب علي أصحابه داعيًا لهم أن يتجهزوا لقتال أهل الشام محرضًـــا لهـــم عـــلى ذلـــك أشد التحريض كما تعود أن يفعل ، فسمعوا منه وانصرفوا عنه ولم يصـــنعوا شيئًا كما تعودوا أن يفعلوا ، فلما استيأس منهم دعا إليه رؤسائهم وقادتهم وأولى الأمـــر فـــيهم وتحدث إليهم حديثًا صريحًا لا لبس فيه ، وجعل تبعاتهم أمامهم يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم إن أمكن أن ترى التبعات بالعيون وتلمس بالأيدى ، وبيَّن لهم أنهم أرادوه عـــلى الخلافة دون أن يطلبها إليهم وعرضوا عليه بيعتهم دون أن يعرض عليهم نفسه ، ثم هم الآن يظهـــرون طاعـــة ويضـــمرون نكثًا .. وقد طاولهم حتى سئم المطاولة وانتظر نشاطهم لما يدعوهـــم إليه حتى ملّ الانتظار ووعظهم فى غير طائل وحرضهم فى غير عناء ، وقد أزمع أن يمضـــى لحـــرب خصمه فى الشام مع من تبعه من أهله ومن قومه فإن لم يتبعه منهم أحد مضى وحيدًا فقاتل حتى يبلى فى سبيل الله ويلقى الموت فى ذات الحق .

وكـــان الرؤســـاء والقادة قد استحيوا من علي واستخزوا فى أنفسهم وأشفقوا أن ينفذ ما صمم عليه فيمضى وحده أو فى قلة من الناس لقتال أهل الشام فيلحقهم بذلك عار أى عار وتصيبهم المحنة فى دينهم وفى نفوســـهم وفى أمورهم كلها ، فقام خطباؤهم إلى علي فأحســـنوا له القول وأخلصوا له النصح .. ثم تفرقوا عنه فتلاوموا ومضوا لإنجاز ما وعدوا به عليًا فجمع كـــل رئـــيس قومه فوعظهم وحرضهم حتى اجتمع لعلي جيش صالح قد تعاقد الجند فيه على الموت ، ثم أرسل علي معقل بن قيس يعبئ له أهل السواد ليضمهم إلى من اجتمع له فى الكوفة وأخذ يرسل إلى عماله فيما وراء العراق من شرق لادولة يدعوهم إلى النهوض إليه ليكونوا معه فى حـــربه ، وأرســـل زياد بن خصفة فى جماعة من أصحابه طليعة بين يديه وأمره أن يغير على

أطـــراف الشام ليروع أهلها .. وإن عليًا لفى هذا الاستعداد وقد تراءت له غايته إذا القضاء يقول كلمته فينقض عليه وعلى أهل العراق كل تدبير .

انتدب الخوارج عبد الرحمن بن ملجم الحميرى لقتل علي ، وانتدب الحجاج بن عبد الله الصريمى من تميم لقتل معاوية ، وانتدب عمرو بن بكر لقتل عمرو بن العاص .. واتفقوا على يوم بعينه ينفذون فيه ما صمموا عليه وحددوا ساعة لاغتيال هؤلاء الثلاثة وهى ساعة الخروج لصلاة الصبح من اليوم السابع عشر من شهر رمضان لعامهم ذاك سنة أربعين . وأقاموا فى مكة أشـــهرًا ثم اعتمروا فى رجب ثم تفرقوا ومضى كل واحد منهم لينفذ نصيبه من هذه الخطة .. فأما صاحب معاوية فعرض له فى الساعة الموقوتة من اليوم الموقوت فلم يبلغ منه شيئًا لأنه كان دارعًا فيما يقول بعض المؤرخين أو لأنه لم يصب منه مقتلاً فيما يقول بعضهم الآخر ، ولكنه هو أصاب حتفه .. وأما صاحب عمـــرو فعرض له فى الساعة الموقوتة كذلك ولكنه لم يصـــبه لأن عمـــرًا لم يخـــرج للصلاة فى ذاك اليوم .. منعته العلة فأناب صاحب شرطته خارجة بن حذافة العـــدوى وأصابه السيف فقتله ، وقتل عمرو بعد ذلك هذا المغتال الذى أراد عمرو فأراد الله خارجـــة .. وأما عبد الرحمن بن ملجم فأقام فى الكوفة يرقب يوم الموعد وساعته ، ثم أقبل من آخر الليل ومعه رفيق له اســتعانة على ما أراد فانتظرا خروج علي للصـــلاة فلما خرج تلقياه بســـيفهما وهو يدعو الناس لصلاتهم فأصابه سيف بن ملجم فى جبهته فبلغ دماغه ووقع سيف صاحبه فى جدار البيت وخرّ علي حين أصابته الضربة وهو يقول : « لا يفوتنكم الرجل » وقد أخذ عبد الرحمن بن ملجم وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار .

وحُمل علي إلى داخل داره وكان يدعو الناس لتركه واللحاق بصلاة الفجر .. ويروى المؤرخون أن قاتل علي لقيه بالســـيف وهو يقول : الحكم لله يا علي لا لك .. وعنـــدما يأتون له بالمجرم وهو على فراشه يفتح علي عينيه ويراه ويقول له « أهو أنت ؟ لطالما أحسنت إليك » وعـــندما يرى المصير الذى يحيق بالمجرم يلتفت إلى المحيطين به قائلاً : « أحسنوا نزله وأكرموا مـــثواه . فإن أعش فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا ، وإن أمت فألحقوه به أخاصمه عند رب العالمين » .

« يا بنى عبـــد المطلب لا ألفيتكم تخوضـــون دماء المسلمين تقولون قُتل أمير المؤمنين ، ألا يقتلن أحد إلا قاتلى ضربة بضربة ولا تمثيل بالرجل فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

إيـــاكم والمثلة ولو بالكلب العقور » وفاضت روح علي بن أبي طالب مع غروب يوم السبت التاســـع مـــن رمضـــان سنة ٤٠هـــ ، ولم يستخلف علي أحدًا بعده بل عندما سأله وفد من الصحابة أن يستخلف ابنه الحسن من بعده قال لهم « لا آمركم ولا أنهاكم أنتم بأموركم أبصر – ســأقول لــربي تركــتكم دون أن أســتخلف عليكم كما ترك الرسول المسلمين دون أن يستخلف عليهم » .

يقول بعض الشيعة إنه استخلف الحسن نصًا ، وكان الحسن رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة على كرهٍ منه فى أكبر الظن وقاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس من حديثها ولم يشارك فى المعارضة حين عظم الشر ، وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته ولكن الخليفة قتل رغم ذلك .

وعلى العموم فلم يعرض الحسن نفسه على الناس ولم يتعرض لبيعتهم وإنما دعا إلى هذه البيعة قيس بن سعد بن عبادة فبكى الناس واستجابوا ، وأخرج الحسن فأجلس للبيعة واشترط عـــلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم .. فلما سمع الناس منه تكـــراره لأمـــر الســـلم ارتابوا وظنوا أنه يريد الصلح وقال بعضهم لبعض : ليس هذا لكم بصاحب وإنما هو صاحب صلح .. وقد مكث الحسن بعد البيعة أو قريبًا من شهرين لا يذكر الحـــرب ولا يظهـــر اســـتعدادًا لهـــا حتى ألحّ عليه فى أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه ، فـــنهض لـــلحرب وقـــدم بـــين يديـــه أثنى عشر ألفًا من الجند جعل عليهم ابن سعد وجعل معـــه عبـــيد الله بن عباس ، وقوم يقولون إنه جعل على هذا الجند ابن عمه وأمره أن يستشير قـــيس بن سعد وسعيد بن قيس الهمدانى ولا يخالف عن رأيهما .. فمضى الجند وخرج الحسن فى أثرهم فى عدد ضخم من أهل العراق وكأنه خرج يظهر لهم الحرب ويدبر أمر الصلح فيما بيـــنه وبـــين خاصته .. حتى إذا بلغ المدائن تسامع الجيش ببعض ذلك فاضطرب الناس وماج بعضـــهم فى بعـــض واقتحموا على الحسن فسطاطة وعنفوه تعنيفًا شديدًا حتى التهبوا متاعه ، فخرج الحسن يريد المدائن وطعنه رجل فلم يصب منه مقتلاً .

وقـــد أقام الحسن فى المدائن حتى برئ من جرحه وتعجّل السلم فى أثناء ذلك ، ثم رجع إلى الكوفة فاستقبل فيها سفراء معاوية الذين أعطوه كل ما أراد : أعطوه الأمان له ولأصحابه

كافة ، وأعطوه خمسة ملايين من الدراهم كانت فى بيت المال بالكوفة ، وأعطوه خراج كورتين من كور البصرة ما عاش .. وبينما كان الحسن يفاوض فى الصلح كان عبيد الله بن عباس يتعجل السلم لنفسه ويترك جيشه إلى معاوية دون أن يستخلف عليه أحدًا . رشاه معاوية بالمال فلم يستطع أن يعصى المال .. وكذلك انحرف عبد الله بن عباس عن علي وانحرف عبيد الله بن عباس عن الحسن .. كلاهما ينحرف عن صاحبه فى أشد الأوقات حرجًا وأعسرها عسرًا .. ونهض قيس بن سعد بأمر هذا الجند حتى جاءه أمر الحسن بالدخول فى طاعة معاوية ، فأظهر الناس على ذلك وخيّرهم بين أن يدخلوا فيما دخل فيه إمامهم وأن يقاتلوا عدوهم على الحق بغير إمام .. فاختاروا العافية ووضعت الحرب أوزارها وفتحت الطريق لمعاوية إلى الكوفة فدخلها موفورًا وبايع له الناس ولم يبايع قيس بن سعد إلا بعد خطوب .

وقد عرض معاوية على الحسن ثلاثة أشياء : أن يجعله ولى عهده وأن يجعل له راتبًا سنويًا من بيت المال ألف ألف درهم وأن يترك له كورتين من كور فارس يرسل إليهما (عماله) ويصنع بهما ما يشاء .. ثم أعطى على نفسه العهد المشدد المؤكد أن يؤمن الحسن من كل غائلة .

وكأن الحسن أراد أن يصطنع شيئًا من اللباقة فاحتفظ بشروط معاوية ، وطلب إلى معاوية مزيدًا هو تأمين الناس .. ولكن معاوية كان أدهى من ذلكِ وأبرع كيدًا فقد أعطى ابن أخته طومارا (ورقًا) ختم فى أسفله وقال له : اكتب ما شئت فجاء عبد الله بن الحارث بهذا التفويض إلى الحسن فكتب فيه الحسن : (هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان ، صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين ، وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، وعلى ألا يبغى الحسن بن على غائلة سرًا ولا علانية ، ولا يخيف أحدًا من أصحابه .. وشهد عبد الله بن الحارث وعمرو بن سلمة ، ثم ردّ عبد الله بن الحارث إلى معاوية بكتابه هذا ليشهد عليه من أصحابه ففعل وتم الصلح ، ولكنه لم يتم دون أن يترك بين الرجلين شيئًا من اختلاف الرأى وسوء التفاهم .

ومن أجل اختلاف الرأى هذا طلب الحسن إلى معاوية بعد أن استقام له الأمر أن يفى له بشـــروطه المالية فأبى عليه معاوية وقال له : « ليس لك عندى إلا ما شرطت لنفسك » وكأن الحســـن أراد تحكيمًا وكأنه أراد أن يحكم سعد بن أبي وقاص ، فلم يقبل معاوية تحكيمًا ولكنه على ذلك أرضى الحســـن بما أعطاه وما فرض له من المال . ويكثر المؤرخون والرواة بعد ذلك فزعم قوم أن معاوية وفى بالشروط للحسن ثم أغرى أهل البصرة سرًا فطردوا عمّال الحسن من الكورتين وأبوا أن يدفعوا إليه شيئًا من خراجهما وقالوا: هذا فيئنا وليس لأحد غيرنا فيه حق .. والأمر كما رأيت أيسر من ذلك .. والشيء الذى ليس فيه شك هو أن معاوية قد برّ الحسن وأرضاه بالمال فلم يجد فى حياته عسرًا ولا ضيقًا وإنما عاش فى المدينة عيشة الغنى السخى الذى يـــنفق عن سعة ولا يحسب للمال حسابًا .. ومهما يكن من شيء فقد سار معاوية إلى الكوفة مطمئنًا راضى البال ينشر من حوله الرضى والطمأنينة ، واستقبله الحسن فبايعه وبايعه الناس ، وكأن معاوية أراد أن يعلن الحسن رضاه عن هذا الصلح واطمئنانه إلى النظام الجديد .

وقد فرغ الحسن من هذا الأمر كله وارتحل بأهل بيته إلى المدينة وترك معاوية فى الكوفة يدبـــر أمر دولته الجديدة كما يشاء ، ولكن الحسن لم يكد يبعد عن الكوفة حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه فأبى الحسن أن يعود .

ولم يكد الحسن يترك الكوفة فى طريقه إلى المدينة حتى أظهر معاوية لأهل العراق شدةً بعد لين وعنفًا بعد رفق ، فأعلن إليهم أول الأمر ألا بيعة لهم عنده حتى يكفوه بوائقهم ويردوا عنه خوارجهـــم هؤلاء الذين خرجوا عليه ، فمضى أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم كما كانوا يقاتلوهم أيام علي واستبان لهم أن أمرهم لم يتغير وأنهم كانوا يقاتلون أبناءهم وإخوانهم وأولى مودتهم ليطيعوا عليًا ثم هم الآن يقاتلونهم ليطيعوا معاوية .

وقد ولّى معاوية المغيرة بن شعبة أمر الكوفة وولى عبد الله بن عامر أمر البصرة فعاد إليها بعد أن كان قد فارقها بقتل عثمان ، وعاد معاوية إلى الشام يدبر أمر دولته من دمشق .. وقد جعل أهل العراق يذكرون حياتهم أيام علي فيحزنون عليها ويندمون على ما كان من تفريطهم فى جنـــب خليفتهم ويندمون كذلك على ما كان من الصلح بينهم وبين أهل الشام ، وجعلوا

كلما لقى بعضهم بعضًا تلاوموا فيما كان وأجالوا الرأى فيما يمكن أن يكون .. ولم تكد تمضى أعوام قليلة حتى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن والقول له والاستماع منه .

وهـــنا يختلف المؤرخون والرواة .. فقد توفى الحسن رحمه الله سنة خمسين للهجرة .. فأما الشيعة فيرون أن معاوية قد دسّ إليه من سمه ليخلو له ولأبنه وجه الخـــلافة .. وأما مؤرخـــو الجماعة من أهل السنة فيرون ذلك ويكثرون من روايته ولكنهم لا يقطعون به .. ومن المحدثين مـــن يرويه ولكنه يراه بعيدًا لا لشيء إلا لأن معاوية قد صحب النبى فلا يليق به أن يأتي مثل هذا الأمر البغيض .

وما ينبغى أن يذكر هو أمر الحسين بن علي .. فإن الحسين لم يكن قد نصّب نفسه للبيعة ولم يكن إمامًا للمسلمين ولم يكن معاوية قد صالحه ولا وعده ولا شرط له .

ومـــع ذلـــك فـــلم يتردد معاوية فى أن يبايع بولاية العهد لابنه يزيد ، وأكره الحسين كمـــا أكـــره غـــيره من شباب المهاجرين على أن يسكتوا عن هذه البيعة التى كانوا ينكرونها فى أنفســـهم أشـــد الإنكار .. ومهما يكن من شيء فقد صارت إرادة الشيعة إلى ابن عبد الله الحسين بن علي رحمه الله بعد وفاة أخيه .

وقد أتيحت له هذه الفرصة شيئًا ما حين صارت إليه رياسة الشيعة ، لأن الفرصة لم تتح كاملة فقد أصبح ســـيد قومه ورئيس حزبه ولكنه بايع معاوية .. وما كان له أن ينقض بيعتـــه أو ينحرف عما أعطى على نفسه من العهد والميثاق .. وكان الحسين صاحب فطنة حسن النظر فى الأمور .. رأى الدولة منقادة لمعاوية قد ضبطت له أمصارها وعرف هو كيف يسوس الناس بالحلم والرفق والسخاء وكيف يولى فى الأمصار من يسوسون أهلها بالقسوة الصارمة والخوف السخيف ، فلم يحاول الخروج حين أتيحت له الفرصـــة بما كان من نقض معاوية لما بايع الناس علـــيه مـــن الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله .. وقد نقض معاوية هذه البيعة ما فى ذلك شك ونقضـــها مرتين إحداهما حين قتل من قتل من أهل الكوفة والثانية حين بايع بولاية العهد لابنه يزيد وجعل الخلافة وراثة بنقلها لابنه كما ينقل إليه ماله ، مع أن أمر الخلافة ليس ملكًا خاصًا للخليفة وإنما هو ملك عام لجماعة المسلمين .. وكان إسراف معاوية فى أموال المسلمين وتوليته الجـــبابرة على الأمصار وإسراف أولئك الجبابرة فى أموال الناس ودمائهم كل ذلك كان نقضًا منه للبيعة التى أعطاها للناس تبرئ ذمة الحسين لو أراد الخروج .. وقد همّت عائشة نفسها أن

تخرج بعد قتل من قتل معاوية من أهل الكوفة ولكنها أشفقت أن تثير فتنة عقيمة كالتى أثارتها حين خرجت مع صاحبها مطالبة بدم عثمان ، فكفت نفسها عن الخروج .. وقد رأى الحسين أن الأمـــر لا يستقيم له إن همّ بالثورة فصبّر نفســـه على ما تكره ولكنه غيّر سياســـة أخيه التى ساس بها الحزب فأطلق لسانه فى معاوية وولاته حتى أنذره معاوية ثم أغرى حزبه بالاشتداد فى الحـــق والإنكـــار على الأمراء ففعلوا وكانت الكوفة خاصة مركز المعارضة العنيفة لمعاوية وعامله زياد .

وكـــان معاويـــة قـــد استحدث فى الإسلام ما غيّر به السنة الموروثة تغييرًا خطيرًا وهو اســـتخلاف ابنه يزيد بعده على سلطان المسلمين .. ولم يكره المسلمون شيئًا فى الصدر الأول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة .. فقد عهد أبو بكر إلى عمر ولم يخطر له أن يعهد إلى أحد من بنيه ، وزجر عمر من طلب إليه أن يعهد لعبد الله ابنه، ولم يخطر لعثمان أن يعهد إلى أحد .. ولا ينبغى أن يقال أعدل عثمان عن ذلك ؟ فقد لبث فى الخلافة اثنى عشر عامًا ، وأبى علي أن يستخلف وقال لأصحابه حين سألوه ذلك : أتركككم كما ترككم رسول الله .. وسأله الناس : أيبايعون الحسن ابنه ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

وقد كانت سيرة يزيد حين ولى أمر المسلمين مناقضة لسيرة أبيه أشد المناقضة ، ثم مناقضة بعد ذلك لسنة النبى وخلفائه الراشدين أشد المناقضة أيضًا .

وقـــد مات أبوه وهو عنه بعيد ، حتى احتاج الضحاك بن قيس إلى أن يقوم مقامًا فيعلن موت معاوية إلى الناس ونهوض ابنه يزيد بالأمر من بعده .

ولم يكن يزيد يحتمل أن يلتوى عليه أحد بطاعة وإنما كان يرى أن طاعته حق على الناس جميـــعًا ، فمـــن الـــتوى بها عليه فليس عنده إلا السيف .. وقد عرف أمر أولئك النفر الذين أكرههم معاوية إكراهًا على أن يسكتوا عن بيعته بولاية العهد حين لم يستطع أن يحملهم على قبولها .. وقد كانوا أربعة مات منهم واحد قبل معاوية وهو عبد الرحمن بن أبى بكر وبقى منهم ثلاثة فى المدينة هم : الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

أما الحسين بن علي فقد أقام بمكة رافضًا بيعة يزيد ، وعلت الرسل تتصل بينه وبين شيعة أهـــل البيـــت فى الكوفـــة وهم أكثر أهلها .. وقد استجابت هذه الشيعة للحسين .. ويقول

المؤرخون إنما هى التى بدأت فدعته إلى أن يأتى الكوفة ليكون أمامهم فيما أزمعوا من خلع يزيد وإخراج عامله النعمان بن بشير .

وعرف النعمان بن بشير بعض ذلك فلم يحاول أن يصل إلى مسلم ولا أن يعنف بأساس ، وإنما سار فيهم سيرة رجل من أصحاب النبى سار على سيرة علي فى الخوارج وسيرة المغيرة بن شعبة فى الخوارج والشيعة جميعًا ، وجعل يرفق بهم وينصح لهم ويحبب إليهم العافية . ويدعوهم إلى الوفـــاء بمـــا أعطوا على أنفسهم من البيعة ليزيد ، ويأبى على خاصتة الذين كانوا يأمرونه بالحـــزم حتى كتب بالأمر كله إلى يزيد .. فلم يكد يزيد يعرف ذلك من أمرهم حتى استشار سرجون مولى أبيه فأشـــار عليه بأن يضـــم الكوفة إلى ابن زياد عامله على البصـــرة ويأمره بالشخوص إليها من فوره ، ففعل وأقبل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة فدخلها وقد اضـــطرب أمره اضطرابًا شديدًا حتى اضطر النعمان بن بشير إلى أن يلزم قصر الإمارة لا يكاد يخرج منه ، فنهض ابن زياد بالأمر فى حزم لا يعرف أناة ولا بقيـــة ولا ترددًا .. وكان مســـلم بن عقيل قد أخذ البيعة على أكثر من ثمانية عشـــر ألفًا وكتب بذلك إلى الحســـين وألح عليه فى القدوم إلى الكوفة .

وقد وصل كتاب مسلم إلى الحسين بمكة فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة وجعل الناس يلحون عليه فى ألا يفعل يخوفونه بأمن يزيد وبطش ابن زياد وغدر أهل الكوفة .

ولكـــن الحسين مضى لوجهه ، ولم يمضى وحده وإنما احتمل معه أهل بيته وفيهم النساء والصـــبيان ولم يسمع لمشورة ابن عباس الذى أشار عليه إن لم يجد بدًا من المسير أن يترك أهل بيـــته وادعين آمنين وأن يدعوهم إليه إن استقامت له الأمور ، ولكنه أبى .. وما أراه أبى عنادًا أو ركوبًا لرأسه ، وإنما كان يعلم أن يزيد سيأخذه بالبيعة أخذًا عنيفًا فإن بايع غشّ نفسه وخان ضميره وخالف عن دينه لأنه كان يرى بيعة يزيد إثمًا ، وإن لم يبايع صنع به يزيد ما شاء .

ولما رأت الأعراب قدومه إلى العراق منابذًا ليزيد طمعوا فى صحبته والتظروا منها الخير ، فتبعه منهم خلق كثير .

ودنا الحسين من العراق وقد أرصد ابن زياد له الأرصاد ، وأمر رجلاً من أشراف الكوفة يقـــال له الحر بن يزيد على ألف من الجند وأمرهم أن يلقوا الحســـين فى مقدمة ذلك فيأخذوا

عليه طريقه ويحولوا بينه وبين الذهاب فى أى وجه من وجوه الأرض ، ولا يفارقوه حتى يأتيهم أمره .. ولما عرف الأعراف أنها الحرب تفرقوا عنه فلم يبق منهم أحد .. ولقى الحسين بن يزيد فى أصــحابه فـلما عــلم علمهم أراد أن يعظهم ويذكرهم فسمعوا ورضوا قوله ، ولكنهم لم يطــيعوه وإنمــا أطاعوا أميرهم ابن زياد .. ثم ندب ابن زياد لحرب الحسين رجلاً من أقرب الناس إليه هو عمر بن ســعد بن أبى وقاص ، فاستعفاه عمر فلم يعفه وأرســل معه جيشًا من ثلاثــة آلاف أو أربعة آلاف .. فمضى عمر حتى لقى الحسين فسأله فيم قدم ؟ قال الحسين ، كتب إليّ أهل المصر يستقدموننى ويبذلون لى نصرهم .. وأظهر كتبهم لعمر .. فعرضت هذه الكتب على بعض من أمضاها ممن حضر فكلهم أنكرها وكلهم جحدها مقسمًا أنه لا يعلم من أمرها شيئًا .. وقد عرض الحسين على عمر أن يختار خصلة من ثلاث : فإما أن يخلو بينه وبين طريقه إلى الحجاز ليعود إلى المكان الذى جاء منه ، وإما أن يسيّروه إلى يزيد بالشام ليكون بينه وبــين يزيد ما يكون ، وإما أن يخلوا بينه وبين الطريق إلى ثغر من ثغور المسلمين فيكون هناك كواحد من الجند الذين يرابطون بإزاء العدو له مثل مالهم من العطاء وعليه مثل ما عليهم من الجهــاد .. فأما عمر بن سعد فرضى وقال : اؤامر ابن زياد .. وكتب إلى ابن زياد بما عرض عليه الحسين فأبى إلا أن ينزل الحسين على حكمه .. وكتب بذلك إلى عمر وأرسل الكتاب إليه مع شمر بن ذى الجوشن وقال له : أقرئه الكتاب وانظر ما يصنع فإن نهض لقتال الحسين فأقم معــه رقيبًا عليه حتى يفرغ من أمره ، وإن أبى أو تثاقل فاضرب عنقه وكن أمير الجيش .. ولم يكد عمر بن سعد يقرأ كتاب ابن زياد ويعلم ما أمره به حامل الكتاب حتى نهض لقتال الحسين وطلــب إليه أن ينزل على حكم ابن زياد ، فأبى الحسين وقال : أما هذه فمن دونها الموت .. ثم زحــف عمــر بجيشه على الحسين وأصحابه وكانوا اثنين وسبعين رجلاً فقاتلوهم أكثر من نصــف النهار ، وأبلى الحسين وبنو أبيه وبنو عمومته ومن كان معه من أنصاره القليلين أعظم الــبلاء وأقساه فلم يُقتلوا حتى قتلوا أكثر منهم .. ورأى الحسين المحنة كأشنع ما تكون المحن : رأى إخوته وأهل بيته يقتلون بين يديه وفيهم بنوه وبنو أخيه الحسن وبنو عمه وكان هو آخر من قتل منهم بعد أن تجرع مرارة المحنة فلم يبق منها شيئًا .. وكان نفر يسير من أصحاب عمر بن سعد قد ضاقوا برفض ابن زياد ما عرض عليه الحسين من الخصال ففارقوا جيشهم وانضموا إلى الحســين فقاتلوا معه حتى قتلوا بين يديه .. ونظر المسلمون فإذا قوم منهم – على رأسهم رجل من قريش من أبناء المهاجرين أبوه أول من رمى بسهم فى سبيل الله وأحد العشرة الذين

شهد النبى لهم بالجنة وقائد المسلمين فى فتح بلاد الفرس وأحد الذين اعتزلوا الفتنة فلم يشاركوا فيها من قريب ولا بعيد – نظر المسلمون فإذا قوم منهم عليهم هذا القرشى عمر بن سعد بن أبي وقاص يقتلون أبناء فاطمة بنت رسول الله ويقتلون أبناء علي ويقتلون ابنى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب شهيد مؤتة ، يحزون رءوسهم ثم يسلبونهم ويسلبون الحسين حتى يتركوه متجردًا بالعراء ، ويصنعون بهم مالا يصنع المسلمون بالمسلمين ثم يسبون النساء كما يسبى الرقيق وفيهم زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ثم يأتون بهم ابن زياد فلا يكاد يرفق بهم إلا حياءً واستخزاءً حين قال له علي بن الحسين وقد كان صبيًا وهمّ زياد أن يقتله فقال له : إن كانت بينك وبين هؤلاء النساء قرابة فأرسل معهن إلى الشام رجلاً تقيًا رفيقًا . هنا ذكر عبيد الله أن أباه يدعى لأبي سفيان فاستحيا ولم يقتل الصبى وإنما أرسله مع سائر أهل الحسين إلى يزيد ، وقدّم رءوس القتلى بين أيديهم وفيها رأس الحسين وقد دخل به على يزيد فوضع أمامه فجعل ينكث فى ثغرة بقضيب كان فى يده .. وزعم الرواة أن أبا برزة صاحب النبى كان حاضرًا هذا المجلس فقال ليزيد : لا تفعل هذا فربما رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هذا لثغر مكان هذا القضيب ، ثم قام فانصرف .. وأدخل السبى على يزيد فاغلظ لهم أول الأمر ثم لم يلبث أن رفق بهم وبرّهم وأدخلهم على أهل ثم جهزهم بعد ذلك إلى المدينة وردهم إليها كرامًا .

وقد يقال إن الحسين قد ثار بيزيد ورفض بيعته وسار إلى الكوفة يريد أن يخرج أهلها عن طاعته ويفرق جماعة الناس ويرد الحرب بين المسلمين إلى ما كانت عليه أيام أبيه ، فلم يكن يزيد وأميره فى العراق بادئين فى الشر مثيرين للفتنة وإنما ذادا عن سلطانهما وحافظا على وحدة الأمة .. وقد كان هذا يستقيم لو أن الحسين مضى إلى حربه مصممًا عليها لا يقبل فيها مفاوضة ولا يقبل عنها رجوعًا ، ولكن الحسين عرض خصاله الثلاث تلك التى عرضها وكانت العافية فى كل واحدة منها .. فلو قد خلّى بينه وبين الرجوع إلى الحجاز ، لعاد إلى مكة التى لم يكن يجب أن تسفك فيها الدماء لأنها بلد حرام ولأنها لم تحل لرسول الله نفسه إلا ساعة من نهار .. ولو قد خلّى بينه وبين اللحاق بيزيد لكان من الممكن أن يبلغ يزيد منه الرضى على أى نحو من الأنحاء أو أن يقيم عليه حجة ظاهرة لا تقبل مراءً ولا جدالاً .. ولو قد خلّى بينه وبين المسير إلى ثغر من ثغور المسلمين لكان رجلاً من عامة الناس يجاهد العدو ويشارك فى الفتح لا يؤذى أحدًا ولا يؤذيه أحد من المسلمين .. ولكن أصحاب ابن زياد أبوا إلا أن يستذلوه

على حكم رجل لم يكن الحسين يراه كفؤًا ولا ندًا .. فلم يكن ماوقع من الشر إلا طغيانًا وإسرافًا فى التجبر والبغى .

إن ابن زياد لم يزد الفتنة إلا استعارًا وإن الشر يدعو إلى الشر والدماء تدعو إلى الدماء .. وهذا الإسراف فى القتل والتنكيل وبمن تركوا من الأطفال والنساء .. فقد سلب القتلى وفيهم ابن فاطمة وحفدها وسلب الأبناء قتلوا معًا فى يوم واحد وقتل علي بن الحسين الأكبر وأخوه عبد الله من حلى وثياب ومتاع .. واضطر يزيد بعد ذلك إلى أن يعوضهن ما أخذ منهن .. وكان علي رحمة الله يتقدم إلى أصحابه فى حروبه ألا يتبعوا هاربًا ولا يجهزوا على جريح ولا يأخذوا من المنهزمين إلا ما أوجفوا به من خيل أو سلاح .. وكان الأمر يجرى على ذلك فى صفين فسيرة ابن زياد هذه التى سارها فى الحسين وأصحابه كانت بدعًا منكرًا مما ألف المسلمون حتى فى فتنتهم الشنيعة ، ثم هو لم يلق من يزيد فى ذلك عقابًا ولا لومًا وإنما لقى منه رضى وإيثارًا .. وقد تمت بهذه الموقعة محنة لعلي فى أبنائه لم يمتحن بمثلها مسلم قط قبل هذا اليوم .. فقد قتل من بنيه الحسين بن فاطمة والعباس وجعفر وعبد الله وعثمان ومحمد وأبو بكر .. فهؤلاء سبعة من الأبناء قتلوا معًا فى يوم واحد وقتل علي بن الحسين الأكبر وأخوه عبد الله ابن الحسن وأخواه أبو بكر والقاسم ، وهؤلاء الخمسة من حفدة فاطمة .. وقتل من بنى عبد الله بن جعفر الطيّار محمد وعون .. وقتل نفر من بنى عقيل ابن أبى طالب فى الموقعة بعد أن قتل مسلم بن عقيل فى الكوفة ، وقتل غير هؤلاء سائر من كان مع الحسين من الموالى والأنصار .. فكانت محنة أى محنة للطالبين عامة وأبناء فاطمة خاصة .. ثم كانت محنة أى محنة للإسلام نفسه خولف فيها عما هو معروف من الأمر بالرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها وانتهك أحق الحرمات بالرعاية وهى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد التحرج ويتأثموا أعظم التأثم قبل أن يمسوا أحدًا من أهل بيته .. كل ذلك ولم يمض على وفاة النبى ﷺ إلا خمسون عامًا .. فإذا أضفت إلى ذلك أن الناس تحدثوا فأكثروا الحديث وألحوا فيه بأن الحسن قد مات مسمومًا لتخلص الطريق ليزيد إلى ولاية العهد، عرفت أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه إلى شرّ ما كان يمكن أن تصير إليه .

الفصل الثاني

أولاً : الفرق الإسلامية القديمة

١ ـ الشيعة

نشأت الشيعة كفرقة عقب اجتماع السقيفة بمجرد أن ذاع خبر البيعة لأبي بكر الصديق .. وهم يؤيدون موقف علي ومن تبعه فى الامتناع عن البيعة لأبي بكر – وتتفق جميع الآراء على ذلك ومنهم علماء الاستشراق .. ولكن غير الشيعة والمعتزلة ينكرون أن تكون الشيعة قد نشأت كفرقة فى ذلك الزمن المبكر ويؤرخون نشأتهم بعصر جعفر الصادق (٨٠– ١٤٨هـ / ٦٩٩ – ٧٦٥م) وهشام بن الحكم (١٩٠هـ – ٨٠٥م) والمعروف بقصد التشيع والشيعة معنى الميل إلى إمارة علي بن أبي طالب والطموح إلى تقديمه وتفضيله على غيره من الصحابة .. والحقيقة أننا سنجد جماعة غير منظمة تجمعها هذه الآراء والأماني السابق ذكرها قد ظهرت واستمر هواها مع علي وبنى هاشم دون أن يتعدى ذلك نطاق الهوى والأمنيات – والمعتدلون من الشيعة قالوا بأفضلية علي عن بقية الخلفاء ، والمتطرفون قالوا بتقديسه وعصمته وكفروا من ألفض عنه .. وكان أهم موطن للشيعة فى العراق لأنه مزدحم الآراء والمعتقدات ، وهو البلد الذى أقام به سيدنا علي والتفت حوله القلوب به .. ويقول البعض إن أصل المذهب الشيعى نزعة فارسية لأن العرب تدين بالحرية أما الفرس فيدينون بالملك الوراثى ولا يعرفون معنى الانتخاب للخليفة .. فلما توفى الرسول (ﷺ) ولم يترك ولدًا كان أحق الناس بالملك بعده ابن عمه علي بن أبي طالب ، ومن أخذ الخلافة منه كأبي بكر وعمر يعتبر مغتصبًا .. وعلى ذلك نظر الشيعة إلى علي وآل بيته نظرة تقديس وطاعة .. وأصبحت طاعة الإمام واجبة فى المذهب الشيعى لأنها طاعة الله فى نظرهم .. ويرى بعض المستشرقين أن الشيعة أخذت من اليهودية أكثر مما أخذت من الفارسية لأن عبد الله بن سبأ كان يهوديًا وتظاهر بالإسلام وكان أول من أظهر الدعوة إلى التقديس .

وقــد بــدأت الصراعات على السلطة بعد مبايعة سيدنا علي بالخلافة بعد مقتل عثمان ابن عفان ، وكان أولها الصراع بين سـيدنا علي وبين طلحة والزبير ، ثم بين سيدنا علي وبين معاوية من جانب والخوارج من جانب آخر .. وظهر أثناء هذا الخلاف أنصار سيدنا علي الذين حاربوا معه ونصروه ضد خصومه وأطلق عليهم شيعة علي أى أنصار إمارته للمؤمنين .

ولكــن هذا الوصف ليس هو المراد ولا المتبادر إلى الذهن إذا نحن تحدثنا فنيًا عن الشيعة والتشـيع .. فليس الذى يميز الشيعة عن غيرهم تفضيل سيدنا علي وأبي بكر وعمر وعثمان ولا المـيل إلى نصـرته ودوام إمارته للمؤمنين .. ذلك أن مدرسة البغداديين من المعتزلة التى تكونت منذ أيامهم على يد بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠هـ – سنة ٨٢٠م) قد تميزت عن مدرسة معتزلة البصرة بتفضيل علي على كل الصحابة ، ومع ذلك فهم ليسوا شيعة بالمعنى الفــنى لهذا المصطلح بل هم أعداء الشيعة سياسةً وفكرًا رغم أنهم قد رضوا أن يتسموا أحيانًا باســم (شيعة المعتزلة) .. فليس تفضـيل علي إذن هو الذى بين الشـيعة وغيرهم من فرق الإسلام ، حتى يكون صالحًا كى نؤرخ به أصل الإمامة ..

كان لقب الإمارة معروفًا فى الإسلام قبل نشأة نظام الخلافة فعلى عهد الرسول (ﷺ) كانت الإمارة معروفة فى الجيوش وفى الأقاليم والمدن وفى الحديث (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أيدى فقد أطاعنى ومن عصى أيدى فقد عصانى) وكان المعروف أن الأمراء هم أمراء الرسول مُعيّنين من قبله أو عن أمر منه .

ثم ظهر اســم الخليفة مقترنًا بنزول القرآن والسنة .. ففى القرآن يخاطب الله نبيه داوود ﴿ يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّـهِ ﴾ ومعــنى الخلافــة هــنا هو الخلافة عن الله لا عن الناس والمقصود بها النبوة وليســت الوظيفة السياسية .. ولكن ما جاء بعد ذلك فى القرآن ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِــي الأَرْضِ ﴾ ﴿ وَهُــوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَــا يَشَــاءُ ﴾ ومدلوله أن الخلافة عن الله فى عمارة الأرض ، وهى الوظيفة الإنسانية العامة وليست الوظيفة السياسية .. وقد جاء فى الأدب السياسى بعد ذلك أن طبيعة نظام الخلافة فى

الإســلام هــو أن يكــون لقب الخليفة (خليفة رسول الله) . وهو ما درجت عليه الوثائق والمكاتبات بالنسبة لنظام الحكم .

ثم اقــترن لفــظ الخليفة بصفة أمير المؤمنين منذ عهد عمر بن الخطاب عندما أطلق عليه بعض الصحابة هذا اللقب .

أما مصطلح الإمام فمن المعروف لغويًا أن الإمام هو المقدَّم فى أى شيء والمقتدى به فى أى سبيل ، مثل إمام الصلاة .. وقد جاء فى القرآن ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَــيْنَاهُ فِــي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى المقصود به فى هذه الآيات أئمة يقــتدون بهم فى أمر الدين – وقد جاء فى حديث للرسول (ﷺ) (من بايع إمامًا فأعطاه صــفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه) . وقضــية الإمامــة نشأت مع عهد علي بن أبي طالب .. ويظهر أن لقب الإمام يقوم مقام لفظ الأمير والعكس صحيح فهو قد استبدل فى الألفاظ وإن يكن المعنى واحد . أما لفظ الملك فقد ظل بعيدًا عن الفكر الإسلامى ، وذلك لأن القرآن قال ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُــوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وعن الرسول (ﷺ) (هوّن عليك فما أنا بملــكٍ ولا جبّار) وذلك لأن الملك كان يسمى عند العرب الجبّار .. وقد كان علي بن أبي طالب يحذّر الناس من أن معاوية وبنى أمية يريدون تحويل الخلافة إلى ملك .. وعندما كان بعض الخلفاء يصف نفسه بوصف الملك يعود ويصف نفسه بالإمامة لما فى مضمونه من معنى دنيوى ودينى .

الشيعة الإمامية

بعـــد وفـــاة رســـول الله (ﷺ) بـــايع المسلمون أبا بكر الصديق رضى الله عنه إمامًا لهـــم وخلـــيفة لرسول الله (ﷺ) .. وقبيل وفاة الصديق استشار أهل الحل والعقد فى خلافة عمـــر بـــن الخطاب فأجمعوا عليه ، ولما توفى الصديق بايع المسلمون عمر بن الخطاب ولم يشذ عـــن هـــذه البيعة إلا سعد بن عبادة . ثم أناط عمـــر بن الخطاب مهمة اختيار خلف له بستة من أهل الحل والعقد هم : الإمام على بن أبي طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة ابـــن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وكبيرهم عبد الرحمن بن عوف ، وكان الاتفاق على بيعة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ولمـــا وقعـــت الفتنة واستشهد عثمان بن عفان التف المسلمون حول على بن أبي طالب والـــتحق آخـــرون بمعاوية بن أبي سفيان ، وانتهى الأمر إلى التحكيم وكانت نتيجة التحكيم أن أفسده دعاة الفتنة ، فانقسم المسلمون إلى ثلاثة أقسام : قسم شايعوا الإمام عليًا وناصروه ، فسموا بالشيعة وقسم بايع معاوية بن أبي سفيان ، وقسم خرج عن الطرفين فسموا بالخوارج .

وللخوارج رأى فى الإمامة وهو أن الإمام لا يكون إلا بانتخاب حر من المسلمين ، وإذا تم اختياره فلا يصح له أن يتنازل عن الإمامة مادام قائمًا بالعدل مجتنبًا للجور ، وإذا خرج عنه أحـــد وجبت محاربته ، وكذا إذا خرج الإمام عن العدل وجبت محاربته وإقصاؤه وقد تطرف بعضـــهم فقـــال بعدم وجوب الإمامة ، كفرقة النجدات ومنهم من قال بجواز إمامة المرأة إذا استطاعت القيام بأمورهم وتصريفها بشئوهم كالشبيبية الذين زعموا أن غزالة أم شبيب كانت إمامة لهم بعد مقتل ابنها شبيب إلى أن قتلت .

والشـــيعة عـــلى اختلاف فرقهم يرون وجوب وجود إمام لهم ، ولكن رأيهم فى الإمامة يختلف عن رأى جمهور المسلمين .

فقد ذهبت فرقة منهم إلى أن الإمامة لا تجوز إلا فى أبناء فاطمة رضى الله عنها . وذهبت الشيعة الإمامية إلى أن الإمامة منصـــب إلهى يختار الله له من يعلمه ، ويأمر نبيـــه أن يدل الأمة

عليه . ويقولون إن الله تعالى أمر نبيه أن ينص على تنصيب علي بن أبي ظالب إمامًا للمسلمين من بعده ، ولكن المسلمين لم يتبعوا أمر الله بإمامة علي فتركوا بذلك ركنًا من أركان الدين ، كمـــا يــرون أن الإمامة انتقلت إلى الحسن فالحسين ثم لزين العابدين ثم لمحمد الباقر ثم لجعفر الصادق .. وهنا القسمت الإمامية إلى قسمين :

الجعفـرية الاثـنا عشرية : نقلوا الخلافة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم فعلى الرضا ثم إلى محمد الجواد ثم إلى علي الهادى ثم إلى الحسن العسكرى ثم إلى محمد المهدى وهـــو قائم الأئمة الاثنى عشر الذى اختفى سنة ٢٦٠هـــ ويعتقدون أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا ، ولا يزالون بانتظاره حتى قيام الساعة .

الإسماعيلية : جعلوا الإمامة بعد جعفر الصادق لابنه إسماعيل الابن الأكبر الذى نصبه والـــده قـــبل وفاته ، غير أن إسماعيل توفى قبل والده جعفر الصادق ، فنقلوا الإمامة إلى محمد المكتوم بن إسماعيل والذى قالوا برجعته بعد غيبته ، ومنهم من ساق الإمامة فى أئمة مستورين فقالوا لن تخلوا الأرض قط من إمام حى قائم إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور .

أولاً : الجعفرية الاثنا عشرية :

يقول الجعفريون إن الإمامة كالنبوة باستثناء الوحي ، وتقوم على الأسس التالية :

١ — الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها ، ويدعمون رأيهم هذا بمـــا نســـب لأبى جعفـــر أنه قال : بنى الإسلام على خمس : الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية .. ولم يناد بشىء كما نودى بالولاية — يعنى الإمامة — فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه يعنى الولاية — وفى ذلك تعريض بأهل السنة الذين لم يأخذوا بالولاية بمفهومها عند الشيعة .

٢ — لابد لكل عصر من إمام هاد يخلف النبى فى وظيفته فى هداية البشر لما فيه سعادتهم فى الداريـــن ولإقامـــة العدل فيما بينهم ، وعلى هذا فالإمامة استمرار للنبوة وهى إما بالنص وتكون بتعيين الإمام خلفه من بعده وإما بالوصف ما عقدها اثنان من خيار الأمة لمن يصلح لها فهو إمام فى الحقيقة .

٣ - الإمام كالنبى فى عصمته وصفاته وعلمه منذ صغره وفى كبره ، وهو معصوم من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن عمدًا أو سهوًا ، لذا فيجب أن يكون أفضل الناس وأكملهم وأشجعهم وأعلمهم فهو يتلقى العلم عن النبى أو عن الإمام الذى سبقه أو عن طريق الإلهام فى الأمور المستجدة حسب ما روى فى الكافى . وذهب بعضهم إلى أن أحد الملائكة كان مكلفًا بتسديد تصرفات الرسول الأمين ، فلما توفى استمرت مهمة الملك بتصويب خطى الإمام من بعده (عن أحكام الكافى ١/٢٧٣ - ٢٧٤) قال الخمينى فى كتابه الحكومة الإسلامية ص ٩ (نحن نعتقد أن المنصب الذى منحه الأئمة للفقهاء لا يزال محفوظًا ، لأن الأئمة الذين لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة نعتقد فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين) فالإمام بنظرهم فوق النبى لأن النبى قد ينسى فى بعض الأحيان أما الإمام فلا ينسى ولا يخطئ وهو منذ ولادته جامع لكل العلوم ! .

٤ - الأئمة هم أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم وهم شهداء على الناس وأبواب الله والسبيل إليه والادلاء عليه ، أمرهم أمر الله ونهيهم نهيه وطاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته . لا يجوز الرد عليهم فالرد عليهم كالرد على الرسول والرد على الرسول كالرد على الله تعالى فيجب التسليم لهم والانقياد لأمرهم والأخذ بقولهم (عن عقائد الإمامية ٥٤ - ٥٥) والأحكام الشرعية لا تؤخذ إلا عن أئمتهم ، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع إلى غيرهم ، ولا يطمئن إلى أنه قد أدى ما عليه من التكاليف المفروضة إلا عن طريقهم .

لذا : فصلاة أهل السنة وعباداتهم غير مقبولة لأنها مأخوذة عن غير طريق أئمة الشيعة .

٥ - لا تكون الإمامة إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله أو على لسان الإمام المنصوب إذا أراد أن ينص على إمام بعده ، وليس للناس حق التدخل فى تعيينه لأن الذى له من نفسه القديسة استعداد لتحمل أعباء الإمامة العامة فيجب أن لا يعرف إلا بتعريف الله له ولا يعين إلا بتعيين الله له . ويعتقدون أن الرسول (ﷺ) عيّن عليًا من بعده إمامًا، ويستشهدون على ذلك بما يلى :

(أ) حديث غديرخم والذى ورد فيه « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه إلى آخره » ففهموا من ذلك أن عليًا هو القائم مقام النبى بعد موته .

(ب) اخـــتلق بعض المتطرفين أحاديث يدللون بها على إمامة سيدنا علي رضى الله عنه ، فقد ورد فى كتاب المراجعات حديث نسبه عبد الغفار ابن القاسم أبو مريم إلى الرسول (ﷺ) يرشـــح فـــيه علـــيًا للإمامة فيقول « إن هذا أخى ووصيتى وخليفتى فيكم فاسمعوا وأطيعوا » وقـــد خـــرج ابن كثير هذا الحديث فقال فيه : تفرد به عبد الغفار بن القاسم أبو مريم ، وهو كذّاب شيعى اتهمه علي بن المدينى وغيره بوضع الحديث ، وضعفه الباقون .

أخـــرج محمد بن حميد الرازى فى المراجعات عن مسلمة بن الأبرش عن ابن إسحاق عن ابن ربيعة عن ابن بريدة عن أبيه أن الرسول (ﷺ) قال « لكل نبى وصى ووارث وإن وصيى ووارثى علي بن أبي طالب » .

(جـــ) استشهادهم بمآثر الإمام علي وباختياره وصيًا للنبى بعد وفاته واختياره ليحمل الـــراية يوم خيبر واختياره لينام مكان الرسول الكريم يوم الهجرة وتأميره على المدينة فى غزوة تـــبوك . كل ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على مناقبه ومكانته فى هذا الدين ، والمسلمون مجمعون على صلاحه رضى الله عنه .

كـــل ما أورده من أدلة لا تصلح أن يحتج بها لوهنها ولوجود أدلة صحيحة على خلافها مثل :

(أ) لو كان لدى الإمام علي دليل واحد على الوصـــاية له لاستشهد به حين انتخاب الصديق رضى الله عنه .

(ب) لـــو أن الرسول (ﷺ) أوصى له بالخلافة من بعده لما جاز له أن يضـــرب بقول الرسول عرض الحائط وتقدم لانتخاب الصديق وصاحبيه عمر وعثمان .

(جـــ) حين مرض الرسول مرض الموت عرف ذلك سيدنا علي فى وجهه ، ونقل مطالعته إلى العـــباس فأشار عليه العباس ، أن يسأل الرسول (ﷺ) أين يجعل هذا الأمر هل فى أقاربه أم فى غيرهـــم ، فأجابه سيدنا علي رضى الله عنه : « والله لو منعنا إياها لا يعطينا الناس إياها أبدًا ، فوالله لا أسأله » رواه أحمد ، فلو فهم علي ما فهمه الشيعة من الوصاية لما أجاب العباس هذا الجواب بل لأخذه إلى الرسول (ﷺ) وأشهد المسلمين على الوصاية له .

(د) روى الإمام أحمد فى مسنده بإسناد صحيح عن أبى الطفيل قال : سئل علي : هل خصكم رسول الله (ﷺ) بشىء فقال : « ما خصنا رسول الله (ﷺ) بشىء لم يعلم الناس به كافة » .

٦ – غيبة الإمام وقيام الفقيه بمهمته حتى يرجع .. يعتقد الشيعة أن الإمام الطفل محمد بن الحسن مازال حيًا حتى اليوم ، وأنه لم يمت ، بل غاب غيبتين غيبة صغرى ، وغيبة كبرى ، وهم بانتظار عودته . قال الخمينى فى كتابه الحكومة الإسلامية ص ٤٦ (وقد مرّ على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدى أكثر من ألف عام وقد تمر الوف السنين قبل أن تقضى المصلحة قدوم الإمام المنتظر) .. وفكرة الغيبة والرجعة وضعها لهم ابن سبأ كما يقول الإمام الطبرى ليمهد الطريق لبدعة الإمامة . أما الهدف الماكر من ورائها فلكى يجمد نشاط المسلمين فى كل شىء ويحسر دعوتهم ويوقف جهادهم ويجعلهم فى موقف الانتظار ريثما يحضر الإمام المنتظر فيملأ الأرض عدلاً . والذى ينكر الغيبة فى عقيدتهم كافر ولا فرق بينه وبين من ينكر رسالة الرسول أو من ينكر الإمام القائم .. ويزعمون أن الرسول (ﷺ) قال (من أنكر القائم من ولدى فقد أنكرنى) . عن إكمال الدين وإتمام النعمة ص ٣٩٠ يقول الخمينى فى كتاب الحكومة الإسلامية ص ٧٠ ما يلى : (فالفقهاء العدول هم وحدهم المؤهلون لتنفيذ أحكام الإسلام وإقرار نظمه وإقامة حدود الله وحراسة ثغور المسلمين ، وعلى كل فقد فوّض إليهم أنبياء (للفقهاء) جميع ما فوّض إليهم وائتمنوهم على ما ائتمنوهم عليه) . وقال فى صفحة ٧٦ (وقد حصر الإمام علي القضاء بمن كان نبيًا أو وصى نبى ، وبما أن الفقيه ليس نبيًا فهو إذن وصى نبى . وفى عصر الغيبة يكون هو إمام المسلمين وقائدهم والقاضى بينهم بالقسط دون سواه) .

٧ – الرجعة : يعتقد الشيعة أن الإمام محمد بن الحسن العسكرى هو إمام الزمان وأنه مازال حيًا وسيعود فى آخر الزمان فيملأ الأرض نورًا وعدلاً . وسيحيى الله له جميع حكام المسلمين ويحكمهم ويقتص منهم لاغتصابهم الحكم .

٨ – الإمام عندهم هو القرآن الناطق ، والقرآن الكريم هو القرآن الصامت ، لذا فلابد من الرجوع إلى القرآن الناطق وهو الإمام ليوضح مراد الله تعالى . ولهذا قال الإخباريون لا يجوز العمل بظاهر القرآن ، أما الأصوليون فقالوا يمنع العمل بظاهر القرآن إلا بعد الرجوع إلى أقوال الأئمة . لأن فى الكتاب المجيد والسنة المطهرة عامًا وخاصًا ومطلقًا ومقيدًا وهذه

الأمـــور لا تعـــرف إلا عن طريق الأئمة من آل البيت ، والسنة عندهم تتسع لتشمل أقوال أئمتهم ، وهم مجمعون على الأخذ بكلام أئمتهم مخصصًا لعموم القرآن ، ومقيدًا لإطلاقه .

٩ – العصمة : وتشمل عصمة الأنبياء وعصمة الأئمة . والعصمة على ضروب منها :

العصمة فى الاعتقاد والعصمة فى الأفعال والعصمة فى التبليغ والعصمة فى القضاء .

والعصـــمة لغة : المنع ، وعصمة الله لعبده تكون بأن يعصمه مما يوبقه . وعصمه يعصمه عصـــمًا : منعه ووقاه . واعتصم فلان بالله : إذا امتنع به . والعصمة : الحفظ ، يقال عصمته فانعصم واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطف عن المعصية .

ولقد اختلفت وجهات نظر المتكلمين فى العصمة . فهى عند الأشاعرة : أن لا يخلق الله فى العبد ذنبًا ، لإسنادهم الأشياء إلى فاعلها . وقيل هى خلق قدرة الطاعة فى الإنسان كما ورد فى لسان العرب لابن منظور .

وهى عند المعتزلة والشيعة والإمامية : (لطف البهى يضعه بالمعصوم فيمتنع عن فعله من القبـــيح اختيارًا ، فلا يقدم على المعصية شريطة أن لا ينتهى فعل ذلك الأمر إلى حد الإلجاء) عن المغنى فى أبواب العدل والتوحيد ص ١٣ .

وأنواعها (أ) العصمة فى الاعتقاد : وقد أجمعت المعتزلة على وجوب تنـــزيه الأنبياء قبل البعـــثة وبعدهـــا عن الكفر عمدًا أو سهوًا لئلا يكون أثرهم ضعيفًا حين دعوة الناس . وقال الخوارج بجواز بعثة نبى كان كافرًا قبل بعثته .

(ب) العصمة فى الأفعال : قال المعتزلة بامتناع وقوع الكبائر من الأنبياء أصلاً واختلفوا فى وقوع الصغائر منهم .

أمـــا فقهاء أهل السنة فيقول القرطبى رحمه الله تعالى فى تفسيره ص ٢٩٣ : قال جمهور الفقهـــاء مـــن أصـــحاب مالك وأبى حنيفة والشافعى رحمهم الله تعالى : (إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ، لأننا أمرنا باتباعهم فى أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمرًا مطلقًا من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يكن الاقتداء بهم) .

(جـ) العصمة فى التبليغ :أجمع الفقهاء على عصمة الأنبياء فى التبليغ واعتبروه ركن عقيدة ثابتًا ، يجب الاعتقاد به ، لأن من مستلزمات الإيمان بالأنبياء الاعتقاد بعصمتهم من الخطأ فى التبليغ أو التبديل أو التحريف أو الكتمان ، لأن ذلك يقتضى دلالة العجز على صدقهم كما يقول ابن حزم .

(د) العصمة فى القضاء : فإن كانت فى التشريع العام فلا يجوز الخطأ فيها مطلقًا وإن كان فى قضايا شخصية واجتهد فيها حسب ما سمع من بينات فقد يخطئ ويصيب لأن الفتوى على قدر النص .

وعصمة الإمام فى نظر الشيعة يقصد بها :

أن الإمامة ليست من المصالح الدنيوية التى تفوض إلى نظر الأمة ، يتعين القائم (الإمام) بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبى إغفالها ولا تفويضها للأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم . (التمهيد للباقلانى ص ١١٥) .

وما دامت الإمامة قضية دينية وجب أن تكون بالنص والتعيين من معصوم– يؤمن عدم وقوعه فى الخطأ – ولما كانت العصمة صفة لا تعرف إلا عن طريق الوحى والإلهام الموجب للعلم اليقينى ، فقد صار أمر تعيين الإمام مهمة النبى المعصوم أو من ينوب عنه يعنى الإمام المعصوم .

وهذا المنطق يقتضى إبطال خلافة من سبق سيدنا عليًا فى مقام الإمامة باعتبار أن الخلفاء الراشدين غير مجمع على عصمتهم لذا فهم بنظر الشيعة غير مؤهلين لإشغال هذا المنصب الدينى الذى هو ركن الدين وقاعدته .

١٠ – التقية : مصدر توقى واتقى وتوقيت الشىء أى حذرته ورد فى معجم الرائد :

التقية هى التستر فى الدين عند بعض المذاهب . والتقية : هى مجاملة المخالفين فى العقيدة وإيهامهم بموافقتهم فى عقائدهم بإظهار غير الحقيقة سواء كان ذلك بالكذب أم بغيره اتقاء الأذى وخوف الضرر .

والخلاف فى التقية هل هى فرض لازم أو هى رخصة جائزة فى ظروف اضطرارية ، وهل هى بالقول فقط أو بالقول والفعل .

وقد أجمع أهل السنة أن التقية رخصة جائزة فى القول باللسان دون الفعل حين الضرورة .

ويرى الغزالى إن كانت التقية لعصمة دم مسلم فهى واجبة وبه قال ابن حزم .

ولئن كانت التقية رخصة فى المجتمع الكافر خوفًا على النفس ، إلا أن التمسك بالعزيمة أفضل لما فى ذلك من إعزاز لدين الله وغيظ للكافرين ، لذلك امتنع عنها أولو العزيمة من المسلمين وعدوها من النفاق .

ويشترط بالتقية أن لا تسبب أضرارًا بالآخرين من قتل أو اغتصاب أو شهادة زور .. قال ابن عباس رضى الله عنه : (إن التقية باللسان لا باليد) يعنى القتل .

ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقية كانت رخصة جائزة فى أول ظهور الدعوة يوم كان الإسلام مضطهدًا ، أما الآن فغير جائزة . ولكن الرأى الغالب أنها رخصة حين الإكراه فى كل زمان ومكان وبالشروط السابقة لقوله (ﷺ) لعمار بن ياسر : « **فإن عادوا فعد لهم بما قلت** » .. يعرف الشيخ المفيد وهو من أعلام الشيعة الإمامية فى القرن الرابع الهجرى التقية بقوله : هى كتمان الحق وستر الاعتقاد به ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم مما يعقب ضررًا فى الدنيا والدين .

والشيعة فى التقية على مذهبين المذهب الأول : يقول بالتقية لدرء الضرر الذى يترتب على المجاهرة بالمذهب الشيعى والدعوة إليه ، وهذا رأى المعتدلين وبه قال ابن بابوية القمى الذى عاش فى مجتمع يسوده التسامح السياسى والمذهبى .

والمذهب الثانى : يقول بأن التقية واجبة فمن تركها فكأنما ترك فرضًا لازمًا كالصلاة ، ومن تركها قبل ظهور المهدى القائم فقد خرج عن دين الله تعالى (ابن لبيه والأئمة) عن عقائد الشيعة الإمامية ص ١١٠ – ١١١ ، ويقول الدكتور عرفان عبد الحميد : إن فكرة التقية عند هؤلاء ترتبط بفكرة الإمامية التى أقاموها على النص والتعيين الإلهى ، وهنا يكمن الخلاف الأساسى والجوهرى بينهم وبين موقف أهل السنة منها ، فقد أشار جمع من متكلمى أهل السنة إلى أن سكوت الإمام عن مطالبته بحقه فى الإمامة وتصديه لمغتصبيها واعترافه بسلطان الأئمة الذين سبقوه فيها يكون حجة عليهم بعدم صحة إماميته مما يشكّل تناقضًا لا يمكن حله

أو تبريره إلا بالتقية ، وهذا ما قال به الفخر الرازى .. كما وأن تضارب آراء الأئمة المعصومين بنظرهم يسبب لهم إحراجًا كبيرًا إذ لا يجوز أن تتضارب آراء المعصومين ، لذا فالتقية عندهم هى الحل الوحيد الذى يخلصهم من الحرج .

والتقية عندهم تستمر حتى يرجع الإمام الغائب .. وبناء على ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يطمـــئن إلى أى عهــــد عاهدوه أو إلى وعد قطعوه على أنفسهم أو إلى أى رأى أبدوه لأنه قد تكون قناعتهم بخلافة مادامت التقية عندهم من الدين .

ويصف كولدزيهر التقية عند الشيعة فى كتاب العقيدة والشريعة ص ٢٠٣ بما يلى : لقد انفــــرد الشيعة بالقول بالتقية وأنها صارت نظرة خلقية خاصة بهم أفردتهم بصفة بارزة وطبعت روحهم بطابع خاص معين . وغدت عندهم مدرسة للمخاتلة والغدر ووسيلة لأنشاء الجمعيات السرية والتبشير الباطنى الهدام .

ومنزلة الإمام عند الشيعة الجعفرية :

(أ) أن الأئمة هم الأوصياء استودعهم النبى على أسرار الشريعة ، وأن الرسول (ﷺ) ما بيّنها كلها بل بيّن بعضها ، فبيّن الأحكام التى يتطلبها العصر ، وترك للأئمة بيان ما يقتضيه عصرهم .

(ب) وأن ما يقوله الأئمة الأوصياء شرع لأنه تتميم للرسالة وهو بمنزلة كلام النبى لأنه أودعهم إياها .

(جـــ) أن للأئمة أن يخصصوا النصوص العامة ويقيدوا النصوص المطلقة .

(د) أن الإمام هو المشرّع .

(هــــ) الإمام معصـــــوم عن الخطأ والنسيان والمعاصى فى الظاهر والباطن فهو طاهر مطهر بإجماع الإمامية .

(و) والإمام يجوز أن تجرى المعجزات على يديه .

(ز) أحاط بكل شىء علمًا لدنيًا من رسول الله (ﷺ) ليكفل بيان الشريعة .

(ح) والإمـــام إما ظاهر أو مستور لأن وجوده ضرورى لبيان الشريعة ولصيانتها من الضياع والتخريف فهو حجة الله القائمة إلى يوم القيامة .

وللجعفرية مبادئ فقهية تتلخص فى الآتى :

١ — فى الطهارة : يرون استحباب الغسل لزيارة الأئمة وفى النصف من شعبان وفى ١٩، ٢٠ رمضان وليوم الغدير ١٨ ذى الحجة وعيد النيروز الفارسى بحجة أنه يوافق إعلان الرسول لخلافـــة عـــلي بن أبي طالب رضى الله عنه ، كما لا يرون تغسيل الميت إذا كان غير جعفرى والشهيد الذى لا يجب غسله يشترط أن يكون استشهاده مع أحد الأئمة .

٢ — فى الأذان : يـــزيدون عبارة حي على خير العمل . ويزيد بعضهم وأشهد أن عليًا ولى الله ، ويـــزيد آخـــرون أشـــهد أن علـــيًا أمـــير المؤمنين وأولاده المعصومين حجة الله . ومع أن محسن الحكيم يعترف بأن هذه العبارات ليست من الأذان إلا أنه لا يرى بأسًا بإضافتها على الأذان .

٣ — فى الصـــلاة : يعتقدون أن الصلاة فى مسجد الكوفة أفضل من الصلاة فى المسجد الأقصى ؛ لأن سيدنا علي ضرب فيه ، ويشترطون فى الإمام الذى يؤم المصلين أن يكون مؤمنًا يعنى جعفريًا ، ويفضلون السجود فى الصلاة على التربة الحسينية . كما لا يرون صلاة الجنازة على غير المسلم يعنى (غير الجعفرى) وفى قصر الصلاة يقولون إنها عزيمة إلا فى أربعة مساجد ، بيت الله الحرام ومسجد الرسول ومسجد الكوفة ومسجد الجابرى فى كربلاء .

٤ — فى الصـــيام : يشترطون لصحة الصيام مع الإسلام الإيمان . فقد أجمعوا كما يقول الحكـــيم أنه لا يصح الصوم من غير المؤمن ، والمراد به المخالف لهم . ومن المفطرات عندهم الكذب على أئمتهم . يندب صيام يوم الغدير والمباهلة وعاشوراء حزنًا .

٥ — فى الزكاة : يرون وجوبها على الكافر لأن من حق الإمام أخذها منهم قهرًا ولكنها لا تصـــح مـــنهم لأنهـــم غـــير مؤمنين ، أما توزيعها فلا يجوز لغير المؤمن أى لغير الجعفرى ، أمـــا إعطاؤهـــا لغير الجعفرى فمن باب تأليف القلوب ، كما تعطى للفسقة ومرتكبى الكبائر لكونهم فقراء من أهل الإيمان ، ويستحب دفع الزكاة للإمام كما يجب دفعها له إن طلبها ، وإذا قبضها الفقيه برئت ذمة المالك ولو تلفت .

٦ – الخمس : وجعلوا الخمس فى فضل مؤونة السنة من إنتاج الصناعة والتجارة والزراعة فعليها ٢٠% ، وقالوا فى الخمس يقسم ستة أقسام : سهم لله وسهم للنبى وسهم للإمام الجعفرى هذه الثلاثة من حق إمامهم الغائب ، والأسهم الثلاثة الأخرى للأيتام والمساكين وأبناء السبيل من الجعفرية ، وقالوا : أسهم الإمام الغائب راجعة إلى نائبه وهو الفقيه المجتهد الجامع للشرائط تدفع إليه أو إلى المستحقين بإذنه .

٧ – الحج : يقول الحكيم : « لا ريب بشرطية الإيمان فى صحة العبادة وعليه فعبادة المخالف باطلة لا تترتب عليها الأحكام » وقالوا : لا يجوز للجعفرى أن يحج عن المخالف – المسلم السنى – إلا إذا كان أباه . ويقولون إذا نذر قبل حصول الاستطاعة أن يزور الحسين فى عرفة ثم حصلت الاستطاعة لم يجب عليه الحج . وحين زيارتهم الرسول فى المدينة يحجمون عن زيارة الشيخين .

٨ – فى الجهاد : يشترطون إذن الإمام أو من نصبه الإمام لذلك عندها يجب خمس الغنائم فقط .

٩ – والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يحتاج لإذن الإمام وكذا الحدود لا ينفذها إلا الإمام أو من نصبه نيابة عنه .

١٠ – زواج المتعة : هو الزواج لمدة محدودة بلا إرث ولا نفقة ولا عدة . ولقد أباحه رسول الله (ﷺ) فى بعض الغزوات ثم منعه . وفى مختصر ابن كثير ص ٣٧٥ يقول : ولا شك أنه كان مشروعًا ثم نسخ بعد ذلك ، وقد ذهب الشافعى وبعض العلماء على أن زواج المتعة أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ مرتين ، قال ابن عمر بإباحته للضرورة . عن الإمام علي ابن أبى طالب قال : نهى رسول الله (ﷺ) عن نكاح المتعة ولحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، وفى صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهمى عن أبيه أنه غزا مع رسول الله (ﷺ) يوم فتح مكة فقال : « يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة . فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا » .

وفى فقـــه السنة يقول الشيخ السيد سابق ص ٤١ : ويسمى بالزواج المؤقت والزواج المنقطع وهو زواج متفق على تحريمه بين أئمة المذاهب وقالوا : إذا انعقد يقع باطلاً ، واستدلوا على ذلك بما يلى :

(أ) أن هــذا الــزواج لا تتعلق به الأحكام الواردة فى القرآن بصدد الزواج والطلاق والعدة والميراث فيكون باطلاً كغيره من الأنكحة الباطلة .

(ب) أن الأحاديث جاءت مصرحة بتحريمه ، فعن شبرة الجهينى أنه غزا مع النبى (ﷺ) فى فــتح مكــة فأذن لهم رسول الله (ﷺ) فى متعة النساء قال : فلم يخرج منها حتى حرّمها رســول الله (ﷺ) حــرم المتعة فقال : « يا أيها الناس إنى كنت أذنت فى الاستمتاع ألا وأن الله قد حرّمها إلى يوم القيامة » كما أورد حديث الإمام علي رضى الله عنه .

(جـ) كما وأن ســيدنا عمر رضى الله عنه حرّمها وهو على المنبر أيام خــلافته ، وأقره الصحابة رضى الله عنهم وما كانوا ليقروه لو كان مخطئًا .

(د) وقال الخطابى تحريم المتعة كالإجماع إلا عند بعض الشيعة ، ولا يصح على قاعدتهم فى أصول الحديث فقد صح عن علي أنها نسخت . ونقل البيهقى عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال : هى الزنا بعينه .

(هـ) ولأنه يقصد به قضاء الشــهوة ولا يقصد به التناسل والإحصان ولا المحافظة على الأولاد وهى المقاصد الأصلية للزواج ، فهو يشبه الزنا من حيث قصد الاستمتاع دون غيره . ثم هــو يضر بالمرأة ويمس كرامتها حيث تصبح كالسلعة التى تنتقل من رجل إلى رجل ، كما يضــر بــالأولاد حيث لا يجدون البيت الذى يستقرون فيه ولا الوالد الذى يتعهدهم بالتربية والتأديب . وما دام هدف المتعة الاستمتاع كما هو واضح من اشتقاق الكلمة ومن أحاكامها فإن ذلك يؤدى إلى الفوضى الجنسية وإلى إشاعة الفاحشة بين المسلمين .

(و) وأمــا مــا اشــتهر عن ابن عباس بإباحتها عند الضرورة ، قيل فلما بلغه إكثار الــناس مــنها رجع عنها ، وكان يقول بتحريمه على من لم يحتج إليه . وفى مناظرة بينه وبين ســعيد بــن جبير قال ابن عباس : إنا لله وإنا إليه راجعون والله ما بهذا افتيت ولا هذا أردت ولا أحللت إلا مثل ما أحل الله الميتة والدم ولحم الخنزير وما تحل للمضطر وهى كالميتة والدم

ولحـم الخنزيـر . ويركـز صاحب الغدير عبد المحسن أحمد الأمين النجفى على أن منع المتعة وتحـريمها كـان من عمر بن الخطاب وليس من رسول الله ، وتحريم عمر ليس ملزمًا لهم على تحـريمها ويستشـهد بعدة أحاديث تؤكد هذا المعنى منها ما أخرجه الطبرى عن جابر « كانوا يتمتعون من النساء حتى نهاهم عمر بن الخطاب ، وعن الحكم قال : قال علي رضى الله عنه : لـولا أن عمر رضى الله عنه نهى عن المتعة مازنى إلا شقى . عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه سـئل عن متعة النساء فقال : حرام أما أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو أخذ فيها أحـد لرجمته بالحجارة (السنن الكبرى) كان عمر رضى الله عنه يقول : والله لا أوتى برجل أبـاح المـتعة إلا رجمته (مرآة الزمان) لذا فهم يجيزونها بالمرة والمرتين ومع بنت عمرها عشر سنين ولو دون إذن وليها ، ومن الغرابة أنهم يفتون بها ويمتنعون عن تطبيقها فلا يسمحون لأحد بالاستمتاع ببناتهم وخاصة إذا كان من أهل السنة والجماعة .

ولكـن العـلماء الأتقياء منهم يحرمونها : يقول الشيخ محمد أبو زهرة : فى كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية مجلد ١ ص ٣ ما يلى :

إن زواج المتعة مذهبهم واعتقادهم وعليه جمهورهم ، ولكن يوجد فى أعقاب هذه الأقوال من ينكر متعة النساء من علماء الشيعة وينهى عنه أشد النهى ، من ذلك : أن تحريم المتعة نقل صـحيحًا عـن الإمامين أبى جعفر محمد بن الباقر وأبى عبد الله جعفر الصادق وهما إمامان من أئمتهم ، فقد رووا أن بسامًا الصيرفى سأل عبد الله جعفر الصادق عن زواج المتعة ووصفها له فقـال رضـى الله عنه : ذلك هو الزنى وإنها من المخادنة التى نهى الله تعالى عنها فى كثير من الآيات مثل قوله ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ .

ثانيًا : الإسماعيلية :

سميـت بهـذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذى لم تعترف الشيعة الاثنا عشـرية بإمامته ، بينما وقف الإسماعيليون عند إمامته ، فسموا لذلك بالسبعية . وإسماعيل هو الابـن الأكبر للإمام السادس جعفر الصادق والذى توفى فى حياة والده ، فرأت الاثنا عشرية أن والـده جعفـر الصـادق نقل الإمامة إلى أخيه موسى الكاظم واعتبروه الإمام السابع . والإسماعيلية على رأيين :

(أ) السبعية : قالت بأن الإمام السابع هو إسماعيل ، وأنه لم يمت وأن والده قد غيّبه خوفًا عليه من الخلفاء العباسيين ، فكتب محضرًا بوفاته وأشهد عليه عامل المنصور الذى كان إسماعيليًا ، وسافر إلى سلمية فدمشق وكان ذلك عام ١٤٥هـ وحذّره والى دمشق الإسماعيلى بطلب الخليفة له ، فغادر دمشق إلى العراق حيث شوهد بالبصرة وقد مرّ على مُقْعَد فشفاه بإذن الله وبقى الإمام إسماعيل يتنقل بين أتباعه سبع سنوات حتى توفى عام ١٥٨ فى البصرة ، ورزق بمحمد وعلى وفاطمة ونصّ على إمامة ولده محمد .

(ب) المباركية : وهم ينتسبون إلى المبارك مولى إسماعيل ، وهؤلاء يقولون بأن الإمامة انتقلت بعد إسماعيل إلى ولده محمد المكتوم وأمه أم ولد ، وذلك لأن الإمامة لا تنتقل من أخ لأخ بعد الحسن والحسين إنما من أب لابن . وانقسمت المباركية إلى قسمين : قسم وقف عند إمامة محمد المكتوم وقال برجعته وأنه المهدى المنتظر وهؤلاء هم القرامطة الذين ينتسبون إلى رئيس لهم من السواد فى الأنباط يلقب قرموطية ، وقسم قال باستمرار الإمامة فى أئمة مستورين حتى اللحظة التى حكمت فيها الدعوة الإسماعيلية ، حيث أسس الإمام الشرعى عبد الله المهدى الدولة الفاطمية فى المغرب .

ويرجع تاريخ الإسماعيلية عندما اشتدت ضربات العباسيين للحركات الشيعية بعد فشل ثورة محمد الملقب بذى (النفس الزكية) مما اضطرهم للاختفاء والتكتم ، وفرّ محمد بن إسماعيل إلى الرى ومنها إلى دوماند واستقر بقرية سميت باسمه محمد أباد . واختفى أبناؤه فى خراسان وفى إقليم قندهار وفى السند .. وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلمية من محافظة مدينة حماه السورية مركزًا لنشر دعوتهم ، ومن أشهر دعاتهم ميمون القداح الذى وضع أسس المذهب الإسماعيلى حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه، واعتقد البعض أنه كان يصدر عنه ميول شعوبية ترمى إلى مقاومة الإسلام والعروبة ، وخلفه من بعده ابنه عبد الله بن ميمون الذى اتخذ الأهواز مركزًا لنشر دعوته ، ولما انكشف أمره لدى واليها هرب إلى الشام وأقام فى سلمية إلى أن مات فيها كما يروى حسن إبراهيم فى تاريخ الدولة الفاطمية .

وضــع عــبد الله بن ميمون القداح أساس الدعوة الإسماعيلية السبعة التى تختم الإمامة بإسماعــيل بــن جعفــر الصــادق ، وقسمها إلى سبع درجات ثم زيدت حتى أصبحت تسعًا زمن الفاطميين .

ويــرى المؤرخــون (أمــثال دوزى وبروكــلمان ونيكسون وفيليب وبندلى جوزى) أن عــبد الله بن ميمون القداح : صاحب مؤامرة قوية الدعائم تم تنظيمها بمهارة فائقة ، ولقد تملكت نفسه الكراهية فى أبشع صورها للعرب والاحتقار للإسلام والمسلمين مدفوعًا إلى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة . ولقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعًا مــبادئها كــل فــرد عــلى قدر عقله واستعداده . ولقد نجح أبو عبد الله الشيعى أحد دعاة الإسماعيلــية فى نشــر أفكاره فى شمال المغرب . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح للإسماعيلية والشيعة السلطان المطلق فى جهات غربى القيروان ، ثم أرسل أبو عبد الله الشيعى إلى أبى عبد الله المهدى الجد الأعلى للإسماعيلية للحضــور إلى أفريقية وتمــت له السيطرة ودخل الناس فى الإسماعيلــية طوعًا أو كرهًا ، ثم امتد نفوذ الإسماعيلية إلى مصــر حيث فتحــها المعــز لدين الله الفاطمى ٣٦١هـ ٩٦٩ ميلادية ثم انتشــرت فى الهند وإيران حيث ظهر أعظم فلاســفة الإسماعيلية الباطنيين أمثال أبى يعقوب السجستانى وناصر خسرو وأبى حاتم الرازى وحميد الدين الكرمانى كما تذكر ذلك دائرة المعارف الإسلامية بالإنجليزية .

وفى القــرن الخــامس الهجرى دبّ الضعف والانحلال فى صفوف الإسماعيلية وانشقت الحــركة على نفسها وصارت فرقًا متعددة كان ذلك عام ٤١١هـ / ١٠٢١م ، حين أعلن الحاكم بأمر الله بأن التجسد الإلهى قد حل فيه ثم اختفى وربما قتل ، فانفصلت الطائفة الدرزية عن بقية الإسماعيلية لاعتقادهم بأنه لم يمت وأنه سيعود فهو الإمام المنتظر عند الطائفة الدرزية ، وحين وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ ميلادية انشقت الإسماعيلية إلى قسمين :

(أ) النــزارية : أنصار نزار الابن الأكبر للحــاكم بأمر الله الذى أكرهه أخــوه على التخلى عن الإمامة ثم سجنه حتى مات .

وفى رواية أخرى أنه قتل غيلة مع أبيه فى السجن بناء على أمر شقيقه الأصغر المستعلى .

وبعد مقتل نزار بن الحاكم بأمر الله على يد أخيه المستعلى نقل أتباعه ابنه القاصر المهدى بن نزار إلى فارس ، حيث نشأ فى خفية وكتمان وتربى على يد كبير الدعاة الحسن بن الصباح وبعد وفاته عام ٥٥٧هـ – تولى الإمامة ابنه (حسن القاهر بأحكام الله) العرش جهرة ، وأعلن القيامة الكبرى ومجيء إسلام روحانى متحرر من كل ذهن تشريعى ومن كل عبودية للقانون ، وبقيت هذه الفرقة حتى اليوم فى الهند تعرف باسم الخوجا وهم يعترفون بالأغا خان زعيمًا روحيًا لهم ومن أسلافهم الحشاشين .

(ب) المستعلية : أنصار المستعلى أبى القاسم أحمد ٤٨٧ هـ الذى اغتصب الحكم من أخيه ، وبعد سقوط الدولة الفاطمية فى مصر على يد صلاح الدين الأيوبى عام ١١٧١م انتقلت فرقة المستعلية من الإسماعيلية إلى اليمن واستمرت طيلة خمسة قرون ثم لاقت نجاحًا فى الهند ، فنقلت مركز الدعوة إلى كوجارت فى القرن التاسع الميلادى ثم حصل انشقاق فى الطائفة المستعلية بعد وفاة الداعى السادس والعشرين (قطب شاه) سنة ٩٩٩هـ – فى مدينة أحمد آباد فتبعت الأكثرية ابنه داود بن قطب شاه الذى اعتبر الداعى السابع والعشرين ، فى حين تبع الفرع اليمانى الداعى سليمان بن الحسن فعرفوا بالسليمانية ويعتبر غلام حسين الداعى السادس والأربعين اليوم فى سلسلة السليمانية اليوم ، أما داعى الفرح الداودى اليوم واسمه طاهر بن محمد فيعيش فى بومبى بالهند وهو الداعى الحادى والخمسين وأتباعه يسمون بالبهرة .

وللإسماعيلية مبادئ فقهية تتلخص فى الآتى :

١ – الإلهيات : يرى الإسماعيليون أن وحدة الله وحدة خالصة وبذلك لا يوصف الله بصفات تستوحى معانيها من تجارب الحسن لأنها عند ذلك تكون إضافات لا تتمشى مع كونه واحدًا وحدة خالصة .. يقول الكرمانى فى كتابه راحة العقل : إنه لا يجوز أن نصف الله بصفة الوجود – وحتى لا تصدم مشاعر المسلمين يسمى الوجود بكلمة آيس – ذلك لأن وصفه بالوجود يقتضى كونه محتاجًا للوجود وبالتالى كونه محتاجًا إلى غيره والله لا يحتاج إلى أحد فباطل كونه آيسا : يعنى موجودًا .

ثم إنهم ينفون صفات الله عنه : يرى علي بن محمد الوليد نفى التسمية عن الله لأن التسمية إنما جعلت رسمًا (وصفًا) للمخلوقين ليكون الخلق مميزًا عن غيره . والله متعال ليس له

صـــورة نفســـانية ولا طبيعـــية بل يتعالى بعظيم شأنه وقوة سلطانه عن أن يوصف بما توصف به أسباب خلقته وفنون بريقه ، ويؤكد الكرمانى هذا المعنى بقوله : إن الله لا يوصف بصفات المخلوقين ولا يقال عنه ما يقال على المخلوقين (عن راحة العقل) وفى ذلك تعطيل لذات الله تعـــالى . فلـــيس الله بنظرهم كريمًا ولا رحيمًا ولا غفورًا ولا سميعًا ولا بصيرًا ، لأن هذه من صفات المخلوقين وأن نفى الصفات عن الله تنـــزيه له وأن توحيده يعنى معرفة حدوده .

٢ — الإبداع : يرون أن وجود الموجودات عن الله لا يتم عن طريق الفيض بل عن طريق ابـــداع ، لأن الفـــيض يكـــون من جنس ما فاض عنه مشاركًا له ومناسبًا وهذا لا يليق بالله الموجود ، وبذلك يختلفون مع إخوان الصفا الذين يرون الخلق فيضًا عن الله . يقول الكرمانى فى راحـــة العقل (وإذا كان الله غنيًا عن كل صفة فإن صفات الكمال موجودة فى أول مبدع أبدعـــه) فبعد أن جردوا الله من أسمائه وصفاته جعلوا من هذه الأسماء والصفات أول مبدع أبدعـــه الله وسمـــوه العقل الأول ووصفه بأنه الحق والحقيقة والوجود الأول والواحد والأزل والمعقـــول والعـــلم الأول والقـــدرة والقادر الأول والحياة والحى الأول (عن راحة العقل) ص ١٨٩ ، ويلاحظ أن الصفات التى يخلعها الكرمانى على العقل الأول هى عينها التى يخلعها المعـــتزلة على الله ، وهذا هو الفرق بين الإسماعيلية والمعتزلة وهى عينها التى وصف بها أرسطو والفـــارابى وابـــن سينا إلاههم ، فيمكن إذن أن يقال إن الإسماعيلية وضعوا فوق إله المعتزلة وأرسطو والفارابى وابن سينا إلههم لا يوصف وليس هو على الوجود ولا المحرك الأول إنما هو غامضة وعماء تام (البدوى) .

فـــالعقل الأول أو المـــبدع الأول سموه القلم وهو الخالق الذى أبدع النفس الكلية فهو الســـابق والـــنفس هـــى التالى ، لأنها أوجدت بعد العقل وهما حدى الله وبواسطتها وجدت المـــبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية ، فإذا ذكر الله عندهم فالمقصود به العقل الكلى ويقال حدى الله أو العالم العلوى حدان فى العالم السفلى وهما حد النبى وحد الوصى أو الإمام وسموهمـــا الكاف والنون ، وأن الناطق أو النبى ومن قام مقامه من وصى أو إمام يتصف بكل الصفات التى يتصف بها العقل الكلى ، وأن أسماء الله الحسنى تنطبق على الناطق أو الإمام .

٣ — الوجـــود والإنســـان : يرون أن الانسجام قائم بين العالم الكبير يعنى الوجود وبين العالم الصغير يعنى الإنسان ، وأن الإنسان صورة العالم الذى يعيش فيه ، وأن التوازن بين أقسام

الـــنفس الثلاثة : الحكمى ويمثل الفلاسفة ، والغضبى ويمثل الجند ، والشهوى ويمثل العمال — يساوى العدل وأن التوازن والعدل هما أساس الخير وغاية الفرد والجماعة . هذا الانسجام بين العالم الكبير والعالم الصغير سبقهم إليه أفلاطون وأفلوطين .

كمـــا وأن عالم الله والرسول والإمام بنظرهم هو عالم خالص من شوائب النقص فى عالم الكون والفساد . ومن هنا جاءت فكرة العصمة والخطورة فى اعتقادهم .

٤ — يـــرون فى الوحـــى والنـــبوة والرسالة عدم الاعتراف بما نقله لنا الرسول (ﷺ) مـــن حقـــائق الدين لأن العقل الأول بنظرهم وليس الله هو الذى دبر الكون وأرسل الرسل والوحـــى إلى الأنبياء ، فالوصى بنظرهم .. هو ما قبلته نفس الرسول من العقل الكلى وقبله العقـــل مـــن باريه تعالى (تاج العقائد ص ٤٧) . (والنبى عندهم شخص فاضت عليه من (السابق) بواسطة (التالى) قوة قدسية صافية (فضائح الباطنية) . (وأن الأنبياء لم يتصل بهم الوحـــى إلا عن طريق الجد وهو إسرافيل فيبلغه إلى الفتح وهو ميكائيل الذى أبلغه إلى الخيال وهـــو جبرائيل فيوحيه إلى الناطق الحى الذى يمثل بدوره دور السابق وينسخ الشريعة السابقة حتى وصل الدور إلى الناطق السابع محمد بن إسماعيل الذى نسخ شريعة الإسلام) .

والرســـالة على ضربين : عامة ويقصد بها الفطرة السليمة ، وخاصة يكلف الله بها نفرًا يختاره لها وأتباعه الموافقون له أخيار ومخالفوه أشرار وأصحابه المختصون به خزان سره وأبواب حكمـــته ، وهـــم من يحتاج إليهم فى إقامة أمر الله تعالى ونهيه ولا يتجاوز عددهم اثنى عشر وكذلك لكل نبى مثل ذلك . أما علي بن أبى طالب فينسبون إليه قولهم (كنت وليًا وآدم بين الماء والطين) لذا فعلى خاتم الأولياء ومحمد خاتم الأنبياء ، والنبى قبل أن يصل إلى مرتبة النبوة أو الرسالة ينبغى أن يمر بمرتبة الولى . والولاية عندهم أفضل أركان الإسلام ولا يقبل الله أركان الإســـلام كـــلها إذا كان المسلم لا يؤمن بالولاية . وأولو العزم من الرسل هم النطقاء الذين ارتقـــت نفوســـهم بالانتساب إلى حظيرة القدس والتعلق بها وقبول فيضها فارتفعت إلى درجة العقول الإبداعية فتنقلب ذاتها عقلاً تفيض بالبركات التى تصير النفس كاملة .

أما النطقاء عند الإسماعيلية فهم سبعة ، لكل ناطق منهم أساس يعتمد عليه :

١ — آدم وأساسه شيث .

٢ – نوح وأساسه سام .

٣ – إبراهيم وأساسه إسماعيل .

٤ – موسى وأساسه هارون .

٥ – عيسى وأساسه شمعون الصفا .

٦ – محمد (ﷺ) وأساسه علي بن أبي طالب .

٧ – إسماعيل بن جعفر الصادق وأساسه قداح الحكمة – اعتبروه بمرتبة النبي .

والإمام عند الإسماعيلية إنما هو بشر خلق من طين يتعرض للمرض والموت مثل بنى آدم ، ولكنهم فى التأويلات الباطنية يطلقون عليه صفة قدسية إلهية ، فهو : يد الله وجنب الله ووجه الله ، وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة . وهو الصراط المستقيم والذكر الحكيم ، ويبررون ذلك بأن الإمام هو الذى يعرّف الإنسان بالله وما دام الله يعرّف بوجهه فالإمام إذًا هو وجه الله وهكذا .. ويستدل من مصادر الإسماعيلية السرية أن الإمامة عندهم مقامات ودرجات هى :

(أ) الإمـــام المتيم : وهى أعلى المراتب ، وهو الذى يقيم الرسول الناطق ويعلمه رسالة النطق .

(ب) الإمام الأساسى .

(جـــ) الإمام المتمم .

(د) الإمام المستقر .

(هـــ)الإمام المستودع .

(و) الإمام القائم بالقوة .

(ز) الإمام القائم بالعقل .

وعلى ذلك فالواجب لحو الأئمة :

١ – الوفاء بعهودهم .

٢ – توقيرهم .

٣ – إخبارهم بأحوال أنفسهم وسؤالهم وطلب الاستغفار منهم .

٤ – الصبر على ما يمتحنون به أتباعهم والشكر لنعمهم .

٥ — الجهاد معهم .

٦ — التسليم لهم فى كل الأمور .

٧ — الخوف منهم .

٨ — موالاة من والاهم ومعاداة من عاداهم .

٩ — تحرى ما وافقهم والبعد عما خالفهم .

١٠ — التجرد عن الحسد وسوء الظن والحقد لهم .

١١ — دفع الخمس المكتوب لهم .

٥ — الظاهر والباطن : ولتعاليم الإسماعيلية ظاهر وباطن ولا انفصال لأحدهما عن الآخر، كما لا ينفصل الجسم عن الروح والإيمان بهما واجب الاتباع ، فعلم الظاهر يتصل بفرائض الدين وأركانه وهى واجبة على الجميع ، وعلم الباطن يكون فى التأويل والتنظيم الاجتماعى والسياسى ، والباطن عندهم أهم من الظاهر لذا سموا بالباطنية وذهبوا إلى تكفير من اعتقد بأحدهما دون الآخر فقالوا : من عمل بالباطن والظاهر معًا فهو منا ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا .

والباطن ينقسم إلى قسمين :

(القسم الأول) ما يقوم فيه على القرآن وعلى الفقه الذى عرف به القاضى نعمان وجعفر بن منصور اليمانى .

(القسم الثانى) وهو حقائق الحق وهو فلسفة الإسماعيلية العلمية والدينية التى تهدف للتدليل على شرعية الإمامة وأنها أساس دينى وأنها من اختصاص الفاطميين وحدهم ، فمذهب الإسماعيلية يتنوع فى تعاليمه بين الظاهر والباطن حتى يتمكنوا من مواجهة كافة مستويات أتباعهم ، وهم يتدرجون فى تلقين أفكارهم كل حسب مستواه واستعداده فلا يعطوا تعاليمهم السرية إلا بعد اطمئنانهم إلى استعداد الفرد لتقبلها لذا سموا بالتعليمية .

والتأويل الباطنى هو صورة من صور الظاهر والباطن ، فللآيات القرآنية بنظرهم معنى ظاهر تدل عليه أساليب اللغة العربية ومعنى باطن ماخص الله به سيدنا علي بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأن هذا التأويل قد تسلسل فى الأئمة من نسل علي فهم وحدهم المختصون بالتأويل

وهـــم الراسخون بالعلم الذين عنتهم الآية الكريمة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْـــمِ ﴾ وزعمـــت الإسماعيلـــية أن لديها كتابًا توارثوه عن الإمام علي رضى الله عنه اسمه (الجعفـــر) ينســـبوه إلى جعفر الصادق وأن الإمام علي هو الذى وضع أصوله . واستخلاص الباطن من الظاهر يقوم على نظرية (المثل والممثول) أى تفسير الأمور غير المحسوسة بما يماثلها من أمور محسوسة .

وقد اهتمت الإسماعيلية اهتمامًا بالغًا بالتنظيم والتخطيط والدعاية فاستطاعوا أن يتصلوا بأقصى أنحاء العالم عن طريق الحمام الزاجل ، وأن ينشروا دعوهم من سلمية السورية إلى اليمن والمغـــرب ومصر وشبه القارة الهندية ،والجدير بالذكر أن الإمام جعل الدعاة من حدود الدين حـــتى يســـتجيب لهـــم الأتباع عن طيب نفس ليتمكنوا من نشر الدعوة الإسماعيلية دون أية معارضة ، لأن معارضة الدعاة تعتبر مروقًا من الدين .

ولقـــد قســـموا العالم اثنى عشر قسمًا بعدد أشهر السنة وأطلقوا على كل قسم جزيرة والمطاع فيها يسمى داعى دعاة الجزيرة أو الحجـــة . وقالوا إن الدعوة لا يمكن اســـتقامتها إلا بـــاثنى عشر داعيًا يقولون أن إدارتها يقابلهم فى عالم الفلك اثنا عشر برجًا هى : الحمل — الثور — الجوزاء — السرطان — الأسد — السنبلة — الميزان — العقرب — القوس — الجدى — الدلـــو — الحوت — يطابقها فى جسم الإنسان اثنا عشر ثقبًا يقابلها فى عالم الحجب اثنا عشر حجابًـــا هـــى : حجاب القدرة — العزة — العظمة — الهيبة — الجبروت — الرحمة — النبوة — الكربة — المنـــزلة — الرفعة — الشفاعة — السعادة .

وهـــناك مرتـــبة ســـرية لا يعـــرفها إلا الإمام نفسه وهى باب الأبواب .. أما مراتب الإسماعيليين فهى اثنا عشر مرتبة هى : إمام — باب — حجة — داعى دعاة — داعى البلاغ — النقيـــب — المـــأذون — داع محـــدود — جناح أيمن — جناح أيسر — مكاسر — مستجيب ، وللإسماعيليين مجلس أعلى إسماعيلى مهمته الإشراف على جميع النواحى ويعيّن من قبل الدعاة وهم لجنة ثقافية تهتم بالمدارس والبعثات ونشر الدعوة .

وقد تفرع عن الإسماعيلية الطوائف التالية :

(أ) الخطابية :

هـــم جماعـــة قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم فرقة من المباركية ينتســـبون إلى أبي الخطاب الأسدى الذى غالى فى تأليه آل البيت وادعى النبوة ، فقتله عيسى بن موسى والى الكوفة زمن العباسيين على شاطىء الفرات (كما ذكر النوبختى فى فرق الشيعة ص ٥٩) . ويـــرى بعـــض المحققين أن جماعة أبي الخطاب الذين قتلهم عيسى بن موسى زمن العباســـيين لم يقولـــوا بإمامة محمد بن إسماعيل مما يدل على أن الخطابية فرقة إسماعيلية متأخرة وليست جماعة أبي الخطاب ، لما قتل أبو الخطاب تفرقت الخطابية أربعة فرق :

١ – المعمـــرية : زعمـــوا أن الإمام أبي الخطاب يقال له المعمر واستحلوا الخمر وسائر المحرمات وتركوا الفرائض .

٢ – البزيغـــية : زعموا أن بزيغ هو الإمام بعد أبي الخطاب وأن الله ظهر للخلق بصورة جعفر الصادق وأوّلوا الآية الكريمة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بوحى من الله فكـــل نفس بنظرهم يوحى إليها وأن أتباعهم أفضل من جبريل وميكائيل – وادعوا رؤية أمواتهم بكرة وعشيًا وأنهم لا يموتون بل يرجعون للملكوت .

٣ – العملية و العميرية : قالوا بإمامة عمير بن بيان العجلى بعد أبي الخطاب نصبوا خيمة بكناسة الكوفة كانوا يجتمعون فيها على عبادة جعفر الصادق – ولما بلغ يزيد بن عمر بن هبيرة خبرهم صلب عميرًا فى كناسة الكوفة حتى مات .

٤ – المفضلية : زعموا أن الإمام بعد أبي الخطاب مفضل الصيرفى وكانوا يقولون بربوبية جعفر الصادق دون نبوته ورسالته .

ومن عقائدهم : أن الله عز وجل هو محمد ، أظهر نفســـه لخلقه بصـــورة إنســـان كى لا يستوحشوا به ولما أظهر نفسه بشكله النورانى أنكروه ، ولما أظهر نفسه فى باب الإمامة على

ذريـــته قبلوه فظاهر الله تعالى هو الإمامة وباطنه هو محمد ، لذا اعتبروا أبا الخطاب نبيًا مرسلاً أرسله الإمام جعفر الصادق فأحلوا المحرمات وأسقطوا العبادات من صوم وصلاة وحج وزكاة، وجعلـــوا لقبول المنتسب إليهم امتحانًا طويلاً أوله أن يشرب الخمر على أنها حلال وأن يعرف باطن الصلاة والفرائض وآخر امتحان المواساة وهى أن يجعل أستاذه الخطابى شريكًا له فى ماله ونســائه فيخرج له الخطابى أهله (وعاءه) من زوجة وبنت أو أخت فيطأهن الممتحن ويخرج لـــه الممـــتحن كذلك زوجته أو ابنته أو أخته فيطأهن الخطابى وهكذا يصبح هذا الممتحن أخًا مؤمنًا (المقالات والفرق للقمى ص ٥٨ – ٥٩) .

ومن عقائدهم القول بالتناسخ فأرواح الجاحدين تحل فى الحيوانات من قردة وخنازير وفى الجمادات من حديد وحجارة وأوّلوا لذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أما أرواحهم فتنتقل إلى سبعة أبدان أخرى تكون أقمصة لها .

(ب) القرامطة :

يؤكد النوبختى والقمى أن القرامطة فرقة من الإسماعيلية المباركة الذين آمنوا بإمامة محمد المكتوم خاتم الأئمة .

والقـــرامطة ينتســـبون إلى شخص اسمه حمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط لقصر قامته وســـاقيه ممـــا جعله يشعر بنقصه فينعكس ذلك على نفسيته فأظهر الحقد للناس والبغض لكل وضع .

ويروى ابن سنان أن أصل الداعية الإسماعيلى حمدان بن الأشعث القرمطى من خوزستان فى الأهواز ثم رحل إلى الكوفة فنزل فى مكان اسمه النهران وتظاهر بالزهد والورع ، وأذاع أن الصـــلاة المفروضـــة خمسين صلاة فى اليوم ، ودعا إلى إمامة أهل البيت فاعتنق أهل قرية كور مذهبه وانشغلوا بالصلاة عن أعمالهم ، فتنبه لذلك الهيصم أمير تلك المنطقة فسجنه يريد قتله ، فســـاعده أتباعه على الهرب فافتتن الناس به . ومما ساعده على نشر مذهبه الاضطرابات التى عمت البلاد خمسة عشر عامًا نتيجة ثورة الزنج .

لقــد بدأ حمدان نظامه المالى على أتباعه بفرض درهم على كل رجل أو امرأة من أتباعه سمـــاه الفطــرة ، ثم فرض دينارًا على كل بالغ من رجل وامرأة سماه الهجرة ، ثم فرض سبعة وسماها البلغة ، ثم فرض عليهم الألفة وذلك بأن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد وأن يكونوا فى هـــذا المـــال سواء ، وقال لهم : لا حاجة بكم إلى الأموال فإن الأرض بأسرها ستكون لكم ، وألـــزمهم بشـــراء السلاح سنة ست وسبعين ومئتين ، ثم بدأ بتطبيق الشق الثانى وهو إشاعة النســـاء فطلب إليهم أن تجتمع النساء فى ليلة عيّنها لهم ، وطلب من الرجال أن يختلطوا بهن ، ثم أســـقط عنهم الصوم والصلاة وجميع الفرائض ، وأباح لهم دماء وأموال مخالفيهم ، وفى عام ٢٢٧هـــــ ولما آنسوا فى أنفسهم القوة أقاموا دار هجرة فأقاموا حول (مهتما باز) قرية من ســـواد الكوفـــة سورًا عرضه ٨ أذرع وحفروا حوله خندقًا عظيمًا وبنوا داخل السور المبانى ونقلـــوا إليها النساء والرجال وبدأوا بسفك الدماء وقتل من خالفهم فخافهم الناس لتمكنهم وإرهابهم .

ومـــن أشـــهر دعاة القرامطة عبدان صهر حمدان وهو مؤلف معظم كتب القرامطة وهو الذى عين زكرويه داعى العراق وأبا سعيد الجنابى داعى فارس الجنوبية .

وكان حمدان يتلقى التعليمات من القداحين فى السلمية مركز الإمامة الإسماعيلية ، ولكن ســـرعان ما شعر بقوته وشق عصا الطاعة عليهم وقطع الصلة بقادته فى سلمية .. ولكن أولاد مـــيمون القـــداح لم يرضوا عن هذا الانشقاق وتحالفوا مع زكرويه وحرضوه على قتل حمدان وصـــهره عـــبدان فقتلهما عام ٢٨٠هـــ وعاد ولاء إسماعيلية الكوفة إلى سلمية فى سورية ، ثم اختفى زكرويه زمن المعتصم العباسى فى منزل سلفه ولما تولى المعتضد خرج زكرويه من مخبئه وحاول زكرويه أن يستميل إليه بدو بادية الشام ، وادعى يحيى بن زكرويه أنه محمد بن إسماعيل وأن ناقـــته مـــأمورة فلقب صاحب الناقة فقصد دمشق وهاجم المدن والقرى التى فى طريقه فأحـــرقوا المســـاجد وسبوا النساء وسرقوا الأموال وحاصروا دمشق فأرسل إليهم المصريون (بـــدارًا الكـــبير – مـــولى ابن طولون) فهزمهم وقتل ابن زكرويه ، فتولى الإمامة الحسين ابن زكرويه وسمى نفسه أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ودعى أهل البادية لاتباعه فتبعه كثيرون ، وكان له شامة فلقب بصاحب الشـــامة فشق عصا الطاعة على آل القداح بسلمية حـــين شعر بقوته . وهاجم دمشق فصالحه أهلها على خراج يدفعونه ثم فتح حمص وحضر إليه

ابن عمه عيسى فكناه المدثر ، وزعم أنه المدثر المذكور فى القرآن وعهد إليه بالإمامة من بعده وفـتح حمـاة ومعرة النعمان فقتل أهلها ونساءها وأطفالها ، ثم توجه إلى بعلبك وقتل أهلها ، ثم حاصـر سـلمية مركز إمامتهم فقضى على آل القداح واستباح المدينة ، ثم هاجم القرى المجـاورة فقـتل وأتى من المنكرات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .. وما أن سمع ابن طولون بجرائمهم وجه إليهم بدرا مولى ابن طولون سنة ٢٩٠هـ بجيش كبير فانهزم القرمطى مع بعض أتـباعه ، واسـتطاع جيش ابن طولون القبض على حسين بن زكرويه وعلى ابن عمه المدثر وأرسلهما إلى بغداد حيث قتلهم الخليفة وخلص المسلمين من شرهم .

عندما تولى زكرويه القيادة بنفسه كتب إلى قرامطة بادية الشام رسالة أرسلها مع داعيته القاسم بن أحمد كى يحضروا إلى الكوفة أول أيام عيد النحر ، فدخل الكوفة منهم ثمانمائة فارس بعد أن انفض الناس من صلاة العيد وضربوا على القاسم بن أحمد خيمة وقالوا هذا ابن رسول الله وصاحوا بالثأر للحسين بن زكرويه وساروا لاعتراض طريق الحجاج فنهبوا القوافل وسبوا النساء واستعبدوا الأحياء . قيل أنه قتل فى قافلة واحدة زهاء عشرين ألف رجل وعمل منهم دكة وقف عليها زكرويه ، وكانت نساء القرامطة يطفن بالماء على القتلى يعرضن عليهم الماء ليعرفن الأحياء منهم فمن كلمهن قتلنه (الكامل جـ ٧ ص ١٨٨) ثم أرسل المكتفى جيشًا كـبيرًا شتت شملهم وأسر زكرويه وهو مصاب وخليفته القاسم وابنه وكاتبه وزوجته ولكنه هلك بعد خمسة أيام فأرسلت جثته إلى بغداد وصلب هناك . (ابن خلدون جـ ٤ ص ١٨٧ – ١٨٨) .

أمـا قـرامطة الـبحرين فبدأ دورهم عام ٢٨١هـ حين جاء يحيى المهدى أحد دعاتهم إلى القطيف ونزل عند على بن المعلى بن حمدان مولى الزياديين . وكان مغاليًا فى التشيع فأظهر لـه يحيى أنه رسول المهدى وأن ظهوره قد اقترب ، فتجاوب معه شيعة القطيف كافة وشيعة الـبحرين وعـلى رأسهم أبو سعيد الجنابى ، ثم تخلص أبو سعيد الجنابى من يحيى فقتله لينفرد بالرئاسة ثم نشط بالدعوة إلى مذهبه ، فاستجاب له بنو سنبر وعلى رأسهم الحسين وعلى حمدان مـن الوجهـاء ، وزوّج الحسـين ابنته من أبى سعيد فاشتد نفوذه وأقبل الناس عليه وتحرك بمن حوله من الأعراب والقرامطة ، فقتل أهـالى القرى التى حوله ثم سـار إلى القطيف فقتل مـن بهـا ثم الـتقى بجيش المعتضد بقيادة العباس الغنوى فهزمه فهاجم هجر عاصمة البحرين

واحتلها وجعلها عاصمة له . واستطاع أبو سعيد أن ينشئ مجتمعًا إباحيًا وأن يجمع حوله أبناء الأسرى وأبناء أتباعه فيشكل منهم جيشًا لا يعرف غير القتال حرفة وطاعة الرئيس دينًا والجنس متعة .

وحاول أبو سعيد فى آخر حياته التقرب من الخليفة العباسى مما أثار العبيديين عليه ، فدبروا مؤامرة للقضاء عليه على يد خادم صقلى فى الحمام ثم تولى ابنه سعيد الحكم من بعده وسار على سياسة أبيه بالتقرب من العباسيين ، وأطلق سراح أسرى المسلمين فقتله العبيديون ونصبوا أخاه أبا الطاهر مكانه .

كان أبو طاهر حقودًا على الإسلام والمسلمين فجعل همه قتل أكبر عدد منهم .. ففى سنة ٣١١ هاجم البصرة ومعه ألف وسبعمائة رجل ، فتسلق سورها بالسلالم ودخلها ثم استباحها وأقام سبعة عشر يومًا ينقل ما يستطيع من أمتعة وأموال ونساء وصبيان ، ولم يخرج منها حتى هدم مسجدها .. وفى سنة ٣١٢ هاجم الحجاج فسبى النساء والأموال وترك الحجاج يموتون جوعًا وعطشًا فى حر الصحراء ، وفى نفس العام دخل الكوفة وجعل مسجدها اصطبلاً .

الاعتداء على المقدسات :

وفى سنة ٣١٧ فى عهد الخليفة المقتدر زحف أبو طاهر على مكة فى موسم الحج وفى اليوم السابق للوقوف بعرفة قام بالاعتداء على الحجاج وأعمل فيهم سيوفه فقتلهم وردم بهم بئر زمزم وفرش بهم المسجد وقتل فى شعاب مكة من أهل خراسان والمغاربة ثلاثين ألف حاج وسبى النساء والأطفال وحطم باب الكعبة واقتلع الحجر الأسود وذهب به إلى القطيف ، وواصل رجاله الاعتداء على الأهالى فنهبوهم وسلبوهم وفسقوا فيهم واستولوا على حليهم وتحفهم الثمينة وعلى ما وجد فيها بالكعبة أو معلقًا على جدرانها حتى أنهم استخدموا خمسين جملاً لنقل ما نهبوه .. وقد ظل الحجر الأسود فى حوذة القرامطة العراقيين قرابة اثنين وعشرون عامًا حتى أعيد ثانية إلى مكانه بجوار الكعبة .. وكان أبو طاهر يقول وهو يخلع باب الكعبة : أنا بالله وبالله أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا – وقد أهلكه الله سنة ٣٣١هـ ولم تكن هذه المرة الأولى التى تم فيها الاعتداء على الكعبة فقد اعتدى الحجاج ابن يوسف الثقفى حاكم العراق على الكعبة من قبل وأمر جنده حيث تم ضربها بالمنجنيق وحرقها بالنفط فتهدمت أركانها .

كمـــا قام ابن نمير الكندى قائد جيش يزيد بن معاوية أثناء محاولته القبض على عبد الله بن الزبير فى مكة الذى احتمى مع رجاله بالكعبة بالاعتداء عليها فضربها بالمنجنيق حتى تمزقت كسوتها ثم رمى الكعبة بالنفط فاحترقت واحترق معها الحجر الأسود وضعفت جدران الكعبة وانهـــار بعض أجزائها — كما قام يزيد باستباحة المدينة المنورة وقتلوا بها أربعة آلاف وخمسمائة نفر وهتك عرض ألف بكر (ابن الأثير) .

بعـــد مـــوت أبى طاهر عيّن عبد الله المهدى أخاه أحمد واليًا عليهم وسموه أبا المنصور ، وعينوا سابور الابن الأكبر لأبى الطاهر وليًا للعهد وأمروا أحمد أن يعيد الحجر الأسود إلى مكة فأعاده ، ثم تآمر أولاد أبى الطاهر على عمهم أحمد فاعتقلوه وثار أولاد عمهم عليهم والتهت المعركة بقتل سابور ونفى أخوته وأنصارهم إلى جزيرة أوال .

وكانت نهاية القرامطة فى عهد المستنصر حيث طردوا من جزيرة أوال ام ٤٥٨هـــ نتيجة سلســـلة ثورات قام بها أهل السنة البحرانيون حيث لاحق السلاجقة القرامطة إلى الأحساء ، فـــانطوت القـــبائل تحت قيادتهم والتصروا عليهم فى موقعة الخندق الفاصلة عام ٤٧٠هـــ ، وفى هـــذه الموقعـــة تم القضـــاء نهائيًا على القرامطة الذين كانوا مصدرًا للرعب زهاء قرنين من الزمن .

ومن عقائدهم أنهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء (إنكار الأنبياء) وعلى القول بقدم العالم لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبرًا لا نعرفه (إنكار الله) وأن الجنة نعيم الدنيا وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصوم والحج والجهاد (إنكار أركان الإســـلام) وأن أهل الشرائع يعبدون إلهًا لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم (إيمـــانهم بحلـــول الألوهية فى شخص الحاكم) لقد خرج البغدادى من القرامطة لأنهم قالوا بألوهية محمد بن إسماعيل .

والقـــرامطة يعـــتقدون أن العقـــل قد فاض عن النفس الكلية أو التالى وبواسطة العقل والنفس وجدت المخلوقات ولكن العقل هو الأول لذلك سمى السابق .

لذا يمكن القول بأنهم يعتقدون بأمرين يخرجهما من حظيرة الإسلام وهما :

١ — اعتقادهم باحتجاب الله فى صور البشر .

٢ – قولهم بوجود إلهين اثنين (السابق والتالى) وهذا يعنى إنكارهم وحدانية الله واعتقادهم أن الله شريك فى الخلق ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

٣ – أما عقيدتهم فى الوحى والنبوة والرسالة : النبى عندهم شخص فاضت عليه من السابق (العقل) بقوة التالى (النفس) قوة قدسية ، وأن جبريل هو العقل الفائض عليه ، وأن القرآن هو تعبير محمد عن المعارف التى فاضت عليه من العقل فسمى كلام الله مجازًا لأنه مُركّب من جهته ، ويظهر هذا المعتقد عندهم فى رسالة عبيد الله إلى أبى سعيد الجنابى يوصيه فيها (بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ويدعوهم إلى إبطال الشرائع وإبطال المعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة فى السماء والجن فى الأرض) وأوصاه أن يحيط بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الأحد بدل السبت .

٤ – تنظيم الدعوة على تسع مراحل : وضع عبدان داعية حمدان القرمطى تسع مراحل أو بلاغات لاصطياد الناس وإخراجهم من دينهم ، ولئن قارنا هذه البلاغات بالمراحل التى يرويها النويرى عن أخى محسن محمد بن على بن الحسين لرأيناها تطابق المراتب التى وصفها الإسماعيليون تمامًا ، وفيها يقررون أن الأنبياء سبعة وأن محمدًا هو السادس وأن محمد بن إسماعيل هو النبى السابع .

٥ – الشىء الذى امتاز به القرامطة عن الإسماعيليين جرأتهم على إشاعة النساء والمال وبذلك استطاعوا أن يجمعوا حولهم أصحاب الشهوات والمراهقين وأسافل الناس . ولقد أمر الجنابى أتباعه فى البحرين بإقامة ليلة سماها ليلة الإفاضة يجتمع فيها النساء والرجال وتطفأ الأنوار ويمارسون الجنس بين المحللات والمحرمات .

٦ – وسائل القرامطة فى استدراج أتباعهم :

– أما التفرس : فمعناه أن يكون الداعى فطنًا ذكيًا يميز بين من يمكن استدراجه ومن لا يمكن ، قادرًا على تأويل النصوص والإيهام بأن لها باطنًا لا يعرفه كل أحد ، كما يكون قادرًا على أن يقدم لكل واحد ما يتفق مع مزاجه وميله ومذهبه .

- وأما حيلة التشكيك : فهى أن يجتهد الداعى فى تغيير اعتقاد المستجيب ، وذلك بالأسئلة عن الحكمة فى مقررات الشرع ، وغوامض المسائل ، ومتشابه الآيات ، وأسـرار الأرقام فى مثل قوله تعالى ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ ، ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ ، ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .
- وأما حيلة التعليق : فتكون بأن يطوى عنه سر هذه الشكوك ، ويوهمه بأنه يملك حقيقتها ويعرف كنهها ، ولكن لا يمكن البوح بها لكل أحد ، ولا فى كل حين ، بـل لابـد من عهود ومواثيق على من يريد معرفة هذه الأسرار ، ويتركه هكذا معلقًا .
- وأما حيلة الربط : فتأتى بعد التعليق ، بأن يربطه بأيمان مغلظة ، وجهود مؤكدة ، لا يجسر على المخالفة لها بحال .
- وأمـا حيلة التدليس : فتكون بالتدرج فى بث الأسرار إليه بعد أن ربطه بالأيمان والعهـود المؤكدة ، إذ يأخذ فى اطلاعه على قواعد المذهب شيئًا فشيئًا ، ويوهمه أن لهذا المذهب أتباعًا كثيرين ، ولكنه لا يعرفهم .
- وأمـا حيلة التلبيس : فتكون بالاتفاق على بعض المسلمات ، والقواعد البدهية ثم يستدرجه منها إلى نتائج باطلة ، وذلك بعد أن يكون قد أسلم له قياده .
- وحـيلة الخلع والسلخ : وهما بمعنى واحد إلا أن الخلع يختص بالعمل فإذا أسلم المستجيب قيادة وبدأ العمل والتنفيذ لما يريده منه القرامطة ، يكون قد انخلع عن مجتمعه ، ووصل إلى درجة الخلع ، وأما السلخ : فيختص بالاعتقاد الذى هو خلع الدين واعتقاد فلسفة المذهب قلبًا وإيمانًا بعد أن أخذها منهجًا وعملاً .

(جـ) إخوان الصفا وخلاّن الوفاء :

جماعـة نشأت فى منتصف القرن الرابع الهجرى بالبصرة ويرجع الأستاذ عمر الدسوقى تـاريخهم إلى ٣٣٤ - ٣٧٣هـ عملوا على الخلط بين الفلسفة والشريعة ، وراحوا يكتبون آراءهم دون أن يكشفوا أسماءهم ، ولما بلغت الخلافة العباسية درجة من الضعف شجعت كل أمير على الاستقلال بولايته وشجعت آل بويه الشيعة على دخول بغداد والاستيلاء على مقر

الخلافة العباسية وتشجع إخوان الصفا وكشفوا عن رسائلهم وشخصياتهم . لقد نشأوا فى ظل الدولة البويهية وانتهوا بانتهائها .

وقد قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية .. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علميًا وعمليًا وأفردوا لها فهرسة وسموها رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفاء وكتّموا أسماءهم وبثوها فى الوراقين ولقبوها للناس (الامتناع والمؤانسة جـ ٢ ص ٤ — ٥) ويزعم دعاة الإسماعيلية أن مؤلف رسائل إخوان الصفا هو أحد أئمتهم المستورين واسمه أحمد بن عبد الله ابن محمد ، ويقولون إن أول من ذكر رسائل إخوان الصفا هو الداعية الإسماعيلى الحامدى .

ويقول الدكتور محمد الخطيب فى كتابه (الحركات الباطنية ص ١٧٣) : على أية حال فإنه مما لا جدال فيه أن رسائل إخوان الصفا ليست من تأليف شخص واحد بل من تأليف جماعة متعددة تتباين معارفهم وأساليبهم .

وتعتبر رسائل إخوان الصفا مقدسة لدى الإسماعيلية حتى تصل فى تقديسها إلى منزلة القرآن الكريم ، والإسماعيلية بجميع أقسامها تعظم هذه الرسائل فالمستعلية أو الطيبية والنزارية جماعة أغاخان حتى الحشاشون المعرفون بغلوهم كانوا يدرسونها فى قلاعهم .

ومن عقائدهم :

١ — أن الإنسان الكامل العالم الخبير الفاضل الذكى المستبصر عندهم فإنما هو : الفارسى النسبة ، العربى الدين ، الحنفى المذهب ، العراقى الآداب ، العبرانى المخبر ، المسيحى المنهج ، الشامى النسك ، اليونانى العلوم ، الهندى البصيرة ، الصوفى السيرة ، الملكى الأخلاق ، الربانى الرأى ، الإلهى المعارف (حـ ٢ ص ٣١٦ من رسائلهم) .

٢ — كان إخوان الصفا لا يقبلون النساء فى جماعتهم ولا الكهول وهذا ما يشير إلى أن نظرهم فى المرأة واحدة مع فرق الإسماعيلية والباطنية ، فالمرأة عند النصيرية لا تستحق أن تأخذ الدين وهى عند القرامطة مباحة يستمتع بها من يشاء . وللمرأة فى نظر إخوان الصفا

مهمــتان الأولى إنجــاب النســل والثانــية للاستمتاع الجنسى عند من لا يستطيع التعفف . أما من الناحية العقلية فهى مثل الصبيان والجهال والخدم والحمقى .

٣ – تقــوم فلســفتهم عــلى أن بعض المعطيات ذات الأصل الإسلامى قد لقت عند الإخــوان بالمعطــيات اليونانــية المــتعلقة بخصائص الأعداد ، فالرقم ١٧ يلعب دورًا بارزًا فى الغنوص اليهودى أضف إلى ذلك أن الرقم ١٧ يشير إلى عدد الأشخاص الذين تكلم عنهم العــرفانى الشيعى (المغيرة) والذين سوف يبعثون إبان ظهور الإمام المهدى ويعطى لكل منهم حرف من الحروف السبعة عشر التى تؤلف اسم الله الأعظم .

ومراتب إخوان الصفا أربع :

(أ) الإخوان الأبرار الرحماء : هم الشبان الذين تتراوح أعمارهم من ١٥ – ٣٠ تنشأ نفوسهم على الفطرة .

(ب) الإخــوان الأخيار الفضلاء : هم الرجال بين ٣٠ – ٤٠ تفتح لهم أبواب الحكمة الدنيوية ويتلقون معرفة الأشخاص عن طريق الرمز .

(جـ) الإخوان الفضلاء الكرام : بعد سن الأربعين يستطيع الإطلاع على أسرار الحقيقة الروحانــية المســتقرة فى ثنايا الكلام الظاهر من الشريعة ، وهذا النمط من المعرفة هو معرفة نبوية .

(د) إذا زاد عن ٥٠ انكشفت له الحقيقة الروحية الباطنية وصار يشهد حقائق الأشياء على ماهى عليه كالملائكة المقربين وينفذ إلى أسرار كتاب الوجود كنافذة إلى أسرار المنزل .

والرسائل تتكون من اثنتين وخمسين رسالة قسموها أربعة أقسام وهى :

– الرسائل الرياضية التعليمية وعددها أربع عشرة رسالة .

– الرسائل الجسمانية الطبيعية وعددها سبع عشرة رسالة .

– الرسائل النفسانية العقلانية وعددها عشر رسائل .

– الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية وعددها إحدى عشرة رسالة .

٤ – نظـــرة الألوهية والتوحيد عند إخوان الصفا وردت فى المجلد الثالث وتتلخص فى أن الله تعـــالى تـــام الوجود كامل الفضائل عالم بالكائنات قادر على إيجادها متى شاء ، وليس مـــن الحكمة بنظرهم أن تحبس تلك الفضائل فى ذاته بل الحكمة أن يفيض بها كما تفيض عين الشمس بالفضاء ، وما دام الفيض متصلاً متوافرًا فيسمى أوله العقل ثم يفيض عن العقل فيض آخـــر دونه فى المرتبة فيسمى النفس وتفيض النفس فيضًا دونه فى المرتبة فتكون الهيولى – نواة الجســـد – وما دامت النفس تفيض على الجسد استمرت الحياة ومتى انقطع فيضها انعدمت الحـــياة ، ومـــا دام الله موجـــودًا دام الفيض والعطاء واستمر وجود العالم ، فالعالم قديم بقدم الله مســـتمر باســـتمراره ، لذا فلا داعى بنظرهم للتكاليف الشرعية مادام العالم مستمرًا فيه ولا حساب .

٥ – نظـــرهم إلى الأنبـــياء والرسل فى الرسالة السادسة من الجزء الرابع ص ١٧٨ : (يـــروى أن أرفـــع منزلـــة يرتفع إليها الإنسان هى منزلة الأنبياء ويليهم فى المرتبة الفلاسفة والحكماء وأن إتمام منزلة النبى فى ست وأربعين خصلة من فضائل البشرية أولها الرؤية الصادقة، فإذا اجتمعت هذه الخصال فى واحد من البشر فى أى وقت من الزمان فإن ذلك الشخص هو المبعوث وصاحب الزمان والإمام للناس مادام حيًا) فمحمد (ﷺ) بنظرهم ليس خاتم الأنبياء لأن النـــبوة مرتـــبة يرتقى إليها العلماء والفلاسفة ، لذلك اعتبروا كل فيلسوف كبير نبيًا ، من أجل ذلك يجمعون بين موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وزرادشت وسقراط وفيـــثاغورث وعـــلى والحســـين فى طبقة واحدة ثم نادوا بوحدة الأديان ، وأن غاية الأديان واحدة .

٦ – ورأيهم فى عالم الغيب : لا يؤمن إخوان الصفا بالأمور الغيبية بل يؤولونها إلى أمور حســـية ، فالجـــنة عـــندهم هى عالم الأرواح وسعة السماوات ، وجهنم بنظرهم عالم الكون والفساد التى هى دون فلك القمر ، وأن أهل جهنم هم النفوس المتعلقة بأجسام الحيوانات التى تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التى فى العالم .

ويقولون إن البعث والقيامة أمور تقال لعامة الناس أما الخاص ومن قد نظر فى العلوم فإن هذا لا يصلح لهم ، لأن كثيرًا من العقلاء والحكماء ينكرون خراب السماوات ويأبون ذلك .

(د) الحشاشون :

حسن الصباح هو زعيم طائفة الحشاشين ، والحشاشون جناح من الإسماعيلية (النـــزارية) أقاموا فى بلاد فارس .

والـــده من شيعة الكوفة بالعراق ويقال إن أصله من اليمن ، سكن مدينة قم حيث ولد ابنه حسن الصباح فيها ثم انتقل إلى مدينة الرى قرب طهران .. وكانت الرى مركزًا إسماعيليًا هامًـــا .. تأثـــر حسن بأحد دعاة الإسماعيلية واسمه عميرة زاراب ، وأقسم يمين الولاء للإمام الفـــاطمى .. غـــادر حسن الصباح الرى عام ١٠٧٦ إلى أصفهان فأزربيجان ، ثم رحل إلى العـــراق فســـوريا فوصـــل مصر ١٠٧٨ فاستقبل بحفاوة بالغة ، مكث حسن فى مصر ثلاث سنوات ويقال إنه اختلف مع أمير الجيوش فسجنه ثم طرده منها . عاد حسن إلى أصفهان وبدأ يـــتجول لنشر دعوته وركز اهتمامه فى أقصى الشمال الفارسى وبأقليم الديلم بالذات لصلابة أهله ووعورة أراضيه .

اســـتقر حسن الصباح فى دمغان من أعمال قزوين وبدأ يرسل الدعاة للعمل فى القرى المحيطة بالقلعة ، ثم تمكن من التأثير على بعض حماة القلعة فأدخلوه سرًا إليها فكثر أنصاره فيها، وعلم به مالك القلعة ولكنه أسقط فى يده ولم يســـتطع أن يفعل شيئًا فدفع له حســـن الصباح ثلاثـــة آلاف ديـــنار ثمنًا لها وطرده منها ، وبذلك أصبح حسن الصباح مالكًا لقلعة الموت ولم يخرج منها طيلة حياته .

وقـــد حقق حسن الصباح نجاحًا هامًا بالاستيلاء على قلعة لاماسار عام ١٠٩٦ بقيادة كـــبارز جمـــيد الذى بقى قائدًا لها مدة عشرين عامًا . وقد مكنت هذه القلعة الإسماعيليين من تدعيم قوتهم فى كل منطقة روديار .

واســـم قلعـــة آلمـــوت مشتق من كلمة (الوه آموت)ومعناها بلغة الديلم عش النسر أو تعليم النسر .

كـــان أول ضـــحية قتله الإسماعيليون الحشاشون مؤذنًا من سافا رفض الاستجابة لهم ، فخشوا أن يشى بهم إلى السلطان فقتلوه ، ولما بلغ النبأ الوزير نظام الملك أمر بقتل زعيمهم فى المنطقة واسمه طاهر، ويقول ابن الأثير إنه كان أول إسماعيلى يُعدم . وفى يوليو من عام ١٠٩٢م

أرسل السلطان ملكشاه السلجوقى حملتين إحداهما إلى قلعة آلموت والثانية إلى كوهستان للقضاء على الخطر الإسماعيلى ، وفى أثناء حصارهم فى قلعة آلموت من قبل السلاجقة قاموا بعدة اغتيالات ، وكان ممن جرى اغتيالهم من علماء السنة (عبد الله الخطيب) قاضى أصفهان وقاضى نيسابور والوزير أحمد بن نظام الملك ولكنه نجا من الموت ، وكان هناك ضحايا آخرون منهم علماء وشخصيات كبيرة .

بعد غياب الإمام الظاهر تنشط إسماعيليو فارس فى نشر دعوتهم فأرسل حسن الصباح دعاته من قلعة آلموت إلى دمغان واستطاع بمساعدة حاكمها مظهر – الذى استمالوه إلى دعوتهم – أن ينال مساعدات مكنته من احتلال قلعة (غير دكوه) وهى ذات مركز استراتيجى عسكرى وعين عليها مظفر الذى حكمها طيلة أربعين عامًا ، كما استولوا على قلعة (شاه ديز) قرب أفهان وقلعة (خالنكان) ، وتغلغل الإسماعيليون فى بلاط الملك بركيارق بعد أن هزم أخاه محمد تابار فقوى نفوذهم ، وبدأوا باغتيال كل من يظهر خصومته لهم . ولما استفحل خطرهم اتفق بركيارق مع أخيه سانجار على حربهم فحملوا عليهم حملة دمرت جدران حصنهم الرئيسى ، كما تمكنت قوات السلاجقة من هزيمتهم وتدمير قلعة طيس .

ثم هاجموا آخر قلاعهم آلموت غير أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فما كان منهم إلا أن رسموا خطتهم بهجوم سنوى لإضعافهم ، وإتلاف محاصيلهم حتى حلت بهم المجاعة طيلة ثمانى سنوات ، ثم فك عنهم الحصار بعد وفاة السلطان تابار .

ويقول المؤرخ الجوينى (بعث حسن الصباح قبيل وفاته إلى قلعة لاماسار لإحضار بزرجميد قائد القلعة وعينه خليفة له ، وجعل ديدار أبو على الأردستانى يجلس على يمينه وكلفه بشئون الدعوة ، وحسن بن أدام العشرانى يجلس على شماله ليتولى شئون الإدارة وكيابا جعفر أمامه قائدًا للقوات ، وكلفهم بالعمل أربعتهم فى اتفاق وتعاون إلى أن يظهر الإمام المستتر ويعول شئون المملكة ، وتوفى فى ٦ ربيع ثانى عام ٥١٨هـ) .

بعد وفاة حسن الصباح وتنصيب بزرجميد أميرًا للحشاشين بعده ، قام سنجار بإرسال عدة حملات للقضاء على الحشاشين فحقق بعض النصر عليهم ولكنهم اغتالوا الوزير المهيب قائد الجيوش فى القاهرة سنة ١١٢١م ثم اغتالوا الوزير معين سنة ١١٢٧م واغتالوا الخليفة

العباسي المسترشد أثناء وجوده فى أسر السلطان مسعود حاكم أكران كما اغتالوا والى أصفهان وحاكم مراغة ووالى تبريز ومفتى قزوين كما تم اغتيال ١٤ سنيًا منهم السلطان السلجوقى داوود وأمراء وحكام وتولى بزرجميد سنة ١١٣٩م وتولى من بعده ابنه محمد ثم من بعده حسن بن محمد بن بزرجميد سنة ١١٦٤م إلى أن قتل سنة ١١٦٦ ثم تولى بعده محمد الثانى الذى مات مسمومًا سنة ١٢١٠ على يد ابنه جلال الدين الذى كان يناهض سياسة والده فأعلن إسلامه وحرق كتب الإسماعيليين وأعاد الشريعة وأعلن ولائه للخليفة العباسي ويقال إنه مات مسمومًا سنة ١٢٢١ واستلم الأمر من بعده ابنه علاء الدين وكان طفلاً فى التاسعة من عمره مصابًا بلوثة عقلية ولكنه كان محترمًا لقداسة الإمام عندهم حتى اغتيل سنة ١٢٥٥ وأعقبه ابنه ركن الدين ثم تولى ابن ركن الدين الإمارة وكان من ذريته أسرة أغا خان .

وتناوب إمرة الحشاشين بعد ذلك بهرام ثم إسماعيل أبو الفتح ثم أبو محمد ثم سنان بن محمد الملقب شيخ الجبل .

ومن المعروف عن عصر حسن الصباح وسلوكه أنه كان يوحى إلى أتباعه بأنه قادر على إدخالهم الجنة أو النار وكان يستخدم بعض القلاع كنموذج للجنة الموعودة فيجد فيها الشخص ما يتمناه فى الجنة من نساء وصبيان وخمر وحشيش وأشجار وأنهار بحيث إذا عرض عليه هذا النموذج يضمن له الجنة إذا أطاع الأمر باغتيال أحد الأشخاص أو أدى مهمته بنجاح .

إن ظهور صلاح الدين الأيوبى وقضاءه على الدولة الفاطمية ومحاولته توحيد ديار الإسلام ليقف فى وجه الغزو الصليبى دفع الحشاشين إلى التعاون مع الزنكيين .. وفى رسالة وجهها صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد اتهم الزنكيين بالتحالف مع الحشاشين الملاحدة واستخدموهم وسطاء للاتصال بالفرنجة ووعدوهم بمنحهم قلاعًا وأرضًا وبيتًا لنشر دعوتهم فى حلب .

لقد بدأت أول محاولة للحشاشين لاغتيال صلاح الدين فى ديسمبر ١١٧٤ فاكتشفهم الأمير أبو قيس فقتلوه على الفور ولكن صلاح الدين لم يصب بسوء ، وفى العام التالى قام سنان بمحاولة أخرى فى ٢٢ مايو ١١٧٦ أثناء محاصرة صلاح الدين لمدينة أعزاز ، ولكن صلاح الدين أصيب بجروح طفيفة وقتل فى الاشتباك عدد من الأمراء .

وقـــد تقـــدم صلاح الدين باتجاه مصياف مركز الحشاشين فحاصره عام ١١٧٦ ولكنه مالبـــث أن فك الحصار واتجه للقاء الصليبيين بعد وساطة خاله أمير حماه الذى كان جارًا لهم وفى ٣١ أغســـطس ١١٧٧ اغـــتال الحشاشون شهاب الدين بن العجمى وزير الملك الصالح الزنكى فى حلب والوزير السابق لنور الدين ولكنهم فشلوا فى اغتيال اثنين من كبار أصحاب الوزيـــر ، واستمر النزاع بين أمير حلب وسنان فاستولى الملك الصالح على الهجيرة ورد عليه الحشاشون بإشعال النار فى سوق حلب ، وفى عام ١١٩٢ تمكن الحشاشون من اغتيال المركيز كونـــراد ملك بيت المقدس ، وفى مارس ١٢٧١ أعتقل بيبرس اثنين من الحشاشين قيل أنهما أرسلا لاغتياله ، ولكن حضور الزعيمين الإسماعيليين وقسمهما ببراءتهما أطلق سراحهما وطلب إليهما صحبته وتسليم قلاعهما ففعلا ، كما احتل قادة بيبرس بقية القلاع كالعليقة والرصافة ثم الخـــوابى كمـــا تم احـــتلال باقى القلاع عام ١٢٧٣ ، وأصبح بيبرس يهدد بهم خصومة مـــن الصليبيين وبقى منهم حتى الآن سكان منطقة سلمية ومصياف مسالمين يعملون بالزراعة يدين بعضهم لأغا خان فى فارس والبعض الآخر لمشايخ فرقتهم .

غلاة الشيعة

(أ) **الإسماعيلية** : سبق الحديث عنهم وعن فرقهم وفروعهم .

(ب) **النصيرية** : طائفـــة من غلاة الشيعة الذين ألّهوا عليًا بن أبى طالب ، وحجتهم فى ذلـــك كمـــا يروى الشهرستانى فى الملل والنحل : أن ظهور الروح بالجسد الجسمانى أمر لا يـــنكره عـــاقل . فمـــثله فى جانب الخير : كظهور جبريل عليه السلام بصورة بشر مثله ، وفى جانب الشر كظهور الشيطان وكظهور الجن بصورة إنسان يتكلم بلسانه .

ويقول ولما لم يكن بعد رسول الله (ﷺ) شخص أفضل من علي بن أبى طالب وأولاده المعصومين من بعده باعتبارهم خير البرية : فظهر الحق بصورهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم . لذا سموا بالإلهية .

وينتسب النصيريون إلى (محمد بن نصير) الفارسي الأصل ، الذى كان بابًا للإمام الحسن العسكرى ، والذى ادعى أن الإمام الثانى عشر الغائب أوصى له بالإمامة من بعده ، يقول النوبختى فى فرق الشيعة ص ٧٨ : وقد شذت فرقة من القائلين بإمامة علي بن محمد فى حياته فقال بنبوة رجل يقال له محمد بن نصير وكان يدعى أنه نبى بعثه أبو الحسن العسكرى وكان يقول بإباحة المحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضًا ، ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل وأنه أحد الشهوات والطيبات ولم يحرم شيئًا من ذلك .

ومن عقائدهم :

١ – **الولاية والإمامة** : يعتقد النصيريون بولاية علي بن أبي طالب أمور المسلمين الدينية ويزعمون أن النبى (ﷺ) بايعه ثلاث مرات سرًا : ١ – يوم نام فى فراشه ليلة الهجرة . ٢ – ويوم بيعة الشجرة . ٣ – وفى دار أم سلمة . أما البيعة الرابعة فجهرية كانت يوم غديرخم حيث أمره الله تعالى ببيعته كما يزعمون فقال يومها : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ونزلت عليه الآية الكريمة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ والولاية عندهم أعلى مرتبة من النبوة ، فإن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة جبريل أو يكلمهم الله مباشرة أما الإمام المعصوم المطهر فهو مصدر الإرادة الإلهية دون وحى أو واسطة لأنه تحت تأثير الإرادة الإلهية مباشرة .

٢ – **عصمة الإمام** : والأئمة بنظرهم معصومون من أى خطأ فقد وردت الآيات بعصمتهم وطهارتهم ويقصدون الآية الكريمة ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . أما الأنبياء بنظرهم فلم يرد نص بعصمتهم متجاهلين قول الله تعالى فى عصمة رسوله الأمين ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنْ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ . عن تاريخ العلويين ص ١٧٤ – ١٧٥ .

٣ – **تأليه الإمام** : الألوهية بنظر النصيريين مثلثة الأجزاء متحدة الحقيقة كما هى عند النصارى فهى عندهم معنى واسم وباب ، كما هى عند النصارى أب وابن وروح قدس .

أما المعنى فهو علي بن أبي طالب وهو الله العلى القدير . وأما الاسم فهو محمد بن عبد الله وهـــو حجابها النورانى . وأما الباب فهو سلمان الفارسى الذى يوصل إلى الحجاب النورانى . أمـــا التشـــهد عـــندهم فهو : أشهد أن لا إله إلا علي بن أبي طالب . وقد وصفوه فى كتاب المجمـــوع بأنـــه أحـــد صمد لم يولد ولم يلد وأنه قديم لم يزل . جوهره نور ومن نوره تسطع الكواكـــب وهو نور الأنوار تجرد من الصفاة يشق الصخور ، ويسحر البحور ويدبر الأمور ، ويخرب الدول خفى الجوهر ، وفى كتاب الهداية الكبرى للخطيبى : قال علي للشمس وعليك السلام يا خلق الله الجديد ثم هَمْهَمَ همهمة تزلزل منها البقيع فأجابت الشمس وعليك السلام يـــا أخ رسول الله ووصيه أشهد أنك الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت بكل شيء عليم (عن كتاب العلويين بين الحقيقة والأسطورة) .

ويعـــتقدون أن عليًا خلق محمدًا عليه الصلاة والسلام وأن محمدًا خلق سلمان الفارسى وأن ســـلمان خلق الأيتام الخمســـة وهم : ١ – اليتيم الأكبر المقـــداد بن الأســـود الكندى الموكل بالرعود والعواصف . ٢ – أبو ذر الغفارى وهو موكل بحركات الكواكب والأفلاك . ٣ – عـــبد الله بن رواحة وهو موكل بالرياح وقبض الأرواح . ٤ – عثمان بن مظعون وهو موكـــل بـــالأبدان وأمراض النساء . ٥ – وقنبر بن كادان مولى علي وخادمه ، وهو موكل بالتناسل ، وهؤلاء الخمسة خلقوا العالم فعلي عندهم رب العالمين وخالق الكون وباعث الرسل وهـــو يسكن السحاب ، الرعد صوته والبرق ضحكه ، ويرى الشـــماليون سكان الســـاحل السورى أنه يسكن القمر بينما يرى الكلازيون سكان الجبال أنه يسكن الشمس .

٤ – **كـتمان الديـن والتقية** : جاء فى تاريخ العلويين لأمين غالب الطويل : لقد كان الأئمـــة من أهل البيت يحتمون بحماية الإسلام المعنوية ، ولم يكن ذلك متحققًا للأبواب ولا لمن معهم لذلك اضطروا إلى التقية والكتمان فهم يتظاهرون بالإسلام تقية حتى يحضر الإمام الغائب صاحب الزمان وينتقم لهم من مخالفيهم أتباع الخليفتين .

٥ – **التناسـخ** : عقـــيدة التناسخ قديمة فى التاريخ فهى سمة مشتركة بين ديانات العالم القديم يقول الشهرستانى فى الملل والنحل جـ٢ ص ٥٤ : والغلاة على أصناف كلهم متفقون على التناسخ والحلول . كان التناسخ مقالة فى كل ملة من المجوس والمزدكية والبرهمية فى الهند ولدى الفلاسفة والصائبة .

ولقد لخص النوبختى فكرهم فى كتابه فرق الشيعة ص ٣٢ – ٣٥ بقوله :

ومقتضى مذهب هؤلاء الغلاة أن لا دار إلا دار الدنيا وأن القيامة إنما هى خروج الروح من البدن ودخولها بدن آخر إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وأنهم مسرورون فى هذه الأبدان أو معذبون فيها ، والأبدان هى الأجسام الرديئة المشوهة من كلاب وقرود وخنازير وحيات .

ولقد أجمع علماء المذاهب الإسلامية على إخراج من يقول بالتناسخ من دائرة الإسلام وحكموا عليه بالكفر لاصطدام هذه الفكرة مع ركن ثابت عرف من الدين بالضرورة ألا وهو الإيمان باليوم الآخر الثابت بنصوص يقينية .

كما أجمعت المجامع الكنسية المسيحية المنعقدة فى ليون بفرنسا عام ١٢٧٦ وفى فلورنسة عام ١٤٣٩ على إدانة القائلين بالتناسخ وتكفيرهم .

وكفر المتكلم اليهودى المعروف سعديا الفيومى القائلين بالتناسخ من اليهود كما فى كتاب الأمانات ص ٢٠٨ .

٦ – **التأويل وعلم الباطن** : يقول الدكتور الذهبى فى كتابه التفسير والمفسرون حـ١ص ١٨ : التأويل هو صرف المعنى الراجح على المعنى البديل يقترن به فإذا لم يكن اللفظ محتملاً المعنى الذى حمل عليه ولم يبين المتأول الدليل الذى حمله على ذلك كان تأويلاً فاسدًا بل تلاعبًا بالنصوص . والتأويل الفاسد هو الذى اعتمده الغلاة مدعين أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا وأن المراد منه باطنه دون ظاهره .

ويقولون فى تفسير الآية الكريمة ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ بأن الآيات المتشابهات لها معنى ظاهر ومعنى باطن يريدون أن يدعموا آراءهم بتأويل هذه الآيات ، ويقولون بأن التفسير الصحيح منحصر فى الإمام وحده ويستدلون على ذلك بالآية الكريمة ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ لذا فالإمام عندهم عارف بعلوم الأولين والآخرين – ولو كان جاهلاً – وذلك بسبب صلته المباشرة بالله تعالى . ويقولون بأن سيدنا محمد (ﷺ) خص بالتنزيل وأن عليًا رضى الله عنه خص بالتأويل ، وأن التأويل خير من التنزيل والباطن خير من الظاهر لذا سموا الشيعة الاثنى عشرية بالظاهرية القشرية

ورموهم بالكفر والردة لوقوفهم عند ظواهر النصوص كما ذكر الشيبى فى الفكر الشيعى ص ١٣٠ ، ٢٤٠ .

من تأويلاتهم : الجنة : رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام ، والنار : رجل أمرنا بمعاداته وهو ضد الإمام .

والصلوات الخمس عندهم : علي والحسن والحسين ومحمد وفاطمة . وأن ذكر هؤلاء يغنى عن الاغتسال من الجنابة والوضوء للصلاة أما الصوم فهو حفظ سر الدين والحج زيارة الإمام ، والجهاد لعنة الخصوم (الباكورة السليمانية) .

٧ – **إسقاط التكاليف وإباحة المحرمات** : نزعة قديمة تبيح لأتباعها تجاوز الأحكام الدينية والإلزامات الخلقية والاعتبارات الاجتماعية . ذلك أن للمجوس طبقة من الكهنة كانت تبيح الزواج بالأقارب المقربين . ويقول الشهرستانى فى الملل والنحل جـ٢ ص ٢٨٦ ما يلى : عرف عن مزدك دعوته إلى الإباحية واستحلال النساء فقد تزوج يزدجرد الثانى الذى تولى الحكم فى القرن الخامس الميلادى من ابنته كما عرف أن بهرام جوز الذى حكم فى القرن السادس الميلادى قد تزوج من أخته . ويذكر أيضًا أن عادة الزواج بالمحارم كانت عادة منتشرة فى الزرادشتية وكانت أكثر شيوعًا بين أهل التقى إرضاء لآلهتهم .

لقد أحلوا شرب الخمر بل أنهم يعظمونها ويعظمون شجرة الكرم التى هى أصل الخمرة لذلك يستعظمون قطعها . أما الاسم المقدس للخمرة عندهم فهو عبد النور لأن الله ظهر فيها كما وأنهم يحبون ابن ملجم قاتل الإمام علي بن أبي طالب لأنه خلّص اللاهوت من الناسوت ويخطئون من يلعنه .

٨ – **العبادة** : نوع من الحب والطاعة والولاء لأئمتهم ورؤسائهم . أما العبادات الظاهرية التى يؤديها المسلمون السنيون فهى معرفة أشخاص أئمتهم ورؤسائهم الدينيين وأصحاب المراتب عندهم ، وورد فى الباكورة السليمانية أن الصلوات الخمس وأوقاتها عندهم كالآتى : الظهر لمحمد والعصر لفاطم أى فاطمة والمغرب للحسن والعشاء للحسين والصبح لمحسن الخفى .

والزكاة دفع خمس ما يملكون لشيوخهم حتى من مهور بناقم .

أمـــا الحج فهو زيارة أئمتهم ورؤسائهم ، والصوم حفظ سر الدين والبعد عن النساء ، والجهاد وسب الخصوم .

٩ – السـباب والشـتائم عـلى الشيخين وغيرهمـا ممـن عـادى أحـد أئمتهم :

اعـــتقادهم أن مســـبة المخالفين فريضة دينية وهى من الجهاد ويشملون بذلك كل من عادى الرسول ولو كان من أهل البيت ، وكل من عادى عليًا ولو كان من أصحاب الرسول ، وكل من عادى فاطمة ولو كان من أصحاب علي ، وكل من عادى الحسنين ولو صاحب أباهما .

١٠ – المـــرأة : ليس للمرأة عند النصيريين اعتبار إنسانى لذا فهى ليست جديرة بتلقى الديـــن وتحمل واجباته ، ذلك لأن المحارم عندهم كانت مباحة فى الماضى حتى منعتها القوانين الســـورية ونصـــوا على الحط من قدر المرأة لأنها حرمت عليها المعرفة حتى إنهم حرموا على المؤمنين أكل لحوم إناث الحيوانات .

١١ – القـيامة : القـــيامة عندهم هى قيام الإمام المحتجب صاحب الزمان ليحكم بين أتـــباعهم ، وخصومهم ، ويحقق السيادة لهم وحدهم ضد خصومهم من أتباع الخليفتين الأول والـــثانى ومـــن شايعهم وعندما يعلن الدين ويظهر كل خفى ومكتوم منه . وهذه القيامة هى الرجعة الكبرى والكرة الزهرا .

١٢ – القداسات : للنصيرية قداسات كما للنصارى ذكر منها كتفاجو ثلاثة قداسات:

(أ) قـــداس الطيب لكل أخ حبيب . (ب) قداس البخور فى روح يدور فى محل الفرح والسرور . (جـــ) قداس الأذان .

١٣ – تشـكيلاتهم الدينية : يعتقدون أن الأجزاء الثلاثة (الاسم والمعنى والباب) لم تنـــته بعـــد انتهاء الرسالة بل بقيت متجسدة فى أشخاص ثلاثة ، فظهر المعنى بصورة الإمام والاسم بولى عهد الإمام ، الذى سيحل محله بعد وفاته ، والباب هو الذى يقف بجانب الإمام يدعو له ويجمع الناس حوله ويبلغهم تعاليم الإمام .

فعـلي بـن أبي طالـب بابه سلمان الفارسي ولقبه زوربة ، والحسن بن علي بابه قيس بـن ورقة ولقبه سفيقة ، والحسين بن علي بابه رشيد الهجرى ، وعلي بن الحسن بابه عبد الله بـن أبي غالـب الكابـلى ومحمد الباقى وبابه يحيى بن جعفر بن أم الطويل الثومالى . وجعفر الصـادق بابـه جابر بن بريد الجعفى . وموسى الكاظم وبابه محمد بن أبي زينب الكاهلى .. ورجال الدين عندهم أربع عشرة مرتبة فيقسمون إلى قسمين : الأول خمسة عشر ألف شخص يـتكون مـنهم العالم العلوى النورانى الكبير وهم السماوات السبع وهم الكواكب التى تقع خارج درب التبانة . والقسم الثانى منهم تسعة عشر ألف شخص يتكون منهم ، العالم النورانى الصغير وهم : الأرضون السبع مجموعة كنجوم فى درب التبانة ، تتخلص أرواحهم من الهياكل البشرية وتتطهر من الأدناس بالتناسخ .

١٤ - **أعـيادهم** : أمـا أعـيادهم فهى خليط من أعياد الديانات المختلفة كالنصرانية والهندوكية وغيرها وهى :

(أ) عـيد الغديـر فى ١٨ ذى الحجـة وهـو عيد عند الشيعة عامة ، وسر تقديسه فى اعتقادهم أن النبى الكريم آخى فى حجة الوداع بين الصحابة ولم يؤاخ بين علي وأحد منهم فرأى الرسول فى على الكسارًا لخاطره فضمه إلى صدره وقال له : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » والتفت إلى الصحابة وقال لهم « من كنت مولاه فعلي مولاه » .

(ب) عـيد الفطر : ويسمى عيد الفطاير يحتفلون به فى ٦ كانون الثانى يناير بعد انتهاء الصوم الخاص بهم (عن الدسم) .

(جـ) عيد الأضحى : يحتفلون به فى الثانى عشر من ذى الحجة أى بعد احتفال المسلمين بيومين ، كما يحتفلون ليلة العاشر من ذى الحجة باعتبارها الليلة التى ولد فيها سيدنا علي بن أبي طالب .

(د) عـيد الفراش : وهى ذكرى جلوس سيدنا علي فى فراش ابن عمه رسول الله ليلة الهجرة (رأس السنة الهجرية) .

(هـ) عيد عاشوراء : فى العاشر من محرم وهى ذكرى مصرع الحسين فى كربلاء ، وهو عيد عند سائر الشيعة غير أهم يعتقدون أن الحسين لم يمت بل اختفى كعيسى بن مريم .

(و) عـيد الغدير الثانى : فى التاسع من ربيع الأول وهى ذكرى ضم الرسول للحسن والحسين فى ردائه .

(ز) عيد النوروز : أو العيد الجديد يحتفلون به فى أول الربيع وهو عيد فارسى الأصل مدته ستة أيام .

(ح) عـيد المهرجان : فى ١٦ تشرين الأول أكتوبر ويصادف أول الخريف . وهو عيد فارسى كذلك .

(ط) عـيد رأس السنة الميلادى : وهو عيد النصارى ويسمونه عيد (القوزلة) يجتمعون فيه وهم سكارى ويطفئون الأنوار . كما يحتفلون بعيد البربارة وعيد الميلاد النصرانيين .

(ى) عيد الصليب : يحتفلون فيه النصيريون ويجعلونه بداية معاملاتهم كدفع الأجور وبدء الزراعة وقطف الثمار .

(ك) عيد ليلة النصف من شعبان : ويعتقدون أن التجلى الأعظم سيكون فيها .

١٥ – **طوائفهم** : (أ) الحيدرية : نسبة إلى حيدر وهو لقب سيدنا علي رضى الله عنه .

(ب) الشـمالية : أو الشمسية ، وهم الذين يقولون إن عليًا فى السماء يسكن الشمس وإن الشمس هى محمد .

(جـ) الكلازية : أو القمرية : يعتقدون أن عليًا يقيم فى القمر ويعتقدون أن الإنسان إذا شرب الخمر الصافية يقترب من القمر وينتسبون إلى الشيخ محمد بن كلازى .

(د) الغيبيـة : يقولـون إن الله تجلّـى ثم غاب والزمان الحالى هو زمان العودة . وهم يجردون الله من صفاته مثل الإسماعيلية .

(هـ) الدروز : يتكون الشعب الدرزى ، أو أبناء الدرزية من حوالى ٢٥٠ ألف نسمة يمكن توزيعها كالآتى :

١٢١ ألفــا فى سورية ، وحوالى ٩٠ ألفًا فى لبنان ، والباقون بفلسطين وهم حاليًا ضمن المنطقة المحتلة منها . وهم ممثلون فى الكنيست (البرلمان الصهيونى) .

وجـبل الدروز بحوران عبارة عن هضبة بركانية وهو بيضاوى الشكل يبلغ طوله ١٢٥ كـم وعرضه ١٠ كم . وهو وعر المسالك كثير المتاهات مما يجعله صالحًا للاعتصام والتخفى وهو يشرف على بادية الشام ومن الغرب على وعرتى الصفا واللجاة .

ومن عقائدهم :

١ – هـم يؤمنون بألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى حكم مصر من سنة ٣٨٦ إلى ٤١١هـ وكانت الدولة الفاطمية شيعية وقد حرصت على نشر المذهب الشيعى الإسماعيلى فى الأقطار الإسلامية كلها وصادفت نجاحًا ملحوظًا فى اليمن وبعض بلاد الشام ، وكان يقوم بهذا العمل جماعة من الدعاة الذين يتم إعدادهم وسقلهم بالجامع الأزهر .

٢ – ولا يكون الإنسان درزيًا إلا إذا كتب أو تلى ميثاقهم .. وبدايته تقول :

توكلت على مولانا الحاكم الأحد . الفرد الصمد . المنزه عن الأزواج والعدد . أقر فلان بن فلان إقرارًا أوجبه على نفسه . وأشهد به على روحه . فى صحة من عقله وبدنه . وجواز أمـره طائعًا غير مكره ولا مجبر أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كـلها عـلى أصـناف اختلافاتها . وأنه لا يعرف شيئًا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره . والطاعة : هى العبادة وأنه لا يشرك فى عبادته أحدًا مضى أو حضر . أو ينتظر . وأنه قد سلّم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملك لمولانا الحاكم جل ذكره .

٣ – التناسخ : يعتقد الدروز بأن النفس لا تموت بل يموت قميصها وهو الجسم البشرى فتنتقل الروح منه إلى جسم بشرى آخر يولد حديثًا فتحل فيه ، والخلاف بينهم وبين النصيرية أن الأخـيرة تعـتقد أن الـروح الشريرة قد تحل فى جسم حيوان أو جماد بينما يرى الدروز أن النفس الإنسانية لا تحل إلا فى إنسان لأن مقتضى العدل الإلهى بنظرهم أن الثواب والعقاب لا يكـون بمحاسبة الأرواح عن مدى الحياة الواحدة بل يكون بعد مرورها فى الدهر الطويل وبعد أن تناسخ عدة مرات بحيث يمنحها الدهر فرصة الاكتساب والتطور .

٤ – أن يـــوم الحساب عندهم هو نهاية مراحل الأرواح وتطويرها فى الأجساد إذ يبلغ التوحيد فى هذا الوقت غاية الانتصار على العقائد الشركية وينتهى الانتقال والمرور فى الأقمصة المختلفة .

٥ – الأحوال الشخصية : (أ) فى الطلاق إذا كانت الزوجة خارجة عن طاعة الزوج وطلبـــت طلاقهـــا منه فللزوج نصف ما تملكه الزوجة ، وإذا طلب الزوج الطلاق دون مبرر فللـــزوجة نصف ما يملكه الزوج ، أما إذا شهد شهود بظلم الرجل لامرأته أخذت كل مالها وليس له شىء . كما أنه لا رجعة عندهم فى الطـــلاق فتبين المـــرأة عندهم من الطلقة الأولى ولا يحل له أن يعيدها إلى عصمته .

(ب) لا يجوز عندهم تعدد الزوجات .

(جـ) لا يعترفون بحرمة الأخت والأخ من الرضاعة .

(د) البنت عندهم لا ترث .

(هـ) لا يجوز زواج الدرزية من غير درزى ولا زواج الدرزى من غير درزية .

(و) الوصية عندهم واجبة وتجوز بجميع المال ، كما تجوز لوارث وغير وارث إذا كان من ماله الذى جناه بتعبه ، أما إذا كان من مال ورثه فلأولاده الذكور أن يطلبوا القسمة منه .

٦ – المحرمات :

(أ) إفشاء الدين لغير أهله وربما تعرض فاعله للقتل .

(ب) القتل سيما إذا كان لنفس درزية .

(جـ) الزنا ويشتد جرمه إذا كان بين درزية وشخص أجنبى أو بين درزى وغير درزية .

(د) شرب الخمر والدخان سرًا أو جهرًا .

٧ – ســـرية العبادة : ويعرف المكان الذى يجتمع فيه الدروز للعبادة بالخلوة . والخلوة عـــبارة عن غرفة كبيرة فى وسطها مصطبة بشكل طاولة يعلوها ستار من القماش يقسم الخلوة قســـمين قســـم للرجال وقسم للنساء لكل قسم منها باب ونافذة . يجلس شيخ عقل القرية

أو البلد فى الوسط وظهره إلى المصطبة والشيوخ عن يمينه وشماله وأمامه فسحة لأداء الطقوس ، يبدأ الوعظ العام مساء الخميس للجميع ثم يخرج الجهال ثم يقدم وعظ خاص للأجاويد ، ثم يخرجون ويبقى العقال يدرسون مالا يحق لغيرهم الاطلاع عليه .

ويصنف الدروز ضمن الفرق الباطنية لإيمانها بالتقية والقول بالباطن وبسرية العقائد ، والحقيقة أن السرية جاءت إلى الدروز عن طريق الإسماعيلية لقولهم بالظاهر أمام الجمهور وعامتهم وبالباطن أمام من ارتفع تفكيره فوق عقول العامة .

والدروز يأخذون السرية على أنها نهج أساسى وأصل من أصول عقيدتهم وليست تقية فهى كما يزعمون وقاية للحقيقة والمستضئين بها ولمن لا يستطيعون إدراكها (أضواء للدكتور سامى مكارم) .

(و) **اليزيدية** .. اليزيدية طائفة ينتمى معظمها إلى الجنس الكردى ، ويقطن أتباعها فى بعض نواحى الشرق الأدنى وخاصة فى المناطق التالية :

١ – قضاء الشيخان فى الشمال الشرقى من الموصل .

٢ – قضاء سنجار الواقع فى الشمال الغربى من العراق .

٣ – ديار بكر ، وماردين ، وجبل الطور .

٤ – منطقة حلب حول كلس وعينتاب .

٥ – البلاد الأرمنية الواقعة على الحدود بين تركيا وروسيا .

إن اليزيدية أنفسهم يجهلون سبب تسميتهم هذه . وبعض الباحثين نسبهم إلى يزيد بن أنيسة . وقد ذكر الشهرستانى فى فرق الخوارج اليزيدية فقال : (أصحاب يزيد بن أنيسة ، الذى قال بتولى المحكمة الأولى قبل الأزارقة تبرأ ممن بعدهم إلا الأباضية فإنه يتولاهم . وزعم أن الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم ، وينزل عليه كتابًا قد كتب فى السماء ، وينزل عليه جملة واحدة ، ويترك شريعة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام ويكون على ملة الصابئة المذكورة فى القرآن) .

وكما اختلف الباحثون فى سبب تسمية هذه الطائفة باليزيدية ، كذلك اختلفوا فى أصل دينهم ، فاليزيدية أنفسهم لهم فى هذا الباب اعتقادات قد اشتبكت على مر الأيام بكثير من الخرافات والأساطير حتى تعذر على الباحث معرفة الأصل الذى ترجع إليه هذه الديانة .

وفى رواية لليزيدية تصريح بأنهم من نسل آدم فقط : لا نتيجة لاجتماعه من حواء قالوا : (وبعد مدة من الزمان لما رأى آدم وحواء أن التناسل يصير بمشاركة الذكر مع الأنثى ، فآدم كان يقول النسل هو منى . وهكذا حواء كانت تقول النسل منى ، وعلى هذا صار النزاع بينهما . وبعد البحث الدقيق صار الرأى والاتفاق بينهما على أن كل واحد منهما يلقى شهوته فى جرة ، وهكذا عملا وختما الجرتين إلى مدة تسعة أشهر . وعند نهاية التسعة أشهر فتح آدم جرته فطلع بها ولدان : ذكر وأنثى ، واسمهما : شيت ، وهورية ، ومنهما تناسلت الأمة اليزيدية) .

وهم يؤمنون بوجود إله أكبر خالق لهذا الكون ، إلا أنه لا يعنى بشئونه بعد أن فوّض أمر تدبيره وإدارته إلى مساعدة ومنفذ مشيئته « ملك طاووس » الذى يرتفع فى أذهان اليزيدية إلى مرتبة الألوهية حتى إنهم يسبحونه ويضرعون إليه ، ويكادون ينسون من أجله الإله الأكبر أما نبى هذه الديانة فهو الشيخ عادى الذى يروى عنه اليزيدية أخبارًا وروايات عديدة ، ويرفعونه أحيانًا إلى ما فوق درجة النبوة والقداسة حتى يتحد بملك طاووس ويشترك معه فى الألوهية . ومن هذه الروايات ما ينطبق على أحد شيوخ المسلمين ومتصوفيهم الشيخ عدى بن مسافر ، والمعروف أن الشيخ عادى ولد قرب بعلبك فى الشام ، ثم رحل إلى الجبال الواقعة شرقى الموصل حيث بنى له زاوية ، وجمع حوله طلبته ومريديه ، فعظمت شهرته وعلا صيته إلى أن توفى سنة ٥٥٥هـ وقيل سنة ٥٥٧هـ ودفن بزاويته .

ومن عقائدهم :

أن الصلاة بالقلب وبالسر لذلك لا يحددون مواعيد وفرائض للصلاة ولم يضعوا لها نظامًا معينًا ، ويحللون شرب الخمر .

ويجب على كل يزيدى كل يوم وقت طلوع الشمس أن يقف فى موضع شروقها بشرط أن لا يراه مسلم ، وإذا لم يفعل ذلك فهو كافر . ولكى يؤدى اليزيدى فريضة الصيام يجب

أن يكـــون فى موطـــنه ولا يصح صيامه فى أى مكان آخر وإذا سافر يزيدى إلى خارج بلاده وأمضى فى غيابه نحو سنة أو أزيد فإن امرأته تحرم عليه ولا يمكنه الزواج من غيرها .

واليزيدية يؤمنون بالتناسخ ، وبالحلول . ولهم كتابان مقدسان :

أحدهما اسمه الجلوة فيه وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب .

وعلى كل يزيدى فى كل صباح أن يقوم أمام الرب وأن يسجد بعض الأوقات قدام ربه بطلوع الشمس ويدعو قائلاً : آمين ، الله يبارك الدين . يا الله ، يا دائم ، يا غفور ، يا موجود، يا فتاح ، يا مدبر الكون ، يا ساتر ، يا أمدين ، يا شمس الدين ، يا فخر الدين .... يا ربى أنت تبارك الدين ، ياربى على شأنك ، على مكانك ، على سلطانك ، على عظمتك أدعو وأسجد . أنت كريمى ، أنت دوامى ، أنت موجود ، أنت معبود .

ولهـــم أعـــياد ومواســـم كثيرة يقيمون فيها الاحتفالات ، وينحروم الذبائح ، ويأكلون ويشـــربون الخمر ، ويرقصون ويغنون . نذكر منها عيد الخضر الياس فى يوم الخميس الأول مـــن شهر شباط « فبراير » ويصوم بعضهم ثلاثة أيام ، وبعضهم يومًا واحدًا . وعيد القربان وهـــو يقـــابل عيد الأضحى عند المسلمين ويسبقه بيومين . ويجب على كل يزيدى أن يذبح فى هـــذا الـــيوم ذبـــيحة . ويحـــتفلون بليلة القدر ولا ينامون فى خلالها بل يظلون ساهرين إلى الصباح .

وكان دينهم يحرم عليهم تلقى العلم ، إلا أن رئيسهم إسماعيل جول قد ألغى هذا الحكم وأباح لهم دخول المدارس .

(و) الباطنية : الباطن اسم من أسماء الله فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، ومعناه لغة المحتجب عن الأبصار والخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصـــر ولا يحيط به وهم (عن لسان العرب جـــ ١٣ ص ٥٤) يقال بطن الأمر إذا عرف باطنه .

والـــباطنى هـــو الرجل الذى يكتم اعتقاده فلا يظهره إلا لمن يثق به وقيل الباطنى : هو المخصص بمعرفة أسرار الأشياء وخواصها وقيل الباطنى : هو الذى يحكم بأن لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويلاً .

لقـــد نشـــأت محاولة هدم الإسلام من الداخل وذلك عن طريق ابتداع مناهج الباطنية فى تأويل الشريعة على نحو يقضى إلى نسخها والاستعاضة عنها بخليط عجيب من الحكمة يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل فظهرت بصيغة إسـلامية خادعـة كفكـرة الـنور المحمـدى وعصـمة الأئمة ومعجزاتهم والغيبة والرجعة والحلـول وتجسيد الألوهية والتأويل والتشبيه وغير ذلك من الأفكار والعقائد ، ولم يكن مجىء عبد الله بن سبأ الحبر اليهودى الذى تظاهر بالإسلام إلى سيدنا علي بن أبي طالب وقوله له أنت أنت (يعنى أنت الله) مجرد صدفة ولكنها حلقة من حلقات المؤامرة التى أرادت إحياء العقائد الوثنية ، وذهب أتباعه يسألون عليًا : أنت هو ؟ فقال لهم ومن هو فقالوا : أنت الله ! فثار علي رضـى الله عنـه وأمر مولاه قنـبر بحرقهـم فى النـار (الملل والنحـل ح ٤ ص ١٨٦) ويـروى الـبغدادى فى الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ : أن عليًا أراد أن يحرق معهم رأس الفتنة عبد الله بن سبأ ، ولكن الناس صاحوا بعلي : يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حكم أهل البيـت والـبراءة من أعدائك . ولا أظن هؤلاء الذين نهوه عن قتله إلا من أنصاره المستورين والله أعلم .

لقد ظهر بعد عبد الله بن سبأ أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية زعيمًا لغلاة الشيعة فقال بالظاهر والباطن ، وبعد أبي هاشم ظهر من شيعة الكوفة بيان بن سمعان فأعلن الوهية علي ابـن أبي طالب التى نقلت إليه بتناسخ الجزء الإلهى فكان جديرًا بأن ينسخ شريعة محمد (الملل والـنحل ص ١٨٥) ، ثم ظهر المغيرة بن سعيد العجلى الى اشتهر بالعلوم والأسرار الموجودة وراء رقم ٧ ثم أبو منصور العجلى الذى رفع أئمة الشيعة جميعًا إلى مصاف الإله وزعم أنه عرج بهـم إلى السـماء ، ثم أتى بعده أبو الخطاب الأسدى الذى كان أستاذًا لمربى زعماء النصيرية والقـرامطة الذى ادعى الإمامة ثم النبوة وأسقط التكاليف الشرعية وأوجد لها تأويلاً — هذه العـناوين والشـعارات ظهرت لتطمس معالم الإسلام وتعيد لأعدائه مجدهم الذى تلاشى أمام عظمـة الإسلام ورفعة مبادئه وسمو تعاليمه وانسجامه مع العـلم والعقل وبعـده عن الخرافة والتدجيل .

والغلو لغة : التجاوز عن الحد والخروج عن المقصد فى كل شىءوالغلو فى الدين تجاوز الحد والإفراط فيه ، جاء فى القرآن الكريم ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾. المائدة ٧٧ ، وجاء فى الحديث الشريف « إياكم والغلو فى الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

عرفه الشيخ المفيد من علماء الشيعة فى كتاب تصحيح القائد بقوله : (الغلاة المتظاهرون بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته – عليهم السلام – إلى الألوهية والنبوة ووصفهم من الفضل فى الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد ، وخرجوا عن القصد) وعرفهم الشهرستانى فى الملل والنحل بقوله : (الغالية هم الذين غلو فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الألوهية ، فربما شبهوا واحدًا من الأئمة بالإله وربما شبهوا الإله بالخلق وهم على طرفى الغلو والتقصير) وعرفهم ابن خلدون فى مقدمته بقوله : (الغلاة هم الذين تجاوزوا حد العقل والإيمان فى القول بألوهية الأئمة : إما على أنهم بشر أتصفوا بصفات الألوهية أو أن الإله حلّ فى ذاتهم البشرية) .

وتتلخص أفكار الباطنية والغلاة فى التأويل والحلو والتناسخ .

والتأويل : يعرفه الدكتور الذهبى فى التفسير والمفسرون بقوله : التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، فإذا لم يكن اللفظ محتملاً للمعنى الذى حمل عليه ولم يبين المتأول الدليل الذى حمله على ذلك كان تأويلاً فسادًا بل تلاعبًا بالنصوص . والتأويل الفاسد هو الذى اعتمده الغلاة مدعين أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا.وأن المراد منه باطنه دون ظاهره ، وهكذا أخذ الغلاة يحرفون اللفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له إلى معان تتفق مع عقيدتهم وتنسجم مع أهوائهم ونزاعاتهم فقد فسّر بيان بن سمعان الذى تنتسب إليه فرقة البيانية قول الله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران ١٣٨ بقوله : (أنا البيان وأنا الهدى والموعظة) وقال إن الله رجل من نور يفنى كله إلا وجهه مؤولاً

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ وتأوّل عبد الله بن سبأ زعيم السبئية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ يعنى أن محمدًا سيرجع إلى الحياة الدنيا .

وكان التأويل من أهم أسلحة الغلاة فى التحلل من القيم الأخلاقية والشعائر الدينية وفى إشاعة الإباحية والإلحاد . فالمعمرية وهم جناح من الخطابية استحلوا الخمر والزنا وسائر المحرمات وقالوا بترك الصلاة مؤولين قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ النساء ٢٨، وقالوا خففت عنا يا أبا الخطاب وضع عنا الأغلال والإصار ، وقالوا من عرف الإمام فليضع ما أحب يعنى لا حرج عليه ، والنصيرية أشهر الفرق غلوًا فى تأويل الباطن فقد كان ابن نصير يقول بإباحة المحارم ويحلل نكاح الرجل بعضهم بعضًا فى أدبارهم ، ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل فى المفعول به وأنه من الفاعل والمفعول به إحدى الشهوات الطيبات وأن الله لم يحرم شيئًا من ذلك كما ورد فى المقالات والفرق للقمى الشيعى ، لقد نهج الباطنيون الغلاة نهج اليهود فى التأويل الذين وضعوا كتاب القبالة وكتبوا فيه التأويل الخفى للتوراة ، وأهم مسائله سرية التعاليم وإمكان فك رموز التوراة ، وكذلك رمزية الأعداد والحروف .

ولقد فسر رسول الله (ﷺ) الذين عنتهم الآية الكريمة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ – يعنى آيات القرآن – ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ... إلخ فيما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنه قال : « فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه ، فهم الذين عنى الله فاحذروهم » وفى رواية البخارى : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله يعنى فى قلوبهم زيغ فاحذروهم » ابن كثير ، لأن الإسلام دين سهل واضح لا غموض فيه ولا تعقيد ولا رموز ولا ألغاز ، فقد تركنا رسول الله (ﷺ) على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ظاهرها كباطنها لا يحيد عنها إلا هالك ، ونصوص القرآن تفهم طبقًا لقواعد اللغة العربية من غير تعسف ولا تكلف ووفق مافهمها صحابة رسول الله (ﷺ) من غير تأويل أو تقعر .

والحلول : وهو من أخطر أفكار الغلاة ويريد به حلول الإله ذاته أو روحه جزءًا أو كلاً فى البشر . وقد اعتقد الغلاة بألوهية الأنبياء والأئمة وبعض رؤسائهم بدعوى حلول الإله وتجسده فيهم من هؤلاء السبئية الذين زعموا أن عليًا إله على الحقيقة .

والبيانيــة الذيــن زعموا أن جزءًا إلهيًا حلّ فى علي واتحد بجسده وبه كان يعلم الغيب ثم ادعى لنفسه الألوهية على معنى الحلول .

والخطابية زعموا أن الأئمة آلهة وكان أبو الخطاب يقول إن أولاد الحسن والحسين كانوا أبــناء الله وأحــباءه ، فلما بلغ ذلك جعفر الصادق لعنه وطرده ، فادعى الألوهية لنفسه بعد ذلك ، والمعمرية كانوا يزعمون أنا أبا جعفر وأبا الخطاب إلهان ، وزعم معمر أنهما إلها السماء وأنه إله الأرض وكانوا يقولن : (إن الدنيا لا تفنى وينكرون القيامة ويعتقدون بتناسخ الأرواح كما ذكر الرازى فى الزينة والشريعة ، وكانوا يعتقدون أن الله حلّ فى خمسة أشخاص : فى محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأنهم آلهة) كما ورد فى المقالات الإسلامية ، والنصيرية زعموا أن الله حــلّ فى عــلي وأن عليًا كان موجودًا قبل خلق السماوات والأرض وقال ابن نصير بربوبية أبي الحسن العسكرى وزعم أنه نبى ورسول بعثه ابن الحسن وزعم أتباعه من بعده أن الله قد حلّ فيه . الملل والنحل .

ويرى بعض الباحثين (أن الفكرة أخذت عن الفرس الذين اعتادوا أن يروا فى ملوكهم أحفادًا للإلهة متحدين من أصلابهم فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى علي وذريته) . الملل ، ويرى آخــرون أن الفكرة مسيحية وهى من تأثير الغنوصية الحلولية ، هذا وقد أنكر علماء الإسلام فكــرة الحلول وقالوا بكفر المؤمنين بها وزندقتهم لأنها تؤدى إلى نفى عقيدة التوحيد التى هى ركن أساسى فى الإسلام .

والتناســخ : ويــراد به انتقال الروح من بدن إلى بدن وهذا هو معنى القيامة عندهم ، ومقتضى ذلك إنكار القيامة والجنة والنار والقول بالجزاء فى الدنيا ، فإذا كان الإنسان شريرًا انتقلت روحه بعد وفاته إلى بدن شرير ، وإن كان صالحًا انتقلت روحه إلى بدن أسعد فتسعد بسعادته .

يقول الشهرستانى (الملل والنحل) : القول بالتناسخ سمة مشتركة بين فرق الغلاة جميعًا ، ويقــول : والغلاة على أصنافها كلهم متفقون على التناسخ والحلول وقد كان التناسخ مقالة فرقة من كل ملة من المجوس المزدكية والهندية البرهمية ومن الفلاسفة وقد أجمع المسلمون على

كفـــر مـــن قـــال بالتناســـخ لإنكارها عقيدة الإيمان باليوم الآخر وبالجنة والنار والحســـاب والعقـــاب .. يقـــول ابن حزم : ويبلغ الأمر بمن ذهب منهم إلى هذا أنه يأخذ أحدهم البغل والحمـــار فيعذبه ويضربه ويعطشه ويجيعه على أن روح أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حلّت فيها .

(و) **السبئية** : وتنتســـب هذه الفرقة إلى عبد الله بن سبأ . يعرفه البغدادى فى كتابه الفـــرق بين الفرق ص ٢٢٥ بقوله : كان ابن السوداء فى الأصل يهوديًا فى أهل الحيرة فاظهر إســـلامه وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد فى التوراة أن لكـــل نبى وصيًا وأن عليًا وصي محمد . وأنه خير الأوصياء كما أن محمدًا خير الأنبياء ، فلما سمع ذلك منه شيعة علي قالوا لعلي إنه من محبيك فرفع علي قدره وأجلسه تحت درج منبره . ثم بلغـــه عنه غلوه فيه ، فهمّ بقتله فنهاه ابن عباس وقال : إن قتلته اختلفت عليك أصحابك وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام وتحتاج إلى مداراة أصحابك . فلما خشى الفتنة التى خافها ابن عباس نفاه إلى المدائن فافتتن به الرعاع بعد قتل علي .

يروى فى الملل والنحل رأى ابن حزم حـــ ٢ ص ١١ فيقول : عبد الله ابن سبأ الحميرى الـــذى قـــال لعليى أنت أنت (يعنى أنت الله) فنفاه إلى المدائن . كان يهوديًا فاسلم كان فى الـــيهودية يقـــول يوشـــع ذى النون وصي موسى وهو أول من أظهر القول بإمامة علي ومنه تشبعت أصناف الغلاة وزعم أن عليًا لم يُقتل وأن فيه جزء إلهى وهو الذى يجيء فى السحاب ، والـــرعد صوته والبرق سوطه وأنه يتزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جورًا وهو أول من قال بالتوقف والغيبة والرجعة وقال بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة بعد علي .

ويعطيـــنا إمـــام المؤرخين الطبرى فى تاريخه لمحة عن ابن سبأ فيقول فى حـــ ٣ ص ٣٥٨ ما يلى :

كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمن عثمان ثم تنقل فى بلاد المســـلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد

فأخــرجه أهل الشام حتى أقر فى مصر ، فاعتمر فيها فقال مما قال فيها : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدًا يرجع وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ محمد أحق بالرجوع من عيسى فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها . ثم قال لهم محمد خاتم الأنبياء الأوصياء . ومن أظلم ممن لم يجز وضية رسول الله (ﷺ) ووثب على وصية علي ثم قال : إن عثمان أخذها بغير حق فالهضوا فى هذا الأمر فحركوه . وابدأوا بـالطعن عـلى أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هـذا الأمر . فبعث دعاته وكاتب من كان استفسد من الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر إلى مـا علـيه رأيهم وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك فأوسعوا الأرض إذاعة وإفسادًا .

ومن عقائدهم :

١ – الغيـبة والـرجعة : وهي إدعاؤه أن عليًا رضى الله عنه لم يمت وأنه سيرجع ويملأ الأرض عـدلاً .. لقد اختار ابن سبأ الزمن المناسب والبيئة المناسبة لتقبل هذه الفكرة واختار الإمام المناسب معتمدًا على حسن ظن عامة الناس به .

وفكـرة الغيبة والرجعة هى التى مهدت الطريق للقول بالإمامة أخطر بدعة كان لها أكبر الأثـر بانقلاب الموازين .. أما هدفه من وراء هذه البدعة فهو تجميد نشاط المسلمين وانحسار دعوتهـم حين دعاهم إلى الانتظار ريثما يرجع الإمام . سد ثغرة ظهرت فى الإمامة حين يموت إمـام دون أن يخلـف ولـدًا يـرثه ، فبرر موته بغيبة ورجعة واعتبرها من جهة ثانية معجزة من معجزات الأئمة .

٢ – الإمامة : قصر ابن سبأ الإمامة على علي رضى الله عنه دون غيره ولم يقل باتصالها فى ذريته من بعده ، وغرضه من ذلك أن يمهد بانتقالها للسبئيين من بعده .. لقد جعل ابن سبأ فى بدعـة الإمامة أكبر عامل شق صفوف المسلمين وشتت شملهم وجعلهم شيعًا وأحزابًا يكفر بعضهم بعضًا .

٣ – تقديس الإمام : قال السبئيون بقدسية الإمام الذى يأخذ عن الله تعالى مباشرة وتتمثل قدسيته فيما يلى :

العصمة : فما دام الإمام مفوضًا ومعينًا من الله لإقامة دينه وليكون مرجع الخلق فى أمور دينهم ودنياهم فلابد لتحقيق هذه الوظيفة من أن يكون معصومًا عن الخطأ حتى لا يضل بخطئه الناس .

المعجزة : لقد نسبوا للإمام المعجزات والخوارق وأضفوا عليه صفة الألوهية .. ومما نسبوه لأئمتهم من معجزات قولهم إن محمد بن الحسن بن علي بن محمد الذى يشك بولادته أصلاً قد تكلم فى المهد وهو يقرأ القرآن بلسان عربى مبين .

معرفة الغيب : وبرروا ذلك بأن الرسول عليه الصلاة والسلام بلغ بعض الأحكام وترك بعض الأحكام للإمام والأوصياء من بعده لينشروها فى الوقت المناسب .. وأوّلوا لذلك الآية الكريمة التى يأمر الله بها نبيه ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ويؤولون الآية الكريمة ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم الورثة المتقون وهم الشفعاء عند الله ، فالإيمان فى معرفتهم والكفر فى جهلهم فلا تضر مع معرفتهم معصية ولا تنفع مع جهلهم طاعة .

٤ – التقية : أوجدها السبئيون دفعًا للحجج الدامغة فى بطلان الإمامة حين قيل لهم لو أن الإمام علي رضى الله عنه عيّن وصيًا وإمامًا بعد رسول الله (ﷺ) لما جاز له أن يبايع أبا بكر وعمر . فاختلقوا التقية لرد هذه الحجة فقالوا .. بايعهم تقيةً لئلا يفرق صف المسلمين .. ومن الأهداف الماكرة وراء هذه الفكرة أن يعتاد المسلمون النفاق المشروع فيقولون بخلاف ما يؤمنون به .

٥ – الحلول والتناسخ : كانت نتيجة فكرة الغيبة والرجعة وكانت مبررًا لانتقال الإمامة من الأئمة إلى دعاتهم الذين حلّ بهم السر الإلهى فادعوا النبوة والألوهية ، وبذلك حلّت فكرة

التناسخ محل فكرة الثواب والعقاب وأنكروا الجنة والنار لأن النار عندهم حلول روح الميت فى جسم كلب أو خنزير تتعذب فيها وهكذا .

٦ – التأويل : قالوا للقرآن ظاهر وباطن أما المعنى الظاهر فيعرفه العلماء وأما المعنى الباطن فيعرفه الإمام ومن ينوب عنه (الأوصياء) .

وبهذا فتحوا ثغرة فى الإسلام لا يمكن سدّها حين طمسوا معالم الإسلام بتأويل آياته وأحكامه وتشريعه حتى لم يبق من الإسلام إلا اسمه .

(ح) الكيسانية : مؤسسها كيسان مولى الإمام علي بن أبى طالب ولما علم محمد بن الحنفية غلوهم فى الأئمة قال : والله ما ورثنا عن رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين : يعنى القرآن .. وتبرأ منهم ، ولما توفى الإمام محمد أعلن المختار الثقفى زعامته على شيعة الكوفة وكان خارجيًا ، ثم صار من شيعة علي ، قبض عليه عبد الله بن زياد أمير الكوفة ، ثم أفرج عنه بشفاعة زوج أخته ، فخرج إلى الحجاز ثم رجع إلى الكوفة بعد موت يزيد وادعى أنه جاء من قبل محمد بن الحنفية أخى الحسين وولاه الأخذ بثأره ، فالتف حوله الناس وأحبوه ، وقد قتل بالفعل كل من ساهم فى قتل علي وأهل بيته .

قال السائد الكلبى : إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير اعتدى على الحجاز ورأيت مروان افترى على الشام فلم أكن دون واحد من رجال العرب هؤلاء فأخذت هذه البلاد (الكوفة) فكنت كأحدهم . خدعه السبئيون حين قالوا له أنت حجة الزمان وحملوه على ادعاء النبوة فصدق مقولتهم ، أما أفكارهم : فيؤمنون بعصمة الإمام لأنه رمز العلم الإلهى . ويؤمنون برجعة الإمام محمد بن الحنفية ، وأنه لم يمت وهو فى جبل رضوى عنده عسل وماء ويؤمنون بتناسخ الأرواح ، (وهذا الرأى مأخوذ من الفلسفة الهندية) . كما يؤمنون بالظاهر والباطن وانفراد الإمام بتأويل الشريعة وأن طاعته من جوهر الدين .

٢ ـ أهل السنة

السنة فى اصطلاح فقهاء المسلمين هى قول الرسول (ﷺ) أو فعله أو تقريره أى عدم اعتراضه على أمر حدث أمامه لأن سكوته هو إقرار له .

ويرجع تاريخ أهل السنة ونشأتهم على أثر الخلافات التى كانت قائمة على أشدها بين الفرق الإسلامية المختلفة .. فقد لجأت جماعة من المسلمين المعتدلين إلى مسجد الرسول وجعلت من نفسها حامية للدين ومناهجه وهم ما عرفوا بعلماء أهل السنة أو أهل الحديث أو جمهور السلف الصالح أو أهل الجمود كما وصفهم البعض لأنهم رفضوا الانسياق فى تيار التأويل وتشبثوا بالنصوص ممثلة فى القرآن والحديث – وكان نواة هذا التيار العلمى فقهاء مدينة الرسول السبعة : عبد الله بن عتبة وعروة بن الزبير بن العوام والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وخارجة بن زيد بن ثابت وسالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وجلهم من أحفاد فقهاء الصحابة الذين ورثوا عنهم العلم والفقه والنقاء فى فهم الدين والتمسك بالقرآن والسنة .

وكان من أعظم ثمرات هذا الجيل الإمام أبى حنيفة النعمان والإمام أحمد بن حنبل .. أما أقوى ثمراته فكان إمام أهل السنة مالك بن أنس الذى وصلت إشعاعاته إلى مصر عن طريق مريديه الذين نجحوا فى استمالة المصريين إلى مذهب شيخهم فى نفس الوقت الذى كان فيه بعض الصحابة قد استوطنوا مصر فى عهد عثمان بن عفان حيث ارتاح المصريون إلى هذا التيار وأعرضوا عن المذاهب والدعوات الأخرى .

وأصحاب الحديث يشهدون لله تعالى بالوحدانية ، وللرسول (ﷺ) بالرسالة والنبوة ، ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التى نطق بها وحيه وتنـزيله، أو شهد له بها رسوله (ﷺ) على ما وردت الأخبار الصحاح به ، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون له جل جلاله ما أثبت لنفسه فى كتابه ، وعلى لسان رسوله (ﷺ) ، ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه ، فيقولون : إنه خلق آدم بيده ، كما نصّ سبحانه عليه فى قوله : ﴿ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين ، أو القوتين ، وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكييف ، ومنّ عليهم بالتعريف والتفهيم ،

حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعديل والتشبيه ، واتبعوا قول الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ يقولون فى جميع الصفات التى نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة ، والعزة والعظمة والإدارة ، والمشيئة والقول والكلام ، والرضا والسخط والحياة ، واليقظة والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشئ من ذلك بصفات المربوبيين المخلوقين ، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى ، وقال رسوله (ﷺ) من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه ، ولا تكييف له ولا تشبيه ، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب ، وتضعه عليه بتأويل منكر ، ويجرونه على الظاهر ، ويوكلون علمه إلى الله تعالى ، ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله ، كما أخبر الله عن الراسخين فى العلم أنهم يقولونه فى قوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ .

ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه ، وتنزيله غير مخلوق ، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم ، والقرآن الذى هو كلام الله ووحيه هو الذى ينزل به جبريل على الرسول (ﷺ) قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون ، بشيرًا ونذيرًا ، كما قال عزّ من قائل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ وهو الذى بلغه الرسول (ﷺ) كما أمر به فى قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فكان الذى بلغهم أمر الله تعالى كلامه عز وجل ، وفيه قال (ﷺ) : « أتمنعونى أن أبلغ كلام ربى » وهو الذى تحفظه الصدور ، وتتلوه الألسنة ، ويكتب فى المصاحف ، كيف ما تصرف بقراءة قارئ ، ولفظ لافظ ، وحفظ حافظ ، وحيث تلى وفى أى موضع قرئ وكتب فى مصاحب أهل الإسلام ، وألواح صبيانهم وغيرها كله كلام الله جل جلاله ، غير مخلوق فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم .

وذكر ابن مهدى الطبرى فى كتابه الاعتقاد الذى صنفه لأهل هذه البلاد أن مذهب أهل السنة والجماعة القول بأن القرآن كلام الله سبحانه ، ووحيه وتنزيله، وأمره ونهيه غير مخلوق ومن قال غير ذلك : فهو كافر بالله العظيم ، وأن القرآن فى صدورنا محفوظ ، وبألسنتنا

مقـــروء ، وفى مصـــاحفنا مكـــتوب وهـــو الكلام الذى تكلم الله عز وجل به ، ومن قال إن القرآن بلفظى مخلوق أو لفظى به مخلوق فهو جاهل ضال كافر بالله العظيم .

وذكر محمد بن جرير الطبرى رحمه الله فى كتابه (الاعتقاد) الذى صنفه فى هذه ، قال : (أمـــا القـــول فى ألفاظ العباد فى القرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابى ، ولا تابعى إلا عمن فى قوله الغنى والشـــفاء ، وفى اتباعه الرشـــد والهد ى ، ومن يقول قوله مقـــام الأئمة الأولى أبى عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله ، فإن أبا إسماعيل الترمذى حدثنى قال : سمعت أبا عبد الله أحمـــد بن حنبل رحمه الله يقول : « اللفظية جهمية » قال الله تعالى ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ممن يسمع ؟ .

قـــال : سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يذكرون عنه رضى الله عنه أنه كان يقول : من قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى . ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع .

أخـــبرنا الحـــاكم أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الخراجى بمرو ، حدثنا يحيى بن سالوكه عن أبيه عبد الكريم السندى قال : قال وهب بن زمعة : أخبرنى الباسانى قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : « من كفر بحرف من القرآن ، ومن قال : لا أومن بهذا الكلام فقد كفر » .

ويعـــتقد أهل الحديث ويشهدون أن الله سبحانه وتعالى استوى فوق سبع سماوات على عرشه كما نطق به كتابه فى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَـفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقوله فى ســـورة الرعد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ وقوله فى سورة السجدة : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، وقوله فى ســـورة طه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ يثبتون له من ذلك ما أثبته الله تعالى ويؤمنون به ويصدقون الرب جل جلاله فى خبره ، ويطلقون ما أطلقه سبحانه وتعـــالى مـــن استوائه على العرش ، ويمرونه على ظاهره ويوكلون علمه إلى الله ، ويقولون : (آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب) كما أخبر الله تعالى عن الراسخين فى العلم أنهم يقولون ذلك ، ورضية منهم ، فأثنى عليهم به .

وحدثنا أبو الحسن بن إسحق المدنى حدثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشافعى حدثنا شاذان حدثنا ابن مخلد بن يزيد القستانى حدثنا جعفر بن ميمون قال سئل مالك بن أنس عن قوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استوى ؟ قال : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا ضالاً وأمر به أن يخرج من مجلسه) .

وسئل أبو على الحسين بن الفضل البجلى عن الاستواء ، وقيل له كيف استوى على عرشه ؟ ، فقال : أنا لا أعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كشف لنا ، وقد أعلمنا جلّ ذكره أنه استوى على عرشه ، ولم يخبرنا كيف استوى .

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر محمد بن داود الزاهد ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن السامى ، حدثنى عبد الله بن أحمد بن شبويه المروزى ، سمعت على بن الحسين بن شقيق يقول : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : (نعرف ربنا فوق سبع سموات على العرش استوى بائنًا منه خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية إنه ها هنا) وأشار إلى الأرض .

وسمعت الحاكم أبا عبد الله فى كتابه (التاريخ) الذى جمعه لأهل نيسابور ، وفى كتابه (معرفة الحديث) اللذين جمعهما ولم يسبق إلى مثلهما يقول : سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقول : سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : من لم يقل بأن الله عز وجل على عرشه ، فوق سبع سمواته ، فهو كافر بربه ، حلال الدم ، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ، ولا تمثيل ولا تكييف بل يثبتون ما أثبته رسول الله (ﷺ) ، وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويوكلون علمه إلى الله .

وكذلك يثبتون ما أنزله الله عزّ اسمه فى كتابه ، من ذكر المجىء والإتيان المذكورين فى قوله عز وجل ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ ﴾ وقوله عزّ اسمه : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وجاء فى رسالة الشيخ أبى بكر الإسماعيلى إلى أهل جيلان أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا على ما صلح به الخبر عن الرسول (ﷺ) ، وقد قال الله

عــز وجــل : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ ﴾ وقال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

أخــبرنا أبــو بكر بن زكريا الشيبانى : سمعت أبا حامد بن الشرقى يقول : سمعت أحمد السلمى وأبا داود الخفاجي يقولان : سمعنا إسحاق ابن إبراهيم الحنظلى يقول : قال لى الأمير عــبد الله طاهر : يا أبا يعقوب هذا الحديث الذى ترويه عن رسول الله (ﷺ) « ينــزل ربنا كــل ليلة إلى سماء الدنيا » . كيف ينزل ؟ قال ، قلت : أعزّ الله الأمير ، لا يقال لأمر الرب كيف ؟ إنما ينزل بلا كيف .

حدثــنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم العدل ، حدثنا محبوب بن عبد الرحمن القاضى ، حدثــنى أبــو بكر بن أحمد بن محبوب ، حدثنا أحمد بن حموية حدثنا أبو عبد الرحمن العباسى ، حدثــنا محمــد بن سلام ، سألت عبد الله بن المبارك عن نزول ليلة النصف من شعبان ، فقال عبد الله : ياضعيف ليلة النصف ينزل فى كل ليلة ، فقال الرجل يا أبا عبد الله ، كيف ينزل ؟ أليس يخلو ذلك المكان منه ؟ فقال عبد الله : ينزل كيف يشاء . وفى رواية أخرى لهذه الحكاية أن عــبد الله بن المبارك قال للرجل : (إذا جاءك الحديث عن رسول الله (ﷺ) فاصغ له) . سمعت الحاكم أبا عبد الله يقول : سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبرى يقول : سمعت إبراهيم ابــن أبي طالب يقول : سمعت أحمد بن سعيد بن إبراهيم بن عبد الله الرباطى يقول : حضرت مجلــس الأمير عبد الله بن ظاهر ذات يوم وحضر إسحاق بن إبراهيم يعنى ابن راهوية ، فسئل عــن حديث النزول : أصحيح هو ؟ قال : نعم ، فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ فقال : نعم قال : كيف ينزل ؟ فقال له إسحاق : (أثبته فوق) حتى أصف لك النــزول ، فقــال الرجل : (أثبته فوق) فقال إسحاق : قال الله عز وجل : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فقال الأمير عبد الله : يا أبا يعقوب من يمنعه اليوم ؟ .

وخــبر نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا خبر متفق على صحته مخرج فى الصحيحين ، من طريق مالك بن أنس عن الزهرى عن الأغر وأبى سلمة عن أبى هريرة .

حدثنا يحيى بن محمد حدثنا يحيى بن يحيى ، قال : قرأت على مالك عن ابن شهاب الزهرى عــن أبي عبد الله الأغر وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله (ﷺ) قال :

«ينـــزل ربنا تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له، ومن يسألنى فأعطيه، ومن يستغفرنى فأغفر له ».

وفى روايـــة الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عـــن رسول الله (ﷺ) : « إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه يترل الله إلى السماء الدنيا فيقول هل من سائل فيعطى؟ هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حـــتى ينفجر الصبح » وفى رواية سعيد بن مرجانة عن أبى هـــريرة زيادة فى آخـــره وهى « ثم يبســـط يديه فيقول : من يقرض غير معدوم ولا ظلوم » وفى رواية أبى حازم عن أبى هريـــرة عـــن رسول الله (ﷺ) « إن الله يترل إلى سماء الدنيا فى ثلث الليل الأخير فيـــنادى هـــل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر لـــه ؟ فلا يبقى شىء فيه الروح إلا علم به ، إلا الثقلان الجن والإنس » . قال : وذلك حين تصيح الديكة وتنهق الحمير وتنبح الكلاب .

أخبرنا أبو محمد المجلدى أخبرنا أبو العباس السراج ، حدثنا محمد ابن يحيى حدثنا عبيد الله بـــن موســـى عـــن إســـرائيل عن أبى إسحق عن أبى مسلم الأغر قال : أشهد على أبى سعيد وأبى هريرة أنهما شهدا على رسول الله (ﷺ) وأنا أشهد عليهما أنهما سمعا النبى (ﷺ) يقول « إن الله يمهـــل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول هبط إلى السماء الدنيا ، فيقول : هـــل مـــن مذنـــب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من سائل ؟ هل من داع ؟ حتى تطلع الشمس » .

حدثـــنا الأستاذ أبو منصور بن حماد ، حدثنا أبو إسماعيل بن أبى الظما ببغداد حدثنا أبو منصـــور الرمادى ، حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن سهل عن أبى صالح عن أبيه أبى هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : «يترل الله تعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فيقول أنا الملك أنـــا الملـــك ثلاثًا . من يسألنى فأعطيه ؟ من يدعونى فأستجيب له ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر » .

سمعت الأستاذ أبو منصور على أثر هذا الحديث الذى أملاه علينا يقول : سئل أبو حنيفة عـــنه فقال : (يترل بلا كيف) وقال بعضهم : يترل نزولاً يليق بالربوبية بلا كيف ، من غير أن يكون نزوله مثل نزول الخلق ، بل بالتجلى والتملى ، لأنه جل جلاله متره أن تكون صفاته

مثل صفات الخلق ، كما كان منزهًا أن تكون ذاته مثل ذوات الخلق ، فمجيئه وإتيانه ونزوله على حساب ما يليق بصفاته ، من غير تشبيه وكيف .

أنبأنا مخرمة بن بكير عن أبيه رحمه الله وأخبرنا الحاكم حدثنا محمد ابن يعقوب الأصم واللفظ له ، حدثنا إبراهيم بن حنيفة ، حدثنا ابن وهب عن مخزمة بن بكير عن أبيه قال : سمعت محمد بن المنكدر يزعم أنه سمع أم سلمة زوجة النبى (ﷺ) تقول : « نعم اليوم يوم ينزل الله تعالى فيه إلى السماء الدنيا قالوا وأى يوم ؟ قالت يوم عرفة » .

وروت عائشة رضى الله عنها عن النبى (ﷺ) قالت : « ينزل الله تعالى فى النصف من شعبان إلى السماء الدنيا ليلاً إلى آخر النهار من الغد ، فيعتق من النهار بعدد شعر معز بنى كلب ، ويكتب الحاج وينزل أرزاق السنة ، ولا يترك أحدًا إلا غفر له إلا مشركًا أو قاطع رحم أو عاقًا أو مشاحنًا » .

وروت عن النبى (ﷺ) أنه قال : « إذا مضى شطر الليل أو قال : ثلثاه ينزل الله إلى السماء الدنيا ثم يقول : لا أسأل عن عبادى غيرى ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟ حتى ينفجر الصبح » هذا لفظ حديث الوليد .

قال شيخ الإسلام : قلت : فلما صح خبر النزول عن الرسول (ﷺ) أقرّ به أهل السنة، وقبلوا الخبر وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله (ﷺ) ولم يعتقدوا تشبيهًا له بنزول خلقه ، وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سبحانه لا تشبه صفات الخلق ، كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علوًا كبيرًا .

ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت يوم القيامة ، وبكل ما أخبر الله سبحانه من أهوال ذلك اليوم الحق ، واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هناك ، فى ذلك اليوم الهائل من أخذ الكتب بالإيمان والشمائل ، والإجابة عن المسائل ، إلى سائر الزلازل والبلابل الموعودة فى ذلك اليوم العظيم ، والمقام الهائل من الصراط والميزان ، ونشر الصحف التى فيها مثاقيل الذر من الخير والشر ، وغيرها ، ويؤمن أهل الدين والسنة بشفاعة الرسول (ﷺ) لمذنبى أهل التوحيد ، ومرتكبى الكبائر ، كما ورد به الخبر الصحيح عن رسول

الله (ﷺ) ، وأخبرنا أبو على زاهر بن أحمد أخبرنا محمد بن المسيب الأغيانى ، حدثنا الحسن بن عـرفة ، حدثنا عبد السلام بن حرب الملائى ، عن زياد بن خيثمة عن نعمان بن قراد عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله (ﷺ) « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر من أمـتى الجـنة ، فاخترت الشـفاعة ، لأنها أعم وأكفى . أترونها للمؤمنين المتقين ؟ لا ولكـنها للمذنبين المتلوثين الخطائين » عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله مـن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقـال : « لقد ظننت أن لا يسـألنى عن هذا الحديـث أحد أولى منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، إن أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصًا من قبل نفسه » .

ويؤمـنون بالحوض والكوثر ، وإدخال فريق من الموحدين الجنة بغير حساب ، ومحاسبة فـريق منهم حسابًا يسيرًا ، وإدخالهم الجنة بغير سوء يمسهم وعذاب يلحقهم ، وإدخال فريق مـن مذنبـيهم النار ثم إعتاقهم أو إخراجهم منها ، وإلحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم إليها ، ولا يخلدون فى النار ، فأما الكفار فإنهم يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبدًا ، ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحدًا .

ويشـهد أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم ، وينظرون إليه على مـا ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله (ﷺ) فى قوله : « إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » .

ويشهد أهل السـنة أن الجنة والنار مخلوقتان ، وأنهما باقيتان لا تفنيـان أبدًا ، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا ، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها ، لا يخرجون أبدًا وأن النادى ينادى يومئذ « يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت » على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله (ﷺ) .

ومن مذهب أهل السنة أن الإيمان قول وعمل ومعرفة ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

أخـبرنا أبو الحسن بن أبى إسحق المزكى ، حدثنا أبو عمر الحيرى ، حدثنا محمد بن يحيى الذهـلى ، ومحمـد بن إدريس الملكى ، وأحمد بن شداد الترمذى ، قالوا : حدثنا الحميدى ، حدثـنا يحـيى بن سليم : سألت عشرة من الفقهاء عن الإيمان فقالوا : قول وعمل . وسألت

هشـــام ابن حسان فقال : قول وعمل . وسألت ابن جرير فقال : قول وعمل . وسألت محمد ابن مسلم الطائفى فقال : قول وعمل . وسألت سفيان الثورى فقال : قول وعمل . وسألت المثنى بن الصباح فقال : قول وعمل . وسألت فضيل فقال : قول وعمل . وســـألت نافع بن عمر الجمحى فقال : قول وعمل . وسألت سفيان بن عيينة فقال : قول وعمل .

وسمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقول : سمعت أبا بكر محمد بن شعيب يقول : سمعـــت إســـحق بن إبراهيم الحنظلى يقول : قدم ابن المبارك الري فقام إليه رجل من العباد ، الظـــن أنـــه يذهب مذهب الخوارج ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ما تقول فيمن يزنى ويسرق ويشرب الخمر . قال : لا أخرجه من الإيمان ، فقال : يا أبا عبد الرحمن على كبر السن صرت مرجئًا ؟ فقال : المرجئة تقول : حسناتنا مقبولة ، وسيئاتنا مغفورة ، ولو علمت أنى قبلت منى حسنة لشهدت أنى فى الجنة .

ويعـــتقد أهـــل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة صغائر وكبائر فإنه لا يكفر بها ، وإن خرج من الدنيا منها ، ومات على التوحيد والإخلاص ، فإن أمره إلى الله عز وجل إن شاء عفـــا عنه ، وأدخل الجنة يوم القيامة سالمًا غانمًا ، غير مبتلى بالنار ولا معاقب على ما ارتكبه واكتســـبه ، ثم استصـــحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار ، وإن شاء عفا عنه وعذبه مدة بعذاب النار ، وإذا عذبه لم يخلده فيها ، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار .

وكان سهل بن محمد رحمه الله يقول : المؤمن المذنب وإن عذب بالنار لا يلقى فيها إلقاء الكفار ، ولا يبقى فيها بقاء الكفار ، ولا يشقى فيها شقاء الكفار .

واختلف أهل الحديث فى ترك المسلم صلاة الفرض متعمدًا ، فكفره بذلك أحمد بن حنبل وجماعـــة مـــن عـــلماء الســـلف ، وأخرجوه به من الإسلام ، للخبر الصحيح : (بين العبد والشرك ترك الصلاة فمن ترك الصلاة فقد كفر) وذهب الشافعى وأصحابه وجماعة من عـــلماء السلف رحمة الله عليهم أجمعين إلى أنه لا يكفر مادام معتقدًا لوجوبها ، وإنما يستوجب القـــتل كمـــا يســـتوجبه المرتد عن الإسلام ، وتأولوا الخبر من ترك الصلاة جاحدا كما أخبر سبحانه عن يوسف عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ولم يك يتلمس بكفر فارقه ولكن تركه جاحدًا له .

ومن قول أهل السنة والجماعة فى اكتساب العباد أنها مخلوقة لله تعالى ، لا يمترون فيه ولا يعدون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه ، ويشهدون أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ولا حجة لمن أضله الله عليه ، ولا عذر له لديه : قال الله عزو وجل : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ .

البريلوية :

تصنف طائفة البريلوية من حيث الأصل ضمن جماعة السنة الملتزمين بالمذهب الحنفى ، لكنهم مزجوا عقائدهم بعقائد أخرى مأخوذة عن المسيحية كالاحتفال بالمولد النبوى على غرار الاحتفالات بعيد رأس السنة الميلادية وهم يعلون شخصية النبى (ﷺ) لتوازى الخرافات المنسوبة إلى شخصية عيسى عليه السلام ..

وبسبب عيشهم ضمن القارة الهندية ذات الديانات المتعددة فقد انتقلت أفكار من الهندوسية والبوذية لتمازج عقيدتهم الإسلامية ..

وقد أضفوا على النبى (ﷺ) وعلى الأولياء صفات تماثل تلك الصفات التى يضفيها الشيعة على أئمتهم المعصومين فى نظرهم ..

وانتقلت إليهم عقائد غلاة المتصوفة ونظرياتهم فى الحلول والوحدة والاتحاد حتى صارت هذه الأمور جزءًا من معتقداتهم ..

هذا ويؤخذ على البريلوية :

١ – التطرف الشديد والغلو فى تصوير شخصية الرسول (ﷺ) والأنبياء ومزج ذلك بعقائد المشركين .

٢ – إسقاط فريضة الحج .

٣ – مجانبتهم الصواب فى هجومهم وافتراءاتهم على شيخ الإسلام ابن تيمية وعلى الإمام محمد بن عبد الوهاب وعلى كل دعاة التوحيد الخالص .

٤ – إطلاق العنان لألسنتهم فى تكفير المسلمين لمجرد مخالفتهم فى الرأى .

٥ – سعيهم المستمر لتفريق كلمة المسلمين وتوهين قوتهم .

أما من حيث الانتشار ومواقع النفوذ لهذه الطائفة فقد انطلقت دعوتها من بريلى بولاية أوترابرديش بالهند لتنتشر فى القارة الهندية كلها (الهند ، الباكستان) ..

ولهم وجود فى إنجلترا إذ تسمى جمعيتهم هناك باسم « جمعية أهل السنة » و « جمعية تبليغ الإسلام » ويقتصر نشاطهم هناك على تخريب أعمال الآخرين وإثارة القلاقل والفوضى بينهم وبسببهم حدث اضطراب دموى بين المسلمين عام ١٩٨٠م .

٣ ـ المعتزلة

كانـــت الركائـــز الفكرية التى اعتمدت عليها الدولة الأموية تتمثل أساسًا فى (الجبر) و (الإرجـــاء) تبرر بالأول مظالمها إذ تنسبها لقضاء الله وقدره ، وتحاول أن تفلت بالثانى من الحكــم عـــلى إيمانها بعد أن ارتكبت تلك المظالم ، ومن ثم فإن نشأة المعتزلة ومن بين أصولها الفكـــرية الأولى القول بالاختيار والمنزلة بين المنزلتين ، وهو موقف معاد للدولة الأموية يضع المعـــتزلة مـــنذ نشـــأتها حركة من حركات المعارضة التى نشأت فى المجتمع العربى على عهد الأمويين . ولم يكن التناقض الوحيد بين المعتزلة وبين السلطة والجبرية والمرجئة الذين يبررون لها أو يغضون الطرف عن مظالمها ، بل تناقضت كذلك مع حركات المعارضة الأخرى ، فاختلفت مـــع الخـــوارج فى المـــنـــزلة بين المنزلتين ، كما اختلفت مع بعض الشيعة المشبهة فى التوحيد والتـــنـــزيه . والنشـــأة الأولىللمعتزلة لا تزال موضع غموض ، ولقد أسهم فى هذا الغموض ضياع أغلب تراثهم الفكرى بعد محنتهم زمن المتوكل العباسى (٢٣٣- ٢٤٧ هـــ — ٨٤٧- ٨٦١م) وقضية الاسم الذى أطلقه عليهم خصومهم وهو اسم (القدرية) حتى ينفروا الناس منهم بعد أن رووا حديث الرسول الذى يقول فيه : (القدرية مجوس هذه الأيام) ورفض المعـــتزلة وأهل العدل والتوحيد ، وأسهم فى غموض هذه النشأة كذلك قضية : ماهو الأصل الفكرى والمبدأ الذى بدأت به هذه الفرقة ؟ إذ أن أصولها الخمسة قد ظهرت بالتدريج . ولكن لعل فى تتبع كل الخيوط التى تتيحها لنا كل المصادر التى تيسرت منا ما يكشف هذا الغموض ويضع يدنا على حقيقة نشأة هذه الفرقة فى القرن الهجرى الأول ، وتجمع كل المصادر على أن مشكلة القدر كانت أقدم مشكلة ميز الموقف منها العناصر الأولى التى بدأت السير فى الطريق الـــذى انتهى بتكوين فرقة المعتزلة ، فهناك ثلاثة من الأعلام الذين يذكرهم المعتزلة فى طبقاتهم المبكرة ، ويذكرهم خصوم المعتزلة كذلك فى هذه الطبقات . قيل عن كل منهم : إنه أول من تكلم فى القدر . وأول هؤلاء الثلاثة : أبو الأسود الدؤلى ظالم بن عمر (٦٦٩هـــ — ٦٨٨م) وهـــو أحـــد المـــوالى التابعين الذين صحبوا عليًا بن أبى طالب فى حروبه ضد أصحاب الجمل وصـــفين .. ويروى الرواة فيقولون : كان أول متكلم فى القدر (أبو الأسود الدؤلى) وثانى هؤلاء الثلاثة هو (معبد الجهنى عبد الله بن حكيم — المتوفى سنة ٨٠ هـــ أو سنة ٩٠هـــ سنة ٦٩٩م أو ســـنة ٧٠٨م) وهو عربى من قبيلة جهينة من قضاعة وهو من أهل المدينة الذين

عاشـــوا بالبصرة .. ويروى الرواة فيقولون : (وكان أول من قال بالقدر فى الإسلام معبد بن خـــالد الجهنى) ويحرص البعض على أن يذكر أن معبدًا قد أخذ القول بالقدر عن فارس من الأساورة هو (أبو يونس سنسوية) المعروف بالأسوارى ، كما تنسب كتب المقالات إليه ميزة امتاز بها عن أبى الأسود إذ تذكر أن أناسًا كثيرين من أهل البصرة قد تبعته على رأيه ، وخاصة بعد أن (رأوا عمرو بن عبيد ينتحله) أى ينتحل رأيه فى القدر . ولقد شارك معبد الجهنى فى الـــثورة التى قادها عبد الله ابن الأشعث (المتوفى سنة ٨٥هـــ – ٧٠٤م) ضد بنى أمية ووقع فى قبضـــة الحجـــاج بن يوسف الثقفى وقتله الحجاج (سنة ٨٠هـــ أو سنة ٩٠هـــ) وثالث الثلاثة هو أبو مروان غيلان بن مسلم الدمشقى (المقتول بعد سنة ١٠٦هـــ) وهو من الموالى كان مولى لعثمان بن عفان ، وهو زعيم الفرقة التى اشتهرت بـــ (القدرية) قبيل ظهور أصل المترلـــة بين المترلتين على يد واصل بن عطاء ، وشيوع اسم المعتزلة على هذه الفرقة ، ويشهد لوجـــود هـــذه الفرقة كفرقة ولرفض غيلان للتسمية التى أطلقها عليها خصومها ما كتبه من سجنه لأحد أتباعه عنـــدما يقول له : (إنك ولحوك ، خلقت فى زمن ابتلى الله العباد فيه بجهل لا علم معه ، وضلالة لا هدى معها ، ولبس لا بيان معه إلا قليل ، فاجتمع العباد على الهلكة وسمـــوا الدين وأهل الدين بغير أسمائهم واجتمعت منهم عليه الجماعة فليس يلتفت ملتفت إلى ضال مضل إلا فرقة يسيرة) .

ولقد كان القول بالقدر يعنى عند غيلان وفرقته أكثر من تقرير الاختيار للفرد ، والخوض فى هـــذه المشكلة فى إطار الفرد كان يعنى التصدى لعقيدة الجبر التى تبرر مظالم السلطة والتى اســـتند إلـــيها الأمويـــون فى اغتصابهم هذه السلطة ، وفى الجدل الذى دار بين الخليفة هشام ابـــن عبد الملك وبين غيلان ، كان هشام يرى أن ما فى يد بنى أمية من السلطة والسلطان هو عطاء الله لهم فسأل غيلان – معترضًا – : (زعمت أن ما فى الدنيا لي هو عطاء الله لنا) فقال لـــه غـــيلان (أعوذ بجلال الله أن يأتمن خوّانًا أو يستخلف الخلفاء من خلقه فجّارًا ، إن أئمته القوامون بأحكامه ، الراهبون لمقامه الذين كابدوا بالعدل الدول وخافوا المقام ما لا يجدون عنه حولاً ، ولا يتعللون بالعلل باتوا ومقامهم المحمود وليلهم المشهود بطول القيام والسجود لم يول الله وثابًا على الفجور ، ولا ركابًا للمحظور ، ولا شهادًا بالزور ، ولا شرابًا للخمور) وعند ذلك أمر هشام بسجن غيلان ، ثم صلبه وقطع يديه ورجليه ولسانه حتى مات على الصليب .

هؤلاء هم الثلاثة الذين تتردد أسماؤهم فى المصادر الأولى ، وعن كل منهم يقول البعض إنه أول من تكلم فى القدر ، والبعض يفسر هذه الأولية بأنها نسبية خصوصًا وهم متعاصرون ، ونحن نضيف أن الإشكال ينحل إذا قلنا : إن أبا الأسود الدؤلى هو أول من تكلم به فى الكوفة، وغـــيلان أول من تكلم فى دمشق ، ومعبد هو أول من تكلم به فى البصرة ، فهى المواطن التى شهدت نشاطهم الواسع فى هذا المقام . وليس يعنى أن هؤلاء أول من تكلم فى القدر أن هذه القضية قضية الجبر والاختيار لم تكن مثار ة من قبل ، فمعاوية قد حاول استخدام عقيدة الجبر كى يبرر انتقال السلطة لــه وتغير طبيعتها على يديه ، فى كلام امام علي جدل دار بينه وبين شيخ سأله عن هذه القضية ، والحسن البصرى عندما كتب إليه عبد الملك بن مروان ينكر عليه إظهار القول بالقدر ويقول له : إن السلف لم يظهروا هذا القول ردّ عليه بأنهم لم يظهروه لعدم وجــود القائلين بالجبر ، أما وقد فشا الجبر وكثر القائلين به فلابد من إظهار القول بالاختيار والحديث فى أمر القدر . لقد كانت القضية موجودة قبل هؤلاء ، ولكن الجدل قد احتدم من حولهـــا فى عصـــرهم (فأظهروا) القول فيها (وأذاعوه) و (دعوا إلى مذهبهم فى القدر) ، وهـــذا معنى أنهم أول من تكلموا فى القدر حسب عبارة القدماء ، هذا عن أبى الأسود الدؤلى ومعــبد الجهنى وغيلان الدمشقى ، فماذا عن الحسن البصرى (٢١-١١٠هــ - ٦٤٢ - ٧٢٨م) الإمــام الذى تنازعت نسبته إليها ، وتمسكت بأنه من أوائلها ، السنة والمعتزلة على السواء ، وهو الرجل الذى يخيل للمرء أن أغلب علماء عصره قد تخرجوا من حلقته فى مسجد البصرة . إن المعتزلة يذكرون الحسن البصرى فى الطبقة الثالثة من طبقات رجالهم وهى الطبقة التى فيها التابعون ويثبتون له رسالته التى كتبها فى القدر ردًا على رسالة عبد الملك بن مروان ، ولكن هناك من يشككون فى هذه النسبة فيقولون : (كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبى الحسن وكان قوله مخالفًا لهم) وهناك من يقولون : إنه قال بالقدر ، ثم عدل ورجع عن القول بـــه ، ولكن الدراسة لأسس هذا الخلاف حول الحسن البصرى تؤكد أن الرجل كان من أئمة الذيـــن قـــالوا بالقدر على مذهب أهل العدل ، وأن مثله مثل معبد الجهنى ، وأن معبد يجالس الحســن البصــــرى وغيلان الدمشـــقى وأبا الأسود الدؤلى فى القول بالقدر (الاختيـــار) أمـــا الشكوك التى أحاطت بنسبته هذه فإن مصـــدرها الشبهة ليس إلا ، فابن ســـعد يروى فى طبقاته عن (أيوب) قوله : (أنا نازلت الحسن فى القدر غير مرة حتى خوفته الســـلطان) فقـــال : (لا أعود فيه بعـــد اليوم) كما يقول أيوب : (أدركت الحســـن والله وما يقوله)

أى ما يقول القدر ، ويروى مثل هذا الكلام عن حميد الطويل ، فلقد كان أيوب وحميد – وهما من الرواة أصحاب الحسن – يريان فى القول بالقدر (العيب الوحيد) الذى يمكن أن يعاب به الحسن . يقول أيوب (لا أعلم أحدًا يستطيع أن يعيب الحسن إلا به) أى بالقدر ، ويتحدث أبو هلال فيقول : (سمعت حميدًا وأيوب يتكلمان ، فسمعت حميدًا يقول لأيوب : لوددت أنه قسم علينا غرم وأن الحسن لم يتكلم بالذى تكلم به ، قال أيوب : يعنى فى القدر) كما يروى حماد عن أيوب قوله : (ما أعيانى الحسن فى شىء ما أعيانى فى القدر حتى خوفته بالسلطان) فأيوب الراوية صاحب الحسن قد خوّف الحسن (بعد أن عياه أمره فى القول بالقدر) خوّفه بالسلطان حتى ترك القول به وقال : لا أعود فيه بعد اليوم ، ومن هنا فهم البعض رجوع الحسن عن القول بالقدر ، ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو ، فأيوب وحميد مثل الحسن يقولون جميعًا بالقدر ، وأيوب قد خوّف الحسن من القول بالقدر إشفاقًا عليه من سطوة سلطان بنى أمية ، وليس عن مخالفة له فى الرأى وتهديد له بإبلاغ السلطان عنه ، فهو يخوّفه من السلطان لا بالسلطان ، ويضع (البلخى) يدنا على هذه الحقيقة عندما يقول : (أيوب لم يخوّفه بالسلطان على سبيل سعاية به إليه ، فقد كان أعظم قدرًا من ذلك ، لكنه خوّفه لسطوة عليه إن علم به هذا على وجه النصح له لأن بنى أمية كانت مجمعة ، إلا من عصم الله ، على الإجبار) وعلى ضوء هذه النتيجة الحقيقة نستطيع أن نفهم معنى قول الحسن : (لا أعود فيه بعد اليوم) أى لا أعلنه الإعلان الذى يعرضنى لعقاب السلطان ، وأن نفهم كذلك معنى قول أيوب : (أدركت الحسن والله وما يقوله) فالحسن كان بلا جدال ولا شك من أوائل الذين قالوا بالقدر على مذهب المعتزلة وأهل العدل والتوحيد ، كل ما فى الأمر أنه قد اختلف معهم فى أهل آخر ، هو المنزلة بين المنزلتين وفى قضايا أخرى مثل قضية تجريد السيف والخروج المسلح ضد بنى أمية ، وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم ذكر المعتزلة للحسن فى الطبقة الثالثة من طبقات رجالهم ، ونفهم قول الذين أرّخوا لفرق المعتزلة عندما يذكرون (فرقة الحسنية) – نسبة للحسن – كإحدى فرق المعتزلة ، وفى البصرة تكلم بالقدر ودعا إليه غير معبد الجهنى والحسن البصرى – عمرو بن عبيد (٨٠-١٤٤هـ – ٦٩٩-٧٦١م) وكان من حضور حركة الحسن فى مسجد البصرة ، وهو الذى خلف معبد الجهنى فى زعامة تيار القدرية بالبصرة بعد مقتل معبد ، إذ سلك أهل البصرة مسلك الاعتقاد بالقدر (لما رأوا عمرو بن عبيد لا ينتحله) ، ولكن مؤرخى المقالات يجمعون على أن تبلور فكر المعتزلة وبناء تنظيمها كفرقة

متميزة قد تم على يد قيادتها التى تمثلت فى أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزال (٨٠-١٣١هـ ٦٩٩ - ٧٤٨م) ، ولقد نشأ واصل فى المدينة فى بيت محمد بن على بن أبى طالب - محمد ابن الحنفية - وكان مولى لهم ، وتعلم مع أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية فى المكتب ، وكان خلاً له ورفيقًا ، كما أخذ عنه العلم الذى أخذه أبو هاشم عن أبيه .. وفى الواحد والعشرين من عمره ذهب إلى البصرة (سنة ١٠١هـ) والتقى بعمرو بن عبيد وزامله فى حلقة الحسن وفى دعوة القدر ، وتزوج أخت عمرو ، ودامت صحبتهما حتى مات واصل بعد ثلاثين عامًا فى سنة ١٣١هـ ، وفى العقد الأول من القرن الثانى ، أى فى حياة الحسن البصرى الذى توفى سنة ١١٠هـ ، كان واصل قد أكمل البناء الفكرى الذى عرفت به المعتزلة على عهده ، إذ يروى كتاب المقالات : أنه قد (فرغ من الرد على مخالفيه) وهو ابن ثلاثين سنة ، كان هناك اتفاق إذن بين الحسن وعمرو وواصل فى القدر ، وكذلك فى التوحيد والتنزيه ، ولكن الانقسام قد حدث عندما قال واصل فى مرتكب الكبيرة : إنه لا مؤمن ولا كافر وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، وإن يكن مخلدًا فى النار فى درجة من العذاب دون درجة الكافرين ، بينما كان الخوارج يكفرونه ويرى الحسن أنه منافق ويصحح إيمانه القائلون بالإرجاء . اختلف واصل مع الحسن ومع عمرو حول هذا الأصل وبعد مناظرة بين واصل وعمرو تبع عمرو واصلاً وترك مجلس الحسن البصرى ، وبقى الحسن مخالفًا لهما فى هذا الموضوع . وواقعة اعتزال مجلس الحسن التى سببت إطلاق اسم المعتزلة ينسبها البعض إلى واصل فيقولون : إنه اعتزل مجلس الحسن بعد أن قال بالمنزلة وأن الحسن قد قال : اعتزلنا واصل ، وظهر اسم المعتزلة على هذه الفرقة ، وهذا أمر شهير فى كتب المقالات والفرق ، بينما ينسب البعض الاعتزال لمجلس الحسن إلى عمرو بن عبيد ، وذلك أنه (قد جرت بين واصل بن عطاء وبين عمرو بن عبيد مناظرة فى هذا ، أى فى المنزلة بين المنزلتين ، فرجع إلى مذهبه وترك حلقة الحسن واعتزل جانبًا ، فسموه معتزليًا وهذا أصل تلقيب أهل العدل بالمعتزلة) . والذى يعنينا هنا هو القول بأن قيادة هذه الفرقة التى تميزت بعد هذا الانقسام كانت لواصل بن عطاء ، فهوالذى أنجز فى العقد الأول من القرن الثانى صياغة ردود المعتزلة على الخوارج والجبرية والمرجئة والشيعة والماسونية ومختلف الفرق المعادية للإسلام ، وهو - كما يقول القاضى عبد الجبار - (أول من صنف وتبتل للرد على المخالفين بالكتب الكثيرة)

وهـــو الذى قاد بناء (التنظيم) الذى ضم صفوف المعتزلة فى مختلف البلاد والأقاليم ، وهو الذى تبلورت للمعتزلة فى عهده أصول أربعة هى :

١ – التوحيد والتنـــزيه .

٢ – قدرة الإنسان على أفعاله وخلقه لها (القدر) .

٣ – المنزلة بين المنزلتين .

٤ – القـــول بخطأ أحد الطرفين فى الصراعات التى دارت بين عثمان وخصومه ، وعلي وخصومه مع التوقف فى تحديد من هو الطرف المخطئ .

وهـــذه الأصـــول هى التى تطورت بالتداخل والزيادة حتى أصبحت خمسة فى ظل قيادة أبى الهذيل العلاف (المتوفى فى سنة ٢٣٥هـــ – ٨٤٩م) لفرقة المعتزلة .

تلك هى النشأة الأولى للمعتزلة فكرًا وتنظيمًا ، فهؤلاء الرجال الذين ضمهم عصر واحد وتوزعتهم المدن والأقاليم وهم : أبو الأسود الدؤلى فى الكوفة ، ومعبد الجهنى والحسن البصرى وعمرو بن عبيد فى البصرة، وغيلان الدمشقى فى دمشق والمدينة ، وواصل بن عطاء فى المدينة، والعراق ، والبصرة .. ثم بواسطة التنظيم الذى بناه واصل امتد نشاط المعتزلة إلى أغلب أنحاء الـــدول العربية الإسلامية ، ولقد سبق أن ذكرنا أن غيلان الدمشقى الذى كوّن فرقة القدرية قـــد تعلم على يد الحسن ابن محمد بن الحنفية ، ثم ذكرنا أن واصل بن عطاء تعلم على يد أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية .. فالاعتزال إذن قد خرج من بيت محمد بن الحنفية بن علي ابن أبى طالب ثم حمله إلى الناس مجموعة من الرجال بعضهم من أصل عربى وأغلبهم من الموالى ، ثم انتشـــر ولعب دوره المتميز فى حياة هذه الأمة منذ ذلك التاريخ . واسم المعتزلة بالرغم من الأبحاث التى كتبت حول نشأته وسبب تسمية واصل وأصحابه به سواء تلك الأبحاث والآراء التى كتبها المستشرقون فى العصر الحديث أو كتاب المقالات فى تراثنا العربى الإسلامى .. اسم (المعتزلة) هذا لا يزال ميدانًا مفتوحًا قابلاً لمزيد من البحث ، فلا زال فى نشأته وسبب إطلاقه عـــلى واصـــل وجماعـــته الكـــثير من الغموض واختلاف وجهات نظر القدماء والمحدثين .. ولـــيس صـــحيحًا ما يقوله الدكتور عبد الرحمن بدوى من أن البحث الذى وضعه المستشرق الإيطـــالى (نليـــنو) عن اسم المعتزلة قد وصل إلى النتائج التى لا يوجد مايدعو إلى مراجعتها

أو تغـــييرها أو رفضها . تقوم وجهة نظر الأستاذ (نلينو) على رفض الأفكار الشائعة فى كل ما كتبه القدماء ، وهى الأفكار التى تقول إن اسم المعتزلة قد أطلق على واصل وأصحابه عندما أحدثـــوا القـــول بالمنزلـــة بين المنزلتين ، وهو الأمر الذى أدى إلى انشقاقهم عن حلقة الحسن البصـــرى وجماعـــته ، وهـــو يسلم بأن معنى كلمة المعتزلة : (المنشقون) .. ولكن منشقون عن من ؟؟ ولماذا ؟؟ هذا ما يحاول الأستاذ (نلينو) أن يأتى فيه المبتكر والجديد ، فهو لا يوافق على أن هذا الانشقاق قد حدث من واصل وجماعته على جماعة القدرية التى تكونت فى القرن الهجـــرى الأول لأن المعـــتزلة عنده لم يكونوا فرعًا أو استمرارًا لحركة القدرية هذه ، ويرفض أن تكـــون نقطة البدء عندهم هى قضية الاختيار والقول بالقدر ، والرأى البديل الذى يقدمه يذهب إلى أن هؤلاء المعتزلة الجدد أصحاب واصل إنما هم الامتداد لحركة الزهاد الذين انشقوا على أطراف الصراع السياسى ، علي وأصحاب الجمل وعلي ومعاوية ، واعتزلوا هذا الصراع فلقد اتخذ هؤلاء المعتزلون القدامى موقفًا محايدًا من أحداث ذلك الصراع وأطرافه ، واتسمت حـــياتهم بالـــزهد والنسك ، ولما كان واصل وأصحابه قد اتخذوا موقفًا وسطًا بين أهل السنة والخوارج من تقييم أحداث الصراع بين علي وخصومه ، فلم يكفرهم جميعًا كما قال الخوارج ولم يصوبهم جميعًا كما انتهى إلى ذلك أهل السنة ، وإنما قال بفسق أحد الفريقين دون تحديده ، ولـــما كان واصل قد اتخذ هذا الموقف الوسط من أحداث هذا الصراع وأطرافه فهو الامتداد لموقـــف الـــزهاد المحايدين الذين اعتزلوا هذه الصراعات ، ويستدل على ذلك أيضًا بأن اسم المعـــتزلة قد أطلقه واصل وأتباعه على أنفسهم ، ولم يطلقه عليهم خصومهم من أهل السنة ، فهـــم الذيـــن اعتزلوا بموقفهم هذا المحايد والوسط ، وهم الامتداد لهؤلاء الأسلاف المعتزلين .

وعندما تمت البيعة لعلي بالمدينة وانشق عليه بعدها طلحة والزبير ، وأخذ علي فى التجهيز لموقعة الجمـــل اعـــتزل الخـــروج معـــه وتوقف عن المشارك فى هذه الحروب ، واتخذ موقفًا محايدًا ومعـــتزلاً عـــدد من الصحابة أبرزهم : سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت ورافع بن خديج ومحمد بن مسلمة وكعب بن مالك ومسلمة ابن عبد الله وأبو سعيد الخدرى والنعمان بن بشير وصهيب وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وســـلمة بـــن ســـلامة بن دقش . وبعض المصادر تذكر أنهم لم يبايعوا عليًا وتوقفوا فى بيعته ثم اعـــتزلوا الفتنة ، ولكن أغلب المصادر ترى أنهم بايعوا عليًا وأن توقفهم كان عن القتال ، وحـــيادهم كان فى النـــزاع بين على وطلحة والزبير ، أما فى النزاع بينه وبين معاوية فكانوا

يدينون معاوية بالبغى وإن لم يشتركوا فى القتال ، لأن الطرفين المتقاتلين من أهل الصلاة . ولقد كـــان موقـــف هـــؤلاء (المعـــتزلة القدامى) هو الحياد بمعناه السلبى فى الصراع ، وعلي بن أبي طالـــب قـــد وصف حيادهم السلبى هذا وصفًا دقيقًا عندما قال عنهم إنهم (خذلوا الحق ولم ينصـــروا الباطل) وفى موقعة الجمل اعتزل الأحنف بن قيس القتال هو وقومه من بنى تميم طلـــبًا للســـلام كما يقول النوبختى « لا على التدين بالاعتزال » وبعد وفاة علي اعتزل قوم آخرون كلاً من الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان : (لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة) وعلى رأس هؤلاء عامر بن عبد الله الذى يقال له عامر بن قيس (المتوفى سنة ٥٥ هـــ) . فهو اعتزل بمعنى الخروج من حلبة الصراع والتفرغ لشـــئون الـــنفس الخاصة دينية كانت أو دنيوية .. أى أنه موقف سلبى من صراعات السياسة والحروب التى كانت دائرة بشأنها . وفى يوم صفين اعتزل الطرفين المتصارعين نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود ، على رأسهم عبيدة السلمانى وأصحابه ، خرجوا مع جيش علي ولكنهم طلـــبوا أن يعسكروا فى مكان منعزل ، وقالوا لعلي : إننا نريد (أن ننظر فى أمركم وأمر أهل الشام فمن رأيناه أراد مالاً يحل له أو بدا منه بغى كنا عليه) فوافقهم علي وقال لهم (هذا هو الفقـــه فى الديـــن والعلم بالسنة ومن لم يرض بهذا فهو خائن جبار) وفريق آخر من أصحاب ابن مسعود طلبوا من علي أن يوجههم لثغر من الثغور بدلا من القتـــال فى صفين ، وقالوا له : (إنـــا قد شككنا فى هذا القتال ..) فوافقهم وعقد لقائدهم الربيع بن خيثم اللواء فتوجهوا إلى ثغر (الرأى) .

فاعـــتزال الصـــراع هنا موقف سلبى وحياد بالمعنى السلبى لكلمة الحياد ، لأنهم شكوا ولم يتبيـــنوا ولم يعرفوا أين الحق وأين الضلال فى هذا الصراع . ويفصح عبد الله بن عمر عن طبيعة اعتزاله وحياده عندما يكتب إلى معاوية فيقول : (ولكنى عهد إلى فى هذا الأمر عهد ، بـــين المنزلتين ليست توقفًا ولا حيادًا سلبيًا فى تقييم مواقف أطراف الصراع وإن كان ضلالاً فشر نجوت منه) . ويفصح محمد بن مسلمة عن طبيعة اعتزاله وحياده وتوقفه فيقول فى خطابه لمعاويـــة : إنه لما حدث ما حدث (كسرت سيفى وجلست فى بيت واتهمت الرأى على الدين إذ لم يصبح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه) فهو توقف من لا يعرف الحق من الباطل ولا المعروف من المنكر ، هرب صاحبه إلى منزله فكسر سيفه واتهم رأيه ؟ وهو يقول ذلك عن الأحداث التى وقعت بين علي وطلحة والزبير ، أما عن موقف معـــاوية فهو يدينه ويقول له فى

نفس الرسالة : (وأما أنت ، فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، وإن تنصر عثمان ميتًا فقد خذلته حيًا) وعلى درب هذا اللون من الاعتزال سار الخريت بن راشد عندما قال : (أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى بين الناس ، فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضًا ، كنت مع الناس) ولقد قال عمرو بن العاص يومئذ لمعاوية : إن أهل المدينة ومكة : (ثلاثة نفر : رجل راضى بعلي . ورجل يهوى عثمان . ورجل معتزل) ذلك هو الاعتزال الذى ارتبط بالزهد والتقوى والتعبد فى عصر صدر الإسلام ، وهؤلاء هم (المعتزلة) الذين توقفوا فى الصراع بين علي وخصومه ولزموا موقف الحياد بمعناه السلبى ، وانتهى بهم اعتزالهم فى واقع الأمر إلى الخروج من حلبة الصراع ، فهل بين موقف هؤلاء وموقف واصل ابن عطاء والمعتزلة الجدد وجه واحد من وجوه الشبه ؟ حتى يكونوا هم أسلاف المعتزلة الجدد ويكون واصل وجماعته هم (الاستمرار فى ميدان الفكر والنظر لهؤلاء المعتزلة السياسيين أو العمليين) كما يقول الأستاذ نلينو : إن المعنى الذى يفهم من أصل (المنزلة بين المنزلتين) – وهو السبب المباشر لانشقاق واصل – وحجته وملابسات نشأته وأساليب القول به لا تدع مجالاً للشك فى انعدام الصلة الفكرية والعملية ما بين أولئك المعتزلة وهؤلاء المعتزلة الجدد . فالمنزلة بين المنزلتين ليست توقفًا ولا حيادًا سلبيًا فى تقييم مواقف أطراف الصراع فى الفتنة التى حدثت فى صدر الإسلام ، وإنما هو موقف وسط ، ولكنه إيجابى فى معالجة الخلاف حول حكم مرتكب الكبيرة ، وكان الوقت وقت اشتداد ثورة الخوارج الأزارقة ضد بنى أمية ، وكان المطروح فى الدوائر الفكرية والسياسية وساحات القتال من قبل الأزارقة : أن بنى أمية وهم أهل كبيرة وفسق هم كفار مخلدون فى النار ، ورد عليهم المرجئة بأنهم مؤمنون . ورأى الحسن والقدرية – وفيهم عمرو بن عبيد – أنهم فسقة منافقون . فجاء واصل بن عطاء بالقول بالمنزلة بين المنزلتين عندما تمسك بوصفهم بالفسق لاتفاق الخوارج والقدرية عليه ، ثم حكم بأن منزلتهم هى بين المؤمنين وبين الكافرين ، وهم مع ذلك مخلدون فى النار . والموقف الذى يقول إن طرفًا من أطراف الصراع فى المجتمع الإسلامى فاسق مخلد فى النار ، لا يوصف بأنه موقف سلبى أو محايد أو امتداد لتلك المواقف التى عميت الأمور على أصحابها فتوقفوا عن الحكم والفصل فى أحداث الصراع ، إن القدرية قبل هذا الانشقاق الذى سموا بعده بالمعتزلة ، وكذلك المعتزلة بعد هذا الانشقاق لم يكونوا محايدين فى الموقف من الصراع على السلطة والإمامة فى ذلك الحين حتى يكونوا الامتداد لأصحاب ذلك الاعتزال السلبى والحياد الذى

كـــان أشبه بالشلل والتوقف عن التعامل مع الأحداث ، والمشاركة الإيجابية للقدرية والمعتزلة قـــد بلغـــت مســـتوى الثورة وسل السيف ضد بنى أمية ، ثم ضد بنى العباس ، وسيأتى ذكر لمعارضـــتهم ونقدهـــم للدولة الأموية وإدانتهم لها ولولاتها ومظالمها ومشاركتهم أو مشاركة تـــيار مـــنهم فى ثـــورة ابـــن الأشـــعث وثـــورة القدرية ونشاطها بين عمر بن عبد العزيز وهشـــام بـــن عبد الملك . ثم ثورة زيد بن علي . ثم ثورتهم التى نصبت يزيد ابن الوليد بعد أن قتلت الوليد بن يزيد . ثم محاولتهم بناء دولتهم على أنقاض الدولة الأموية ثم صراعهم ضد بـــنى العـــباس عندما اختطف هؤلاء الإمارة من المعتزلة – كل هذه الحقائق وجانب كبير منها يـــدرس ويعـــرض للمرة الأولى – تنفى نفيًا قاطعًا تلك الصورة التى يقدمها الأستاذ (نلينو) عـــن موقـــف المعتزلة من الصراع على السلطة والإمارة وتقييمهم لأطراف الصراع عليها . ومن ثم ينبغى أن يكونوا امتدادًا لأولئك المعتزلة الأول . ولا نعتقد أن اتصاف واصل بن عطاء وعمـــرو بـــن عبـــيد بالزهد والتقوى والورع ، وهم كانوا كذلك يكفى ليجعلهم فى الفكر والسياســـة الامتداد لمن كان زهدهم سببًا فى حيادهم السلبى إزاء أحداث العصر الذى عاشوا فـــيه ، وفـــرق بين أن يكون القول بالمنزلة بين المنزلتين تعبيرًا عن موقف أقل تطرفًا من موقف الخوارج الأزارقة وبين أن يكون حيادًا سلبيًا كحياد المعتزلة القدماء ، وإلا فماذا نصنع بتشدد هذا الموقف بل وتطرفه إذا ما قيس بموقف القدرية قبل الانشقاق فضلاً عن موقف المرجئة . ثم إن النصوص التى ظهرت حديثًا لمفكرين معتزلة والتى اكتشفت مخطوطاتها بعد أن كتب الأستاذ (نلينو) بحثه تقطع بأن سبب هذه التسمية إنما هو ذلك الانشقاق الذى حدث فى حركة أهل العدل والتوحيد ، فالذين أضافوا إلى أصول : العدل والتوحيد والوعد والوعيد أصل المنزلة بين المنزلـــتين اختصوا باسم المعتزلة ، أما الذين رفضوا هذا الأصل الذى قال به واصل بن عطاء فظلـــوا من أهل العدل والتوحيد دون أن يسموا بالمعتزلة كما هو وضع الحسن البصرى ومن ظل على موقفه . والبلخى يقول عن ســـبب تسمية المعتزلة بالاعتزال (والسبب التى سميت له المعتزلة بالاعتزال أن الاختلاف وقع فى أسماء مرتكبى الكبائر من أهل الصلاة فقالت الخوارج : إنهـــم كفار مشركون وهم مع ذلك فساق . وقال بعض المرجئة : إنهم مؤمنون لإقرارهم بالله ورســـوله وبكتابه وبما جاء به رسوله وإن لم يعملوا به . فاعتزلت المعتزلة جميع ما اختلف فيه هـــؤلاء ، وقـــالوا نـــأخذ بما اجتمعوا عليه من تسميتهم بالفسق ، وندع ما اختلفوا فيه من تسميتهم بالكفر والإيمان والنفاق والشرك) وهذا هو الموقف والتفسير الذى نجده عند القاضى

عبد الجبار وغيره من أصحاب الآثار الفكرية الاعتزالية التى اكتشفت مؤخرًا . إن أهل العدل والتوحيد بالبصرة كانوا على الرأى القائل بأن مرتكب الكبيرة منافق ، أما المنزلة بين المنزلتين فهو موقف جاء به واصل بن عطاء من المدينة أخذه من أستاذه أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية .

وفى ذلك يقول القاضى عبد الجبار وهو يتحدث عن الموقف من صاحب الكبيرة : ذهب الحسن البصرى إلى أنه ليس بمؤمن ولا كافر ، وإنما يكون منافقًا ، وإلى هذا ذهب عمر بن عبيد وكان من أصحابه ، وذهب واصل بن عطاء إلى أن صاحب الكبيرة (لا يكون مؤمنًا ولا كافرًا ولا منافقًا ، بل يكون فاسقًا) . وهذا المذهب أخذه عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وكان من أصحابه ، وقد جرت بين واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد مناظرة فى هذا ، فرجع عمرو بن عبيد إلى مذهبه وترك حلقة الحسن واعتزل جانبًا فسموه معتزليًا . وهذا أصل تلقيب أهل العزل بالمعتزلة فالمعتزل هنا عمرو وليس واصلاً، لأن عمرًا كان هو الأصيل فى حلقة الحسن لأنه كان بصريًا . بل إن هناك من يذهب إلى أن هذه التسمية قد أطلقت بعد موت الحسن إذ أن مجلس الحسن وحلقته قد انفرد بهما قتادة بن دعامة السدوسى وهو من أهل العدل والتوحيد (القدرية) فاعتزل عمرو بن عبيد حلقة قتادة واعتزله نفر معه فسماهم قتادة : المعتزلة . ثم إن إطلاق اسم (المعتزلة) على الزهاد الذين توقفوا فى الفتنة أيام علي ، ثم إطلاق هذا الاسم على واصل وصحبه ليس دليلاً على وجود صلات فكرية أو علمية أو شبه فى الموقف وأسلوب معالجة الأحداث بين الفريقين ، فمثلا عندما فرّ مروان بن الحكم بعد مقتل عثمان إلى معاوية مع بعض أنصار عثمان كتب معاوية إلى عمرو بن العاص يقول : (وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى رافضة أهل البصرة) . فهؤلاء (رافضة) هواهم مع عثمان ومعاوية ، ولا أحد يستطيع أن يقول بوجود شبه بينهم وبين (الرافضة) الذين نشأوا من بعد وكان هواهم مع علي ضد الأمويين وغيرهم من الفرقاء ، فالاتفاق فى اللفظ لا يكفى دليلاً على التشابه أو التقارب ، فضلاً عن الاتحاد فى مثل هذه الأمور .

وأخيرًا .. فإن القول بالمنزلة بين المنزلتين لم يكن هو الأصل الذى يضم تقييم واصل ابن عطاء وجماعته لأحداث الفتنة التى وقعت على عهد علي حتى يكون هو الامتداد لموقف

المعتزلة القدماء .. ذلك أن (توقف) واصل فى تحديد من هو المخطئ ، أو من هو الفاسق من أطـراف ذلك الصراع كان يمثل أصلاً مستقلاً غير أصل (المترلة) الذى سبب الانشقاق فى صفوف القائلين بالعدل والتوحيد ، فأصول الفرقة كما كانت على عهد واصل هى :

١ — التوحيد .

٢ — العدل .

٣ — المترلة بين المترلتين .

٤ — قوله فى الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين : إن أحدهما مخطئ ، لا بعينه، وكذلـك قوله فى عثمان وقاتليه وخاذليه : إن أحدهما فاسق لا محالة . كما أن أحد المتلاعنين فاسـق لا بعينه . وهكذا نرى أن تسمية فرقة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بالمعتزلة ، بعد انشقاقهم عن أصحاب الحسن ، إنما كان أمرًا آخر يختلف فى المضمون عن إطلاق تلك التسمية على أولئك الزهاد الذين توقفوا فى الفتنة زمن علي واتخذوا من أحداثها موقفًا هو اللا موقف فكان وجودهم فيها هو والعدم سواء بسواء .

ومـن القسمات التى امتاز بها المعتزلة أنهم كانوا فى الفكر العربى الإسلامى طلائع ذلك النوع من المفكرين والذين نسميهم (الفلاسفة الإلهيون) .

وقـد نشـأ المعـتزلة بعد الفتح واختلاط العرب بشعوب البلاد المفتوحة وتصادم الملل والمذاهب فى هذا المجتمع الجديد ، وكان للجدل الحر فى هذه البيئة سوق رائجة وأندية عديدة يتنافس على استضافتها فى قصورهم الخلفاء والأمراء والولاة والأثرياء ، ثم هم قد انحدر عدد كبير منهم من أصول غير عربية ثم أصبحوا عربًا ومسلمين بالفكر والثقافة والحضارة والولاء فجمعوا بين ميراث الشعوب المفتوحة — فى غير تعصب شعوبى — وبين إضافات الفكر القرآنى والإسـلامى ومميزات العرب فى بساطة التفكير .. ولقد وجدت المعتزلة أن السبيل إلى نصرة العقائد الإسلامية فى صراعها مع النحل والمذاهب الأخرى يتطلب التسلح بذات الأسلحة التى يتسـلح بها الخصوم ، وفى مقدمتها أسلحة الفلسفة اليونانية وفى الجدل والبرهنة والحجاج .. فدرسوا الفلسفة كى يدافعوا بها عن الدين ، وجمعوا بين الفكر الدينى الإسلامى وعلوم الأوائل فكان لنا منهم ذلك المزيج الجديد من الفلاسفة الإلهيين .

وعـــلى حين كانت نقطة الضعف عند أهل السنة وخاصة أصحاب الحديث هى عجزهم أمام الخصوم لجهلهم بأسلحة الفلسفة التى رفضوا التسلح بها ، كان إقدام المعتزلة على ارتياد هـــذا المجـــال هو الســـبب فى قوتهم وقوة معارضتهم والعامل الذى أبرز منهـــم المدافعين عن الإسلام .. وكما يقول (جيوم) فإن (قوة الحـــركة الاعتزالية مردها جهـــود أولئك الذين حاولوا أقصى ما فى طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامى على أساس ثابتة من الفلسفة مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية ، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية) .

لقد حاول المعتزلة أن ينهضوا بالمهمة الصعبة ، بل بأصعب المهام التى تطرح فى أى ثقافة من الثقافات ، فمن السهل أن ينحو الإنسان منحى يكتفى فيه عن الفلسفة بالدين أو العكس ، أما أن يجتهد كى تتدين الفلسفة ويتفلسف الدين دون تزيد أو اختلال أو تلفيق فتلك أصعب المهـــام ، وتلـــك هـــى المهمة التى ارتاد المعتزلة ميدانها فى حضارتنا العربية الإسلامية ، وكما يقال عنهم فإن (المعتزلة المخلصين لم يستخدموا العقل هذا الاستخدام المفرط وبذلوا جهدهم فى أن يوفقوا بينه وبين الدين ، وأن يردوا على شبه الزنادقة والملحدين بكل ما أوتوا من حجة وبيـــنة وبرهان قاطع) . والحديث عن صعوبة تلك المهمة ليس من مكتشفات عصرنا الحديث الـــذى يدرك أهله صعوبة التوفيق بين الفلسفة والدين ، وإنما المعتزلة أنفسهم قد اكتشفوها ، ومع ذلك ارتادوا ميدانها لإدراكهم أن لا سبيل سواها لخلق التوازن لدى المفكر والمجتمع على السواء .

والجـــاحظ يتحدث عن هذه المهمة فيضع يدنا على نهج المعتزلة وسبيلهم عندما يقول فى عبارات جامعة يصف المتكلمين وما يجب أن يكونوا عليه فيقول : (وليس يكون المتكلم جامعًا لأقطـــار الكـــلام متمكنًا من الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الـــذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قـــال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع . وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر عـــلى التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن فى رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان

هى الدالة على الله فرفعت الدليل فقد أبطلت المدلول عليه ، ولعمرى أن فى الجمع بينها لبعض الشدة ، وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل نفضت ركـنًا مـن أركان مقالتى ومن كان كذلك لم ينتفع به) وقد يتبادر إلى الذهب أن تلك الميزة قـد جاءت إلى المعتزلة متأخرة بعد أن ترجمت الفلسفة اليونانية على عهد العباسيين والمأمون بالذات ، ولكن الحقيقة تدعو إلى القول بأن هذه الميزة قد تدعمت ونمت بترجمة فلسفة اليونان، غـير أن المعـتزلة ومـن قبلهم أسلافهم من أهل العدل والتوحيد حتى قبل الانشقاق المعتزلى قـد امـتازوا بالنظر الفلسفى فى أمور الدين منذ نشأتهم الأولى ، فهذه السمة كانت لهم منذ النشأة الأولى . فهم تيار العقل فى الفكر الإسلامى حتى قبل حركة الترجمة عن اليونان وغيرهم مـن القدمـاء . فكتاب الطبقات يصفون الحسن بن محمد بن الحنفية أستاذ غيلان الدمشقى بقولهم : (وكان من ظرفاء بنى هاشم وأهل العقل منهم) . ومعبد الجهنى (٨٠هـ) وأتباعه وهـو الـذى أجمع الرواة على أنه أول من تكلم بالقدر فى البصرة ، ويصف خصومه طريقته وطـريقة أتـباعه فى البحـث عن الحقيقة فيقولون : (إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويـتفقهون العلم) أى يطلبونه ويتتبعونه ويجمعونه ويبحثون عن غامضه ويستخرجون خفيه ، فهو موقف قديم ونهج عريق وقسمة أصيلة من قسمات أهل العدل والتوحيد . ولقد نبعت هذه القسـمة الاعتزالـية من مكانة العقل عندهم والمركز الذى أحلوه إياه إذا ما قيس بالنصوص والمأثورات .

وفى الحـق فـإن مقام العقل عند المعتزلة هو صفحة من الصفحات المشرقة فى حضارة العرب والمسلمين إن لم يكن أكثر هذه الصفحات شرفًا وتشريفًا ، فالعقل عندهم هو (وكيل الله) عند الإنسان جعل إليه أزِمّة أموره وقيادة نشاطه . وهم يطلبون أن يدعم الإنسان عقله الغريزى بعقله المكتسب ، فذلك هو السبيل لبلوغ غاية الكمال . وعندما يعرض المعتزلة للأدلة وترتيـبها يخـتلفون اخـتلافًا أصيلاً عن أصحاب الحديث وأهل السنة فى تعداد هذه الأدلة وترتيبها ، فهى عند أهل السنة : الكتاب والسنة والإجماع على هذا الترتيب . بينما هى أربعة عـند المعـتزلة فيضيفون العقل إلى هذه الثلاثة ويقدمونه عليها جميعا ، بل ويرون أنه الأصل فى جمـيع هذه الأدلة . يقولون : (الأدلة أولها : دلالة العقل لأن به يميز بين الحسن والقبيح ، ولأن بـه يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنة والإجماع) . وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة الكتاب والسنة والإجماع فقط ، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على

أمـــور فهو مؤخر وليس الأمر كذلك ، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ولأن به يعرف أن الكـــتاب حجـــة وكذلك السنة والإجماع ، فهو الأصل فى هذا الباب . وإن كنا نقول : إن الكـــتاب هـــو الأصـــل من حيث أن فيه التنبيه على ما فى العقول كما أن فيه الأدلة على الأحكـــام . وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين ، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بمـــا يتركه أو بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يذل ، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل لـــه ومتى عرفـــنا بالعقل إلهًا منفردًا بالإلهية ، وعرفنا حكيمًا نعلم فى كتابه أنه دلالة ومتى عرفنا مرسلاً للرسول ومميزًا له بالأعلام المعجزة من الكاذبين علمنا أن قول الرسول حجة . وإذا قال صلى الله علـــيه وســـلم : (لا تجتمع أمتى على الخطأ وعليكم بالجماعة) علمنا أن الإجماع حجة . فالعقل هو أول الأدلة وليس ذلك فقط ، بل هو أصلها الذى به يعرف صدقها هو أول الأدلة ولـــيس ذلك فقط ، بل هو أصلها الذى به يعرف صدقها وبواسطتها يكتسب الكتاب والسنة والإجماع قيمة الدليل وحجيته .

وكذلك الحال فى معرفة الأصول الشرعية إذا يرى المعتزلة أن العقل هو سبب معرفة هذه الأصول بل سببها شبه الوحيد لأننا لا نحتاج معه إلى معرفتها إلا إلى حذق اللسان العربى عندما يتعلق الأمر بحجج السمع خاصة .

يقولون : أما وقد (ثبت وجوب النظر فى الأصول الشرعية فالسبب المؤدى إلى معرفتها والعمـــل بهـــا شيئان : أحدهما علم الحس وهو العقل لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول إذ لـــيس تعرف الأصول إلا بحجج القول . والسبب الثانى فى معرفة الأصول الشرعية معرفة لسان العرب وهو معتبر فى حجج السمع) خاصة وهذه المكانة العالية التى وضع المعتزلة العقل فيها وتقديمهم له على غيره من الأدلة .. أدلة المعرفة الدينية ما تعلق منها بالأصول أو الفروع قد قادت المعتزلة إلى حيث تميزوا عن أهل السنة وأصحاب الحديث فى الموقف من نوع العلاقة بـــين (المعقول) و (المنقول) وأيهما الأصل والأساس ؟ ومن منهما الذى جاء بيانًا وتفصيلاً للثابت والأولى والأصيل ؟؟ وهذه القضية قد عرض لها القوم فى مجالات عدة من أشهرها قضية الحسن والقبح ، هل هما ذاتيان ، أى يدركان بالعقل دون توقف على النص والمأثور ؟ — وهو مذهـــب المعتزلة — أو أن الشىء حسن أو قبيح لأن هناك نصًا يقول لنا : إن هذا حسن وهذا قبيح ؟ وهو موقف أهل السنة وأصحاب الحديث .

لقـــد اعـــتمد المعـــتزلة على العقل ووثقوا بحكمه فى التحسين والتقبيح دون حاجة إلى النصـــوص والمأثورات ، بل أوجبوا عرض هذه النصوص والمأثورات على العقل ، فهو الحكم الـــذى يمـــيز صـــحيحها من منحولها ، ولا عبرة بالرواة ورجلات السند مهما كانت هالات القداســـة ، الـــتى أحاطهـــا بهم المحدثون ، إنما العبرة بحكم العقل فى هذا المقام . وهذا التقديم للعقل وبراهينه على النقل ونصوصه قاد المعتزلة إلى القول بأن الشرع لم يأت بما يخالف العقل ، بـــل إن ما جاء به إما أن يكون واجبًا بالعقل أو جائزًا فى نظره (فلم يرد الشرع إلا بما أوجبه العقـــل أو جـــوّزه ، ولم يرد بما حظره العقل أو أبطله) واحتجوا على ذلك بأن أدلة التشريع وأمثاله لا يعقلها إلا العالمون وذوو العقول والنهى ، وهذا هو المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ ، وهكذا كانت حجج العقل وبراهينه قاضية على حجج السمع وحاكمة فى أمرها أى بعـــبارتهم (صـــارت حجج العقول قاضيًا على حجج السمع ومؤدية على علم الاستدلال ، ولذلـــك سمى كثير من العلماء العقل (بأم الأصول) وإذا كان مستحيلاً عند المعتزلة أن يأتى الشرع بما يحبطه العقل أو يبطله ، فما وظيفة الشرع إذن ؟ إن وظيفته أن يفصل ما هو مجمل فى العقـــل ، ويقـــرر ما هو مركب ، ويؤكد ما أودعه فيه الخالق سبحانه ، ذلك (أن ما تأتى به الرسل لا يكون إلا لتفصيل ما تقرر جملته فى العقل ، إن وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرر فى العقل ، إلا أننا لما لم يمكنا أن نعلم عقلاً أن هذا الفعل مصلحة وذلك مفسدة بعث الله إلينا الرســـل ليعرفونا ذلك من حال هذه الأفعال ، فيكونوا قد جاءوا بتقرير ما قد ركبه الله تعالى فى عقولنا وتفصيل ما قد تقرر فيها . وصار الحال فى ذلك كالحال فى الأطباء إذا قالوا : إن هذا الـــبقل يـــنفع وذلك يضر ، وكنا قد علمنا قبل ذلك أن دفع الضرر عن النفس واجب وجر النفس إلى النفع حسن ، فكما لا يكون والحال ما قلناه قد أتوا بشيء مخالف للعقل . فكذلك حال هؤلاء الرسل) كما رفض المعتزلة اتخاذ النقل ، من دون العقل ، سبيلاً للمعرفة ، وكذلك رفضوا طريق التقليد لأن التقليد كما يكون فى الحق يكون فى الباطل، وكما يكون فى الصحيح يكون فى الفاســـد ، وكما يكون فيما ثبت بالدليل يكون فيما لا دليل عليه ، فالتقليد عندهم (ليس بطريق للعلم لأن الباطل كالحق فى ذلك) وهذا معلم هام من المعالم المميزة بينهم وبين أهل الســـنة وأصحاب الحديث . وكان لابد للمعتزلة ، وهذا هو مقام العقل عندهم ، أن يعرضوا لـــلموقف من السنة المروية فى كتب الحـــديث ، لأن الباحث عن القضـــايا الخلافية فى تراثنا

الإســلامى لابد واجد الأحاديث المتعارضة والمتناقضة المروية وبالأسانيد المعتمدة فى كل قضية من هذه القضايا . فهناك الأحاديث التى تفضل أبا بكر على جميع الصحابة ، وتلك التى تفضل علـيًا علـيهم ، وأخـرى تفضـل عليهم عمر بن الخطاب ، وهناك الأحاديث التى تفضل العرب وتلك التى تفضل الفرس . وأخرى تمدح المصريين وتتحدث عن خصائصهم فى الجندية مـثلاً .. إلخ ، وهناك أحاديث الوصية والنص فى الإمامة ، بعضها ينص على علي ، وبعضها عـلى أبى بكر ، وبعضها على العباس بن عبد المطلب ، ومن ثم كان لابد للمعتزلة وهذا مقام العقل عندهم وذلك هو موضعه من النصوص والمأثورات المروية – كان لابد لهم من التعرض للموقف من الحديث ، وهم عندما عرضوا لهذه الجزئية قرروا عدة مبادئ من أهمها :

١ – التنبـيه إلى أن هـناك الكثير من الأحاديث الموضوعة والمنحولة والتى نسبت زورًا وكذبًا لرسول الله (ﷺ)وروا عن (شعبة) أنه قال : « ما أنا من شيء أخوف منى أن يدخلنى الـنار مـن الحديث . لا تكاد تجد أحدًا فتش هذا الحديث تفتيشًا وقد نظرت فيه فوجدت لا يصح منه الثلث » .

٢ – التنبيه إلى أنه ليس معنى أن الرسول (ﷺ) قد قال هذا الحديث ، وأن الراوى قد سمعه منه أن الاستدلال به صحيح ، فهناك الملابسات التى قيل فيها الحديث والظروف التى قيل لأجـلها .. والـراوى قد يصدق فى الرواية ، ولكنه لا يضع الحديث فى موضعه ، لأن كتب الحديـث قـد صـنفت الأحاديث تصنيفًا موضوعيًا ، ولم تحفل فى التغالب بما يقابل أسباب النزول فى القرآن ، وهى أسباب قول الحديث وظروف التحدث به ، ويروى المعتزلة عن عروة بن الزبير قوله فى أبى هريرة « وهو يحدث الحديث الكثير ، صدق وكذب ، فقيل له : ما المراد بذلـك ؟ فقـال : إما أن يكون سمع بذلك من النبى فلا شك فيه ، ولكن منها ما وضعه على موضعه ومنها ما لم يضعه فى موضعه » .

٣ – المهم ، وقد قدموا دليل العقل على دليل الكتاب والسنة والإجماع ، يطلبون عرض الأحاديـث عـلى الكتاب فما وافق القرآن قبلناه وما خالفه وخالف السنة العملية رفضناه ، ويـروون فى ذلك عن النبى قوله : « سيأتيكم عنى حديث مختلف ، فما وافق كتاب الله تعـالى وسـنتى فهو منى ، وما كان مخالفًا لذلك فليس منى » .. كمـا يروون قوله : « سيفشو الكذب بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرضوه على كتاب الله » .

٤ – يميزون ما بين الأحاديث التى موضوعها الدين والعقائد ، وتلك التى موضوعها السنة العملية فيرفضون الاستدلال بأحاديث الأحاد – والأغلبية الساحقة من الأحاديث أحاديث آحاد – على أمور الدين والعقائد ويقبلون الاستدلال بها فى العمليات .. (لأن ما طريقه الدين يجب عدم قبول خبر الواحد فيه أصلاً) .

٥ – أنهم لا يكرهون للعلماء أن يطلبوا الحديث ويشتغلوا بصناعته ، ولكنهم فى ذات الوقت لا يرون وجوب طلبه والاشتغال به ، لأن طلبه هو من فروض الكفايات ، بل يقولون (إن السعيد فيه قد كفى بغيره) . فإذا حدث وطلبه المرء واشتغل به فإنهم يوجبون عليه (أن يميز بين الذى يجوز أن يصح ويصح تأويله إذا لم يصح ظاهرًا وبين ما ليس هذا حاله) .

٦ – أنهم وقد جعلوا العقل هو الحكم والقاضى على صحة المرويات والمأثورات ، ويحذرون من الاغترار بأسماء رجال السند ورواة الحديث ، فالعبرة بحكم العقل على هذا النص المروى ، لا بالهالات التى أحاطت بالرواة فقد يتحد حديثان فى رجل السند الراوى ، ولكن العقل يقبل أحدهما ويصححه ، بينما يرفض الثانى ويطرحه .

فالمعتزلة لم يهملوا الحديث ، وإن لم يشتهروا بصناعته ، وكما يقول القاضى عبد الجبار : (وإما ظن من يظن فى أصحابنا أنهم ليسوا من أهل الحديث ، فليس كما قاله ، وذلك كظن بعضهم أنهم ليسوا من أهل الفقه ، وإنما أتى هذا القائل من أجل أنهم لم يشهروا أنفسهم بالفقه وتوفروا على ما هو عندهم أجدى فى الدين من ذلك ، وكذلك القول فى طلبهم الحديث) .

إنه أثر لسيادة العقل وتقدمه عندهم على جميع الأدلة ، فمقامه أولاً ، ثم يأتى الكتاب والسنة والإجماع .. ولقد كان طبيعيًا لمن يقدمون العقل فى أمور الدين ان يقدموه فى أمور الدنيا ، وأن يكون هو الأساس والعماد فى كل ما يتعلق بهما جميعًا ، وكما يقول الماوردى : (فإن لكل فضيلة أسًا ، ولكل أديب ينبوعًا ، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عمادًا ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألّف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسمًا وجب بالعقل فأكده الشرع ، وقسمًا جاز فى العقل فأوجبه الشرع ، فكان العقل لهما عمادًا) . ذلك هو مقام العقل عند المعتزلة قدموه وسودوه ، وكان تقديمه وسيادته قسمة من القسمات التى امتازوا عن غيرهم أو أكثر من غيرهم من فرق الإسلام .

تلـــك هـــى أهم الملامح الخاصة التى تميزت بها فرقة المعتزلة ، فالموالى منهم كانوا عربًا بالحضــــارة والولاء ناصبوا الشعوبية العداء ، وقدموا بواكير الفكر القومى الذى يؤلف ويبلور الشخصـــية العربية على أسس غير عرقية ، وإنما بمفهوم حضارى متقدم ، والرواة منهم كانوا أولى مدارس البحث التاريخى فى تراثنا العربى الإسلامى .. والفلسفة عندهم كانت فلسفة إلهية تدينت فيها الفلسفة وتفلسف بها الدين ، وقدمت أولى محاولات التعايش والتآخى بين الحكمة والشـــريعة فى تراثـــنا . ومقام العقل عندهم كان عاليًا ، وصفات (الأرستقراطية الفكرية) وسمـــات العلماء كانت واضحة فى أوساطهم كل الوضوح ، كما أن موقفهم من (العامة) ثم ارتباط مواطنهم وأسماء عدد من أعلامهم بالمواطن التجارية وبألقاب الحرف والصناعات يؤكد أن هذا التيار العقلانى قد ارتبط فى النشأة والانتشار بالطبقة التجارية وفئات الحرف والصناع الذيـــن كونوا البيئة الأكثر قابلية للعقل والعقلانية – على عكس البدو والفلاحين – فى تلك المجتمعات .

وهكذا كان المعتزلة كوكبة من أهل الفكر والنظر ، اتخذوا من الفلسفة والفكر والرقى فى المعرفة بديلاً عن الأحساب والأنساب ، فتحقق فى فرقتهم تعايش العرب والموالى دون تفاخر أو عصبية أو تنافر ، وكان الفكر العقلانى هو السلم الذى ارتقوا عليه إلى مستوى أصبح دونه مستوى (الأشراف) الذين يستند (شرفهم) إلى الأحساب والأنساب ، والمعتزلة قد عاشوا طـــوال العصر الأموى مضطهدين يتعرضون للمحن التى وصلت إلى النفى الجماعى فى جزيرة مـــنعزلة تجـــاه الســـاحل اليمنى هى جزيرة (دهلك) كانت مخصصة لعزل أهل الرأى الذى لا ترضـــى عـــنه الدولـــة .. كما وصلت المحن إلى التعليق على الصليب كما حدث لغيلان الدمشقى وصاحبه صالح .

وفى العصـــر العباســـى ظلوا مضطهدين ومطاردين من عهد السفاح حتى عهد المأمون ، ولم يتمتعوا بشئ من الأمن والحرية إلا فى عهود المأمون والمعتصم والواثق فقط ، وحتى فى هذه الفـــترة كـــان كثيرون منهم فى صفوف المعارضة ينتقدون السلطة ويرفضون الاشتراك فيها ، وبيـــنهم وبين زملائهم فى الفكر الذين تولوا مناصـــب فى الوزارة والإدارة عداء وشـــحناء ، أوصلت بعضهم إلى غياهب السجون فى كثير من الأحيان ، ثم جاء عهد المتوكل فبدأت محنتهم المتصـــلة التى باد فيها تراثهم الفكرى فلم يبق إلا النذر اليسير ، وهذا الاضطهاد الذى عاشه

المعتزلة قد فرض على كثير من أعلامهم إخفاء بعض الآراء والنظريات ، وحتى واصل بن عطاء وعمـــرو بن عبيد فإن القاضى عبد الجبار يقول إن الاضطهاد الذى عاشوا فى ظله لم يتمكنوا بسببه إلا من (إظهار القدر الذى كان منهم) أما كثيرون غيرهم فلقد اضطروا إلى الاستخفاء بـــآرائهم ومذهـــبهم ، وكما يقول القاضى عبد الجبار فإن (أصحابنا . لبسوا طريقة الاستتار والاتقاء من الخوف .. واستمر على أصحابنا هذا الانقباض) لأن الخصوم اختلطوا بالظلمة ، واستعانوا بهم على أهل العدل والتوحيد . حتى أصبحت معرفة مذهب كثير من المعتزلة لا تأتى عـــن طـــريق إعلانهم مذهبهم بل من خلال اتهام خصومهم لهم بأنهم على مذهب الاعتزال ، وعندما أخذ القاضى عبد الجبار فى التفتيش عن أسماء أئمة المعتزلة كى يكتب طبقاتهم وصل إلى هذه الحقيقة فأدخلها عنصرًا من عناصر منهجه فى الكشف عن مذهب الإعلام الذين تمذهبوا بالاعتزال ولم يستطيعوا الإعلان عنه ، وقال (وعند التفتيش عرفنا موافقة من سمينا ممن يقول بـــالعدل والتوحـــيد مـــن صـــفة المخالفين من حيث اتهموهم بهذا المذهب ، ولولا ماذكرنا من الانقباض لظهروا به ولأظهروه) . ولقد ذهب المعتزلة فى ســـبيل التخفى مذاهب شتى ، فعـــلم الكلام كان صناعتهم التى نشأت على أيديهم ، وكان الاشتغال به مظنة من المظان التى يطلـــبون عندها ، فكان الواحد منهم يدارى مذهبه بأن يجعل شهرته (النحوى) أو (الفقيه) مثلاً ، وذلك (خيفة من إظهار أدلة الله فى العدل والتوحيد والدعاء إليه) .

ولقـــد لجأ بعضهم إلى إقامة مدارسهم الفكرية وحلقات دروسهم فى مزارع خاصة بهم بعـــيدًا عن المدن وأعين الشرطة ، فأعادوا إلى الذهن صورة أخرى وإن تكن مختلفة لمن رفضوا وقـــاموا بالهجرة إلى الصحراء حيث بنوا الأديرة والصوامع هناك . والمفكر المعتزلى أبو الحسن المـــاوردى (٣٦٤ – ٤٥٠هـــ – ٩٧٤ – ١٠٥٨م) نموذج لهؤلاء الأعلام الذين تمذهبوا بمذهـــب المعتزلة ، ثم لم يستطيعوا الإعلان عن مذهبهم ، فلقد كان فى خدمة الدولة العباسي السنية التى كانت قد أصدرت فى ذلك العهد مرسومًا يحرم فكر المعتزلة ، وكان يتولى منصب (أقضـــى القضاة) وكان إذا كتب وعرض للآراء والمذاهب يذكر رأى المعتزلة وقال علماء الكـــلام ، أو قـــال أهـــل العدل والتوحيد .. ولقد اتهمه خصوم المعتزلة بالاعتزال ، وحقق ابـــن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٢ هـــ) هذا الاتهام وأثبته من خلال دراسته لتفسير الماوردى للقرآن ، وآراء الماوردى خصوصًا فى (أدب القاضى) و (أدب الدنيا والدين) تقطع باعتناقه الأصـــول الخمسة ، ومع ذلك أدت مداراته إلى عدم ذكره فى كتب طبقاتهم ، وإلى حســـبان

الكثيرين أنه غير معتزلى ، بل وإلى محاولة البعض أن يدفع عنه هذا الاتهام . تلك هى الصعوبة فى الوقـوف عـلى الحجم الحقيقى للنشاط الفكرى الذى قام به المعتزلة فى حياة هذه الأمة ، ولكـن ذلـك لا يمنع من تقدم عدد من النقاط المعبرة عن بعض الحقائق فى هذا المقام ، وهى الحقـائق التى وجدنا عليها الشواهد والأدلة واضحة كل الوضوح ، فأولاً : على يد المعتزلة كانت نشأة علم الكلام ، وهو العلم الذى عبّر عن أصالة هذه الأمة وذاتيتها ، فلم يكن تقليدًا للفلسفة اليونانية وترديدًا لمقولاتها ، ولم يكن وقوفًا عند ظواهر نصوص الكتاب والسنة، وإنما كان معالجة فلسفة بأدوات الفلسفة لقضايا الدين والحياة الخاصة بهذه الأمة ، ومن ثم فإن فيه المادة لمن يريد أن يلتمس ما أبدعه العرب والمسلمون فى الفلسفة والفكر الدينى على السواء .. ولا يستطيع أحد أن ينازع فى أن نشأة هذا العلم كانت من إبداع المعتزلة ، وأنهم ظلوا دائمًا وأبـدًا أعظـم الفرسـان فى ميدانه ، وكما يقول الحاكم أبو السعد محسن بن كرمة الجشمى (٤١٣ – ٤٩٤هـ – ١٠٢٢ – ١١٠١م) .

(وجملة القول إن المعتزلة هم الغالبون على الكلام الغالبون على أهله . فالكلام منهم بدأ، وفيهم نشأ ، ولهم السلف فيه ، ولهم الكتب المصـنفة المدونة ، والأئمة المشهورة ، ولهم الرد على المخالفين من أهل الإلحاد والبدع ، ولهم المقامات المشهورة فى الذود عن الإسلام ، وكل مـن أخذ الكلام أو ما يوجد من الكلام فى أيدى الناس فمنهم أخـذ ، ومن أئمتهم اقتبس) وثانيها : أن فرقة من فرق الإسلام لم تتصد لمناهضة خصومه كما تصـدت لهم المعتزلة ، وفى مقدمة أسباب انفراد المعتزلة تقريبًا بهذه المهمة أنهم كانوا الفرقة الوحيدة المؤهلة لذلك والقادرة على إنجاز هذا الهدف بنجاح ، فالخوارج كانوا فى شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التى لا تدع وقتًا ولا جهدًا للفكر النظرى ومجادلة خصوم الإسلام ، والشيعة كانوا فى شغل باتقاء اضطهاد الأمويين وتجسـيد أحزانهم ومأسـاتهم كى تتحول إلى رباط عاطفى يكسـب الأنصار ويديم لفرقتهم البقـاء ، كما شـغلوا بنظريتهم فى الإمامة وحكايات فضـل أهل البيت عن أغلب الأمور الأخرى ، والمرجئة والجبرية الأموية كانوا (أهل حشو) يقفون عند ظواهر النصوص ، ومـن ثم فـلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسـطو وحكمة الفرس وفلسـفة الهند واليونان ، أما المعتزلة فقد كانوا هم الفرقة الإسلامية التى تصدت للدفاع عن الإسـلام ضد خصومه ، بل واتخذت موقع الهجوم على هؤلاء الخصـوم ، وإذا كانت كتب

المقالات والفرق التى كتبها خصومهم وتكاد تكون كل ما بقى لنا فى هذا الفن لم تذكر جهود المعتزلة فى الدفاع عن الإسلام ، فإن هناك بعض الوقائع ذات الدلالة فى هذا الميدان .

ففى العهد العباسى انتعشت مذاهب المانوية وفرقها واستعادت قوتها ، ودخلت فى صراع فكرى ضد عقائد الإسلام ، واستند هذا الصراع المانوى إلى عصبية شعوبية مستترة أو ظاهرة كانت تحتل المراكز الحساسة فى جهاز الدولة العباسى .. فاستطاعت المانوية أن تشيع الزندقة والإلحاد والاستخفاف بالدين فى الحياة الفكرية ، وأن تشيع الفكر الشعوبى فى الحياة القومية والسياسية ، وتصدى المعتزلة للمانوية وفرقها ، فدرسوا منطق أرسطو وفلسفة اليونان – التى هى أسلحة الخصوم – وأطلعوا على مؤلفات الجدل المسيحى فى العصر (الهلنستى) حتى استطاعوا (أن يقارعوا المانوية حجة بحجة) وأن يفحموهم وأن يسندوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن .

وكما كان المعتزلة هم دعاة الإسلام وحججه تجاه خصومه وفى المواطن التى يغلب عليها هؤلاء الخصوم كانوا كذلك المدافعين عن قيمة وأخلاقياته فى المواطن التى يعيشون فيها ، فلقد كانوا هم قادة الفكر فى بيئاتهم وحتى تأديب الصبيان والشباب كانوا هم أبرز من نهض به ، حتى أن خصومهم الفكريين كانوا يبعثون بأبنائهم ليأخذوا أدب المعتزلة ، وينهونهم عن أخذ مذاهبهم ، فكان المعتزلة (يعطون هؤلاء الأبناء – مذاهبهم قبل آدابهم) .

كما كانوا يطاردون دعاة الشك والزندقة والإلحاد مثل بشار بن برد (٩٥ – ١٦٧هـ) وصالح بن عبد القدوس (١٦٠هـ – ٧٧٧م) ومحمد ابن مناذر الذى (هتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة) بعد أن كان ناسكًا ولما عدل عن النسك والتأله وعظته المعتزلة فلم يتعظ وأوعدته بالمكروه فلم يزدجر ومنعوه من دخول المسجد فنابذهم وطعن عليهم ، وكان يأخذ المداد بالليل فيطرحه فى مطاهرهم فإذا توضئوا سود وجوههم وثيابهم وغيره من العمل الذى يتنافى سلوكه مع خلق الإسلام .

كما كانت للمعتزلة وهم فرسان المنهج العقلى جهود كبيرة فى حرب الخرافة والشعوذة فى المجتمع الإسلامى ، فهم عندما تصدوا لدحض حجج الشيعة حول (عصمة الإمام) وعلمه الذى لا يحد وعلاقته بالغيب وظهور الأعلام والمعجزات على يديه قد أسهموا إسهامًا عظيمًا فى إعلاء شأن العقل وتوجيه السهام إلى فكر الخرافة الذى شاع فى تلك المجتمعات .

كمـــا أسهموا بالتأليف والمناظرة فى إفحام المنجمين الذين راجت بضاعتهم على الخاصة والعامـــة فى ذلك التاريخ ، فالمعتزلة كانوا بحق هم فرسان الدفاع عن الإسلام وتقرير حججه والدعـــوة إليه ، وهم قد غطوا بنشاطهم هذا مختلف الميادين وكانت لهم حججهم العقلية التى صاغوها ببلاغتهم الجديدة التى لا نغالى إن قلنا إنهم اخترعوها وأضافوها إلى تراثنا ، فللجدل لغته ومصطلحاته وأساليبه وآدابه ، وهم قد أنشأوا هذا الفن من فنون تراثنا العربى الإسلامى لأنهم كانوا روّاد ميدانه ، ومن الكلمات ذات الدلالة فى هذا المقام تعريف البلاغة الذى عرفها به عمرو بن عبيد عندما أجاب عن سؤال : (ما البلاغة ؟ فقال : إنها تقرير حجة الله فى قلوب المـــريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشـــواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة من الكتاب والسنة) فهو تعريف جديد لبلاغة جديدة تنبع جدتها من الميدان المتميز الذى نشأت فيه واستخدمت فيه .

وقـــد انتشـــر الاعـــتزال فى طول الإمبراطورية الإسلامية وعرضها من الهند إلى فارس إلى العـــراق إلى الشام إلى المغرب العربى ، ونحن نضيف إلى ذلك أن نشأة هذا المذهب كانت بالمديـــنة لا بالبصرة ، وأن واصل بن عطاء قد حمل فكره معه من المدينة إلى البصرة ، وكذلك حمل غيلان الدمشقى مذهبه من المدينة إلى دمشق ، وأن المدينة قد شهدت ثانية ثورات المعتزلة الكبرى التى قادها محمد بن عبد الله ابن الحسن النفس الزكية (٩٣ – ١٤٥هـ – ٧١٢ – ٧٦٢م) كما أن نفوذهم قد عظم بمكة ، ويشير إليه ما رواه الشافعى فى قوله : (قدمت مكة فغلبت علينا المعتزلة) وكذلك قول أحمد بن حنبل الذى رواه عن ابن عيينة (لما مات عمرو بن دينار كان ابن أبى نجيح يفتى الناس) أى أن عمرو بن دينار ومن بعده أن أبى نجيح كان فيهما منصب الإفتاء ، ومركزه بمكة وهما من المعتزلة . وحتى الأندلس ذات الطابع المحافظ والسلفى فى الفقـــه وغيره من فنون الفكر الإسلامى وعلومه قد دخلها فكر المعتزلة بعد فترة من الزمن بواســـطة الدارســـين الأندلسيين الذين تتلمذوا فى بلاد المشرق (وسرعان ما لقيت المذاهب الاعتزالية ترحابًا من الطبقة المثقفة) .

هـــذا عـــن الانتشار الجغرافى لفكر المعتزلة ونفوذهم ، أما هذا الفكر الذى كان بمثابة الخيوط التى ربطت أجزاء ذلك التيار الواسع والفرقة الكبيرة رغم اختلافات فى التفاصيل فهى الـــتى اشـــتهرت باسم الأصول الخمسة للاعتزال . وبالطبع فإن هذه الأصول لم تكتمل دفعة

واحـــدة ، ولم تصل إلى عددها هذا فى زمن واصل بن عطاء (٨٠ – ١٣١هـ) وإنما كانت على عهده أربعة أصول هى : التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ، وتقييمه لأحداث الصراع السياســى الذى حدث فى صدر الإسلام ، ورأيه فى أطراف هذا الصراع .. ثم اكتملت هذه الأصول ووصلت إلى خمسة فى عهد قيادة أبى الهذيل العلاف لفرقة المعتزلة ، لقد اتفق المعتزلة عــلى هــذه الأصول الخمسة : العدل والتوحيد والمنــزلة بين المنــزلتين ، والوعد والوعيد والأمــر بالمعــروف والنهى عن المنكر ، وأجمعوا على نفى صفة الاعتزال عن المخالف ولو فى أحدها وعلى أن مدلول اســم (أهل العدل والتوحيد) أعم من مدلول اســم (المعتزلة) إذ يدخل تحت الأول كثير من الخوارج والشيعة ، بينما لا يدخل تحت الثانى إلا من جمع الاعتقاد بالأصول الخمسة جميعها دون أن يضــر بعد ذلك الاختلاف فى التفاصيل ، هذا الاتفاق الذى حدث منهم جميعًا يجعل من المعتزلة فرقة واحدة لا فرقًا متعددة ، فلا اعتبار عندهم للخلاف فى التفاصيل مادام هناك اتفاق على الأصول ، والقاضى عبد الجبار يعالج هذا الأمر فيقول : (اعلم أن الأصــول : هى التى يجمع عليها المعتزلة وتتفق عليها مما لا يختار عليه ولا ريب فيه ، وإن كان الاختلاف الواقع بينهم فيه فروع ذلك وشبه وردت عليه ، ومن هنا فإن مؤرخى المقالات جروا فى تاريخهم للمعتزلة على عادة تقسيمهم إلى فرق هى : الواصلية ، والعمرية ، والهذيلية ، والنظامية، والأسوارية ، والمعمرية، والثمامية ، والجاحظية، والحايطية ، والحمارية ، والخياطية ، والشــحامية ، وأصحاب صالح قبة ، والمويسية ، والكعبية ، والجبائية ، والبهشمية ، نسبة إلى عــدد مــن أعــلام المعتزلة وأئمتهم ، وقرر أن هذا التقسيم خاطئ لأن الاختلاف بين هؤلاء هــو فى (مسائل) و (تفاصيل) و (فروع) وشبهات تعلقت بالفكر أثناء بحث (الأصول) الخمســة التى هى بمثابة (النظرية) التى اعتقد بها الجميع .. ولقد وقف المعتزلة بأصولهم عند هذه الخمسة لأنهم رأوها المبادئ الأساسية التى يقع فيها الاختلاف بينهم وبين كل من خالفهم من فرق الإسلام وغيره .. فللعدد هنا حكمة وأسباب ، والقاضى عبد الجبار يجيب من سأله : (ولم اقتصــر على هذه الأصول الخمسة ؟؟) فيقول : إنه (لا خلاف أن المخالف لنا لا يعدو أحــد هذه الأصول .. ألا ترى أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشــبهة قد دخل فى التوحــيد .. وخــلاف المجبرة بأسرهم دخل فى باب العدل ؟؟ وخلاف المرجئة دخل فى باب الوعد والوعيد ؟؟ وخلاف الخوارج دخل فى باب المنــزلة بين المنــزلتين ؟؟ وخلاف الإمامية دخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟؟) .

١ – أصل العدل : ويختص مبحث هذا الأصل بقضايا الحرية والاختيار بالنسبة للإنسان، وقضايا التعديل والتجوير بالنسبة للذات الإلهية .. والمعتزلة يقررون بمبحثهم فى العدل أن للإنسان قدرة وإرادة ومشيئة واستطاعة قد خلقها له خالقه وأنها تؤدى وظائفها بشكل مستقر وحر فيما يتعلق بالأفعال المقدورة للإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان خالق أفعاله على سبيل الحقيقة لا المجاز ، ونسبة هذه الأفعال إليه هى نسبة حقيقية ، ومن ثم فإن الجزاء ثوابًا وعقابًا هو أمر منطقى ليست فيه شبهة جور تلحق بالبارى سبحانه ، كما هو الحال إذا قلنا برأى المجبرة فى هذا الموضوع . فهم لم يتحرجوا كما صنع غيرهم عن وصف الإنسان (بالخلق) لأفعاله لأنهم فرّقوا بين (الخلق) وبين (الاختراع) و (الإبداع) على غير صورة ومثال سابق (فالخلق) هو : (الفعل والصنع على أساس التقدير والتخطيط السابق) على التنفيذ ، وأوردوا شواهد اللغة التى تصف الإنسان بالخلق وقالوا : إن الخلق هو (التقدير ، ولهذا يقال : خلقت الأديم ، وقال زهير : ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى) .

كما استدلوا من القرآن على أن العبد فى الحقيقة يوصف بأنه يخلق بقوله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ وقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ وبينوا أن التعلق بقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ﴾ لا يصح ، فهذا كلام من جهة العبارة ، فأما من جهة المعنى فإنما يجب أن نبين أن العبد يحدث الشئ ، وأنه يصح أن يحدثه مقدورًا ، كما بينوا السر فى انصراف لفظ « الخالق » إلى الله سبحانه دون الإنسان ، وكيف أن إجراءه على هذا النحو فقط إنما هو (من جهة التعارف كما لا يطلق قولنا « رب » إلا عليه وأن ذلك غير مانع أن يجرى على غيره وإنما لم يجر إلا عليه مرسلاً للإيهام ولولاه كان لا يمتنع ذلك فيه) لأن معنى (الخلق) إنما هو وقوع الفعل من فاعله مقدرًا ، وأن العبد قد يحدث الفعل بمقدار ، كما أنه تعالى يحدث ذلك فيجب أن يوصف بهذا الوصف . فإذا ثبت ذلك . وكان عندهم أن الحركة المنتسبة مخلوقة فيجب أن يكون لها خالق ، وخالقها قد يكون الإنسان كما أن خالق الحركة الضرورية هو الله تعالى .

وكما أثبتوا القدرة للإنسان على الخلق أثبتوا له القدرة على الإفناء ، بل قالوا إنه يستطيع مثلاً أن يفنى حياته بالانتحار ، فيكون قد أفنى فعل الله سبحانه . ذلك أن الواحد منا يجوز أن يفنى فعل الله تعالى الذى له القدرة بفناء الحياة أن يقتل نفسه ويجوز أن يبطل فعل الغير للسكون بتحريك المحل .. ولقد أفاض المعتزلة فى دراسة هذا الأصل وفى تفصيل مباحثه ، وخلصوا إلى أن أفعال الإنسان غير مخلوقة لله سبحانه وتعالى وأنها متعلقة بالإنسان على جهة الإحداث ، وأنها واقعة منه بحسب قصده ودواعيه ، ومن ثم فهو فاعل لها على جهة الحقيقة إلى آخر ما كتبوا فى هذا الأصل من أصولهم الخمسة .

٢ – أصل التوحيد : وفى مبحث التوحيد هذا قدّم المعتزلة للذات الإلهية تصورًا بلغ قمة (التنزيه) والتجريد فى الفكر الإسلامى ، بل الإنسانى على الإطلاق ، فهم قد ناقضوا فكر (المشبهة) (الحشوية) الذين عجزت بهم مداركهم فلم يرتقوا بتصور الذات الإلهية عن حدود المحدثات والمخلوقات ، ولقد استند المعتزلة فى فكرهم (التنزيهى) هذا إلى نقاء عقيدة التوحيد فى الإسلام كما صورتها الآيات المحكمة فى القرآن الكريم ، فصاغوا تصورهم هذا فى مواجهة عديد من الأديان والفرق والنحل التى تردت فى هاوية التشبيه . فلقد رأوا فى التثليث المسيحى تشبهًا بلغ حد القول (بالحلول والاتحاد) . بل رأوا أن جوهر الخلاف بين الإسلام والمسيحية منحصر فى هذا الموضوع . ومن هنا كان يقول القاضى عبد الجبار : إن الكلام مع (النصارى) يقع فى موضوعين :

أحدهما : فى التثليث فإنهم يقولون : إنه تعالى جوهر واحد . وثلاثة أقانيم ، أقنوم الآب يعنون به ذات البارى عزّ اسمه ، وأقنوم الابن أى الكلمة ، وأقنوم روح القدس ، أى الحياة ، وربما يغيرون العبارة فيقولون إنه ثلاثة أقانيم ذات جوهر واحد .

والثانى : فى الاتحاد ، فقد اتفقوا على القول به وقالوا : إنه تعالى اتحد بالمسيح فيحصل للمسيح طبيعتان : طبيعة ناسوتية وأخرى لاهوتية .

وفى إطار عرض المعتزلة لفكرهم (التنزيهى) فى التوحيد نقضوا فكر المسيحية فى التثليث والاتحاد والحلول وهاجموا فكرة (قدم كلمة الله) – (المسيح) – وظهورها وحلولها فى الجسد وتتبعوا بالنقد فكر المسيحية التشبيهى والتجسيدى عند النساطرة والملكانية وغيرهما .

كما هاجموا القول باللاثينية عند (الثنوية) القائلين بإلهين : أحدهما للخير ، والآخر للشر (النور والظلمة) وتتبعوا فكر الثنوية لدى فرقها المختلفة من (مزدقية) و (ديصانية) و (مرقيونية) و (ماهانية) و (مصيامية) و (مقلاصية) وكشفوا عن العلاقات بين فكر مانى الذى ادعى النبوة فى القرن الثالث الميلادى بفارس وبين كل من (المجوسية والنصرانية) . كما كشفوا عن آثار التشبيه المسيحى فى معتقدات الفرق الإسلامية المشبهة من غلاة الشيعة المرجئة مثل : فروع (الرافضة) و (الشيطانية) و (البنانية) و (المغيرية) و (اليونسية) و (العبيدية) و (الكرامية) وغيرهم وكيف وصل بهم التشبيه إلى القول بأن الله (جسم لا كالأجسام ، وهو مركب من لحم ودم لا كاللحوم والدماء وله الأعضاء والجوارح وتجوز عليه الملامسة والمصافحة والمعانقة للمخلصين) وأنه (جسم ذو هيئة وصورة يتحرك ويسكن ويزول وينتقل) إلى آخر هذه التصورات المرتكزة إلى التجسيد والتشبيه والتجسيم ..

كما هاجموا تشبيه اليهود أيضًا ، وأكثر اليهود مشبهة كما يقول الفخر الرازى . وفى معارضة هذه الأديان والفرق جميعًا قدّم المعتزلة تصورهم التنزيهى والتجريدى عن الذات الإلهية وهو التصور الذى ارتكز على رفض كل ما يوهم تعدد القديم أو مماثلة القديم لأى محدث من المحدثات ، فقالوا بوحدة الذات والصفات ورفضوا إمكانية رؤية الله فى الدنيا أو الآخرة ، لأنها تستلزم التحيز والمكان والجهة .. وهى أشياء وحالات حكموا باستحالتها وانتقائها بالنسبة لله ، كما كان قولهم بخلق القرآن ثمرة لرفضهم قدم الكلمة التى أدت إلى شبهة قدم المسيح ثم التشبيه والتجسيد المسيحى .

٣ – الوعد والوعيد .. وفى مبحث المعتزلة هذا رفضوا فكر المرجئة الذين فصلوا ما بين الإيمان والعمل ، فقال المعتزلة : إن الوعد يعنى أن من أطاع الله دخل الجنة وأن وعد الله بذلك صدق لا يمكن أن يتخلف عن الوقوع ، لأن (حقيقة الوعد : كل خبر يتضمن وصول نفع إلى الموعود سواء كان على طريق الاستحقاق أو على طريق التفضل ، فالله قد وعد المطيع بالثواب الذى يستحقه ، ووعده زيادة على المستحق بطريق التفضل) . أما الوعيد فإنه يعنى أن من عصى الله دخل النار وخلد فيها أبدًا إذا كانت ذنوبه كبائر لم يتب منها قبل مماته ، وهذا الوعيد صدق لن يتخلف وقوعه أبدًا إذ الوعيد (هو الخبر المشتمل على وصول ضرر إلى

المتوعد ، والغرض منه ما قد ورد عن الله فى معنى العصاة ، ولا يتوعد جل وعزّ إلا بالمستحق لأنــه إذا خـــرج عن المستحق دخل فى حد الظلم) . وكما ينطبق الوعيد على الكفار ينطبق كذلــك عــلى (الفسقة) مرتكبى الكبائر من المسلمين (وذلك لأن آيات الوعيد هى واردة بلفظــه تتــناول الفســقة كتناولها للكفرة) . ولقد رتب المعتزلة على هذا الأصل إنكار نفع (الشفاعة) من الرسول أو غيره يوم القيامة لأحد من (الفسقة) وقصروا إمكان حدوث هذه (الشــفاعة) (للمؤمــنين) دون (الفسقة) وقالوا إن (الذى عندنا أن هذه الشفاعة تثبت للمؤمنين دون الفاسقين) ومن ثم فإنها لا تفيد الإخراج من النار إلى الجنة ، وإنما يقتصر أثرها على رفع درجات المؤمنين فى النعيم .

٤ - المنزلــة بين المنزلتين : وأصل المنزلة بين المنزلتين هو الذى جاء به واصل بن عطاء فأحدث ذلك الانشقاق فى صفوف القائلين بالعدل والتوحيد ، فنشأت المعتزلة كفرقة مستقلة هى أخص من القائلين بالعدل والتوحيد ، ويعنى هذا الأصل ، أن مرتكب الكبيرة الذى أجمع الخوارج والمرجئة وأهل العدل على تسميته (بفاسق) ثم اختلفوا بعد ذلك ، فقال الخوارج هو فاســق كافر ، وقالت المرجئة : هو فاسق مؤمن ، وقال أصحاب الحسن البصرى : هو فاسق مــنافق ، يعنى أصل المنزلة بين المنزلتين عند واصل والمعتزلة الأخذ بما اتفق عليه الجميع من أن مرتكب الكبيرة فاسق ، ورفض ماعدا ذلك من الآراء المختلفة فيها وعليها ، ثم الحكم بأن هذا الفاسق هو فى منزلة وسط بين منزلتى (الكفر) و (الإيمان) لمباينته درجات الكفار وأحكامهم ودرجات المؤمنين وصفاتهم ، وأنه بعد ذلك مخلّد فى النار وإن يكن فى درجة من العذاب دون درجة المشركين ، ولقد أخطأ البغدادى عندما قال إن النزاع الذى دار حول مرتكب الكبيرة كــان بصــدد تقييم أطراف النزاع على السلطة زمن على بن أبى طالب . يقول البغدادى : (ثم إن واصلاً فارق السلف ببدعة ثالثة ، وذلك أنه وجد أهل عصره مختلفين فى علي وأصحابه وفى طلحة والزبير وعائشة وسائر أصحاب الجمل ، فزعمت الخوارج أن طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم يوم الجمل كفروا بقتالهم عليًا ، وأن عليًا كان على الحق فى قتال أصحاب الجمل وفى قتال أصحاب معاوية فى صــفين إلى وقت التحكيم ، ثم كفر بالتحــكيم وكان أهل الســنة والجماعــة يقولون بصحة إسلام الفريقين فى حرب الجمل وأن عليًا كان على الحق وأصحاب الجمــل كــانوا عصــاة مخطــئين ، ولم يكن خطؤهم كفرًا ولا فسقًا فخرج واصل عن قول

الفـريقين .. إلخ) أخطأ البغدادى فى قوله هذا لأن القضية التى أدت إلى نشأة أصل المترلة بين المترلتين لم تكن المجادلة حول تقييم تلك الأحداث وأطرافها وإنما كان الأمر متعلقًا بالحكم على إيمـان بنى أمية الذين فشت مظالمهم وأصبح الجميع شبه متفقين على أهم من مرتكبى الكبائر وعلى أهم (فسقة) نشأ الخلاف على ما يأتى بعد الحكم (بالفسق) الذى اتفقوا عليه ، وكان ذلـك أواخـر الدولة الأموية عندما اشتدت ثورات الخوارج والأزارقة فطرحت هذه القضية بإلحاح على دوائر الفكر الإسلامى ، ويقطع بصحة ما نقول أن (النموذج) الذى كان يدور الجـدل حـول (إيمانـه) كانت الأطراف كلها قد اتفقت على (فسقه وفجوره) ولم تتفق الأطـراف جميعها أبدًا على (فسق وفجور) أصحاب الجمل أو علي أو معاوية وأهل الشام ، والخياط يفصل الحديث عن نشأة هذا الأصل فيقول : (إن الخوارج وأصحاب الحسن البصرى كـلهم مجمعـون والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر ، ثم تفردت الخوارج وحدها فقالت : هو مع فسقه وفجوره كافر ، وقالت المرجئة وحدها : هو مع فسقه وفجوره مؤمن ، وقـال الحسن ومن تابعه هو مع فسقه وفجوره منافق ، فقال لهم واصل : قد أجمعتم أن سميتم صـاحب الكبيرة بالفسق والفجور فهو اسم له صحيح بإجماعكم ، وقد نطق القرآن به فى آية القـاذف وغيرهـا من الآيات ، فوجب تسميته به ، وما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا ببيّنة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال واصل لـلخوارج : وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة فى القرآن كلها زائلة عن صاحب الكـبيرة ، فوجـب زوال اسـم الكفر عنه بزوال حكمه . ثم قد جاءت السنة المجتمع عليها أن أهـل الكفـر لا يتوارثون ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك فى صاحب الكـبيرة ، وحكـم الله فى المنافق : أنه إن ستر نفاقه فلم يعلم به ، وكان ظاهره الإسلام فهو عندنا مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وإن أظهر كفره استتيب ، فإن تاب وإلا قتل، وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة ، وحكم الله فى المؤمن : الولاية والمحبة والوعد بالجنة . وحكم الله فى صـاحب الكبيرة فى كتابه إن لعنه وبرئ منه وأعدّ له عذابًا عظيمًا ، فوجب أن يكـون صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بزوال أحكام الإيمان عنه فى كتاب الله ، ووجب أنه ليس بكافـر بزوال أحكام الكفر عنـه ، ووجب أنه ليس بمنـافق لزوال أحكام المنافقين عنـه فى سنة رسـول الله (ﷺ) ووجب أنه فاسـق فاجر لإجماع الأئمة على تسميته بذلك وبتسمية الله له به فى كتابه) .

تلك هى مناسبة ظهور هذا الأصل من أصول المعتزلة ، وهو عندهم من المسائل الشرعية التى لا مجال للعقل فيها لأنه (كلام فى مقادير الثواب والعقاب ، وهذا لا يعلم عقلاً) وكانوا يطلقون عليه اسم (الأسماء والأحكام) أحيانًا لدورانه حول أسماء مرتكبى الكبائر وأحكامهم .

فهو أصل من أصول المعتزلة الفكرية ذات الطابع السياسى والطابع السياسى العام على وجه التحديد لأنه نشأ كموقف (فكرى - سياسى) فى صراع سياسى كان محتدمًا يومئذ ضد الأمويين ، ولم يكن مجرد موقف من الإنسان العادى الذى يرتكب ذنبًا من الذنوب الكبائر ثم يموت دون أن يتوب منه إلى الله تعالى ، كما كان هذا الأصل هو أحد ما لقب المعتزلة بسببه بالاعتزال .

٥ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : لا خلاف بين فرق الإسلام جميعها فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لأن القرآن يقول : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ويقول : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ولأن الرسول (ﷺ) يقول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولكن الخلاف وقع حول وسيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبالذات فى استخدام القوة والثورة والخروج المسلح للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما وقع فى بعض الجزئيات والتفاصيل ، فأصحاب الحديث انفردوا وحدهم دون فرق الإسلام بتحريم السيف وإنكار الخروج المسلح على أئمة الجور وظلمة الحكام ، وقالوا : (إن السيف باطل ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية ، وإن الإمام قد يكون عادلاً ويكون غير عادل ، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقًا ، وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه) . والشيعة الإمامية قيدوا جواز استخدام السيف بحالة قيام الإمام (فإذا خرج الناطق وجب سل السيوف حينئذ معه) أما قبل خروجه فلا تُسل السيوف .

وبعض أهل السنة - وخاصة الصحابة الذين اعتزلوا صراع علي وخصومه واتخذوا من ذلك الصراع موقفهم السلبى المعروف - ومنهم سعد بن أبى وقاص ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمرو ، ومحمد بن مسلمة .. إلخ . وتبعهم من أهل الحديث أحمد بن حنبل وجماعة من

أتباعه يقولون إن وسيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى القلب فقط ، أو باللسان إن قدر على ذلك ، وينكرون أن يكون ذلك باليد فضلاً عن السيف .

أما جميع المعتزلة والخوارج والزيدية وطوائف من أهل السنة فإنهم يوجبون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالوسائل الثلاث : السيف فاليد فالقلب الذى هو أضعف الإيمان ، واستدلوا على جواز الخروج بالسيف بقول الله سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ وقوله ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ والمعتزلة البغداديون يلتمسون فى كلام الإمام علي الأدلة على وجوب الخروج بالسيف على أئمة الجور ، بعد القرآن والسنة خاصة قوله : « أيها المؤمنون من رأى عدوانًا ومنكرًا يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الظالمين هى السفلى ، فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ، وقام على الطريق ، ونور فى قلبه اليقين » وكذلك قوله يتحدث عن أصناف الناس فمنهم ، المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلة ، ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه فذلك الذى ضيّع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة ، ومنهم تارك الإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميت الأحياء ، فما أعمال البر كلها والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة فى بحر لجى ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق ، وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر) .

والمعتزلة يرون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (أصلاً عظيمًا من أصول الدين) ويرجعون إليه وإلى الوفاء بحقه كل الجوانب الثورية التى نهضت بها فى الصراع السياسى والاجتماعى مختلف فرق الإسلام حتى من غير المعتزلة ، فهم لا يعيبون خروج الخوارج وتجريدهم للسيف – فيما عدا الشبهة التى عابوها عليهم فى علي والتحكيم – لأنهم قد (خرجوا على السلطان متمسكين بالدين وشعار الإسلام مجتهدين فى العبادة خرجوا لما غلب على ظنونهم أو علموا جور الولاة وظلمهم وأن أحكام الشريعة قد غيرت وحكم بما لا يحكم به الله) . كما يرجعون إلى أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (تبنى الإسماعيلية قتل الولاة غيلة) . كما يرونه الدافع للزاهدين إلى الإنكار على الأمراء والخلفاء بالكلام

الغليظ بعد أن عجزوا عن الإنكار باليد ، ثم يخلصون كما خلص الإمام إلى قولهم : (وبالجملة فهو أصل شريف أشرف من جميع أبواب البر والعبادة) . وعندهم أن الهدف المبتغى من تطبيق هـذا الأصل من أصولهم الفكرية (هو ألا يضيع المعروف ، ولا يقع المنكر) أى أن تظل معالم الحق والهدى بينه يهتدى بها الناس ، وأن يختفى المنكر من حياة الناس ومجتمعاتهم ، فإذا تحققت هذه الغاية برئ الناس من تبعة وجوب هذا الأصل ، فهو واجب على الكفاية ومن فروضها ، ومعلـوم أن فروض الكفاية أكثر أهمية وأشد تأكيدًا من فروض الأعيان لأن تخلف قيام فرض العـين يأثم به من أهمل فيه ، أما تخلف قيام فرض الكفاية فالذى يأثم به الأمة جمعاء ، وهو بعد اتفـاقهم على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يختلفون فى طريق العلم بهذا الوجوب أهو العقل ؟ أم السمع ؟ فأبوا على الجبائى يرى أنه يعلم بالعقل والسمع معًا فى كل الحالات ، أمـا ابنه أبو هاشم فيرى أن السمع هو طريق العلم به إلا فى حالة واحدة هى التى ينضم فيها طريق العقل إلى طريق السمع ، وهى تلك التى يرى الإنسان فيها ظلمًا يقع على غيره ، فتحرك رؤية هذا الظلم فى قلب الرائى المضض والامتعاض ، عند ذلك يجب النهى عن المنكر عقلاً كما وجب عن طريق السمع أيضًا .

وإذا كـان الأمـر بالمعـروف ، كأصل عام هو واجب فإن الأمر يختلف عندما ندخل فى التفاصـيل ، ذلـك أن الوجوب المتقدم هو بمعنى أنه مطلوب ومدعو إلى النهوض به قبل الشـارع ، أما إذا انتقلنا إلى حكمه من حيث هو فرض أو سنة أو مندوب فإن بعض المعتزلة يـرون اخـتلاف درجـته باختلاف الأمر الذى نحن بصدد الأمر به ، فالأمر بالشئ الواجب واجب ، والأمر بالقيام بالسنة سنة ، والأمر بأداء المندوب مندوب ، أما النهى عن المنكر فهو واجـب أى فـرض فى كـل الحـالات وبصرف النظر عن نوع المنكر ودرجته فى التحريم بـين المحرمات ، وهذا التفصيل وتلك التفرقة إضافة من أبى علي الجبائى وافقه عليها القاضى عبد الجبار ، أما من سبقهم من المعتزلة فإنهم قد أوجبوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون تفـرقة ولا تميـيز بـين الأفعال المأمور بها ، وبصرف النظر عن حكمها واجبة كانت أم سنة أم مـندوبًا إليها . وفيما يتعلق بالمنكر الذى يجب النهى عنه فهو إما أن يقع عليَّ مثلاً أو يقع لغيرى من الناس ، فإن وقع على منكر طفيف لا يعتد به كأن غصبنى شخص ما دراهم معدودة والحال أن لى ثروة طائلة فإن لى أن أتجاوز عن النهى عن هذا المنكر ، ووجوب النهى عن المنكر فى هذه الحالة وإن كان قائمًا (شرعًا) فهو غير قائم (عقلاً) لانتفاء الإضرار الحقيقى بتفاهة

الدراهـــم المعـــدودة قياسًا إلى الثروة الطائلة . أما إذا كان المنكر الذى وقع على (مما يقع به الاعتداد) ويحدث به التضرر كاغتصاب الدراهم من الفقير و (شرعًا) هذا فيما يتعلق بالمنكر إذا وقـــع على ، أما إذا وقع المنكر المعسر فإن النهى عن المنكر الذى وقع لى فى وصف الحالة يجـــب عـــلى عقلاً على الغير فإن أبا الجبائى يوجب النهى عنه عقلاً وشرعًا فى كل حالاته ، ويخـــتلف معـــه ابنه أبو هاشم فيرى الوجوب شرعًا فقط إلا إذا كان المنكر من البشاعة بحيث يبعـــث عـــلى الامتعاض والمضض ، عند ذلك يكون العقل والشرع معًا متضافرين فى وجوب النهى عن وقوعه .

وكذلـــك ميزوا بين المنكر الذى يلحق ضرره بالغير ، وذلك الذى تقتصر أضراره على الذات ، من جواز تغير الموقف منه بحدوث الإكراه عليه ، فإذا أكره الإنسان على فعل منكر لا يـــتعدى ضـــرره ذاته ، كأن يكره على أكل الميتة أو شرب الخمر أو التلفظ بكلمة الكفر جاز الخضوع للإكراه ، أما إذا أجبر على فعل منكر يتعدى ضرره إلى الغير كالقتل أو القذف مما لا يمكن تدارك آثاره ، فلا يجوز له الخضوع للإكراه ، أما إذا أكره على اغتصاب مال الغير وهـــو أمـــر يمكن فيه الضمان والتعويض بعد زوال الإكراه ، فيجوز له الخضوع للإكراه مع الضـــمان . للمال المغصوب ، وهناك اختلاف بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حالة أخـــرى ذلك أن المطلوب فى الأمر بالمعروف هو الأمر به فقط ، وليس مطلوبًا حمل الغير على الامتثال لهذا الأمر ، فالواجب هو الأمر بإقامة الصلاة لا حمل تاركها على القيام بها ، أما المنكر فـــإن الواجـــب هو النهى عنه وحمل فاعله على الانتهاء عنه باللسان ثم اليد ثم السيف حسب مقتضيات الأحوال .

ولقـــد عـــرض المعـــتزلة لرأى الذين قالوا إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو من سلطات الإمام لا الأفراد ، وأن ذلك موقوف عليه متوقف على وجوده ، فانكروا هذا الرأى . (لأن الدلالـــة الـــتى دلت على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الكتاب والسنة والإجماع لا تفصل بين أن يكون هناك إمام وبين ألا يكون) ثم فصلوا الأمر فى مثل تلك الحالة فقالوا (إن القضية لا تتعلق بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو تخلف هذا الوجوب وإنمـــا تـــتعلق بأن هناك أمورًا يختص بها الإمام وأخرى تجب على عامة الناس ، فمثلاً : إقامة الحدود والدفاع عن الدولة وثغورها وحفظ بيضة الإسلام وتجييش الجيوش وتسييرها وتنصيب القضاة والأمراء ومثلها من الأمور العامة التى تجل عن سلطان الأفراد قدراقم هى من متعلقات

الإمـــام وواجـــباته ، أما الأمور التى يستطيع فيها الفرد أن يكون مؤثرًا مثل النهى عن الخمر والـــزنا والســـرقة وغيرها مما ماثلها فإن القيام بها واجب على الجميع ، وإن كان الرجوع إلى الإمام والدولة هو الأولى فى كل الحالات) ولقد فصل المعتزلة فى حالات مرتكب المنكر فهناك مـــنكر يرتكـــبه فرد أو أفراد متفرقون لا تضمهم رابطة قامت لفعل هذا المنكر ، ولا يجمعهم حزب قد تألف لهذا الغرض .. والنهى عن هذا المنكر واجب على كل من شاهده من فاعليه أو سمعـــه من قائليه ، أما إذا كانت هناك عصبة قد تألفت وتحزبت لفعل هذا المنكر فإن أبا بكر الأصم (من الطبقة السادسة) هو وحده من بين المعتزلة الذى يشترط أن يقود إمام عدل مهمة الإنكار على هذه العصبة المتحزبة ، على حين يقول غيره من المعتزلة إن إنكار المنكر هنا والنهى عنه واجب سواء وجد الإمام أم لم يوجد ، فموقف الأصم هنا يلتقى مع موقف الشيعة الذين يرون الإحجام عن الإنكار بالقوة على فعلة المنكر إلا إذا ظهر إمامهم المنتظر .

أمـــا موقـــف أصحاب الحديث فهو أن (الأولى بالإنسان أن يكون كافًا ممسكًا وملازمًا لبيته وادعًا غيره نكر ولا مستقر) .

وأخيرًا فإن وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مقيد عند المعتزلة ومرهون بتوافر الشـــروط التى تجعل هذا الأمر وذلك النهى مثمرًا مخافة أن يأتى الأمر والنهى بضد المطلوب . وهذه الشروط هى :

أولاً : أن نعلم أن ما نأمر به هو من (المعروف) وما ننهى عنه هو (المنكر) ولا يكفى فى ذلك غلبة الظن إذ لابد من بلوغ درجة العلم بقيام (المنكر) فيجب النهى عنه .

ثانـــيًا : أن يكـــون (المنكر) الذى يجب النهى عنه (قائمًا مشاهدًا) كأن نرى الخمر أو أدواتها مثلاً . وحكموا بأن غلبة الظن تقوم مقام العلم .

ثالثًا : أن نعلم أن نهينا عن (المنكر) لن يؤدى إلى حدوث (منكر) أشد من المنهى عنه، فـــلا يصح أن ننهى عن (منكر) مثل شرب الخمر إذا علمنا أو غلب على ظننا أن هذا النهى يؤدى إلى قتل أو فساد أشد من شرب الخمر . عندئذ لا يجب النهى ولا يحسن .

رابعًا : أن نعلم أن نهينا سيحدث تأثيرًا إيجابيًا وأنه لن يذهب عبثًا أدراج الرياح أو على الأقل بعض المعتزلة يحسن النهى لأنه بمنزلة اســـتدعاء الغير للدين ، وقال آخرون لا يحســـن لأنه عبث .

خامسًا : أن نعلم أو يغلب ظننا أن النهى عن المنكر لن يؤدى إلى وقوع ضرر فى المال أو النفس للناهين عن المنكر ، والضرر المعتبر هنا يختلف باختلاف قدرات الناس وحالاتهم ومنازلهم فالشتم والضرب قد يكون ضررًا بالنسبة للبعض يبرر له الامتناع عن التعرض للنهى عن المنكر وقد لا يكون ضررًا بالنسبة للآخرين ، وإذا انتفى الوجوب اتقاءً للضرر فإنه يحسن النهى عن المنكر خاصة إذا علم أن وقوع الضرر على النهى عن المنكر مما يزيد فى إعزاز الدين بإبراز النماذج التى تضحى فى سبيل إقامة شرعيته .

وفى الحالات التى ينتفى فيها وجوب النهى عن المنكر لفقدان الشروط الواجب توافرها فإن إظهار الكراهية والرفض للمنكر وأهله هو واجب على الجميع ، وخاصة على من يتوهم منه الرضا بالمنكر ، أما من لا يتوهم منه ذلك فإن إنكاره ورفضه معلومة حتى دون إظهار وإعلان . وحتى نفهم قصد المعتزلة من وراء اشتراط هذه الشروط لابد أن نعى أنهم قد استهدفوا بها ضمان تحقيق الغرض المنشود من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهم مثلاً مع سل السيف ضد الإمام الجائر ، ويوردون فى هذا الباب الحديث الذى رواه حذيفة : (قلت : يا رسول الله أيكون بعد الخير الذى أعطينا شر كما كان قبله ؟ قال : نعم ، قلت : فبمن نعتصم : قال : بالسيف) ومع ذلك يشترطون للثورة على أئمة الجور أن يكون الثوار جماعة يقودها إمام والنصر محتمل بالنسبة لثورتها ، فقالوا : (إذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أنا نكفى مخالفينا عقدنا للإمام ونهضنا فقتلنا السلطان وأزلناه وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا) فهى شروط تمثل الضمانات الضرورية كى يؤتى الأمر والنهى ثمرته ، وحتى تتميز الثورة عن الفوضى والتمردات . وذلك هو الأصل الخامس من أصول المعتزلة الفكرية . وهى الأصول التى كونت نظرية هذه الفرقة وبشرت بها وحاولت وضعها موضع التطبيق . ولقد كان وراء النشاط الفكرى والعملى الذى قام به المعتزلة تنظيم أقاموه لجماعتهم وفرقتهم فى طول البلاد وعرضها ، فكان لهم الأداة الفعالة فى بث فكرهم وتجميع الأنصار حول أصولهم الخمسة ، والسعى للوصول برجالاتهم إلى مراكز التأثير فى الدولة ، بل وإقامة دولة المعتزلة والاستئثار بإمارة المؤمنين . حقيقة ليس هناك حتى الآن معلومات كافية لتقديم دراسة وافية عن هذا التنظيم ، ففى ضياع أغلب تراث المعتزلة ثغرة تحول دون الوصول إلى هذه المعلومات ، وفى سرية هذا التنظيم بسبب ما تعرضت له الفرقة من اضطهاد ، ولكن هناك إشارات هامة إلى أن واصل بن عطاء هو الذى نهض بمهمة قيادة بناء هذا التنظيم وأن هذا التنظيم قد امتدت ركائزه وميادين نشاطه من حدود الصين شرقًا إلى خلف بلاد البربر غربًا .

٤ ـ الخـــــوارج

نشأت الخوارج نشأة سياسية وظلوا رغم اختلافهم فى المكان الذى يعلنون منه الخروج ، وفى الزمان الذى يتم فيه الخروج ، وفى التباين إزاء بعض المسائل الفكرية بين تياراتهم — ظلوا أوفياء ومجمعين على القضايا السياسية التى استدعت نشأة فرقتهم وأعطت هذه الفرقة ما يميزها عن سواها من فرق الإسلام .

- فهم مع إمامة الصالح بصرف النظر عن نسبه ولونه .
- وهم مع الثورة المستمرة والخروج الدائم وتجريد السيف ضد أئمة الجور (وهو المبدأ الذى وافقهم فيه آخرون) .
- وهم فى تقييم التاريخ السياسى الإسلامى .. مع إمامة أبى بكر وعمر ومع إمامة عثمان قبل أن تحدث الأحداث فى السنوات الست الأخيرة من إمارته ، ومع إمامة علي قبل التحكيم.. أما سنوات عثمان الأخيرة فإنهم يبرأون منه فيهـــا ، وأما بعد التحـــكيم فإنهم يكفرونه .. بعضهم يكفره كفر شرك وبعضهم يقول : إنه كفر نعمة فقط .
- وهم يبرأون من أصحاب الجمل وكذلك من معاوية وبنى أمية ومن والاهم .
- وهم مع الاختيار والبيعة كطريق لنصب الإمام ، وضد فكر الشيعة فى الوصية والنص .
- وهـــم يـــرون أن الإمامـــة مـــن الفروع .. وينكرون قول الشيعة أنها من أصول الدين ، فمصدرها عندهم ليس الكتاب ولا السنة وإنما الرأى .
- وهم يرون أن مرتكبى الذنوب الكبيرة كافرون مخلدون فى النار وكانوا يعنون بهم أساسًا بنى أمية وولاتهم ونظامهم السياسى والعسكرى .
- وهـــم يقولـــون بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وعمومًـــا فـــإن لـــلخوارج تقاليد اشتهرت عنهم فى القتال .. وزهد اتصفوا به فى الثروة فحـــررهم مـــن قـــيود الحرص على الاقتناء وأعانهم على الانخراط فى الثورات والرحيل فى ركـــاب الجـــيوش الـــثائرة ، ونســـك وتقـــوى سجلها لهم حتى خصومهم من كتاب

المقـــالات . وصدق وشجاعة طبعت سلوكهم وبرزت فى شعر لهم فميزته عن شعر غيرهم إلى حد كبير .

والـــذى يعنيـــنا من أمرهم هنا هو ما يرتبط بموضوع الإمامة الذى نبحث علاقته بنشأة الفرق الإسلامية وفى مقدمته – فيما يخص الخوارج – أمران :

أولهمـــا : فلســـفتهم فى اختيار الأئمة الذين نصبوهم عليهم فى ثوراتهم والمجتمعات التى نجحوا فى إقامة سلطانهم عليها .

وثانيهما : الثورات الكبيرة والكثيرة وشبه المستمرة التى قاموا بها وعلاقتها بالصراع على السلطة ومنصب الإمامة بالذات .

أمـــا فلسفتهم فى الإمامة فإنها الأصل فى القواعد التى حكمت موقفهم منها . وهى التى أشرنا إليها . فهم يختارون من تتوافر فيه شروطها دون التقيد بالنسب أو الجنس أو اللون وهم يعـــزلونه إذا افتقدت فيه الشروط . ولما كانت أغلب ثورات الخوارج قد قامت ضد بنى أمية الـــتى تتركز فيها عصبية قريش فإن صراع الخوارج كان ضد العصبية القرشية فى جانب كبير منه ولذلك لم يختاروا أميرًا واحدًا من القرشين فمن أمرائهم وخلفائهم ، مثلاً :

- عبد الله بن وهب الراسبى (٣٨هـــ – ٦٥٨م) .. وهو من الأزد .
- حوثرة بن وداع بن مسعود (٤١هـــ – ٦٦١م) .. وهو من أسد .
- المســـتورد بن علفة بن سعد بن زيد بن مناة (٤٣هـــ – ٦٦٣م) .. وهو من تيم الرباب .
- زحاف الطائى (٥٠هـــ – ٦٧٠م) .. وهو من طيئ .
- قريب بن مرة (٥٠هـــ – ٦٧٠م) .. وهو من الأزد .
- حيان بن ظبيان السلمى (٥٩هـــ – ٦٧٨م) .
- أبو بلال مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربعى الحنظلى (٦١هـــ – ٦٨٠م) .. من تميم .

- نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى (٦٥هـ - ٦٨٥م) .. وهو من بكر بن وائل .
- عبيد الله بن بشير بن الماخور السليطى اليربوعى (٦٥هـ - ٦٨٥م) .. وهو من تميم .
- الزبير بن على السليطى (٦٨هـ - ٦٨٧م) .. وهو من تميم .
- نجدة بن عامر الحنفى (٣٦-٩٦هـ ٦٥٦-٦٨٨م) وهو من بكر ابن وائل .
- ثابت التمار - الذى بويع له بعد نجدة بن عامر وهو من الموالى .
- أبو فديك (٧٣هـ - ٦٩٢م) .
- أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيبانى (٢٦ - ٧٧هـ - ٦٤٧ - ٦٩٦م) .
- أبو نعامة - واسمه (جعونة) - قطرى بن الفجاءة بن مازن ابن يزيد الكنانى المازنى (٧٨هـ - ٦٩٧م) وهو من تميم .
- عبد ربه الصغير - الذى انشق على قطرى وبويع له بإمرة المؤمنين - وهو أحد موالى قيس بن ثعلبة .
- أبو سماك ، عمران بن حطان بن ظبيان السدوسى الشيبانى الوائلى (٨٤هـ - ٧٠٣م) .
- عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود (١٣٠ هـ - ٧٤٨م) .. وهو كندى .

فهم جميعًا ما بين عربى غير قرشى وما بين مولى من الموالى اشترك فى البيعة له بإمارة المؤمنين العرب والموالى على حد سواء .. وهذه سابقة فى فلسفة الحكم لم يسبق لها مثيل فى المجتمع الإسلامى ولعلها التطبيق الأول لروح فلسفة الإسلام فى هذا المقام . أما فلسفتهم فى الحكم بمعنى العدل الذى خرجوا لإقامته بدلاً من الجور الذى تأثروا عليه فإن لهم فى الحديث عنه الخطب والأشعار المتناثرة الكثيرة فى كتب التاريخ .. وهذه الكلمات التى خطب بها أبو حمزة الشارى على منبره مسجد المدينة المنورة توجز معنى الجور الذى ثاروا ضده والعدل الذى طلبوه قال : « يا أهل المدينة سألناكم عن ولاتكم هؤلاء - ولاة بنى أمية - فأسأتم القول

فــيهم وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم . وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم نعم فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نلقاهم فإن نظهر نحن وأنتم يأت من يقــيم لنا كتاب الله وسنة نبيه ويعدل فى أحاكمكم ويحملكم على سنة نبيكم فأبيتم وقاتلتمونا فقاتلناكم وقتلناكم .. مررت بكم فى زمن هشام بن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة فى ثماركم فركبــتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم فكتب بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم فزاد الغنى غنى والفقير فقرًا وقلتم : جزاه الله خيرًا فلا جزاه خيرًا ولا جزاكم .. يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركًا عابد وثن أو كافرًا من أهل الكتاب أو إمامًا جائرًا .. أخبرونى عن ثمانية أســهم فرضها الله فى كتابه على القوى والضــعيف فجاء تاسع ليس له منها ســهم فأخذها جميعها لنفسه مكابرًا محاربًا لربه فما تقولون فيه وفيمن أعانه على فعله ؟

إن بنى أمية قد أصابوا آمرة ضائعة وقومًا طغامًا جهالاً لا يقومون لله بحق ولا يفرقون بين الضــلالة والهــدى ويرون أن بنى أمية أرباب لهم فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية ، بطشهم بطش الجبابرة يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب ويأخذون بالظن ويعطلون الحدود بالشفاعات ويؤمنون الخونة ويعصون ذوى الأمانة ويناولون الصدقة من غير فرضها ويضعونها غير موضعها فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله فالعنوهم لعنهم الله .

وأمــا إخوانــنا من الشيعة وليسوا بإخواننا فى الدين ولكنى سمعت الله يقول : ﴿ يَاأَيُّهَا الــنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ .. فإنها فرقة تظاهرت بكــتاب الله وآثرت الفرقة على الله لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ولا عقل بالغ فى الفقه ولا تفتيش عن حقيقة الثواب قد قلدوا أمورهم وأهواءهم وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم غيًا كان أو رشدًا ضلالة كان أو هدى ينتظرون الدول فى رجعة الموتــى ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما فى بيته بــل لا يعــلم مــا ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه ينقمون المعاصى على أهلها ويعلمون بها ولا يعــلمون المخرج منها جفاة فى دينهم قليلة عقولهم قد قلدوا أهل البيت من العرب دينهم وزعمــوا أن موالاتهــم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة قاتلهم الله أنى يؤفكون » .. فهو :

أولاً : يعلن أن بنى أمية قد تولوا السلطة اغتصابًا ودون استحقاق وأن جورهم قد عطل الحدود وأضر بالرعية حتى أغنى الغنى وأفقر الفقير .

ثانيًا : يعلن وجوب الخروج بالسيف على هذه السلطة الجائرة لإزالتها ثم يرد إلى الناس أمرهم يختارون بالشورى إمامهم بأنفسهم ولأنفسهم .

ثالثًا : يعلن أن الخوارج يبغون وحدة الأمة فى هذا الصراع فهم (من الأمة والأمة منهم) لا يستثنى من الناس إلا المشرك وأهل الكتاب والإمام الجائر .

رابعًا : يعلن رفض القعود ويهاجم القعدة الذين يئنون تحت النير الأموى دون أن يخرجوا عليه ويقاوموه .

خامسًا : يهاجم فرقة الشيعة – بعد أن هاجم الفرقة الأموية الحاكمة – لأنها تخلت عن مقاومة السلطة والخروج عليها وتدينت بالتعصب لآل البيت واتخذت من حبهم عبادة ترجو القربة بها وابتدعت عقائد الرجعة وعلم الأئمة للغيب وغيرهما من العقائد الغريبة عن الإسلام .

وإلى جانب هذه الأفكار والمبادئ التى طرحتها فلسفة الخوارج السياسية كانت آراؤهم فى مرتكب الكبيرة (وهى آراء سياسية عنوا بها) وتكفير بنى أمية ومن سلك سلوكهم فى الجور والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإمامة غير القرشى والبراءة من عثمان بعد الأحداث ومن علي بعد التحكيم ومن أصحاب الجمل وصفين .. كانت هذه الآراء السياسية عناصر مذهب وفلسفة فى الحكم أثارت الجدل الفكرى والصراع السياسى الذى بلور فرق الإسلام الأولى فى القرن الأول الهجرى ، وبالذات تلك الفرق التى نشأت نشأة سياسية وفى مقدمتها : الشيعة . والمرجئة . والمعتزلة . أما الثورة والخروج كطريق سلكه الخوارج لتسود أفكارهم فإن فرقة من فرق الإسلام لم تسلك هذا الطريق كما سلكوه حتى لقد أصبحت ثوراتهم والتفاضاتهم أشبه بالثورة المستمرة فى الزمان والمنتشرة فى المكان ضد الأمويين بل وضد علي بن أبي طالب قبل سنة ٤٠هـ .

فنتيجة التحكيم بين علي ومعاوية قد ظهرت فى رمضان سنة ٣٧هـ وفى شوال بايع الخوارج لأول أمرائهم : عبد الله بن وهب الراسبى الذى قادهم فى حرب النهروان فى صفر سنة ٣٨هـ ضد جيش علي بن أبي طالب . وبعد هزيمة الخوارج فى النهروان بشهرين تجددت

ثورهــم فقــاتلوا جيش علي ثانية فى (الدسكرة) فى ربيع الثانى سنة ٣٨هــ وكان قائدهم فى (الدسكرة) أشرس بن عوف الشيبانى . وفى الشهر التالى لهزيمة (السكرة) تجددت ثورهم بقــيادة هــلال بن علفة وأخيه مجالد فقاتلوا جيش علي مرة ثالثة عند (ماسبذان) فى جمادى الأولى ســنة ٣٨هــ وبعد هزيمة (ماسبذان) قادهم الأشهب بن بشر البجلى فى خروج آخر فى نفــس العــام ٣٨هــ فحاربوا فى (جرجرايا) على نهر دجلة . وفى رمضان سنة ٣٨هــ زحفــوا بقيادة – أبو مريم – من بنى سعد تميم إلى أبواب الكوفة فحاربوا جيش عليى وهزموا هناك .. وبعد مقتل علي وتنازل الحسن لمعاوية بدأت حرب الخوارج لأهل الشام ولقد كادوا يهزمون جيش معاوية فى أول لقاء لهم به لولا أن استعان عليهم بأهل الكوفة وفى سنة ٤١هــ قادهم – ابن غالب التميمى والخطيم الباهلى – تمردًا ضد الأمويين استمر حتى قضى عليه زياد بــن أبــيه قــرب البصرة سنة ٤٦هــ .. وفى أول شعبان سنة ٤٣هــ قاتل الخوارج بقيادة أميرهــم – المستورد بن علفة – جيش معاوية وكانت الكوفة يومئذ يتولاها المغيرة بن شعبة . وفى ســنة ٥٠هــ ثار بالبصرة جماعة منهم بقيادة قريب الأزدى وفى سنة ٥٨هــ ثار الخوارج مــن بــنى عــبد القيس فذبحــوا من قبل جيش عبيد الله ابن زياد . وفى سنة ٥٩هــ ثاروا بقــيادة – حــيان بــن ظبيان السلمى – وقاتلوا حتى قتلوا جميعًا عند (بانقيا) قرب الكوفة وفى ســنة ٦١هــ كانت المعركة التى قتل فيها أبو هلال مرداس بن أدية الذى خرج بالأهواز عــلى عهــد والى البصرة عبيد الله بن زياد وكان مقتله وقودًا زاد من ثورات الخوارج وكثر من أنصارهم ثم خرجوا بالبصرة بقيادة – عروة بن أديه – وهو أخو بلال بن أدية .. ثم خرجوا بالبصرة كذلك بقيادة – عبيدة بن أدية – ثم خرجوا بالبصرة كذلك بقيادة – عبيد بن هلال – وفى آخر شوال سنة ٦٤هــ بدأت ثورة الأزارقة بقيادة – نافع بن الأزرق – وهى الثورة الــتى بــدأت بكسر أبواب سجون البصرة ثم خرجوا يريدون الأهواز وفى سنة ٦٥هــ ثاروا بالــيمامة بقيادة – أبو طالوت – وفى شوال سنة ٦٦هــ حاربوا جيش المهلب بن أبى صفرة شــرقى نهــر دجــيل وفى سنة ٦٧هــ قاد ثورهم – نجدة بن عامر – فاستولوا على أجزاء من اليمن وحضرموت والبحرين وفى أوائل سنة ٦٨هــ قادهم – الزبير بن على السليطى – فى حربهم ضد جيش مصعب بن الزبير عند سابور واصطخر ثم البصرة . وفى نهاية سنة ٦٨هــ ثــار الخــوارج الأزارقــة وهاجموا الكوفة وفى سنة ٦٩هــ استولوا على نواحى من أصفهان وبقيت تحت سلطانهم وقتًا طويلاً وفى سنة ٦٩هــ ثار الخوارج فى الأهواز بقيادة – قطرى بن

الفجـــاءة – وفى آخـــر شـــعبان ســـنة ٧٥هــــ حـــاربوا المهلب بن أبى صفرة ولما هزمهم انسحبوا إلى فارس وفى سنة ٧٦هـ قاد ثورتهم فى (دارا) الناسك صالح بن مسرح – وقاتلوا فى قـــرية (المدبـــح) مـــن أرض الموصـــل وفى ســـنة ٧٦هـــ وسنة ٧٧هـــ تمكنوا بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم – من إيقاع عدة هزائم بجيوش الحجاج بن يوسف . ثم تكررت ثورتهم بقيادة – شوذب – وحاربوا فى الكوفة – على عهد يزيد الثانى . وفى عهد هشام الثانى ثاروا وحـــاربوا فى الموصـــل بقيادة – بهلول بن بشر – ثم بقيادة – الصحارى ابن شبيب – حيث حاربوا عند (مناذر) .

ولقـــد أدت هذه الثورات المتكررة شبه المتصلة إلى ضعف الدولة الأموية وتعدد الفرق والأحـــزاب المعارضة ، كما أدت إلى اتساع نطاق الثورة الخارجية بين الناس فلم تعد قاصرة على قلة من الناس يؤمنون بفكر هذه الفرقة ويخرجون تطبيقًا لهذا الفكر وإنما شاركت الجماهير الغفيرة فى هذه الثورات المسلحة .. ففى سنة ١٢٧هـــ حارب فى جيش الخـــوارج الذى قاده – الضحاك بن قيس الشيبانى – مائة وعشرون ألفًا من المقاتلين وحاربت فى هذا الجيش نساء كـــثيرات ؟ وانتصر هذا الجيش على الأمويين بالكوفة فى رجب سنة ١٢٧ وبواسط فى شعبان سنة ١٢٧هـــ .

وفى ســـنة ١٢٩هــــ ثاروا باليمن بقيادة – عبد الله بن يحيى الكندى – واستولى على حضـــرموت واليمن وصنعاء ، وأرسل عبد الله بن يحيى جيشًا يقوده حمزة الشارى فدخل مكة وانتصر فى المدينة إلى أن هزمه جيش أموى جاءه من الشام فى جمادى الأولى سنة ١٣٠هـــ .

وهـــذه الثورات الخارجية وإن لم تنجح فى إقامة دولة يستمر حكم الخوارج فيها طويلاً إلا أنهـــا قـــد أصابت الدولة الأموية بالإعياء حتى انهارت انهيارها السريع تحت ضربات ثورة العباسيين فى سنة ١٣٢هـــ .

وإذا أردنا أن نعرف كم كلفت ثورات الخوارج بنى أمية كفانا أن نذكر أنهم لم يستطيعوا إحـــراز النصـــر على الخوارج إلا بقائدهم المهلب بن أبى صفرة ، ولم يستطع المهلب أن يهزم الخوارج إلا بعد أن أخذ الأرض وخراجها إقطاعًا له ولجنده المحاربين .. ويروى المســـعودى أنه (لما غلبت الخوارج على البصرة بعث إليهم عبد الملك جيشًا فهزموه، ثم بعث إليهم عبد الملك جيشًا فهزموه ، ثم بعث إليهم آخر فهزموه) .

فقال : مَن للبصرة والخوارج ؟

فقيل له : ليس لهم إلا المهلب بن أبي صفرة ، فبعث إلى المهلب فقال : على أن لى خراج ما أجليتهم عنه .. فقال عبد الملك : إذن تشركنى فى ملكى .

فقال المهلب : فثلثاه .

فقال عبد الملك : لا .

قال المهلب : فنصفه والله لا أنقص منه شيئًا على أن تمدنى بالرجال فإذا أخللت فلا حق لك على .

أى أن الدولة قد وضعت كل ما لديها فى خدمة الجيش والقائد الذى حاربهم فى العراق ، ومع ذلك فلقد ظلت شرارة ثورتهم المستمرة تولد الانتفاضة أثر الأخرى ، كما ظلت فلسفتهم السياسية تشعل الجدل الذى أصبح وقودًا يذكى نار الصراع على السلطة بين الفرق المعارضة وبين الأمويين .



٥ - الأشاعرة

اشتدت حملة المعتزلة على الفقهاء والمحدثين ، ولم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدث مشهور فكرههم الناس وصاحب ذكرهم البلاء والمحن وتأرثت العداوة ، حتى نسى الناس خيرهم .

حتى ظهر فى آخر القرن الثالث رجلان امتازا بصدق البلاء : أحدهما أبو الحسن الأشعرى ظهر بالبصرة ، والثانى أبو منصور الماتريدى ظهر بسمرقند ، وقد جمعهما مقاومة المعتزلة على اختلاف بينهما فى القرب من المعتزلة والبعد عنهم .

ولد الأشعرى بالبصرة سنة ٢٦٠هـ وتوفى سنة ثلاثين وثلاثمائة ونيف بعد الهجرة ، وتخرج على المعتزلة فى علم الكلام وتتلمذ لشيخهم فى عصره أبى على الجبائى ، وكان لفصاحته ولسنه يتولى الجدل نائبًا عن شيخه .

ولكن الأشعرى وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة فى تفكيرهم مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقتهم .

وقد بيّن مذهبه ومأخذه على المعتزلة إجمالاً فى مقدمة كتاب « الإبانة » وقد جاء فيها بعد حمد الله والثناء عليه :

(أما بعد فإن كثيرًا من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى التقليد لرؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطانًا ، ولا أوضح به برهانًا ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ولا عن السلف المتقدمين ، فخالفوا رواية الصحابة عن نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم فى رؤيته بالأبصار ، وأنكروا شفاعة رسول الله (ﷺ) وزعموا أن القرآن كقول البشر ، وأثبتوا وأيقنوا أن العباد يخلقون الشر ، وزعموا أن الله عز وجل يشاء مالا يكون ويكون مالا يشاء ، خلافًا لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن وردًا لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ولذا سماهم رسول الله (ﷺ) (مجوس هذه الأمة) لأنهم دانوا بديانات المجوس ، وضاهوا أقوالهم . وزعموا

أن للشــر والخير خالقين كما زعمت المجوس ، وأنه يكون من الشر ما لا يشاء الله كما قالت المجــوس ، وزعمــوا أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم ردًا لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِــي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَــاءَ اللَّهُ ﴾ وانحرافًا عن القرآن وعما أجمع عليه المســلمون . وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم ، وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله عز وجل ووصــفوا أنفســهم بالقدرة على ما لم يصفوا الله بالقدرة عليه ، وحكموا على العصاة بالنار والخلود خلافًا لقول الله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وزعموا أن من دخل النار لم يخرج منها ، خلافًا لما جاءت به الرواية عن رسول الله (ﷺ) : « أن الله عز وجل يخرج مــن النار قومًا بعدما امتحشوا فيها ، وصاروا حممًا » . ودفعوا أن يكون لله عز وجل وجه مع قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ .

وبهــذا يتبين أنه جاء لإحياء آراء الإمام أحمد فى نظره إذ يعتبر منهاجه هو منهاجه ، ولذا يقــول فى منهاج الإمام أحمد الذى اختاره : (وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ومــا جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله (ﷺ) لا نرد من ذلك شيئًا وأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا وأن محمدًا عبده ورسوله وأن الجــنة والــنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله اســتوى على عرشه ، كما قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، وأن لــه تعالى وجهًــا كما قال تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ ، وأن لــه يدًا كما قال تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، وأن له عينًا بلا كيف كما قال تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾، وأن لله علمًا كما قال تعالى : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ ونثبت لله قوة كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّــهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ونثبت لله السمع والبصر ، ولا ننفى ذلك كما نفته المعــتزلة والجهمية . ونقول إن كلامه غير مخلوق ، ولم يخلق شيئًا إلا وقد قال له كن فيكون ، وأن لا يكــون فى الأرض شيء شر ولا خير إلا ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ، وأن أحــدًا لا يســتطيع أن يفعل شيئًا قبل أن يفعله الله ولا نستغنى عن الله ، ولا نقدر على

الخـــروج من علم الله ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأن أعمال العباد مخلوقة لله ومقـــدرة كما قال تعـــالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا وهم يخلقون ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ .

ونقـــول إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال بخلق القرآن كان كافرًا به ، وندين أن الله تعـــالى يـــرى بالأبصار يوم القيامة ، ونقول إن الإمام بعد رسول الله (ﷺ) ، أبو بكر رضى الله عنه وأن الله أعز به الدين ، وأظهره على المرتدين ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم عثمان نضر الله وجهه قتله قاتلوه ظلمًا وعدوانًا ، ثم علي بن أبي طالب ، فهؤلاء الأئمة بعد رســـول الله (ﷺ) وخلافـــتهم خلافة النبوة ونشهد للعشرة المبشرين بالجنة الذين شهد لهم رسول الله (ﷺ) ونتولى سائر أصحاب رسول الله (ﷺ) ونكف عما شجر بينهم ، وندين لله أن الأئمة الأربعة راشدون مهذبون فضلاء لا يوازيهم فى الفضل غيرهم) .

ومن عقائدهم :

(أ) أنـــه يجوز أن تكون للصالحين آية ، وهى التى اصطلح العلماء على تسميتها باسم الكرامة تمييزًا لها عن المعجزة ، وجواز الدعاء للميت والتصدق عليه .

(ب) أن يؤخـــذ بكـــل ما جاءت به السنة من عقائد لا فرق فى ذلك بين سنة متواترة وأخبار آحاد .

(جـــ) أن لله وجهًا ، لا كوجه العبيد ، وأن لله يدًا لا تشبه يد المخلوقات .

(د) أن الصفات وسط بين المعتزلة ومعهم الجهمية ، وبين الحشوية والمجسمية ، فالأولون نفوا الصفات التى وردت فى القرآن ، ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية ، ونفوا الســـمع والبصـــر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية ، وقالوا : ليست شيئًا غير الذات ، وقالوا إنها فى القرآن أسماء لله تعالى كالرحمن والرحيم – والحشوية و « المجسمية » شبهوا ذاته تعالى فى أوصافها بصفات الحوادث تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا وجاء الأشعرى فاثبت الصفات الـــتى وردت كـــلها فى القرآن والسنة ، وقرر أنها صفات تليق بذاته تعالى ، ولا تشبه صفات الحوادث التى تسمى باسمها ، فسمع الله تعالى ليس كسمع الحوادث ، وبصره ليس كبصرهم وكلامه ليس ككلامهم .

(هـ) إن قدرة الله تعالى وأفعال الإنسان وسط بين الجبرية والمعتزلة ، فالمعتزلة قالوا إن العبد هو الذى يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله تعالى إياه ، والجبرية قالوا إن الإنسان لا يستطيع إحداث شىء ولا كسب شىء بل هو كالريشة فى مهب الريح ، فقال الأشعرى إن الإنسان لا يستطيع إحداث شىء ولكن يقدر على الكسب .

(و) وبالنسبة لرؤية الله يوم القيامة ، قال المعتزلة : الله سبحانه وتعالى لا يرى ، وأولوا النصوص القرآنية ولم يأخذوا بالأحاديث النبوية لأنها أخبار آحاد ، وقال المشبهة : إن الله يرى يوم القيامة مكيفًا محدودًا ، وسلك الأشعرى مسلكًا وسطًا فقال : يرى من غير حلول ولا حدود ..

(ز) وبالنسبة للألفاظ التى وردت موهمة للتشبيه فى القرآن والحديث مثل (يد الله فوق أيديهم) قال المعتزلة : المراد سلطان الله تعالى فوقهم ، وقال الحشوية ، (أى العامة من المنتسبين للعلم) يده يد جارحة ، وقال الأشعرى يده يد تليق بذاته الكريمة ، وليست يد جارحة كأيدينا ، بل يده يد صفة كالسمع والبصر .

(ح) وبالنسبة للقرآن قال المعتزلة : القرآن مخلوق محدث خلقه الله تعالى ، وقال الحشوية الحروف المقطعة والأجسام التى يكتب عليها والألوان التى يكتب بها ، وما بين الدفتين غير مخلوق فسلك الأشعرى طريقًا وسطًا ، وقال : القرآن كلام الله غير مغيّر ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع .

(ط) وبالنسبة لمرتكب الكبيرة قال المعتزلة : إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته إذا لم يتب عن كبيرته لا يخرج من النار ، وقال المرجئة من غير أهل السنة : من أخلص لله سبحانه وتعالى وآمن به فلا تضره كبيرة مهما تكن ، فسلك الأشعرى طريقًا وسطًا ، المؤمن الموحد الفاسق هو فى مشيئة الله تعالى إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله الجنة .

(ى) وبالنسبة للشفاعة قال الإمامية إن للرسول شفاعة وللأئمة مثلها ، وقال المعتزلة : لا شفاعة لأحد من العباد ، فسلك الأشعرى مسلكًا وسطًا ، وقال إن للرسول صلوات الله

وسلامه عليه شفاعة مقبولة فى المؤمنين المستحقين للعقوبة ، يشفع لهم بأمر الله وإذنه ولا يشفع إلا لمن ارتضى ، كسائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد سلك الأشعرى فى الاستدلال على العقائد مسلك النقل ومسلك العقل ، فهو يثبت ما جاء القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله تعالى ورسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على صدق مـا جـاء فى القـرآن والسنة عقلاً بعد أن وجب التصديق بها كما هى نقلاً ، فهو لا يتخذ مـن العقـل حاكمًا على النصوص ليؤولها أو يمضى ظاهرها ، بل يتخذ العقل خادمًا لظواهر النصوص يؤيدها .



٦ ـ الصــــوفـيـة

اشــتقت تسمية التصوف من صفة المسجد وارتبطت هذه الصفة بعصور تاريخية متقدمة ثم ارتبطت بعصر النبى (ﷺ) والزعم فى نفس الوقت بأن الرسول (ﷺ) ، قد أقر منهجهم فى الافتقار والاعتزال والتجرد والتواكل ، وهذا مالا يقبله عقل منصف اطلع على كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) بالإضافة إلى سيرة السلف .

وفى مجــال البحــث التاريخى للتصوف يقول الكاتب جورجى زيدان إن هناك صلة بين الكــلمة العربية (تصوف) والكلمة اليونانية (سوفيا) فيقول : إنها مشتقة من لفظة يونانية الأصــل هــى (سوفيا) ومعناها الحكمة فيكون الصوفية قد لقبوا بذلك الاسم الذى عرفوا به نسبة إلى (الحكمة) ، ولكن المستشرق (نولدكة) استبعد هذه الصلة لأسباب لغوية يونانية وهــى : أن (سيجما) اليونانى حرف يمثل فى العصور المتأخرة ، بحرف السين العربى فى جميع ما عرب من كلمات يونانية لا بحرف الصاد .

نظرة تاريخية على ظاهرة التصوف :

على ضوء حقائق التاريخ الإسلامى ، وسيرة الصدر الأول ، بالإضافة إلى سلوك وحياة عــلماء الســلف فضلاً عن عهد النبى (ﷺ) وطوال مرحلة الخلفاء الأربعة ، لم تكن ظاهرة التصــوف وما تمثله من منطلقات ومظاهر تمثل سلوكًا معينًا متميزًا تقوم به جماعة من المسلمين دون غيرهــم . والمحاولات أو المواقف التى كان فيها المسلمين من أصحاب القلوب الرقيقة ، أو ممن كان لهم مواقف متصلبة وآذوا كثيرًا من المسلمين قبل إسلامهم ثم أرادوا التنطع والغلو فى تناولهم لتعاليم وتوجيهات الإسلام أو أرادوا التفرغ الكامل والزهد والاعتكاف عن ضروب الجهــاد كل أيام عمرهم ، كان رسول الله (ﷺ) ينهاهم عن ذلك الإقبال أو هذا الانضواء والانطواء ، حين كان (ﷺ) يقول : (إنما بعثت بالحنيفية السمحة) .

وحــين يقــول (ﷺ) « فــإن لجسمك عليك حقًا ، وإن لعينيك عليك حقًا ، وإن لزوجك عليك حقًا » وحين يقول (ﷺ) « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » .

وكـــان أفضل وأكرم اسم يحبون أن يعرفوا به هو أنهم أصحاب رسول الله (ﷺ) وأنهم مســلمون ، وحــتى الجيل الثانى الذى شهد أصحاب رسول الله (ﷺ) كان الشرف الذى يحرصـــون على أن يحملوه والسمة التى يحبون أن يعرفوا بها ، وأن يعيشوا على هديها هو أنهم ممن صحب أصحاب رسول الله (ﷺ) وأن القرن الأول كله لم يشهد على كثرة ما حدث فيه مــن انقســام أمة الإسلام إلى فرق سياسية وخاصة بعد مقتل علي رضى الله عنه – لم يشهد تســميات للدلالــة على سلوك البعض من القبيل الصوفى ، كدلالة معينة على سلوك البعض واتجاههم نحو الزهد والتقشف والانقطاع الذى يعتبره المتصوفة أساسًا تاريخيًا عندهم بدأ مبكرًا بــل كان أكرم وأشرف ما يتمنى الورع التقى الذى هو المسلم الملتزم بأحكام كتاب الله وسنة نبــيه والمجاهد ساعيًا فى سبيل دعوة الإسلام والكسب الحلال ، كان أكرم وأشرف ما يتمناه بعــد رضا الله أن يعرف بأنه : صحابى أو تابعى ، ولم تكن اصطلاحات وتسميات ، صوفى ، وزاهــد ، وعــابد ، ومنقطع ، وصاحب مقام كذا وكذا مما لم يعرف فى عصر صدر الإسلام قد نشأت بعد .

تطور ظاهرة التصوف وشيوعها :

ما أن أقبل القرن الثالث الهجرى ، إلا وكانت السمة التى تميز سلوك مجموعة من العباد الذين استهواهم النهج الصوفى وما سمى بأعمال القلوب ، قد دخلت طورًا أصبحت بغداد فيه عاصمة للظاهرة التى عرفت باسم (التصوف) . وبينما كانت حلقات الدرس والتناظر حول أحكــام الشرع الإسلامى ، فى مسائل الفقه والتوحيد تتخذ نهجًا هادئ النبرات ، قوى الحجة كــان ضــجيج شيوخ المدارس الصوفية فيما بينهم ، وبين مريديهم يعلو كل صوت ، وينفذ إلى معظم ديار المسلمين ، متسللاً من خلال عباءات الشيوخ وعذب حديثهم للعامة وتساهلهم وتــنازلهم عن كثير مما هو مندوب وواجب فى السنة المطهرة الأمر الذى يروق لأولئك الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام ، وذلك لكى يروج النهج الصوفى ويكثر أتباعه فى معظم الديار .

ومــا أن انــتهى القــرن الثالث الهجرى بعد تسرب الصوفية إلى الديار الإسلامية حتى امتلأت الساحة الإسلامية بالمدارس والمذاهب الصوفية التى صنعت للمريد لكى يدخل إلى مقام شــيخه أو ينخرط فى سلك عضوية طريقه ، نوعًا من الرسوم والطقوس ، أطلقوا عليها اسم الأحوال والمقامات تدرجًا فى طريق العشق والوجد والفناء والاتحاد والحلول وغير ذلك .

ومـــع أن قلـــة قلـــيلة من شيوخ المتصوفة لم يطمس عقلهم التيار الصوفى المتدفق ، من مصادره العديدة التى وفدت من الأفكار الهندية واليونانية والمسيحية وإن كان قد شاب صحة عقيدهم ، إلا أن السمة العامة لمذاهب التصوف والقاسم المشترك . والنهج المميز للمتصوفة فى تناول أمور العبادة وغيرها هو ما يسمونه : (الذوق) وهذا المعيار أو هذا المنهج واسع وسع كـــل الميول والعواطف والمشارب الإنسانية التى قد تكون فى بعض منطلقاها تمثل تناقضًا فيما بينها ، فضلاً عن أن هذا الذوق الذى يخرج عن قيد النص الشرعى ودلالته المباشرة إلى التناول الذوقى بما يفسد المعانى ويؤول الالتزامات ، لا يستقيم مع قواعد الشرع وفرائضه .

هذا وقد لاحظ مؤرخو الفرق والمذاهب ، أنه كلما مضت مرحلة بعد الأخرى منذ انتهاء القـــرن الثالـــث الهجرى ، ومعدلات الجهل بالدين وانتشار البدع وسط بيئة التصوف وبين جماعات المتصوفين فى ازدياد مستمر .

هـــذا وقـــد امتلأت ديار المسلمين منذ حوالى ألف عام بعناصر صوفية ، انضوت تحت مذاهـــب وطرق بعضها نقيض الآخر . من حيث الممارسة وفن التعبير مما سمى (بالطريق) ، ذلـــك أن بعضـــهم لم يجد وسيلة للتعبير عن علاقته بربه، بعد انطفاء نور العقل عندهم سوى أن يصـــبحوا نمـــاذج إفساد فى مجتمعاهم يمارسون الرقص فى حلقات والتصفيق فى مجموعات وذلك هو ما ميز ملامح الطرق الصوفية على طول مراحل التاريخ الأخيرة .

وقد لاحظ كتّاب الفرق أن المتصوفة فى سبيل نجاح ذلك الشكل الرمزى الذى استهووا به العامة ووضعوا لأنفسهم إشارات وعلامات ورايات، واتخذوا طبولاً ودفوفًا ، ونوتة موسيقية كاملـــة ، ومن اعتدل منهم ولم يلجأ إلى هذا الشكل المادى الحسى الذى يكاد أن يكون ضربًا مـــن ضـــروب الوثنـــية انشغل بما أسموه : الذكر الذى قسمه (السهروردى) فى (عوارف المعارف) إلى أربعة أقسام :

ذكـــر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر ، وذكر بالروح ، فإذا صحّ فيما زعموا ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك عندهم هو ذكر المشاهدة .

وإذا صحّ ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الهيبة .

وإذا صحّ ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء .

وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العبادة .

وهذا الترتيب الذى لم يكن معروفًا ولا متداولاً فى عصر صدر الإسلام ، فضلاً عن افتقاد معناه ودلالته وهيئته فى السنة رتب المتصوفة منهجهم هذا ، إذ ترفع بعضهم عن الهبوط بمستوى الممارسة الصوفية إلى أساليب التأثيرات المادية والأشكال الرمزية ، والاستعانة بالأدوات الفنية .

هذا ويرى بعض الباحثين أنه قد نجا بعض رجال الصوفية ، وإن كانوا قلة قليلة ، من الوقوع فى متاهات الطقوس المادية وأشكال الممارسة الرمزية التى تعاون على تقديس وتبجيل الشيوخ الصوفى من قبل أتباعه .

هذا ويخطئ الصوفية تمامًا حين يربطون بين ما يعبرون عنه أثناء ممارستهم لطقوس التصوف بما أسموه : مذاقات الحب والفناء فى المحبوب ، وبين قول الرسول (ﷺ) : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا والإسلام دينًا وبمحمد رسولاً » فإن طعم الإيمان لا تعبير عنه إلا بالإسلام ممثلاً فيما شرع الله لعباده وفق القواعد التى أرادها الله فى كتابه ، وعلمها رسوله (ﷺ) فى سنته ، لا وفق الذوق الصوفى ولا الوجد الروحى ، حتى لا يجد المسلم نفسه أمام متاهات النهج الصوفى وقد خرج تمامًا عن روح الشرع الإسلامى .

والطريق الصوفى هو على ضوء ما كتب المتصوفة وما عرفه عنهم الراصدون والمؤرخون هو أن يختار جماعة من المريدين شيخًا لهم يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى وزعم تصفية القلب لغاية الوصول إلى معرفة الله .

بهذا التصور ومن خلال تلك الغاية يفرض الطريق على المريدين أتباع الشيخ ، الاتباع الأعمى وتبجيله على اعتقاد من المريدين بأن الشيخ الصوفى (شيخ الطريق) قد انكشف له الحجاب وتجلت له الأقدار وعرف الأسرار إلى غير ذلك مما يروج على ألسنة أتباع الطريق .

وعلى المريد ، إن كان يريد الاستمرار والتدرج فى طريق صعود الطريق ، المواظبة على ما يردده الشيخ من أدعية وأذكار ، على أن يكون فى كل علاقاته بشيخه كما عبّر الشيخ

القشـــيرى (كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء ، لا حركة ولا تدبير) وعندئذ يكون المـــريد قـــد أصبح عضوًا فى طريق الله على حد ما يزعمون ، من خلال شيخ صوفى من أهل الطريق ، عرفوه بأنه : الوالى الذى يتولى أمر أتباعه فى قيادتهم نحو آخر المطاف فى الطريق .

والـــولى عـــند الصوفية هو الواصل إلى مرتبة العرفان عن الطريق الموصلة إلى أهدافهم المتصورة ، وعلى ضوء حالات ومراحل المعرفة عندهم ، والتى هى فيما يعتقدون مما اصطلحوا هم عليه مرحلة : الكشف أو الإشراق .

هذا ويعتقد الصوفية جميعًا بغير خلاف ، القدامى منهم والمحدثون أن : العارف هو الذى تتكشف له الحجب ويشهد من علم الله مالا يشهده سواه ، وتظهر على يديه الكرامة التى هى عندهم أمر خارق للعادة يتكرر كبرهان لهذا الوالي الصوفى المزعوم .

هـــذا وقد أنشأ عبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هجرية الطريقة (القادرية) التى ترجح أنها أول طريقة منظمة لأهداف صوفية منذ ذلك التاريخ .

فى هـــذا يقـــول الدكتور أحمد غلوش : ليس من خلاف بين الطرق الصوفية من حيث الأســـس والمـــبادئ الأصلية ، وإنما الفرق فى نوع الأذكار والأوراد التى يواظب عليها المريد من أتباع كل طريقة منها .

وقـــد يفـــتح الله تعـــالى على واحد منهم بطريق الإلهام ، ويؤتى حظًا كبيرًا من الأنوار القدســـية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من أسماء الله الحسنى ، فيكون ذلك سببًا أو أساسًا لإنشـــاء طـــريقة جديدة مشتقة من طريقته القديمة .. ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور .

هـــذا ويبلغ الغلو الصوفى مداه وهو يكشف عن مدى تبلد عقل المتصوفة فى النظر إلى قضـــايا العمـــل الشرعى والالتزامات به حين يعبرون عن تدرج مراحل السالكين فى الطرق الصـــوفية بقوله : إن الرغبة فى اتباع الطريق تأخذ فى القلب ازديادًا أو تمكنًا فى القلب بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس إلى الرقى الروحى ، فيتملكها الحنين والشوق إلى معرفة خالقها

معــرفة ذوقــية لا نقلية ولا عقليه ، ويغلب أن تساور الإنسان فى هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية ، فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون أن يجد من عقله مرشدًا كافيًا يحل معضلاتها ، فيلجأ عند ذلك أحد المرشدين إلى طريق الحق ، من المشايخ الصوفية المحققين العارفين بالله عند مــن يعــتقد أنه سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه ، وهو مأذون ، من شيخه بالتسليك فيه ، ويطلب إليه أن يدخله فى عداد أتباعه الآخذين فى السلوك إلى الله على يديه ، ففى هذه الحالة يسمى الطالب مريدًا ، أى يريد السير فى الطريق ، وهذه أولى المنازل وتسمى عند أتباع الطرق الصوفية منزلة : الإرادة .. وعندها يتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ، ويأخذ عليه العهد بالتوبة مــن ذنوبه ، والتبرى من حوله وقوته ، وإخلاص النية فى مقصده ، وغايته بما يفرضه الطريق عــلى الســائر فيه ، والأذكار والأوراد المشروعة عندهم ، فضلاً عن القيام بما يوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه .

ومــن ثم يــبدأ ســلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكًا) ، جاعلاً أكثر همه فى الدنيا الاشــتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمه له الشيخ ، فيقبل على الله بصدق النية وتصــوفية القلــب عما سوى الله — هكذا زعموا — حيث ينتقل بذلك إلى مقام يسمى مقام (العــبودية) ويظــل الســالك يجــاهد فى الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالإكثار من الضراعة والتذلل والتزلف إلى بارئه ، على أن تكون الضراعة ، بالأوراد والأذكار التى تميز الطريق عن غيره ... وعند هذه المرحلة يعتقد أهل الطرق الصوفية ، أنه بعد مقام (العبودية) يصبح العبد أهلاً لأن تقبل عليه العناية الإلهية بعد أن تقبل مناجاته وضراعاته لترتقى بعد ذلك فى القلب لتصير عشقًا لله ، وعند هذه يكون ابن الطريق قد دخل مقام (العشق) . وعليه أن يظــل ســالكًا مواظبًا على أذكاره وأوراده التى يتلقاها من شيخه ، وعلى ضوء توجيه شيخه تحســب الخطوات هنا فى هذا المقام بدقة محسوبة ، فإن كان السالك أهلاً للمزيد ، فإنه يشغل وقته قارنًا ذلك بالعزلة والخلوة والإقلال ما أمكن من الطعام والشراب والكلام والنوم ، حتى تــتملكه فيما يزعم الصوفية حالة علوية شريفة ينتقل بها إلى مقام (الوجد والهيام) وهو أسمى مــن مقام (العشق) عند هذا المقام المزعوم الذى يستولى على جميع النفس تتوارد على قلب الســالك مــا أسموه بالنفحات الربانية ، والبركات الإلهية تواردًا متصلاً ، يعتقد أهل الطريقة من الدراويش أنه بها تزداد معرفة المسالك الباطنية لصفات الذات العلية . وهنا يصل السالك

فيما زعموا إلى الحقيقة المجردة التى استهدفها يوم سلك الطريق ، وتسمى عندهم هذه المرحلة : (بمقام الحقيقة) .

وليــت الأمــر يقف عند هذا المستوى بالقوم فيما ضلوا به عند هذه الحقيقة المزعومة ، بل يعتقد أهل الطريق فيما زعموا أن وصول السالك إلى هذا المقام المدعى (الحقيقة) يمكن من أن يظـــل يــرتقى إلى منازل ثلاثة يزعمونها وتسمى عندهم التسمية التى تؤكد بنهاية الشوط الصوفى وقوع الاتباع والرواد فى شرك الوثنية الحلولية التى قام بها اليهود والنصارى ومن قبل الفرس واليونان هذه المنازل الثلاثة هى : (الفناء ، اللقاء ، البقاء) .

وهــذه المــراحل الثلاث التى يعنون بها فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه فى الله ، على اعتقاد أنه أى العبد من خلالهــا تتجلى له عظمة الخالق سبحانه على قلب الســالك، فلا يرى أمامــه إلا الله ، ولا يجد فى الوجود جميعًا إلا واجب الوجود سبحانه ، وتمحى آثار الموجودات من أمام عينيه إلا وجود الله سبحانه وتعالى .



٧ ـ المرجئة

إن الشـــائع فى كتب المقالات أن الإرجاء هو فك الارتباط ما بين العمل والإيمان ، حتى لا تـــتوقف صحة الإيمان على الأعمال التى تعرب عنه وتدل عليه ، فلا تنفع مع الكفر طاعة ولا تضر مع الإيمان معصية . ولكن .. بالرغم من شيوع هذا الأمر وشهرته فإننا نجد أن كتّاب المقـــالات ومؤرخى الفرق لم يضطربوا – ولا نقول فقط : اختلفوا – فى شىء كما اضطربوا فى الحديث عن المرجئة والإرجاء .. فالأشعرى يقول إن فرق المرجئة اثنتا عشرة فرقة وهى :

١ – الجهمـــية . أصـــحاب الجهـــم بن صفوان . القائلون بأن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله ومـــا جـــاء من عنده ، وما عدا ذلك ليس من الإيمان ، والكفر هو الجهل بالله ورسله وما جاء من عنده .

٢ – الصالحية : أصحاب أبو الحسين الصالحى .

٣ – اليونسية : أصحاب يونس السمرى .

٤ – الشمرية : أصحاب أبى شمر ويونس .

٥ – الثوبانية : أصحاب أبى ثوبان .

٦ – الناجرية : أصحاب الحسين بن محمد النجار .

٧ – الغيلانية : أصحاب غيلان .

٨ – الشبيبية : أصحاب محمد بن شبيب .

٩ – الحنفية : أصحاب أبى حنيفة .

١٠ – المعاذية التومنية : أصحاب أبى معاذ التومنى .

١١ – المريسية : أصحاب بشر المريسى .

١٢ – الكرامية : أصحاب محمد بن كرام .

أما البغدادى فيقول : (إنهم ثلاثة أصناف) :

١ – المرجئة الذين قالوا بالقدر مع الإرجاء ومنهم : غيلان ، وأبو شمر ، ومحمد بن أبي شـبيب البصـرى (فهؤلاء عنده صنف واحد ، بينما عند الأشعرى فرق ثلاث : الشمرية ، والغيلانية ، والشبيبية) .

٢ – والمرجئة الذين قالوا بالجبر مع الإرجاء . مثل جهم بن صفوان وفرقته .

٣ – والمرجئة الذين قالوا بالإرجاء وحده ولم يخلطوه لا بالقدر ولا بالجبر . وهؤلاء عند البغدادى خمس فرق :

(أ) اليونسية : أصحاب يونس السمرى .

(ب) والغسانية .

(جـ) والثوبانية : أصحاب أبي ثوبان .

(د) والثومنية أو التومنية : أصحاب أبي معاذ التومنى .

(هـ) والمريسية : أصحاب بشر المريسى .

وحتى لو جمعنا الفرق الخمس التى قالت بالإرجاء فقط إلى الجهمية إلى الفرق الثلاث التى قالـت بالإرجـاء والقدر فإنها تبلغ عند البغدادى تسع فرق ، بينما بلغت عند الأشعرى اثنتا عشرة فرقة ، ولقد زاد البغدادى واحدة لم يذكرها الأشعرى وهى الغسانية .

وعند الشهرستانى نجد (المرجئة أربعة أصناف) :

١ – مرجئة الخوارج .

٢ – مرجئة القدرية .

٣ – مرجئة الجبرية .

٤ – مرجئة الخالصة .

وأبو مروان غيلان بن مروان الدمشقى – زعيم القدرية يأتى عند الشهرستانى فى القائلين بمقالة (الثوبانية) ، أصحاب أبي ثوبان فى الإرجاء وهى المقالة التى تقرر أن الإيمان هو المعرفة

والإقــرار بـــالله ورســـله وكل ما لا يجوز فى العقل أن يفعله وما جاز فى العقل تركه فليس من الإيمان ، وأن العمل كله مؤخر عن الإيمان .. وعند الشهرستانى أن غيلان الدمشقى هذا قد جمـــع بـــين : القدر والإرجاء والخروج ؟ وعنده غيلان آخر هو غيلان بن حرث الذى نجده عند الخوارزمى : غيلان بن خرشة الضبى . وهو عند الشهرستانى ممن جمع بين القدر والإرجاء أما الخوارزمى فإن المرجئة عنده ست فرق :

١ – الغيلانية : أصحاب غيلان بن خرشة الضبى .

٢ – الصـــالحية : أصـــحاب صالح بن عبد الله المعروف بـــ (قنه) وفى كتاب المقالات الأخرى (قبة) .

٣ – أصحاب الرأى : وهم أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت البزاز .

٤ – الشبيبية : أصحاب محمد بن شبيب .

٥ – الشمرية : نسبوا إلى أبي شمر سالم بن شمر .

٦ – الجحدرية : أصحاب جحدر بن محمد التميمى .

أما ابن حزم فإنه يتحدث عن أن غلاة المرجئة طائفتان :

١ – الكرامية : أتباع محمد بن كرام السجستانى ، الذين قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه ، فهو مؤمن عند الله ولي له من أهل الجنة ، وكانت مواطنهم بخراسان والقدس .

٢ – الجهمـــية : أصحـــاب الجهم بن صـــفوان الذين قالوا : إن الإيمان عقـــد بالقلب وإن أعلـــن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام وما على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله وآله من أهل الجنة ، وهم بخراسان ، ويذكر ابن حزم أن الأشعرية يقولون بقول جهم هذا

ذلـــك هـــو مبلغ الاضطراب الذى وقع فيه كتّاب المقالات ومؤرخو الفرق فى تاريخهم للمرجـــئة ومقالاتها ، ونحن نعتقد أن مفتاح الخروج من هذا الاضطراب هو فى إدراك الطابع السياسى لنشأة فكرة الإرجاء وفرقتهم ، وأن غياب الاهتمام بهذا الطابع هو الذى أشاع ذلك

الخلط بين تيارات الإرجاء فلقد بدت عقائد المرجئة مجرد أبحاث دينية فى الإيمان والكفر وعلاقة العمـــل الصالح بالإيمان ، بينما كانت السياسة والصراعات من حول السلطة هى التى أفرزت فكر المرجئة وتياراقما المختلفة ، ومن ثم فلا سبيل إلى فهمهم إلا إذا وضعناهم فى الإطار الذى نشـــأوا فيه وأبصرنا تياراقم على ضوء الظروف السياسية التى بلورقما . لقد نشأ الإرجاء أول مـــا نشـــأ فى عهـــد بنى أمية وأول من قال به هو الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب أى الحسن بن محمد بن الحنفية (٩٩هـــ أو ١٠٠هـــ) فلقد روى أنه أول من قال بالإرجاء وأنه كتب بذلك كتابًا كان يقرأ نيابة عنه فى الأمصار ، فهل كانت قضية دينية تتعلق بالإيمان القلبى وعلاقته بالعمل تلك التى يكتب حولها الحسن بن محمد رسالة تقرأ عنه فى الأمصار ؟ إن الأمر الـــذى يلـــيق بالمـــنطق أن الأمر يتعلق بالسياسة وقضاياها المثارة فى ذلك الحين .. والقاضى عـــبد الجبار يقول عن الحسن بن محمد – الذى كان أستاذًا لغيلان الدمشقى – : (ولم يكن مخالفًـــا لأبيه محمد بن الحنفية وأخيه أبو هاشم أستاذ واصل ابن عطاء إلا فى شئ من الإرجاء أظهره) ويقول عنه ابن سعد : (إنه كان من ظرفاء بنى هاشم وأهل العقل منهم ، وكان يقدّم عـــلى أخـــيه أبي هاشم فى الفضل والهيئة ، وهو أول من تكلم فى إرجاء) ويقول المقريزى : (وكـــان الحسن بن محمد بن الحنفية يكتب كتبه إلى الأمصار يدعو إلى الإرجاء) . ثم يردف قوله هذا بالنص الهام عن طبيعة ومعنى الإرجاء الذى كان يدعو إلى الحســـن بن محمد فيقول : (إلا أنـــه لم يؤخر العمل عن الإيمان كما قال بعضهم ، بل قال : أداء الطاعات وترك المعاصى ليس من الإيمان لا يزول بزوالها) فهو نوع متميز إذن من الإرجاء .. لقد كانت أفكار الشيعة التى تغلو فى علي وآل البيت كرد فعل لمحنة آل علي قد بدأت فى الانتشار وكاتن تفضيل علي على الخلفـــاء الثلاثة : أبي بكر وعمر وعثمان قد بدأ مع ابن سبأ وزاد أنصاره والقائلون به ، كما بدأت أفكار الشيعة عن الوصية والنص ومحاولاقم صبغ الإمامة بالصبغة الدينية تظهر وتتحول إلى كتب ومصنفات ، وعلى الجانب الآخر كان الخوارج قد حوّلوا موقف علي السياسى من التحكـــيم إلى كفـــر شرك ، أو كفر نعمة ، وكذلك صنعوا مع عثمان بعد الأحداث فنقلت الخوارج والشيعة القضية التى ابتلى بها المسلمون من إطار السياسة إلى إطار الدين ، ومن دائرة الصـــواب والخطأ فى شئون الحكم ، إلى أحكام يصدروها على العقائد تتعلق بالكفر والإيمان . وكـــان الحســـن بن محمد بن الحنفية من بيت يرفض الغلو فى هذه القضية وسواها . فأبوه قد

وضعها فى إطارها السليم عندما أشار إلى دور الصراع القبلى فيها فقال : (نحن أهل بيتين من قريش نتخذ من دون الصراع القبلى لله أندادًا ، فنحن وبنو أمية أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أندادًا من دون الله : نحن وبنو عمنا هؤلاء – يعنى بنى أمية –) وكان قد رفض مزاعم البعض عن أنه هو (المهدى) بالمعنى الشيعى لفكرة المهدى ، كما رفض ما نسبوه إلى أهل البيت من الاختصاص بعلم موروث لا يعلمه غيرهم من الناس ، ولذلك فإننا نرى أن (الإرجاء) الذى أظهره الحسن بن محمد بن الحنفية كان ذا طابع سياسى دعاية إلى التمييز ما بين قضايا العقيدة واستخدام أحكام الكفر والإيمان ، وما بين قضايا السياسة والإمامة بالذات . فهذه هى القضايا التى تكتب فيها الكتب كى تقرأ فى الأمصار . ونحن إذا نظرنا فى نوع الإرجاء الذى قال به غيلان الدمشقى والذى أخذه عن أستاذه الحسن بن محمد بن الحنفية اتضح لنا الفرق بين هذا الإرجاء وغيره مما قال به آخرون . فغيلان كان يرى الإمامة فى قريش وغيرها ، فكان يرى (أنها تصلح لغير قريش وكل من كان قائمًا بالكتاب والسنة كان مستحقًا لها وأنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة) ويستفاد من رأيه هذا أنه لم يكن يفضل عليًا على أبى بكر وعمر وعثمان ، بل يؤخره عنهم بل إن اشتراط الإجماع فى الأمة لإثبات الإمامة يتضح فى صحة إمامة علي وثبوتها ، لأن الخلاف عليه سواء بالمعارضة أو اعتزال الفتنة وأطرافها كان قائمًا منذ اليوم الأول لتوليه الخلافة ، وهذا الموقف قد وقفه كثير من المعتزلة والقدرية ، بل إن محمد بن الحنفية والد الحسن قد اشترط على من طلبوا منه أن يبايعوه بالإمارة على عهد ابن الزبير ، وعبد الله بن مروان قد اشترط لقبوله الإمارة ألا يختلف عليه واحد من الأمة . فهذا الموقف الذى يؤخر عليًا عن الخلفاء الثلاثة ويرتب فضلهم حسب ولايتهم الأمر وهو موقف سياسى نرى أنه هو ذلك النوع من الإرجاء الذى قال به الحسن بن محمد وغيلان ، والذى اشتهر عن الغيلانية أصحاب مروان . وفى (الكافى) نص هام يشهد لهذا التفسير يقول : (وقد تطلق المرجئة على من أخر أمير المؤمنين عليًا عن مرتبته) ، فالقدرية وهم أسلاف المعتزلة قد قالوا بالوعد والوعيد واتفقوا فيه كأصل من أصولهم العامة والهامة ، وهو الأصل الذى يتنافى مع الفصل ما بين الإيمان والعمل . أما الأمر الذى تفاوتت فيه اجتهاداتهم وآراؤهم فهو الحكم على أحداث الفتنة التى وقعت فى صدر الإسلام وترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل ، وهو معنى الإرجاء عند من قال منهم بالإرجاء ، إنه موقف سياسى بلور موقفًا وقولاً بالإرجاء

ذا طابع سياسى كذلك . وأصحاب هذا الموقف والقول كانوا فى صفوف المعارضة للأمويين .

وتيار ثان من تيارات الإرجاء نشأ هو الآخر نشأة سياسية وفى إطار الصراع ضد سلطة بنى أمية ومظالمهـا قال أصحابه : إن الإيمان تصديق بالقلب ولا تأثير للعمل على هذا الإيمان ، فأخّروا العمل وفصلوه عن الإيمان وقالوا : إنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة عـلى ما هو مشهور من مقالتها ، ومع قولهم هذا بالإرجاء قالوا أو قال أغلبهم بالجبر ، وأبرز عناصـر هذا التيار جهم بن صفوان (المتوفى سنة ١٢٨هـ سنة ٧٤٥م) وفرقته الجهمية .

وتـيار الإرجـاء هذا قد نشأ هو الآخر نشأة سياسية وفى خضم الصراع ضد سلطة الأمويين ومظالمهم ، ففى خراسـان موطن ظهور هـذا التيار كان يتولى أمرها سـنة ١١٠هـ الوالى (أشرس) ، وكان يبغى نشر الإسلام بين مواطنيها الذين كانوا لا يزالون على الكفر والوثنية ، فأقام هيئة للدعوة إلى الإسلام ترأسها أبو الصيداء صالح ابن طريف مولى بنى ضبة الذى استعان بالربـيع بـن عمران التميمى لإجادته الفارسية . واشترط أبو الصيداء على الوالى أن تسقط الجزية عمن يدخل فى الإسلام – وكان الأمويون يأخذون الجزية ممن أسلم باستثناء فترة حكم عمر بن عبد العزيز ، وتعهد الوالى لأبى الصيداء بذلك ، فدخل أهل خراسان فى دين الإسلام أفواجـًا ، وبنيتْ المساجد فيها . فشكا عامل الخراج (غوزك) إلى الوالى أشرس قلة حصيلة الجـزية وقال له : (إن الخراج قد انكسر) وكان بعض دهاقين خراسان وأثريائها قد ساءهم انكسـار الخراج لما فى زيادته من منافع لهم يقتسمونها مع ولاة بنى أمية ، ولما فى إلاسلام عامة مـن الناس من تحول قومى عن تراثهم الذى يقدسه ويتمسك به ولو سرًا هؤلاء الدهاتين .. فشكوا إلى الوالى (أشرس) وقالوال له : (ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربًا) إذ كـان الإسلام والعروبة فى نظرهم شيئًا واحدًا . وعند ذلك تراجع الوالى عن وعده بإسقاط الجزية عمن أسلم ، وفى تراجعه هذا وضع (مواصفات) للإيمان السليم الذى تعترف به الدولة وتسـقط الجـزية عن صاحبه ، فكتب إلى عامل الخراج (ابن أبى المعرطة) يقول : (إن فى الخراج قوة للمسلمين) وقد بلغنى أن أهل (السندْ) وأشباههم لم يسلموا رغبة ، وإنما دخلوا فى الإسـلام تعوذًا من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه . فهو هنا قد وضع للإسلام الذى تعترف به الدولة ويعترف به عامل الخراج عدة شروط :

- أن يكــون صــاحبه مختتنًا . والذين كانوا يسلمون لم يكونوا أطفالاً ولا صبية حتى يسهل عليهم يومئذ الاختتان .
- وإقامــة الفــرائض تتطلــب مستوى أعلى من مستوى أدائها ، فالأداء أسهل من الإقامة بما لا يقاس كما يقول الإمام محمد عبده .
- وحسن الإسلام شرط يصعب وضع المقاييس الدالة على بلوغ إسلام المرء حده ودرجته .
- وقراءة سورة من القرآن بالنسبة لقوم لا يعرفون العربية هو نوع من التعجيز . ومعنى هذه الشــروط التى وضعتها الدولة للإسلام الذى تعترف به أنها قد ربطت بين الإيمان كعقيدة والأعمال التى تصدر عن المؤمن وجعلت العمل شرطًا لصحة الإيمان ، ولم تؤخر العمل عن الإيمان أو تفصل بينهما ، وهنا يصبح الإرجاء بمعنى تأخير العمل عن الإيمان والفصل بينهما موقفًــا وفكــرًا سياسيًا يعارض موقف الدولة الأموية ، بل يصبح فكرًا ثوريًا يتحدى تلك المفاهــيم الــتى ابتدعــتها الدولة كى تجعل من الإيمان والكفر مسائل يستفتى فى صحتها وفســادها عمــال الخــراج ، بدلاً من أن تكون رقابتها والإطلاع عليها من الأمور التى لا يعلمها إلا الله . وعندما كتب عامل الخراج إلى الوالى : (ماذا نصنع والناس قد أسلموا وبــنوا المساجد) أجابه بقوله : (خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه) وعندما بلغ الأمر هــذا المبلغ خرج على سلطان الدولة من أهل (السعد) الذين أسلموا حديثًا سبعة آلاف وعسكروا على سبعة فراسخ من سمرقند ، ولحق بهم من القراء والفقهاء كل الذين أنكروا صــنيع الدولــة معهــم ، مثل : أبو الصيدان صالح بن طريف وربيع بن عمران التميمى والقاســم الشيبانى وأبو فاطمة الأذى وبشر بن جرموز الضبى وخالد بن عبد الله النحوى وبشير بن زنبور الأزدى وعامر بن بشير الخجندى وبيان العنبرى وإسماعيل بن عقبة وثابت قطــنة لينصــروا هؤلاء الذين أسلموا حديثًا . وفى بخارى تكررت الصورة ولجأ المسلمون الجــدد إلى المسجد الجامع يصيحون بأعلى أصواتهم : (أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورســوله) ولم يصحح الولاة إسلامهم بل شنقوا منهم أربعمائة ، ولم يشفع إسلامهم عند الــولاة أن الذيــن فــروا من الموت فى هذه المذبحة لم يرتدوا عن الإسلام ، بل ثبتوا على الإيمــان به .وفى البصرة تكررت المأساة عندما أمر الولاة بإجلاء الوالى عن المدينة وإعادتهم إلى قــراهم الأصلية فخرجوا وعسكروا فى العراء يبكون وينادون : يا محمداه . وخرج إلى

معسكرهم قراء البصرة يبكون معهم وينتصرون لهم . وكانت تلك هى المظالم التى دفعت عظيم الأزد الحارث بن سريج إلى الثورة والخروج على هشام بن عبد الملك سنة ١١٦هـ ، وهى الثورة التى كان وزيره الأول فيها وكبير دعاته الذى يقص ويخطب ويقرأ سيرة الثورة والثوار : الجهم بن صفوان . كانت إذن ثورة المرجئة التى خرجت تدعو إلى الفصل بين الإيمان والعمل لأن الربط بينهما كان يعنى تحكم عمال الخراج وجباة الجزية فى عقائد الذين دخلوا حديثًا فى دين الله ، ومن هنا كانت نشأة هذا التيار من تيارات الإرجاء نشأة سياسية كما كان موقف دعاته وأنصاره موقفًا سياسيًا عارض بالثورة المسلحة سلطة بنى أمية وسيرهم فى ظلم الناس . وما يدعو تفسيرنا هذا لدلالة تيار الإرجاء أن ثورة المرجئة هذه بعد أن استولى جيشها على (الفاريات) و (بلخ) و(الجوزجان) و (الطاقان) و (مرو الروذ) هزم هذا الجيش فى (مرو) فانسحب الحارب بن سريج مع الجهم بن صفوان وثلاثة آلاف من جنده إلى بلاد الترك واعتصموا بها اثنى عشر عامًا خارجين على سلطة بنى أمية ، وعندما انتصرت ثورة القدرية الغيلانية الذين يمثلون تيارًا فى الإرجاء وقتلت الوليد بن يزيد ونصبت بدلاً منه يزيد بن الوليد سنة ١٢٧هـ بعث يزيد بن الوليد بالإمان إلى الحارث بن سريج ورجاله فعادوا إلى (مرو) من جديد ، ولما انتكست ثورة القدرية هذه بعد موت يزيد ابن الوليد وتولى مروان بن محمد الخلافة توجس الحارس بن سريج خيفة ، لأن مروان لن يجدد له الأمان الذى أعطاه إياه يزيد ، وعاد الحارث إلى الثورة وطلب أن يعود الأمر (شورى) وأن تغير العمال وتعزل الشرطة وأن يشارك الناس فى اختيار الولاة ، ورفضت مطالبه وتطورت الأحداث إلى قتال قتل فيه هو والجهم بن صفوان . وهكذا كان القدرية الغيلانية يقولون بالقدر والاختيار ، وكان الجهم بن صفوان وفرقته يقولون بالجبر المحض ، ولكن الإرجاء كان لدى التيارين موقفًا سياسيًا يناصب ظلم بنى أمية العداء ، فقارب بينهما هذا الموقف السياسى رغم الاختلاف العميق بينهما فى أمور هى من صميم الدين . وأول من قال بالإرجاء المحض معاوية وعمرو بن العاص .. كانا يزعمان أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، ولذلك قال معاوية لمن قال حوله : حاربت من تعلم وارتكبت ما تعلم فقال : وثقت بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ كما يتحدث فى مواطن أخرى عن فسق معاوية – وما تظاهر به من الخبر والإرجاء – فالإرجاء هنا يعنى الفصل بين الإيمان والعمل ، وتأخير العمل عن الإيمان كما

هـــو معناه عند الجهم بن صفوان ، ولكن الجهم كان يضع هذا المبدأ وهذه العقيدة وذاك الموقف فى صف المستضعفين الذين يئنون من ظلم الحاكم ، وأما معاوية وعمرو بن العاص ومن وقف موقفهما فى الإرجاء فإنهم يبررون السلطة والجور ، ويدفعون إدانة الخوارج لهم بالكفر لارتكابهم الكبائر ، وإدانة المعتزلة لهم بالفسق ، وإدانة الحسن البصرى لهم بالنفاس . فتـــيار الإرجـــاء نشأ نشأة سياسية وعاش فى خضم الأحداث التى ولدت الصراعات على السلطة فى ذلك التاريخ . وإذا كانت هذه هى العلاقة بين الإرجاء والسياسة فإن القول بأن (هذا المذهب لم يكن ينظر إلى أحداث السياسة الجارية فى عصره ، ولم يكن يقصد أن يبرر سياسة الحكومة القائمة) هو قول بعيد عن الصواب ، فالإرجاء كان دائمًا موقفًا سياسيًا ، وهـــو عـــند البعض كان تبريرًا لسياسة الحكومة القائمة ، وعند البعض كان موقفًا فكريًا وعمليًا ضد مظالم هذه الحكومة ، ومن هنا نستطيع أن نفهم كلمة الخليفة المأمون التى قال فـــيها (إن الإرجاء دين الملوك) فلقد كان مراده ، أن الإرجاء الذى يبرر للسلطة هو دين الملوك اللازم لجورهم وجبروتهم ، ولم يكن مراده (إنه مذهب التسامح) كما فهم البعض ، فلقد كان المأمون على مذهب أهل العدل والتوحيد ، ولم يكن يقول بالإرجاء . وكان يعلم أنـــه قـــد كان مذهب معاوية وبنى أمية ، ومن ثم فلا يستساغ أن يمدح خصومه الفكريين والسياســـيين . تلـــك هى نشأة المرجئة السياسية وعلاقة ظهورها وظهور الإرجاء بقضية الإمامة وصراعات السلطة التى دارت حولها فى صدر الإسلام وعلى عهد الأمويين .



٨ـ الأباضيــة

ورد فى الملل والنحل للشهرستانى ص ١٣٤ – ١٣٥ الجزء الأول ما يلى :

أصــحاب عبد الله بن أباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد ، فوجه إليه عبد الله بن محمد بن عطية ، فقاتله بتبالة وقيــل إن عبد الله بن يحيى الأباضى كان رفيقًا له فى جميع أحواله وأقوالــه قال : إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حــلال وغنــيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وما سواه حرام . وحرام قتلهم وسبيهم فى السر غيلة ، إلا بعد نصب القتال ، وإقامة الحجة .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ، وقالوا فى مرتكبى الكبائر : إنهم موحدون لا مؤمنون ثم اختلفوا فى النفاق : أيسمى شركًا أم لا ؟ قالوا : إن المنافقين فى عهد رسول الله (ﷺ)كانوا موحديــن ، إلا أنهم ارتكبوا الكبائر ، فكفروا بالكبيرة لا بالشرك وقالوا : كل شىء أمر الله تعالى به فهو عام ليس بخاص وقد أمر به المؤمن والكافر وليس فى القرآن خصــوص . وقالوا : لا يخلــق الله تعالى شيئًا إلا دليلاً على وحدانية ، ولابد أن يدل به واحدًا . وقال قوم منهم : يجــوز أن يخلق الله تعالى رسولاً بلا دليل ويكلف العباد بما أوحى إليه . ولا يجب عليه إظهار المعجزة ، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يخلق دليلاً ، ويظهر معجزة وهم جماعة متفرقون تفرق الثعالبة والعجاردة .

وأباضــية اليوم إحدى فرق الخوارج المعتدلين وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة يسكنون ساحل عمان .

وتقوم عقائدهم على الآتى :

١ – صفات البارى سبحانه وتعــالى هل هى هو ؟ أم هى غــيره ؟ فمذهب الأباضــية أن صفاته الذاتية هى ذاته لا بشىء زائد عليه . ووافقهم على هذا العلامة ابن العربى الأندلسى المالكى ، وقال لا فرق بين قول القائل : إن صفات الله غيره ، وبين قول اليهود : إن الله فقير ، إلا تحسين العبارة .

٢ – خلود الفاسق الذى مات غير تائب فى النار ، ووافقهم على هذا السعد من المالكية، وقيل : إنه من الشافعية ، ونص كلامه فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

٣ – شفاعة النبى (ﷺ) لا تكون لمن مات مصرًا غير تائب ، إنما الشفاعة لمن مات على صغيرة ، أو مات وقد نسى ذنبًا أن يتوب منه ، أو لزيادة درجة فى الجنة ، أو لتخفيف الموقف على المؤمنين وإراحتهم منه إلى الجنة لقوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ . وقوله عليه الصلاة والسلام لعشيرته : لا أغنى عنكم من الله شيئًا ، يا عباس ، وياصفية ، ويا فاطمة ، الحديث : « لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم » .

٤ – القول برؤية البارى سبحانه فى الدار الآخرة ، فالأباضية يمنعون ذلك ، والمنع قول عائشة من الصحابة وقتادة والزمخشرى وغيرهم من المعتزلة والشيعة . والحجة قوله تعالى : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ .

٥ – قول من قال : إن القرآن غير مخلوق . فعند المحققين من الأباضية أنه مخلوق . إذ لا تخلو الأشياء إما أن تكون خالقًا أو مخلوقًا ، وهذا القرآن الذى بأيدينا نقرؤه مخلوق لا خالق لأنه مُنزل ومتلو ، وهو قول المعتزلة والعلم غير المعلوم .

٦ – نفى التشبيه عن الله سبحانه وتعالى ، فبهذا يقول الأباضية ، وكل ما ورد مما يوهم التشبيه فهو مؤول بما يليق به ، كقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ فأثبت عيونًا كثيرة . وقال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ فدللت هذه الآيات على أنها غير مراد ظاهرها .

٧ – قولهم فى مرتكب الكبيرة إنه كافر كفر نعمة ، أخذًا من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فكل من لم يحكم بما أنزل الله وهو مستطيع فهو كافر ، وكل تارك للحج وهو مستطيع فهو كافر بنعمة الله التى أنعم عليه من الاستطاعة .

٨ – قولهم فى أصحاب النبى (ﷺ) إنهم كغيرهم فى الأعمال لا فى درجات الصحبة والمنزلة الأخروية . فالعاصى منهم كغيره من بعدهم كقوله تعالى : ﴿ لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ وقوله تعالى عند ذكر بيعة الرضوان : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وقد رجم رسول الله (ﷺ) الزانى منهم وجلد الشارب وقطع يد السارق منهم وهجر عاصيهم وقوله : لو سرقت فاطمة ابنتى لقطعتها ، ووافقهم على هذا المعتزلة وهو رأى الصحابة أنفسهم فى بعضهم وهم أسوة .

٩ – براءتهم من العاصى وهى هجرانه وبغضه على معصيته ، وهى مأخوذة من فعل النبى (ﷺ) فى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وأحاديث المحبة والبغض للمطيع والعاصى .

١٠ – أنهم يؤمنون بالقضاء والقدر أنه من الله ، وأن الخير والشر خلق من الله وكسب من العباد ، وهم يوافقون أهل السنة فى هذا ، والحجة قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ ، ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

١١ – أنهم لا يرون لزوم الإمامة فى قريش وهو قول الأنصار وعمر بن الخطاب وأبى ذر من الصحابة ، واختاره العلامة الشنقيطى صاحب أضواء البيان وغيره من العلماء .

١٢ – أنهم يوجبون الاستنجاء بالماء بعد البول والغائط ، والخلاف معهم فى الاستجمار وهو مأخوذ من قوله تعالى فى وصف أهل قباء : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

١٣ – أنهم لا يقولون بالمسح على الخفين ، وأن الصلاة لا تجوز به والمنع مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ .

١٤ – أنهم يبطلون الصلاة بالقنوت فيها ، ومنه قول (آمين) مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ وقول النبى (ﷺ) : « صلاتنا هذه لا يصلح فيها شىء من كلام الآدميين » .

١٥ – أنهم لا يرون رفع الأيدى مع وبعد تكبيرة الإحرام ولا ضمها إلى الصدر ، إذ لم يثبت معهم هذا من فعل النبى (ﷺ) .

١٦ – أنهم يوجبون القصر فى الصلاة لمن تعدى فرسخين عن وطنه مسافرًا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع والذراع ذراع المسافر ، وقيل الأوسط ، والذراع من العظم الذى يكون من خلف متصلاً بالعضد إلى آخر الإصبع الوسطى .

١٧ – أنهم يفسدون صيام من أصبح جنبًا عملاً بقول النبى (ﷺ) : « من أصبح جنبًا أصبح مفطرًا » .

١٨ – قولهم بتحريم نكاح المزنى بها لمن زنى بها عملاً بقوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وبأحاديث كثيرة رواها جابر بن زيد وغيره عن النبى (ﷺ) والصحابة .

١٩ – أن الرضاع قليله وكثيره يحرم التزاوج وهو ظاهر القرآن ولم تصح معهم الأحاديث المروية بتحديده ، وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وابن المبارك ووكيع وغيرهم من التابعين كما قال الترمذى .

٢٠ – انهم لا يحكمون باليمين والشاهد للمدعى وهو قول أبى حنيفة والثورى والأوزاعى عملاً بالآيات : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾ والأحاديث المروية فى ذلك لم تصح معهم . وما صح فمؤول .

٢١ – ومن ذلك أنهم يحرمون حلق اللحية ، وقد اجمع على توقيرها الصحابة ونهى رسول الله (ﷺ) عن حلقها ، وقال : جزوا الشوارب وأعفوا اللحى وخالفوا المجوس ، وفى رواية وخالفوا أهل الكتاب ، وفيه تشبه بالنساء .. ونهى النبى (ﷺ) عن التشبه بهن ، وفيه : أن توقيرها من الخصال العربية التى أمر رسول الله (ﷺ) بالمحافظة عليها بقوله : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، واللحية عربية والحلق أعجمى .

٢٢ – تحريمهم شرب الدخان أخذًا من قوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ وهو مـــن الخبائــث .. وقال المبعوث محمد (ﷺ) بتحريمها ، وقد اتفق الأطباء على أنه مضرة ، وتجنـــب المضـــرة واجب شرعًا وعقلاً ، وفيه إضاعة للمال ، وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن إضاعة المال .



٩ ـ الزيـــدية

هــذه الفرقة هى أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكثر اعتدالاً ، وهى لم ترفع الأئمــة إلى مرتبة النبوة ، بل لم ترفعهم إلى مرتبة تقاربها بل اعتبروهم كسائر الناس ، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله (ﷺ) .

ولم يكفروا أحدًا من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، وخصوصًا من بايعهم علي رضى الله عنه ، واعترف بإمامتهم .

وإمــام هــذه الفرقة زيد بن علي زين العابدين ، وقد خرج على هشام ابن عبد الملك بالكوفة فقتل وصلب .

وقد كان الإمام زيدًا رضى الله عنه ملتزمًا الطاعة لا يخرج عن الجماعة ولا يخالف ، فقد كان منصرفًا إلى العلم ، كانت لــه صــلات وثيقة بعلماء عصره فأخذوا عنه ، فقد اتصل به « واصل بن عطاء » وأخذ عنه . واتصل به « أبو حنيفة » وأخذ عنه ، وكان يميل هذا إليه ، ويتعصب له ويقول فى خروجه لقتال جند الأمويين : ضاهى خروجه خروج رسول الله (ﷺ) يوم بدر .. والإمام زيد إمام فقيه ومتكلم ، وله فى الفقه كتاب المجموع .

و « الــزيدية » لا يؤمــنون بــأن الإمام الذى أوصى به النبى (ﷺ) قد عيّنه بالاسم والشخص بل عرّفه بالوصف ، وأن الأوصاف التى عرفت تجعل الإمام عليًا رضى الله عنه هو الإمــام مــن بعده لأن هذه الأوصاف لم تتحقق فى أحد بمقدار تحققها فيه . وهذه الأوصاف توجــب أن يكــون هاشمــيًا ورعًا تقيًا عالمًا سخيًا يخرج داعيًا لنفسه ، ومن بعد علي يشترط أن يكون فاطميًا أى من ذرية السيدة « فاطمة » رضى الله تعالى عنها .

ويــرى زيــد جواز إمامة المفضول ، فالصفات التى ذكرها للإمام ليست هى الصفات الواجب توافرها لصحة الإمامة ، بل هى صفات الإمام الأمثل الكامل ، وهو أولى بها من غيره، فإن اختار أهل الحل والعقد فى الأمة إمامًا لم يستوف بعض هذه الصفات وبايعوه صحّت إمامته ولزمت بيعته .

وعـلى ذلـك الأصل أقر الإمام زيد إمامة الشيخين أبى بكر وعمر ولم يكفر أحدًا من الصحابة وقال فى ذلك « إن علي بن أبى طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لأبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية رأوها من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ».

ومن مذهب الزيدية جواز مبايعة إمامين فى إقليمين ، بحيث يكون كل واحد منهما إمامًا فى الإقليم الذى خرج فيه مادام متحليًا بالأوصاف التى ذكروها ، ومادام الاختيار كان حرًا من أولى الحل والعقد .

والـزيديون يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلّد فى النار ، ما لم يتب توبة نصوحة ، وهم قد نهجوا فى ذلك منهج المعتزلة، وذلك لأن زيدًا كانت له صلة بواصل بن عطاء رأس المعتزلة، وقد كانت تلك الصلة سببًا فى بغض بعض الشيعة له .

وبعد مقتل زيد قام من بعده يحيى ولكنه قتل ، ثم قام من بعده محمد الإمام وإبراهيم ابنا عبد الله بن حسن وبعد ذلك ضعف المذهب الزيدى وانطوت صفحته .



١٠ـ المذاهب الفقهية

ظهــر التشريع فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وانتهى فى منتصف القرن الرابع الهجرى (مائتين وخمسون سنة) ويميز هذا العصر بنشاط حركة التشريع ، ثم ظهور المذاهب الفقهية .

وقــد ســاعد على ظهور حركة التشريع فى هذا الوقت المجتهدون من الأئمة والقضاة ، فتكونــت الملــكة التشــريعية عند بعضــهم أمثال أبى حنيفــة ومالك بن أنس والشــافعى وأحمــد بــن حنبل وغيرهم ، ثم بدأ بعد ذلك ظهور الحركة العلمية فى بحوث الدين والفلك والرياضــة ... إلخ . واســتتبع انتشار حركة الإسلام والرحلات العلمية اتساق أفق المسلمين وتأثرهم بالثقافات المختلفة وبلغ الاجتهاد مداه ، وبدأ عصر تدوين العلوم وتدريسها وكانت مصــادر التشــريع تقوم على القرآن والســنة والاجتهاد ، وعقب ذلك بدأ تدوين المذاهب المختلفة ، ولكل مذهب أنصار وأتباع .

(أ) مذهب الإمام أبى حنيفة :

ولد الإمام أبو حنيفة النعمان سنة ٨٠ هجرية ، وتفقه بالكوفة وبها أسس مذهبه ، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠هـــ .

تلقى العلم عن حماد بن أبى سليمان ، وهذا تلقى عن إبراهيم النخعى ، وإبراهيم أخذ عن علقمة بن قيس ، تلميذ عبد الله بن مسعود ، وكان ابن مسعود يميل إلى الاجتهاد بالرأى ، فلما أرسله عمر إلى الكوفة وجد بها مرتعًا خصيبًا ، نمى فيه هذا الميل ، وقوى عنده ملكة استنباط الأحكــام ، لأنــه وجد بالعراق مسائل كثيرة لم يكن له بها عهد بالمدينة وأحداثًا جزئية كانت تتجدد كل يوم ، فكان لابد من عرض هذه المسائل والأحداث على قواعد الشريعة لاستنباط الأحكام التى تناسبها ، وقد سار على طريقه تلاميذه الذين تلقوا العلم عنه ، ثم من تلقى عنهم، فانتشــر الاجــتهاد بالرأى فى العراق ، ومهر فيه علماؤه ، وساعد على ذلك قلة الأحاديث فى هــذا الإقليم ، ولهذا سمى علماء العراق أصحاب الرأى ، كما سمى علماء المدينة أصحاب الحديــث ، لأن المدينة كانت مهبط الوحى وموطن النبى (ﷺ) ، وموطن أصحابه من بعده ، وكانــت مركــز الخلافة مدة أبى بكر وعمر وعثمان ، وهذا جعل لها ميزة خاصة فى انتشار الحديــث بها لكثرة ما فيه من الصحابة المتفقهين والذين رأوا فعل النبى (ﷺ) وسمعوا منه ،

وقـــد مهـــر أبو حنيفة فى الفقه ، واشتهر فى العراق ، وشهد لـــه بعلو مقامه فى الفقه مالك والشافعى وكثير من علماء وقته ، وصحب أبا حنيفة فريق من العلماء تلقوا مذهبه عنه ودونوه وعرفوا بأصحاب أبى حنيفة ، ثم تفرغ جماعة منهم لدراسة المذهب والبحث فى مسائله وأصوله العامـــة فخـــالفوه فى بعـــض هذه المسائل ، واشتهر من هؤلاء أبو يوسف ومحمد بن الحسن والحســـن بن زياد وزفر ، ودونت بعد ذلك أقوال الإمام وأقوال أصحابه الذين خالفوه مختلفه مع بعض وسمى الكل مذهب أبى حنيفة ، وذلك لأن مذهبه هو الأصل ، والمسائل التى خالفوه فـــيها قليلة ، وقد نتجت من اجتهادهم فى التطبيق على أدلة مذهبه ، وقد قسم علماء الحنفية مســـائل الفقه عندهم إلى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى : مسائل الأصول . والطبقة الثانية : مسائل النوادر وغيرها . والطبقة الثالثة : الفتاوى والواقعات .

أما مسائل الأصول وتسمى ظاهر الرواية : فهى التى رويت عن أبى حنيفة وأصحابه أبى يوســـف ومحمـــد والحســـن وزفر وغيرهم ممن أخذ الفقه عنه ، لكن الغالب فى هذه المسائل أن تكون قول الإمام وصحابيه أبى يوسف ومحمد ، أو قول بعضهم وقد جمع الإمام محمد هذه المســـائل فى كتـــب ستة تسمى ظاهر الرواية وهى : المبسوط والجامع الصغير والجامع الكبير والـــزيادات والســـير الصغير ، بخلاف مسائل النوادر الآتى الكلام عنها ، هذه الكتب جمعها الحـــاكم الشهيد المتوفى سنة ٣٣٤هـ فى كتاب واحد سماه الكافى ، ثم شرح الكافى بعد ذلك محمد بن محمد بن أبى سهل السرخسى المتوفى سنة ٤٩٠هـــ فى كتابه المبسوط .

أم مســـائل النوادر : فهى التى رويت عن أبى حنيفة وأصحابه فى كتب أخرى غير كتب ظاهـــر الـــرواية كالهارونيات ، والجرجانيات ، والكيسانيات ، للإمام محمد ، وككتاب المجرد للحسن بن زياد .

أمـــا الفـــتاوى والواقعات : فهى المسائل التى استنبطها المجتهدون المتأخرون من علماء الحنفية لما سئلوا عن هذه المسائل ولم يجدوا فيها رواية عن أهل المذهب المتقدمين ، وأول كتاب عـــرف فى هـــذا الموضـــوع كتاب النوازل للفقيه أبى الليث السمرقندى ، وقد شاع مذهب أبى حنيفة فى كثير من بلاد الإسلام كبغداد وبلاد فارس والهند وبخارى واليمن ومصر والشام وغيرهـــا ، وأول من نقله إلى مصر القاضى الحنفى إسماعيل بن اليسع الكوفى عندما ولى قضاء مصر من قبل المهدى سنة ١٦٤هـــ ، ولكنه لما كان يذهب إلى أبطال الأحباس ثقل أمره على

أهل مصر ، وقالوا إنه أحدث لنا أحكامًا لا نعرفها ببلدنا ، فعزله المهدى ولكن المذهب انتشر بعد ذلك ، فإن الإمام أبا يوسف لما ولى القضاء فى عصر الرشيد بعد سنة ١٧٠هـ وصار أمر توليه القضاة بيده كان لا يولى ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر وبعض بلاد أخرى إلا من أشار به ، وكان لا يولى إلا من كان مذهبه ، فاضطرت العامة إلى تعرف أحكام القضاء وفتاوى أهل الرأى من علماء المذهب ، ولهذا انتشر المذهب فى هذه البلاد انتشارًا عظيمًا ، وسيأتى أن مذهب الإمام مالك انتشر بالأندلس بسبب تمكين يحيى بن يحيى بن كثير من الحكم المرتضى بن هشام الملقب بالمنتصر ، ولهذا قال ابن حزم : (مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان الحنفى بالمشرق ، والمالكى بالأندلس) وقد بقى مذهب أبى حنيفة فاشيًا فى مصر مدة تمكن الدولة العباسية منها ، ولكن لانتشار مذهبى مالك والشافعى لم يكن القضاء مقصورًا على الحنفية بل كان يتولاه حنفيون تارة ومالكيون أو شافعيون تارة أخرى ، وقد بقى الحال كذلك إلى أن غلبت الدولة الفاطمية على مصر سنة ٣٥٨هـ ، فولوا القضاة من الشيعة ، فظهر مذهبهم بمصر ، وصار هو المعول عليه فى الفتوى والقضاء ، أما العبادات : فقد أبيح للناس أن يتبعوا فيها أى مذهب من مذاهب أهل السنة ، ولكن فى مدهم خبا مذهب أبى حنيفة لأنهم كانوا يغضون منه ، وقد استظهر بعض الباحثين أن ذلك ناشئ من أنه مذهب الدولة العباسية المناوئة لهم فى الشرق ، وهو استظهار وجيه . ولما أنقرضت الدولة الفاطمية وتولى على مصر الأيوبيون سنة ٥٦٧هـ عادت مذاهب أهل السنة إلى الظهور ، وبنى صلاح الدين الأيوبى المدرسة السيوفية بالقاهرة لتدريس مذهب أبى حنيفة ، وفى سنة ٦٤١هـ بنى الصالح نجم الدين أيوب مدرسة الصالحية بالقاهرة ، ورتب بها دروسًا أربعة للمذاهب الأربعة ، وهو أول من أحدث هذا النوع من المدارس بمصر ، ومع أن مذهب الحنفية قد عاد إلى الانتشار بمصر مدة الأيوبيين فإن القضاء كان خاصًا بمذهب الشافعى ، ولكن كان للقاضى الشافعى نواب من الحنفية والملكية والحنابلة ، وبعد انتهاء دولة بنى أيوب من مصر صار القضاء فى المذاهب الأربعة فى عهد الظاهر بيبرس ، وبعد أن استولى العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣هـ جعل القضاء مقصورًا على الحنفية اتباعًا لمذهب الدولة ، فرغب فيه كثير من أهل العلم طمعًا فى تولى القضاء ، ولايزال القضاء والإفتاء مقصورًا على الحنفية إلى الآن ، أما المذهب فأكثر انتشاره فى المدن ، أما أفريقية فكان الغالب على أهلها السن إلى أن قدم إليها عبد الله بن فروخ أبو محمد الفارسى فنقل إليها مذهب أبى حنيفة ، ثم انتشر بها لما ولى قضاءها

أســد بن الفرات بن سنان ، وكان قد تفقه على أصحاب أبى حنيفة ، وبقى مذهب أبى حنيفة فاشــيًا فى أفريقــية حتى ولى أمرها المعز بن باديس سنة ٤٠٧هـــ ، فحمل الناس على مذهب مــالك ، وكــان قد نقل المذهب إلى بلاد الأندلس وبقى بها إلى أن تغلب عليه مذهب الإمام مــالك ، وذكــر المقدسى فى أحسن التقاسيم حكاية لسبب تغلبه نقلاً عن بعض أهل المغرب وذلــك أن الفــريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يومًا أمام السلطان فقال لهم : من أين كان أبــو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة فقال : ومالك ؟ قالوا من المدينة قال : عالم أهل المدينة يكفينا ، وأمــر بإخــراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان ، ولا يزال مذهــب أبى حنــيفة موجودًا ببلاد أفريقية (الجزائر ، وتونس ، وطرابلس) ولكن المقلدين له قليلون ، وهم من بقايا الأسر التركية ، وأكثرهم فى تونس ، وأسرة البيت المالك فى تونس من الأحناف ، ولهذا امتازت عاصمتها بأن بها القضاء الحنفى مشاركًا للقضاء المالكى ، بخلاف ســائر الجهــات الأخــرى فإن القضاء بها مالكى وبأن بها أيضًا كبرى المفتيين وهما الحنفى ، وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع ويلقب بشيخ الإســلام ، والمالكى وله المقام الثانى ، وأيضًا جرت العادة بأن يكون نصف مدرســى جامع الزيتون من الأحناف والنصــف الثانى من المالكية .. أما البلاد الأخرى التى ذكرنا أن مذهب أبى حنيفة انتشر بها فقد نقل إلى بعضها فى مبدأ ظهوره ونقل إلى البعض الآخر فى أزمنة مختلفة ، إما لذهاب العلماء من الحنفية فى هذه الــبلاد ونشــر مذهبهم بها ، وإما لأن سلطان القضاة والمفتين من الحنفية الذين تولوا القضاء والإفــتاء بها قضى على الأهالى باتباع مذهبهم ، وإما لأن فريقًا ممن ينتمون إلى المذهب انتقلوا إلى بلد واستوطنوه فتكاثروا مع بقائهم محافظين على مذهبهم ، وإما لغير ذلك من الأسباب ، وعــلى الجملــة فإن أتباع هذا المذهب منتشرون فى أكثر ممالك المعمورة وفى الغالب فى بلاد العــراق والشــام والهند والأفغان والتركستان – الشرقية والغربية – والقوقاز والغالب على الأتــراك العثمانــيين والألبانــيين وســكان البلقان ويقدر أتباعه فى الهند بنحو ٤٨ مليونًا ، وفى البرازيل بأمريكا الجنوبية بنحو ٢٥ ألف مسلم مذهبهم حنفى .

ســجن الخليفة المنصور أبا حنيفة وعذبه بسبب رفضه لولاية القضاء وقوله (والله ما أنا بمــأمون الرضــا فكيف أكون مأمون الغضب) ولم تشفع أعوامه السبعين لــه حتى أخرجوه من السجن بعد أن دسوا له سمًا بطيئًا حتى مات .

(ب) مذهب الإمام مالك :

الإمام مالك هو : أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحى إمام دار الهجرة وأجل علمائها ، ولد سنة ٩٣هـ وتوفى سنة ١٧٩هـ ونشأ بالمدينة وفيها تلقى العلم عن ربيعة الرأى ورحل إلى خيار التابعين من الفقهاء وأخذ عنهم وسمع الزهرى ونافعًا مولى ابن عمر وغيرهما من رواة الحديث ومازال يدأب فى تحصيل العلم وجمع الحديث حتى صار سيد فقهاء الحجاز وشهر ذكره فى البلاد ، ولما حجّ المنصور اجتمع به وأشار عليه بأن يدوّن فى كتاب ما ثبت عنده من مسائل العلم ، فألّف كتابه الموطأ فى الحديث والفقه ، فلما جاء المهدى حاجًا سمعه منه وأمر له بخمسة آلاف درهم ثم رحل إلى الرشيد مع أولاده وسمعه منه وأغدق عليه الخير الكثير ، ويظهر أن الموطأ وقع من نفس الرشيد موقع الإعجاب ، ولهذا حاول أن يعلقه فى الكعبة ويحمل الناس على مافيه لولا أن راجعه فى ذلك الإمام مالك .

روى أبو نعيم فى الحلية عن مالك بن أنس قال: شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلّق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على مافيه ، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله (ﷺ) اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب ، فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله .. وقد روى الموطأ عن مالك كثير من العلماء ورواه عنه محمد بن إدريس الشافعى ومحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة .. ومن أجل أصحابه الذين تفقهوا عليه ورووه عنه عبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وقد صحبه كل منهما لحو عشرين سنة ، وقد دوّنا مذهبه مع غيرهما من أصحابه ونقلوه إلى أمصار الإسلام ثم نقله عنهم غيرهم ممن تلقاه عنهم من العلماء وهكذا أخذ ينتشر حتى غلب على مصر وأفريقيا والأندلس والمغرب الأقصى فى الغرب ، كما غلب على البصرة وبغداد وغيرهما من بلاد الشرق ، وإن كان قد ضعف أمره بعد ذلك .. وبنى الإمام مالك مذهبه على الأصول الأربعة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وذكر ابن خلدون أنه اختصّ بمدرك آخر للأحكام وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبى (ﷺ) الآخذين ذلك عنه . وأول من أدخل فقه مالك إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامى من أصحاب مالك المصريين ، وعبد الرحمن بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح ، وكان فقيهًا روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالإسكندرية سنة

١٦٣هـ ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم وأشهب ابن عبد العزيز وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين ومن فى طبقتهم فاشتهر بها أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بها .

وصارت المذاهب الثلاثة : الحنفى والمالكى والشافعى تتداول القضاء بمصر حتى غلب الفاطميون عليها فأبطلوا العمل بمذاهب أهل السنة كما سبق ذكره . وفى زمن الدولة الأيوبية عاد مذهب مالك إلى الظهور وبنيت لفقهائه المدارس ، ففى سنة ٥٦٦هـ بنى لهم صلاح الدين المدرسة القمحية وفى سنة ٦٤١هـ رتب الصالح نجم الدين أيوب فى مدرسته الصالحية بالقاهرة دروسًا أربعة للمذاهب الأربعة ، ثم كثر هذا النوع من المدارس بعد ذلك ثم فى دولة المماليك البحرية جعل الظاهر بيبرس القضاة أربعة بعد أن كان القضاء مقصورًا على الشافعية فى الدولة الأيوبية ، ومن ثم عاد القضاء للمذهب المالكى استقلالاً ، وكان قاضيه فى المرتبة الثانية بعد الشافعى ، ومع أن القضاء قصر على الحنفية فى الدولة العثمانية ولا يزال مقصورًا عليهم إلى الآن فإن مذهب مالك بقى حافظًا مركزه فى الشهرة والذيوع إلى الآن ، وأكثر انتشاره فى الصعيد وكان أهل الأندلس ملتزمين مذهب الأوزاعى أدخله بها صعصعة بن سلام لما انتقل إليها ، وبقى مذهبه غالبًا بها حتى أدخل مذهب مالك إلى الأندلس زياد بن عبد الرحمن القرطبى الملقب بشبطون بعد أن لقى الإمام مالكًا وأخذ عنه فقهه ، وذلك فى زمن هشام بن عبد الرحمن (١٧١ – ١٨٠هـ) فمن ثم أخذ مذهب مالك فى الانتشار والتغلب على مذهب الأوزاعى . وشبطون أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس مكملاً متقنًا ، وقد تلقاه عنه يحيى بن يحيى بن كثير ، وبعد أن أخذه عنه حج وسمعه من الإمام مالك إلا أبوابًا منه ، ثم أخذ عن ابن وهب وابن القاسم وغيرهما كثيرًا من العلم ، وعاد إلى الأندلس فاشتهر أمره وتفقه عليه كثير من أهل الأندلس ، واختص به الحكم بن هشام الملقب بالمنتصر (١٨٠ – ٢٠٦هـ) فنال من الرياسة والسلطان مالم ينله غيره ، وصارت الفتيا إليه فكان لا يقل قاض فى سائر أعمال الأندلس إلا بإشارته واعتنائه ، ولا يقلد إلا من كان على مذهب مالك ، فاتبع الناس مذهبه وتركوا مذهب الأوزاعى ، ولم تنته المائة الثانية من الهجرة حتى أخذ الأوزاعى فى الزوال ثم لم يلبث أن تقلص ظله بالأندلس ، وساد المذهب المالكى ، ويظهر أن ثلاثة أسباب اجتمعت فكان لها أكبر أثر فى انتشار مذهب مالك بالأندلس وسيادته فى أرجائها :

الأول : مـــا ذكر فى نفح الطيب وغيره من أن الأمير هشام بن عبد الرحمن قد نقل إليه مـــا عليه الإمام مالك من سعة العلم وجلالة القدر والتقوى وأنه عندما سمع بسيرته من بعض الأندلســـيين قـــال لهم : نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم فأحب مالكًا ومذهبه وحمل الناس على اتباعه .

الـــثانى : مـــا حصل فى زمن الحكم بن هشام من تمكن يحيى بن يحيى منه وجعله القضاء والإفتاء فى الأندلس مقصورًا على المالكية ، فقد جعل هذا الناس يتفقهون على مذهب مالك رغـــبة فـــيما عند السلطان من الوظائف وحرصًا على طلب الدنيا ، لأنه ما كان يتولى الفتيا أو القضـــاء فى المـــدن والقـــرى إلا من تسمّى بالفقه على مذهب مالك ، وقد جرى العامة أثر الخاصة فى ذلك اتباعًا لأحكام القضاة وفتاوى العلماء .

الثالـــث : أن أهل الأندلس كانت تغلب عليهم البداوة ، وأهل الحجاز كانوا كذلك ، ولما كان مذهب مالك قد نشأ فى وسط الحجاز ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها فكان أوفق لطبيعة الأندلسيين ومزاجهم الفطرى .

وكـــان الغالب على أهل أفريقية المذهب الحنفى إلى أن ولى سحنون بن سعيد التنوخى قضـــاء أفريقـــية بعد أسد بن الفرات فنشر فيها مذهب مالك ، وصار القضاء فى أصحابه ، ولما تولى المعز بن باديس على أفريقية سنة ٤٠٧هـــ حمل أهلها وأهل ماوالاها من بلاد المغرب على المذهب المالكى وترك ما عداه من المذاهب الأخرى فاستمرت له الغلبة على إفريقية وعلى سائر بلاد المغرب ، وفى زمن دولة بنى تاشفين بالمغرب الأقصى والأندلس كان على بن يوسف بن تاشفين ثانى أمرائهم (٥٠٠ – ٥٣٥هـــ) يقدم أهل الفقه ويؤثرهم على غيرهم ، ولم يكن يقـــرب منهم ويحظى عنده إلا من كان عنده علم مذهب مالك ، وكان لا يقطع أمرًا فى جميع مملكـــته دون مشاورة الفقهاء ، وألزم القضـــاة بأن لا يبتوا حكمًا فى صـــغير الأمور وكبيرها إلا بمحضـــر أربعـــة مـــن الفقهاء ، فدرست فى زمنه كتب مذهب مالك ، وعمل بمقتضاها ، ونـــبذ ما سواها ، وفى زمن دولة الموحدين بالمغرب جمع الناس على مذهب مالك فى الفروع عـــبد المـــؤمن بـــن على ثانى خلفـــائهم (٥٢٤ – ٥٥٨هـــ) ولكن فى زمن حفـــيده يعقـــوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ – ٥٩٥هـــ) انقطع علم الفروع وأمر بإحراق كتب مذهب مالك بعد أن يجرد مافيها من القرآن والحديث ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد

كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبى زيد ومختصره والتهذيب للبرادعى وواضحة بن حبيب وغير ذلك من الكتب ، وأمر بجمع أحاديث من الصحيحين والترمذى والموطأ وسنن أبى داود والنسائى والبزار والدارقطنى والبيهقى ومسند ابن أبى شيبة فى الصلاة وما يتعلق بها فكان يملى هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ، ويجعل لمن يحفظه الجعل السنى من الكسى والأموال ، وكان على مذهب أهل الظاهر ولهذا عظم أمر الظاهرية فى مدته بالمغرب ، ولكـــنهم كانوا مغمورين بالمالكية ، ورغمًا عما حصل فإن مذهب المالكية بقى غالبًا على بلاد المغرب الأقصى ولا يزال كذلك إلى اليوم ، وهو الغالب أيضًا على الجزائر وتونس وطرابلس ولا يكاد يوجد فى هذه الأقاليم من مقلدى غيره إلا الحنفية بقلة على الصفة التى سبق ذكرها ، وأشهر الكتب التى اعتمد عليها أهل الأندلس وأفريقية بعد كتاب الموطأ كتاب الواضحة ألفه عــبد المــالك بن حبيب بعد أن رحل من الأندلس وأخذ فقه مالك عن ابن القاسم وطبقته ، وكتاب العتبية ألفه العتبى تلميذ ابن حبيب .

هذا فى الأندلس ، أما فى أفريقية فقد كتب أسد بن الفرات عن ابن القاسم كتابًا فى سائر أبــواب الفقه وسمّاه الأسدية بعد أن قرأ مذهب أبى حنيفة وانتقل إلى مذهب مالك فقرأه عليه سحنون ، ثم رحل إلى المشرق وأخذ عن ابن القاسم وعارضه بمسائل الأسدية ، فرجع عن كثير مــنها وكتــب ســحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب ســحنون ، فــأنف مــن ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون . وقد لخص المدونة أبو سعيد البرادعى من فقهاء القيروان فى كتابه التهذيب الذى اعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخــذوا به وتركوا ما سواه ، كذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العقبية وهجروا الواضحة ومــا ســواها ثم أخــذ علماء المذهب يتناولون المدونة والعتبية بالشرح والإيضاح بما شاءوا أن يكتوبا ، فكتب على المدونة ابن يونس واللخمى وابن محرز وغيرهم من علماء أفريقية وكتب عــلى العتبــية بن رشد وأترابه من علماء الأندلس ، ثم جمع ابن أبى زيد جميع ما فى الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال فى كتابه النوادر فاشتمل على جميع أقوال (ابن خلدون) .

هكذا ما كان من شأن مذهب مالك فى المغرب ، أما فى المشرق فقد نقل إلى بغداد وظهر بها ظهورًا واضحًا وزاحم فيها مذهب أبى حنيفة ، ولكن أنصاره صاروا قلة بعد القرن الرابع ونقــل أيضًــا إلى البصــرة وبقــى بها إلى القرن الخامس ثم ضعف شأنه بها ولا يزال به بقية

من مقلديه فى بلاد العراق إلى الآن ، كذلك مقلدوه على قلة اليوم فى أرض الحجاز وفلسطين وقـد انتشر باليمن ثم تلاشى ، وهو المذهب الغالب الآن فى أرض الكويت وقطر والبحرين ، وأكـثر أهل السنة فى الإحساء مالكية وحنابلة أما فى مصر فيغلب على أهل الصعيد كما أنه غالب على أهل السودان .

وفى عهـد الخلـيفة المنصـور عذبوا وضربوا الإمام مالك فى السجن حتى انخلع كتفه ثم ألزموه بيته لا يخرج منه إلا للصلاة حتى توفى .

(جـ) مذهب الإمام الشافعى :

هـو أبو عبد الله بن إدريس الشافعى القرشى ولد بغزة سنة ١٥٠هـ وتوفى بمصر سنة ٢٠٤هـ حفظ القرآن بمكة وبها تعلم اللغة والشـعر وفنون الأدب وعلوم القرآن والحديث والفقه ، وكان فى ذلك موضع إعجاب شيوخه من فرط ذكائه وشدة فهمه .. ومن مشهورى العلماء الذين تلقى عنهم العلم : سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجى ، ولما قارب العشرين من عمره انتقل إلى المدينة وكان قد سمع بالإمام مالك وعلو مقامه فى العلم فذهب إليه وتلقى عـنه فقهه ، ثم رحل إلى العراق ولقى أصحاب الإمام أبى حنيفة وأخذ عنهم فقههم ، ورحل إلى بلاد فارس وشمال العراق وكثير من البلاد ، ثم عاد إلى المدينة بعد أن قضى سنتين فى هذه الـرحلة من سنة ١٧٢ إلى سنة ١٧٤هـ وقد زادته هذه الرحلة علمًا ومعرفة بشئون الحياة وطبائع الناس ، وبعد أن توفى الإمام مالك سافر إلى اليمن مع واليها وأقام بها ملازمًا الإمام يحيى بـن حسـان ومتفرغًا لتدريس العلم وإفادته فاشتهر أمره بها ، ثم وشى به إلى الخليفة هارون الرشـيد فـأخذ إلى بغداد ، وهناك ظهرت براءته وعرف فضله وعلمه فأغدق عليه الرشيد الخـير الوفير ، فأقام ببغداد يدرس العلم وينشر مذهبه فأقبل عليه الناس أفواجًا يأخذون عنه وقد أتم فى مدة إقامته بها كتابه القديم أو مذهبه القديم ثم عاد إلى مكة وفيها تفرغ لنشر مذهبه فـتلقاه عـنه بعض العلماء الوافدين إلى الحج ، ونقلوه إلى بلادهم ، وفى سنة ١٩٨هـ قدم إلى مصـر مـن بغداد بعد أن ذهب إليها وأقام بها شهرًا ، وأقام بمصر حتى توفى ، وقد كان الشـافعى فى مـبدأ أمـره يعد من أتباع مالك لأنه أخذ عنه مذهبه وأملى الموطأ على بعض الوافديـن إلى المديـنة من علماء الأمصار ، ولما رحل إلى العراق وقرأ كتاب الأوسط للإمام أبى حنـيفة ودرس مذهبه ومذهب أصحابه ورأى فى العراق من الأحداث والقضايا ما لم يره

فى الحجاز استجدت له آراء تخالف آراءه الأولى المالكية ، وتتفق هذه الأحداث الجديدة وما ألفه الناس فى بلاد العراق ولهذا ألف مذهبه (القديم) وخالف فى كثير من مسائله مذهب أستاذه الإمام مالك وذكر ابن خلدون أن الإمام الشافعى رحل إلى العراق من بعد مالك ولقى أصحاب الإمام أبى حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقه أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختصّ بمذهب وخالف مالكًا رحمه الله فى كثير من مذهبه ، ولما جاء الشافعى إلى مصر واستقر بها دون مذهبه الجديد ورجع عن بعض الأحكام التى كانت له بالقديم ، ويظهر لنا أنه تأثر بالبيئة المصرية وما كان فيها من نظم وعادات ، خاصة وقد وجد لمن تقدموه من العلماء بمصر فتاوى خاصة بأحوال المصريين لم يكن اطلع عليها من قبل ، فرجع عن بعض آرائه العراقية إلى ما يخالفها من الأحكام .

قدم الشافعى مصر وكان الغالب على المصريين المذهب المالكى والمذهب الحنفى فنشر مذهبه بها ودون كثيرًا من الكتب منها : كتابه (الجديد) وكان يدرس فيه مذهبه بمسجد عمرو بن العاص ، وكتاب الأم والأمالى الكبرى والإملاء الصغير وكتاب الرسالة وغير ذلك من الكتب ، ووضع بمصر علم أصول الفقه وهو أول من وضعه ودونه وتلقى عن الشافعى مذهبه كثير من العلماء وكتبوا عنه ما ألفه وعملوا بما ذهب إليه ومن أشهرهم محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم وأبو إبراهيم إسماعيل ابن يحيى المزنى وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى والربيع الجيزى كذلك أخذ عنه أشهب وابن القاسم من أصحاب الإمام مالك ولم يزل مذهب الشافعى يقوى بمصر وذكره ينتشر حتى استولت على مصر دولة الفاطميين فأبطلت العمل به مع باقى المذاهب الأربعة كما سبق ذكره ، وفى الدولة الأيوبية عادت القوة والنشاط لمذهب الشافعى لأنه كان مذهب الأيوبيين وقد اختص بالقضاء لأنه مذهب الدولة ، وبنى صلاح الدين لعلماء الشافعية سنة ٥٦٦هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو وهى أول مدرسة بنيت بمصر ولما كملت وقف عليها الصاغة وكانت بجوارها .

وفى سنة ٥٧٢هـ بنى بجوار قبر الإمام الشافعى المدرسة الصلاحية لتدريس مذهبه بها ، ووقف عليها جزيرة الفيل وأوقافًا أخرى ، وكانت أعظم المدارس فى ذلك العهد سعة وعمرانًا، وقد وصف فخامتها ابن جبير فى رحلته وقال (إنه يخيل من يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته) وهذه المدرسة هى التى بنى مكانها الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٥هـ مسجد الإمام

الشـــافعي الـــذى انتهـــت عمارته أخيرًا إلى الشكل الموجود عليه الآن ، وفى سنة ٦٠٨هـــ بـــنى الملك الكامل ابن الملك العادل ابن أيوب القبة العظيمة التى على ضريح الإمام الشافعي وصـــفحها بالرصـــاص وأنفق عليها خمسين ألف دينار مصرية ، وبقى مذهب الشافعي مختصًا بالقضـــاء بمصـــر فى الشطر الأول من عصر دولة المماليك البحرية حتى أحدث الظاهر بيبرس القضـــاة الأربعة وجعل لكل قاض التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب النواب وميز الشافعي باستقلاله بتوليه النواب فى سائر بلاد القطر ، كما خصه بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف وجعل له المرتبة الأولى بين باقى القضاة ، واستمر الحال كذلك فى باقى مدة هذه الدولة ودولة المماليك الثانية حتى جاء العثمانيون فقصروا القضاء على الحنفى .

وأول مـــن أدخـــل مذهب الشافعي الشام القاضى الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشـــقى المتوفى سنة ٣٠١هـــ على بعض الأقوال ، وكان المذهب الغالب على أهل الشام مذهب الأوزاعى فلما ولى أبو زرعة القضاء حكم به ونشره بين الناس وكان يعطى من يحفظ مختصـــر المزنى مائة دينار ومن عصر أبي زرعة أخذ علماء الشافعة يكثرون حتى غمروا الشام بمذهـــب إمـــامهم ، وذكر المقدسى فى أحسن التقاسيم أن الفقهاء بإقليم الشام فى زمنه – أى فى القرن الرابع – كانوا شافعية قال (ولا ترى مالكيًا ولا داووديًا) وانتشر مذهب الشافعي بمـــا وراء النهر بمحمد بن إسماعيل القفال الكبير الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥هـــ وكان الغالب على بغداد مذهب أبي حنيفة ثم زاحمه فيها مذهب الشافعي ، وقد نشره فيها بنفسه كما ذكرنا واستمر ظاهرًا ببغداد بمن كان بعد الشافعي من علماء مذهبه ، ومن أشهرهم الحسن بن محمد الزعفـــرانى المـــتوفى ســـنة ٢٦٠هـــ . والذى أدخل مذهب الشافعي إلى مرو أحمد بن سيار ثم أظهـــره بها الحافظ عبد الله ابن محمد بن عيسى المروزى وقد حمل ابن سيار كتب الشافعي إلى مرو فأعجب بها الناس ، ولما أراد عبد الله أن ينسخها أبى عليه ذلك ، فباع ضيعة له وخرج إلى مصـــر فأدرك الربيع الجيزى وغيره من أصحاب الشافعي فنسخ كتب الشافعي ورجع بها إلى مرو وأظهر كتبه بها فعرف الناس مذهبه ثم توفى فى سنة ٢٩٣هـــ .

وأول مـــن أدخل مذهب الشافعي وتصانيفه إلى إسفرايين أبو عوانه يعقوب بن إسحاق النيسابورى الإسفراييني صاحب الصحيح المستخرج على مسلم ، وقد أخذ فقه الشافعي عن الربـــيع والمـــزنى وتوفى سنة ٣١٦هـــ ، ونقل مذهبه إلى غزنة وخراسان على يد وجيه الدين

أبي الفتح محمد بن محمود المروزى فقد اتصل بغياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان ، وكان على مذهب الكرامية وأوضح له مذهب الشافعى وبين له فيه فساد مذهب الكرامية فصار شافعيًا ، وذلك فى سنة ٥٩٥هـ ، ثم بنى بغزنة مسجدًا للشافعية وبالغ فى مراعاتهم .

وعلى الجملة فإن مذهب الشافعى انتشر فى أهم البلاد الإسلامية فى بلاد الشرق ، وانتقل منها إلى ما عداها من الممالك والأمصار ، وهو الآن غالب على الصعيد من القطر المصرى وغالب على فلسطين وبلاد الكرد وأرمينية ، وأكثر أهل السنة بفارس شافعية ومسلمو جزيرة سيلان وجزائر الفلبين ومسلمو الجاوة وما جاورها من الجزائر ومسلمو الهند الصينية واستراليا شافعية ، وأهل عسير شافعية والسنيون فى اليمن وعدن وحضرموت شافعية ، عدا عدن فإن بها بعض حنفية ، وهو غالب على الحجاز مع مذهب أحمد بن حنبل ويتبعه نحو الربع من مسلمى الشام ، ويلى مذهب أبى حنيفة فى الانتشار فى بلاد العراق ، ويوجد بقلة فى جهات أخرى غير ما ذكر ويتبعه فى الهند نحو مليون مسلم .

وقد توفى الإمام الشافعى بعد أن انفرد به بعض المجرمين فى السجن وانهالوا عليه ضربًا وسبًا حتى سقط مغشيًا عليه ثم نقل إلى منزله ومات .

(د) مذهب الإمام أحمد بن حنبل :

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيبانى ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ وتوفى سنة ٢٤١هـ طلب العلم صغيرًا ثم رحل فى طلبه إلى الشام والحجاز واليمن وسمع من سفيان بن عيينة وطبقته ، ولازم الإمام الشافعى مدة إقامته ببغداد ، وقد قال فى حقه (خرجت من بغداد وما خلفت فيها أوقر ولا أزهد ولا أروع ولا أعلم من أحمد بن حنبل) وقد روى عن الإمام أحمد خلق كثير منهم جماعة من شيوخه ، ومنهم البخارى ومسلم ، وقد صنف كثيرًا من الكتب قيل إنها بلغت اثنى عشر جَمَلاً وله كتاب المسند الكبير أعظم المسانيد وأحسنها وضعًا وانتقاءً فإنه لم يدخل فيه إلا ما يحتج به ، وقد انتقاه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، وكتب من أقواله وفتاويه أكثر من ثلاثين سفرًا وجمع الخلال نصوصه فى الجامع الكبير فبلغ نحو عشرين سفرًا ، وكان فى فتاويه شديد التحرى لفتاوى الصحابة فيما لا نص فيه حتى إنهم إذا اختلفوا فى المسألة على قولين جاء عنه فيها روايتان ، وقد بنى مذهبه على أربعة أصول مرتبة على الوجه الآتى :

الأول : النص فإذا وجد فى المسألة نص من الكتاب أو السنة الصحيحة أفتى بموجبه ، ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائنًا من كان ، ولهذا لم يلتفت إلى قول عمر فى المبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس ولا إلى قول ابن عباس ، وإحدى الروايتين عن علي فى أن عدة المتوفى عنها زوجها الحامل أبعد الأجلين لصحة حديث سبيعة الأسلمية ، ولا إلى قول معاذ ومعاوية فى توريث المسلم من غير المسلم لصحة الحديث المانع من التوارث بينهما .

الثانى : ما أفتى به الصحابة : فإذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف له مخالف منهم فيها لم يعدها إلى غيرها ، ولم يقل إن ذلك إجماع ، وإنما كان يقول لا أعلم شيئًا يدعه ، أما إذا اختلفوا تخيّر من أقوالهم ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة ، ولم يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فى المسألة ولم يجزم بقول أحد .

الثالث : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن فى الباب شيء بدفعه ، وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا ما فى روايته منهم ، بل المراد به ما كان من أقسام الحسن ، فإذا لم يجد فى الباب أثرًا يدفعه ولا قول أحد من الصحابة ولا إجماعًا على خلافه ، كان العمل به أولى من القياس ، وهو الأصل الرابع ، فإنه لا يصير إلى القياس عنده إلا الضرورة .

هذه هى الأصول التى بنى عليها الإمام أحمد مذهبه ، وكان يتوقف فى الفتوى أحيانًا إذا تعارضت الأدلة عنده أو لاختلاف الصحابة فى المسألة أو لعدم اطلاعه فيها على أثر أو قول أحد من الصحابة أو التابعين ، وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها نص أو أثر عن السلف ، ويظهر أن تشدد الإمام أحمد فى أن يكون فى الحادثة نص أو أثر وتحرجه من الفتوى فيما ليس فيه نص أو أثر أوقف مذهبه من الانتشار فى أقطار الأرض كغيره من المذاهب الأخرى ، فإن أصحابه من بعده كانوا يتحرون أقواله فى فتاويهم ولا يتعدونها ، بخلاف أهل المذاهب الأخرى فإنهم اجتهدوا فى مذاهب أئمتهم اتباعًا لتجدد الحوادث وأحيانًا كانوا يخالفونهم فى الفروع استنباطًا من قواعد أصولهم ، ولهذا كان الحنابلة فى الجهة التى ظهر فيها مذهبهم قليلين ، والجهات التى كثر فيها أتباعه صغيرة فى جانب غيرها من الممالك والأصقاع التى انتشر فيها غيره من باقى المذاهب الأربعة ، قال ابن خلدون (وأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته فى معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض ، وأكثرهم

بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظًا للسنة ورواية (لحديث) وكان أول ظهـور المذهـب ببغداد موطن الإمام أحمد ، ثم انتقل إلى غيرها من البلاد ، وقد كثر أصحابه بـبغداد وقـوى أمرهم فى القرن الرابع ، فقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٣هـ أنهم قـد عظـم أمرهم وقويت شوكتهم فصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبيذًا أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ، ومشى الرجال مع النساء والصبيان ، فإن رأوا من يفعل ذلك سألوه عن الذى معه من هو ؟ فأخرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأرهبوا بغداد .

وقـد ركـب صـاحب الشرطة الخرشنى ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد الـبربهارى الحـنابلة ألا يجتمع منهم اثنان ولا يتناظروا فى مذهبهم ، فلم يفد فيهم ذلك وزاد شرهم بأن أغروا العميان الذين كانوا يغشون المساجد بإيذاء الشافعية فكانوا يضربونهم ضربًا مبرحًا ، ولم تهدأ هذه الفتنة إلا بعد أن صدر مكتوب الراضى بالتشنيع على آرائهم ومعتقداتهم، وتوعدهم بالقتل والتشريد وإحراق دورهم .. وقد حصلت بينهم وبين الشافعية فتنة فى بغداد أيضًـا فى سنة ٤٧٥هـ ذكرها ابن الأثير فى حوادث هذه السنة مما دل على أنه كان لا يزال إلى ذلـك الوقت فريق كبير منهم ببغداد ، ومع أن المذهب كان ظاهرًا فى بعض بلاد العراق الأخـرى فإنه مع مرور الزمان غمرته المذاهب الأخرى كالشافعى والحنفى حتى صار أصحابه الآن قلـيلين فى جمـيع نواحى العراق ، أما فى مصر فقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أنه لم يسمع بخبر الحنابلة بمصر إلا فى القرن السابع وما بعده ، وذلك لأن الإمام أحمد رضى الله عنه كان فى القرن الثالث ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وفى هذا القرن ملك العبـيديون مصـر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفيًا وتشريدًا ، وأقاموا مذهـب الرفض والشيعة ولم يزولوا منها إلا فى أواخر القرن السادس ، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب وأول إمام من الحنابلة علم حلوله بمصر : الحافظ عبد الغنى المقدسى صاحب العمدة .

وما ذكره السيوطى إنما هو بالنسبة للعلماء الظاهرين من الحنابلة ، أما غيرهم من مقلدى المذهب ومتبعى أحكامه فهؤلاء كانوا موجودين بمصر زمن الدولة الفاطمية ومدة الأيوبيين قبل عصر المقدسى فقد ذكر المقدسى أن الفتيا بمصر فى مدته كانت على مذهب الفاطميين ، ولكن

المذاهب الأخرى كانت موجودة ظاهرة بالفسطاط – وفى صبح الأعشى (أن الفاطميين كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح فى الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم فى ذلك ، ومذاهب مالك والشافعى وأحمد ظاهره الشعائر فى مملكتهم بخلاف مذهب أبى حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه) وفى خطط المقريزى (أنه لم يكن فى الدولة بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ، ثم اشتهر مذهبهما فى آخرها) وسبق أن قلنا : إنه كان للحنابلة نائب عن القاضى الشافعى مدة الأيوبيين ، وأنه فى زمن الظاهر بيبرس جعل القضاة أربعة من المذاهب الأربعة ، واستمر الأمر كذلك حتى جاء العثمانيون فقصروا القضاء على الحنفية ، وخلاصة ما ذكر أن مذهب الإمام أحمد كان ظاهرًا بمصر مدة الفاطميين والأيوبيين ودولة المماليك الأولى والثانية ، وإنما كان أتباعه قليلين وهم لا يزالون قليلين إلى الآن ، وأظهر ما يكون مذهب الإمام أحمد فى نجد فإن النجديين حنابلة ، وهو الغالب على الحجاز مع المذهب الشافعى ، والغالب على أهل السنة بالأحساء مع مذهب مالك ، ومذهب الشافعى هو الغالب على فلسطين ويليه الحنبلى ، ونحو الربع من أهل السنة بالشام حنابلة وله أتباع قليلون فى قطر والبحرين من النازحين إليهما من نجد .

وقد اختلف الإمام ابن حنبل مع الخليفة المأمون الذى عارضه وقال بخلق القرآن وتوفى المأمون وابن حنبل فى طريقه إليه فأمر الخليفة المعتصم بحبسه منفردًا ومقيدًا بالأغلال معذبًا بالضرب بالسياط حتى مات بعد سنتين وهو فى الستين من عمره .

ثانيًا : الفرق الإسلامية الحديثة

١ - الوهابية

ولـــد محمد بن عبد الوهاب ومات قبل أن تبدأ الجولة الحديثة فى الصراع العربى الغربى بحملة بونابرت .

فهو ولد (١١٠٥هـ - ١٧٠٠م) وتوفى (١٢٠٦هـ - ١٧٩٢م) .

وقـــد نشأ فى بيئة نجد العربية البدوية التى ظلت بمعزل عن التأثيرات العربية والحضارية إلى حـــد كـــبير ، والتى استمرت فى الامتداد لبساطة الحياة العربية البدوية القديمة فلم تهضم أو تعـــرف العلـــوم أو الفنون التى أثمرتها احتكاكات العرب الأوائل بالأمم التى فتحوا بلادها وصراعات الإسلام السلفى والبسيط مع الأبنية الفكرية والديانات التى تحدته وتحداها بعد إنجاز الفتوحات ، وكان ابن عبد الوهاب سليل أسرة من الشيوخ والفقهاء أخذ عنهم فقه الإسلام الواضـــح والبسيط . وعندما رحل إلى المدينة طلبًا لمزيد من العلم تقبل ما وافق بساطة البادية ورفـــض ما نحا نحو الفلسفة وجدل علماء الكلام ، فلما ذهب إلى البصرة ومن أخرى غيرها أنكـــر مـــا رآه أو سمعه فيها من بدع وخرافات ومن علوم لا تتفق مع النمط الفكرى الذى اســـتراحت إلـــيه نفسه والذى كان الامتداد لإسلام العرب فى بداوتهم الأولى قبل نشأة علم الكـــلام وتـــرجمة الفلسفة اليونانية وتأثر المسلمين بما لشعوب البلاد المتنوعة من عادات وقيم وعقـــائد وأنمـــاط فى السلوك وهو الإسلام السلفى البسيط الذى اعتصم أمام التطور وعلومه بـــتلك الحصون الفكرية التى صنعها كوكبة من العلماء ، أشهرهم أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـــ / ٧٨٠ - ٨٥٥م) وابـــن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) وابـــن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ / ١٢٩٢ - ١٣٥٠م) . ومن هنا كان التحدى الأول والأساســـى الذى نهض لمواجهته ابن عبد الوهاب ، هو ما طرأ على الإسلام كما فهمه

العرب الأوائل ، وكما وعته البيئة العربية فى ظهور بداوتها من بدع وإضافات ومحدثات ، سواء أكانـت ولـيدة الخرافة والشعوذة أو ثمرة للمجتمعات المتمدنة ذات الحياة الفكرية المعقدة ، أو مـزيجًا مـن هذين المصدرين معًا . وكانت السلطة (المملكة العثمانية) قد أهملت فى علم الإسـلام السنى ، العلوم العقلية إهمالاً شديدًا وملأت الفراغ الفكرى الذى نشأ بعد ذهاب الدولـة الفاطمـية ومؤسساتها (بالطرق الصوفية) التى أخذت من التصوف نسكه وشكله وطقوسه ، وطرحت فلسفته وعقلانيته ، فبعد أن كان التصوف العقلانى يعنى ضمن ما يعنى ، عند الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى إنكار الوسائط بين الإنسان والذات الإلهية والنهى عن أن (يتوسـل أحـد إلى الله بغيره) لأن التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وهو قد أخبرنا أنه قريب : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي ﴾ .. بعد هذا وجدنا الطرق الصوفية قد ملأت طريق المسلم إلى ربه بالوسائل والوسائط والحواجز والأبواب الـتى لابد من سلوك (الطريق) لعبورها وصولاً إلى الله .. ووجد ابن عبد الوهاب بالإسلام السلفى البسيط كما وعاه وبطبيعة البيئة البدوية البسيطة التى نشأ فيها أن الزمن قد عاد سيرته الأولى وأن (الشـرك) قـد تسـرب إلى عقائد المسلمين ، وأنهم قد غدوا يتخذون من هذه الوسـائط والوسائل (زلفى) يتقربون بها إلى الله الواحد ، وأنهم قد عادوا إلى موقف الجاهلية الأولى عندما اتخذوا الأوثان وسائط تقربهم إلى الله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ .. فحكـم الرجل على أولئك الذين سلكوا هذه السبل بالشرك لأنهم وإن (وحدوا الألوهية) إلا أنهـم (أشـركوا فى العبادة) عندما اتخذوا الوسائل كى تقربهم إلى ذات الإله الواحد .. بل لقد رأى فى شرك معاصريه كفر أعظم من ذلك الذى قاتل الرسول (ﷺ) بسببه أصحاب الجاهلـية العربية الأولى ، لأن معاصريه يلجأون إلى وسائطهم فى السراء والضراء ، على حين كـان مشركوا الجاهلية الأولى لا يلجأون إليها إلا فى السراء ، ومن ثم فقد قرر بعد أن حكم بكفـرهم وشركهم أن قتالهم واجب بحكم وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل من يؤمن بالله . وكتب فى أحد رسائله يقول (إن كفر المشركين من أهل زماننا أعظم كفرًا من الذيـن قاتـلهم رسول الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُم الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ . فقد سمعتم أن الله سبحانه ذكر عـن الكفـار أنهم إذا مسهم الضر تركوا السادة والمشايخ ولم يستغيثوا بهم ، بل أخلصوا لله وحـده لا شـريك له ، واستغاثوا به وحده فإذا جاء الرجاء أشركوا ، وأنت ترى المشركين

من أهل زماننا ، ولعل بعضهم يدعى أنه من أهل العلم ، وفيه زهد واجتهاد وعبادة ، وإذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله ، مثل معروف الكرخي أو عبد القادر الجيلانى ، وأجل من هؤلاء ، مثل زيد بن الخطاب ، والزبير ، وأعظم من ذلك وآثم أهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة ، مثل شمسان وإدريس ويونس وأمثالهم . لقد أراد ابن عبد الوهاب أن يجدد الإسلام والتوحيد ، وهو جوهر عقائده ومحورها ، فركز الجهد الفكرى كله على تنقية عقيدة التوحيد الإسلامية مما شاها وطرأ عليها بعد عصر الإسلام العربى ، أو إسلام العرب الأوائل قبل عصر الفتوحات صحيح أن عقيدة التوحيد هذه قد بلغت قمة التزين فى (التجريد) المعتزلى الذى بلغ حد نفى زيادة الصفات عن الذات والقول بخلق القرآن وحدوثه حتى لا تكون هناك شبهة لتعدد القدماء تشوب وحدانية القديم سبحانه .. لكن فكر المعتزلة الفلسفى كان وليد مجتمعات متحضرة ، واستجابة إيجابية فكرية فلسفية تميزت بها بيئات ذات أنماط فكرية.معقدة ومركبة ، ومن هنا كان (التنزية) المعتزلى غريبًا ومرفوضًا من ابن عبد الوهاب ، الذى رفض حتى الاستدلال (بالقياس) حتى ولو كان قياسًا صحيحًا ، ووقف عند ظواهر النصوص القرآنية والنبوية ورفض أن يلجأ إلى التأويل .

واستقر الرأى فى الوهابية على أن (الرأى) لا وزن له بجانب النص . ولم تكن دعوى ابن عبد الوهاب إلى تجديد التوحيد الإسلامى والعودة إلى فهم الإسلام كما فهمه سلف الأمة ، وبعبارة الدكتور طه حسين : الدعوة إلى (إحياء الإسلام العربى وتطهيره مما أصابه من نتائج الجهل ، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب ..) ، لم تكن هذه الدعوة جديدة تمامًا على تاريخ فكر الإسلام ، فلقد سبقه إليها كما أشرنا كثيرون أصبحت لهم مذاهب متبلورة فى تراث المسلمين ، ومن ثم فإن ابن عبد الوهاب وإن أنكر (المذهبية) و (المذاهب) أحيانًا إلا أنه قد كان بدعوته انحيازًا وامتدادًا لقطاع المذهبية الإسلامية ، وبالتحديد امتدادًا للحركة السلفية كما تمثلت فى ابن حنبل وابن تيمية وابن قيم الجوزية على وجه الخصوص ، بل إن الجبرتى (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ، ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) يحكى لنا قصة هذا الواعظ التركى الذى قدم إلى مصر فى رمضان سنة ١١٢٣هـ (سنة ١٧١١م) فدعا الناس إلى توحيد الله فى العبادة وأنكر على المصريين إقامة الأضرحة والقباب على قبور الأولياء ، وحكم بكفر الذين يتوسلون إلى الله بالوسائط أحياءً كانوا أم من الأموات ، وكادت تحدث لذلك فتنة عندما اجتمعت الجماهير خلف هذا الواعظ وشرعوا يطبقون أفكاره بأيديهم كما هو واجب المسلمين

إذا هـم رأوا المـنكر . لكن ابن عبد الوهاب كان أكثر من (شيخ) وأعظم من (فقيه) ، ومـن ثم لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو حتى حلقة أو حلقات مـن الأتـباع والمـريدين ، وإنما أراد لهذه الدعوة أن تكون أكثر وأكبر من مجرد (دعوة) أو (مذهب) يستقر فى مجرى التاريخ وتحف التراث .

لقد أبصر (الدولة) و (السلطة) فى وضع الدعوات موضع الممارسة والتطبيق ووعى جـيدًا الحكمـة الـتى تقـول (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ومن هنا كانت مغادرتـه لبلده (حريملاء) التى بدأ دعوته بها إلى (العينية) حيث عرض دعوته على رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر الذى اقتنع بها ، فدعاه ابن عبد الوهاب إلى أن يسخّر سلطته وسلطانه لنشـر دعوة التوحيد وتجديد عقائد الإسلام ومنّاه بأنه إن فعل ذلك ونصر (لا إله إلا الله) فـإن الله سـبحانه وتعـالى (سـيملكه نجدًا وأعرابها) فسار أمير العينية بجيشه وفى مقدمته ابن عبد الوهاب إلى المكان التى اتخذ فيها الناس القبور أو الرموز أو الأشجار للتوسل والتعظيم فهدموهـا وقطعوها ، حتى كان اليوم الذى أمسك فيه ابن عبد الوهاب بالفأس وقاد الجيش فى هـدم قبة زيد بن الخطاب (١٢هـ - ٦٣٣م) فى بلدة (الجبيلة) وكانت مزارًا يعظمه الـناس ويتـبركون بزيارته ، وكادت تحدث حرب بسبب هذه مع أهل (الجبيلة) وأعرابها ، ثم أعقبـت هدمهـا هزة نفسية فى صفوف الأعراب هددوا لها حاكم (العينية) بالتمرد على سـلطانه إن هـو ناصر دعوة ابن عبد الوهاب ، فوازن الحاكم بين ما بيده من السلطة وبين ما وعده ابن عبد الوهاب منها فى المستقبل ومن الثواب عند الله ، فاختار العاجل على الآجل والدنـيا عـلى الآخرة ، وتخلى عن نصرة التجديد والتوحيد أو بالأحرى تخلى عن الأسلوب العنيف لابن عبد الوهاب فى نصرة الدعوة ، وطلب إليه أن يغادر (العينية) فرارًا بنفسه قبل أن يفتك به الغاضبون لهدم قبة زيد ابن الخطاب ..

حـدث ذلـك سـنة (١١٥٨هـ - ١٨٤٥م) فغادر ابن عبد الوهاب (العينية) إلى (الدرعية) حيث لقى أميرها محمد بن سعود (١١٧٩هـ - ١٨٦٥م) الذى استجاب لدعوتـه ورحـب به ، ودار بينهما حوار كان بمثابة التعاقد على تأسيس ملك جديد ودولة جديدة على فكر توحيدى نقى وجديد .....

وبفكـــر ابـــن عبد الوهاب وبتنظيمه أيضًا وبجيش ابن سعود وسلطانه تجاوزت الدعوة حـــدود (الدرعـــية) واستجابت كل نجد والجهات المتاخمة لها لدعوة التجديد الدينى ودانت بعقيدة التوحيد على هذا النحو الذى بشّر به ودعا إليه ابن عبد الوهاب وخلال هذه العملية النضـــالية كان الشيخ محور النشاط فهو الذى يجهز الجيوش ويبعث البعوث والسرايا ويكاتب أهل البلاد الأخرى داعيًا وواعظًا ومنذرًا ، ويستقبل الوفود والضيوف بل ويشرف على بيت المال وينظم مصارف المغانم والزكاة .

وبهذه الإمارة الوهابية السعودية التى اتخذت من (الدرعية) عاصمة لها قامت للتجديد الديـــنى دولـــة فى شبه الجزيرة العربية جاورت مقدسات الإسلام والمسلمين فى مكة والمدينة ، وشـــرع ابـــن عبد الوهاب يتصل بعلماء المسلمين فى مكة والمدينة ووجوههم فى مواسم الحج ويعـــرض علـــيهم أفكـــاره فى التوحيد ويجرى معهم الحوار ، وواضح للعيان أن شبه الجزيرة قـــد شـــهد قيام نمط من الفكر الدينى الذى يتحدى فكر العصور الوسطى وينكر خرافات ، بل ويحكم على كل المسلمين المعاصرين وعلى رأسهم (ظل الله فى الأرض) خليفة آل عثمان .

وبعـــد عشـــر ســـنوات من وفاة ابن عبد الوهاب وضحت مخاطر دعوته ودولتها على السلطنة العثمانية وفكريتها أكثر وأكثر ، فلقد زحف ابن سعود (١٢١٦هـ – ١٨٠١ م) عـــلى رأس جـــيش من أهل نجد وبواديها والجنوب والحجاز وتهامة إلى (كربلاء) بالعراق ، فقاتل أهلها واقتحمها وقتل من أهلها قرابة الألفين وهدم قبة الإمام الحسين وانتزعوا واستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم من كنوز كربلاء ومشهد الحسين الذى كان مزدانًا بمقصورة مرصعة بالزمرد والياقوت والجواهر .

وبعـــد أربـــع سنوات (١٢٢٠هـ – ١٨٠٥م) دخل جيش ابن سعود المدينة المنورة وهدم قباب قبورها ومزاراتها ، وفى العام التالى خضعت لـــه مكة وبايعه شريفها عندما ذهب إليها حاجًا ويومئذ طرد ابن سعود من كان بمكة من رجال دولة الأتراك فتمت لـــه السيطرة على الحرمين ونجد وتهامة والحجاز ، وعندئذ وضحت للعيان كذلك أن الدعوة الوهابية وهى حركة فكرية سلفية ترى رأى ابن حنبل فى ضرورة أن تكون الخلافة فى قبيلة قريش وحدها ، أى فى العرب لا تمثل فقط تحديًا لفكرية الدولة العثمانية ومذهبية العصور الوسطى ، وإنما تمثل أيضًا تحديًا للخلافة العثمانية ذاتها وتعنى ضمن ما تعنى تمردًا عربيًا على استئثار الأتراك بالسلطة

والســـلطان على العرب والمسلمين ، وتحمل فى فكرها ودولتها دعوة لعروبة الدولة كما تحمل دعـــوة إلى عروبة الإسلام ، ولقد صمدت الدولة الوهابية للجيوش العثمانية ، بل وألحقت بها الهـــزيمة حـــتى استعان السلطان العثمانى بمحمد على وجيشه المصرى فانهزمت الدولة عندما ســـقطت الدرعية فى (٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٣هـــ - ٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م) بعد ثلاثة أرباع قرن ظهرت فيها بجزيرة العرب هذه الدعوة ووقفت موقفًا إيجابيًا يرفض فكرية العصور الوسطى ويتحدى سلطان الأتراك العثمانيين . لكن دعوة ابن عبد الوهاب لم تمت بهزيمة دولتها فلقد عاشت ، بل وعادت فى مرحلة تالية فأقام دولتها من جديد ، ولكنها ظلت دعوة ودولة فى شبه الجزيرة العربية وحدها دون أن تتعداها لأنها وإن مثلت الرد العربى الإيجابى على بعض التحديات التى واجهت الإنسان العربى المسلم فى ذلك التاريخ إلا أنها كانت رد عرب البادية البسطاء فى الأساس وبالدرجة الأولى ، وليس رد عرب البلاد التى قطعت فى التحضر والتمدن شـــوطًا أبعد مما قطعه أهل نجد وتهامة والحجاز ، لقد كانت تجديدًا للإسلام وطليعة يقظة أهله عـــلى عتبة العصر الحديث والدعوة إلى عروبة الخلافة والدولة بعد أن استأثر بها الأتراك قرابة ثلاثة قرون ، ولكن آفاقها المحدودة وفكريتها المحافظة وأساليبها البدوية العنيفة قد أبقت عليها حـــركة تجديـــد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم ، فاختصت بهم واختصوا بها : وانفردوا وحدهم بذلك الشرف من دون المسلمين .

٢ ـ السنوسية

قبل خمس سنوات من وفاة محمد بن عبد الوهاب ولد محمد بن علي السنوسي (١٢٠ – ١٢٧٦هـ ، ١٧٨٧ – ١٨٥٩م) وكان السنوسى كابن عبد الوهاب : عربيًا ولد فى بيئة عربية ، ولكن بيئة السنوسى لم تكن بدوية كنجد ، فلقد ولد بالجزائر فى قبيلة مجاهر وسط عصبية تبعث على القوة والاعتزاز ، فالحى الذى ولد فيه قد بلغ تعداده ٧٠,٠٠٠ نسمة يتبعهم وينضوى حولهم ٢٠٠,٠٠٠ نسمة فى مقاطعة وهران الجزائرية ، وكانت ولادته بقرية الواسطة قرب مستغانم . ومنذ صباه سلك الطريق الذى قدر له أن يصنع عليه الإنجاز الكبير الذى حققه لأمته ودينه ، الطريق الذى برز عليه ابن السنوسى قديسًا ، فارسًا ، عربيًا ، مجددًا، معاديًا للاستعمار . فهذا منذ الصبا يقسّم يومه إلى نصفين أحدهما لطلب العلم وتحصيله ، وثانيهما للتدريب على الفروسية وركوب الخيل واستعمال أدوات القتال ، وهو يتنقل طالبًا للعلم فى أبرز حواضر العالم العربى والإسلامى فى ذلك التاريخ ، فهو قد درس فى جامعة القرويين بفاس ، ثم جاء إلى القاهرة (١٢٣٩هـ – ١٨٤٢م) فدرس بالأزهر ثم ذهب إلى الحجاز (١٢٤٠هـ – ١٨٢٥م) فأخذ عن بعض شيوخ مكة والمدينة ، وفى رحلاته هذه لتحصيل العلم أخذ ورفض ونظر وانتقد حتى لقد أعلن رفضه لدعوى إغلاق باب الاجتهاد ، وقدّم هو ذاته اجتهادات فى إطار المذهب المالكى الذى تمذهب به منذ صباه الأمر الذى جلب عليه غضب شيوخ الأزهر المحافظين حتى لقد همّ الشيخ عليش (١٨٠٢هـ – ١٨٨٢م) أن يقتله بحربته لولا أن السنوسى كان قد غادر البلاد .

وأيضًا ففى رحلات السنوسى هذه إلى العالم لقى الكثير من شيوخ التصوف وانتسب إلى العديد من (طرقه) ، وهنا نجده أيضًا يأخذ ويرفض وينظر وينتقد حتى استقر به اليقين على طريقة ابتكرها جاءت مزيجًا من الفقه والتصوف ولقاء بين الشريعة والحقيقة ومزاوجة بين النص والذوق ، ففيها رأينا السلفية التى تعتمد براهين الكتاب والسنة وتنكر الوسائط ، ورأينا التصوف الشرعى الذى يقصد إلى مجاهدة النفس وتذكيتها – فكانت طريقته مزيجًا من الطريقة البرهانية والطريقة الإشراقية مع ميل أكثر إلى البرهانية . بل ورأيناها لا تقف عند حدود علوم الشرع وعلوم الذات والصفات والفقه والحديث والدلالات ، وإنما تدرس العلوم الطبيعية الفلك (الهية) وتقتنى أدوات لها مثل الأسطرلاب والكرات والأزياج .... إلخ .

ولقد غادر السنوسى المغرب للمرة الأولى سنة ١٨٢٩م بعد أن قتل الوالى التركى حسن بـك أحد أساتذته فغادر المغرب غاضبًا وقاصدًا الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة . وفى العام التالى (١٨٣٠) بدأ احتلال الفرنسيين لشمال بلاد الجزائر حيث ولد وحيث يعيش أهله ، فلم يستطع دخولها ، ولكنه رحل وطاف بجنوب الجزائر حيث لم تكن قد سقطت بعد فى يد الفرنسيين ، ثم غادرها إلى القاهرة فالحجاز مرة ثانية وهناك تبلورت فى عقله أسس الطريقة التى قرر الدعوة إليها ، وأغلب الظن أنه قد استشعر بعد احتلال الجزائر الذى كان نجاحًا أصابه الاستعمار الغربى فى جولته الحديثة من صراعه التاريخى ضد العرب والمسلمين — استشعر عظم المخاطر وشدة التحديات واستلهم فكرة (المرابطة) والتربص والإعداد والاستعداد للجهاد وليس الفورة المتعجلة المتسمة بالبداوة على نحو ما فعل الوهابيون . لقد كان السنوسى أمام تحديات كبرى ، استعمار أوربى مسلح بحضارة حديثة عملاقة وسلطنة عثمانية أصبحت قيدًا على الأمة العربية يعوق انطلاقها ، ومن ثم فلقد غدت بما تمثله من جمود ومحافظة وخرافة ومظالم ثغرة واسعة تتيح للاستعمار أن يلتهم بلاد العرب وأوطان الإسلام ، وأمام مثل هذه التحديات فلابد من الفكر والتجديد (الشريعة) ولابد من إعداد الذات العربية للصبر والمصابرة والجهاد والمقاومة (الفروسية ومجاهدة النفس وتقويتها وتقويمها) إذن فلابد من (المرابطة) فرباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها كما يقول الحديث الشريف ، ومن هنا كانت فكرة (الزاوية) وهى نموذج جديد (للرباط) القديم التى ابتكرها السنوسى والتى كانت نموذجًا للمجتمع الجديد الذى استهدفه ، والإنسان الجديد الذى أراده ، والتى كانت واحة يحقق فيها تجربته وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره فى المدى الطويل .

وفوق جبل أبى قبيس بمكة أقام السنوسى أول زاوية لطريقته (١٢٥٢هـ ١٨٣٧م) وبعد ثلاث سنوات غادر الحجاز إلى المغرب واستقر فى فاس يمارس التدريب ويدعو إلى طريقته الجديدة ، ولكن حكومة مراكش خشيت مذهبه فضيّقت عليه الخناق فغادرها إلى طرابلس الغرب (١٢٥٧هـ ١٨٤١م) ومن طرابلس أخذ يسهم فى ثورات الجزائر ومقاومتها للاحتلال الفرنسى فساعد ثورة تلمسان والصحراء (١٨٤٨هـ - ١٨٦١م) التى قادها محمد بن عبد الله وعصيان الظهر الذى تزعمه محمد بن تكوك (١٨٥١م) . وفى الزاوية البيضاء على الساحل الليبى كانت الزاوية الثانية التى أقامها السنوسى (١٢٧١هـ ١٨٥٥م)،

وبعـــد أن استقرت طريقته فى برقة عاد إلى الحجاز للمرة الثالثة فأقام بها ثمانى سنوات ، ومنها نشـــر طريقـــته فى أنحاء عدة من الحجاز واليمن وتأسست لها (الزوايا) فى المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة ورباح ووادى فاطمة والمضيق وأصفهان وأبان ، ثم غادر الحجاز عائدًا إلى الجبل الأخضر بليبيا فاستقر هناك (١٢٧١هـ - ١٨٥٤م) .

إن محمـــد بن علي السنوسى ، كان قديسًا فارسًا عربيًا وعالمًا مجددًا وعدوًا للاستعمار ، والناظر فى تعليم طريقته وتربيتها لأعضائها يجد هذه الصفات هى المبادئ والأفكار التى قامت لها وبها هذه الطريقة كما يجد (الزاوية) هى النموذج لذلك المجتمع الذى أخذ السنوسى يعد نفســه وأتــباعه لإقامته ، ولقد بلغ عدد الزوايا السنوسية التى أحصاها المؤرخون مائة وثمانيًا وثمـــانين زاوية ، خمس وعشرون منها فى شبه الجزيرة العربية ومائة وثلاث وستون فى أفريقيا : فى ليبيـــيا ٩٧ ، وفى مصر ٤٧ ، وفى السودان الأفريقى ١٧ ، وفى تونس ٢ ، ونحن إذا شئنا أن نســـتخدم لغـــة عصـــرية فى وصف (الزاوية) والحديث عن وظائفها لقلنا إنها : مؤسسة الحكومـــة (الطريقة) ومزرعة الدولة ونموذج المجتمع الجديد الموعود ، فغير المسجد نجد فيها مـــنزلاً لقائدهـــا (المقدم) وللوكيل وللشيخ وفيها بيوت للضيوف وعابرى السبيل وللفقراء الذين لا مأوى لهم وفيها مساكن للخدم ومخازن للمؤن واصطبل ومتجر وفرن وسوق وتحيط بهـــذه المبانى (العامة) المساكن الخاصة بالقبائل التى تقوم الزاوية فى منطقتهم ، وللزاوية أرض زراعـــية خاصـــة بها وآبار جوفية وصهاريج لحفظ المياه وحدائقها تزرع جماعيًا ، إذ يأتى كل مـــن يقطـــن فى منطقـــتها يوم الخميس من كل أسبوع إلى هذه المزرعة يعملون عملاً جماعيًا بـــلا أجـــر ، أما محصول أرض (الزاوية) فإنه ينفق على احتياجات فقرائها وضيوفها غذاءً وكساءً وتعليمًا وزواجًا ... إلخ . وما بقى يذهب إلى مركز الطريقة الرئيسى ، ومقدم الزاوية وهو ممثل شيخ الطريقة فيها وقائد قبائلها عند الجهاد ، ووكيلها يشرف على الزراعة وشئون الإدارة والمال والاقتصاد ، وشيخها يتولى تعليم الصغار وعقود الزواج ، ومع المقدم والوكيل والشيخ كان رؤساء القبائل المجاورة ووجوهها ، يكون مجلس إدارة الزاوية .

وكانـــت لمواقع الزوايا فلسفة تحكمها ، فكثير منها قد أقيم على مواقع منشآت يونانية ورومانية قديمة وحكمت الاختيار لمواقعها أهداف اقتصادية وسياسية ، مثل طرق القوافل الهامة ونقاط الدفاع الحصينة والغايات المرجوة من نشر الإسلام فى قلب القارة الأفريقية والبعد عن

مواطـن الصـدام بقوات الاستعمار قبل التمكن والاستعداد ، ولقد حولت هذه الزوايا التى تناثرت فى الصحراء وعلى مشارفها الأرض القاحلة إلى جنات مثمرة ، وكان السنوسى قدوة لطائفته فى الانخراط بالعمل اليدوى زراعة وصناعة حرفية ، وعندما كان بعض تلامذته يطلبون مـنه أن يعلمهم (الكيمياء) وكانت تعنى عندهم تحويل المعادن غير النفيسة إلى معادن نفيسة بـتلاوات وطلسـمات ، كان يسخر من هذه الأوهام ويعلمهم أن الإنتاج الزراعى فى أرض الزوايا هو المصدر الحقيقى للثروة ، فيقول (الكيمياء تحت سكة المحراث إنها كد اليمين وعرق الجـبين) ، وكـان يعلم تلاميذه أن العاكفين على الأوراد والمسابح لن يتقدموا أهل الزراعة والحرف أبدًا .

هكـذا كانـت الـزوايا ، وهكذا وصفها السنوسى ، فتحدث عن أن الأرض تبتهج مـن حولها فى أنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر فيها العمارة وتتسع بها الإدارة ، وكمـا كـان العمـل الجماعى بأرض الزاوية صناعتها الحرفية يومًا من كل أسبوع هـو يـوم الخميس ، فلقد كان يوم الجمعة خاصًا بالتدريب على الفروسية واستخدام السلاح والمـران عـلى فنون الحرب والقتال ، ومن هذه الزوايا انطلق الرجال ينشرون الإسلام كما تفهمـه الطـريقة السنوسية بين أعراف الصحراء وقبائلها الذين كانوا مسلمين سلفًا ، ولكن إسـلامهم لم يتعدى فى الأغلب الأعم التدين ببعض شكليات الإسلام ، حتى لقد كان كثيرون مـنهم يعجزون عن تلاوة آية قرآنية بنصها أثناء الصلاة فيتلفظون بمعنى بعض الآيات حاسبين أنهـا نصوص الآيات . ناهيك عن العادات والتقاليد والأعراف التى كانت أقرب إلى الجاهلية مـنها إلى الإسلام . وينشرون الإسلام أيضًا – وذلك هو الأهم – بين القبائل الوثنية فى قلب أفريقـيا ، وإذا كانت للإسلام اليوم دول ولعقائده أتباع فى قلب أفريقيا وغيرها ، فإن مرجع ذلك كله إلىالطريقة السنوسية ، فهى التى بشرت بالإسلام بين القبائل الوثنية التى كانت تدين (بالفتشـية) وكانوا يقطعون الطريق على النخاسين تجار الرقيق ، ويخلصون الأطفال الزنوج المخطوفـين ، ثم يحملونهـم إلى (الـزوايا) حيث ينشأون على الإسلام ويفقهون تعاليمه ، ثم يبعثون بهم إلى أبناء جلدتهم فى مواطنهم الأصلية يبشرون بالإسلام .

وبفضـل حـركة التبشـير السنوسية هذه دخل الإسلام واكتسب أنصارًا فى (وادداى والـباقرى ، وبوركو ، والنيجر الأدنى ، وبرنو ، والكونغو والكاميرون ، وكانم ، والداموا ،

والداهومــى) وحول بحيرة تشاد التى أصبحت بفضل جهد السنوسية مركز الإسلام فى وسط أفريقــيا ، ودان بتعاليمه من حولها أربعة ملايين من السكان الأفريقيين ، وعلى يديهم كذلك دخل الإسلام السودان الأوسط حتى لنستطيع أن نقول إنهم هم الذين صنعوا الحزام الإسلامى لأفريقــيا جــنوبى الصــحراء من سواحل الصومال شرقًا إلى سواحل السينغامية فى الغرب ، ويــترجم عــن حجم الجهد السنوسى فى هذه المنطقة عدد الزوايا الهامة التى ذكرها الرحالة والمؤرخون لهم فى هذه البلاد ، فلقد بلغت سبعة عشر زاوية أى تأتى فى المرتبة الرابعة بعد ليبيا، وهــى المركــز ومصر وشبه الجزيرة العربية . ولكنها تأتى فى مقدمة المناطق التى نهضت فيها السنوسية بنشر الإسلام والتبشير بعقائده وتعاليمه ، والسنوسية لم تنشر فى هذه المناطق تعاليم الإســلام وعقــائده وحدهــا ، بل لقد أقامت حيثما نشرت الدين ومع الزوايا دولاً وممالك وسلطنات منها سلطنة (رابح) و(أحمدوا) و(ساموری)، والرحالة كوبولانى يتحدث عن أسلوبهم فى التبشير الذى أثمر تأسيسهم لهذه السلطنات فيقول : (إنهم كانوا يدخلون هذه المناطق تارة بهيئة تجار وطورًا آخر بهيئة مبشرين يهدون إلى الإسلام القوم الفتيشيين ، وتجدهم يبنون زوايا جديدة فى هذه الأقطار الشاسعة الممتدة من شمالى أفريقيا إلى أقصى أقاصى السودان) .

والسنوسية كانت تنهض بهذه المهمة فى القرن التاسع عشر قرن المد الاستعمارى الأوربى لابــتلاع القارة الأفريقية والسيطرة على أفكارها واستغلال أهلها ونهب كنوزها ومواردها ، الأمــر الذى يجعل لعمل السنوسية هذا معنى أكثر من مجرد نشر عقيدة دين سماوى بين أقوام وثنــيين ، ويعطــيه بعدًا يتعدى الهدى والوعظ والإرشاد بتعاليم الإسلام ، فلقد كانوا كتيبة الصــدام العربــية الإسلامية التى تصدت فى شمال أفريقيا وقلبها للزحف الاستعمارى الأوربى الجديــد وهــنا يتضــح معنى الاهتمام فى الزوايا بالتدريب الأسبوعى على الفروسية والحرب والقــتال ، ومعــنى اعتناء التعاليم السنوسية بفكرة الجهاد فى الإسلام . فهم قد جعلوا أبناء الطــريقة فى أفريقــيا فى حالة استعداد دائم للجهاد كالجيش فى حالة الاستنفار ، بينما جعلوا واجب أبناء الطريقة فى آسيا المعاونة المادية لإخوانهم الأفريقيين ، ونحن إذا شئنا شواهد وأمثلة على تصدى السنوسية فى أفريقيا للزحف الاستعمارى الأوربى وصداماتها الفكرية ، بل والحربية المســلحة معه وجدنا الكثير ، فهم قد حاربوا الفرنسيين فى مملكة (كانم) ومملكة (واداى) بالسودان قرابة الخمسة عشر عامًا (١٣١٩ – ١٣٣٢هـــ ، ١٩٠١ – ١٩١٤م) . وهم قد قاوموا الغزو الإيطالى لليبيا الذى بدأ سنة ١٩١١ .

ودامـت مقاومتهم البطولية عشرين عامًا ، ولقد استغاثت جمعيات التبشير الأوربية التى كانت طلائع للمد الاستعمارى الأوربى ، ووظفت الدين فى خدمة النهب الاستعمارى استغاثت بحكوماتهـا الاستعمارية فضغطت على السلطان التركى كى يحد من نشاط السنوسيين ، وقاوم السـلطان هـذا الضغط حينًا ثم خضع لـه أخيرًا ، وحاول أن يستقدم إلى الآستانة المهدى السنوسـى (١٢٦٠ - ١٣٢٠هـ ، ١٨٤٤ - ١٩٠٢م) الذى قاد الطريقة بعد أبيه كى يعيش هناك فى (القفص الذهبى) كما صنع السلطان ذلك مع جمال الدين الأفغانى حول نفس التاريخ تقريبًا ، ولكن السنوسى رفض وأجاب رسل السلطان بكلمات لا تحمل معنى محددًا ، وتـلا آيـات قرآنية تتحدث عن التوكل على الله . وقرر نقل مركزه من واحة (جغبوب) إلى مكـان موغل فى الصحراء هو (الكفرة) كى يبتعد عن متناول السلطات والإنجليز الذين احـتلوا مصـر والإيطاليين الذين كانوا يسعون إلى شمال ليبيا ، وحتى لا يقترب أكثر فأكثر من منطقة الصدام مع طلائع الاستعمار فى قلب أفريقيا ، وبعد سنوات أربع من هذا الانتقال عـاد فأوغل فى قلب الصحراء مرة أخرى واستقر فى (قرو) بالسودان الأوسط فى الصحراء الأفريقية ..

فمحمـد بـن علي السنوسى مؤسس الطريقة عربى أصيل فكرًا ونسبًا ، بل هو نموذج للقائد العربى الذى تستدعيه المرحلة التاريخية التى ظهر فيها. وكما يقول عنه الرحالة (هاملتون) فلقـد تحلى بكل ما ينبغى أن يتصف به القديس العربى من صفات . فهو دقيق فى فهم الدين مرح يركب فرسًا من أنقى سلالة ، ويلبس بفخامة ، ويكحل عينيه بالكحل ، كما يصبغ لحيته بالحـناء ، وهـو شـديد الكـرم لضـيوفه وتزيده مواهبه وإخلاصه احترامًا فوق احترام ، والسنوسـيون كـانوا ينشـرون العربية مع نشرهم للإسلام ثم أنهم قد رفضوا سلطة الدولة العثمانية وسلطانهم وتسلطها على العرب والمسلمين ، وأعلنوا بلسان شيخهم وقلمه أن الخلافة لابد أن تكون عربية - قرشية - والقرشية كانت دائمًا رمزًا لرفض حكم غير العرب للعرب ، فلقد كتب السنوسى فى كتابه (الدار السنية فى أخبار السلالة الإدريسية) أن الإمامة والخلافة لابد أن يليها عربى قريشى ، واستشهد على ذلك بآراء الماوردى ، ورفض قول الذين يشيعون هـذا المنصـب فى المسـلمين من غير العرب ، ولهذا الموقف الفكرى دلالته فى رفض خلافة عثمان . ويزيد قسمة العروبة وضوحًا فى الحركة السنوسية ما أدركوه من أن الخلافة العثمانية قد غدت من الضعف والهزل والتفريط فى مصالح العرب إلى الحد الذى أصبحت معه (ثغرة)

كبرى يتسلل منها الاستعمار الغربى لالتهام بلاد العرب واقتطاع أقطار الإسلام ، بل لقد قطعوا بأن الأتراك قد أصبحوا مقدمة النصارى (أى المستعمرين الأوربيين) ما دخلوا محلاً إلا ودخله النصارى ، كما يحكى أحمد الشريف السنوسى ابن مؤسس الطريقة فى كتابه (الدار الفريد الوهاج فى الرحلة من الجغبوب إلى تاج . أما المهدى السنوسى فإنه هو القائل و (الترك والنصارى أنى أقاتلهم معًا) وتجدر الإشارة والتنبيه إلى أن حديث السنوسية عن عدائهم للترك والنصارى إنما يعنى العداء لكل من الاستعمار والتسلط العثمانى والأوربى ، فلقد هادنوا الأتراك وتعاونوا معهم عندما تناقضت مصالح الدولة العثمانية مع الاستعمار الإيطالى أثناء الحرب الطرابلسية . ثم هم لم يعرفوا التعصب الدينى ضد أتباع الديانات الأخرى .

والرحالة ، هاملتون يقول عنهم : (إنهم أقل تعصبًا من عامة العرب) والتاريخ يحكى كيف أن السنوسى الكبير قد عزل قيادة إحدى الزوايا لأنهم طردوا سائحًا وأمه من منطقتهم لأنهما من النصارى . فقد كان التمييز مطلوبًا بين المخالفين فى الدين وبين المستعمرين .

والمهدى السنوسى هو الذى يحدث أخاه الشريف فيقول له : (لا تحقرن أحدًا لا مسلمًا ولا نصرانيًا ولا يهوديًا ولا كافرًا لعله يكون فى نفسه عند الله أفضل منك . إذ أنت لا تدرى ماذا تكون الخاتمة) وعداؤهم للترك كعدائهم للأوربيين قد وقف عند حدود العداء للاستعمار فهم رأوا خطر الزحف الاستعمارى الأوربى وتصدوا له ، ورأوا فى دولة الرجل المريض – علاوة على اغتصابها الخلافة من العرب – ثغرة ينفذ منها النهب الاستعمارى ومقدمة لهذا الاستعمار ، فحكموا بأن الترك مقدمة الاستعمار الأوربى ، وأنهم ما دخلوا بلدًا إلا دخله الاستعمار .

ولقد صدقت وقائع التاريخ وتطورات الصراع فى المنطقة كلمات السنوسيين وهكذا كانت الحركة السنوسية واحدة من حركات اليقظة العربية الإسلامية التى واجهت بها الأمة التحديات التى فرضها عليها الأعداء . فبالسلفية المعتدلة التى تنقى العقيدة من شوائب الشرك وشبهات الوسائط بين الإنسان وخالقه ، وبالتصوف الشرعى وبفتح باب الاجتهاد ورفض دعوى إغلاقه صنعت مزيجًا فكريًا رفضت به فكرية العصور الوسطى والمظلمة عصور المماليك والعثمانيين . وبالجهاد وتربية المريدين والأنصار على الفروسية وأدوات القتال وبنشر الإسلام والعروبة فى أفريقيا جنوبى الصحراء أعاقت زمنًا طويلاً زحف الاستعمار الأوربى وقاتلت

جيوشه ، وأفشلت خطط مبشريه السنين الطويلة ، وحتى عندما هزمت أمام تفوقه فإنها تركت فكـــرًا وتنظيمًا لعب دورًا فى المد التحررى الذى شهدته هذه المنطقة ضد سيطرة الاستعمار ، وبالانحياز إلى عروبة الخلافة والحذر ، ثم العداء تجاه الأتراك العثمانيين برزت السنوسية واحدة مـــن حـــركات الـــيقظة والتجديد التى تصدت لإبراز التحديات التى فرضها على هذه الأمة أعداؤها فى العصر الحديث .

٣ ـ المهــــــدية

قــبل إلحاق السودان بمصر (١٨٢٠ - ١٨٢٣م) فى عصر محمد علي لم يكن الشعب السـودانى قــد حقــق وحدته الوطنية ، فوطنه من حيث الإدارة والسياسة ينقسم إلى ممالك وسلطنات ، أهمها سلطنة الفونج فى الشرق ، وسلطنة الفور فى الغرب ، والنوبيون فى الشمال، كما أن الأعراق المختلفة لسكانه : عرب ، ومستعربون ، ونيليون ، وحاميون ، كانت تسهم هى الأخرى فى تمزق البلاد ، وإذا كان الفتح المصرى للسودان قد ألحقه بحكومة واحدة وجعل له (حكمدارية) واحدة فى العاصمة الجديدة (الخرطوم) ، فإن التمزق الواقعى لم يختف تمامًا ، وظل متجسدًا فى الأقاليم والسلطنات تزكيه اختلافات القبائل والأعراق .

لكــن هذا القدر من الوحدة السياسية والإدارية وما استتبعه من تطور حضارى محدود وبطــيء قد نبّه السودانيين إلى روابط المصالح المشتركة بينهم جميعًا ، ثم كانت السلبيات التى وقعــت مـــن الإدارة الجديـــدة طاقة محركة لنمو هذا الإحساس المشترك الجديد . فبعد مقتل إسماعيل ابن محمد علي قائد الجيش الفاتح محترقًا . انتقم جيش محمد على من السودانيين انتقامًا شديدًا . والضرائب التى فرضت على السودانيين - والتى كانوا يسمونها (الجزية) - كانت باهظة ، وفى طريقة تحصيلها الكثير من الشدة وغير قليل من الإذلال ، وبعد أن دخلت حكومة القاهرة فى إطار النفوذ الأوربى منذ اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م وبالذات منذ عصر الخديو سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) والخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) وخصوصًا فى عهد الخديو توفــيق الــذى خلف إسماعيل أخذ السودانيون يرون فى هذه الحكومة سلطة ينقصها الطابع الوطنى المصرى ، وزاد من هذا الإحساس لديهم أنها قد استعانت فى حكم بلادهم بالعديد من العسكريين والمغامرين والمرتزقة الأوربيين ، فحاكم بحر الغزال هو الإيطالى (جيسى) وعندما ذهــب خلفه الإنجليزى (لبتون بك) ، وحاكم دارفور هو النمساوى (سلاطين) ، وحاكم كـــوبى هو (اميليانى) ، وفى الفاشر يحكم (مسيداليا) ، وفى لادو يحكم الألمانى (سنترز) ، وفى فاشودة يحكم النمساوى (أرنست مانرو) ؟ .. وزاد من إحساس السودانيين هذا علاقة الخديوية المصرية بالأتراك العثمانيين ، فكانوا يسمون الحكم المصرى بالحكم التركى ، ويصفون حكامهم بالأتراك ، ولما وقفت هذه الخديوية ضد الثورة الوطنية المصرية ثورة عرابى (١٨١ -

١٨٨٢م) منحازة فى ذلك للمستعمرين الأوربيين والسلطان العثمانى ، رسخ يقين السودانيين بغربة هذه الحكومة عنهم ، وانقطاع الروابط التى تربطهم بها إلى حد كبير .

ولقـــد حدثت بالسودان فى تلك الحقبة تمردات وانتفاضات ، ولكنها كانت ذات طابع محـــلى ، وأغلبها كان بقيادة زعماء عشائريين وعدد من النخاسين وتجار الرقيق الذين قاوموا سعى الحكومة المصرية المتعجل لإلغاء تجارة الرقيق .

ولقـــد أصبح واضحًا أن المجتمع السودانى قد زخر بالعوامل والأسباب التى تهيئه للثورة والانقضـــاض عـــلى أسباب شكواه ، لكنه لتخلفه وتمزقه يحتاج إلى عامل أسطورى ومعجزة خارقـــة تجمـــع شتات أبنائه ، وتضم مختلف أقاليمه فى كيان واحد ، وتمكنه من تحقيق بعض مـــا يريد ، وكانت الحياة الفكرية فى السودان – على فقرها – يتوزعها المتصوفة والفقهاء ، وكـــان الفقهـــاء فى الأغلب الأعم قد ارتبطوا بالحكومة ووظائفها وعطائها ، على حين ظل المتصـــوفة أو قطـــاع مـــنهم أقرب إلى الجمهور لأن (طرقهم) إنما تقوم وتنمو وتعيش بقدر مـــا يجـــتمع لها من مريدين وأتباع ، وفى التراث الفكرى للصوفية كان هناك مكان ملحوظ بـــل بارز لفكرة (المهدى المنتظر) ذلك القائد الأسطورى الذى يظهر فيجبر الزمان بأن يحيل مـــا بين عصره وعصر النبى (ﷺ) إلى زمن ساقط من الحساب ، وذلك بجعل زمانه موصولاً بزمان النبى وتجربته تالية لتجربة النبى . كما يجبر المكان بتغيير واقعة الظالم ، وذلك عندما يملأ الأرض عـــدلاً بعـــد أن ملئت جورًا ويعمها آمنًا بعد أن طفحت رعبًا ، حتى ليحرس الذئب الغنم، ويضع الصبى يده فى فم الحية لا يصيبه الأذى وفى (الفتوحات المكية) لشيخ الصوفية الأكبر محيى الدين بن عربى (٥٦٠ – ٦٣٨ هـــ ، ١١٦٥ – ١٢٤٠م) حديث طويل عن (المهـــدى المنـــتظر) ، بل لقد خصّ هذا الأمل بكتاب كامل وخاص سماه (عنقاء مغرب) . ولقد كان لفكر ابن عربى هذا انتشار وجمهور بين متصوفة السودان شيوخًا ومريدين ، وفى هذا الواقـــع الـــذى يتطلع للمخلّص ومن خلال هذا التراث الفكرى الذى يجعل هذا المخلص هو (المهـــدى المنتظر) وفى مجتمع تفاقمت مشكلاته وزادت آلامه واستفحلت تناقضاته ، وضح بجلاء أن سبيله إلى الالتحام والانتفاض هو الأسطورة ، والأسطورة المقدسة التى تفجر فى إنسانه من الطاقات الخلاقة مما يستطيع بها علاج ما تراكم من مشكلات ومعضلات . هكذا اشرأبت الأعـــناق وتعلقت الأبصار واستشرفت البصائر وأرهفت الأسماع والأحاسيس إلى ذلك القادم المنتظر (إلى المهدى) .

حدث ذلك بالنسبة للجميع الكبار منهم والصغار ، حتى ليحكى المؤرخ يوسف ميخائيل (١٢٤٤ - ١٣٣٠هـ ، ١٨٢٨ - ١٩١٢م) فى كتابه (غوردون والسودان) أن الصبيان فى مدينة الأبيض قبل ظهور مهدى السودان ، كانوا يجعلون فى ألعابهم صفًا لأنصار المهدى وصفًا آخر لأعدائه ثم يديرون بين الفريقين الصراع .

وفى ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ وفى جزيرة (لبب) التى تبعد عن دنقلة خمسة عشر كيلو مترًا ولد محمد أحمد (١٢٦٠ - ١٣٠٢هـ ، ١٨٤٤ - ١٨٨٥م) الذى سيصبح مهدى السودان المنتظر وقائد الثورة التى صهرت السودانيين فى بوتقة واحدة ، فخلقت منهم شعبًا واحدًا للمرة الأولى فى التاريخ ، ولفقر أسرته التى كانت تحترف التجارة فى السفن لم يستطع السفر للدراسة بالأزهر ، لكنه حصّل علوم الدين كما يحصلها الفقهاء الفقراء المحليون ، فدرس فى بربر والخرطوم ، وأصبح فقيهًا فى سنة ١٨٦٨م وفى سنة ١٨٦٣م أنشأ بالخرطوم مدرسة مارس فيها التعليم ، ثم اتجه إلى التصوف وظهرت عليه أمارات التقوى والزهد والصلاح ، فانخرط فى سلك الطريقة (السمانية) وفى التصوف علا نجمه بعد أن أنشأ لنفسه خلوة خاصة فى جزيرة (أبا) (١٢٨٦هـ ١٨٧١م) ذاعت شهرته منها ، وقصد إليه الناس فيها حتى أصبح (١٢٩٢هـ ١٨٧٥م) خليفة ، وقد أذن له شيخه أن يجوب أرجاء البلاد يأخذ العهود على الأتباع ، ويقبل ويعتمد انضمام المريدين . وفى سنة (١٢٩٧هـ ١٨٨٠م) توفى الشيخ القرشى ود الزين شيخ محمد أحمد فى الطريقة السمانية فأصبحت له القيادة فيها ، وهنا بدأ أولى محاولاته المنظمة فى تكوين جماعة دينية صوفية تدعو إلى الإصلاح ، فاتصل بالعديد من الحكام ومن الفقهاء داعيًا إلى العودة للدين وتكوين مجتمع مسلم على غرار المجتمع الذى بناه الرسول (ﷺ) غير أن الصدى لم يكن كما أمل ، والاستجابة كانت دون ما أراد ، لكنه لم ييأس قطعًا . لقد يئس من الأمراء والحكام والفقهاء ولكنه نظّم من أتباعه نواة الجماعة التى عزم على أن يسعى بها لإقامة المجتمع الجديد .

وهو يتحدث عن هذه البداية التى سبقت مرحلة (المهدية) فيقول (ثم إنى نبّهت على بعض المشايخ وما أدركت من الأمراء فلم يساعدنى على ذلك أحد حتى استعنت بالله وحده على إقامة الدين والسنن ، ووافقنى على ذلك جمع من الفقراء الأتقياء الذين لا يبالون بما لقوه فى الله من المكروه) وسواء أكان محمد أحمد قد أدرك أن تحقيق غاياته لابد له من طاقة

عاطفية وشحنة روحية تهز قلوب المؤمنين وتذهلهم عن الروابط والقيود التى تشدهم إلى الدنيا ومتاعبها ، فيسرعون بسوط الخارق المعجز إلى الانخراط فى حركته الإصلاحية ، فاخترع أنه هو (المهدى المنتظر) اختراعًا ، أو أن الرجل قد امتزجت فى عقله وقلبه ونفسه معاناة شعبه وأمته بالصوفية التى صنعت لروحه شفافية زادت منها رياضاته ففجرت فيه كإنسان طاقات غير عادية ولا منظورة فرأى ما لا يراه الآخرون ، وما أنكره عليه الكثيرون ، رأى رسول الله (ﷺ) يعهد إليه (بالمهدية) ويكلفه بالجهاد سواء أخذنا بالتفسير الأول ، أو اعتمدنا التفسير الثانى ، وهو الذى نميل إليه فلقد أعلن محمد أحمد فى الأول من شعبان ١٢٩٨هـ ٢٩ يونيو ١٨٨١ أنه هو (المهدى) ودعا الناس إلى الإيمان به والهجرة إليه والجهاد معه لإمامة الدين وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب وإنقاذ ديار الإسلام قاطبة من (غانة إلى فرغانة) من خطر الاستعمار والأتراك ، ونحن عندما ننظر فى وثائق المهدى ومنشوراته التى تتحدث عن (الحضرة) التى نصبه فيها الرسول مهديًا نجد أثر التراث الصوفى واضحًا وقويًا ، بل وطاغيًا . فمع النبى قد شهد هذه (الحضرة) جمع من شيوخ التصوف والأولياء كما شهدها (الخضر) و (عزرائيل) الذى سيقبض أرواح الذين يحاربون المهدى .

وفى هذه (الحضرة) يؤكد الرسول على كفر من لم يصدّق بمهدية محمد أحمد ويعلمه امتياز (المهدية) على (التصوف) ففى التصوف : الذل ، والانكسار ، وقلة الطعام ، وقلة الشراب ، والصبر وزيارة السادات (السادة – الأولياء) أما المهدية ففيها غير هذه : الحرب ، والحزم ، والعزم ، والتوكل ، والاعتماد على الله ، واتفاق القول . ولأن من ميزات المهدية (اتفاق القول) فلقد أسقطت المذهبية والمذاهب ، وألغت الطرق الصوفية ، وأعلنت للناس أن عهدها موصول بعهد الرسول (ﷺ) فما بينها ساقط لا حجة فيه فهى سلفية تقف عند الكتاب والسنة فقط ، وتعتبر أن المذاهب كانت صالحة لأزمانها السابقة على المهدية فقط ، وهى تجدد وتشرع وفق المصلحة المتجددة على ضوء الكتاب والسنة وحدهما (لا تعرضوا لي بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين فلكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال ، ولقد كانت الآيات تنسخ فى زمن النبى على حسب مصالح الخلق وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح) وأعلن المهدى كذلك أن (المهدية ليس مما يسعى المرء إليه ، فهو قد كان سائرًا فى طريق الإصلاح على العادة حتى هجمت عليه المهدية من رسول الله) بحضرة الأولياء والصالحين (يقظة فى حال الصحة) فى وقت لم يكن يطمع أن ينالها بل لقد كان راغبًا

فى الانضــواء تحت لواء المهدى السنوسى ، وبعد هذا الإعلان كاتب المهدى أنصاره ودعاهم إلى الهجــرة إلى جزيــرة (أبا) فى شهر رمضان ثم انحاز لمن هاجر إليه إلى جبل قدير استعدادًا لــلجهاد الى قدمه على فريضة الحج ، لأن الحج قد وقعت مشاهده تحت حكم الكفّار الأتراك (وســيفًا سُــلّ فى سبيل الله هو أفضل من عبادة سبعين سنة) وفى (أبا) حقق المهدى أول انتصــار عسكرى على قوات الحكومة فى رمضان ١٢٩٨هــ ٢ أغسطس ١٨٨١م ثم عاود انتصــاره علــيها ثانية فى جبل قدير (٧ ذى الحجة أول نوفمبر من نفس العام) ومن ذلك التاريخ بدأ ينشىء جهاز دولته الجديدة بادئًا ببيت المال ومنصبى قاضى الإسلام وأمين السلاح، ثم جعــل له أربعة يخلف كل واحد منهم واحدًا من الخلفاء الراشدين الأربعة ، كما يخلف هو الرســول (ﷺ) .. ثم توالــت المعــارك بيــنه وبين الحكومة التى استعانت بعدد من القادة العســكريين الأوربــيين لقتاله ، من أشهرهم غوردون (١٨٣٣ – ١٨٨٥م) حتى انتهت باقــتحام أنصــار المهــدى لــلخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ ومقتل غوردون وتمام السيطرة لــلمهدى عــلى كل أجزاء السودان ، ولقد أكدت هذه الانتصارات العسكرية التى أحرزها المهــدى ضــد حكومة كانت مشغولة بأحداث الثورة العرابية فى مصر ، أكدت لدى أتباعه مــا حدثهــم به من أنه منصور أبدًا ، وأن أعداءه مدحورون لا محالة فهو (المهدى) وليس طالــبًا لــلملك أو ساعيًا إلى السلطان ، وعندما عرض عليه غوردون سلطنة كردفان أجابه : (إن مهديــتى من الله ورسوله ولست بمتحيل ولا مريد ملكًا ولا جاهًا فأنا خليفة رسول الله ، ولا حاجــة لى بالســلطنة ولا بملك كردفان وغيرها ، ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها) وأخذ الــناس يتحدثون عن الخوارق التى يرونها ، فاسم المهدى مكتوب على أوراق الأشجار وعلى بــيض الدجاج ، وهم قد شاهدوا النار تشتعل فى جثث القتلى من أعدائه (وهى نار جهنم) وهو فى غدوه ورواحه معه مَلَك من الله يلهمه ويسدده ، وفى قتاله معه عزرائيل يقبض أرواح أعدائه ، وفى مجتمع كالمجتمع السودانى نقلت هذه المرويات والروايات والمأثورات والحكايات ما لا تفعله الفلسفات وبراهينها ، ولا المنطق وقضاياه ، لقد فجّرت كل طاقات المجتمع فصبت فى نهــر الــثورة المهديــة وأذهلت النساء عن أزواجهن ، فهاجرت إلى المهدى دون الرجال الجــاحدين ، وجعلــت الرجال يفارقون زوجاتهم إذا هن لم يستجبن للدعوة ، وقدّم المالكون أموالهــم والفقراء أرواحهم لهذا القائد الأسطورة الذى صنع بالأسطورة ما لا تصنعه الحقائق فى مجتمع مثل الذى ظهر فيه .

وأخذ المهدى يكاتب القادة والملوك والرؤساء يدعوهم إلى تصديقه والتعاون معه ، كتب إلى خديو مصر وإمبراطور الحبشة وكتب إلى أهالى : مراكش ، وقاس ومالى ، وشنقيط (موريتانيا) وكتب إلى حياتو بن سعيد (سوكوتو) وإلى المهدى السنوسى فى ليبيا طالبًا منه أن يكون واحدًا من خلفائه ، وعرض عليه إما أن يأتى إلى السودان وإما أن ينهض للجهاد ضد الإنجليز الذين احتلوا مصر بعد هزيمة العرابيين . وبلغت أصداء دعوته أرجاء الوطن العربى ، وجاء وفد من الحجاز لمبايعته فعيّن واحدًا منهم واليًا على الحرمين ، وكانت الحياة الفكرية فى السودان فقيرة تتقاسمها فكرية القرون الوسطى المحافظة والجامدة لدى الفقهاء الذين ارتبطوا بالدولة والنمط العثمانى ، وفكرية الطرق الصوفية المليئة بالخرافات ، ولقد زادت المهدية هذه الحياة الفكرية فقرًا ، ذلك أن الفكر فى سودان المهدية قد أصبح وقفًا على المهدى ، فهو خليفة الرسول (ﷺ) وإليه وحده المرجع فى الفكر والتشريع كما كان الحال فى مجتمع الرسول . وهو قد ألغى تراث المذاهب الفقهية ، ودوّن للشعب أحكامًا فقهية لم تلتزم بمذهب واحد ، وإن وضح فيها أثر المذهب الشافعى أكثر من غيره ، كما ألغى طرق الصوفية وتراثها إلا ما استثن من عقائدها فى فكره بحكم التكوين السابقة على ظهور المهدية وادعائها ، لكن هذا الفكر القليل من حيث (الكم) كان أكثر تقدمًا من حيث (الكيف) فلقد اتسم بالسلفية بمعنى العودة إلى النصوص الأصلية كتابًا وسنة ، وأسقط خرافات العصور الوسطى وإضافاتها التى حجبت الجوهر البسيط والمتقدم للدين ، ثم إنه قد أعلى من قدر (المصلحة) وفتح الباب واسعًا للاجتهاد المحكومة بالمصالح المتجددة على هدى من الكتاب والسنة ، فهو يعلن أنه يقفو آثار من سلف من المهتدين السالفين على نهج محمد (ﷺ) ويدعو إلى عقيدة السلف فى التوحيد وهى التى تنكر الوسائط والتوسل بالأولياء والصالحين أحياءً كانوا أو أمواتًا ، ويتحدث إلى أتباعه فى منشور البيعة فيقول : (إن الله قد ابتلى عباده واختبر توحيدهم فثبتوا ولم يتزلزلوا منه إلى من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ، فانظروا ابتلاء إبراهيم عليه السلام فى توحيد الله تعالى واكتفائه به ، فإنه قذف فى النار فعارضه جبريل فى الهواء فقال له ألك حاجة فقال أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، فلما وقع فى النار صارت عليه بردًا وسلامًا ، فكذلك من يبتليه الله فيصر على رؤية توحيد الله مكتفيًا به عن الاستغاثة بغيره يسلم كما سلم إبراهيم ، وقد أمرنا الله أن نتبع سنة إبراهيم فقال : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُم

﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ يعنى اتبعوا ملة أبيكم فاتبعوا أحبابى كلام الله فى القرآن ولا تتبعوا تراهات فائت الزمان ، وقد بايعتمونى على ألا تشركوا بالله شيئًا) .

لكن التكوين الصوفى للمهدى ترك بعض عقائده الصوفية بمثابة الشوائب فى هذا الفكر السلفى المتخفف من بدع القرون الوسطى وخرافاها ، فهو يؤمن بالنور المحمدى الذى وجد أولاً ، ومنه كان خلق كل شىء ، بل ويؤمن أنه مخلوق من (نور عنان قلب الرسول) وأن الرسول (ﷺ) قد أخبر بذلك ، لكننا إذا وازنا بين هذه البقايا من الفكر الصوفى والتى ترفضها السلفية وبين الطابع السلفى والتجديد وفق المصالح المتجددة كما تجلّى وطبع فكر المهدى رأينا السلفية المجددة هى الطابع الغالب على قسمة المهدية الفكرية ، ومن ثم رأيناها فى هذا الميدان رفضًا لفكرية العصور الوسطى وتجديدًا لنمط الفكر الذى ساد فى عصر المماليك والعثمانيين ، الأمر الذى يجعلها فى الفكر إلى التجديد أقرب منها إلى التقليد ، ويسلكها فى سلك المواقف الإيجابية التى تصدت للتحدى الفكرى المتخلف الذى هدد حياة الأمة فى ذلك التاريخ ، أما عداء المهدية للأتراك العثمانيين فإنه واضح وشديد .

فهو يطلب من أتباعه أن يتميزوا عن الأتراك فى كل أمور المعاش والزى والسلوك ، ويقول لهم (كل ما يؤدى إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه كما قال تعالى فى الحديث القدسى – قل لعبادى المتوجهين إلىّ لا يدخلون مداخل أعدائى ، ولا يلبسون ملابس أعدائى كما هم أعدائى – فكل الذى يكون من علاماتهم ولبساتهم فاتركوه) فهناك طابع قومى لا شك فيه يطلب المهدى من أتباعه الرجوع إليه والتثبت به والتميز فيه عن الأتراك .

وهو يجعل قتاله للترك تنفيذًا لأمر الرسول وتحريضه (لقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن من شكّ فى مهديتى فقد كفر ، وحرّضنى على قتال الترك وجهادهم) وتفنّد حجج الذين يقولون إن جنود الدولة الذين يقتلهم فى حروبهم هم مسلمون ، وأنه سيحاسب على قتلهم يوم القيامة ، لأن هؤلاء الجند هم جند الدولة التى كان يسميها (دولة الأتراك) إنما هم ساعون لتحقيق أهداف قيادتهم لجمع المال بالظلم والإكراه ، وكما يقول فإن القطب الدردير قد نصّ فى باب المحاربة على أن أمراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرهًا ، فيجوز قتلهم كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ

مِنْ خِلاَفٍ ﴾ الآية ، على أن النبى أمرنا أمرًا صريحًا بقتال الترك وأخبرنا بأهم كفّار لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا ، ولإرادهم إطفاء نور الله تعالى الذى أراد به إظهار عدله ، فكيف نسأل عنهم بعد هذا ، فقد قيل إن سعى الحكومة المصرية إلى الإلغاء الفورى لتجارة الرقيق قد كان واحـــدًا من أهم أسباب قيام الثورة المهدية فهى فى هذا الرأى قد كانت ثورة النخاسين وتجارة الرقيق الذين استثمروا سلبيات الحكم ومظالم السلطة لحشد الشعب حول الثورة التى أرادوها ســـبيلاً لإطلاق يدهم فى النخاسة وتجارة الرقيق من جديد ، لكن هذا الرأى الخطير والشائع فضــــلاً عــــن خطـــئه فإنه يحجب عن القارئ والباحث سمة نراها من أهم وأبرز سمات الحركة المهديـــة ؛ لأنه يقدمها ثورة نخاسين وأثرياء بينما كانت فى الأساس وقبل كل شئ ثورة شعب وانتفاضــــة المعدمـــين والفقراء من هذا الشعب بالدرجة الأولى . وهو يطمس كذلك نظامها الاجـــتماعى وفكرها فى قضايا الثروة والأموال الذى ندهش عندما نستخلص معالمه وقسماته مـــن واقـــع التطبـــيق الذى أقامته الثورة ومن وثائقها الأصلية المتمثلة فى منشورات المهدى بالذات .

لقـــد بـــدأ المهدى صوفيًا ، والنواة التى تبعته فى البداية كانت من عامة الناس وجمهور الفقــــراء ، والذين هاجروا إليه فى جبل قدير قد تركوا ما يملكون ويحوزون ، أما الذين تشبثوا بالـــثروات والوظـــائف والرواتب فإنهم كانوا هم أعداء المهدى والمهدية ، ولقد كان خصومه يعيبون عليه فى مناظراتهم معه ومراسلاتهم إليه أن عامة أنصاره هم الفقراء والمساكين .

وكـــان يرد عليهم مفاخرًا بذلك ومقارنًا حاله فى هذا بحال الدعوة الإسلامية على عهد الرسول (ﷺ) ومن كلماته فى ذلك (إن حب الوظائف والأموال والمتع هو الذى عطّل الدين واســـتقامة المســـلمين ، ولولا الفقراء المساكين والأغنياء الذين تجردوا عن الدنيا لما تقوم هذا الأمـــر ، ولقـــد جعل الله المزيد للفقراء دون الأغنياء ، وبيّن أنهم هم الشاكرون لنعمته حيث آثـــروا نعمة الدين بفوات أموالهم وفراق أحبابهم وتحمل الشدائد) وهؤلاء (الفقراء الحافون ذوى الشـــياب غـــير النظيفة والشعر الأشعث الجياع هم المقدمون عند الله يلحقون بالنبى قبل غيرهم ويدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة ، وتعلو درجاتهم فى الجنة درجات الأغنياء كمـــا تعلو فى الأرض نجوم السماء) وللذين قالوا إن اتباع الرسل من قبلنا وأتباع نبينا محمد كانوا هم الضعفاء والجهلاء ، أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن خربوا

ديـــارهم وقتلوا أشرافهم وملكوهم بالقهر ، كما قال تعالى حاكيًا عن قوم نوح : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُـــتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ . ولقـــد قال أهل الغنى والطغيان عن أتباع نبينا (إنهم الأجلاف الأعراب عراة الأجساد جياع الأكـــباد ، فلم ينفعهم غناهم بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وجعلهم الله غنيمة لضعفاء الأعراب الذين كانوا يستهزئون بهم ، وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء ومن وراءهم غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب) .

لكن خصوم المهدى يجادلونه ويقولون له إن من صحابة الرسول (ﷺ) من كانوا أغنياء ومـــن كانـــت بـــيدهم تجـــارات و (أسباب) تسبب ثروات وأموالاً ، وهو يرد عليهم بأن مـــن حصـــل الغنى والثروة من الصحابة إنما حدث له ذلك بعد أن ترك الغنى وأسبابه وانخرط فقـــيرًا فى الدعوة ، وهاجر فقيرًا فى سبيلها ، فهو قد تطهر وتعمد بالفقراء أولاً ، ثم باشر نفر منهم بعد ذلك (الأسباب) ثم إنهم بعد تحصيل المال قد جعلوه فى أيديهم ولم يجعلوه فى قلوبهم ، وظلـــوا حريصـــين عـــلى إنفاقه فى مواطنه على النحو الذى يؤكد أن علاقتهم به هى علاقة (الخلفاء) (المستخلفين) فيه لا المالكين له الأحرار فى إنفاقه كما يهوون ويشتهون ، بل لقد روى المهدى أحاديث تتحدث عن المصاعب التى سيلاقيها صحابى جليل كعبد الرحمن بن عوف فى الدخول إلى الجنة لا لشىء إلا لغناه .

يقـــول المهدى حول هذه القضايا : (وأما الصحابة الذين باشروا الأسباب : لم يدخلوا فـــيها إلا بعد الخروج من كل شىء حتى تمكن نور الإيمان فى قلوبهم ، ومن كانت عنده منهم أسباب فهى إنما كانت فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وكانوا عليها كالوكلاء ينفقونها حسب أوامر موكـــلهم ومولاهم ، ولذا قال لهم ربهم : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ ولم يقل : وأنفقوا مما ملكتموه وقال الرسول (ﷺ) : (آخر أصحابى دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه ، وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى) .

فهـــى إذن حركة فقراء وثورة معدمين ، وليست ثورة نخاسين وتجار الرقيق ، وفى البيعة الـــتى عقدها الناس للمهدى كانوا يعطونه أنفسهم تتصرف قيادته فيها مثلما كانت بيعة الناس للرســـول عـــندما أصـــبح أولى بأنفسهم منهم ، وكانوا يعطونه أيضًا حق الملكية فيما لديهم

مـــن أمـــوال قلّت أو كثرت ، أما الانتفاع فإن حقهم فيه يقف عند حدود الاحتياجات دون إسراف أو تبذير ، وهو يحدثهم عن الحقوق المالية التى ترتبها البيعة له أى لدولته ، فيقول (لقد علمتم أن من صدق مع الله فى بيعته فى نفسه وماله فبمجرد بيعته خرج عن حكم نفسه فضلاً عن ماله . والمال تحت يده أمانة الله ورسوله ، حيث بذله الله ، وصار ملكًا لنا ، فالبيعة أخذت منه نفسه وماله لله باعهما للجنة، وبائع السلعة لا يلتفت إليها بعد أن عيّن له الثمن ورضى به. فلا تمسكوا شيئًا من أرزاق الدنيا لتكثروه وتدخروه ، بل ابذلوها فى الله وتجهزوا بها للجهاد ، وإن خطر ببالكم خلاف ذلك وأبت نفوسكم أن تطمئن بالبذل فليكتب كل منكم ما ملكت يداه ويسلمنا جريدة أمواله) .

أمـــا الأرض الزراعية فى مجتمع السودان الزراعى فلقد أقر المهدى حق الملكية فيها على ألا يـــتجاوز ذلك القدر الذى يستطيع الفلاح أن يفلحه بنفسه ، وطلب من أتباعه أن يتنازلوا عمـــا زاد عن هذا القدر لمن يستطيع زراعته من إخوانهم ، ومنع بيعه وحرّم إجارته ، وقالت منشوراته فى ذلك : (فمن كان له طين فليزرع فيه ما استطاع زرعه ، وإذا عجز أو لا احتاج إلـــيه فلابد يأخذ فيه – دقندى – (وهى ضريبة عينية يدفعها الزراع لصاحب الأرض) لأن المؤمـــنين كالجســـد الواحد وإن كل مؤمن ملكه من الطين له ، ولكن من باب إحراز نصيب الآخرة فما لا يحتاج إليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج) .

وغير الأموال والثروات المنقولة الزراعية الواقعة فى حيازة الأفراد وملكيتهم كانت هناك مصادر الثروة ذات الأهمية العامة والتى ترتبط بها احتياجات جمهور الأمة وعامة أهلها ، وهكذا قررت المهدية أن تكون ملكية عامة للأمة ترصد مواردها على الإنفاق العام ، ولقد شمل ذلك بـــين ما شمل : الدكاكين والوكالات التجارية والقصيريات والمعاصر والطواحين والبنوك التى كانت بالبحر . وموانئ السفن . والحدائق وما ماثلها ، وعن مصادر الثروة العامة هذه وقرار المهـــدى جعـــل ملكيتها للأمة تتحدث منشوراته فتقول : (إن القصد هو إقامة الدين وإزالة الضـــرورة عـــن كافة المسلمين ، فيلزم لذلك أن يفرغ الأخوان جميع المواضع التى تنتج منها المصالح جميعًا ولا يعرض لها أحد من الأنصار وذلك : جميع الدكاكين والوكالات والقصيريات والعصاصـــير والطواحين وللبنوك التى كانت بالبحر للإيجار ولو كانت مسكونة فيخرج منها مـــن هو ساكن بها لما يترتب عليها من مصلحة عامة المسلمين من ضعافهم ومجاهديهم ، حيث

إن كـــل من هو ساكن بتلك المحلات يمكن أن يتدارك له مسكنًا ، ولا يؤخّر مصلحة المسلمين وأنه أيها الأحباب لما كانت المشارع (مرافئ السفن) بهذا الزمن فى هذه الجهات كالفيء ونحن لا نريد بالأفياء إلا مصلحة المجاهدين والمساكين ، ولا نرضى لمسلم أن يكون همّه الدنيا والجمع لها ، والمعلوم أن المشارع فيها أموال جسيمة وكل من استولى على مشروع جمع فيه مالاً كثيرًا ولا يجهـــز فـــيه غزوة ولا سرية واستضر بكتره فلذلك استصوب عندنا مع المشورة المسنونة أن نكتب إلى كافة المحبين أن يرفعوا أيديهم عن المشارع ، فلا نريد لمسلم بعد هذا أن يستخدم المشارع لنفسه ، وإذا كانت له مركب فلا سبيل عليه ، ومن انضم للجهاد معنا فله ضرورته ، والـــزائد على الضرورة إنما هو على العبد لا لـــه ، حيث أن من الذى رزقه الله لنا : الجناين فيجب أن يقوم الولاة بنظارتها ، ويعيّن لكل جنينه قيّم بشأنها ، وذلك بالتشاور مع أمين المال ، وكذلـــك فقد جعل الرسول (ﷺ) لنا : ما هو من الميرى وبيوت الكبار والذوات من التجار ومســـتخدمى الديوان (أتباع الحكومة السابقة) جعله لخصوص بيت المال (العام) وأظن أن الحكمـــة فى ذلـــك ، أنه كانت الآيات فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم تنسخ على حسب مصـــالح الخلـــق ، وكذلـــك الأحاديـــث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح ، فلأجل أن مصـــالح الخلـــق الآن كلها متعلقة ببيت المال ، ومادام النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فقد أمر النبى بذلك .

تلك هى سمة الفكر الاجتماعى فى الثورة المهدية تؤكد أنها ثورة فقراء صنعت بما فجرته مـــن طاقـــات روحـــية فى الشعب السودانى أشياء يدهش لها الباحث فيما خلقت من وثائق ومنشـــورات ، وهـــى تؤكد فى كل جوانبها أنها كانت واحدة من أبرز حركات اليقظة التى تصـــدت بهـــا الأمة فى السودان للتحديات التىفرضها عليها أعداؤها فى ذلك التاريخ . لكن المهديـــة انتهـــت كدولة بعد خمسة عشر عامًا من موت المهدى عندما هزم جيش خليفته أمام الاستعمار الإنجليزى فى موقعة (كررى) فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨م ، فسقطت عاصمتها أم درمان، ثم كـــان مقتل الخليفة فى موقعة (أم دبيكرات) فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م لكنها بقيت كفكر وطريقة صوفية وحركة سياسية وإن يكن قد أصابها ما أصاب الحركة السنوسية من ابتعاد قليل حينًا وكثير أحيانًا عن فكرها البكر وتطبيقات القادة المؤسسين .

★ ★ ★

الفصل الثالث

تنظيم جماعة الإخوان المسلمين
وكتاب معالم فى الطريق

نشأت حركة الإخوان المسلمين خلال عام ١٩٢٨ برئاسة حسن البنا للعمل على نشر الدعوة الإسلامية على أساس الحب والإخاء والتعارف ، ومع نجاح الحركة وانتشارها أخذ الإخوان يعملون على تحويل جماعتهم من جماعة مدنية إلى جماعة شبه عسكرية لتحقيق أهدافهم بالقوة ، وأخذوا فى بناء جيش لهم تحت اسم (فرق الرحلات) وكان الغرض الأول لدى الجماعة هو الرد على التغريب فى المجتمع المصرى بعد أن نبذت المرأة المصرية الحجاب ونزلت إلى ميدان العمل وإلى ميدان السياسة ، وظهور تيار التحرر العقلى ونبذ التقاليد القديمة ، واعتبرت الجماعة كل ذلك صورة من صور الانحلال فى البلاد المصرية ، وكان حسن البنا بحكم نشأته الريفية الدينية فى دمنهور ، ثم دراسته بمدرسة دار العلوم بالقاهرة قد اعتبر تطور الحضارة ما هو إلا تحلل أخلاقى ، أو نوع من الإلحاد والإباحية ، وهذا يخالف تعاليم الأزهر والجمعيات الإسلامية ، وبعد تخرجه فى دار العلوم سنة ١٩٢٨ استقر فى مدينة الإسماعيلية حيث اجتمع مع صفوة من أصدقائه منهم حافظ عبد الحميد وأحمد الحصرى وفؤاد إبراهيم وغيرهم وكوّنوا نواة سموها « الإخوان المسلمون » وضعوا أساسًا لها يتخلص فى الآتى :

أولاً : شمولية الإسلام أى شموله للدين والدنيا ووجوب عدم الفصل بينهما ، فالإسلام عبادة وقيادة ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، وصلاة وجهاد ، وطاعة وحكم ، ومصحف وسيف .

ثانيًا : الرجوع بالإسلام إلى تعاليمه الأولى حيث التبس على الناس الآن الدين الصحيح .

ثالثًا : الجامعة الإسلامية أى أن الإسلام كما هو عقيدة وعبادة فهو وطن وجنسية ، والمسلمون جميعًا أمة واحدة والوطن الإسلامى وطن واحد .

رابعًا : التمسك بفكرة الخلافة على أساس الفرض السابق .

خامسًا : الحكومة الإسلامية وهو اتجاه الإخوان المسلمين حيث تقوم آمالهم وأعمالهم نحو الحكومة الإسلامية بعد أن تنتشر مبادئهم وتسود ، لأن الحكومة الإسلامية ستكون ركنًا من أركان الإسلام .

وبعد أن نشأت جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ أصدرت الجماعة مجلة « النذير » وأخذت تدعو فيها للإسلام والمسلمين مقتفية أثر الرسول العظيم متخذة القرآن منهاجًا لها تنادى به ، وتعمل له ، ولم تكن تتدخل فى الأحوال السياسية للبلاد ، بل كانت تدعو الحكام والمسئولين إلى الأخذ بمناهج الإسلام ومبادئه ، ونبذ الخلافات والعمل على توحيد العمل، ودعت الملك إلى أن يكون أملاً للمسلمين فى رفع راية الإسلام .

وفى عام ١٩٣٣ بدأ حسن البنا يخوض فى المسائل السياسية مبررًا ذلك بأن الإخوان قد أصبح لهم دار فى كل مكان ، ودعوة على كل لسان ، وانخدع حسن البنا بشعارات القصر الدينية ، فوقف إلى جانبه ، خصوصًا أن القصر كان يذيع أن الوفد يسيطر عليه العناصر القبطية (مكرم عبيد) واشتدت قوة الإخوان حتى بلغت فروعها ثلاثمائة فرع فى عام ١٩٣٨ وكان مؤيدهم الأول فى هذا المضمار على باشا ماهر .

تدرج نظام الإخوان المسلمين بعد ذلك نحو التدخل فى الشئون السياسية للدولة ، وقرروا اتباع سياسة الجهاد لفرض تعاليمهم بالقوة فأسسوا النظام الخاص ، وقاموا بتشكيل الجهاز السرى فى غموض وكتمان ومبايعة وإيمان ، وقام هذا النظام على هيئة القيادة والخلايا وأركان حرب وجنود ، وحددت واجبات كل منهم والشروط الواجب توافرها فى الأفراد وترشيحهم للعمل ، وكل خلية لها أمير لتعليم أفراده واجباتهم ونوع عملهم وإقناعهم بشرعية هذا العمل ووضعهم تحت الاختبار ، ثم تحت الرقابة ، وأوجب النظام الطاعة العمياء لهذا الأمير ، وحدد نظام البيعة ، ونظام المخابرات الخاصة بهم للإشراف والتجسس على الأحزاب والقصر ، وبدأ الإخوان فى تجهيز هذا الجيش السرى بالعقول المدبرة والمال الوفير والأسلحة والمفرقعات والذخائر ، وتضخم هذا الجيش حتى بلغ فى أواخر عام ١٩٤٧ ٧٥ ألف فرد ، وانتشر النظام السرى فتغلغل فى القوات المسلحة والشرطة وجميع أجهزة الحكومة ، وكان للجهاز السرى ميزانيته الخاصة التى تنبع من الجماعة التى بلغت ميزانيتها فى عام ١٩٤٨ ٥٠ ألف جنيه شهريًا .

وفى عـــام ١٩٤٢ أغلقت حكومة الوفد جميع شعب الإخوان المسلمين ، ولكنها سرعان مـــا هادنتهم حتى عندما تركت وزارة الوفد الحكم عام ١٩٤٤ ، وكانت شوكتهم قد قويت وأصـــبحوا يطمعون فى الوصول إلى الحكم وتولت وزارة أحد ماهر الحكم ولم تغفر للإخوان تعـــاونهم مع الوفد حتى عندما رشّح حسن البنا نفسه ومعه خمسة من الأعضاء لعضوية مجلس النواب أسقطتهم الحكومة ، وكان ذلك أول تحد من الحزب السعدى للإخوان .. وعندما أعلن أحمـــد ماهر عزمه على إعلان الحرب على المحور عارضه الإخوان بشدة ونصحوه بالعدول عن ذلك ، ولكنه بعد أن ألقى بيانه بإعلان الحرب فى البرلمان يوم السبت ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ أطلق عليه محمود العيسوى الرصاص وهو يجتاز البهو الفرعونى فأودى بحياته ، ورغم اعتراف القـــاتل بأنه لا ينتمى إلى الإخوان المسلمين وإنما ينتمى إلى الحزب الوطنى فإنه عرف فيما بعد من الشيخ سيد سابق وخالد محمد خالد بأن محمود العيسوى كان من صميم الإخوان المسلمين – وكانت تلك بداية العنف فى سياسة الإخوان المسلمين .

وفى عـــام ١٩٤٦ تدخـــل الإخوان فى السياسة بشكل أكبر ، فعقدوا المؤتمرات لمعالجة القضية الوطنية ، وكان ذلك أثناء رياسة النقراشى باشا للوزارة ، وظهر ولاء الإخوان للقصر عندما نظموا مظاهرة كبرى للطلبة كانت قيادتها للإخوان المسلمين ، وتوجهوا إلى قصر عابدين وتعرض لهم النقراشى عند كوبرى عباس وأصيب منهم حوالى ٨٤ طالبًا ، ورد الملك فاروق عـــلى هـــذا الإجراء بزيارة الجامعة فى اليوم التالى ، وأعيد تنظيم المظاهرة مرة أخرى بقيادة مصـــطفى مؤمـــن تحـــت حماية البوليس وتوجهت إلى القصر ، وفى اليوم التالى سقطت وزارة النقراشـــى باشـــا ، وخلفـــه إسماعيل صدقى باشا الذى هادن الإخوان المسلمين ، وزارهم فى الجمعية وساعدهم فى إنشاء جريدة الإخوان المسلمين فى مايو عام ١٩٤٦ . وعيّن صدقى باشا حســـن العشماوى وزيرًا للمعارف ، وبدأ صدام بين الإخوان والوفد ، وحدثت معارك بينهما فى بورســـعيد وشبين الكوم سقط فيها بعض الضحايا ، وكانت قضية فلسطين قد بدأت تظهر وباســـم الجهـــاد ســـعى الإخوان المسلمين إلى الحصول على الأسلحة والذخيرة علنًا للجهاد مـــن أجل فلسطين ، بل أخذوا يتدربون على استعمال الأسلحة تحت أعين البوليس ورقابته ، وقد نجح الإخوان المسلمون بالفعل فى حربهم بفلسطين حيث احتلوا بعض المعسكرات ونسفوا البعض الآخر إلا أن نشاطهم بدأ بعد ذلك داخل القاهرة ، فنسفوا بعض الممتلكات اليهودية مثل محلات أركو وشيكوريل وعدس .. إلخ ، ثم لجأوا إلى قتل الجنود البريطانيين فى معسكراتهم

مما دعا الحكومة إلى القبض على الكثير منهم ، وتقديمهم للمحاكمة أمام المستشار أحمد الخازندار الذى حكم عليهم بأحكام قاسية تتراوح ما بين عشر وثلاث سنوات ، وبعد ثمانية أشهر من الحكم قتل اثنان من الإخوان المسلمين المستشار أحمد الخازندار بسبب تلك الأحكام .

وفى أواخر عام ١٩٤٨ ظهرت خطورة الإخوان المسلمين ، فقد أصبحوا شبه دولة داخل الدولة .. وفى ٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ أصدرت حكومة النقراشى قرارًا بحل جماعة الإخوان المسلمين ، واعتقال أعضائها ، ومصادرة ممتلكاتها ، وقد اتهم الإخوان حكومة النقراشى بأن السبب فى حل الجماعة مرجعه إلى مطالبة كل من سفارة أمريكا وانجلترا وفرنسا بالقضاء على الجماعة لإمكان الدخول فى مفاوضات الجلاء مع إنجلترا مع خوف الحكومة من الجماعة بسبب فشلها فى موضوع فلسطين والسودان ، وخوفها من المواجهة معهم فى الانتخابات القادمة . والحقيقة وراء قرار الحل هو خوف القصر والحكومة من تزايد قوة الإخوان المسلمين وسيطرتهم وتدخلهم فى الأحوال السياسية للبلاد .. وبعد عشرين يومًا من إجراء الحل تمكنت جماعة الإخوان المسلمين فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ من الانتقام من النقراشى بأن أطلق عليه عبد المجيد حسن الرصاص وهو داخل وزارة الداخلية فقتله ، وقد ردت حكومة القصر على هذا الإجراء بقتل حسن البنا فى ١٢ فبراير عام ١٩٤٩ ، وحاول التنظيم الرد على هذا الإجراء بمحاولة قتل إبراهيم عبد الهادى فى ٥ مايو ١٩٤٩ ولكنه نجا بأعجوبة ..

فى ١٢ يناير ١٩٥٠ شكّل الوفد حكومته الجديدة وجرت مفاوضات بين فؤاد سراج الدين وممثل الإخوان مصطفى مؤمن على إعادة الحياة إلى الإخوان المسلمين بطريقة غير رسمية ، وتم انتخاب حسن إسماعيل الهضيبى رئيسًا للجماعة ، ولمحت الجماعة إلى استعدادها للتعاون مع القصر ، وذهب الهضيبى فعلاً إلى القصر فى عربة ملكية فى ١٤ نوفمبر عام ١٩٥١ حيث تم لقاؤه مع الملك فاروق ، وتكررت الزيارات الملكية بعد ذلك ، وقيل إن الجماعة بدأت فى تطهير نفسها من الثوريين واتخاذ الأسلوب السلمى دستورًا لها ، وفعلاً لجأ الإخوان إلى الأسلوب السلمى إلا أن ذلك جعلهم يتعرضون للسخرية من موقفهم إزاء الاحتلال البريطانى وعدم اشتراكهم فى معارك القتل خصوصًا أن الهضيبى كان قد أعلن أن الإخوان

يستعملون القوة الروحية ، أما القوة المادية فهى من اختصاص الحكومة . وقد حدثت مواجهات بين الهضيبى والجهاز السرى للجماعة ، وألقى الهضيبى اللوم على هذا الجهاز فيما لحق الجماعة من نكبات ومصائب ، ولم يبال بأفكارهم .. وانقسمت الجماعة إلى فئتين إحداهما تؤيد الهضيبى فى سياسته ، والأخرى برئاسة عبد الرحمن السندى تؤيد قيام الجهاز السرى ، وترتب على ذلك أن بقى الجهاز السرى على حاله بأسلحته وعتاده . وحدث فى هذه الآونة الاتصال بين جماعة الإخوان المسلمين والضباط الأحرار وجرى التعاون بينهما خصوصًا فى معارك القتال وأثناء حريق القاهرة ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ .. وكان الإخوان يرفضون مبدأ قيام رجال الجيش بأى حركة عسكرية إلا أنهم أيدوا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما اتصل الضباط الأحرار بصالح أبو رقيق الذى اتصل بدوره بحسن الهضيبى الذى بارك قيام الثورة ، ومن هنا نشأت فكرة الإخوان من أن الثورة قامت بمساندتهم وأن رجال الثورة مدينون لهم ، وخاطب سيد قطب محمد نجيب فى جريدة الأخبار طالبًا منه إقامة دكتاتورية عادلة نظيفة وقصر الحرية على الشرفاء فقط . وبدأت هوة الخلافات تتسع بين الثورة والإخوان خصوصًا بعد صدور قانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية بمائتى فدان ، وكان الإخوان يرون أن يكون الحد الأقصى خمسمائة فدان ، وأن التوريث سيفتت الملكية بعد ذلك ، وهنا صرّح الهضيبى بعد مقابلة له مع عبد الناصر بأنه من الواجب أن تعرض الأمور عليهم قبل أن يتخذ فيها أى قرار من رجال الثورة ، وكان ذلك يعنى وضع الثورة تحت وصاية الإخوان .. وظهر الانقسام فى خطوط الإخوان تجاه رجال الثورة بين مؤيد لهم ومعارض ، إلى أن أطاحت الثورة بوزارة علي ماهر ، وقرّر عبد الناصر إشراك ثلاثة من الإخوان فى الوزارة ، ورشّح الهضيبى كلاً من منير دله وحسن العشماوى ومحمود أبو السعود لدخول الوزارة ، ولكن مكتب الإرشاد اعترض على دخول الوزارة ، وعندما عيّن عبد الناصر أحمد الباقورى فى الوزارة فصله الإخوان .. وقد ندم الإخوان على هذا التصرف بعد ذلك .

وبصدور قانون حل الأحزاب أصبح للإخوان الحق فى ممارسة عملهم كجماعة دينية فقط ، وليس لها التدخل فى السياسة ، ولكن رغم اتخاذهم لقرار احتفاظ الجماعة بالصبغة الدينية فإنهم قرروا أن يتولوا تشكيل منهم العمل السياسى ، وتولى الهضيبى الإخطار عن هذا التشكيل ، وأودع باسمه ٧٩٢٥ جنيهًا بالبنك العربى المصرى وكان معنى ذلك أن أموال الجماعة أصبحت كلها للتشكيل السياسى فقط ، وعقدت الجمعية التأسيسية للإخوان مرتين

وتمسك الإخوان بنشاطهم كهيئة سياسية ، وتقرر أن تكون هيئة المكتب المؤسسة من ثلاثة : السيد محمد حسنى عبد الباقى والدكتور محمد خميس حميدة ومحمد فهمى أبو غدير ، وقد استنكر الهضيبى هذا الموقف لأنه لم يكن اسمه ضمن المؤسسين ، وصمّم على الاستقالة ولكنه عدل عنها بعد ذلك .

وقد كان القانون الأساسى للإخوان الصادر فى ٨ سبتمبر عام ١٩٤٥ والمعدّل عام ١٩٤٨ ينص على تشكيل الجماعة لتكون هيئة إسلامية تعمل لتحقيق الأغراض التى جاء من أجلها الإسلام ، وما يتصل بهذه الأغراض ، ومن ذلك شرح دعوة القرآن الكريم وتقريب وجهات النظر بين الفرق الإسلامية المختلفة ، وتنمية الثروة القومية وحمايتها وتحريرها ، والعمل على رفع مستوى المعيشة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية والتأمين الاجتماعى لكل مواطن ، والمساهمة فى الخدمة الشعبية ومكافحة الجهل والمرض والفقر والرذيلة ، وتشجيع أعمال البر والخير ، وتحرير وادى النيل والبلاد العربية والوطن الإسلامى من سلطان الأجانب ، ومساعدة الأقليات الإسلامية فى كل مكان ، وتأييد الوحدة العربية تأييدًا كاملاً والسير إلى الجامعة الإسلامية فى كل مكان ، وتأييد الوحدة العربية تأييدًا كاملاً والسيرة وتعاليمه ودراستها فى الداخل وتبلغها فى الخارج ، ومناصرة التعاون العالمى . وقد حدد القانون الوسائل التى تحقق هذا البرنامج ، وتتلخص فى الدعوة بطريق النشر والإذاعة وتجهيز الوفود والبعثات فى الداخل والخارج وتربية الإخوان وتكوينهم تكوينًا صالحًا بدنيًا بالرياضة وروحيًا بالعبادة وعقليًا بالعلم والتوجيه عن طريق وضع المناهج الصالحة فى كل شئون المجتمع والعمل وذلك بإنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية ودينية وعلمية وإقامة المساجد والمدارس والمستوصفات والملاجئ . وحدد القانون الهيئات الإدارية للإخوان ، وهى المرشد العام رئيسًا ومكتب الإرشاد العام وهو الهيئة الإدارية العليا للإخوان والمشرف على سير الدعوة والموجه لسياستها وإدارتها ثم الهيئة التأسيسية ، وهى مجلس الشورى للإخوان والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد ، وحتّم القانون على المرشد الدعوة إلى مؤتمر عام كل سنتين من رؤساء شُعب الإخوان للتفاهم فى الشئون المختلفة ، ولم يشر قانون الجماعة إلى سعيهم نحو الحكم وإنما فُهم أن لهم الحق فى التدخل السياسى ، وجاء فى إحدى الفقرات (يعتمد الإخوان المسلمون فى تحقيق هذه الأغراض على الوسائل الآتية ... وعلى كل وسيلة أخرى مشروعة) وقد حاول الإخوان بعد ذلك إعادة فرض وصايتهم على الثورة ، ولكن دون نتيجة ، ولكن وافق الإخوان على اتفاقية

الجـلاء الـتى وقعهـا عبد الناصر مع الإنجليز ، ومنها بقاء بعض الخبراء منهم فى القاعدة ، واستخدام القاعدة فى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى دولة تكون طرفًا فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو على تركيا والتشاور على العودة فى حالة خطـر الحـرب ، وظهر للإنجليز وقتئذ موقف الإخوان ومرونتهم أكثر من الأحزاب الأخرى بموافقتهم على هذه الاتفاقية .

وكـان الخلاف الذى نشأ منذ تعيين الهضيبى مرشدًا عامًا بينه وبين عبد الرحمن السندى الـذى تـنحى عـن رياسـة التنظيم والاشتغال بقسم الرياضة يزداد وضوحًا إلى أن تدخل عـبد الناصـر واجـتمع برؤسائهم فى مجلس قيادة الثورة واستنكر أن يكون للتنظيم أفراد فى القـوات المسلحة والشرطة وطالبهم بحل التنظيم السرى ، وبعرض الموضوع على الهضيبى اسـتنكر وجود التنظيم السرى خصوصًا داخل القوات المسلحة والشرطة ، ولاحظ السندى أن الهضـيبى يعمـل عـلى تكوين تشكيل جديد من القادة ، كما يعمل على التخلص منه ، وواجهـه بهـذه الوقـائع ولكنه خرج بانطباع استحالة التعاون مع الهضيبى ، وعندما اطمأن الهضـيبى إلى السيد فايز الرجل الثانى فى التنظيم وتمكن من ضمه إليه فوجئ فايز بانفجار طرد ناسـف فى شكل هدية حلوى مولد النبى أودت بحياته ، وكان هذا ذروة الصراع بين الهضيبى والسـندى ، واجتمع مكتب الإرشاد وقرر فصل عبد الرحمن السندى ومحمود الصباغ وأحمد زكى وأحمد عادل واختير يوسف طلعت رئيسًا للتنظيم السرى ، وهو تاجر حبوب من مؤيدى الهضـيبى ، وقد حدث نتيجة فصل الأربعة المذكورين انقسام داخل الجماعة أدى إلى اعتصام بعض الإخوان بالمركز العام ، وذهب بعض الرؤساء إليهم لإقناعهم بفض الاعتصام دون فائدة، واسـتنكر أنصـار الهضـيبى هذا الاعتصام ، ولم يقتنع أى من الجماعتين بالوصول إلى نتيجة مرضـية ، فصدر بيان بدعوة الهيئة التأسيسية للإخوان — وهنا انصرف المعتصمون — وظهر الانقسـام واضـحًا بـين صفوف الإخوان ، وعمل كل من الفريقين على مهاجمة الآخر على صـفحات الجرائد ووصفوا قرار الفصل بأنه صدمة قوية وطالبوا بنشر الحقائق بالكامل لتبدو الأشخاص عارية على حقيقتها .. واتفق عبد الناصر مع عشماوى على تكوين لجنة تحقيق تتولى الفصل فيما نسب إلى الأعضاء الأربعة المفصولين ، ولكن الهضيبى رفض ذلك ثم وافق عليه ، ولكـن صدر قرار من مكتب الإرشاد يوم ٩ ديسمبر ١٩٥٣ بفصل صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد جلال ، وقد سارع الأعضاء الثلاثة المفصولون بحضور اجتماع الهيئة التأسيسية

ووقف صالح عشماوى يشرح كيفية انتخاب الهضيبى ، وكيف أن هذا التعيين كان إرضاءً للقصر الملكى ، وقدّم عبد العزيز كامل طلبًا للنظر فى أمر كل من الثلاثة المفصولين على حدة ، وثار الهضيبى وأتباعه ، وقال الهضيبى يجب أن يفصل الجميع ، ثم وقف ودعا بصورة تهديدية من لا يوافقون على الفصل بالوقوف ، بينما طالب أنصار عشماوى بالأخذ بالرأى بالطريقة السرية ، واعترض على الفصل حوالى ٢٨ شخصًا من ستين تقريبًا ، ولكن الواقفين حول الهضيبى تعالت أصواتهم بأنهم أخذوا أسماء المعترضين على الفصل ، وأن كل من يُظهر عطفًا على المفصولين سيحال إلى لجنة العضوية والتحقيق ، ويؤخذ بمنتهى الشدة ، وبذلك انتصر جناح الهضيبى وأصبح يسيطر سيطرة كلية على التنظيم السرى ، وأقام جهازًا للإشراف عليه مكونًا من إبراهيم الطيب مسئولاً عن القاهرة ، وأحمد حسنين مسئولاً عن الأقاليم وصلاح شادى مسئولاً عن البوليس ، وأبو المكارم عبد الحى مسئولاً عن الجيش ، واستبدل بالهيئة العليا القديمة اللجنة العليا للجهاد التى تمثل السلطة العليا للتنظيم للإشراف على الجهاز . وبعد أن اطمأن الهضيبى إلى استقرار الأوضاع أصبح يطمع فى السيطرة على رجال الثورة خصوصًا أن محمد نجيب اتصل عدة مرات يشكو له الحكم الدكتاتورى لرجال الثورة وأنه يطمع فى معاونته لإقامة نظام نيابى دستورى .. واجتمع الهضيبى برجاله وطلب منهم أن يعملوا (أى حاجة)، ولكن يوسف طلعت أبلغه بتعذر القيام بأى إجراء إلا بعد سنة ، حيث يتوقع أن يكون لديه عشرة آلاف من الإخوان تحت إمرته ، وقد نفى محمد نجيب هذه الوقائع وقرر أنه هو الذى تلقى طلبًا من الإخوان للاجتماع به سريًا ، ولكنه رفض هذه السرية ، فطلبوا منه تفويض مندوب عنه لمفاوضتهم ، فعين محمد رياض الذى اجتمع مع حسن العشماوى ومنير دلة عدة مرات ، وكانت شروط نجيب للتعاون مع الإخوان تتلخص فى إنهاء الحكم العسكرى وعودة الجيش إلى ثكناته ، وإقامة الحياة الديمقراطية البرلمانية ، وعودة الأحزاب ، وإلغاء الرقابة على الصحف ، ولكن الإخوان رفضوا ذلك وطالبوا ببقاء الحكم العسكرى وعارضوا عودة الأحزاب وإقامة الحياة النيابية ، كما عارضوا إلغاء الأحكام العرفية ، على أن ينفرد محمد نجيب بالحكم ويتم إقصاء عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس الثورة ، وأن تشكّل حكومة مدنية ، لا يشترك فيها الإخوان ، ولكن يتم تأليفها بموافقتهم ، وأن يعيّن رشاد مهنا قائدًا عامًا للجيش ، وأن تشكل لجنة سرية استشارية يشترك فيها بعض العسكريين الموالين لمحمد نجيب وعدد ما من الإخوان المسلمين ، وتعرض على اللجنة القوانين قبل إقرارها ، كما يعرض عليه

السياسة الرئيسية للدولة ، كما يعرض عليها أسماء المرشحين للمناصب الكبرى ، ويقول محمد نجيب إنه رفض كل هذه المقترحات لأنها تؤدى إلى سيطرة الإخوان على الحكم ، وفى تلك الظروف أبلغ عبد الناصر بوجود اتصالات بين الإخوان والإنجليز فكان حاسمًا ، حيث أصدر أمرًا من مجلس قيادة الثورة فى ١٤ يناير ١٩٥٤ باعتبار أن جماعة الإخوان المسلمين حزبًا سياسيًا يطبق عليه قرار الحل ، وخرجت سيارات الجيس تقطع شوارع القاهرة تجمع الإخوان من بيوتهم بينما كانت القطارات تصل من الأقاليم تحمل المعتقلين من الإخوان . وهكذا وكما دفع الإخوان فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ ثمن مساندتهم لدكتاتورية القصر دفعوا فى ١٤ يناير عام ١٩٥٤ ثمن مساندتهم لدكتاتورية الثورة ، ولم يتعلموا أن الأخطاء التى ترتكب فى حق الديمقراطية تنتقم من فاعليها .

امتلأت المعتقلات مرة أخرى بالإخوان المسلمين ، وتفجّر الصراع بين مجلس قيادة الثورة ومحمد نجيب ، وقرر المجلس تنحية محمد نجيب ، وتعيين جمال عبد الناصر رئيسًا لمجلس قيادة الثورة ، ولكن الصف الثانى من الضباط الأحرار ومعظمهم كان من رجال المدرعات ثار ضد هذا الوضع ، واستنكر تنحية محمد نجيب ، وخشى مجلس قيادة الثورة من تفاقم الأزمة وتكاتف الإخوان مع الوفد الذين حرّكوا المظاهرات المنادية بسقوط الدكتاتورية مطالبة بعودة محمد نجيب ، وإزاء هذا الموقف المتدهور قرر مجلس قيادة الثورة إعادة محمد نجيب فى ٢٧ فبراير عام ١٩٥٤ ، وفى اليوم التالى خرجت المظاهرات تناشد محمد نجيب الإفراج عن الإخوان المعتقلين ، واستعان نجيب بعبد القادر عودة الذى كانت الجماهير تحمله على أكتافها لتهدئة الموقف بعد أن وعد بإجابة مطالبهم ، وكانت هذه المظاهرات أول مظاهرات يقوم بها الإخوان للمطالبة بالديمقراطية ، وهذا نفسه ما جمعهم مع رجال الثورة إلى أن انقلب الحال عليهم فرفعوا شعارات الديمقراطية لتحميهم من الدكتاتورية التى أوشكت على القضاء عليهم رغم أن المعتقلين منهم وقتئذ لم يزد عددهم على ٤٥٠ فردًا ، وناور عبد الناصر لإحراج الهضيبى بزيارة قبر حسن البنا فى ذكرى وفاته ١٩٥٤/٢/١٢ ومعه الشيخ حسن الباقورى ، وخطب قائلاً (أشهد الله أنى أعمل وكنت أعمل لتنفيذ هذه المبادئ وأفنى فيها وأجاهد فى سبيلها) قاصدًا بذلك ضرب سياسة الهضيبى وجماعته .

وأعقـــب ذلك مفاوضات بين عبد الناصر وعبد القادر عودة حيث اشترط عبد الناصر لإعادة الجماعة من جديد الآتى :

١ – الابتعاد عن النشاط السياسى .

٢ – إيقاف نشاط الإخوان المسلمين داخل صفوف الجيش والبوليس .

٣ – حل التنظيم السرى .

وقـــد وافق الإخوان على هذه الشروط صاغرين ، إلا أنهم أوضحوا استعدادهم لتصفية التنظـــيم السرى دون الاستغناء عن مبدأ النشاط السياسى للجماعة ، وقد أعلنوا هذا الرأى على الملأ وفى كل مكان إلى أن قامت مظاهرات ٢٧ ، ٢٨ فبراير عام ١٩٥٤ وكان للإخوان الضلع الأكبر فيها خصوصًا أنها كانت ضد عبد الناصر .. وفى أعقاب تلك المظاهرات اعتقل عـــبد القادر عودة ومعه خمسة وأربعون من الإخوان المسلمين ، ووقفوا على أرجلهم بالسجن الحربى من الرابعة صباحًا حتى السابعة يضربون بالسياط فى وحشية بالغة .

وفى يوم ٢٥ مارس ١٩٥٤ قرر مجلس قيادة الثورة حل تشكيل المجلس وانتخاب جمعية تأسيسية انتخابًا حرًا مباشرًا لها سلطة السيادة وسلطة البرلمان كاملة على أن تسلم البلاد لممثلى الأمـــة ، وخرج حسن الهضيبى من المعتقل إلى منزله وزاره عبد الناصر وصلاح سالم وطلبا منه نسيان الماضى والتعاون معًا واتفقا على الآتى :

١ – تعـــود الجماعة إلى سابق نشاطها وكيانها بدون أى حد من حريتها وإعادة أموالها المصادرة وشُعبها ومركزها العام .

٢ – الإفراج فورًا عن جميع المعتقلين من الإخوان المسلمين مدنيين وعسكريين مع إعادة من فصل منهم إلى الخدمة العسكرية .

٣ – أن يصدر مجلس الثورة بيانًا يوضح فيه حقيقة الأسباب التى اعتبرها داعية إلى حل الإخوان ، ويكون هذا البيان فصل الختام فى هذه المسألة المؤسفة .

وصـــرح الهضـــيبى بعد ذلك بأن الإخوان المسلمين سيكونون عونًا للحكومة على طرد الإنجلـــيز ورد اعتداءاتهم ، وهكذا توصل عبد الناصر إلى وضع الهضيبى فى جيبه قبل أن يصل

إليه نجيب ويضمه إلى صفه . ويعتقد البعض أن هذه المهادنة استهدفت القضاء على فكرة عودة الأحزاب والحياة البرلمانية ثم الانفراد بالسلطة ، وذلك بضمان سكوت الإخوان إلى حين وحتى تحين الفرصة للانقضاض عليهم بعد ذلك .

أعقب ذلك قيام عبد الناصر بضرب الصحافة تحت اسم تطهير الصحافة ، ثم أصدر قرارًا بحرمان السياسيين الذين تولوا الوزارة خلال العشر سنوات السابقة على الثورة من تولى الوظائف العامة ومجلس إدارة النقابات والهيئات ، وقضى على من اشترك فى أى نضال سياسى من أساتذة الجامعات وكان قد أفرج عن الكثير من الإخوان المعتقلين عدا العسكريين منهم وعلى رأسهم عبد المنعم عبد الرؤوف الذى قُدّم إلى محاكمة عسكرية ، ولكنه استطاع الهرب إلى خارج البلاد .

وقد بعث الهضيبى بخطاب إلى عبد الناصر فى ٤ مايو عام ١٩٥٤ يذكره بالبنود التى تم الاتفاق عليها ، وأن معظمها لم ينفذ ، وقال إن مصلحة البلد تقتضينا أن نبذل لكم من رأينا فى مشاكله ما نرى أنه يدعو إلى اطمئنان الناس ، ويحقق الاستقرار ، وطالب الهضيبى بثلاثة مطالب :

١ – إعادة الحياة النيابية باعتبار أنها الأساس السليم لكل حكم فى العصر الحاضر .

٢ – إلغاء الإجراءات الاستثنائية والأحكام العرفية .

٣ – إطلاق الحريات خصوصًا حرية الصحافة وحريات المعتقلين وبعض المحكوم عليهم من المحاكم الاستثنائية .

وقد أخذ هذا الخطاب طريقه ليس إلى عبد الناصر وحده ، وإنما ظهر كمنشور إلى الشارع المصرى عرف به كل مواطن مما يعنى عودة الصراع العلنى ، وكان عبد الناصر يسخر دائمًا من ادعاء الإخوان للديمقراطية حيث يتنافى وجود جهازهم السرّى مع النظم الديمقراطية .

كما أن نظامهم الداخلى يقوم على أسس دكتاتورية بحتة فهيئتهم التأسيسية وهى برلمان الجماعة تقوم على التعيين وليس على الانتخاب ، وآراء مكتب الإرشاد غير ملزمة للمرشد الذى يمكنه إصدار أى قرار دون الرجوع إلى المكتب ، وعلى ذلك فهم آخر من يطالب عبد الناصر بالديمقراطية .

واســتتبع ذلــك انقسام ثلاثى داخل الإخوان : الأول على رأسه البهى الخولى ويؤيد الثورة ، والثانى على رأسه الهضيبى ويرى أنه لا يمكنه التعاون مع الثورة ، والثالث يرأسه خميس حميدة ويحاول التوفيق بين الاتجاهين ، وإزاء هذا الموقف ترك الهضيبى مصر وسافر لزيارة البلاد العربــية ، وتقدم خميس حميدة الصفوف وتقابل مع عبد الناصر وناقشه فى قرار الحل واعتقال بعــض الضــباط ورد عليه عبد الناصر باستحالة قيام حياة ديمقراطية مع وجود أجهزة سرية ترهــب المواطنين والحكومة والرياسات ، ولابد أولاً من حل هذه الأجهزة إذا كان الإخوان يــريدون إثبات حُسن النية ، ووعد خميس بإصدار خطاب بإلغاء الحل والإفراج عن الضباط المعتقلين .

وأعقب ذلك توقيع عبد الناصر اتفاقية الجلاء مع الإنجليز فى ٢٧ يوليو عام ١٩٥٤ دون أن يــبر بوعــده مع خميس حميدة ، إلا أن موقف الهضيبى من الاتفاقية ظهر فجأة فى صحف بــيروت حيــث أعلــن رفضه للأسس القائم عليها الاتفاق ، مؤكدًا أن أى اتفاق مع مصر وحكومــة أجنبية ينبغى أن يعرض على برلمان منتخب بإرادة حرة ، بحيث تمثل إرادة الشعب المصــرى ، وعلى صحافة متحررة من الرقابة وتملك حرية المناقشة ، ولا عجب فى هذا الرأى حيــث إن الإخــوان هم الذين قبلوا الأسس التى قامت عليها هذه الاتفاقية عندما تفاوضوا من قبل عليها مع إيفانز .. وأعقب ذلك عودة الهضيبى وحضوره اجتماعًا للإخوان ارتفعت فيه الأصوات بالموت للخونة – وتلا ذلك مهاجمة بيت المرشد أثناء غيابه – واختفى هو ومن معه كما لجأ الكثير من الإخوان إلى الاختفاء عن الأعين وبذلك انتقل نشاط الخوان من العلانية إلى السرّية وتحولت الجماعة إلى جهاز سّرى كبير .

فى هــذا الوقت كان التنظيم السرى تحت قيادة يوسف طلعت الذى كان يتولى من قبل رئاســة التنظــيم الســرى فى الإسماعيلية ، كما كان على صلة طيبة بالهضيبى ، وقد استشار الهضــيبى الكثير من الإخوان وعلى رأسهم خميس حميدة فى تعيين يوسف طلعت لهذا المركز ، ومعــنى ذلك أن مكتب الإرشاد كان لــه رأى فى تعيينه ، رغم أن التعيين يصدر من المرشد وحده ، وقد سنحت للهضيبى الفرصة بعد هذا التعيين فى تنفيذ سياسته فيما يتعلق بنظام الجهاز الســرى والذى كان يقوم على أساس (إعداد الفرد المسلم إعدادًا صالحًا للدفاع عن الوطن الإســلامى) وفى ذلــك يقــول (اتفقنا على أنه لا يجوز البتة ارتكاب أى جريمة من الجرائم

ولا القيام بأى عمل إرهابى) وقد أكد يوسف طلعت هذا الكلام وقرر أن الهضيبى قال له بعد التعـيين (مش عاوز روح العصابة تهيمن على الأفراد والتزمت والسرية) ، ولكن لم يكن من السهل تغيير هذا النظام فقد كانت روح السندى تهيمن على الجهاز ، وأعضاؤه يمثلون الأغلبية فيه ، وقال يوسف طلعت بعد ذلك (أنا وجدت فى هذا الجهاز ناس مش من الإخوان وعناصر لم تـتـرب عـلى دعوة الإخوان) وظل الكثير من الإخوان بالجهاز يتربصون بيوسف طلعت وينسبون إليه (أنه خاين وعاوز يصفى الجهاز) وقد ظهرت صعوبة إقناع أعضاء هذا الجهاز مـن الشـباب المـتحمس الذى يصعب إقناعهم بتصفية مثل هذا الجهاز إذا كانت هناك نية فى التصـفية ، فكـان ولابـد أن تسير الأوضاع سيرها العادى منذ القدم ، وقد قرر محمود الحواتكـى وكان رئيسًا لفصيلة الجيزة أنه كان يتوقع أشياء تهدده إذا خرج من الجهاز مشيرًا بذلـك إلى اغتـيال السـيد فايز على أيدى أنصار عبد الرحمن السندى . وقد شرح محمود الحواتكى مسألة إرهاب النظام للخارجين عليه ، فذكر أن هناك فرقًا بين جماعة المؤمنين وجماعة الإرشاد فإذا كانت جماعة الإخوان مثل جماعة المؤمنين فإن الأمر الذى يصدر منها يصبح ملزمًا، أما إذا كانت جماعة إرشاد فأمرها لا يكون ملزمًا ، وقال إن الخارج على جماعة المؤمنين جزاؤه القـتل فى الإسلام ، ولكن الخارج على جماعة الإرشاد لا يقتل ، وقرر أن هذا التفسير لم يكن واضـحًا لدى التنظيم السرّى القديم ، ولكنه أوضح للتنظيم الجديد ، وقد قرر يوسف طلعت أن روح التنظـيم القـديم هى التى تسيطر على الجهاز رغم عدم قيام الجهاز السرّى الجديد بارتكاب أى حوادث ضد الخارجين عليه .

وقـد لوحظ أنه بعد استئناف الجماعة لنشاطها بعد مارس عام ١٩٥٤ استأنفت أيضًا إعادة تنظيم جهازها السرى ، وأخذ يوسف طلعت فى إعداد الجهاز السرّى فى أوائل أبريل من الناحية التنفيذية ومن ناحية تجميع الأفراد وإعدادهم الإعداد الثقافى والروحى .

ولكن هل أقام يوسف طلعت تنظيمه الجديد على أسس التنظيم القديم أم قام بالتغيير ؟

بالنسبة للتشكيلات فإن التشكيل القديم كان يقوم على أساس الخمسات أى المجموعات تتكون من خمسة أفراد يرأسها واحد ، وتتدرج فى شكل هرمى بحيث يكون رؤساء الخمسات مجموعـة أعـلى يرأسها واحد ، يكون بدوره فى مجموعة أعلى يرأسها واحد ، حتى تصل إلى رياسة عبد الرحمن السندى ، وكان هناك فصل بين رؤساء الشعب ورؤساء الجهاز الموجودين

فى شعبهم ، وكان الفضل فى التغيير الذى حدث بعد ذلك إلى الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف الـــذى كان عضوًا فى الإخوان ، وهرب أثاء المحاكمة ، واختفى عند إبراهيم الطيب واجتمع بيوسف طلعت ووضع خطة التشكيل الجديد على أساس الانقسام إلى سبعات وكل سبعة يطلق علـــيها اسم مجموعة ، ويتكون من كل ثلاث مجموعات مجموعات فصيلة يضاف إليها مجموعة خدمـــات فيصـــير مجموع الفصيلة ثمانية وعشرين فردًا ، يضاف إليهم رئيس الفصيلة ووكيله فـــيكون مجموع الفصيلة ثلاثين فردًا ، وتتكون من هذه الفصائل المنطقة التى يكون بها فصيلة أو اثنـــتان أو ثلاثة ، ويكون رئيس المنطقة هو الرئيس الأعلى للفصائل إذا كان لها رؤساء ، أو يكـــون رئيســـها المباشر إذا كان فى المنطقة فصيلة واحدة أو اثنتان ، وهناك ضباط اتصال فنـــيون يتـــبعون رئاسة الجهاز السرّى ويكونون صلة بينها وبين رئيس المناطق ، وهو إبراهيم الطيب وبينه وبين رؤساء الفصائل هذا بالإضافة إلى ضباط اتصال إداريين ويتكون من المناطق الأقســـام القطـــرية الكبرى وينقسم القطر المصرى إلى ثلاثة أقسام : القاهرة ويرأسها إبراهيم الطيب ، والأقاليم ويرأسها أحمد حسنين ثم الإسكندرية . وقد قبل يوسف هذا التنظيم الجديد واعتـــبره إزالة للسريّة القديمة وانفتاح دون تزمت .. واختار يوسف لنظامه الجديد الكثير من الأعضـــاء الذين كانوا على خلاف مع عبد الرحمن السندى وجماعته ، وعمل على تطعيمه من أفـــراد الـــنظام العام مخالفًا بذلك الأساس الذى وضعه السندى من قبل ، حتى قيل عن نظامه الجديـــد إنه تسريح للنظام القديم ، وقال أحد أعضاء النظام الجديد إن من الشروط التى يجب توافرها فى العضو أن يكون عاقلاً غير متهور ، وأن يكون فوق ٢١ سنة ، وأن يكون مستعدًا لـــلجهاد فى القضايا العامة وقت أن تكون البلاد فى حاجة إليه ، كما قال آخر إن البرامج فى الـــنظام له ناحيـــتان تربية روحية ودراسات إسلامية ، وناحية عسكرية ، وهى تدريب على التشـــكيلات العسكرية والأسلحة لمن لم يتدرب ، وكان معظمهم مدربًا فى الحرس الوطنى ..

وكان أهم شىء فى التنظيم الجديد هو الربط بين النظام الخاص والنظام العام ، فحتى ذلك الحين كان هناك فصل تام بين رؤساء الجهاز السرّى ، بمعنى أن رؤساء النظام العام لم يكونوا يعلمون شيئًا عن النظام الخاص وعن رؤسائه فى مناطقهم ، ولكن فى التنظيم الجديد أصبح رئيس المنطقة هو رئيس جهازها السرّى ، ومعنى ذلك أن الجماعة قد تحولت إلى جهاز سرّى ، أو أن العمل الســـرّى قد أصبح جزءًا من نشاط الجماعة العلنى ، وهذا التطور جعل الجماعة أخطر بكثير مما كانت عليه أثاء حياة الشيخ حسن البنا ، حيث لم يعد هناك فصل بين العمل السرّى والعمل

العلنى ، واتسعت اختصاصات رئيس الجهاز السرّى لتشمل رؤساء الجهاز العلني ، أى أن بناء الـــنظام الخاص قد ترتب عليه إعادة بناء النظام العام ، بحيث يتطابق مع النظام الخاص ، كما ترتـــب عليه أيضًا تغيير قيادات النظام العام ، حيث استبعدت بعض القيادات ، وحلت محلها قيادات صالحة لرئاسة النظامين .

ووفقًـــا للتنظيم الجديد للجهاز السرى فإن القاهرة قد قسمت إلى عشر مناطق يرأسها إبراهـــيم الطيب وهو محامى يبلغ من العمر ٢٢ سنة ، ومنطقة وسط القاهرة يرأسها السيد حســـين أبـــو سالم وعمره ٣٠ سنة ، وكان فريد عوض وكيله وتشمل هذه المنطقة بولاق – التوفيقية – الموسكى – الأزبكية – عابدين – درب سعادة – الجمالية – الدراسة – وكان لها فصـــيلة مـــن ثلاث مجموعات . ومنطقة الفسطاط يرأسها عبد العزيز أحمد وعمره ٦٢ سنة وتشـــمل حلوان وطره والمعادى ومصر القديمة والروضة ، وبها فصيلتان ، وكل فصيلة تتكون من أربع مجموعات . ومنطقة الجيزة ويرأسها يوسف هارون ، وبها فصيلة من أربع مجموعات . ومنطقة شرق القاهرة ويرأسها محمد عبد المعز وعمره ٢٢ سنة وبها ثلاث فصائل ، فصيلة منها تكـــون شـــعب سراى القبة وحمامات القبة ومصر الجديدة . ومنطقة جنوب القاهرة ويرأسها كمال النافيرى .. ومنطقة شمال القاهرة ويرأسها محمد شديد .. ومنطقة المرج ويرأسها محمود يونـــس .. ومنطقة غرب جهينة ويرأسها محمود يونس أيضًا .. ومنطقة بين السرايات ويرأسها عـــلى الفـــيومى .. ومنطقة إمبابة ويرأسها هنداوى دوير ، وكون له فصيلة مكونة من ثلاث مجموعات ومجموعة مخابرات .

أمـــا الأقاليم فكان يرأسها أحمد حسنين ، وقد عرف من مناطقها الشرقية وشرق القنال والغربية والمنوفية والبحيرة وبنى سويف وأسيوط والفيوم والمنيا .

وكـــان الجمـــع بين رئاسة النظام العلنى ورئاسة النظام السرى قد أتاح الفرصة لرئيس التنظيمين لتسخير إمكانات النظام العلنى فى خدمة النظام السرى ، فقد كان كل رئيس منطقة يتـــبعه عدد من نواب الشعب يبلغ تسعة نواب يجتمعون معًا ، ولهم ضابط اتصال بينهم وبين القاهـــرة وكانـــت مهمة نواب الشعب إعطاء المعلومات لرئيس المنطقة وترشيح أسماء الصف الأول فى الشـــعب للنظام الخاص ، وقد وضع نظام اتصال بين يوسف طلعت وإبراهيم الطيب

وبـــين إبراهـــيم الطيب ورؤساء الفصائل عن طريق ضباط اتصال فنيين يتبعون يوسف طلعت وذلك خلاف ضباط اتصال إداريين آخرين .

وقد أقيم قسم بذاته للمخابرات يرأسه صلاح عبد المعطى يتبعه يوسف طلعت مباشرة ، ومهمـــته مراقـــبة أعضـــاء الجهاز ، وتقديم تقارير عنهم ليوسف طلعت تشتمل على زياراتهم واجـــتماعاتهم وملاحظات على حالتهم النفسية ، كما كان هذا القسم ينبع نشاط الشيوعيين ويكتب عنهم تقارير مستمرة لأنهم كانوا يعتبرون الشيوعيين عدوهم الأول .

أمـــا عن تسليح الفصائل فقد كان مسدسًا لرئيس المجموعة وثلاث بنادق ومدفعين استن ومدفـــع برن وقنبلتين لكل فرد ، أو كان التسليح يتم مباشرة من أمين المخازن ، وهو السيد عـــبد الله الـــريس طالب بكلية الآداب وبين قواد الفصائل ، وكانت تعليمات توزيع السلاح تصدر من إبراهيم الطيب إلى السيد عبد الله الريس عن طريق ضابط الاتصال إسماعيل عارف ، وكـــان المخزن الرئيسى للسلاح هو مخزن عرب جهينة وكان مقره مقابر أسرة المرشد حسن الهضـــيبى ، هـــذا بخـــلاف مخزن خاص لكل منطقة غالبًا ما يكون شقة بأحد الأحياء ، وكان التدريـــب على السلاح يتم فى بداية الأمر فى معسكر كرداسة ويقوم بالتدريب شخص اسمه الخضـــرى ، وقـــد هاجم البوليس المعسكر بعد ذلك ، ولكنه لم يقبض على أحد ، وقد قرر يوسف طلعت أن نظام التسليح الذى كان قد اتفق عليه مع عبد المنعم عبد الرؤوف اصطدم بعقبة كيفية الحصول على السلاح ولكنهم لجأوا إلى طريق الاكتتاب حيث كان المصدر الأول لـــتمويل السلاح ، وقد تم تدريب حوالى ألفين فرد على حمل السلاح بواسطة يوسف طلعت الذى كان أمله فى الارتفاع بالأفراد إلى عشرة آلاف فرد .

أمـــا عن تبعية الجهاز السرّى فقد كان معروفًا أنه يتبع المجلس الأعلى للجهاد المكون من يوسف طلعت وصلاح شادى والشيخ محمد فرغلى والدكتور خميس حميدة ، وكان هذا المجلس يخضـــع مباشـــرة للمرشد العام ، ويتعاون معه فى إدارة الجهاز ، ويأتمر بأمره فى كل خطة قبل تنفـــيذها ، إلا أن هذا المجلس كان مستقلاً تمامًا عن مكتب الإرشاد ، وقد نفى كل من محمد فرغـــلى وخمـــيس حميدة وجود المجلس الأعلى وقررا أن اتصال رؤساء الفروع الثلاثة للتنظيم الســـرّى كـــان بالمرشـــد بشكل مباشر ... وقد قرر حسن الهضيبى أن هناك لجنة مكونة من الدكـــتور حســـين كمـــال الدين وكمال خليفة ومحمد فرغلى للاتصال بالنظام وكان ضابط

الاتصال هو محمد فرغلى باعتباره عضوًا فى مكتب الإرشاد ، وكان محمد خميس حميدة مفوضًا فى إدارة شئون الجهاز ، وقد رد الهضيبى عليه بأنه المسئول الأول عن الجهاز السرّى بقوله : قانونًا ده صح ، ولكن هُمّا كانوا بيشوفوا كل حاجة لأن خميس وفرغلى كان موكولاً إليهما الإشراف على الجهاز السرّى وأنه لم يكن يستطيع الإشراف الكامل على كل شيء .. وهذا الكلام يؤكد وجود المجلس الأعلى للجهاز ولكن بدون صفة رسمية ، وقد أنكر فرغلى وخميس الشكل القانونى للمجلس بينما اعترف يوسف طلعت إبراهيم الطيب ومحمود عبده بالواقع الفعلى .

ويظهر من السرد السابق للحوادث قوة كل من محمد فرغلى وخميس حميدة كعضوين أقوياء فى التنظيم ، وقد قاما بدور كبير فى إقصاء بعض المنافسين لهم من أمثال عبد الرحمن السندى وتعيين من يثقون به أمثال يوسف طلعت .. ويتضح أن الهضيبى كان قد فوّض بالفعل اختصاصاته فى إدارة شئون الجهاز السرى لخميس حميدة ومحمد فرغلى رغم أنهما قررا أن سلطة إصدار القرار كانت تتم من الهضيبى إلى يوسف طلعت مباشرة .. وقد أنكر الهضيبى ذلك وقرر أن علاقته بيوسف طلعت كانت محدودة ، لأنه تم قبل تنصيب المرشد العام وهو مريض عام ١٩٥١ وبعد إلحاح شديد من الإخوان وقالوا له : (اللى يعجبك تمضى عليه واللى ما يعجبكش لا تمضى عليه) وأنه أحضر الدكتور خميس ومحمد فرغلى وأوكل إليهما التنظيمات الإدارية ، وكانت مهمته مقصورة على زيارة البلاد واستقبال الناس ومراسلى الصحف .

وفى أقوال يوسف طلعت يقرر أنه بعد تعيينه قال له المرشد العام : مش عاوز روح العصابة تهيمن على الأفراد والتزمت والسرية ، عاوز الروح دى تنشال .. ثم يقرر بعد ذلك أن الأوامر كانت تصدر من المرشد العام ولا يمكن عمل أى شيء بدون موافقته ، وهذا تعارض فى أقوال يوسف طلعت لا ندرى سببه ؟ ولكن المعنى الواضح من ذلك أن الهضيبى لم يكن يرجع إليه فى التفصيلات ، وإنما فى الخطوط العريضة ، أو الجليل من الأمور ، حيث إن يوسف طلعت لم يكن يستطيع التصرف بدون أمر أو موافقة المرشد ، وفى ذلك إثبات لمباشرة الهضيبى لاختصاصاته ، وهذه النتيجة معقولة ، بدليل أن الذى أتى بيوسف طلعت إلى رئاسة التنظيم السرّى إنما هو الخلاف الذى حدث بين الهضيبى وعبد الرحمن السندى بسبب عدم خضوع

الأخير لأوامر المرشد ، وقد باشر خميس حميدة شئون الجهاز مع يوسف طلعت كحلقة اتصال بيـــنه وبـــين المرشد إلى أن حدث خلاف بينه وبين يوسف طلعت فكان الأخير يتصل مباشرة بالمرشد العام .

ونعـــود إلى الخلاف بين عبد الناصر والإخوان فبعد أن عاد المرشد من رحلته إلى البلاد العربية كما ذكرنا .. حضر اجتماعًا عامًا يوم ٩ سبتمبر عام ١٩٥٤ وألقى خطابًا فى الإخوان المســـلمين قرر فيه أن الحريات صودرت ، والتهديدات بالحل قائمة ، ومصادرة الأنشطة حتى الرياضى منها أصبحت قاعدة ، كما أن اعتقال الخطباء وتفتيش البيوت مازال قائمًا ولم يسمح للإخـــوان بالكتابة أو التعليق على الأنباء ، حتى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أوقفت ، مما يشكك الناس فى الإسلام وحكم الإسلام ، ولا يستطيع إنسان أن يحمل الإخوان تبعة ذلك، ولا أن يجد مبررًا له عند رجال الحكومة ، ثم اختفى بعـــد هذا الخطاب هو وبعض من جماعته ، وبرر هذا الاختفاء بشهور بأنه معرّض للاغتيال ، أو أنه ربما مطلوب القبض عليه ، وأخيرًا قرّر أن الغرض من هذا الاختفاء كان الاعتزال بعد أن ألقى ما فى جعبته ... ولكن الظاهر بعد ذلك أن هـــذا الاختفاء شمل يوسف طلعت وصلاح شادى ومحمود عبده وحسن العشماوى وكمال عبد الرازق عودة. فهل كان الاختفاء مجرد البعد عن الأضواء أم للعمل فى الخفاء ؟

لقد ظهر بعد ذلك أن اجتماعات الإخوان كانت تتم بصفة مستمرة ولكن بطريقة سرّية خوفًا من بطش عبد الناصر بعد أن أعلنوا رفضهم للمعاهدة ، وكان عبد الناصر قد عمل على مصـــادرة جريدة الإخوان عدة مرات ، والحد من مقالاتها بوساطة الرقابة ، حتى اضطروا إلى إغلاقها ... وقد اضطر الإخوان إلى التعبير عن آرائهم بإصدار المنشورات مستغلين روح الدين فى إثـــارة روح الحماســـة والتضحية فى نفوس الإخوان ، ومن هذه المنشورات واحد بتوقيع الهضيبى يقول فيه (يا شباب الإخوان تعالوا نشترى الجنة بسياط العذاب وبرصاص أعداء الله، تعـــالوا نرق الدم المسفوك والدم الساخن ليكون أوسمة تحلّى بها صدور الشهداء ، تعالوا نشم أريـــج الجنة فداء لله والدين . وتعالوا ننعم النظر إلى جمال الله وصحبة رسول الله ، تعالوا إلى ما وعد الله فى كتابه الكريم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ و ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ و(الله أكبر ولله الحمد) ثم أصدرت الجماعة مجلة سرية بعنوان « الإخوان فى المعركة » لنشر ما لا تجيز الرقابة

نشـــره ، وكان الهضيبى موافقًا كلية على هذه المطبوعات حيث إنه كان قد وافق على صرف ١٨٠ جنـــيه ثمـــنًا لماكينة رونيو جديدة لهذا الغرض ، وقد تناولت هذه المطبوعات بعد ذلك الهجوم على عبد الناصر شخصيًا حتى اتهمه بأنه أثث بيته بمفروشات القصور الملكية المصادرة وكان رئيس تحرير مجلة الإخوان فى المعركة السرّية هو سيد قطب ، وقد بلغ الأمر مداه حينما نشـــرت المجلة منشورًا صادرًا عن محمد نجيب يهاجم فيه المعاهدة ، وعُرف بعد ذلك أن محمد نجيب كان قد كتب مذكرة عن رأيه فى المعاهدة بالقلم الرصاص وتلقفها الإخوان ونشروها ، كمـــا نشـــرت المجلة منشورًا آخر عن سليمان حافظ الذى يدين للثورة بالولاء ويقنن لقادتها أفكـــارهم الدكتاتورية إلى أن استغنى عنه فأرسل منشورًا ينعى فيه الديمقراطية والحياة النيابية ويهـــاجم المعاهدة ، وتعددت المنشورات المثيرة لأفراد الإخوان المسلمين ومنها منشور يقول : (يأمرنا الله فى كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِـــبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ فيا أيها الأخ الكـــريم قد جاء يومك وعليك أن تستعد وتتأهب فأمامنا أعداء وليس عدوًا واحدًا ألا وهما الكفرة والفجرة حكام هذا الوطن العزيز هؤلاء الذين ليس فى قلوبهم مسحة من الرحمة أو ذرة من شفقة ، وهذا الشعب البائس الذى يحكمه الطغاة لا يصح أن يعيش فى هذه الذلة والمسكنة، إنهم يشردون أطفالك باعتقالاتهم الجنونية ، وربما يحتاج الأمر إلى استعمال القوة فى معاملتهم ، فعلى كل أخ يعتز بدعوته أن يستعد بكل ما عنده من مال وسلاح إلى حين اليوم الموعود) .

ومـــن الغريـــب بعـــد ذلك أن ظهرت اتصالات بين الإخوان والشيوعيين حيث كانت المصائب تجمع المصابين ، فقد كانت جميع القوى مضادة للثورة ، والصدام بينهما على أشده ، وكانـــت الخطـــوة الأولى إعلان من جريدة راية الشعب لسان حال الحزب الشيوعى المصرى الـــذي يرأســـه الدكتور فؤاد مرسى يعلن أن المقاومة ضد الثورة تقودها قوتان رئيسيتان هما الحـــزب الشيوعى والإخوان المسلمون ، وأوصى المقال بوجوب بذل الجهد المشترك من أجل إســـقاط حكومة عبد الناصر ، وظهرت الصداقة واضحة بين الشيوعيين والإخوان !! فى شتى المجالات ، وبين الطبقات المختلفة حتى بين الطلبة فى المدارس والجامعات ، وكان جرى اتصال فى يولـــية عـــام ١٩٥٤ بين مندوب من الحزب الشيوعى وسيد قطب ، ودار الحديث حول أهداف كل منهما وعلى معارضة المعاهدة وإسقاط الحكومة والدعوة إلى قطع المفاوضات وإلغاء

الأحكام العرفية ، ودعا مندوب الحزب الشيوعى إلى العمل على إسقاط النظام من خارج الجيش ، وليس من داخله ، وقد تدارسا إمكانية الاستعانة بالمنشورات لهذا الغرض ، أو الاستعانة بالمظاهرات .. وكان شرط سيد قطب أن يكون هتاف المظاهرة الله أكبر ولله الحمد ، وقد تم هذا الاتفاق دون تأكيد لعلم المرشد العام به من عدمه ، ولكن المعروف أن كبار المسئولين فى الجماعة نبهوا إلى حماقة التحالف مع الشيوعيين ، وبالتالى لم يتمخض هذا اللقاء إلا عن بعض المنشورات التى كان تلقى بواسطة الإخوان وتحمل اسم الحزب الشيوعى المصرى .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نتعرض للخلاف الذى نشأ بين الإخوان إبان هذه الفترة حيث كانت مجموعة الهضيبى تقاوم عبد الناصر وتهاجمه ، بينما مجموعة صالح عشماوى تقف موقفًا مؤيدًا للثورة إلى أن اجتمع النقيضان وقررا وجوب التئام الشمل وجمع الصفوف لأنه لن يستفيد من هذا التشاحن بين الإخوان المسلمين والثورة غير أعداء الوطن والدين ، وقد استنكر صالح عشماوى هجوم الهضيبى على الاتفاقية وهو فى سوريا ، وكتب يقول إن هذا التصرف يربط الإخوان جميعًا ويحملهم نتائج بعيدة المدى لأن قانون الإخوان المسلمين يقضى بدعوة الهيئة التأسيسية التى تمثل الإخوان وترسم سياستهم إلى الاجتماع لبحث هذه الاتفاقية فى عمق ، ثم قال إن الإسلام لا يقر مثل هذه الحركات البهلوانية ، وليس هناك داع للاختفاء مثل النعامة التى دفنت رأسها فى الرمال فلا ترى شيئًا ظنًا منها أن أحدًا لن يراها مادامت هى لا ترى أحدًا ، وتساؤل أين كان هذا الاختفاء أيام فاروق وحافظ عفيفى حيث كان الإخوان يهتفون ضده ، بينما كان المختفى الأعظم يقدم له أعظم التهانى فى قصر عابدين فى ذلك الوقت ؟ وبينما كان شباب الإخوان يمزقون صور فاروق كان المختفى الأعظم ينزع صور حسن البنا ليعلّق مكانها صور فاروق .. وكان رأى صالح عشماوى فى اتفاقية الجلاء يناقض رأى الهضيبى ومجموعته وأنصاره ، وقد وصف الاتفاقية بأنها تتضمن مزايا لا ينكرها إلا مغرض ، وأن عبد الناصر وزملاءه بذلوا أقصى جهد ووجب لهم الشكر لا اللوم . وقد أعقب اختفاء الهضيبى أن ظهرت مجموعة أخرى تريد التفاهم مع رجال الثورة على رأسها خميس حميدة ، وكانت المشكلة من الذى يدير أموال الإخوان : الفريق المختفى برئاسة الهضيبى ، أم الفريق الظاهر برئاسة خميس حميدة ؟ وكان فريق الاختفاء يرى فى وجود المرشد المختفى ما يمنع خميس وفريقه من الانفراد بالإدارة بينما يرى فريق خميس أن اختفاء

المرشـــد معناه الابتعاد عن المسئولية ، وبالتالى عن الإدارة ، وهكذا انقسم الإخوان إلى ثلاث مجموعات : مجموعة عشماوى ومجموعة الهضيبى ومجموعة حميدة .

وفى ٩ ســبتمبر عام ١٩٥٤ عقد الاجتماع السنوى للهيئة ، وأرسل الهضيبى من مخبئه خطابًــا تلى على أفراد الجماعة يبيّن وجهة نظره فى الخلافات الدائرة بين الجماعة والثورة من جهة ، وبين معارضى اتفاقية الجلاء من جهة أخرى ، وندد بالمستعمرين وقال إن غرض الإسلام تطهــير الأرض منهم ، وليس لنا أن نرضى بأى ارتباط أو اتفاق ماداموا موجودين على أرض الإسلام ، ثم ذكر مساعدات الجماعة لرجال الثورة حتى تماسكوا وثبتت أقدامهم ، ثم تعرضوا لــلحل والاعــتقال ، وطالب بالإفراج عن الإخوان وإلغــاء قرار حل الجماعة ، وقــرر أن مــا أغضب الحكومة هو هجومهم على اتفاقية الجلاء ، مما جعل الحكومة تصفهم بأنهم خونة ودعاة تخريب شأنهم شأن الشيوعيين والصهيونيين ، وإذا كانت الحكومة مضطرة للموافقة على المعــاهدة ، فنحن لسنا مضطرين لذلك ، ولكل رأيه وكل يتحمل تبعية رأيه ، ثم دعا الإخوان بأن يكونوا مستعدين للموت فى سبيل دعوتهم لأن أسمى المبادئ هو الموت فى سبيل الله .

وتأجل الاجتماع لمدة أسبوعين حيث قرر صالح عشماوى أن هناك لجنة اتصال بالحكومة مازالت تعمل ويجب انتظار نتائج أعمالها ، وكان صالح عشماوى من قبل ينذر بتجنب الصدام مع الحكومة خوفًا على مستقبل الإخوان ، بينما يدعو خميس حميدة للعمل على نزع السلطة من الهضيبى ومجموعته ، ليكون مكتب الإرشاد هو الذى يحمل أعباء الدعوة .. واشتد الصراع بين هاتين المجموعتين حتى انعقدت الهيئة التأسيسية فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٥٤ برئاسة خميس حميدة وحضــرها مائــة عضو من ١٤٧ ووقف بعض الأعضاء يهاجمون الهضيبى ويقولون إن الثورة ترفض قرار إلغاء الحل ، وإن عبد الناصر أرسل خطابًا من رئاسة مجلس الوزراء ألغى فيه هذا القــرار منذ ٢٥ مارس الماضى ، وإن هذا الخطاب قد سلم إلى منير دلة ، كما كشف النقاب عن اللقاء الذى تم بين لجنة الاتصال بالجماعة وبين عبد الناصر وأن الأخير اعترض على تعرض الجماعة لنقد اتفاقية الجلاء ، وتعرض محمد جودة لما حدث من تصريحات عبد الحكيم عابدين فى دمشق هو وسعيد رمضان وسعد الوليلى ومحمد نجيب جويفل وكامل شريف ومعهم محمود أبو الفتح وما تلا ذلك من تجريدهم من الجنسية المصرية بتهمة تشويههم سمعة بلادهم بالخارج ،

واســـتمر هـــذا الاجتماع لمدة ١٨ ساعة فى مناقشات وجدل .. وبعد مغادرة بعض الأعضاء للاجتماع اتخذ قرارمن ٢٥ عضوًا باسم الهيئة بحل الهيئة التأسيسية وتجديد البيعة للهضيبي مدى الحـــياة ، وتعديل قانون الجماعة فيما يتعلق بانتخاب أعضاء الهيئة التأسيسية وسلطة ومسئولية مكتـــب الإرشاد ، وأعلن عبد القادر عودة هذه القرارات للصحافة باعتبارها القرارات التى اتفق عليها الجميع ، وكانت هذه القرارات صدمة خصوصًا لجماعة صالح عشماوى ، ولذلك كتب هو على أثرها مقالاً خطيرًا يعد أساس فكرة التكفير والهجرة التى اعتنقها جماعة المسلمين (التى عرفت باسم جماعة التكفير والهجرة مستقبلاً) وكان عنوان المقالة (هجرة وتمييز) حيث اتهـــم صالح عشماوى دعوة الإخوان بالانحراف والفساد ، وأعلن يأسه من إصلاحها ودعا إلى الهجرة لتمييز العناصر الطيبة من العناصر الخبيثة ، وأرجع بداية فساد الجماعة منذ جاء حسن الهضيبي مرشدًا وبعد المقابلة الملكية الكريمة ، وتعرض للخداع الذى حدث فى اجتماع اللجنة الأخـــيرة ، وكـــيف اســـتطاع الهضيبي بواسطة بطانته وأتباعه أن يختلسوا قرارًا بحل الجمعية التأسيســـية فى صورة تعديل القانون الأساسى للجماعة ، وقال إنه لا يهدف إلى تقرير بطلان هـــذا القرار فحسب ، وإنما يجزم بأنه لم يعد هناك أمل فى إصلاح الهيئة وتنحية العناصر النفعية والانـــتهازية التى تلتف حول الهضيبي وتزين له سياسته والتى أدت إلى تحطيم الجماعة والقضاء علـــيها ، وأن هـــذه العناصر تعتمد على الغش والخداع والتضليل وإشاعة الضغط والإرهاب للوصـــول إلى أهدافهـــا ، ولم يعـــد هناك بد من هجرة العناصر الطيبة التى تعمل لله ودعوته وللإســـلام والشـــريعة لا تـــبغى من وراء ذلك مغنمًا إلا تربة صالحة لنمو الفكرة الإسلامية وازدهار الدعوة المحمدية وتمييز المؤمنين الطيبين عن المنافقين الخبيثين ، وختم خطابه بالاستدلال على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، ثم عودته إلى مكة معقل الكفر وقلعة الشرك يومئذ لفتح أبوابها .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر أسفرت جهود الفريق المعارض للهضيبي عما عرف باسم القلاب فى الإخـــوان المسلمين ، فقد عقد نحو سبعين شخصًا من أعضاء الهيئة التأسيسية المنحلة اجتماعًا اتخذوا فيه القرارات الآتية :

١ — اعتبار المرشد العام حسن الهضيبي فى إجازة .

٢ — إلغاء مكتب الإرشاد الحالى .

٣ – إلغـــاء قرارات الفصل والإيقاف وحل الشُّعَب التى صدرت فى السنوات الثلاث الأخيرة .

٤ – بطـــلان مـــا نسب للهيئة التأسيسية من اتخاذ قرارات القانون الأساسى للجماعة (قرارات ٢٣ سبتمبر) .

٥ – تكوين لجنة مؤقتة لإدارة شئون الجماعة ريثما تجتمع الهيئة التأسيسية لتتخذ ما تراه لإقرار شئون الجماعة على أسس سليمة – وقد وقّع على هذا البيان ٦٨ عضوًا من الهيئة التأسيسية .

وفى الـــيوم الـــتالى ٢١ أكـــتوبر عقـــد اجتماع مشترك لمكتب الإرشاد وأعضاء الهيئة التأسيســـية المـــنحلة برئاسة الدكتور خميس حميدة وجرت مناقشات واسعة بين أنصار الهضيبى المعارضين لعبد الناصر وخصومه المؤيدين للتفاهم ، وأسفرت عن قرارات تضمنت ضم بعض الأعضاء الجدد مثل حلمى نور الدين ومحمد الخضرى ومحمد أسعد جودة ومحمد فتحى الأنور ومحمـــد عبد السلام فهمى إلى مكتب الإرشاد المؤقت مع تأجيل إجراء انتخابات أعضاء الهيئة التأسيسية إلى موعد يقره المكتب المؤقت فيما بعد وقد نوقش فى هذا الاجتماع التعديل المراد إدخالـــه فى القانون الأساسى للجماعة ، وقد كان معنى هذه التغيرات إسقاط السلطة الفردية التى يمثلها الهضيبى وانتقال السلطة إلى مكتب الإرشاد الذى لم تكن له سلطة من قبل وإشاعة الديمقراطية فى تنظيم الجماعة عن طريق انتخاب الهيئة التأسيسية التى كانت العضوية فيها قائمة عـــلى التعيين ، وكانت هذه التغييرات بمثابة انقلاب فى الجماعة إن دلت على شىء فإنها تدل على مدى التمزق الذى ساد الجماعة والذى أفسح المجال للتنظيم السرى للنزول للميدان .

وبذلـــك تعطل جهاز الإخوان فيما عدا الجهاز السرى الذى أصبح يسيطر على الموقف ويصدر تعليماته إلى الإخوان ، وكان من ضمن الأفكار التى طرحها هذا الجهاز أيام الاعتقال أن يقومـــوا باختطاف بعض رجال البوليس الحربى والمباحث العامة وأخذهم رهائن مقابل من اعـــتقل من الإخوان وكان الهدف من ذلك هو شل حركة الدولة وإسقاط هيبتها إلا أن هذا الاقـــتراح لم يصادفه النجاح ، وكان هناك اقتراح آخر من عبدالمنعم عبد الرؤوف بأن يرتدى خمـــس فصائل ملابس البوليس الحربى وتقوم باقتحام مجلس الوزراء واحتلاله ، وقد تم بالفعل شراء ٥٠ بدلة عسكرية ضبطت بعد ذلك إلا أن هذه الفكرة استبعدت نظرًا لصعوبة تنفيذها،

ثم أثـيرت خطـة أخـرى تقوم على الاتفاق مع محمد نجيب على القيام بتحرك داخل الجيش بمساعدة القوات الموالية له ليفرض على مجلس الثورة الانسحاب إلى ثكناتهم وهذه الخطة تكرار لما حـدث فى أزمة فبراير ، وكانت تلقى موافقة الهضيبى ، ولكنه لم يجد الطريق إلى تنفيذها بعـد انصـراف الجماهير عن تأييد الإخوان بعد موقفهم الانتهازى فى أزمة مارس وتأييدهم لعـبد الناصر ورفاقه ، مما مكّنهم من ضرب القوى الوطنية الديمقراطية والتقدمية ، ورد سيد قطـب على سؤال موجّه إليه عن دور محمد نجيب فأجاب بأن محمد نجيب سيكون على رأس قوات الأغلبية التى ستقوم بالضغط على بقية الجيش لتحقيق فكرة الرجوع إلى الثكنات وإعادة الحكم للمدنيين ، ومعنى ذلك أنه كان هناك اتصال بين الهضيبى ومحمد نجيب لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ ، ولم ينكر محمد نجيب ذلك فى مذكراته .. وقد تأيدت هذه الواقعة بالقبض على محمد رياض حارس محمد نجيب فى أكتوبر عام ١٩٥٤ واتهامه بمحاولة عمل انقلاب ضد جمال عبد الناصر بالاشتراك مع الإخوان المسلمين .

وقـد كانت الخطة تقوم على حركة من الجيش موالية لمحمد نجيب تساندها حركة شعبية تـتكون مـن كافة القوى الوطنية الديمقراطية ، فتكون مظاهرة سلمية شعبية تحرسها قوات التنظـيم السرى للإخوان للمطالبة بالمطالب السابقة ، وإذا وقع صدام مع قوات عبد الناصر تبدأ قوات الإخوان فى حملة اغتيالات لأعضاء مجلس الثورة .

ولكن ظهر أثناء المحاكمات أن الهضيبى كان بعيدًا عن فكرة استعمال العنف ضد الثورة حيث قرر أنه لا يقر الإرهاب كوسيلة لأى شىء ، لأن الإرهاب يضر الجماعة ويضر الإسلام ويضـر بمصـر ، وقـد حـذّر منه عدة مرات ، وبذلك أقر أيضًا يوسف طلعت حيث قال إن الهضيبى لم يوافق على استخدام العنف حتى إنه حينما رفع خطة المظاهرة المسلحة إلى الهضيبى رفضها ولكنه أيّد المظاهرة السلمية .

ولمـا سـقطت فكرة المظاهرة الشعبية سلمية كانت أم مسلحة ، أحس التنظيم السرى بوجـوب الاعتماد على نفسه والتصرف منفردًا ، وهنا ظهرت فكرة ترتيب الاغتيال كوسيلة تبادلـية للقضـاء على الثورة ، وكان أول المرشحين للاغتيال جمال عبد الناصر يعقب ذلك اغتيال أو خطف بقية أفراد مجلس الثورة على أن يؤيد محمد نجيب هذا المسلك ، وقرر معظم الشـهود أثـناء المحاكمـة أن إبراهيم الطيب قرر لهم أنه لابد أن يكون الإرهاب هو وسيلة

الجماعة ، وليس الحل السلمى ، وقد ذكر هنداوى دوير أن إبراهيم الطيب أتى لـه بمسدس لتسليمه لمحمود عبد اللطيف الذى استلمه بالفعل ، وأنه سمع من محمود الحواتكى وعبد الفتاح قرشى أن المرشد لا يوافق على هذا الرأى ، وأنه برىء من دم عبد الناصر لو قتل ، وعلى أثر ذلك طلب هنداوى دوير من محمود عبد اللطيف إيقاف التنفيذ إلى أن زاره إبراهيم الطيب واستنكر إيقاف التنفيذ ، وكان هذا الاغتيال هو بدء لخطة اغتيالات ، منها اغتيال أنور السادات أيضًا وبعض أعضاء مجلس الثورة ، وقرر هنداوى دوير أيضًا أنه عندما استلم المسدس من إبراهيم الطيب وسأله عن الخطة أجاب أن الخطة هى أن محمود يعتمد على مجهوده الشخصى فى تتبع عبد الناصر خصوصًا وأنه بعد المعاهدة ينزل كثيرًا إلى الميادين وإلى الشعب ، ويمكن النيل منه بسهولة .. وكذلك قرر أن إبراهيم الطيب وعده بإحضار مدفعين لاستخدامهما فى عمل كمين لموكب عبد الناصر ، ولغم يلفه محمود عبد اللطيف حول نفسه وينسف به عبد الناصر ، ولكن عبد اللطيف فضّل طريقة المسدس ، وكان المفروض أن يقوم بخطته فى القاهرة ، ولكنه فاجأ الجماعة بأنه سيسافر إلى الإسكندرية لوجود عبد الناصر بها ، ولم يتوقع أحد من الإخوان أن تتم الجريمة فى الإسكندرية إلى أن فوجئوا بها ، وقد كان هناك بديل لمحمود عبد اللطيف ، وهو محمود على نصيرى فى حالة فشل محمود عبد اللطيف .

ويقول محمود عبد اللطيف : إنه بعد لقائه بهنداوى دوير ليلة الثلاثاء ٢٦ أكتوبر وحصوله على موافقته للسفر إلى الإسكندرية مرّ فى الصباح على زميله يوسف حجاج وأبلغه بالأمر فأبدى أسفه لأنه (ماأحضرت السلاح بتاعه علشان يجى معايا ، وتوكلت وسافرت إلى الإسكندرية فى قطار الساعة التاسعة والنصف الذى يصل الواحدة تقريبًا ، وبعد كده رحت محرم بك واتمشيت شوية ودخلت مطعم واتغديت ، وبعدين رحت لوكاندة دار السعادة ، وأخذت حجرة وغيّرت ملابسى ، وفى الساعة الرابعة والربع نزلت على ميدان المحطة ووجدت جماعة مستظاهرين رايحين المنشية ، فمشيت وراهم وبعد ما وصلت الميدان وقفت ، ولما جاء الرئيس وهو بيتكلم كلمته أطلقت عليه طلقات من المسدس) .

وتتلخص أحداث الاعتداء على عبد الناصر فى أنه فى الساعة السابعة وخمس وخمسين دقيقة من مساء يوم الثلاثاء ١٩٥٤/١٠/٢٦ وأثناء خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى الجماهير المحتشدة فى ميدان المنشية بالإسكندرية بمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا

دوت ثمـــانى رصاصات أطلقها محمود عبد اللطيف العضو فى التنظيم السرى لجماعة الإخوان المسلمين على جمال عبد الناصر ، ولكنها لم تصبه ، ولكن هول المفاجأة أسكته لمدة نصف دقيقة انطلـــق بعدها يصيح: دمى فداء مصر ليقف كل فى مكانه – إن مات عبد الناصر كلكم عبد الناصر – واستمر الهرج والمرج إلى أن تم إلقاء القبض على الفاعل فى الحال ، وكان على بَعد حوالى ٢٠٠ متر من المنصة الرئيسية ، وجرت فى أعقاب ذلك أكبر حملة اعتقال شهدتها مصر ضـــد الإخوان المسلمين ، حتى وصل عددهم إلى حوالى الثلاثة آلاف معتقل ، وقد تم القبض فـــورًا على حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين وكذلك أفراد تنظيم الجهاز السرى للإخوان ، ومنهم يوسف طلعت وهنداوى دوير وصالح عشماوى وخميس حميدة وعبد القادر عـــودة ومـــنير دلة وصالح أبو رقيق ومحمد فرغلى وآخرون وشكلت محكمة مخصوصة برئاسة جمـــال ســـالم وعضوية كل من القائم مقام أنور السادات والبكباشى حسين الشافعى لمحاكمة المـــتهمين ، وتألفـــت ثلاث دوائر فرعية أخرى إحداهما برئاسة اللواء صلاح حتاتة ، والثانية برئاسة القائم مقام عبد الرحمن عنان والثالثة برئاسة القائم مقام محفوظ ندا .

وقـــد بلـــغ عـــدد من قدموا للمحاكمة ١١٢١ متهمًا حُكم بالإعدام على محمود عبد اللطـــيف وعـــبد القادر عودة ومحمد فرغلى ويوسف طلعت وإبراهيم الطيب وهنداوى دوير وحســـن الهضـــيبى . ونفـــذ الحكم على الجميع عدا حسن الهضيبى لاستبدال عقوبة الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وقـــد أنكـــر الإخوان المسلمون صلتهم بهذا الحادث ، وقالوا إنه من تدبير عبد الناصر شخصـــيًا للحصول على عطف وتأييد الشعب ، وقال البعض إن أحد الخبراء الأمريكيين كان قد وصل إلى مصر قبل الحادث بعدة أيام وأنه صاحب هذا التدبير ، وفى قول آخر إنه من تدبير عملاء إسرائيل لأن الحادث كان مقترنًا بفضيحة لافون المشهورة بالإسكندرية فى نفس العام .

ولكـــن بـــدأت الحقيقة تظهر كما أسلفنا أثناء المحاكمة من أقوال المتهم وأقوال كل من هـــنداوى دويـــر الذى اعترف بإعطاء الأمر بالقتل إلى محمود عبد اللطيف ، وأقوال إبراهيم الطيب الذى أنكر أنه أعطى أمرًا صريحًا لهنداوى دوير بالقتل ، ولكنه لم يستطع إنكار تسليم نصـــيرى لهـــنداوى ، بـــل ولم يستطع إنكار تسليم الطبنجة لهنداوى .. وقد اعترف محمود عبد اللطيف بأن (المرشد كان معارضًا فى الخطة ، ولكن صدر إليه الأمر بعد ذلك بالتنفيذ)

أما يوسف طلعت رئيس التنظيم فقد قرر أن الخطة كانت تقوم أصلاً على قيام مظاهرة مسلحة يعقبها عملية اغتيالات إذا اعتدى عليها ، وليست اغتيالات تعقبها مظاهرات ، وألقى بمسئولية التسرع في التنفيذ على هنداوى دوير ـ، وأنكر أنه اشترك أو أعطى خطة للاغتيالات إلى إبراهيم الطيب ، ولكنه اعترف بأنه هو الذى صنع الحزام الناسف وسلّمه إلى إبراهيم طلعت ، وقال لـه : ده وسيلة من وسائل الاغتيال .. ولكن لم يحدد اغتيال من .. وقد تلاحظ من التحقيق أن مسئولية القيادة السياسية للإخوان لم تُحدد نظرًا للانقسام الخطير الذى كان واقعًا بين أفرادها حيث كان المرشد العام مستقيلاً من الجماعة وأعضاء مكتب الإرشاد مختلفين ، والمكتب التنفيذى فى حالة تفكك ، ولم يظهر وجود أمر صريح من القيادة السياسية للإخوان للتنظيم السرّى أو خلافه بالقيام بعملية الاغتيال ، لأن المسئولية إذا وقعت على التنظيم السرّى للإخوان فهذا يستتبع بالتالى وقوع المسئولية على القيادة السياسية .

والواقع أن هذا التنظيم السّرى الكبير الذى لم تشهد مصر لـه مثيلاً من قبل فى تاريخها قد أوقع نفسه فى أيدى رجال عبد الناصر بعد فشل محاولة الاغتيال ، ولم يستطع أن ينفذ أى من مخططاته من اغتيال رجال الثورة أو احتلال مجلس الوزراء أو القيام بمظاهرات سلمية أو مسلحة بل على العكس لجأ عبد القادرة عودة فى ٢٨ أكتوبر إلى عبد الناصر وأرسل إليه يخاطبه بأنه غير مسئول عن الحادث ، ولو ظهر أن لـه دخلاً فيه فإنه يحل دمه ، ثم طلب منه المصالحة مع الإخوان على أساس الاستسلام التام لمطالب عبد الناصر ، وأولها حل النظام الخاص وتسليم أسلحته وابتعاد الجماعة عن الانشغال بالسياسة واقتصار نشاطها على الدعوة الإسلامية مع إيقاف حملات الإخوان من البلاد الأخرى ، وطالب عبد الناصر فى مقابل ذلك بإطلاق سراح المعتقلين من الإخوان ومحو آثار الماضى ، إلا أن عبد الناصر أشر عقب هذا الخطاب بكلمة (خدعة جديدة) وطبعًا لم يكن لدى عبد الناصر سبب واحد يدعوه إلى الموافقة على المصالحة بعد أن تخلّص من جميع القوى المناهضة له ، وكان الإخوان آخر هذه القوى ، وآخر عقبة فى سبيل استخلاص السيطرة الكاملة للثورة خصوصًا أن البوليس المصرى قد نجح فى إلقاء القبض على جميع الإخوان والزج بهم فى السجون وسقط الجهاز السرى بالكامل فى أيدى الحكومة .

وقـد تداولت أفكار جماعة الإخوان المسلمين أثناء المحاكمة وظهرت آراء كثيرة لهم منها أن أهداف الجماعة تقوم على أساس وجود حكومة إسلامية ، ولكنهم لم يحددوا كيفية قيام هذه الحكومة ومدى استعداد المجتمع المصرى لتقبلها ، وما هو الشكل القانونى لمثل هذه الحكومة ، واتضح أن الإخوان لم يعنوا بتقديم اجتهادات فكرية فى هذا الشأن وكل ما كرروه فى أقوالهم هـو الحكم بالإسلام ، ولم يوضحوا كيفية الحكم بالإسلام ، وما شكل الدولة هل هى ملكية أم جمهوريـة ، وما هى القوانين التى ستطبق .. وكان الهضيبى قد قرر أمام المحكمة أن القانون المـدنى المعمـول به مطابق للشريعة الإسلامية عدا موضع الربا ، وأن القانون الجنائى كذلك مطابق للشريعة الإسلامية ولو أنه لا يتضمن الحدود الشرعية التى لولىّ الأمر أن يوقف تطبيقها، ولـنا أن نطـيعه ، كمـا دارت مناقشات طويلة حول مشروعية قتل المسلم ، ومن الغريب أن أعضاء التنظيم السرى وأعضاء القيادة السياسية للإخوان أجمعوا على تحريم القتل السياسى، وعلى رأسهم هنداوى دوير الذى قرر أن القتل أصبح من تقاليد النظام السرّى من أيام الأستاذ حسـن البنا ، وقتل كل من أحمد ماهر والنقراشى والخازندار ولكنه يقرر مرة أخرى أن هذا العمل من حيث شرعيته فى الإسلام مُحرّم ، ومُحرّم على الإطلاق ويجب إيقافه فورًا ، ولكنه يـستدرك قائلاً : نحن جماعة إرشاد ولسنا جماعة مؤمنين ، لأن الخروج عن جماعة المؤمنين جزاؤه القـتل فى الإسلام ، ولكن الخارج عن جماعتنا لا يُقتل . ومع اطمئنان عبد الناصر إلى صلابة الجـبهة الداخلية بعد عام ١٩٥٦ أخذ يفرج عن المعتقلين من الإخوان تباعًا ، كما بدا بعض الذين أمضوا مدة العقوبة فى السجن بعد عام ١٩٦٠ يخرجون إلى الحياة العامة ، وما أن دخلنا إلى عـام ١٩٦٤ حـتى كان أكثرهم قد خرج بأوامر إفراج عادية إلى إفراج صحى كحسن الهضيبى والسيد قطب كما أعيد الكثير من الإخوان إلى وظائفهم بعد أن كانوا قد فصلوا منها، وكـان الملاحـظ أن هـذا الإفـراج جعلهم عاجزين تمامًا عن استعاب التغيرات السياسية والاجتماعـية الـتى حدثـت أثـناء محنتهم أو فهم التحول الذى طرأ على القوى الوطنية والديمقراطـية مـن موقف المعارضة للثورة إلى موقف التأييد لها ، ولكن كانت تجمعهم فكرة واحدة هو الانتقام لما جرى للجماعة عام ١٩٥٤ .

لقـد كانـت المعاملـة غـير الإنسانية للمعتقلين وأسرهم من الإخوان بشعة للغاية .. فالمعتقلون كانوا يتعرضون للتعذيب الوحشى والإهانة المستمرة ، بينما كانت أسرهم تعانى من الضـنك والفقر نتيجة وجود العائل للأسرة فى المعتقل أو فصله من عمله ، وفى كلتا الحالتين

لا مورد للرزق للأسرة ، وكانت بعض العائلات تقوم برعاية مثل هؤلاء المحتاجين ولم يسلموا أيضًا من التنكيل بهم نتيجة هذه المعونات .. كل ذلك أوجد تكتلاً طبيعيًا فى مجتمع الإخوان المسلمين ، وكان ذلك التكتل هو التربة الخصبة التى ألقيت فيها بذور أيدلوجية إسلامية جديدة وضعها مفكر الإخوان الكبير سيد قطب .. فقد تعددت لقاءات زينب الغزالى مع عبد الفتاح إسماعيل بعد أول لقاء لهما فى مكة عام ١٩٥٧ وكان محور الحديث يدور حول عبد الناصر ومحاربته للإسلام والمسلمين وأنه لا يحكم بكتاب الله .. وقد وضعت خطة عمل تستهدف تجميع كل من يريد العمل للإسلام لينضم إليهما وحصلوا على مباركة الهضيبى لهذا النشاط .

وقامت الخطة بأن يتولى عبد الفتاح إسماعيل تجميع المسلمين على امتداد مصر كلها مبتدئًا بالإخوان المسلمين كنواة لهذا التجمع .. وكانت أيدلوجية سيد قطب دستور هذا التجمع ممثلة فى كتابه « معالم فى الطريق » ويقوم هذا الكتاب باختصار على الآتى :

١ – أن العالم المعاصر يعيش فى جاهلية لا تخفف منها شيئًا هذه التيسيرات المادية الهائلة وهذا الإبداع المادى الفائق .

٢ – هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهى الحاكمية وأنها تسند الحاكمية إلى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابًا لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة وفيما لم يأذن به الله .

٣ – ترتب على هذه الجاهلية أى هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده ، فما مهانة الإنسان عامة فى النظم الجماعية (الشيوعية والفاشية) وما ظلم الأفراد والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار فى النظم الرأسمالية إلا من آثار الاعتداء على سلطان الله وإنكار الكرامة التى قررها الله للإنسان .

٤ – إن المنهج الإسلامى ينفرد عن كافة النظم بأن به وحده يتحرر الناس من عبادة بعضهم لبعض بعبادة الله وحده ، والتلقى من الله وحده ، والخضوع لله وحده ،

وهــذا هــو الشــىء الجديــد كل الجدة الذى نملكه ولا تعرفه البشرية ولا تملك هى أن تنتجه .

٥ – إن هذا الجديد لابد أن يتمثل فى وضع عملى لابد أن تعيش به أمة تقر عقيدة لا إله إلا الله وأن الحاكمــية ليســت إلا لله وترفض أن تقر بالحاكمية لأحد من دون الله وتــرفض شــرعية أى وضــع لا يقوم على هذه القاعدة ، والأمة الإسلامية بهذه المواصفات قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جمــيعًا ، ولابــد مــن إعادة هذه الأمة لكى يؤدى الإسلام دوره المرتقب فى قيادة البشرية مرة أخرى .

٦ – يترتــب عــلى هذا الكلام إعادة غرس هذا الدين فى نفوس الناس حتى لو كانوا يدعون أنهم مسلمون ، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسملون ، فهؤلاء يجب أن يعلموا أن الإسلام هو إقرار عقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقى ، وهى رد الحاكمية لله فى أمرهم كله وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم .

٧ – لكى يبدأ هذا البعث الإسلامى لابد من طليعة تعزم هذه العزمة وتمضى فى الطريق تمضــى فى خضــم الجاهلية الضاربة الأطناب فى أرجاء الأرض جميعًا ، تمضى وهى تــزاول نوعًــا من العزلة من جانب ، ونوعًا من الاتصال من جانب آخر بالجاهلية المحيطة ، ولابد لهذه الطليعة التى تعزم هذه العزلة من أن تعرف طبيعة دورها وحقيقة وظيفتها وصلب غايتها ونقطة البدء فى الرحلة الطويلة ومن أن تعرف طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب فى الأرض جميعًا .

٨ – قد ينضم المجتمع الجاهلى القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامى الجديد، وقد لا ينضم، كمــا أنه قد يهادن المجتمع الإسلامى الجديد أو يحاربه ، وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلى حربًا لا هوادة فيها سواء على طلائع هذا المجتمع فى مراحل نشوئه وهو أفراد أو مجموعات ، أو هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً وهو ما حدث فى تــاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام دون استثناء .

وطبيعى أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلى القديم وقوة الاعتقاد والتصور وقوة الخلق والبناء النفسى وقوة التنظيم والبناء الجماعى وسائر أنواع القوة التى يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلى ويتغلب عليه أو على الأقل يصمد له .

ويدخل فى إطار المجتمع الجاهلى تلك المجتمعات التى تزعم لنفسها أنها مسلمة لا لأنها تعتقد فى ألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا ، ولكنها تدخل فى هذا الإطار لأنها تدين بالعبودية لله وحده فى نظام حياتها ، فهى وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله تعطى أخص خصائص الألوهية لغير الله فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها وكل مقومات حياتها تقريبًا ، والله سبحانه وتعالى يقول عن الحاكمية : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وبهذا الكتاب لم يعد المجتمع الإسلامى المحيط بالإخوان المسلمين مجتمعًا مسلمًا ، وإنما أصبح مجتمعًا جاهليًا وهذا أساس فكرة التكفير التى بدأها سيد قطب فى أفكاره ، وانتهى منها إلى التحويل البطىء والتربية الطويلة للمجتمع الجاهلى إلى المجتمع الإسلامى .

وقد قرر سيد قطب أن الإخوان المسلمين طالبوا بالانتقام من حركة ٥٤ واجتمعوا به وطلبوا مشورته وقيادته الفكرية ، وظهر له أنهم يخططون للسير فى التحول الفكرى البطىء نحو المجتمع الإسلامى ، وفى نفس الوقت يسعون إلى تسليح أنفسهم لئلا يتعرضوا لمثل ما حدث لهم عام ١٩٥٤ . وفى هذه الأثناء بدأت تلوح فى الأفق بعض الأنشطة للإخوان خصوصًا مناقشتهم حول كتاب معالم على الطريق وتدبير الشيوعيين مؤامرات قد ينسبونها إلى الإخوان المسلمين مما جعل بعض المتهورين من شباب الإخوان يفكرون فى التحرك للإقدام على عمل خطير دون أن يدركوا أن السلطات لهم بالمرصاد ، وأن معظم حركاتهم مرصودة لديهم ، وقد كان أحمد عبد المجيد يعمل على عرض مقترحات للاغتيالات وتدمير منشآت فى حالة تعرض الإخوان لأى اعتقالات ، واقترح اغتيال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس المخابرات العامة ورئيس المباحث العامة وشمس بدران ، أما عن المنشآت فكانت محطتى كهرباء القاهرة وكبارى القاهرى والإذاعة .. وقال إنهم يحاولون الحصول على احتياجاتهم من المتفجرات

خلاف المتفجرات التى يصنعونها بأيديهم ، وكان هذا التخطيط فى مايو ١٩٦٥ وأعقب ذلك اتصال بين سيد قطب وزينب الغزالى ، وكان الأول يرى إلغاء العمليات السابق تجهيزها ، ولكنه عاد بعد تذكره لأحداث التعذيب والتنكيل التى عانى منها الإخوان عام ١٩٥٤ فقرر الرد على الاعتقالات بتوجيه ضربة شاملة ، ولكن فجأة اعتقل فى ٩ أغسطس ١٩٦٥ وبضربة عشوائية اعتقل علي عشماوى أيضًا الذى اعترف بكل تفاصيل الخطط الموضوعة ، وسقط الإخوان مرة أخرى فى يد السلطات لتبدأ محنة لا تقل هولاً عن محنة عام ١٩٥٤ حيث سيق أعضاء الإخوان إلى السجون الحربية والمعتقلات ، وطبقت عليهم أساليب وحشية فى التعذيب رجالاً ونساءً من ضرب وحرق حتى الموت إلى هتك عرض واغتصاب بصورة لم يعرفها الإنسان المتحضر من قبل ، وقد توجت المحكمة العسكرية العليا حكمها فى قضية التعذيب عام ١٩٧٧ بقولها « إن ما حدث لهؤلاء الناس كان إهدارًا لآدمية الإنسان ومعاملة يتضاءل إلى جانبها ما كان يُنسب إلى سجن الباستيل » .

وهكذا كانت نهاية فصل من حركة الإخوان المسلمين ولو أن جذورها امتدت بعد ذلك مع انتشار الدعاة الجدد حيث ظهرت جماعات أخرى بأسماء مختلفة ، كما سيجىء ذكره .

فكر الكتاب والرد عليه

يقـــوم فكـــر الكتاب على أساس ما يسمى (الحاكمية لله) . وهو يقول : إن الحاكمية لا تـــتحقق ولا تقـــوم إلا إذا كـــان الحاكم يطبق القوانين المأخوذة من الشريعة الإسلامية .. ثم يؤســـس عـــلى هذا القول كل أحكامه ، ومن بينها تكفير مجتمعنا ومن فيه من المسلمين ، بالرغم بأن (الحاكمية لله) فى المجتمع(★) .

وهـــذه المـــزاعم كـــلها تقوم على أساس باطل مستهدفة المتاجرة بآيات الله .. فالآيات القرآنـــية التى يستند إليها أصحاب هذا الفكر فيما يسمونه (بالحاكمية لله) والتى يعتمدون على ورود كلمة (الحكم) فيها ليس لها على الإطلاق أية علاقة (بالحكم الدنيوى) بين الناس .. وإنمـــا يشير لفظ (الحكم) فى هذه الآيات إلى الأحكام الإلهية السارية فى الوجود والتى يرجع فيها الأمر إلى المولى عز وجل وحده .. ومن ثم فليس لهذه الآيات أية علاقة بما يورده الكتاب عن تغيير الحاكم والمناصب والزعامات ولا بالقوانين والأحكام السارية فى المجتمع .

ويستدل سيد قطب على القـــول بـــ (الحاكمية لله) ببعض الآيات القرآنية ثم يزعم أن حاكمية الله لا تتحقق فى الأرض إلا إذا خرجت القوانين المطبقة عن الشريعة الإسلامية ، ومن ثم يدعو إلى ضرورة الثورة الشاملة والتمرد الكامل على حكم البشر بدعوى جعل (الحاكمية لله) فيقول (إن إعلان ربوبية الله وحده للعالم معناه الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها ، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض يكون الحكم فيه للبشر بصورة من الصور) .

ويســـتدل عـــلى بطـــلان هـــذه الشعارات بالآيات القرآنية التى يوردها أصحاب هذا الفكر ويستخرجون منها شـــعار (الحاكمية لله) مثل قوله تعـــالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾

(★) الدكتور عبد الرحمن الشرقاوى — سلسلة مقالاته فى مجلة روز اليوسف .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ﴿ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ . حيث يظهر من قراءة الآيات كاملة أنها لا تتحدث مطلقًا عن الحكم الدنيوى أو القوانين والأحكام التى يجب أن تسود فى المجتمع ، كما تـزعم هذه الجماعات .. وإنما تتحدث الآيات عن حكم الله على عباده والحساب الإلهى لهم على إيمانهم أو كفرهم والتصاريف الإلهية فى الكون ، وليس هناك أى علاقة بين الحكم الإلهى الوارد فى هذه الآيات وبين الحكم والسلطة الدنيوية سوى وجود كلمة (الحكم) التى حاولت هـذه الجماعـات استغلالها فى رفع الشعرا الحماسى الباطل ودعوتها إلى ما تسميه (بتحقيق الحاكمـية لله) ولنتناول الآن بعضًا من الآيات التى تنسب الحكم إلى الله لندرك هذه الحقيقة الواضحة :

(أ) يقول الله تعالى فى سورة غافر ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ .

وقد ورد قوله تعالى ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ليبين أن الحساب وما ينزل بالكافرين مـن النقمة والعذاب إنما هو بيد المولى عز وجل الذى يحكم بين عباده ويفصل بينهم .. فليس للفظ (الحكم) هنا من علاقة بالحكم الدنيوى وإنما هو (الحكم الإلهى) للمولى عز وجل بين عباده .

(ب) يقـول الله تعـالى فى سـورة الأنعام [٥٧ ، ٨٥] : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ، قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .. ومن هذه الآيــة يتبين أن الرسول قد رد الحكم فيما يستعجل به المكذبون إلى الله تعالى لأن هذا الحكم مرده إليه سبحانه ، وليس له من علاقة بالحكم الدنيوى .

(جـ) يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ . وفى هذه الآية الكريمة ورد قوله تعالى : ﴿ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ ليصف الحكم الإلهى السارى فى الوجود والذى لا تملك نفس أن ترده أو تنفك عنه ، وأن لفظ (الحكم) فى هذه الآية ليس له أيضًا من علاقة بالحكم الدنيوى .

وبالمثل فإن كل الآيات القرآنية التى اعتمد عليها أصحاب هذا الفكر فى دعوتهم إلى تحقيق ما يسمونه (بالحاكمية لله) إنما تتحدث عن (الحكم الإلهى) الذى يختص الله به فى الحكم بين العباد وفى حسابهم والفصل بينهم وفى قائه وقدره الإلهى فى الكون والعباد .. وليس لها أية علاقة – على الإطلاق – بالحكم أو المناصب أو القوانين أو السلطة الدنيوية .. ومن البديهى أن الناس سواء طبقوا القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية أم لم يلتزموا بها فإن ذلك ليس له من علاقة بالآيات التى تتحدث عن الحكم الإلهى السارى فى الوجود والتى يرفعها أصحاب شعار (الحاكمية لله) لأن الله (غنى عن العالمين) سواء فى ذلك من كفر فعليه كفره، على حد قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أو آمن بالله ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ورغم وضوح هذه الحقيقة التى يكفى لإدراكها مجرد القراءة للآيات كاملة ، فإن أصحاب هذا الفكر قد لجأوا إلى استغلال وجود كلمة (الحكم) فى هذه الآيات وقاموا بتقطيع السياق القرآنى ورفع هذا الشعار الخادع فيما يسمونه بتطبيق (الحاكمية لله) وتنفيذها .. وذلك تبريرًا للمطالبة بالحكم وللاستيلاء على السلطة .

ويظهر مما سبق أن المؤلف أراد المتاجرة بشعارات (الحاكمية لله) ولكننا لابد أن ندرك أن (الحكم بما أنزل الله) هو أمر شخصى لكل مسلم بمفرده حاكمًا كان أو محكومًا ، وأنه يتناول التزام المسلم بكل ما أنزله الله فى القرآن وفى السنة الشريفة ولكل إنسان الحرية التامة فى اختيار طريق الهداية أو سبيل الضلال ، فسوف يحاسبه الله على ذلك ، فمن التزم بما أنزل الله فقد نال ثوابه ومن خرج عنه فقد استحق غضبه وعقابه فى الدنيا والآخرة ، وأيًا كان الناس بما أنزل الله أو بغير ما أنزل الله حاكمًا كانوا محكومين ، فذلك كله أمر يختلف عن الحكم الإلهى السارى فى الوجود بالمشيئة الإلهية .

ويتكلم المؤلف بعد ذلك عن اتهامه المجتمعات بالكفر ، وهو لا يقتصر فى تكفيره للمسلمين على مكان دون آخر ، وإنما يمتد إلى الحكم بتكفير كافة المجتمعات وكل المسلمين على وجه الأرض اليوم ، بل إنه يبلغ حد المساواة بين المسلمين وبين الكفار الملحدين فى المجتمعات الشيوعية والوثنية والنصرانية .

ويبرر المؤلف تكفيره للمسلمين ومجتمعاتهم بأنهم لا يطبقون الحاكمية ، ويعنى بذلك غياب الحاكم الذى يلتزم بالشريعة الإسلامية فى القوانين التى يصدرها .

ويكـــرر المؤلف رمى المسلمين ومجتمعاتهم بالكفر على امتداد الكتاب كله ، ففى البداية يرمى كافة المسلمين فى أنحاء العالم بالجاهلية فيقول (إن العالم يعيش اليوم كله فى الجاهلية) .. ثم يـــبرر هـــذا الحكم بما يسميه بعدم وجود الحاكمية فيقول (هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهى الحاكمية .. أنها تسند الحاكمية إلى البشر) .

ويزعم المؤلف أن عدم تطبيق الحاكم القوانين المأخوذة من الشريعة الإسلامية يخرج الناس جمـــيعًا عـــن دينهم ويجعلهم مشركين بالله .. ويزعم أن رسل الله كانوا يأتون لإخراج الناس من هذه الصورة المزعومة من الشرك ، وأن هذا الشرك الذى يقع فيه المسلمون جميعًا ، بسبب مـــا يســـميه بغياب الحاكمية ، هو شرك بالله لا يختلف عن الشرك بالله فى العقيدة والعبادة ، فيقول (كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق أو يشركون مع الله آلهة أخرى .. إما فى صورة الاعتقاد والعبادة وإما فى صورة الحاكمية والاتباع .. وكلاهما شرك كالآخر ، يخرج به الناس مـــن ديـــن الله ، ويرتدون إلى الجاهلية التى أخرجهم الرسول منها ، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى) .

ويصـــل المؤلف فى مزاعمه فى تكفير المسلمين إلى الحد الذى يزعم فيه أن المسلم لا يعتبر مسلمًا ولا تقبل منه شهادة إلا اله إلا الله إلا إذا كان الحكم يطبق الشريعة الإسلامية .. فيقول (شـــهادة ألا إلـــه إلا الله أى إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .. إفراده بها اعتقادًا فى الضمير وعبادة فى الشعائر وشريعة فى واقع الحياة .. فشهادة أن لا إله إلا الله لا توجد فعلاً ولا تعتبر موجودة شرعًا إلا فى هذه الصورة المتكاملة التى تعطيها وجـــودًا حقيقيًا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلمًا أو غير مسلم) .. وهكذا يجعل المؤلف تطبيق الحاكم للشريعة الإسلامية شرطًا لقبول إسلام أى إنسان .. ثم يذهب إلى المزيد من التفاصيل ، فيعلن حكمًا خطيرًا بأن المسلم الذى يلتزم بكل أوامر المولى عز وجل فيشهد بأن لا إله إلا الله ويقـــيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت لا يعتبر مسلمًا إذا لم تكن القوانين السائدة فى المجتمع مستمدة من الشريعة الإسلامية .. فيقول (ليس المجتمع الإسلامى هو الذى

يضـــم أناسًا ممن يسمون أنفسهم مسلمين ، بينما شريعة الإسلام ليست هى قانون هذا المجتمع وإن صلّى وصام وحج البيت الحرام) .

وهكذا يربط المؤلف إسلام الناس جميعًا بالحاكم ومسلكه حتى يصل به الأمر فى وضوح إلى أن يـــنكر إســـلام أى إنسان يعيش على أرض لا يوجد فيها الحاكم الذى يطبق الشريعة الإســـلامية فيقول (لا إسلام فى أرض لا يحكمها الإسلام ولا تقوم فيها شريعته) .. ويساوى المؤلــف بـــين إســـلام المسلمين فى هذه الحالة وبين كفر الكفار ، فيزعم أن هؤلاء المسلمين يتساوون مع المجتمعات الشيوعية والوثنية واليهودية والنصرانية حيث يدمغها جميعًا بالجاهلية ، ويضعها معًا فى زمرة المجتمعات الكافرة ، فيقول (إن المجتمع الجاهلى هو كل مجتمع غير المجتمع المســـلمى .. وبهذا التعريف الموضوعى تدخل فى إطار المجتمع الجاهلى جميع المجتمعات القائمة الـــيوم فى الأرض فعلاً .. تدخل فيه المجتمعات الشيوعية أولاً .. وتدخل فيه المجتمعات الوثنية وتدخـــل فـــيه المجتمعات اليهودية والنصرانية .. وأخيرًا يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى تلك المجـــتمعات الـــتى تـــزعم لنفسها أنها مسلمة) .. ثم يستطرد قائلاً (موقف الإسلام من هذه المجـــتمعات الجاهلـــية كـــلها يتحدد فى عبارة واحدة ... أنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها فى اعتباره) ؛ ويستمر المؤلف إلى نهاية كتابه فى رمى كافة المسلمين اليوم ، بالكفر فيقول (المسألة فى حقيقتها مسألة كفر وإيمان .. مسألة شرك وتوحيد .. مسألة جاهلية وإسلام .. إن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون) .. ويزعم المؤلف أن هدف حركته هو إعادة الناس إلى الإسلام الذى ينفى المؤلف أى وجود له أو للمسلمين اليوم ، حيث يقول (لـــيس هذا إسلامًا وليس هؤلاء مسلمين .. والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام ولتجعل منهم مسلمين من جديد) .

وفى مواجهـــة هـــذه الدعوة الخطيرة إلى تكفير المسلمين التى يروج لها المؤلف فإننا نرد بالآتى :

إن تكفـــير المسلمين بدعوى خروج الحاكم عن الالتزام بالشرعية الإسلامية هو سلوك يتعارض تعارضًا كاملاً مع ما أنزل الله فى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ، فإيمان أو كفر أى إنسان هو أمر شخصى يرتبط به وحده ، ويتعلق فقط بما يستقر فى قلبه من معتقد فى أركان الإيمان ، وليس له أية علاقة بإيمان أو كفر أى إنسان آخر ، وأن تردى أى إنسان فى

الكفـــر ، بما فى ذلك الحاكم لا ينقص من إيمان غيره ، ولا يضار المؤمن مطلقًا فى إيمانه بضلال أى إنســـان آخر كائنًا مَن كان ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُـــرُّكُمْ مَـــنْ ضَـــلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ كذلك القول برمى المسلمين بالكفر هو مسلك بالغ الخطـــورة .. ولقـــد حذرنا المولى عز وجل من ولوج هذا الباب فى التكفير فى القرآن والسنة الشريفة .

يقـــول تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَـــمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ وهذه الآية تشير إلى اليهود الذين دخلوا على الرسول ﷺ وهم كافـــرون وخـــرجوا أيضًا وهم كافرون – وهى تعبر أيضًا عن اعتقاد الفرد أنه يحمل وحده الإيمـــان ، ولكـــن إذا رمـــى الـــناس بالكفر وهم ليسوا كذلك فقد حمل هو وزر هذا الكفر وخرج به ؟

ويقـــول الرســـول ﷺ فى الحديـــث الذى يتفق مع هذه الآية (لا يرمى رجل رجلاً بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك) كما يقول ﷺ : (إذا كفّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما) .

ومن هذه الآية وهذه الأحاديث الشريفة نستنبط حكم المولى عز وجل فى هذا الأمر وهو وجوب أن يبتعد المسلم تمامًا عن رمى غيره بالكفر حتى لا يبوء هو به .

وإذا تدبرنا معنى الكفر ومعنى الإيمان فسندرك خطورة المسلك الذى يسلكه هؤلاء الذين يبيحون لأنفسهم الحكم على إيمان الناس أو كفرهم .

والإيمان هو التصديق بكل ما فى الدين من أمور اعتقادية ، وقد عرفه الرسول ﷺ بقوله : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره) وهذه كلها غيبيات وبالتالى فمحلها قلب الإنسان .

أما الكفر فهو فى المقابل الإنكار أو الجحود بهذه الأمور الاعتقادية كلها أو بعض منها ، أى أنه أيضًا محله القلب ، وما فى قلوب العباد لا يعلمه إلا خالق العباد ، يقول تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ولهذا فالمسلم لا يمكن أن يحكم على غيره بالإيمان أو الكفر، فقـــط لظاهر انسان فإن أعلن وأظهر الإسلام قلنا إنه مسلم ، وإن أعلن وأظهر الكفر قلنا إنه

كافــر ، أما الحكم على إنسان ما بالكفر وهو يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدًا رســول الله مــن خلال الحكم على أعماله التى نراه يؤديها ، فذلك مما لا يجوز أبدًا لأحد ، لأن حقيقة هذه الأعمال إنما تحددها النية الكامنة فى قلب كل إنسان كما يقول الرسول ﷺ : (إنمـــا الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى) فمن رأيناه يؤدى طاعة لله تعالى فإننا لا نســـتطيع أن نعرف إن كان يؤدى هذه الطاعة إيمانًا بالله وتسليمًا لأوامره ، أم يؤديها رياء ونفاقًا ، لأن حقيقة هذه الطاعة الظاهرة أمامنا مردها إلى النية التى فى قلبه والتى لا يطلع عليها إلا الله .

وكذلــك من رأيناه يقترف معصية فإننا لا نستطيع أن نجزم أيضًا هل يقترفها كفرًا بالله تعــالى وجحــودًا بأوامره ، أم يقترفها تقصيرًا فى الالتزام بالأوامر الإلهية مع إقراره بوجوبها واعــتقاده فرضــيتها ، فذلك أيضًا مرده إلى النية التى يعلمها الله فقد تكون المعصية صادرة عــن مسلم يقصر فى الالتزام بأوامر المولى عز وجل ويعترف بتقصيره هذا ، فهو مسلم عاصٍ لا كافر .

ومن ذلك كله نستنبط أن الحكم على إيمان الناس أو كفرهم مرجعه إلى المولى عز وجل ، ولهذا فكل من يزعم أن له حق الحكم على كفر أو إيمان الناس فهو حكم المشرك بالله تعالى ، ذلك أنه يشارك المولى عزّ وجل فيما اختص به نفسه سبحانه وتعالى ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ .

ثم اندفــع المؤلــف يهاجم المسلمين ويدعو أتباعه إلى الانفصال عن هذا المجتمع وعدم المشــاركة فى أى نشــاط يفيده بل والعمل على هدمه وتقويض أركانه . ولذلك يدعو أتباعه إلى الانضمام فى تنظيم يستهدف الاستيلاء على الحكم وإزالة الأنظمة القائمة ، وهو إذ يدعو إلى هذه الدعوة الخطيرة يصور هذا الأمر كله باعتباره جهادًا فى سبيل الله وإعلاء لكلمة الدين ومنهجًا يأمر الإسلام باتباعه والالتزام به ، إن إقامة مثل هذا التنظيم هو أساس فى بناء العقيدة الإســلامية ذاتها فيقول (إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل فى نفوس حية وفى تنظيم واقعى وفى تجمع عضوى) . ثم يأخذ فى شرح منهجه فى الدعوة بعد إقامة هذا التنظيم فيدعو أعضاءه إلى أن يكــون ولاؤهم الكامل فى كل أمورهم لقيادة هذا التنظيم ، وأن ينزعوا تمامًا كل ولاء لهــم للمجــتمع الذى يعيشون فيه ، وإلى التجمع تحت قيادته المستقلة تمامًا عن المجتمع فيقول

(يجب أن يعمل أعضاؤه تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلى) ويزعم أن ذلك أساس فيما يسميه بالقاعدة النظرية للإسلام فيقول (لم يكن بد أن تتمثل النظرية للإسلام أى العقيدة فى تجمع عضوى حركى منذ اللحظة الأولى ، لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوى حركى آخر غير الـــتجمع الجاهـــلى ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوى الحركى الجاهلى الذى يستهدف الإســـلام إلغـــاءه) . ثم يزعم المؤلف أن هذا المسلك فى الانضمام إلى هذا التنظيم وترك كل التماء للمجتمع يجب أن يلتزم به كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدًا رسول الله ، فـــيدعو إلى (أن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولاءه من التجمع الحـــركى الجاهـــلى أى التجمع الذى جاء منه ، ومن قيادة ذلك التجمع سياسية واقتصادية واجتماعية وأن يحصر ولاءه فى التجمع الحركى) .

ويدعـــو المؤلـــف المســـلمين صراحة إلى عدم المشاركة فى العمل فى هذا المجتمع أو مده بكفائتهم وخبراتهم ونشاطهم ، ويطلب إليهم أن (تكون حركتهم فى اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلى) ، ويحذرهم من كل عمل يؤدى إلى ما يسميه (بتقوية المجتمع الجاهلى) كما يحذرهم مـــن أن (يظلـــوا خلايا حية فى كيانة تمده بعناصر البقاء والاستقرار ، أو أن يعطوه كفائتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى) .

ثم يفصح المؤلف صراحة عن الهدف النهائى من ذلك التنظيم بعد أن يقوم بانضمام عدد كـــبير مـــن الأعضاء إليه ممن يكون ولاؤهم الكامل لقيادة التنظيم ، فيعلن أنه يستهدف إزالة الأنظمة السياسية والحكومات والاستيلاء على الحكم فيها إذ يقول إن الهدف من هذا التنظيم هـــو (تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة أو قهرها) . كما يقول أيضًا (إن الإسلام ليس مجرد عقـــيدة فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التى تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر) .

ثم تصـــل الدعـــوة إلى أقصى درجات الخطورة حين يصور المؤلف إقامة التنظيمات التى تهدف إلى محاربة الحكومات والأنظمة السياسية والاستيلاء على الحكم باعتبارها جهادًا فى سبيل الله فـــيقول (يجـــب أن تواجـــه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه ، تواجهه بالقوة والجهـــاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها) كما يصور دعوته إلى قيام هذه التنظميات باســـتخدام القوة وصولاً لما يسميه بالمذهب الإلهى ،فيقول (إن الانطلاق بالمذهب الإلهى تقوم

فى وجهـه عقبات مادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع وأوضاع البيئة ، وهذه كلها هى التى ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة) . ولا يخفى المؤلف حقيقة أن ما يهدف إليه من دعوته كلها هو الاستيلاء على الحكم ، فيدعو صراحة إلى عدم الالتفات إلى البحث فى الإصلاح ، وإنما إلى الفعل فقط على إسقاط الحكم القائم والسيطرة عليه ، فيقول (إن الجاهلية التى حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الإسلامى ، هى كذلك تتعمد أن تحرجهم فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذى تدعون إليه ؟) ، ثم يجيب الكاتب عن السؤال بقوله (إن منهج أصحاب الدعوة الإسلامية أن تتبلور النظرية من خلال الحركة وتتحدد ملامح النظام من خلال الممارسة) .

وهكذا يتضح أن الأمر فى نظر المؤلف لا يخرج عن كونه مطالبة بالحكم بأى ثمن وتحت أى مبرر بعيدًا عن أى منهج جاد للإصلاح ، حتى أنه يعتبر أن مجرد طرح السؤال البديهى والمنطقى عن الهدف من هدم النظام القائم والاستيلاء على الحكم والسؤال عن تفاصيل الإصلاح الذى ينشده ، بأن هذا السؤال يقصد به الإحراج والضغط على الأعصاب ، وفى مواجهة هذه الدعوة الصريحة إلى إنشاء تنظيمات مسلحة تتصارع مع الأنظمة القائمة وتستهدف الاستيلاء على الحكم فإننا لابد أن نتوقف أمام الحقائق الآتية :

إن الدعوة إلى الإسلام لا يمكن أن تقوم على أساس الاستيلاء على الحكم وإنما تقوم على أساس التأسى برسل الله واتباع منهجه الذى أمرهم به المولى عزّ وجل فى الإصلاح ، والذى يقوم على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة بعيدًا عن أى صورة من صور العنف والإكراه .

إن مسئولية كل إنسان فى المجتمع مسئولية شخصية تتحدد فى تغيير ما فى نفسه من منكر أولاً ، ثم فى رعيته ومن هم تحت ولايته ثانيًا .

وكذلك فإن إيمان أى مسلم لا يمكن أن يتأثر بتقصير الحاكم أو التزامه فى تنفيذه الشريعة الإسلامية وما يصدر عنها من قوانين ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقوله عزّ وجل : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، لأن الإيمان أمر يتعلق بما فى قلب كل إنسان كما أوضحنا من قبل .

إن الطـــريق إلى إصـــلاح المجتمع لابد أن يقوم على أساس دعوة أفراده إلى الهداية حتى يبـــتعدوا عـــن كل ما يغضب المولى عزّ وجل ، فيهديهم الله إلى سبيل الرشاد ، ويغير أحوالهم لما فيه خير مجتمعهم ، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أمـــا الدعوة إلى الاستيلاء على الحكم فلابد أن تنتهى حتمًا إلى الفتن والتصارع بين الجماعات المختلفة ، فإذا كانت هذه أو تلك تزعم أن الحاكم الذى ستأتى به هو الذى سيحقق ما تسميه بالحاكمـــية ، وهـــو الذى سيطبق الشريعة الإسلامية فإن العديد من الجماعات الأخرى تزعم أيضًـــا نفـــس الزعم ، وتطالب أيضًا بالاستيلاء دون غيرها على الحكم وتنصيب من تأتى به دون غيره .

ومن ثم فإن هذه الدعاوى لا تتوقف مطلقًا باستيلاء واحدة من الجماعات المختلفة على الحكم وإنما تفتح الباب على مصراعيه للصراعات الدموية على الحكم والسلطة والفتن الواسعة التى طالما عانى منها المجتمع الإسلامى طويلاً على أيدى الجماعات الخارجية التى تتخذ من الدين ســـتارًا لتحقـــيق أطماعهـــا وأهدافها ، وهى فى حقيقتها دعاوى دجل ، لأن كل من يحاول أن يصرف الدين عن غايته فى هداية المسلمين ويوجهه إلى التصارع على الحكم والسلطة فهو دجّال .

ولقـــد حذرنـــا الرسول ﷺ من أنه سيكون هناك على الدوام فى الأمة الإسلامية أمثال هـــؤلاء الدجالين الذين يتسترون خلف الدين ، ويرفعون الشعارات الدينية لتحقيق أغراضهم ومآربهم الخاصة .

ثم يقـــوم المؤلـــف بتقسيم البلاد إلى ما يسميه بدار الحرب ودار السلام ، وهو فى هذا التقسيم الخطير لا ينسب البلاد إلى إسلام أهلها أو كفرهم ، وإنما إلى الحاكم وحده ، فإذا كان الحـــاكم يطـــبق الشريعة الإسلامية فإن البلد الذى يحكمه يكون دار الإسلام ، وإذا لم يلتزم الحـــاكم بالشريعة الإسلامية يكون البلد دارًا للحرب فيقول (إن هناك دارًا واحدة هى دار السلام تلك التى تقوم فيها الدولة المسلمة فتهيمن عليها شريعة الله ، وتقام فيها حدوده ويتولى المســـلمون فـــيها بعضـــهم بعضـــا ، وما عداها فهو دار حرب ، علاقة المسلم بها إما القتال وإما المهادنة على عهد أمان ، ولكنها ليست دار سلام ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين) .

ولعل خطورة هذا التقسيم تصبح واضحة حين ندرك أن دار الحرب وهى طبقًا لتعريف المؤلـــف كـــل بلـــد لا يلتزم حاكمه بالشريعة الإسلامية . حكمها هو استحلال دماء أهلها

وأموالهـــم ، بل ويمتد البعض من أصحاب هذا التقسيم الباطل إلى استحلال الأعراض أيضًا ، ومـــن ذلك كتاب (الاختيار لتعليل المختار) الذى يدرس بالمدارس الأزهرية الثانوية والذى يقول فى صفحة ٧٢٨ (والزنا فى دار الحرب لا يوجب الحد) .

ولقـــد أورد كـــتاب (معالم فى الطريق) صراحة بعض هذه الأحكام الخطيرة حيث دعا إلى محاربـــة الأهـــل والأقـــرباء والأنســـاب والأصهار فى أى مجتمع لا يطبق حاكمه الشريعة الإسلامية باعتباره طبقًا لمزاعمه دارًا للحرب ، فيقول (وطن المسلم هو دار الإسلام لكل من يدين بالإسلام عقيدة ويرتضى شريعته شريعة ، وكذلك لك من يرتضى شريعة الإسلام نظامًا ولو لم يكن مسلمًا ، والأرض التى لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هى دار الحرب بالقـــياس إلى المســـلم وإلى الذمى والمعاهد ويحاربها المسلم ولو كان فيها مولده ، وفيها قرابته مـــن النصـــب وصـــهره وفيها أمواله ومنافعه) . وهذا التقسيم المزعوم مخالفة صريحة لما جاء فى القـــرآن الكـــريم ن المـــولى عزّ وجل حينما يحدثنا عن أخبار القرى وما حلّ بها من ثواب أو عقـــاب ، فـــإن ذلك يكون نسبة إلى سلوك أهلها وعقيدتهم من إيمان أو كفر ، كما سبق أن أوضـــحنا ، فقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ يدل على أن الفساد يعم وينتشر بسبب ما يرتكبه الناس من فواحش وخروج على الدين ، وليس بســـبب سلوك الحاكم فقط . وكذلك فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ . ويوضح أن الحكم الإلهى بخروج قرية ما عن الإيمان واستحقاقها للهلاك لا يكون إلا بظـــلم أهـــلها ، ولـــيس بظلم فرد بعينه ، وأمثلة القرى فى القرآن كثيرة ، وتؤكد كلها أن الحكم على إيمانها أو كفرها إنما يرتبط بما عليه أهلها من الإيمان أو الكفر يقـــول تعـــالى : ﴿ وَلَـــوْ أَنَّ أَهْـــلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِن السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ . أى أن بـــركات الســـماء والأرض معلقة بإيمان أهل القرية وتقواهم وسلامة قلوبهم ، وليست معلقة بالحاكم فقط ، من أين جاء هؤلاء المدعون بذلك الافتراء ، وهو أن بلدًا أهله مسلمون ويحكم فيه الناس على أنفسهم بما أنزل الله ، ومع ذلك يوصف بأنه دار حرب لأن الحاكم لا يطبق فيه شريعة الإسلام . إن خطورة هذا التقسيم الباطل تبدو فى دعوة الكتاب إلى محاربة المسلمين بما فيهم الأهل والأقرباء والأنساب والأصهار فى أى بلد لا يلتزم الحاكم فيه بالشريعة الإسلامية، إذ يـــتأكد مرة أخرى أن الأمر هو دعوة صريحة للاستيلاء على الحكم وإثارة الفتن والتخريب

بدعـــوى أن هـــذا البلد دار حرب ، وهو ما يتعارض مع كل الأحكام التى أنزلها الله تعالى فى القرآن وفى السنة الشريفة ، فلقد جعل المولى عزّ وجل قتال الكفار مشروطًا برد الاعتداء على المسلمين ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

فما بالنا بهذه الدعوة التى تعطى لأصحابها الحق فى مقاتلة المسلمين الآمنين بما فيهم الأهل والعشـــيرة ، واســـتباحة دمائهم وأموالهم بعد الحكم بتكفيرهم ؟ وأين هذه الدعوة من قول الرســـول ﷺ (كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه) ؟ ثم يدعو الكتاب صراحة إلى الإكراه فى الدين ، ويزعم أن قوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ لا يعنى النهى عـــن اســـتخدام الإكـــراه فى أى أمـــر من أمور الدين ، وإنما يعنى أنه لا إكراه على اعتناق العقـــيدة فقط ، أما غير ذلك من أمور الدين فيجوز إكراه الناس عليها ، إذ يقول (لا إكراه فى الدين) .. أى لا إكراه على اعتناق العقيدة .

وفى مواجهة هذه الدعوة الخطيرة التى تفتح الباب على مصراعيه للفتن والصراعات بين المســـلمين باســـم الدين ، فلنعد إلى آيات القرآن لندرك بطلانها وتعارضها الكامل مع ما يأمر بـــه المـــولى عزّ وجل ، فالله تعالى يقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ . أى لا إكراه فى أى أمر مـــن أمور الدين حيث جاء لفظ الدين فى الآية بشكل عام ومطلق بما لا يملك أى إنسان كائنًا من كان أن يقيده أو يحدده ، بالزعم بأن المراد به هو العقيدة وحدها لا الدين كله .

والديـــن كما عرفه الرسول ﷺ عندما جاءه من يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان فكان قوله (الإســـلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رســـول الله ، وإقـــام الصـــلاة ، وإيتـــاء الـــزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، والإيمـــان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشـــره ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ثم فى النهاية وبعد انصراف السائل قال (هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينك) .

فالدين إذن هو الإسلام والإيمان والإحسان ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ أى لا إكراه فى الإسلام ولا إكراه فى الإيمان ولا إكراه فى الإسلام .. أى لا إكراه على قول لا إله إلا الله ســـيدنا محمـــد رسول الله ، ولكن الإكراه هنا ينصب على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

وصـــوم رمضـــان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .. مادام الفرد قد اعتنق الإسلام دينًا له فالإكراه يكون فى القيام بأداء أركان الإسلام جميعًا .

ومـــن هنا يتبين لنا أن أى قول بجواز الإكراه فى الدين أو الادعاء بأنه لا إكراه فى أمور العقيدة فقط ، هو فى حقيقته خروج واضح على آيات القرآن وأحاديث الرسول الصحيحة ، وهو ادعاء باطل لا يستهدف سوى إثارة العنف والفتن بين المسلمين .

ولقــد اعــتمد مــثيرو العنف فى مزاعمهم عن الإكراه فى الدين على بعض الروايات المدسوسة التى تحض على فرض العقيدة بالقوة وبالسلاح ، وهذه الروايات تتعارض مع المفهوم الخاطــئ الــذى يروج لــه هؤلاء بأن قوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ يعنى (لا إكراه فى العقيدة) ، والدعوة إلى إكراه الناس فى العقيدة بإكراههم على قول لا إله إلا الله وقتلهم إذا ما رفضوا ، يؤكد بطلان كل مزاعمهم وتعارضها مع ما أنزل الله فى الكتاب والسنة الشريفة .

ويقول كتاب (فقه السنة) الجزء الأول لمؤلفه سيد سابق عن الحكم بتكفير المسلم الذى يــترك الصــلاة تكاسلاً أو تشاغلاً رغم إيمانه بها واعتقاده فرضيتها والحكم بوجوب قتله .. (تــرك الصلاة جحودًا وإنكارًا لها كفر وخروج عن الملة ، أما من تركها وإيمانه بها واعتقاده فرضـــيتها ولكنه تركها تكاسلاً أو تشاغلاً بما لا يعد فى الشرع عذرًا فقد صرحت الأحاديث بكفره ووجوب قتله) .

وهـــذا الزعم يفتح الباب على مصراعيه لاتهام المسلمين بالكفر ، ثم قتلهم بحجة المحافظة عـــلى أداء الصلاة على حين أن المسلم الذى يقصر فى أداء الصلاة هو فى حقيقة الأمر عاص لم يلـــتزم بما أمر به الله ، وله عقابه عند المولى عز وجل ، فهو سبحانه وتعالى المتكفل بحسابه ، ولم يعـــط لأحد الحق فى محاسبته على ذلك ، وليس هناك من دليل شرعى على هذه المزاعم ، كما أنه ليس بكافر ، لأن التقصير فى أداء الصلاة لا يخرج الإنسان من الإسلام إلى الكفر مادام يعترف بوجوبها وفرضيتها من الله تعالى ، ولنا أن ندعوه بالحكمة والموعظة الحسنة ليخرج عن هـــذا التقصير ، ولكن لا يجوز أبدًا أن نكرهه على الدخول فى الإسلام أو نكرهه على قبول الصلاة وأدائها .

فكل صور الإكراه فى الدين إجماله وجزئياته حرمها الله تعالى فى كتابه كما يقول تعالى : ﴿ لاَ إِكْــرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ويكفى أن نتذكر هذا الخطاب الإلهى للرسول ﷺ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾

وقوله عزّ وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ حتى يتبين لنا مدى خروج أمثال هؤلاء الذين يتاجرون بالشعارات عما أنزله الله فى كتابه وسنة رسوله ﷺ .

ثم بـدأ المؤلف بعد ذلك فى إثارة الفتنة فى الأمة الإسلامية بالدعوة إلى محاربة الكفار ، فنجده يقطع بعض الآيات القرآنية التى يأتى بها مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ يجب ألا تقطع عن سياقها ، بل لابد من تكملتها والنظر فى بقيتها وهى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى أنها تدل بوضوح تام على أن الأمر الإلهى بمقاتلة المشركين كافة مشروط ، ومرتبط بقتال هؤلاء المشركين للمسلمين كافة ، أى أن المسلمين يجب ألا يبدأوا بالاعتداء وقتال المشركين لمجرد أنهم مشركون ، وإنما يجب قتالهم عندما يقاتلوننا أو يعتدون علينا ، ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أى أن الأمر الإلهى بقتال الكفار والمشركين مشروط ومرتبط باعتدائهم وقتالهم لنا ، وليس من آية قرآنية واحدة تدل على أنه للمسلمين أن يقاتلوا كل مشرك أو كافر لمجرد أنه مشرك أو كافر أو تدعو المسلمين للاعتداء على الآمنين لمجرد أنهم ليسوا على عقيدتنا ، وإنما تتبين حدود القتال فى الإسلام من الآيات السابقة وتتبين أيضًا من قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

فالقتال فى الإسلام لا يكون أبدًا لفرض الدين أو إكراه الناس عليه ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وإنما يكون للدفاع عن بلاد المسلمين ورد كيد المعتدين المحتلين لأراضيهم ولاسترداد مقدساتهم متخذين فى كل أسباب القوة بما يرهب أعداء الإسلام الطامعين فيهم ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

إن القول بأن القتال قد شرعه الله على مراحل كان فى بدايتها محرمًا، ثم أصبح مأذونًا به، ثم مأمورًا به ضد من بدأ القتال ، ثم مأمورًا به ضد جميع المشركين كافة ، هذا القول يشير إلى أن المولى عزّ وجل قد تغيرت أحكامه وتبدلت أقواله ، إذ يُحرم الشىء ، ثم يعود فيُحله مرة ثانية ، ثم يأمر به ، وهذا تطاول واضح على ذات الله سبحانه وتعالى ، كما أنه خروج صريح على نص الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ بالإضافة إلى أن القول بوجود مراحل متعددة جاءت بها الآيات يعنى وجود تعارض بيّن ، وهذا مما لا يجوز القول به

لتعارضه مع قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ فآيات القرآن تحمل من أوجه الإعجاز ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، وليست صالحة لوقت فقط دون غيره ، أو لمناسبة دون غيرها أو لمرحلة فقط .. وإنما تحمل واقع الأمة الإسلامية على مدار القرون منذ نشأها وإلى ما شاء الله ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ .

ثم عمد المؤلف فى سبيل تأليب الناس على مجتمعهم إلى التطاول على ذات المولى عزّ وجل ، فادعى أن الناس فى المجتمع قد اعتدوا على سلطان الله بل وسلبوه أخص خصائص ألوهيته ، إذ يقول فى وصفه لجاهلية المجتمع (هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص ألوهيته ، وهى الحاكمية ، إنها تسند الحاكمية إلى البشر) .

ويتمادى المؤلف فى إلحاحه على نفوس أتباعه بهذا المعتقد الخطير حتى أنه يقرر أن المدلول الحقيقى عنده لعقيدة لا إله إلا الله ، هو العمل على طرد المعتدين على سلطان الله ، ورد أخص ألوهيته المسلوبة من هؤلاء المعتدين ، ويجعل من ذلك أساس الإسلام فيقول فى توجيهه لأتباعه (كذلك ينبغى أن يكون مفهومًا لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد لهم شهادات الميلاد أنهم مسلمون ، ويجب أن يعلّموهم أن الإسلام أولاً إقرار عقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقى ، وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله) ، ثم يضيف المؤلف قوله (ولتكن هذه القضية هى أساس دعوة الناس إلى الإسلام) ويستمر المؤلف فى محاولته الدائبة لاقتحام معتقده الخطير فى قلوب قرائه فيؤكد لهم أن سلطان الله مغتصب ، وأن ملكه غير قائم فى الأرض ، وأنه الآن إله فى السماء فقط ، أما فى الأرض فقد انتزع سلطانه ، واعتدى على أخص خصائص ألوهيته ، كما يقول (إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله وطرد المغتصبين له) ثم يضيف (إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض) أو بالتعبير القرآنى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ .

وهكذا يضلل المؤلف أتباعه ، فيزعم أنه قد تم الاعتداء على سلطان الله فى الأرض ، وعلى أخص خصائص ألوهيته ويستدرجهم فى عقيدتهم ويستنهض فيهم حمية الجاهلية لإقامة

عـــلى معتقد فاسد ، ينسب الضعف ونقص القدرة للمولى عز وجل ويصفه بصفة المفتقر إلى العـــباد يصدون عنه العدوان ، ويعيدون إليه الملك ويردون إليه أخص خصائص بعد أن سلبها الناس منه .

ولعـــل مـــا فى وضوح عبارات المؤلف السابقة وما فيها من تطاول على قدرة الله تعالى ووصفه بصفات النقص والافتقار ما يغنى المسلم عن أى تعليق .. ولكننا فقط نلفت الأنظار إلى النقاط الآتية :

إنـــه مـــن بديهيات الإيمان أن نؤمن بالقدرة المطلقة للمولى عزّ وجل فى الوجود ، وأنه سبحانه وتعـــالى لـــه ملك السماوات والأرض : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وإنه سبحانه وتعالى مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء على مقتضى الحكمة الإلهية بما يعلمه ، جلّ شأنه ، فى قلوب عباده وما هم عليه من كفر أو إيمان وما هـــم أهل لـــه من نعمة أو نقمة : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَـــالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وأنه سبحانه وتعالى هو القاهر فوق عباده .

ومـــن ذلك يتضح فداحة القول أو الاعتقاد بأن هناك من اغتصب سلطان الله واعتدى عـــلى أخص خصائص ألوهيته حسب تعبير (سيد قطب) كما أنه من بديهيات الإيمان أيضًا أن المولى عزّ وجل فى كل ذلك ليس مفتقرًا إلى عباده ليدافعوا عن سلطانه أو يقيموا لـــه ملكه أو يحفظـــوا لـــه صفاته ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُم الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

إن حكـــم المـــولى عز وجل للوجود قائم ومستمر ، وهو مرتبط بالإرادة الإلهية الصرفة والقـــدرة الإلهـــية المطلقة ، ولا علاقة لـــه بإرادة الناس ولا قدرتهم ، ولا يتوقف على إيمانهم أو كفـــرهم : ﴿ إِنَّ اللَّـــهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ . ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَـــابِ ﴾ . فالحكم لله العلى القدير فيما يقضيه ويقدره على عباده على مقتضى الحكمة الإلهية البالغة وعلى مقتضى ما هم أهل له من نعمة أو نقمة فى الدنيا والآخرة ، ولا يخفى على

عــالم أن حكــم المــولى عز وجل المطلق فى الوجود هو أمر مختلف تمام الاختلاف عن كافة التكاليف الإلهية التى أمر بها المولى عزّ وجل ، وترك الالتزام بها لمن أراد الهدى من الناس ، فهذه التكالــيف الإلهــية ، كآيات العبادات والمعاملات فى القرآن مثلاً يترك المولى عزّ وجل للناس حــرية الالــتزام بها ، فيفعلونها بإرادتهم الحرة ليفوزوا برضوان الله أو يخالفونها بإرادتهم الحرة فيــبوءوا بغضبه ، كما يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

وهكذا فإن الضال أو الكافر لا يتعدى بضلاله أو كفره على صفات الله ، ولا ينفلت عن حكمه ، ولا ينتقص من ملكه ، ولا يغتصب سلطانه ، ولكن واضح الأمر أن من يتخيّر لنفسه الضــلال والكفر وينبذ الهدى والإيمان ، فإنه بذلك يؤذى نفســه ويظلمها ويهلكها بحرمانها مــن رضوان المولى عزّ وجل وفضله وتعرضها لعذابه ونقمته فى الدنيا والآخرة كما يقول الله تعــالى : ﴿ مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ . ويقول عزّ وجل : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ .

إن المولى عزّ وجل قائم على ملكه فى السموات والأرض يجــزى كل نفس بما كســبت فى الدنيا قبل الآخرة ، وإن حســاب الأمة العاصــية فى الدنيا دائم بدوام وجود هــذه الأمم لم ينقطع أبدًا .

وإذا كان المولى عزّ وجل يخبرنا فى كتابه كيف أخذ العصاة والمسيئين بذنوبهم ، ومن ذلك قولــه تعالى : ﴿ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَــلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِــنْهُمْ مَــنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُــونَ ﴾ فإنه عزّ وجل يخبرنا أيضًا فى كتابه بدوام ذلك القدر الإلهى المقدور على العصاة والمكذبين ، إذ يقول تعالى عما أنزله من النقمة الإلهية بقوم سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِن الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾. وفى قــوله تعــالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِن الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ يبين لنا المولى عزّ وجل أن النقمة الإلهية ليســت بعــيدة عمن يرتكبون نفس الجريمة ويمارسون نفس الفاحشة فيستحقون غضب الله

فتـــنـــزل بهم نفس النقمة الإلهية التى أصابت قوم سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام ، وكذلك تتبين نفس الحقيقة فى استمرار نزول النقم الإلهية بالأقوام الظالمة فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ .. وإذا تدبـــرنا قوله تعالى : ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ ، فسندرك أنه كما دمر الله على الأولين من المكذبين والكافرين بالنقم الإلهية المختلفة فإن مثل ذلك المصير ينتظر الكافرين عـــلى الدوام والاستمرار ممن يجرون مجرى الأمم السابقة فى كفرها بدعوة الحق ومعصيتها لله وللرســـول ، فكـــيف يزعم إنسان بعد ذلك أن كفر الناس أو عدم التزامهم بأحكام الشريعة الإسلامية لمعنى يعنى أنهم قد اغتصبوا سلطان الله واعتدوا على أخص خصائص الألوهية ؟

وهكـــذا يتبين لنا إلى أى مدى بلغ التطاول على المولى عزّ وجل فى المتاجرة بالشعارات فى سبيل الوصول إلى الحكم .

الفصل الرابع

تنظيم جماعة التكفير والهجرة وكتاب الخلافة

نشـــأت جماعة التكفير والهجرة بين جدران السجن الحربى برئاسة شكرى مصطفى الذى كان معتقلاً سنة ١٩٦٥ مع بقية زملائه من الإخوان المسلمين ، وكان شكرى قد التحق بقيادة التنظيم الإخوانى بأسيوط قبل تخرجه من كلية الزراعة عام ٦٤ ، ١٩٦٥ ، وأصبح يتردد على مجالســـهم ويتلقى دروسهم لخدمة مخططهم فى تلك الأعوام حتى صدر القرار الجمهورى عام ١٩٦٥ باعـــتقال أعضاء الإخوان المسلمين ، فاعتقل شكرى ومن معه حيث أودعوا السجن الحربى ، وهناك اختلط بمعتنقى الفكر القطبى المتطرف الذين أقنعوه باعتناق هذا الفكر ، وظل يجـــد ويقرأ طوال فترة اعتقاله حتى أفرج عنه عام ١٩٧١ ، فاستكمل دراسته بكلية الزراعة بجامعة أسيوط وبعد تخرجه أخذ يدعو لفكره الجديد حيث برزت اللبنة الأولى لجماعة التكفير والهجرة كتنظيم دينى متطرف أرتكز على المحورين التاليين :

تـــبلورت لـــدى شكرى أحمد مصطفى مجموعة من الأفكار الدينية تمثل إضافات جديدة للفكر القطبى — كان أبرزها :

★ التصـــور الإسلامى للجماعة .. ويقوم على أن الإسلام قد عاد غريبًا وأن المجتمعات القائمـــة سوف تنهار ، وسيبدأ الإسلام من جديد على يد الصفوة المؤمنة بحد السيف انطلاقًا من جبال اليمن واستنادًا إلى بعض الأحاديث الدينية المكذوبة « أحاديث آخر الزمان » .

★ فكرة الهجرة .. وهى نتيجة لضـــرورة الانفصال عن المجتمع القـــائمة والانعزال عنه — وبـــدء الـــتحرك الإيجـــابى لتحقيق نواة المجتمع الإسلامى المنشود ، وذلك باللجوء للجبال والمغارات .

★ مبدأ التوقف والتبين .. الذى يقوم على رفض الاكتفاء بتوافر أركان الإسلام الخمسة ليكون المرء مسلمًا ، والمطالبة بحتمية تجنب المعاصى وإلا أعتبر الفرد كافرًا .

★ عدم الاعتراف بأية مصادر للأحكام الشرعية خلاف القرآن والسنة .

المحور الحركى :

★ كانـــت بدايـــة التحرك فى هذا المجال تكوين الهيكل التنظيمى للجماعة حيث نصب شـــكرى أحمـــد مصطفى أميرًا لها وبايعه أعضاء الجماعة ، وتم تعيين أمراء للمناطق لكل منهم مسئوليات محددة .

★ استئجار الجماعة لبعض الشقق كمقار سرّية لها بالقاهرة والإسكندرية والجيزة وبعض محافظات الوجه القبلى .

★ خـــروج أعضـــاء الجماعـــة إلى المناطق الجبلية واللجوء للمغارات تطبيقًا لمفاهيمهم الفكرية .

★ ســـعى قـــيادة الجماعة إلى تجنيد أكبر عدد ممكن من العسكريين وضمهم إلى التنظيم لاستغلال خبرتهم فى مجال العمليات العسكرية ، وتكليفهم بالقيام بتدريب أفراد الجماعة على اســـتخدام الأسلحة والتدريبات البدنية العنيفة ، وتحريضهم للاستيلاء على الأسلحة المختلفة من وحداتهم العسكرية .

وتنفيذًا للتصور الحركى للجماعة قام شكرى أحمد مصطفى وجماعته خلال شهر سبتمبر عام ٧٣ باللجوء والإقامة فى بعض المغارات الواقعة بدائرة مركز أبى قرقاص محافظة المنيا بعد أن تصـــرفوا بالبـــيع فى ممتلكاتهم وزودوا أنفسهم بالمؤن والسلاح الأبيض واشتبه رجال الإدارة بالناحـــية فى أمـــرهم وتم ضبطهم وقدموا للتحقيق فى القضية ٦١٨ لسنة ٧٣ أمن دولة عُليا وضـــبط شكرى مصطفى فى ١٩٧٣/١٠/٢٦ مع بعض إخوانه ، ولكن صدر قرار جمهورى بالعفو عنهم عقب حرب أكتوبر وأفرج عن شكرى فى ١٩٧٤/٤/٢١ إلا أنه عقب الإفراج عـــنه عـــاود ممارســـة نشاطه بصورة مكثفة وعمل على توسيع قاعدة الجماعة وإعادة تنظيم صفوفها ، وتمكن من ضم عناصر جديدة بالمحافظات المختلفة – كما قام بتسفير بعض الأعضاء للخارج للعمل لتمويل التنظيم ، ثم أخذ يتبنى مع جماعته أسلوب العنف والإرهاب كالآتى :

١ – الإرهاب الفكرى داخل الجماعة حيث وضعت قيادة الجماعة منهاجًا فكريًا محددًا لا يقبل الاجتهاد أو المعارضة من جانب الأعضاء ومارست مع المخالفين منهم عمليات التأديب الجسدى بالإضافة إلى العقوبات المالية .

٢ – قيام الجماعة بعمليات تصفية جسدية للقضاء على المنشقين عليها بتعقبهم والاعتداء عليهم .

٣ – التصادم مع النظام سعيًا إلى فرض مطالبها بالقوة وإثبات وجودها على الساحة السياسية أملاً فى قلب نظام الحكم والوصول إلى السلطة ، وقد تمثل هذا التحول الجذرى فى القيام بوضع مخطط يهدف إلى اغتيال الشخصيات العامة بدءًا بمن كان لهم دور فى التصدى للجماعة واستقر رأى قيادة التنظيم على تنفيذ هذا المخطط بالتخطيط لاغتيال بعض الوزراء ورجال القضاء ورجال الأزهر باعتبار أن هؤلاء الأفراد قد عارضوا الجماعة فى أفكارها ، وهم يعملون بوظائف عامة فى الحكومة أى كفار يعملون فى دار الكفر .

فكر الكتاب والرد عليه

كتــب شــكرى مصطفى أفكاره ومعتقداته فى كتاب (الخلافة) مستندًا على الأسس التالية :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (بُنى الإسلام على خمس شهادة ألا إله إلا الله وأن محمــدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً) .

وتقــول الجماعة إن فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لفظ « على » يدل على أنه لم يحصر أركان الإسلام فى خمسة فقط ، وإلا كان لفظ « من » ومادام أنه قرر أنه بُنى الإسلام عــلى خمس ، فإذن أعمدة الإسلام خمسة وتقام عليها فروض أكثر كجماعة المسلمين والبيعة والطاعة والتوبة .. إلخ ، وأسس على ذلك أن الحد الأدنى للإسلام هو جملة هذه الفرائض التى أفترضها الله على عباده وأن تضييع فريضة واحدة بغير عذر شرعى هو كفر بواح .

وهــذا القول مغالطة حيث جاء الحديث قاطع بأن أعمدة الإسلام خمسة وهى الفرائض أو الأركان الأساسية للإسلام ، وليس لأحد أن يضيف إليها شيئًا كما أنه ليس لأحد أن يحذف منها شيئًا وإلا كان لمن له حق الإضافة أن يكون له حق الحذف .

أولاً ـ التكفير :

قــرر شكرى أن الشخص الذى يريد السفر إلى الإسكندرية من القاهرة لابد أن يقطع المســافة كلها ، فإذا توقف فى طنطا فلن يصل أبدًا إلى الإسكندرية ، مثله كمثل الرجل الذى يــؤدى أربعة فرائض من الإسلام ويترك الخامسة ، فإنه لا يصل إلى الإسلام ويكون كافرًا ، وقــرر أن الرسول ﷺ قال (بين الرجل والشرك ترك الصلاة) ، وهذا أكبر تدليل على هــذا الرأى ، كما أن الرسول ﷺ فى أحاديثه عن القتال كرر نفس الفكر فقال (إذا التقى

المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار) ، (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، (لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض) ، (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) ، (والله الذى لا إله إلا هو لا يحل دم أمرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بإحدى ثلاث ، الثيب الزانى ، وقاتل النفس ، أو النفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) ، وهذه الأحاديث كلها توضح أن القتل يكون لتطبيق فرائض الدين كلها فإن تخلف فى إحداها لا يكون الشخص مسلمًا .

الرد :

هذا الرأى بدعة غير مذكورة فى القرآن أو السنة ومحدثه هو القائل بأن لفظ « فريضة » معناه الأمر الذى لا يستغنى عنه والذى لا يصلح الشىء بتركه ، وبالبحث عن لفظ فرض فى لسان العرب قال : فرض أى ألزم مثل قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ ، وفرض أى بين مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ وفرض أى حدد – والجمع فروض أى حدود – وفرض أى سن وأوجب ، وفرض أى قطع ، ولم يوجد لفظ فريضة بمعنى أنه الأمر الذى لا يستغنى عنه ولا يصلح الشىء بتركه .

وفى الأمثلة التى جاء بها شكرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنه كان يقاتل حتى يقر الناس بكل الدين من أوله إلى آخره ولو لم يقروا بفريضة واحدة منه لما كانوا أبدًا مسلمين ، أما قوله إن الإقرار لا يدخل فى العبادة أو يدخل إن تبعه العمل ، فهو كلام مجرد من الدليل بالإضافة إلى أن الإقرار شىء والقول شىء آخر ، ولكنه قال إن الإقرار لو وقف عند حد الإقرار لكان كإقرار إبليس وكإقرار الكافرين ، مع أن الإقرار فى مفهوم اللغة يدخل فيه الرضا ، ويخالف القول فى أن القول قد يكون كاذبًا أو صادقًا ، والرسول ﷺ كان يقاتل الناس حتى يقروا بما فى الإسلام من فرائض ، فإن فعلوا ذلك عصموا الأموال والدماء ، وعلى ذلك فالإقرار شىء والقيام على الفرائض شىء آخر ، ويكفى الإقرار بالفرائض ليكون الإسلام صحيحًا .

شرح شكرى آراءه فى الكفر بوجه عام ، فقرر أن الكافر هو المنكر لفرائض الله والتارك لها ، وكل شخص يستحل المعصية ويعتبر المعاصى حلالاً ، والذى يتبع الحاكم بما لم ينزله الله ، مع أن المعروف أن الكافر هو المشرك المنكر لوحدانية الله المرتد عن الإسلام .

ثم يستطرد شكرى قائلاً ، كل من ارتكب كبيرة فهو فاسق وكافر ، مع أن الله تعالى فرّق بين الحالتين فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُم الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ ، وكقول الرسول ﷺ : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) .

كما قرر شكرى أن قول الكفر أو فعل الكفر هو كل أو فعل مصادم لنص شرعى أو لأمر شرعى علم أنه من الدين ، والافتاء بغير حكم الله فى أى مسألة ، وذم الله ، أو سب جماعة المسلمين ، أو ترك فريضة أو فعل عمل محرم أو إلحاق ضرر بالمسلمين فى مال أو دم أو عرض .. كل ذلك يكون قوله أو فعله فى غير إكراه عملاً من أعمال الكفر .

الرد :

قال الرسول ﷺ (هل تدرون ما الإيمان بالله وحده وقد أمرهم به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) ، وبذلك أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد حكم بالإسلام لمن نطق بالشهادتين .. قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وقال الرسول ﷺ (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) ، وعلى ذلك فقد يوصف عمل بالكفر دون أن يخرج صاحبه عن الملة كوصف تارك الصلاة بالكفر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وبذلك أخرج المشركين فقط من المغفرة ، ولا توجد واقعة واحدة تفيد أن الرسول ﷺ حكم بالكفر على المعصية بل جميع النصوص تثبتت حكمه بالإيمان بمجرد النطق بالشهادة ، وقد فرّق النبى ﷺ بين الكفر والخروج عن الملة فقال : (من حلف بغير الله فقد كفر) ، وقال : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، وقال (من أعطى عطاء فوجد فليجبر به ومن لم يجد فليثن فإنه من كتم فقد كفر) ، وقال (من تسمى بغير اسم أبيه فقد كفر) . والمقصود هنا هو الكفر الأصغر وليس الخروج عن الملة ، وفى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ، وهذا دليل الكفر الأكبر لأنه شرك بـــالله ، أمـــا قـــول الرسول ﷺ (بين الرجل والشرك ترك الصلاة) فلا يقصد به الكفر وإنما المعصية فقط ، ودليل ذلك قوله (خمس صلوات كتبهن الله على العباد من جاء بهن ولم يضع منهن شيئًا استخفافًا بهن كان لـــه عند الله عهـــد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شـــاء أدخله الجنة وإن شاء عذّبه) ، وفى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ، دليل على أنه كفر غير مخرج عن الملة ، وفى حديث جبريل للرسول ﷺ (بشّر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخـــل الجنة .. قلت يا جبريل وإن سرق وإن زنا ؟ قال نعم ، قلت وإن سرق وإن زنـــا ؟ قلت وإن سرق وإن زنا ، قلت وإن سرق وإن زنا ، قال نعم ، وإن سرق وإن زنا ، قال نعم وإن شرب الخمر) (رواه البخارى) ، فمع هذا الفسق بيّن الرسول ﷺ أن فاعلـــه يدخـــل الجنة ، ومن المستقر عليه بألا يدخلها كافر . وقد كفّر شكرى المسلم لارتكابـــه المعصية الواحدة ، وقال بدخوله النار ، وهذا مخالف للدين وبالقياس على ذلك فإن مـــن أطـــاع الله والرسول طاعة واحدة فيدخل الجنة أيضًا حسب هذا التفسير ، أى إذا قال الرســـول : (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله) ، مع أن الرسول قال (من صلى البردين – الصبح والعصر – دخل الجنة) وفى هذا تناقض مع فكر شكرى .

ثم تناول شكرى شرعية الحكم بما أنزل الله فقرر أن من لا يحتكم إلى الشرائع التى أنزلها الله فحكمه حكم الجاهلية ويعتبر من الكافرين .. قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُم الْكَافِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُم الْفَاسِقُونَ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُم الظَّالِمُونَ ﴾، وقـــرر بناء على ذلك أن الآيات الثلاث بمعنى واحد ، وأن الكافر هو الظالم وهو الفاسق وهو العاصى .

وبـــناء على ذلك فإن رئيس الدولة كافر هو وجميع العاملين بالدولة وجميع الحكام الذين لا يحكمـــون بما أنزل الله وأئمة الإسلام والأولياء كفّار وأن عقائدهم فاسدة – كذلك قرر أن جميع المصريين كفرة ، ودعا للهجرة من أرض الكفر .

الــرد :

فى قوانــين الدول كثير مما يخالف قانون الله ، وهى لا تعد كافرة لأن الآية : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لا تعنى الكفر الذى يخرج عن الملة لأن هذا إنما ينطبق على من يحكم بغير ما أنزل الله راضيًا به مختارًا لــه ، لا لمن يحكم به وهو كاره لــه ، وقد وجه هذا السؤال للمرحوم الشيخ / محمد عبده من مفتى بنجاب من الهند — إذ سأله عن الحكم بالقوانين الإنجليزية ، وجاء فى الإجابة التى أرسلت إليه أن ظاهر الآية لم يقل به أحد من أئمــة الفقه المشهورين بل لم يقل به أحد قط حتى الخوارج الذين يكفرون الفسّاق بالمعاصى ، ومنها الحكم بغير ما أنزل الله ، لم يحكموا بكفر هؤلاء .

وقــد قال ابن عباس فى الكفر الواقع فى الآيات الثلاث فى سورة المائدة إنه ليس بالكفر الــذى تذهــبون إلــيه إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة كفر دون كفر ، وقد اختلف أهل السنة فى الآيــة اخــتلافات كثيرة أوردها صاحب المنار فى صفحة ٣٣٥ وما بعدها . كما أنه قيل عن الشعبى إن الآية جاءت فى اليهود خاصة أن اليهود قد ذكروا قبل ذلك فى قوله ﴿ لِلَّذِينَ هَــادُوا ﴾ ، كذلك فإن سياق الكلام يدل على ذلك ، لأن بعده : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا التفسير لليهود بالإجماع ، وأيضًا لأن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص — وروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات فقال إنها فى بنى إسرائيل .

ومن هذه التفسيرات أن الآية الأولى نزلت وقت ظهور التوراة لالتزام الأنبياء بالحكم بما ورد فيها ، والآية الثانية نزلت لعقاب المعتدين على الأنفس والحكم والعدل والمساواة ، والآية الثالثة نزلت فى بيان هداية الإنجيل وإقامة الشريعة على الوجه الصحيح وكل لفظ مختلف عن الآخــر ، وكلمة هم بين الكافرين والظالمين ليست للتوسية ، فليس كل ظالم كافر ، وإنما طبقًا للغة يكون كل كافر ظالمًا ، وليس العكس ، ولم يحكم الله بالكُفر أى الخروج من الملة فى هذه الآيات وإنما حكم الله هــو أنه عاص ، وقد عقب الله تعالى على الآيات الســابقة بقــوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ . وقد جاء فى تفسير آخر أن الآية الأولى تقصــد من لم يحكم بما أنزل الله وتعمد مخالفة الفرائض والعقيدة وإنكار الصلاة والصوم مثلاً فــيكون من الكافرين ، والآية الثانية تقصد من لم يحكم بما أنزل الله واجتهد ليفسر الفرائض

والعقيدة كشروط الصلاة والزكاة والحج ، وجاء اجتهادهم ظالمًا لبعض الناس فيكونوا من الظالمين ، والآية الثالثة تقصد من لم يحكم بما أنزل الله واجتهد ليفسر المعاملات كالإرث والزواج ، ولم يوفق فأولئك هم الفاسقون ، وفى حديث للرسول ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر ، وإذا اجتهد فأصاب فله أجران) فالإسلام لا يحكم على أحد بالكفر من الحاكمين لمجرد أن القوانين التى تطبق عليهم غير إسلامية ، وفى حديثه أيضًا (إلا أن تروا كفرًا بواحًا لكم فيه من الله برهان) ، كما قال (هل شققت على قلبه لتعلم أقالها أم لا) فى واقعة قتل كافر نطق بالشهادة قبل قتله كما قال (إنى لم أؤمر بشق بطون الناس حتى أعلم حقيقة ما فى قلوبهم) فالمحكومون لا يعدون كفارًا إلا إذا صدر من أحدهم ما يفيد عدم رضاه عن حكم الله من قول أو عمل .

وعن الرسول ﷺ : (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه) وقال ﷺ (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله) .

أما عن القول بتكفير الحاكم فقال الرسول ﷺ (لا طاعة فى معصية إنما الطاعة فى المعروف) فالقوانين يجب إطاعتها كقوانين المرور والصحة ، أما القوانين التى تخالف شرع الله كالخمر والميسر ، فإذا كان مرتكب الفعل يعتقد أنه حلال فهو مسلم لأن الأعمال بالنيات، ومن كان يعتقد أنها حرام ولكن الحاكم حللها فهو مسلم عاص ، خلافًا لما تقر به الجماعة من أنه كافر ، والكفر يستثنى منه الجهل والخطأ ،

قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وقال الرسول ﷺ (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

ومخالفة حكم الله والحكم بغيره عن هوى أو مصلحة خاصة هو من المعاصى ، أما من حكم بغير ما أنزل الله مختارًا عامدًا غير متأول ، مع علمه بأنه يخالف حكم الله ويستحل ذلك فهذا كفر .. وقد أجمع أهل السنة على أن المعاصى صغرت أم كبرت لا تؤدى بذاتها إلى الحكم على المسلم بالكفر ، إنما يكون الكفر بسبب استحلال المعصية ، بتحليل ما حرّم الله ، وتحريم ما أحل الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وعلى ذلك فالحاكم له أن يشرع من القوانين ما لا يتعارض مع شرائع الله ، ولكن ليس له أن يحلل ما حرّمه الله وإلا كان كافرًا .

وقد قال بعض المفسرين عن كلمة (من يحكم) فى القاموس المحيط : الحكم هو القضاء وحكـم أى قضى ، والقضاء هو الحكم على الشيء بأنه حق أو باطل ، والذى يقضى بما قال تعالى أنـه حـق ويقول : هو باطل ، فهو كافر لتكذيبه الله تعالى ، فالذى يحق ما أبطله الله أو يبطل ما أحقه الله فهو كافر ، والآية تقول : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ﴾ .

وقد كان شكرى مصطفى مبالغًا فى تفسير هذه الآية ، ويقول شكرى : أتحدى أن توجد آيـة واحـدة قطعية الدلالة على إثبات أن الله قد سَمّى المسلم فاسقًا ولو مرة واحدة ، ويقول شـكرى أيضًـا : إن كل من سَمّاه القرآن فاسقًا فهو كافر ، وأن الفسق هو الكفر الذى يخلّد صـاحبه فى الـنار ، وهذا كلام يدل على جهل صاحبه بمجرد بلبلة أفكار الناس وتشكيكهم ، والدليل على ذلك من القرآن نفسه .. أنه قد جاء فى القرآن إطلاق لفظ الفاسق على المؤمن فى عدة آيات فى القرآن ، بل منها ما وصف به بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء فى قوله تعالى فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾ فهذه الآية نزلت فى سـعد بن الصامت الصحابى الجليل وأطلق عليه لفظ (الفاسقون) ، وفى سورة الحجرات جاء قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ، وكان الذى جاء بهذا النـبأ إلى رسول الله ﷺ هو الوليد بن عقبة وهو صحابى ، وأطلق القرآن عليه لفظ فاسق لأنه جـاء بخـبر غير صحيح ، فلفظ الفاسق يطلق على المؤمن إذا اقتضت المناسبة ذلك ، كما أن الكفر يطلق على كفر النعمة ، بمعنى عدم الشكر عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ بمعنى لم يشكروا على النعمة ، وقال تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ بمعنى إذا لم تشكروا على النعمة .

وقـال فى شـأن السحر : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾، كما قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فسمى الذى لا يحج وهو مستطيع إلى الحج سبيلاً باسم الكافر ، وهو فى الواقع مؤمن عاص ، وليس كافرًا لأنه يقر بوحدانية الله ، ويؤدى الفرائض الأخرى ، كما قال تعـالى فى سورة البقرة : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ أى فاشكروا لى نعمـتى أى ما أنعمت به عليكم ولا تكفرون بجحد نعمتى ، وعصيان أمرى ، وهذا ما يسميه

العــلماء بكفــر الـنعمة لا الكفر بالله المخلّد فى النار ، ولهذا قال العلماء كفر دون كفر .
وقــال المــرحوم الشــيخ محمد عبده فى تفسيره (واشكروا لى — أى اشكروا نعمتى عليكم ولا تكفرون — أى فلا تكفروا نعمتى بإهمالها أو صرفها فى غير ما ولدت له) .

ثانيًا الهجرة :

يقرر شكرى أن الهجرة والاعتزال هو أقل ما يمكن أن تواجه به الجماعة المسلمة تجمعات الباطل وتحديات الكفر وهى الطريقة الوحيدة للجماعة المستضعفة للخروج من ضغوط الكفر ، وأنــه أول طـريق الجادين لعبادة الله وخلافته فى الأرض ، وهكذا فإن وجود كيان إسلامى متجمع على نفسه خارج ضغوط الجاهلية هو هدف إسلامى شرعى لظهور الإسلام تسعى إليه الحــركة الإســلامية من أول يوم فى طريق بداية الحياة وبداية الانطلاقة . وهم يحكمون على الجمــاعة بالاعتزال لقــوله تعــالى : ﴿ هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَــى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَــبِيلِ اللَّــهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِــهِمْ قَــالُوا فِــيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ وفى قول الرسول ﷺ (هلاك أمتى على يد غيلمة — أى جمع غلام — من قريش ، قالوا : فما المخرج ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم) ، (الهجرة باقية ما بقيت التوبة) .

ويقولون إن الفرض الشرعى القدرى والمنطلق الأوحد الحتمى لكل مستضعف عن عبادة الله ويريد أن يعبد الله هو هجرته وأن الهجرة هى فراق الأرض والوطن وهى الخروج من الديار والأبناء والأموال وتقطيع علائق الأرض ووشائج القربى والنسب وخسارة الأهل فى سبيل الله، وتحمل بناء حياة جديدة لبنة لبنة ، إن الهجرة هى المنطلق للخروج من الاستضعاف .. منطلق الجهاد والنصر .. منطلق العبادة ، والتربص .. منطلق النجاة من عذاب الله .. منطلق الإفصاح لقدر الله ليضرب ضربته ويستخلف خليفته .

الــرد :

قالــت الجماعــة بالهجــرة والاعــتزال إلى الجــبال والكهــوف وهذه بدعة ، حيث أن الهجرة أصلاً للعبادة حيث يكون المسلم مضطهدًا فى أرضه أو لا يستطيع القيام بالعبادة ، وقــــد جــاء فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

وقد قال ابن عباس إن هذه الآية نزلت فى قوم بمكة كانوا قد أسلموا وكرهوا الهجرة مع رسول الله إلى المدينة .

وعن عكرمة والضحاك أن الآية نزلت فى قوم من المنافقين بمكة كانوا قد أسلموا ثم تخلفوا عن رسول الله واجتمعوا مع المشركين ببدر .

وفى قول لرسول الله ﷺ عن الهجرة (**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**) .

ويتــبين مــن هــذا أن الآيــات نزلت فى قوم يقيمون فى دار الشرك ، ولم يخرجوا مع رســول الله ، وهذا لا ينطبق على بلادنا ، وقد قامت الجماعة بتطبيق نظام الهجرة كمفهومها فى عــام ١٩٧٥ حيــث لجأوا إلى الكهوف والجبال فى المنيا لا ليعبدوا الله ، وإنما اتفقوا مع الخارجين على القانون لشراء الأسلحة والمفرقعات ، ثم حرضوا الأبناء على ترك معاهد التعليم وحرّضوا البنات على هجرة أسرهن وعملوا على تزويجهن دون وليهن الشرعى فساهموا بذلك فى هدم الأسرة المصرية وتشتيت أفرادها .

ثالثًا : الجماعة :

يقول شكرى إن الجماعة المسلمة هى التجمع الآدمى المهدى الذى خلقه الله لخلافته وإنها الــنموذج الفذ الفريد الذى لن يكون له نظير حيث لم يخلق الله له نظيرًا ، وإنها المركز العاقل الذى كلفت السماوات والأرض بخدمته والالتفاف حوله وسخرت له ، وإنها الهيئة المكرمة من قــبل ربها المعدة قدرًا وتكليفًا لإمامة الناس ، ولذا فمن فارقها قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام مــن عــنقه ، ومــن أطاع إمامها فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، لأنها الجماعة

المســـتوفية فى الأرض لحق الله الحافظة فى الأرض لحدود الله ، وإمامها هو رأس الحربة فيها به يتقى ربه ، يقاتل من ورائه صفًا واحدًا وضربة واحدة وإمامهم وضابطهم بعد ذلك كتاب الله وســـنة رسوله ﷺ ، والحق الذى بين الإمام وبينهم هو ألا يأمرهم بمعصية الله فالسمع والطاعة عـــلى المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة (أسمعوا وأطيعوا إلا أن تـــروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان) وعندئذ فلا سمع ولا طاعة بل خلع اليد ووضع السيف ، وإنما الطاعة فى المعروف على أساسها ومن منطلقها تكون البيعة على السمع والطاعة . ثم يسأل شكرى أين الجماعة المسلمة فى هذه الأرض ؟ فيقول . هى تلك الهيئة من الـــناس الذيـــن أعلنوا الكفر بالطاغوت والإيمان بالله من حيث المبدأ وترضبوا بينهم على أمير منهم لا يحكمهم ولا يتحاكمون إليه إلا بما أنزل الله من حيث الواقع ثم لهم بعد ذلك إمكانات معقولة يملكونها من الأرض والعدد والعدة وموارد الرزق توجه كلها فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا والفرد فى الجماعة هو المسلم الذى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويؤدى الفرائض ويتجنب المعاصيِ ، ويقرر أن جماعة المسلمين تعتبر أى فرد ينتسب إلى الجماعة ويظهر ذلك بأى مظهر مميز بحكم إسلامه .

ثم يسترسل شكرى فى فلسفة الجماعة فيقول إن الخطة التى خطها الله للمؤمنين لينصروه بها إنما هى جزء من خطته القدرية كلها فى نصر نفسه وإن الخطة الإسلامية يجب أن تبنى على التوكل ، لأن التوكل خطة عملية لجماعتهم .

ثم يقول إن الإسلام هو ما جاء فى كتاب الله ، وفيما صح من أحاديث النبى ﷺ وما عدا ذلك من قواعد وآراء ومذاهب فهو خيال محض ولا حجة معه ولا يمكن لأى إنسان أن يقول أن أصول الفقه أو الفقه الشافعى أو الحنفى ، أو آراء الذين تفرقوا واختلفوا ، أو تكفير الذين جعلـــوا حياتهم فى أمور لم يتحدث فيها النبى ﷺ أو أى شيء خلاف ما جاء من النبى ﷺ يعتبر حجـــة فى دين الله ، ثم يستطرد ليقول إن الأئمة الأربعة ومذاهبهم هى فرق للجهل فضلاً عن أن كـــل مـــا جاء فى هذه المذاهب والآراء ، والاجتهاد هى ضلال محض ، وحكم على الأئمة الســـابقين وتابعيهم بالكفر ، ويقرر أن الجماعة المسلمة ، بأمر أميرها هى المستخلفة وحدها ، والمال مال الله تأخذ منه الجماعة الإسلامية بإمارة أميرها خليفة الله فيها ، وأن الخطة الإسلامية فى جمع المال لا تعتمد أصلاً على الصفقة فى الأسواق أو التوظف فى دور الكفر ، وإنما هى على

خــلاف ذلــك تمامًــا تعتمد على الغنيمة من الكافرين وبالقتال فى سبيل الله لتجمع الحركة الإسلامية مالها .

ثم يوضــح شــكرى مطامعه بعد ذلك فيقول ، إن كل ما أنت تراه فى الأرض الآن من رجــال ونســاء ومال وجند وأسلحة ودساتير وتشاريع وعلوم ووسائل وحروب ومصالحات وتقلبات فى البر والبحر إنما هى جبهة أعداء الله فى الأرض الآن بقيادة الطاغوت ، ومن خلال هــذا الواقــع يقــوم رجل واحد منهم ، ثم وبمن تبعه من المؤمنين ليزيحوا هذا الواقع كله ، ثم لــيقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وأن الخطة الإسلامية حقًا والتى غايتها الغايــة العظمى يجب أن تكون خطة عملية للاستيلاء على الأرض كلها وأن الخروج من قبضة الطواغيت هو محور الخطة .. إذ أن الطواغيت قد تقاسموا الأرض كلها مناطق نفوذ ، ولا يصح لأصــحاب الحــركة الإســلامية أن يبــنوا خطتهم فى الاستيلاء على الأرض على استئذان الطواغيــت ، إذ أنهم لو فعلوا فإن بناءهم إذن سيكون على شفا جرف هار قال تعالى : ﴿ أَنِ اعْــبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُــمُ الْبُشْرَى ﴾ ثم قال إن جماعته هى الجماعة الحقة ، وهى تعتبر الركن السادس من أركان الإسلام ، ومن لم يدخل فيها فهو كافر ، ومن خــرج منها فهــو مرتد .. قال الرســول ﷺ (مــن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) ، وقال (من مات وهــو مفارق للجماعة ، مات ميتة جاهلية) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

الــرد :

قال شكرى إن مفارقة الجماعة كفر ، وحدد أن المقصود بالجماعة جماعته هو فقط ، وقرر أن ما سبق جماعته من أفراد وجماعات لم تعلن بقيام جماعته فجميع هؤلاء من الكافرين حتى أنه تمــادى فى ذلك ووصف الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب والمجتهدين بالكفر قائلاً إنه ليس لهم حــق التفســير أو الاجتهاد ، واستدل على قوله بأن مشاقة الرسول كفر بواح ، والمفارق لــلجماعة هو تارك لدينه فهو كافر ، ومن المعلوم فى لغة العرب أن هذا الأسلوب هو أسلوب الــبدل ، فالتارك لدينه المفارق للجماعة بدل ومبدل منه والتارك لدينه هو مبتدأ فى الكلام ،

والمفــارق للجماعة بدل من المبتدأ ، ومن المعلوم أن المبتدأ فى البدل يأخذ بحكم المبدل منه ، ولأننا نعلم أن التارك لدينه هو المرتد إذن فيعلم يقينًا أن المفارق للجماعة سيحمل على المفسر وهو التارك لدينه حملاً على المفسر ، وهذه قاعدة مستمرة نعرف منها أن التارك لدينه هو عينه المفارق للجماعة ، وأن المفارق للجماعة هو عينه المرتد ، ولا خلاف فى أن المرتد كافر .

وقد حكمت الجماعة بالكفر على من لم ينضم إليهم قائلين إن الرسول ﷺ قال : (من مات وهو مفارق للجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية) ومن المعروف أن الشخص لا يموت عــلى عقــيدة الجاهلية إلا إذا كان كافرًا ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْــتَطَاعَ إِلَــيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا دليل على أن من لم يحج لا يعتبر كافرًا ، فما بالك بمن فارق الجماعة فلا يعتبر كافرًا من باب أولى .. ومن المعروف أن المقصــود بالجماعــة هم أهل الإسلام كقول الرسول ﷺ (من فارق الجماعة شبرًا فكأنما خلــع ربقة الإسلام من عنقه) ولو كان الخروج من الجماعة كفرًا لما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَــتَّى تَفِــيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، أى أن هناك فئتان أو جماعتان لم توصف إحداهما بالكفر كما يقــررون ، إذن فالمقصود بحديث من فارق الجماعة هو خروج الشخص على جماعة المسلمين وانفراده ومحاربتهم أو أعان من يحاربهم أو انفرد برأى من إجماعهم ، وبذلك يصبح غير مسلم من أنكر الزكاة أو الصلاة مثلاً .

ونتيجة لأفكارهم المتطرفة ، فعقود الزواج مع الغير باطلة والذبائح بواسطة الغير محرمة ، والصلاة خلف غيرهم غير جائزة وجميع المعاملات من عقود مبيع وتوارث .. إلخ مع الغير تعتبر مفســوخة ، حــتى بالنسبة للزواج تعتبر الزوجة مطلقة لو خرج زوجها من الجماعة ويحل لها الزواج من غيره إذا سافرت خارج مصر ولو لم يطلقها زوجها ، وتبعًا لهذه الأفكار فقد قررت الجماعة أن من لم يدخل بجماعتهم فهو حلال الدم والمال والعرض لكونه كافرًا ، وإذا قتل واحد مــنها إنسانًا ليس منها فإن القاتل لا يستحق القصاص منه بقتله على أساس أنه لا يقتل مسلم بكافر .

رابعًا : البيعة :

يقـــول شكرى إن البيعة للأمير هى شرط الله وضمان الإسلام فى ظل حكم كتاب الله ، وتكـــون البيعة فيما أحب وكره وفى اليسر والعسر ، وعلى أن لا ينازع الأمر أهله وإن أخذ ماله وجلد ظهره .

يقول إنها البيعة بمعنى البيعة ، ويخطئ من يظن أنها أقل من بيع النفس كاملة لله من خلال الجماعة المسلمة متمثلة فى عقد على يد الإمام ، إنه بمقتضى هذه البيعة ينبغى أن يكون الإمام أقرب إليه من نفسه وأولى بها منه ، حيث إنه باع وانتهى الأمر ، ولم يبق من نفسه إلا السمع والطاعـــة مـــا لم ير كفرًا بواحًا عنده فيه من الله برهان ، قال الرسول ﷺ (من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده – أى ضرب اليدين بالصوت – وثمرة فؤاده فليطعه ما استطاع) فـــالولاء الـــذى أراده الله لـــه ولرســـوله وللمؤمنين لا يكون إلا بهذه البيعة ، ومن لم يبايع الرسول ﷺ أو الأمير يعتبر كافرًا ، وبهذا قرر شكرى أن البيعة له هى ركن من أركان الإسلام استدلالاً لقول الرسول ﷺ (من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) ، والبيعة قد تكون على عدة أشياء ، فهناك بيعة على الإسلام ، وبيعة على الهجرة ، وبيعة النصر ، وبيعة الجهـــاد ، وبـــيعة الموت ، وأهمها البيعة على السمع والطاعة ، وهى التى يقوم عليها الأساس الأول للجماعة .

الـــرد :

قـــول شكرى بأن البيعة ركن من أركان الإسلام لا يكمل إلا بها ، ما هو إلا تحايل على الديـــن .. فقد قال إن الرسول ﷺ رفض أن يبايع أناسًا دخلوا فى الإسلام وأرادوا أن يبايعهم عـــلى تـــرك فريضة أو أكثر فلم يرض بذلك ، لأن ترك فريضة من الفرائض لا يجعل الإسلام كـــاملاً ، وبطـــلان هذا القول يتعلق بأن البيعة على الإسلام مع ترك شىء منه أو إتيان محرم فى الإسلام ليكون هذا المحرم حلالاً ، بحيث إنه لو بايع على الإسلام عدا المبايعة على ترك شربه الخمر وجاءه المسلمون ليقيموا عليه الحد فسوف يقول لهم إن بيعة الرسول ﷺ كانت متبادلة ، فالـــرجل يبايع والرسول ﷺ كان أيضًا يبايع أى إيجاب وقبول يقوم على الإسلام كله بأركانه وفرائضه ، أما البيعة التى قصدها شكرى فقد كان يطلب البيعة له على السمع والطاعة فقط ،

فــلا يناقشــه أحــد على أمر ولا يعترض أحد على أى فعل يقوم به ، وكما قال فى تفسيره إن الإمــام لــو بويع فلا يبقى للفرد إلا السمع والطاعة لأن الإمام أولى بنفسه منه ، أى ألغى شخصية المبايع إلغاءً تامًا ، لذلك كان يأمر الزوج بطلاق زوجته ، ويأمر الأفراد بالاعتداء على المنشقين منهم ، ومن ذلك يتضح أنه اتخذ البيعة ستارًا ليفعل ويحلل ما يريد القيام به من أفعال وجرائم دون أن يناقشه أحد فيها مدعيًا أنه الخليفة الوحيد لرسول الله ، حيث قال ﷺ (بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ) وأن الإسلام فى طور العودة غريبًا وأن الله أرسله ليعيد للإسلام مجده .

خامسًا : الصلاة :

يقــول شكرى إن الله تعالى قال : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّ الْمَسَــاجِدَ لِلَّــهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ، ويفسر شكرى ذلك قائلاً : إن المسجد الذى تجب الصلاة فيه لابد أن يكون قد أسس على التقوى أى بنى على الإيمان وبغرض إقامة الشــعائر فــيه دون أى غــرض آخر ، ولا يذكر فيه سوى اسم الله ، كما أن هذه المساجد أصــبحت إرصادًا أى يدعى فيها لغير الله من الحكام ، وهذا يجعل جماعته تشجب الصلاة فى المســاجد ، وقال إن المساجد الأربعة الوحيدة التى ليست ضرارًا هى المسجد الحرام فى مكة والمسجد الأقصى بعد تطهيره من المحتلين ومسجد الرسول وقباء فى المدينة ، وقرر أنه لو بحثنا ونقبنا عن مسجد آخر له نفس شروط هذه المساجد فلن نجد ، وبناء على ذلك فقد حرّم على الجماعــة أيضًــا صلاة الجمعة لعدم دخولهم المساجد ، وعلل عدم القيام بها بأن الرسول ﷺ فرضــت علــيه صــلاة الجمعة وهو فى مكة ، ولكن لم يُصلها لأنه كان فى حالة استضعاف ، وعــندما هاجر إلى المدينة نزلت الآية التى فرضت بها صلاة الجمعة فصلاها وهو يعتبر جماعته الآن مستضــعفة ، ولذلــك لن تصلّى الجمعة إلا بعد التمكن كما قرر أيضًا أن صلاة الجمعة لــو نودى بها فى المسجد الحرام لن يصليها لأن الإمام ليس من جماعته وهو وجماعته لا يصلون إلا خلف أحدهم فقط ، لأن أى شخص غيرهم فى نظرهم كافر .

الــرد :

قـــال شكرى إن الإمام فى أى مسجد كافر ، ولا يجوز الصلاة خلفه مع أن الرسول ﷺ له حديث يقول فيه (صلوا وراء كل بر وفاجر) كما أن الشوكانى قال أجمعت الأمة على جــواز إمامة الفاسق ، فإذا كان هذا اليسر من صفات الدين الكريم فلماذا يتجه شكرى هذا الاتجــاه المتطرف ليبعد الناس عن الصلاة فى المساجد ويحرم عليها صلاة الجمعة ويعطل بذلك فرضًا من فروض الإسلام ؟ .

قــال الله تعــالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُـيُوتَكُمْ قِـبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال الرسول ﷺ (جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا) ، أى أن الله تعالى والرسول ﷺ جعلوا الصلاة فى أى مكان جائزة لكافة المســلمين ، ولم يشترطوا أى شرط لإقامة الصلاة فى المسجد أو المنزل ، ولكن جماعة شكرى حرّمت الصلاة فى جميع المساجد ، وافترضت أنها كلها مساجد ضرار لم تؤسس على التقوى ، ولم تقدم البرهان على ذلك ولا تدرى الجماعة أن الآية الكريمة قصدت بمسجد الضرار المسجد الذى بناه المنافقون ليصدوا به الناس عن الصلاة فى مسجد قباء .

وقد قال المفسرون إنه كان بالمدينة قبل مقدم الرسول إليها رجل عربى خزرجى يقال لــه أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر فى الجاهلية وصار إلى رهبنة وعبادة ، وكان كثير التحدث للـــناس بأوصـــاف النبى التى عرفها من التوراة والإنجيل ، ولكن لما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة وصـــارت فـــيها للإسلام كلمة عالية انتكس أبو عامر هذا وانسلخ من آيات الله والتهم قلبه الحقـــد عـــلى النبى ﷺ وبارزه بالعداوة والبغضاء . واتخذ سبيله إلى المشركين بمكة لاستثارتهم إلى حربه حتى تم له ما أراد بغزوة أحد التى أصاب المسلمين فيها ما أصابهم . وكان من أمر هذا الفاســق فى تلــك الغزوة أن حفر حفائر فيها بين الصفين . فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ فجــرح وجهــه وكسرت رباعيته وشج رأسه . وكان من أمره أيضًا أنه تقدم فى أول المبارزة إلى قومــه من الأنصار وأخذ يستميلهم إلى جانب المشركين عن طريق المخادعة والعدة ، وقد كشف لهم إيمانهم الصادق دخيلته وهدفه فعرفوا نيته ومقصده ، وبادروه بتلك الكلمة الحازمة التى ردته على أعقابه (لا أنعم الله بك عينًا . يا فاسق يا عدو الله) فرجع يقول ، لقد أصاب قومــى شــر بعدى .. وانقلب هائمًا على وجهه بالقبائل يغريهم بقتال النبى وأصحابه وأخيرًا

ذهـــب إلى ملك الروم يستنصره على النبى فوعده ومنّاه ومازاده الشيطان إلا غرورًا . وكتب إلى جماعـــة من قومه المنافقين يعدهم أيضًا ويمنيهم ، يعدهم أنه سيقدم عليهم بجيش جرّار يقاتل به المسلمين ويردهم عما هم فيه ، وأشـــار عليهم أن يتخذوا معقلاً يكون مرصدًا لـــه ولجيش حلفائـــه الذى به . وهنا فكر قومه المنافقون ودلهم شيطانهم على فكرة إنشاء مسجد فى مكان قريـــب من مسجد قباء فبنوه بقصدهم السيىء وشيدوه وأحكموه ، ثم جاءوا إلى الرسول ﷺ وسألوه أن يصلى فيه ويباركه لهم . وقالوا : إنا بنيناه للضعفاء وأهل العلة فى الليلة الشاتية ، ولـــيحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون ، برروا إنشاءهم إياه بهذا الانتحال الكـــاذب وقصدوا بصلاة الرسول فيه أن تكون سبيلاً لإقبال المسلمين عليهم والاتصال بهم ، وبذلك يستطيعون إغرائهم وانتزاعهم من صفوف النبى وأصحابه . وبهم يكثر سوادهم وتقوى شوكتهم . ويعلنون محاربة الرسول حتى يخرجوه من المدينة كما أخرجه قومه من مكة . ولما عاد الرسول ﷺ من غزوة تبوك وهمّ بإجابة ملتمسهم ، نزل عليه الوحى فكشف أهدافهم السيئة الـــتى قصدوها بإنشاء هذا المسجد وحذّر من دخوله والقيام فيه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِـــرَارًا وَكُفْـــرًا وَتَفْـــرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ . ثم تشير الآيات إلى أنه مسجد أنشئ على إرادة السوء بالإسلام والتنكيل بأهله وإلى أن الريبة الناشئة عن إحساسهم بالجـــريمة لاصـــقة بقلوبهم . لايزول عنهم خوف افتضاحهم وظهور أمرهم إلا بموتهم وتقطيع قلوبهم ، وهكذا أن المريب يكاد يقتل نفسه . ولم يكد النبى ﷺ يتلقى عن الوحى هذه الآيات حتى دعا جماعة من أصحابه وقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه . ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى عادوا بعد أن وصلوا بتحريقه وهدمه إلى الأرض . وتفرّق عنه منشئوه المنافقون شر تفريق .

سادسًا : التعليم :

يقـــول شـــكرى إن خير أمة أخرجت للناس ينبغى أن تكون أمية بالفطرة وأن النبى ﷺ لم يقـــم المدارس والمعاهد والجامعات لتعليم المسلمين الطب والرياضيات ، وإن أول ما تطغى بـــه البشـــرية عن قصدها وتستغنى به عن ربها هو هذه العلوم التى ندرسها ، وإن محمدًا كان فى مقـــدوره أن يتعـــلم الكتابة والحساب ويستغنى عن خاتم منقوش عليه محمد رسول الله ،

وأن يفتح المدارس والزوايا والمعاهد لأبناء المسلمين لتعليم الفلسفات والنظريات والفلكيات والرياضيات والطب والكيمياء ، كما يفرضه الآن اليهود على حميرهم وأبناء حميرهم .. وقال إن الجماعة تنتظر اليوم الذى يسود فيه الله بالأرض معاهد ومدارس وجامعات ومؤسسات الكافرين شرقًا وغربًا ، وقد قال الرسول ﷺ (إنها أمة أمية لا تكتب ولا تحسب) وأن الرسول ﷺ كان أميًا لا يكتب ولا يحسب ، ويقول (أنتم أعلم بأمور دنياكم) وكان يعد الشهر العربى بيديه يقول هكذا وهكذا حتى يعد تسعة وعشرين قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ ، ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ ، كما قال الرسول ﷺ (إنما بعثت مُعلمًا) أى أن الرسول ﷺ هو المعلم الوحيد الذى يعلم الكتاب والحكمة ، وهو لم ينفق لحظة واحدة من عمره فى تعلم الكتابة أو العلوم المختلفة ، وإنما أضاع عمره فى تعلم العبادة وتدريسها للآخرين ، وبناء على ذلك فالجماعة ترى أن التعليم كفر وضلال ، وأن التعليم لا يكون إلا للعبادة ولرفع راية الإسلام فقط ، وأن دور التعليم وعلى رأسها الأزهر ما هى إلا قلاع للكفر والضلال .

الرد :

من العجب أن يدعو شكرى إلى الأمية ونبذ العلم والمتعلمين ونسى أن أول آية نزلت على الرسول ﷺ كانت : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والآية الكريمة تقول : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وفى حديث الرسول ﷺ (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل) ، (ما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا ينتفعون) ، كذلك يقول الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ ، وفى سورة الكهف يقول تعالى إن ذا القرنين مكّن الله له فى الأرض بالعلم المادى والروحى وتكلم عن الخبرة الفنية والهندسية مما لا يتأتى إلا بالاستزادة من العلوم والخبرة .

وقد ورد عن النبى ﷺ إنه فى غزوة بدر كان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة .

مـــن هـــذا كله لا يمكن القول بأن الله والرسول دعوا إلى الأمية وشجعوا عليها ، بينما الآيـــات والأحاديث تقرر الدعوة إلى العلم وتشجيع العلماء ، ولا يمكن القول بأن الواجب أن يقف المسلمون أمام تقدم الحضارة والمدنية موقف المتفرج والمتخلف حتى يقضى عليهم .

سابعًا : القوات المسلحة والوظائف :

دعـــا شـــكرى إلى نبذ الالتحاق بالقوات المسلحة ، وقال إن الجيش جيش كفار وإنه لو حاربنا اليهود فيكون ذلك قتال كفار لكفار ، وقال إن الآية الكريمة تقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ وهى تقصد القتال بالخيل والسيف فقط ، ولو وقفنا أمـــام أحدث الأسلحة وأشدها فتكًا ، وهذا الرأى المتطرف يتناسى أن فى لفظ ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ يعنى الاستعانة بكل قوة من الأسلحة الحديثة ، ولكنه يصمم على أن القتال سيعود إن عاجلاً أو آجلاً إلى السيف والخيل فقط ن وعندئذ تقوم جماعته بالقتال ، وقال إن الجماعة لا تقـــوم بالدفـــاع عن المجتمع الجاهلى الكافر ، وإذا اضطر العدو إلى دخول البلد فإننا نفر من مصر كلها ولا ندافع عن أهلنا أو بلدنا .

كما قرر أن القيادة تكون فى الجيش للكفار ، وهم لا يخضعون للكفار ، ولذلك حرّض أتـــباعه على ترك الخدمة فى القوات المسلحة ، كما حرّضهم على ترك الوظائف فى الحكومة ، لأنهـــا مؤسســـات كفر وضلال وتتبع الحكومة الكافرة ، وقال إن الارتزاق الوحيد مصدره التجارة كما كان يفعل النبى ﷺ .

ثامنًا : الأسرة المصرية والزواج :

قـــرر شـــكرى أن على الأبناء أن يتركوا أسرهم إذا لم يدخل الأب والأم فى الجماعة ، وعلى الزوجة أن تترك زوجها إذا لم يدخل فى الجماعة فكانت الجماعة تضع يدها على الأبناء مـــن ســـن الرابعة عشرة حتى العشرين فى دور العبادة ودور العلم وتستغل حاجتهم وتلقنهم الـــدروس الدينية التى تحض على ترك التعليم ، وترك القوات المسلحة والوظائف بصفتها دور للكفـــر ، وتدخـــلهم الجماعة ثم تأخذ عليهم البيعة بالسمع والطاعة حتى تسلبهم إرادتهم ،

ثم تجمــع بــين الرجل والمرأة عن طريق كشوف بأوصاف كل منهما ثم التلاقى بدون خلوة ، ثم يتم الزواج ، فتقدم لهم الشقة المفروشة سكنًا للجماعة ، ثم فى خلال سنتين أو ثلاث يقدم إلى الشخص عقد العمل فى الخارج نظير إرسال نصف راتبه أو أكثر ، وهكذا تضمن الجماعة لها الولاء والمورد ، وإذا انشق أحد الزوجين على الجماعة تطلق الزوجة باعتبار أن الزوج خرج عــن الجماعة وارتد وأصبح كافرًا ، وإذا لم يرض الزوج بتطليقها جبرًا اعتبره شكرى كافرًا ، وتكــون زوجته مطلقة .. وعندما سئل شكرى هل يكون لها حق الزواج ، أجاب : يكون لها حق الزواج من غيره ولو لم يطلقها زوجها رسميًا إذا خرجت من البلاد حتى لا تخضع للقانون الوضعى .

ويلاحظ أن الجماعة لم تقيد فى الزواج بالسن الوارد فى القانون ، وإنما كان يتم الزواج من المرأة متى بلغت شرعًا ولو كان عمرها ١٣ سنة أو دون ذلك .

وقد تسببت الجماعة فى تفريق وهدم أسرة السيد محمد عبد الرحمن عبد الجواد الذى كان يقــيم مــع أسرته بالفيوم ، فقد تزوجت البنت الكبرى من أحد رجال الجماعة وخرجت عن طــوع أبيها وأغرت أختها للزواج من أحد أفراد الجماعة فأخرجتها عن طوع أبيها وزوجتها وسنها أقل من ١٦ سنة ، ثم أغروا الأم بالهروب من زوجها واعتبروه كافرًا ، وبذلك اعتبرت مطلقة وشقوا الأسرة المكونة من ثمانية أفراد وأوقعوا الضغائن بينهم حتى تفرقوا وتشردوا .

تاسعًا : تحريم الأخذ بغير ما ورد فى كتاب الله وسنة رسوله :

يقول سبحانه وتعالى فى سورة يونس : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُــونَ ﴾ .. ويقــول تعالى فى سورة الأنعام .. ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِــهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ .. وقال تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ويقول تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِــنِينَ ، اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .. ويقول تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ .

وعلى ذلك يقرر شكرى أنه لا يأخذ بآراء الفقهاء ولا رأى أى مصدر آخر مهما تدرجت الحضارات والأفكار ، وحتى أحاديث الرسول فالأخذ بها يكون بتحفظ ، ولا مرونة إطلاقًا مع ورود آيات الله .

عاشرًا : القرآن الكريم قطعى الثبوت والأحاديث مكملة له :

يقول شكرى إن القرآن قطعى الثبوت من الناحية العملية الموجبة لتعظيمه ولعبادة الله بمقتضاه ولتحريم تبديل حرف فيه وللحكم به وهو المطلوب ، ولكنه ليس قطعى الثبوت من الناحية النظرية ، لأن المصحف لم ينزله الله بقصد أن يكون صنمًا أو هيكلاً شكليًا ، وإنما أنزل ليعمل به ، وقد أوجب العمل به وتحريم مخالفته وقرر أنه فى أعلى درجات الثبوت من الناحية العملية .. ولكن أشير إلى ما بناه المنتسبون لمذهب أهل السنة على القاعدة التى تعدوها أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وقالوا إنه لا قيمة للأعمال مطلقًا فى زيادة الإيمان أو نقصه وأن الطاعات لا تزيد الإيمان شيئًا وأن المعاصى لا تنقص الإيمان ، لأن الإيمان كامل قبلها فى الحالتين ، وقرروا أن الإقرار القلبى بناء على ذلك يكفى لدخول الفردوس الأعلى فى الجنة وأن مسألة اليقين النظرى والعملى مسألة شكلية لا قيمة لها مطلقًا فى موضوع العبادة ، وأن الله قد رضى منا من الإيمان ما يكفى لعبادته : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِي ﴾ .

ويقول شكرى إن الأحاديث النبوية القطعية جاءت تعدل وتنسخ وتكمل الآيات فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وكل هذه الآيات تثبت أن ما ينطق به الرسول ﷺ ما هو إلا وحى من ربه مما يجيز للحديث أن ينسخ بعض آيات من القرآن الكريم ، فقد جاء فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد نسخ الرسول ﷺ الحصر فى أربعة وأضاف إليها تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير والحمر الأهلية فى خيبر .

كذلــك جــاء فى سورة المائدة : ﴿ حَرَّمَ عَلَيْكُم الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ .. إلخ وقــد نسخ الرسول ﷺ هذه الآية بقوله : (أحلت لكم ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال) . كذلك قال الله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْــدَةٍ ﴾ . وقــد نسخ الرسول ﷺ هذه الآية بقوله : (والزانى والزانية فارجموهما حتى الموت)

حادى عشر : موقف الدولة من الربا والزنا والخمر :

قال شكرى إن العبرة بالمعنى وليس بالاسم ، فبالنسبة للربا فقد أفتى الشيخ شلتوت وهو شــيخًا للأزهر وقتئذ بأن فوائد البنوك التى تتعامل بها الدولة حلال من أنها تعتبر ربًا حرامًا ، وقــد فســر بعض الأئمة أن المقصود بالربا هو أخذ الفوائد على مال يحتاج إليه إنسان وهو فى ضائقة ، ولكن الفوائد فى البنوك تعطى نتيجة التجارة والتعامل فى السوق ، وليس مثلها مثل الــربا الــذى يفرض على الشخص وهو فى ضيق ومحتاج للمال .. أما الزنا فقد أباح القانون الوضــعى للفتاة أن تتصرف فى عرضها وهى فى الثامنة عشرة من عمرها فلا تقع جريمة هتك العرض إذا كانت بموافقة الفتاة مادامت سنها فوق الثامنة عشرة ، بينما حرّم عليها التصرف فى مالهــا قــبل بلوغهــا الحادية والعشرين من عمرها .. وقد أباح الحكام المسلمون حرية المرأة والاختلاط وهذا من مقدمات الزنا وقد أثبت الرسول ﷺ أن العين تزنى واليد والأذن تزنيان ، وهــذا كله إباحة للزنا – ولا شك أن ما ادعاه الفقهاء من أن الحديث المذكور مدسوس غير صحيح .

أما عن الخمر فقد قرر الشيخ محمد سعاد جلال بأن الخمر غير محرمة وأن التجنيب أقل مــن التحريم ، ويقولون أن سورة النحل جاء بها : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِــنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وفى سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْــرِ وَالْمَيْسِــرِ قُــلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ وفى سورة النســاء : ﴿ يَاأَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ وفى ســورة المائدة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَــلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وأن التحريم الذى جاء فى سورة المائدة حرم الميتة

والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ به لغير الله ولم يتناول الخمر بالتحريم . وهذا التبرير لا أساس له ، لأن الآيات تدرجت من التحليل إلى الاجتناب .

وقد جاء فى شرح لفظ الاجتناب فى القرآن العظيم أن الله جل جلاله يعلم أن التحريم أمرٌ بات لا يجوز عصيانه أو مخالفته ، وأن الاجتناب أقل من التحريم .. وقصد الاجتناب هو محاولة الابتعاد عن الشىء الذى من الصعب تحريمه مطلقًا .. وليس أدل على ذلك من قول أحد علماء الكيمياء (الدكتور محمد على) بأن معظم المأكولات والمشروبات تحتوى على مادة الكحول ولكن بنسب مختلفة ابتداء من واحد فى المائة حتى تسعون فى المائة ، وضرب مثلاً بذلك بأن جميع الخضروات والفواكه تحتوى على كمية من السكر تتفاعل عند تصنيعها بذاتها فتكون (كاربوهيدريت) أى تحتوى على نسبة من الكحول يتناولها الإنسان دون أن يشعر بها كالبامية والفاصوليا والسبانخ والعنب والتين .. إلخ وتزيد نسبة الكحول كلما تركت هذه المأكولات لأكثر من ١٢ ساعة فى الحفظ – وكذلك الحال مع الشراب المختلف كالعصائر والمياه الغازية المحفوظة حيث تظهر فيها نسبة الكحول بتفاعل (كاربوهيدريت) .

ولذلك كان الله عز وجل عالمًا بهذه التفاعلات فأمر باجتنابها على قدر المستطاع لأنها موجودة فى حياتنا ولم يأمر بتحريمها لأن من المستحيل تحريمها .

وقد استعرض شكرى مصطفى بعد ذلك الحرام والحلال فى الدين الإسلامى ومدى تطبيق الدولة لقواعده ، وقال إن حرف الميم يضع الحدود : معصية – محرم – مجتنب – مكروه – مباح .

وشرح أن القرآن الكريم والسنة تناولت هذه الحالات .

فالمعصية هى مخالفة وعدم أداء الأركان الخمسة للدين الإسلامى دون عذر ، وهى أخطر المخالفات فى الدين افسلامى ، حيث يعتبر معظم الفقهاء أن المعصية عقوبتها الإعدام ، لأنها هى الكفر بعينه ، وإن كان الله تعالى قد قرر فى كتابه الحكيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

أما المحرّم فقد جاء مطلقًا وصريحًا فى الآية الكريمة : ﴿ حَرَّمَ عَلَيْكُم الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ وأضيف إليها بالحديث الشريف (وكل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب

من الطيور والحمر الأهلية) والتحريم هنا مطلق لا مناقشة ولا مجادلة فيه ، وقد ورد عليه استثناء فى الحديث الشريف (أحلت لكم ميتتان ودمان الجراد والسمك والكبد والطحال) .

أما المجتنب فقد جاء ذكره فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ والاجتناب هنا لفظًا أقل درجة من التحريم ، كما يقرر البعض استنادًا إلى أن الجنب أى غير الطاهر يعتبر ناقص الكمال ، والحرمان هو عدم وجود الكمال أصلاً ، فالاجتناب لفظا كما ورد فى المصباح المنير هو إبعاد الشخص عن الشىء البغيض .

أما المكروه فهو الكثير من الأفعال التى تناقض المبادئ والمثل الإسلامية ، ولكنها لا عقاب عليها إلا بالقوانين الوضعية ، وجزاؤها وثوابها عند الله تعالى ، مثل السفور وعدم الحجاب للنساء والتزين بالذهب للرجال – والكذب – والنفاق – والغش – والطمع – والإسراف والبخل والغناء والرقص غير المهذب ... إلخ وكلها تصرفات مكروهة ولكن جرى العرف قديمًا وحديثًا على عدم العقاب عليها .

أما عن الجرائم التى ترتكب من الأشخاص فلم يأت حصر لها ، وإنما حدد أكثرها فى الآيات القرآنية والأحاديث والاجتهاد بناء على التقسيم الذى ذكرناه حيث قسمت إلى :

١ – جرائم الحدود وهى التى ترتكب فى حق الله لصفتها العبادية الدينية ويعاقب عليها باعتبار مرتكبها كافرًا .

٢ – جرائم قصاص وديّة وهى الخاصة بالعدوان على الأفراد كالقتل والجرح وهى متعلقة بالمجنى عليه ، وقد أبيح فيها القصاص ودفع الديّة .

٣ – جرائم التعذير وهى المتعلقة بحق الدولة فى حماية الأمن العام ومتروك تقديرها للقاضى كجرائم السرقة والزنا والرشوة والخيانة ... إلخ وإن كان القرآن الكريم قد نصّ على العقاب فى البعض منها ، كقطع يد السارق ، ورجم الزانى ، إلا أنه ترك بعضها لتقدير أولى الأمر .

وهكذا يتضح مدى التنظيم الدنيوى الذى قام به الدين الإسلامى لوضع أسس المبادئ السليمة التى يسير عليها الإسلام ومعتنقوه .

ثانى عشر : الكافر وإحلال دمه وعرضه وماله :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) فمن انطبقت عليه هذه المواصفات فهو يستحق القتل – ولكن هل يجوز قتل الكافر شرعًا ؟ لقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .. وقد دلت هذه الآيات على أنه إذا بدأ الكافرون بقتال المسلمين فحينئذ يجب قتلهم ، أما الكافر فلا يجب قتله .. وقد قال شكرى إنه ورد فى القرآن الكريم : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ وقد قال الرسول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله) وهذه النصوص قاطعة على وجوب إرجاع الناس إلى دين الله وهو الإسلام – أما القول بقتل الكافر فله شرط أساسى وهو أن يبلّغ بلاغًا بينًا أى يعطى المهلة الموضحة للإسلام ، الكافية للقول بأنه لن يسلم ، وبعد ذلك إذا استمر فى كفره فهو يستحق القتل ، كذلك كل مسلم تارك لركن من أركان الإسلام ، ومنها الجماعة والبيعة فهو كافر يستحق القتل ويحل دمه وعرضه وماله .. وإذا حكمنا على إنسان بالكفر فغالبًا ما يكون ذلك دفاعًا عن الإسلام وعن النفس ، وقد اعتبرنا معظم شيوخ الأزهر كفارًا لأنهم يعملون فى وزارة كافرة مشرفة على مساجد الضرار ، وأقسموا اليمين على الحكم بما لم ينزله الله ويستحقون القتل من الناحية النظرية ، ولكن إذا قتلهم أحد من أتباعنا فإنه لا يستحق القود أى القتل ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يقتل مسلم بكافر) .

ثالث عشر : الديمقراطية والدستور ومجلس الشعب :

يرى شكرى.أن الدستور باطل لأنه مستنبط من غير الشريعة الإسلامية وأن مصادره معظمها القوانين الأجنبية ، ودليل بطلانه أنه ينص فى مادته السادسة على أن الشعب مصدر السلطات حيث إن الأمر كله لله ، وإن له الخلق والأمر ، وإنه هو الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وإنه لا سلطان لأحد على مخلوق فردًا كان أو أمة أو شعبًا من حيث المبدأ ، ولا ينتهى إليه أمر التشريع ولا يكون مصدرًا للتلقى والهداية والحكم لله العلى الكبير ..

ولما قيل لشكرى إن المقصود فى تطبيق نظام الديمقراطية والدستور ومجلس الشعب هو غل يد الحاكم عن الاستبداد بالشعب وظلمه وحمله على ما يكره وتأييدًا لمبدأ الشورى وعدم الانفراد بالقرار ، ومنع التسلط والظلم ، عاد وقرر أن هذا المفهوم غير مطبّق ، ولو أن هذا مخالف لأحكام الشريعة الإسلامية وقلب لميزان العلاقة بين الأمة وإمامها حيث لم يجعل للأمة السلطة على الحاكم ، وإنما جعل للحاكم السلطة على الأمة إذا حكمها بكتاب الله وسنته ، وما ذكر عن الشورى فهو مخالف تمامًا لهذا المعنى حيث إن الحاكم فى الأمة المسلمة هو الذى يختار موضوع الشورى ويختار من يستشيرهم ، والشورى بعد ذلك معلمة له وليست ملزمة ، وله أن ينفرد برأيه بعد الشورى ، وإن اجتمعت الأمة كلها على خلاف رأيه ، والنص القرآنى القائل للرسول : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ لم يكلفهم بفرض الشورى على الرسول ﷺ وإضافة الألف واللام يعنى الجلل من الأمر ، وليس كل أمر .

كذلك أنكر شكرى تعيين الرئيس بالانتخاب ، وقرر أن الخلافة كانت بيعة من الخليفة السابق ، فهو الذى يعيّن خليفته أو يدخله ضمن ناس يختار من بينهم ، أو أن يأتى الاختيار تلقائيًا من قبل المقربين للخليفة الأول فيختارون منهم واحدًا ، فكأن الخليفة هو الذى اختاره بطريق غير مباشر ولا يترك للشعب أن يستفتى عليه .

حادث اغتيال الدكتور الذهبى
وزير الأوقاف السابق ـ بأيدى جماعة التكفير والهجرة

١ – خـلال شـهر يونيه عام ١٩٧٧ قررت قيادة تنظيم جماعة التكفير والهجرة القيام بعمليـة اخـتطاف لحد المسئولين بالدولة للضغط على السلطات لتنفيذ مطالبهم التى كانت تتلخص فى الإفراج عن المحبوسين منهم ، وتسليم طفلة كانت مسلمة لحد المنشقين عنهم وهو ليس والدها ، وتسليم الجماعة مائتى ألف جنيه كتعويض عما أصابهم من أضرار ، وإعلان فكر الجماعة بأجهزة الإعلام .

وقد اجتمعت هذه القيادة برئاسة شكرى أحمد مصطفى وعضوية أنور مأمون صقر وماهر عبد العزيز بكرى ومحمد خالد صقر ومجدى صابر حبيب وأحمد طارق عبد العليم .. وقد وقع الاختـيار عـلى المستشار القليوبى النائب العام ، ثم عدل عنه بعد أن رسم منزله على خريطة وتبين أن المنزل يقع بجانب إحدى السفارات التى تقوم عليها حراسة داخلية وخارجية فى منطقة الدقى ، ثم استقر رأى الجماعة على اختطاف المرحوم الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف السابق لعدة أسباب هى :

(أ) أن المذكور سبق أن هاجم الجماعة ووصفها بأنها مضللة مما جعلهم يصفونه بالكفر وإباحة إهدار دمه .

(ب) أنه وزير سابق وسيكون محل اهتمام الدولة .

(جـ) عدم وجود حراسة على منزله ووجود المنزل فى منطقة نائية (حلوان) .

وقـد قام شكرى أحمد مصطفى برسم خريطة لمنزل الدكتور الذهبى بخط يده موضحًا بها الشـوارع والمنازل المحيطة به (أثبت الطب الشرعى خطه) وشرح الخطة تفصيليًا وحدّد كل شـخص فـيها على ورقة أخرى (أثبت الطب الشرعى خطه) وأعطى القرار النهائى للقيام بالعملية .

٢ — فى مساء يوم السبت ١٩٧٧/٧/٢ تقابل إبراهيم أبو دنيا وإبراهيم حجازى ومعهم أنور صقر والسيد عبد الحميد صقر بمحطة الدمرداش ، وكان الأول يقود سيارة مازدا والثانى يقود سيارة ١٢٨ قام باستئجارها إبراهيم أبو دنيا وتوجها معًا إلى شقة نصر الدين بأول شارع الهـرم وهناك اجتمع كل من أنور مأمون صقر وماهر عبد العزيز بكرى ومجدى صابر حبيب ومحمـد السيد صقر وأحمد طارق عبد العليم ومحمد إبراهيم أبو دنيا وإبراهيم حجازى ومحمد عباس عبد العال وإسماعيل حسن نصار عبد الرازق صالح ومحمد سالم الباجورى ومصطفى عبد المقصود غازى والبط توفيق على أحمد وصابر مختار مدكور ثم أخذ أنور مأمون يشرح للجميع خطـة خطف الشيخ الذهبى تفصيليًا ودور كل شخص أثناء التنفيذ ثم أعقبه ماهر عبد العزيز بكـرى حيـث تكلّم عن شرعية هذا العمل وأنه ليس حرامًا أن يتم الخطف لإنقاذ زملائهم المحبوسين ، وحتى يعلن عن فكرهم بواسطة الضغط على السلطات ، وعقب ذلك غادر إبراهيم أبو دنيا الشقة ومعه كل من مصطفى غازى والبط توفيق وصابر مختار مدكور الذين وقع عليهم الاختيار لحراسة الرهينة عند إحضارها ، وتوجه بهم إلى شقة حسن محمد نمرة ٢١ بالهرم وهى الشـقة التى كان إبراهيم أبو دنيا قد استأجرها يوم الجمعة ١٩٧٧/٧/١ بإيجار شهرى ١٥٠ جنيهًا حيث تركهم ومعهم رشاش للحراسة وعاد إلى شقة نصر الدين .

٣ — غادر المنزل كل من أنور مأمون صقر وكان يحمل مسدسًا ومحمد السيد صقر غير مسـلح وأحمـد طارق عبد العليم الذى كان يرتدى بدلة شرطة مدنية برتبة رائد وكان يحمل مسدسًـا واسـتقلوا جميعا العربة الفيات رقم ٨٠٣٤٢ ملاكى القاهرة ولونها سمنى ويقودها إبراهـيم أبـو دنيا الذى كان مسلحًا برشاش متجهين إلى حلوان ومن خلفهما العربة المازدا رقم ٢٨٧٩٣ ملاكى القاهرة ولونها خضراء ويقودها إبراهيم حجازى مسلحًا برشاش ، ومعه سـالم الـباجورى دون سلاح ومحمد عباس مسلحًا برشاش وإسماعيل نصار مسلحًا بمسدس ومحمود عبد الرازق مسلحًا بمسدس وبقى كل من ماهر عبد العزيز بكرى ومجدى صابر حبيب بشقة نصر الدين فى انتظار نتيجة العملية .

فى نفس الوقت كان محمود عزام قد استأجر شقة بمدينة الأندلس بالهرم يقيم بها كل من أحمد نصر الله حجاج ومحمد صبرى القطب لاستقبال أعضاء الجماعة أثناء تنفيذ العملية .

كذلـك استأجرت الجماعة شقة ٤ شارع أبو المجد بالزيتون كان يقيم بها أحمد الصادق وعلى جاد .

وكذلـــك استأجرت شقة (٨٩) شارع القائد بمنشية الصدر كان يقيم بها إسلام عاطف ومحمـــد جمال السيد وجمال غريب حشيش ورزق عبد العزيز سالم وعبد الله غزالة لتوزيع بيان التنظيم .

وكذلـــك اســـتأجرت شـــقة رقم ٣٣ شارع حسين محمود بمصر الجديد كان يقيم بها أنور مأمون صقر .

وكذلك تواجد شكرى أحمد مصطفى ومعه محمد خالد صقر فى الشقة ١٠ شارع المراغى دير الملاك بحدائق القبة للاتصال بهما وإخطارهما بالنتيجة .

هـــذا بخـــلاف بعـــض الشقق الأخرى التى استأجرها الجماعة للإقامة بها وإيداع بعض الأســـلحة والمستفجرات بهـــا خلاف شقق المنصورة والزيتون والإسكندرية التى كانت مجهزة بالشراك الخداعية .

٤ – وصـــلت جماعة الخطف إلى فيلا الدكتور الذهبى بالعربة الفيات فى الثانية إلا عشر دقائق من صباح الأحد ٣ / ٧ ووقفت أمام الباب وعلى بعد خمسين مترًا تعطلت العربة المازدا لانفجار إحدى العجلات .

نزل طارق ومعه أنور مأمون صقر ومحمد السيد صقر ودقوا جرس الباب ففتح الدكتور مصـــطفى الذهبى شباك حجرة الصالون ، وسألهم ماذا يريدون فأجابوا إنهم يطلبون الدكتور الذهبى فاستفسر هل المطلوب هو الطبيب أم الشيخ ، ثم فتح لهم باب الصالون ، وأخبروه وهم واقفون داخل الصالون أنهم يريدون الشيخ الذهبى ، فذهب الدكتور وأيقظ والده وحضرت معـــه ابنـــته أسمـــاء التى كانت قد استيقظت على صوت الجماعة ونظرت من نافذة حجرتها فابصـــرت شخصًا معه رشاش ويقول (اجهز) وحاولت أسماء منع والدها من الدخول إلا أنه صمّم على مقابلة هؤلاء الأفراد ومعه ابنته وابنه ، وما إن دخلوا إليهم بالصالون حتى أبصروا خلفهـــم اثـــنين آخـــرين ولما استفسر منهم عن سبب طلبه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل قـــال له أنور مأمون صقر إنهم يطلبونه لأمر هام فى مباحث أمن الدولة فرد عليهم قائلاً أروح لهم الصبح ، وتدخلت ابنته فى الحديث تعترض على هذا التصرف وطالبت بإثبات شخصيتهم قائلة لهم سأتصل بأحد أفراد شرطة المباحث من الجيران ، وهنا تدخل أحمد طارق الذى يرتدى بدلة رائد شرطة مدنية قائلاً مافيش داعى للتعطيل وأخرج مسدسه كما أخرج كل من الاثنين اللذين جاءا أخيرًا سلاحهما وهما إسماعيل نصار (طبنجة) ومحمد عباس (رشاش) ، وتوجه

محمـــد السيد صقر إلى الشيخ واحتضنه وسحبه إلى الخارج ، وكان محمد عباس يغطى عملية الخطف بالرشاش الذى كان معه حتى أركبوه العربة الفيات بجلبابه الأبيض ووضعوا على عينيه ورقًـــا لاصقًا ، وقال الدكتور مصطفى لشـــقيقته استنجدى بالناس فأخذت تصـــرخ وتصيح واختفـــت العربة التى كان موتورها دائرًا حاملة المجنى عليه فى الخلف ومعه كل من أنور صقر ومحمد السيد صقر وأحمد طارق والسائق إبراهيم أبو دنيا ولم تستغرق هذه العملية كلها أكثر مـــن ٥ دقائق ، وفى هذه اللحظة كان سائق العربة الثانية يقوم بإصلاح العجلة وكان الأربعة الآخرون قد غادروها إلى الفيلا : محمد عباس وإسماعيل نصار ومحمود عبد الرازق الذى كان يحمل مسدسًا ليبعد الناس الذين وقفوا متفرجين وسالم الباجورى الذى كان لا يحمل سلاحًا ، ويعمل كمخبر لمجموعة الخطف ، وقد قام هؤلاء الأربعة عقب هروب العربة الفيات بالانتشار فـــورًا فى الحقـــول مبتعدين عن مكان الحادث وفى طريق عودتهم أخفوا الرشاش الذى معهم والطبنجتين فى إحدى المزارع وهاموا على وجوههم حتى وجدوا تاكسى نقلهم إلى شقة نصر الدين بالهرم .

أما السائق إبراهيم حجازى فقد تجمع عليه الناس وسألوه ماذا يفعل فقال إنه من المباحث وطلـــب منهم الابتعاد عنه ، ثم عاد وقال إنه استأجر هذه العربة من عابدين وجاء فى مأمورية خاصة ، ولكنه تعرض لاعتداء الأهالى عندما ضبطوا بالعربة مدفع رشاش على الدواسة الأمامية وخزنـــتين له واقتيد إلى منزل الدكتور الذهبى حيث كانت الأسرة قد أبلغت الشرطة وبدأت المباحث وأفراد الأمن ونائب وزير الداخلية فى الوصول والتحقيق فى الحادث .

٥ – وصلت العربة الفيات ١٢٨ على الشقة ١٥ شارع حسن محمد (ستوديو الهرم) فى حوالى الثانية والنصف صباحًا ، ومعها الرهينة، وكان ينتظرهم هناك أفراد الحراسة مصطفى غازى والبط توفيق وصابر مختار مذكور حيث صعد المجنى عليه إلى الشقة ، ومعه كل من أنور مـــأمون صقر وسيد صقر وأحمد طارق وإبراهيم أبو دنيا ، وقد قام مصطفى غازى بربط المجنى علـــيه بالسلسلة فى السرير الذى رقد عليه ، ثم توجه الأربعة المذكورين إلى شقة نصر الدين بالهرم حيث أعطوا « تمام » لماهر ومجدى وتركوا محمد السيد صقر فى الشقة ، ونزل كل من ماهـــر ومجـــدى وأنور صقر وأبو دنيا وبعد قليل وصلت مجموعة الخطف الثانية التى كانت فى العربة المازدا إلى الشقة وهم إسماعيل نصار وسالم الباجورى ومحمد عباس ومحمود عبد الرازق وبعد ذلك توجه ماهر ومجدى وأنور مأمون صقر بواسطة العربة الفيات التى يقودها إبراهيم أبو دنيا إلى شقة دير الملاك حيث صعدوا إلى شكرى وأبلغوه بما تم . وفى صباح الأحد أخبر طارق

الجماعـــة المقيمة فى شقة نصر الدين بأن يتفرقوا وانتظر هو بالشقة حتى عاد إبراهيم أبو دنيا ومعه محمد خالد صقر إليه وأخذه محمد خالد صقر وذهبوا إلى شكرى فى شقة دير الملاك بينما ذهب إبراهيم أبو دنيا مصطحبًا معه محمد السيد صقر واشتروا بعض المأكولات وأوصلوها إلى الشـــقة التى بها المجنى عليه ، ثم عادوا إلى شقة منشية الصدر حيث تقابلوا مع صفوت الزينى الذى كان يوزع البيان الخاص بالجماعة ، ثم نزلوا إلى شقة الزيتون وأوصل محمد السيد صقر هـــناك فقـــابل أحمد الصادق ونصر الله حجازى وعلى جاد ثم توجه إبراهيم أبو دنيا إلى شقة حدائق القبة ومعه دوكو ومسدس لدهان العربة كتكليف حسن البنا مصطفى لـــه وهناك ترك العربة فى الجراج .

كـــان البيان الذى يشتمل على مطالب الجماعة قد كتب على الماكينة بواسطة مغاورى عـــوف قبل الحادث بواسطة المجموعة القيادية وهم شكرى وماهر وأنور ومحمد خالد ومجدى وبعـــد حادث الخطف مُلئ نهاية البيان بخط كل من شكرى وماهر ومأمون وآخرين ثم أخذه صـــفوت الزينى فى القاهرة من صباح الأحد ووزعه على كل من جمال السيد الذى ضبط فى رياســـة مجلس الوزراء سعت ١٢ ظهرًا يوم ١٩٧٧/٧/٣ ومعه البيان وجمال غريب حشيش الذى ضبط بالوكالة الفرنسية سعت ١٢,٣٠ ظهرًا ومعه ظرف مفتوح به البيان مزيل بعبارة بخط أنور مأمون صقر وعبد الله غزالة الذى ضبط فى وكالة يونايتدبرس الساعة ١,٣٠ ظهرًا وكان معه صورة من البيان ومذكرة موجهة إلى الجماعة العربية ورزق سالم الذى ضبط فى دار الجمهورية الساعة ٣,٣٠ بعد الظهر ومعه بيانات ذيلت بخط كل من شكرى وماهر .

مـــع خـــيوط فجر الأحد ١٩٧٧/٧/٣ بدأت أجهزة الأمن تتحرك بنشاط غير عادى فـــبمجرد القـــبض عـــلى إبراهيم حجازى فى مكان الحادث عرف عنه أنه من جماعة التكفير والهجـــرة ، وفى الحال نقل الشهود إلى قسم شرطة حلوان ثم إلى مبنى المباحث العامة بالقاهرة حيـــث عرضـــت عليهم بعض الصور واستطاع أنجال الشيخ الذهبى التعرف على بعض صور المتهمين ، مثل أنور مأمون صقر وأحمد طارق عبد العليم وفى نفس الوقت أبلغت رياسة مجلس الوزراء المباحث أن هناك شخصًا حضر لمقابلة السيد رئيس الوزراء لإعطائه بيانًا من الجماعة ، فأخطـــرت المباحث العامة وكالات الأنباء ودور الصحافة لإخطارهم بأى مندوب يحضر إليهم كما أوفدت بعض ضباطها لترقب وصول هذا المندوب ، وأمكن القبض على من تقدم إلى هذه الـــدور والوكالات فى نفس اليوم كما سبق ، وحاول جهاز المباحث العامة الحصول على أى معلومات من إبراهيم حجازى أو جمال السيد إلا أنهم لم يصلوا إلى نتيجة وأخيرًا اتفقوا مع جمال

السيد على أن الدولة على استعداد لإجابة مطالبهم فى حدود المعقول وأنها ستفرج عن المحبوسين وستقوم النيابة بتسليم الطفلة إلى والدها ، ونفذت وعدها بأن أطلقت سراح جمال السيد لعرض النتيجة على قيادة الجماعة .

كانت الجماعة قد بدأت اتصالاتها بالسلطات ، فقد ذهب ماهر عبد العزيز بكرى وأنور مأمون صقر إلى شقة مصر الجديدة شارع الدكتور حسن محمود وكلفوا صفوت الزينى بالتوجه إلى شقة منشية الصدر لإرسال البيانات مع الأفراد المختارين لهذا العمل والسابق ذكرهم ، وفى نفس الوقت كان كل من ماهر وأنور يتصلان بوزارة الداخلية ووكالات الأنباء والصحف لإخطارهم بما حدث ، ويخبرانهم بأنهم فى انتظار رد الحكومة على البيان خلال ٢٤ ساعة من الساعة الثانية عشرة ظهر الأحد حتى الثانية عشرة ظهر الاثنين وإلا فسيقومون بقتل الرهينة ، وفى الثامنة والنصف من مساء الأحد أذاعت وزارة الداخلية بيانًا تناشد فيه الجماعة الإفراج عن الشيخ الذهبى . وأفرجت السلطات عن محمد جمال السيد للاتصال بالجماعة ووضعته تحت المراقبة إلا أنه هرب منهم وذهب لمقابلة الجماعة فى شقة دير الملاك وأخبرهم بموافقة السلطات على إرجاع البنت إلى أهلها وموافقتهم على دفع المبلغ المطلوب على أن يكون ذلك سرًا وموافقتهم على نشر كتاب الخلافة وموافقتهم على الإفراج عن الإخوة المحبوسين ، وقرر لهم أن السلطات رفضت الأفراج عن بعض المحبوسين الآخرين ، ولم توافق على الاعتذار لهم على صفحات الجرائد ، ثم عاد محمد جمال السيد إلى وزارة الداخلية يوم الاثنين ١٩٧٧/٧/٤ ومعه خطاب من شكرى مطالبًا بتنفيذ مطالب الجماعة بالكامل مع موافقة الجماعة على مد المهلة إلى الخامسة مساءًا بناءً على طلب السلطات ، وعاد ثانية إلى الجماعة بعد أن هرب من الرقابة للمرة الثانية وقرر لهم أن السلطات لم توافق على بعض الطلبات ، ولكن تناشدهم الإفراج عن الرهينة ، ولم يعد ثانية وكانت السلطات قد قبضت فى مساء يوم الأحد على جمال فراج أثناء تفتيش منزل إبراهيم حجازى ، كما قبضت على عبد الفتاح مدكور بشقة المتهم عبد المحسن إبراهيم ثم أصدرت أوامرها بالإفراج عن كل من هاشم بكرى المحبوس احتياطيًا من قبل ، وعبد الفتاح مدكور للاتصال بالجماعة ومفاوضتهم فى طلباتهم ، وقد تمكن هاشم بكرى من الهروب من الرقابة ووصل إلى الجماعة فى شقة دير الملاك ثم اتصل بالمباحث وأخبرهم برفض الجماعة لشروطهم مع موافقة شكرى على مد المهلة إلى الساعة الخامسة مساءًا أما عبد الفتاح مدكور فقد ذهب إلى شقة منشية الصدر ولم يعد . وقد علمت السلطات على الاتصال بكل من الأستاذ شوكت التونى المحامى والشيخ مصطفى الغاياتى كمحاولة للاتصال بالجماعة ،

وفى نفـس الوقت أصدرت النيابة أمرًا بتسليم الطفلة إلى والدها وكانت كل هذه المحاولات لإنقاذ حياة الدكتور الذهبى .

٧ – بعـد أن تسلم مصطفى غازى ومن معه الشيخ الذهبى فى شقة استوديو الأهرام بالجيزة سألهم الشيخ الذهبى قائلاً ماذا تريدون منى ؟ ، فأخبروه بأن هذا إجراء ضرورى ولن يتعرض لأى أذى .. فاستسلم لهم ورقد فى السـرير ، وسمحوا له بعد ذلك بدخول دورة المياه والوضـوء والصـلاة وتناول الأكل من المعلبات التى أحضروها ، وطوال يوم الأحد ١٩٧٧/٧/٣ واليوم التالى كان اتصال الجماعة بسلطات الأمن ووكالات الأنباء والصحافة لايزال مستمرًا ، وامتدت المهلة المحددة للمحافظة على حياة الدكتور الذهبى حتى الخامسة من مساء يوم الاثنين ، وعندما تأكد للجماعة عـدم ورود معلومات جديدة من الداخلية تفيد استجابتها للمطالـب اجتمعت الجماعة القيادية برئاسة شكرى أحمد مصطفى وماهر بكرى وأنور صقر ومجـدى صابر حبيب ومحمد خالد صقر وأحمد طارق عبد العليم واتخذوا قرارًا بقتل الدكتور الذهبى لإظهار قوة الجماعة وتنفيذ تهديدهم لعدم خضوع السلطات لأوامرهم (وقد جاء هذا القـرار فى صورة البيان الذى عثر عليه فى شـقة مصر الجديدة بخط ماهر تعترف الجماعة فيه بقـتل الذهبى كما جاء بتقرير الطب الشرعى) . وتوجه أحمد طارق مساء الاثنين إلى الشقة الموجـود بهـا الدكـتور الذهبى وكان معه شنطة سوداء وقابل مصطفى غازى والبط توفيق وأعطاهم الشنطة ليجمعوا فيها حاجاتهم ، وقرر لهم أن السلطات لم تستجب لطلبات الجماعة ، وأنهـم قرروا قتله وأخرج مسدسًا صغيرًا كان معه ملفوفًا فى خرقة ، وتوجه إلى داخل الغرفة الـتى كان بها الدكتور الذهبى وصاحبه فى ذلك مصطفى غازى ، وكان المجنى عليه نائمًا على السـرير واقعًـا تحت تأثير دواء مخدر أعطى له فى الطعام (ثبت من تشريح الجثة وجود مادة مـاندركس المخدرة فى أحشاء المجنى عليه) وتم نقل المجنى عليه إلى الطرف الأيسر من السرير وقـال له مصـطفى غـازى إنه سيعصب عينيه حتى لا يرى زائرين قادمين إليهم بالشقة وتم تعصيب عينيه فعلاً بقماش نايلون يحتمل أنه شراب حريمى ، ثم أطلق أحمد طارق طلقة واحدة مـن المسـدس الذى كان معه على عينه اليسرى ، ثم انطلق خارجًا ووراءه كل من مصطفى والـبط توفيق وصابر مختار مذكور الذين توجهوا إلى شقة الأندلس حيث أمضوا مساء الاثنين مع أحمد نصر الله حجاج وصبرى قطب وفى صباح الثلاثاء ١٩٧٧/٧/٥ تلقى مصطفى غازى رسالة خطية حملها إليه محمود عزام (ثبت أنها بخط كل من شكرى مصطفى وأحمد طارق كما جاء بتقرير الطب الشرعى) يطلبان فيها من مصطفى غازى استئجار عربة كارو ونقل الرهينة

عليها وتغطيتها بالخضراوات والخروج بها الساعة ٤ فى الفجر إلى شارع الهرم وتترك عند ترعة الزمر ويوضع على الرهينة نشادر أو روح النعناع وقد اعترض مصطفى غازى على هذا النقل، وقال لمحمود عزام إنه يريد مقابلة أنور مأمون صقر للتفاهم معه فى هذا الخصوص ، وذهب بعد ظهــر الثلاثاء معه إلى شقة دير الملاك ناحية حدائق القبة وجلسوا فى إحدى المقاهى ، وذهب محمــود عزام وقرر أنه لم يجد أنور مأمون صقر حتى الحادية عشر مساء وعندما لم يأت المذكور ترك مصطفى غازى رســالة إليه اعترف أنها بخطه يقول له فيها إن أعصــاب الناس تلفانة وإنه لا يجــد أى عربة لاستئجارها ، وإنه ليس معه مفتاح الشقة ، وإن صاحب البيت والسمسار حضـــروا إلى الشقة ، وترك محمود عزام رسالة مصطفى غازى الموجهة إلى أنور صقر ، ومعها ورقة منه يخبره فيها بأن مصطفى غازى يريد مقابلته على المقهى فى كوبرى القبة (وقد اعترف محمــود عزام بكتابة هذه الورقة إلا أنه قرر أن المباحث هى التى استكتبته إياها) وقد ضبطت هاتــان الرســالتان اللتان سلمتا إلى محمد السيد صقر فى منزل شارع مصر والسودان حيث كان يقيم كل من محمــود عــزام ومحمد السيد صقر وإبراهيم أبو دنيا عندما قبض عليهم يوم ١٩٧٧/٧/٦وقــد أعطى محمود عزام عند انصرافه عقد شقة استوديو الأهرام ، كما أعطاه بطاقــة شخصية مزورة . وعاد مصطفى غازى فى منتصف ليلة الثلاثاء ١٩٧٧/٧/٥ إلى شقة الأندلس بالهرم لانتظار تعليمات الجماعة بعد أن ترك رسالته بعدم إمكانية نقل الجثة ، وعندما وصل إلى باب الشقة فوجئ بالكمين الذى كان قد قبض على كل من نصر الله حجاج وصبرى قطب قبله بساعات واقتاده ضابط المباحث إلى داخل الشقة وسأله عن سبب حضوره فأجاب بأنه يبحث عن سائق لتعليمه السواقة ، وكان ردًا غريبًا لتجاوز الوقت منتصف الليل .. وهنا لاحظ الضابط أن مصطفى غازى قد دفع شيئًا فى فمه فسأله ما هذا فقال لبانة ، ولما طلبها منه أخـــرجها وألقاها على الأرض فالتقطها الضابط فوجد بها أوامر نقل الرهينة على عربة كارو ووضع روح النعناع والنشادر عليها السابق الإشارة إليها ، فألقى القبض على مصطفى غازى وفتشـــه فوجد معه عقد شقة استوديو الهرم وهناك فى إدارة المباحث استدلت السلطات على مكـــان المجنى عليه من هذا العقد ، وتوجهت أجهزة الأمن والنيابة إلى الشقة المذكورة فى فجر الأربعـــاء ١٩٧٧/٧/٦ حيث لاحظ الجميع صدور رائحة كريهة من داخل الشقة وفتح خبير المفـــرقعات الشـــقة ودخل الجميع وتلاحظ لهم بمجرد الدخول رؤية أرجل المجنى عليه داخل الحجـــرة الـــتى كـــان يرقد بها والتى كان بابها مفتوحًا وعند دخولهم إلى الحجرة وجدوا جثة الدكتور الذهبى وكانت منتفخة لمرور حوالى ٤٨ ساعة على القتل ، وتحيط بها الدماء من كل

جانــب على السرير وعلى الأرض ، وكانت عيناه معصوبتين ويظهر آثار طلق نارى فى عينه اليسرى ، وعثر فى الحجرة على المقذوف النارى لطبنجة ٧,٦٥ ، كما عثر فى الشقة على آثار بصــمات لكــف مصطفى غازى على الحوض – ونقلت الجثة إلى المشرحة وتم فحص المنزل وبدأت التحقيقات تأخذ مجراها .

٨ – تعقبــت السلطات أفراد الجماعة من لحظة ارتكاب حادث الخطف وقامت بإجراء مســح شــامل للشقق المفروشة فى القاهرة والجيزة ، ونجحت رقابتها على المتهم المفرج عنه عبد الفتاح مدكور وتعقبته حتى دخل شقة رقمها ٨٩ شارع القائد فى منشية الصدر ، وراقبت المباحــث الشــقة وعززت الحراسة عليها لاحتمال وجود الشيخ الذهبى بها ، وقد خرج عبد الفتاح مدكور من الشقة بصحبة جمال السيد وتغيبا عن الشقة لمدة ساعة تقريبًا ، ثم عادا ثانية وهما تحت أعين رجال المباحث ودخلا الشقة ثانية وفى ظهر يوم الثلاثاء ١٩٧٧/٧/٥ قبضت المباحــث على عبد الفتاح مدكور وهو يغادر الشقة ، ثم قامت باقتحامها بعد أن دقت جرس الباب حيث وجدت كلاً من إسلام محمد عاطف وطه حسن الزينى ومحمد سعد السيد ومحمد جمال السيد وقد حاول الأخير إلقاء ورقة من النافذة التقطها أفراد المباحث وكان بها تعليمات أمــن الجماعــة وضبط بالشقة بعض عقود إيجار لشقق مختلفة وبعض النقود وجوازات السفر وبعض الخطابات والأوراق المختلفة وبعض صور الرسائل الموجهة إلى رئيس الجمهورية وبعض التعلــيمات الخاصة بأمن الجماعة وبعض كتب خاصة بأفكار شكرى مصطفى ، كما وجدت كــرتونة بها بعض المتفجرات . وفى نفس اليوم ١٩٧٧/٧/٥ ضبطت مباحث الجيزة فى الشقة رقم ٢٠ شارع محمد حسن بمدينة الأندلس بالهرم كلاً من أحمد نصر الله حجاج ومحمد صبرى قطب وضبط بالشقة رشاش بورسعيد وبعض الطلقات الخاصة به ، كما ضبط مسدس بساقية أمــريكى الصنع وعدد من الطلقات ووجدت أوراق ثبت أنها بخط شكرى مصطفى بها خطة خطف الدكتور الذهبى ورسم كروكى لمنزله وبعض الأسماء الحركية ، كما وجد بالشقة بعض بطاقــات تحقيق الشخصية وبعض عقود الإيجار والكثير من الأوراق الخاصة بتعليمات الجماعة وأفكارهم كما وجدت سلسلتان طول كل منهما حوالى متر بهما قفل يحتمل أنهما استعملتا فى تقييد المجنى عليه .

وقــد أعد كمين فى نفس الشقة تمكن فى ساعة متأخرة من نفس الليلة من القبض على المتهم مصطفى غازى الذى كان يتردد على الشقة المذكورة .

فى صباح يوم ١٩٧٧/٧/٦ قبضت المباحث على كل من محمود عبد العزيز عزام ومحمد السيد صقر ومحمد إبراهيم أبو دنيا فى الشقة رقم ٣ أ شارع الشيخ حمزة المتفرع من شارع مصر والسودان وضبطت معهم مفاتيح العربة ١٢٨ وبعض المطاوى قرن الغزال وبعض الأوراق الهامة ، منها ورقة بخط مصطفى غازى يقرر فيها أن أعصاب الناس تلفانة وأنه لا يستطيع استئجار عربة كارو وأنه ليس معه مفتاح الشقة كما وجد ورقة أخرى موجهة إلى أنور مأمون صقر للاتصال بهم .

وفى يوم ١٩٧٧/٧/٨ تمكنت المباحث من القبض على المتهم الأول شكرى مصطفى أثناء توجهه إلى منزله بعزبة النخل سعت ١٢,٣٠ مساء ومعه زوجته استشهاد حسن البنا ، وكان قد ترك شقة دير الملاك هو وجماعته مساء الخميس ١٩٧٧/٧/٧ وحاول الهرب إلى مديرية التحرير ، ولكنه عندما ركب القطار لم يقابله من كان سيذهب معه إلى هناك ، فاضطر إلى العودة من بنها إلى القاهرة .. وقد قرر جميع ضباط المباحث الذين التقوا به فى قسم المطرية أنه قرر لهم أنه قام مع جماعته بخطف وقتل الشيخ الذهبى بسبب عدم تنفيذ مطالب الجماعة .. وبتفتيش المنزل الذى كان يقيم فيه بعزبة النخل وهو مكون من ثلاث غرف وجد به الكثير من الأوراق المختلفة عن أفكار الجماعة وإيصالات وتحقيق شخصية وشهادات وعقود إيجار وإيصالات وصور فوتوغرافية .

وفى نفس اليوم قامت المباحث بإلقاء القبض على المتهم أحمد إبراهيم الصادق أثناء دخوله الشقة رقم ٤ شارع أبو المجد بالزيتون ، وقد حاول مقاومة السلطات وأطلق عدة طلقات نارية إلا أنهم تمكنوا من القبض عليه وضبطت الطبنجة وهى عيار ٩ مم ماركة حلوان وضبطت معه شنطة تحتوى على بعض الآيات من القرآن الكريم وبعض التفاسير وقسيمة الزواج .

وبتاريخ ١٩٧٧/٧/٩ ضبطت المباحث شقة رقم ٤ شارع جمال المتفرع من دار السعادة بالزيتون ووجد بها حقيبة متفجرات وعدد ٢ رشاش بورسعيد ومسدس طليانى ، ٣١٥ طلقة ٩ مم ، ١٥ مطواة قرن غزال ، ١٤ ساطورًا وبلطة وبدلة ضابط شرطة مدنية بيضاء وكاب وعدد خمسة بيريهات شرطة عسكرية حمراء وخمسة شارات حمراء للشرطة العسكرية وخمسة أفرول كاكى وبعض المهمات الأخرى المختلفة .

وفى صباح نفس اليوم ١٩٧٧/٧/٩ وضع كمين من المباحث على الشقة ٣٣ شارع الدكتور حسن محمود بمصر الجديدة حيث قبض فى الساعة السادسة صباحًا على أنور مأمون

صـــقر ومعه ثلاث سيدات يغادرن الشقة ، وقد فتشت الشقة بحضورهم وضبط فيها طبنجة ماركة ولتر عيار ٧,٦٥ وبها مشط داخله ٦ طلقات وعثر على ورقة خطية تفيد الاعتراف بأن الطبـــنجة الـــتى قتل بها الذهبى عيار ٧,٦٥ (ثبت أنها بخط محمد خالد صقر كما جاء بتقرير الطـــب الشرعى) وكانت الطبنجة مخبأة داخل دولاب بحجرة النوم الرئيسية (وقد ثبت من فحصـــها بواســـطة الطب الشرعى أنها الطبنجة التى ارتكبت بها حادثة القتل) كما عثر على الكـــثير مـــن الأوراق والمستندات الهامة منها بيانات الجماعة واعترافات بأنهم خططوا لخطف وقـــتل الشيخ الذهبى وعناوين لشخصيات متعددة وبرطمان به المتفجرات المعدة للاستعمال . وقـــد استمر الكمين فى الشقة وفى الساعة التاسعة والنصف صباحًا ضبط كل من مجدى صابر حبيب ومحمد خالد صقر وعبد المنعم أبو ياسين وكانت معهم حقيبة سوداء بها عبوة مفرقعات ومفجرات وفتيل وبعض الطلقات تبلغ حوالى ثلاثة آلاف طلقة مختلفة الأحجام وخزينة مدفع رشـــاش ومســـدس صوت وباروكة شعر كستنائية (يحتمل أنها استعملت عند استئجار شقة الرهيـــنة) وبعض العملات المصرية والأجنبية وفى الساعة الثانية عشرة والنصف قبض الكمين عـــلى حســـن البنا مصطفى ثابت أثناء دخوله هذه الشقة وضبط معه حقيبة جلدية بها طبنجة ماركة سميث اندرسون وبعض الطلقات .

وفى صباح يوم ١٩٧٧/٧/١٠ تمكن الكمين المعين على الشقة ١٠ شارع المراغى بدير المـــلاك من ضبط محمد جبر عوف مصطفى وهو يدخل الشقة وقد عثر فى الشقة على أوراق ومســـتندات خاصة بالجماعة منها كاسيت عليه ما نشر فى الإذاعات من بيانات عن الجماعة ومـــنها بيان الجماعة باعترافهم بمهاجمة سينما سفنكس ومعهد الموسيقى العربية (ثبت أنها بخط طارق وشكرى كما جاء بتقرير الطب الشرعى) وزجاجة بها متفجرات .

وفى صـــباح يوم ١٩٧٧/٧/١١ تم القبض على كل من ماهر عبد العزيز بكرى وعلى جاد والبط توفيق ومحمد عباس فى مديرية التحرير .

كما تم فى صباح نفس اليوم ١٩٧٧/٧/١١ ضبط إسماعيل حسن نصار مختفيًا فى فندق السعادة بالسيدة زينب باسم مستعار وبطاقة شخصية مزورة .

كما تم فى صباح يوم ١٩٧٧/٧/١٣ ضبط وكر للجماعة فى ٢٤ شارع بين السرايات بالعباســـية بإرشـــاد المـــتهم محمد خالد صقر وجد فيه كميات من الديناميت والمواد المتفجرة وأجهزة التفجير وكان يستخدم فى إمداد الأفراد بالمفرقعات .

وفى صباح نفس اليوم ١٩٧٧/٧/١٣ تم ضبط مغاورى جبر العوف بشقته بالجيزة ومعه بعض السيدات وضبطت الكثير من الأوراق الخاصة بفكر الجماعة وهو شقيق فوقية جبر العوف زوجة شكرى أحمد مصطفى .

وفى صباح يوم ١٩٧٧/٨/٣ تم ضبط محمود عبد الرازق صالح بجهة ديروط ورحل إلى القاهرة .

وفى صباح يوم ١٩٧٧/٨/١١ تم ضبط أحمد طارق عبد العليم بناحية ساقية مكى بالجيزة وليس معه إلا حوالى خمسة جنيهات ووصية تنفذ حالة وفاته .

وفى مساء يوم ١٩٧٧/٨/١٩ تم ضبط محمد سالم الباجورى فى مكتبة الكوثر بالموسكى .

٩ – فى مساء يوم الأربعاء ١٩٧٧/٧/٦ عاد رئيس الجمهورية من زيارة له بالخارج وأصدر أمرًا بإحالة القضية إلى القضاء العسكرى فقررت الجماعة القيادية القيام بعمل لإزعاج السلطات وإرهاب الأهالى فكلف محمد خالد صقر ومجدى صابر حبيب بعمل انفجار فى سينما سفنكس وكلف أحمد طارق بعمل انفجار فى معهد الموسيقى العربية وتم الانفجاران فى مساء نفس اليوم وأصيب فيه أحد عشر شخصًا من المواطنين بإصابات مختلفة ، وقد ضبطت السلطات مسودة البيان الخاص بهذه الانفجارات (وهو بخط كل من شكرى مصطفى وأحمد طارق كما جاء بتقرير الطب الشرعى) فى شقة شكرى أحمد مصطفى فى دير الملاك وفى مساء يوم ١٩٧٧/٧/٩ قامت الجماعة بتفجير آخر فى ميدان العتبة قرر طارق أن الذى قام به هو حسن البنا ثابت كذلك كانت الجماعة قد جهزت ثلاث شقق بالشراك الخداعية للقضاء على رجال المباحث عند اقتحام هذه الشقق وكان أولها شقة سبع الليل بالزيتون التى أبلغ عنها أن الشيخ الذهبى موجود بها إلى أن فتحها مندوب المفرقعات بمعرفته ، وتمكن من إبطال المتفجرات الموجودة بالشقة وثانيها الشاليه الموجود بشارع خالد بن الوليد بالإسكندرية وقد تم رفع المتفجرات منها بواسطة الجماعة قبل دخول خبير المفرقعات إليها ، وثالثها شقة شارع البشلاوى بالمنصورة التى انفجرت بمجرد فتحها بواسطة رجال المباحث يوم ١٩٧٧/٧/١٤ ونتج عنها إصابة الكثير من الأفراد وفقد فيها المقدم فاروق القصبى إحدى عينيه وسمعه ، وقد ثبت أن الذى قام بإجراء التوصيلات الكهربائية هو محمد السيد صقر وتعاون معه فى تركيب المتفجرات أحمد طارق عبد العليم .

١٠ – أحيلــت أيضًا إلى القضاء العسكرى قضايا التصفية الجسدية التى كانت تقوم بها الجماعة لمن ينشق عنهم وتبين من الاطلاع عليها أنها أربع وقائع .

الواقعــة الأولى : حدثت فجر يوم ١٩٧٦/١١/١٨ عندما قامت الجماعة بالاعتداء عــلى رفعــت أبــو دلال فى منزله بالمعصرة وحاولت الفتك به ولكنه قفز من النافذة وهرب إلى أحــد الجيران وقد اتهم المذكور شكرى مصطفى وأنور صقر وماهر وعبد المحسن إبراهيم وفــوزى الزيات وعبد الفتاح يس وعماد صقر وعلاء الدين رضا ومحمود عبد الجواد وحمدى ســالم وإبراهــيم فرج وجمال عبد الرحمن وأسامة قاسم وسعد عبد الرحمن وقد أنكر المتهمون ما نسب إليهم .

الواقعة الثانية : حدثت فى فجر نفس اليوم ١٩٧٦/١١/١٨ حيث وقع الاعتداء على كــل من حسن الهلاوى وشقيقه خالد الهلاوى بمنزلهم بمنطقة الأندلس بالهرم ، وأصيب الأول بإصــابات جسيمة ولم يتعرف على أحد من المعتدين ، وقد تعرف خالد الهلاوى على كل من عبد الستار عوض والسيد بركات ومحمد الأمين عبد الفتاح وأنكر المتهمون ما نسب إليهم .

الواقعة الثالثة : حدثت فى الإسكندرية ففى صباح يوم ١٩٧٦/١١/٢١ وأثناء توجه عبد السلام مصطفى إلى عمله ومعه شخص من المباحث لحمايته تعرض له كل من عماد صقر وســعيد عــبد الرحمن ومحمد عبد التواب والسيد بركات وآخرين وقد تم إطلاق النار على بعضــهم فأصيب عماد صقر فى رجله وقبض على الأربعة المذكورين وقد تعرف عبد السلام مصــطفى عــلى غيرهم وهم علاء الدين رضا وعثمان عبد الرحيم مصطفى وهاشم شكرى وقــد قــرر المتهمون أنهم ذهبوا إلى المجنى عليه للحصول على نقود لهم طرفه كما أنكر باقى المتهمين ما نسب إليهم .

الواقعة الرابعة : فى المنصورة يوم ١٩٧٧/١/١٣ فى الساعة الخامسة مساء هجم كل من يحيى عبد الوهاب عثمان وعبد الجواد أبو حشيش على عماد أبو دلال شاهرين عليه المطواه محــاولين الاعــتداء علــيه ، وتمكن الأهالى من القبض عليهما ، وقد قرر المتهمان أنهما كانا فى طــريقهما إلى منزلهمــا عــندما تعــرض لهمــا عماد أبو دلال وأنكرا أنهما كانا يحاولان الاعتداء عليه .

المحـــاكمة

قدم المتهمون المذكورون إلى المحكمة العسكرية العليا فى القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧ أمن دولة عسكرية عليا وكان عددهم ٥٤ فردًا وكانت المحاكمة برئاسة :

اللواء حسن صادق

عضوية :

العميد / يحيى عبد المعطى على ، العميد / مختار حسين شعبان

(أ) **المتهمون** :

١ - شكرى أحمد مصطفى

٢ - ماهر عبد العزيز بكرى زناتى

٣ - أنور مأمون أحمد حسن صقر

٤ - محمد خالد عبد الحميد صقر

٥ - مجدى صابر حبيب

٦ - أحمد طارق عبد العليم

٧ - صفوت حسن زينى

٨ - مغاورى جبر أحمد عوف

٩ - محمد إبراهيم إبراهيم أبو دنيا

١٠ - محمد السيد عبد الحميد صقر

١١ - إبراهيم محمد حجازى

١٢ - إسماعيل حسن نصار

١٣ - محمد سالم الباجورى

١٤ - محمد عباس عبد العال

١٥ - محمد عبد الرازق صالح

١٦ - مصطفى عبد المقصود غازى

١٧ – البط توفيق على سيد أحمد

١٨ – صابر مختار عمر مدكور

١٩ – أحمد نصر الله صبرى حجاج

٢٠ – صبرى محمد قطب

٢١ – محمود عبد العزيز عزام

٢٢ – محمد جمال غريب حشيش

٢٣ – رزق عبد العزيز سالم

٢٤ – عبد الله محمود غزاله

٢٥ – محمد سعد محمد السيد

٢٦ – إسلام محمد عاطف

٢٧ – محمد جمال السيد

٢٨ – عبد المنعم عبد السلام أبو يس

٢٩ – مروان عبد الرحيم ريحان

٣٠ – محمد جبر أحمد عوف

٣١ – طه حسن زينى

٣٢ – حسن البنا مصطفى ثابت

٣٣ – أحمد إبراهيم الصادق

٣٤ – على أحمد جاد

٣٥ – عبد الفتاح مختار عمر مدكور

٣٦ – كمال فراج يحيى أحمد

٣٧ – عبد المحسن إبراهيم أحمد

٣٨ – عبد الفتاح يس عبد الفتاح

٣٩ – فوزى السعيد السعيد الزيات

٤٠ – إبراهيم سيد فرج

٤١ – جمال الدين محمد أحمد عبد الرحمن

٤٢ – أسامة السيد محمد قاسم

٤٣ – حمدى عبد الحميد إبراهيم سالم

٤٤ – علاء الدين على رضا

٤٥ – عماد مأمون أحمد حسن صقر

٤٦ – سعيد محمد عبد الرحمن

٤٧ – السيد حسن بركات

٤٨ – محمود أحمد عبد التواب

٤٩ – فريد عبد الحميد مصطفى

٥٠ – هاشم عبد العزيز بكرى زناتى

٥١ – عثمان عبد الرحيم السيد

٥٢ – عبد الستار عوض إبراهيم

٥٣ – يحيى عبد الوهاب عثمان

٥٤ – عبد الجواد محمد حسن أبو حشيش .

(ب) الاتهام :

وقد قدم المتهمون إلى المحاكمة العسكرية على جرائم إنشاء منظمة التكفير والهجرة لقلب نظام الحكم وعدم الاعتراف بالقوانين الوضعية والنظم السائدة ومهاجمة طائفة من السكان ومقاومة رجال السلطة العامة والقبض على الشيخ الذهبى وقتله .

وقد صدر الحكم على المتهمين الخمسة الأوائل بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة من ٢٥ سنة إلى ثلاث سنوات وبراءة ثلاثة عشر متهمًا .

كما قدم للمحاكمة ٢٠٤ متهم بتهمة الانتماء إلى نفس الجماعة وحكم عليهم بأحكام مختلفة .

الفصل الخامس

تنظيم جماعة الجهاد
وكتاب الفريضة الغائبة

نشأت جماعة الجهاد فى أوائل سنة ١٩٧٤ برئاسة صالح عبد الله سرية الفلسطينى الجنسية والـذى كـان ينادى بقيام الدولة الإسلامية لتطبيق شريعة الله مستخدمًا فى ذلك جميع طرق العـنف مع إباحة الدماء للوصول إلى هدفه وجمع حوله الكثير من الأتباع خصوصًا من طلبة الجامعة وبدأ جهاده بحادث محاولة الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية ، ولكن محاولته فشلت كما سنوضح فيما بعد وحوكم المذكور وأعدم .

خلف صالح سرية فى تنظيم الجهاد عبد السلام فرج الذى دعا إلى تكفير المجتمع بالكامل وأنـه لا سـبيل إلى الخـلاص إلا بالقـتل والعنف وأن الآيات التى تدعو إلى الصفح والعفو والتسـامح هى آيات منسوخة بينما الآيات التى تحض على القتال والجهاد هى الصحيحة .. وقد تضمن كتابه (الفريضة الغائبة) بعض الأفكار التى نتعرض لها بالكامل .

فكر الكتاب والرد عليه :

إن الجهـاد فى سبيل الله بالرغم من أهميته القصوى وخطورته العظمى على مستقبل هذا الديـن فقد أهمله علماء العصر وتجاهلوه بالرغم من علمهم بأنه السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد ، آثر كل مسلم ما يهوى من أفكاره وفلسفاته على خير طريق رسمه الله سـبحانه وتعالى لعزة العباد .. والذى لا شك فيه هو أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف ولذلك يقول الرسول ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك لـه ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على

من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم » (أخرجه الإمام أحمد عن ابن عمر) ويقول ابن رجب (قوله ﷺ بعثت بالسيف) يعنى أن الله بعثه داعيًا بالسيف إلى توحيد الله بعد دعائه بالحجة ، فمن لم يستجب إلى التوحيد بالقرآن والحجة والبيان دعى بالسيف .

ويخاطب رسول الله ﷺ طواغيت مكة وهو بها : (استمعوا يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح) فأخذ القوم كلمته حتى ما فيهم رجل إلا كأنه على رأسه طير واقع وحتى أن أشدهم عليه ذلك ليلقاه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول : انطلق يا أبا القاسم رشدًا فوالله ما كنت جهولاً .. ورسول الله ﷺ بقوله (لقد جئتكم بالذبح) قد رسم الطريق القويم الذى لا جدال فيه ولا مداهنة مع أئمة الكفر وقادة الصلاح وهو فى قلب مكة .

١ ـ إقامة الدولة الإسلامية والحكّام المسلمين اليوم :

هو فرض أنكره بعض المسلمين وتغافل عنه البعض ، مع أن الدليل على فرضية قيام الدولة واضح بين فى كتاب الله تبارك وتعالى فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ .. ويقول ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾ .. ويقول جل وعلا فى سورة النور عن فرضية أحكام الإسلام : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ ومنه فإن حكم إقامة حكم الله على هذه الأرض فرض على المسلمين ، وتكون أحكام الله فرض على المسلمين فبالتالى قيام الدولة الإسلامية فرض على المسلمين ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، أيضًا إذا كانت الدولة لن تقوم إلا بقتال فوجب علينا القتال .

ولقد أجمع المسلمون على فرضية إقامة الخلافة الإسلامية ، وإعلان الخلافة يعتمد على وجود النواة وهى الدولة الإسلامية ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية ، فعلى كل مسلم السعى لإعادة الخلافة بجد لكيلا يقع تحت طائلة الحديث .. والمقصود بالبيعة بيعة الخلافة .

ويبدو هنا تساؤل : هل نحن نعيش فى دولة إسلامية ؟ من شروط الدولة أن تعلوها أحكام الإسلام وأفتى الإمام أبو حنيفة أن دار الإسلام تتحول إلى دار كفر إذا توافرت ثلاثة شروط مجتمعة :

١ – أن تعلوها أحكام الكفر .

٢ – ذهاب الأمان للمسلمين .

٣ – المتاخمة أو المجاورة .

وذلـــك بأن تكون تلك الدار مجاورة لدار الكفر بحيث تكون مصدر خطر على المسلمين وســـببًا فى ذهـــاب الأمن .. وأفتى الإمام محمد والإمام أبو يوسف صاحبا أبى حنيفة بأن حكم الدار تابع للأحكام التى تعلوها ، فإن كانت الأحكام التى تعلوها هى أحكام الإسلام (فهى دار الإسلام) وإن كانت الأحكام التى تعلوها هى أحكام كفر (فهى دار كفر) (بدائع الصنائع) وأفتى شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه الفتاوى الجزء الرابع (كتاب الجهاد) عندما سئل عن بلد تسمى ماردين كانت تحكم بحكم الإسلام ثم تولى أمرها أناس أقاموا فيها حكم الكفر ، هل هـــى دار حرب أو سلم ، فأجاب إن هذه مركب فيها المعنيان ، فهى ليست بمنزلة دار السلم الـــتى يجرى عليها أحكام الإسلام ، ولا بمنزلة دار الحرب التى أهلها كفار ، بل هى قسم ثالث يعـــامل المســـلم فيها بما يستحق ، ويعامل الخارج عن الشريعة الإسلامية بما يستحقه .. وفيما يـــتعلق بهذه الأقوال لا نجد تناقضًا بين أقوال الأئمة : فأبو حنيفة وصاحباه لم يذكروا أن أهلها كفـــار .. فالســـلم لمن يستحق السلم ، والحرب لمن يستحق الحرب .. فالدولة تحكم بأحكام الكفر بالرغم من أن أغلب أهلها مسلمون .

والأحكـــام الـــتى تعلو المسلمين اليوم هى أحكام الكفر ، بل هى قوانين وضعها كفار وسيّروا عليها المسلمين ، ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّـــهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ ﴾ فبعد ذهاب الخلافة نهائيًا عام ١٩٢٤ واقتلاع أحكام الإسلام كـــلها واستبدالها بأحكام وضعها كفار .. أصبحت حالتهم هى نفس حالة التتار كما أثبت فى تفسير ابن كثير لقوله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِن اللَّـــهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ قال ابن كثير ينكر الله تعالى على من خرج من حكم الله المشتمل عـــلى كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات الـــتى وضـــعها الـــرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضـــلالات والجهـــالات مما يصنعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكـــية المـــأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب

مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكـتاب الله وسـنة رسـول الله ﷺ فمن فعل ذلك كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى كثير ولا قليل .. (ابن كثير الجزء الثانى ص ٦٧) .

وحكّـام العصر قد تعددت أبواب الكفر التى خرجوا بها عن ملة الإسلام بحيث أصبح الأمر لا يشتبه على كل من تابع سيرهم هذا بالإضافة إلى قضية الحكم .. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (فى كتاب الفتاوى الكبرى باب الجهاد ص ٢٨٨ الجزء الرابع) ومعلوم بالاضطرار مـن دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوّغ اتباع غير دين الإسلام أو اتباع شريعة غـير شريعة محمد ﷺ فهو كافر ، وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِـنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْـتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .. فحكام هذا العصر فى ردة عن الإسلام تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية .. فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء وإن صـلى أو صـام وادعى أنه مسلم .. ويقول ابن تيمية (فى نفس الباب ص ٢٩٣) .. وقد استقرت السنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلى من وجوه متعددة منها أن المرتد يقتل بكل حال ولا يضرب عليه جزية ولا تعقد له ذمة ، بخلاف الكافر الأصلى ، ومنها أن المـرتد يقـتل وإن كان عاجزًا عن القتال ، بخلاف الكافر الأصلى الذى ليس هو من أهل القـتال فإنه لا يقتل عند أكثر العلماء كأبى حنيفة ومالك وأحمد ، ولهذا كان مذهب الجمهور أن المـرتد يقـتل ، كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد ومنها أن المرتد لا يرث ولا يناكح ولا تؤكـل ذبيحته بخلاف الكافر الأصلى إلى غير ذلك من الأحكام ، وإذا كانت الردة عن أصل الدين أعظم من الكفر بأصل الدين ، فالردة عن شرائع أعظم من الكفر وخروج الخارج الأصلى عن شرائعه .. إذن فما موقف المسلمين من هؤلاء .

ويقول ابن تيمية أيضًا (فى نفس الباب ص ٢٨١) .. كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتوافرة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين ، وإن تكلمت بالشهادتين وامتـنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم

حتى يؤدوا الزكاة ، كذلك إن امتنعوا عن صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق ، وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش أو الزنا أو الميسر أو الخمر أو غير ذلك من محرمات الشريعة ، وكذلك إن امتنعوا عن الحكم فى الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة ، كذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد الكفار إلى أن يسلموا ويؤدوا الجزية وهم صاغرون ، وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة واتباع السلف مثل أن يظهروا الإلحاد فى أسماء الله وآياته أو التكذيب بآيات الله وصفاته والتكذيب بقدره وقضائه أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين على عهد الخلفاء الراشدين ، إن الطعن فى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوا بإحسان أو مقاتلة المسلمين حتى يدخلوا فى طاعتهم التى توجب الخروج عن شريعة الإسلام وأمثال هذه الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه ﴾ ، ولهذا قال تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .. وهذه الآيات نزلت فى أهل الطائف لما دخلوا فى الإسلام والتزموا بالصلاة والصيام ولكن امتنعوا عن ترك الربا فبيّن الله أنهم محاربون له ولرسوله إذا لم ينتهوا عن الربا ، والربا هو آخر ما حرمه الله ، وهو ما لا يؤخذ برضا صاحبه ، فإذا كان هؤلاء محاربين لله ورسوله يجب جهادهم ، فكيف لمن يترك كثيرًا من شعائر الإسلام أو أكثرها كالتتار ، وقد اتفق علماء المسلمين على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق أو عن الحكم بينهم بالكتاب والسنة أو عن تحريم الفواحش أو الخمر أو نكاح ذوات المحارم أو عن استحلال النفوس والأموال بغير حق أو الربا أو الميسر أو الجهاد للكفار أو عن ضربهم الجزية على أهل الكتاب ونحو ذلك من شرائع الإسلام ، فإنهم يقاتلون عليها حتى يكون الدين كله لله .

ولكن هناك آراء فى ميدان الإسلام لإزالة هؤلاء الحكام وإقامة حكم الله عز وجل ، فما قدر هذه الآراء من الصحة ؟ .

هناك من يقول إننا نقيم جمعيات تابعة للدولة تدفع الناس إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأعمال الخير .. والصلاة والزكاة وأعمال الخير تلك أوامر من الله عزّ وجل لا يجب علينا

التفريط فيها ، ولكن إذا تساءلنا هل كل هذه الأعمال والعبادات هى التى سوف تقيم دولة الإسلام ؟ فالإجابة الفورية دون أدنى تفكير هى .. لا .. هذا بالإضافة إلى أن هذه الجمعيات خاضعة أصلاً للدولة ومقيدة بسجلاتها وتسير بأوامرها ..

وهناك من يقول إن علينا أن ننشغل بطاعة الله وبتربية المسلمين وعلينا بالاجتهاد فى العبادة لأن كل هذا الذل الذى نعيش فيه من ذنوبنا ومن أعمالنا سلط علينا ، ويُستدل أحيانًا بالحكمة القائلة عن مالك بن دينار يقول الله عز وجل (أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلىّ أعطفهم عليكم) .. والحقيق من ظن أن هذه الحكمة هى ناسخة لفريضتى الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أهلك نفسه وأهلك من أطاعه واستمع له .. ومن يريد حقًا أن ينشغل بأعلى درجات الطاعة وأن يكون فى قمة العبادة فعليه بالجهاد فى سبيل الله وذلك مع عدم إهمال بقية أركان الإسلام .. ورسول الله ﷺ يصف الجهاد بأنه ذروة سنام الإسلام ويقول (من لم يغز أو تحدثه نفسه بالغزو مات ميتة الجاهلية) .. أو على شعبة من نفاق ، ولذلك يقول المجاهد فى سبيل الله عبد الله بن المبارك الذى أبصر الفضيل :

يا عابد الحَرَمَين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك بالعبادة تلعبُ
مَن كان يخضب هذه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضبُ

ويقول البعض إن الانشغال بالسياسة يقسّى القلب ويلهى عن ذكر الله .. وأمثال هؤلاء كأنما يتجاهلون قول النبى ﷺ (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ويقول (من يتكلم بهذه الفلسفات إما أنه لا يفهم الإسلام أو هو جبان لا يريد أن يقف بصلابة مع حكم الله) .

وهناك من يقول إن علينا أن نقيم حزبًا إسلاميًا فى قائمة الأحزاب الموجودة ، وفى الحقيقة أن هذا يزيد الجمعيات الخيرية بكونه حزبًا يتكلم فى السياسة بالإضافة إلى ذلك فإن الهدف الذى قام من أجله تحطيم دولة الكفر سوف يكون العمل عن طريق الحزب هو عكسه وهو بناء دولة الكفر فهم يشاركوهم فى الآراء ، ويشتركون فى عضوية المجالس التشريعية التى تشرّع من دين الله .

وهـــناك مـــن يقول إن على المسلمين الاجتهاد من أجل الحصول على المناصب فتمتلئ المراكـــز بالطبيـــب المسلم والمهندس المسلم وبذلك يسقط النظام الكافر وحده وبدون مجهود ويتكون الحاكم المسلم .. والذى يسمع هذا الكلام لأول وهلة يظنه خيالاً أو مزاحًا ، ولكن الحقـــيقة أنه بالحقل الإسلامى من يفلسف الأمور بهذه الطريقة وهذا الكلام ، بالرغم من أنه لا دلـــيل له من الكتاب والسنة فإن الواقع حائل دون تحقيقه .. فمهما وصل الأمر إلى تكوين أطـــباء مسلمين ومهندسين مسلمين فهم أيضًا من بناة الدولة ، ولن يصل الأمر إلى توصيل أى شخصية مسلمة إلى منصب وزارى إلا إذا كان مواليًا للنظام موالاة كاملة .

ومنهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولة هو الدعوة فقط ، وإقامة قاعدة عريضة ، وهذا لا يحقق قيام الدولة بالرغم من أن البعض جعل هذه النقطة أساس تراجعه عن الجهاد ، والحق أن الذى سيقيم الدولة هم القلة المؤمنة .. والذين يستقيمون على أمر الله وسنة رسول الله ﷺ دائمًا قلة بدليل قول الله عز وجل : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وتلك سنة الله فى أرضه .. فمن أين ستأتى بهذه الكثرة المؤمنة ؟ وبقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

٢ ـ الهجرة والعلم :

وهناك من يقول إن الطريق لإقامة الدولة الإسلامية هو الهجرة إلى بلد آخر وإقامة الدولة هـــناك ، ثم العـــودة مرة أخرى فاتحين ، ولتوفير جهد هؤلاء فعليهم أن يقيموا دولة الإسلام ببلدهم ثم يخرجون منها فاتحين .. وهل هذه الهجرة شرعية أم لا ؟

للإجابة عن هذا التساؤل ندرس أنواع الهجرة الواردة فى السنة فى تفسير حديث (فمن كانـــت هجـــرته إلى الله ورسوله كانت هجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) يقول ابن حجر : والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره ، وفى الشرع (ترك ما نهى الله عنه) وقد وقعت فى الإسلام على وجهين :

الأول : الانـــتقال مـــن دار الخوف إلى دار الأمان ، كما فى هجرتى الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .

الثانى : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذلك بعد أن استقر النبى ﷺ بالمدينة وهاجر إليها من أمكنه ذلك من المسلمين .. ولا عجب فى ذلك فإن هناك من يقول إنه سوف يهاجر إلى الجبل ثم يعود فيلتقى بفرعون كما فعل موسى ، وبعد ذلك يخسف الله بفرعون وجنوده الأرض .. وكل هذه الشطحات ما نتجت إلا من جراء ترك الأسلوب الصحيح والشرعى الوحيد لإقامة الدولة الإسلامية . إذن فما هو الأسلوب الصحيح ؟ يقول الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ .

وهناك من يقول إن الطريق الآن هو الانشغال بطلب العلم ، وكيف نجاهد ولسنا على علم ، وطلب العلم فريضة ، ولكننا لم نسمع بقول واحد يبيح ترك أمر شرعى أو فرض من فرائض الإسلام بحجة العلم ، خاصة إذا كان هذا الفرض هو الجهاد ، فكيف نترك فرض عين من أجل فرض كفاية ؟ .. ثم كيف يتأتى أن نكون قد علمنا أقل السنن والمستحبات وننادى بها ثم نترك فرضًا عظّمه الرسول ﷺ ؟ ثم الذى تعمق فى العلم إلى درجة أنه عرف الصغيرة والكبيرة كيف يمر عليه قدر الجهاد وعقوبة تأخيره أو التقصير فيه ؟ .. ومن يقول إن العلم جهاد عليه أن يعلم أن الفرض هو القتال لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ .. ومعلوم أن رجلاً شهد الشهادتين بين يدى رسول الله ﷺ ثم نزل ميدان القتال فقاتل حتى قتل قبل أن يفعل شيئًا سواء فى العلم أو فى العبادة فبشّره رسول الله ﷺ بهذا العمل القليل بالأجر الكثير .

وحدود العلوم أن من علم فرضية الصلاة فعليه أن يصلى ، ومن علم فرضية الصيام فعليه أن يصوم كذلك ومن علم فرضية الجهاد فعليه أن يجاهد ، ومن يبح بعدم علمه بأحكام الجهاد فعليه أن يعرف أن أحكام الإسلام سهلة وميسرة لمن أخلص النية لله ، فعلى هذا أن ينوى الجهاد فى سبيل الله ، وبعد ذلك فأحكام الجهاد تدرس بسهولة ويسر وفى وقت قصير جدًا والأمر لا يحتاج إلى جهد ، ومن أراد أن يزداد من العلم فوق هذا الحد فليس هناك حكر على العلم ، فالعلم متاح للجميع .. أما تأخير الجهاد بحجة طلب العلم فتلك حجة من لا حجة له .. وهناك مجاهدون منذ بداية دعوة الرسول ﷺ وفى عصور التابعين حتى عصور

قريبة لم يكونوا علماء وفتح الله على أيديهم أمصارًا كثيرة ولم يحتجوا بطلب العلم أو بمعرفة علم الحديث وأصول الفقه ، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل على أيديهم نصرًا للإسلام لم يقم به علماء الأزهر يوم أن دخل نابليون وجنوده الأزهر بالخيل والنعال ، فماذا فعلوا بعلمهم أمام تلك المهزلة ؟ .. فالعلم ليس هو السلاح الحاد والقاطع الذى سوف يقطع دابر الكافرين ، ولكن هذا السلاح الذى ذكره لنا المولى عزّ وجل فى قوله : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُم اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ ونحن لا نحقر قدر العلم والعلماء بل ننادى به ، ولكن لا نحتج به فى التخلى عن فرائض شرعها الله (بيان أن أمة الإسلام تختلف عن الأمم الأخرى فى أمر القتال) .. يوضح الله تعالى أن هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخرى فى أمر القتال ، ففى الأمم السابقة كان الله سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار وأعداء دينه بالسنن الكونية كالخسف والغرق والصاعقة والريح .. وهذا الوضع يختلف مع أمة محمد ﷺ فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلاً لهم : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُم اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى أنه على المسلم أولاً أن ينفذ الأمر بالقتال بيده ثم بعد ذلك يستدخل الله سبحانه وتعالى بالسنن الكونية وبذلك يتحقق النصر على أيدى المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى .

٣ ـ الخروج على الحاكم :

جاء فى صحيح مسلم بشرح النووى عن جنادة بن أبى أمية قال دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به سمعته عن رسول الله ﷺ ، فقال : دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعناعلى السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وألا ننازع الأمر أهله قال : (**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**) وبواحًا أى ظاهرًا ، والمراد الكفر هنا المعاصى ، معنى عندكم من الله فيه برهان أى تعلمونه من دين الله ، ويقول النووى فى شرح الحديث (قال القاضى عياض : أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر ، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل ، قال وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها ، وكذلك قال عند جمهورهم المبدعة .. قال وقال بعض البصريين تنعقد له وتسند له لأنه متأول .. قال القاضى لو طرأ عليه

كفــر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القــيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك إلا لطائفة وجبت عليهم القيام بخلع الكافــر) (صحيح مسلم – باب الجهاد) وهذا الباب هو أيضًا رد على القائلين بأنه لا يجوز القتال إلا تحت خليفة أو أمير) .

ويقول ابن تيمية (كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجــب قتالهم باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين) .. (الفتاوى الكبرى باب الجهاد ص ٢٨١) .

وهناك قول بأن ميدان الجهاد اليوم هو تحرير القدس كأرض مقدسة .. والحقيقة أن تحرير الأراضى المقدسة أمر شرعى واجب على كل مسلم ، ولكن رسول الله ﷺ وصف المؤمن بأنه كيس فطن أى أنه يعرف ما ينفع وما يضر وما يغير ويقدم الحلول الحاسمة الجذرية ، وهذه نقطة تستلزم توضيح الآتى :

أولاً : إن قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد .

ثانيًا : إن دماء المسلمين التى ستنزف حتى وإن تحقق النصر فالسؤال الآن هل هذا النصر لصالح الدولة الإسلامية القائمة ؟ أم أن هذا النصر هو لصالح الحكم الكافر القائم وهو تثبيت لأركــان الدولــة الخارجــة عن شرع الله .. وهؤلاء الحكام إنما ينتهزون فرصة أفكار هؤلاء المســلمين الوطنية فى تحقيق أغراضهم غير الإسلامية وإن كان ظاهرها الإسلام ، فالقتال يجب أن يكون تحت راية مسلمة وقيادة مسلمة ولا خلاف فى ذلك .

ثالــثًا : إن أساس وجود الاستعمار فى بلاد الإسلام هو هؤلاء الحكام ، فالبدء بالقضاء عــلى الاستعمار هو عمل غير مجد وغير مفيد ، وما هو إلا مضيعة للوقت .. فعلينا أن نركز قضــيتنا الإســلامية وهى إقامة شرع الله أولاً فى بلدنا وجعل كلمة الله هى العليا .. فلا شك أن ميدان الجهاد الأول هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام الإسلامى الكامل ومن هنا تكون الانطلاقة .

٤ ـ آية السيف :

ولقد تكلم أغلب المفسرين فى آية من آيات القرآن وسموها آية السيف ، وهى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .. قال الحافظ بن كثير فى تفسير الآية (قال الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد المشركين وكل عقد ومدة .. وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية : لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة) .

ويقول الحافظ محمد بن أحمد بن محمد بن جزى الكلبى صاحب تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (وتقدم هنا ما جاء من نسخ مسالمة الكفار والعفو عنهم والإعراض والصبر على آذاهم بالأمر بقتالهم ليغنى ذلك عن تكراره فى مواضعه فإنه وقع منه فى القرآن مائة وأربع عشرة آية من أربع وخمسين سورة نسخ ذلك بقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ ﴾ .

وقال الحسين بن فضل فيها هى آية السيف نسخت هذه كل آية فى القرآن فيها ذكر الأعراض والصبر على أذى الأعداء .. فالعجب ممن يستدل بالآيات المنسوخة على ترك القتال والجهاد . وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن حزم المتوفى سنة ٥٦ فى الناسخ والمنسوخ باب الإعراض عن المشركين فى مائة وأربع عشرة آية فى ثمان وأربعين سورة نسخ الكل بقوله عز وجل : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ .

ويقول الإمام المحقق أبو القاسم هبة الله سلامة ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ هى الآية الثالثة وهى الناسخة ولكن نسخت من القرآن مائة آية وأربعا وعشرين ثم صار آخرها ناسخًا لأولها وهى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ (كتاب الناسخ والمنسوخ) .

وقال السدى والضحاك إن آية السيف منسوخة بآية ﴿ فَإِذا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وهى أشد على المشركين من آية السيف وقال قتادة بالعكس ، ولا أعلم أحد خالف القول بالمنسوخ سوى السيوطى ،

قـال فى كتاب الاتفاق (الأمر حين الضعف والقلة بالصبر بالصفح ثم نسخ بإيجاب القتال ، وهذا فى الحقيقة ليس نسخًا بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ .. فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمين وفى حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية فى ذلك منسوخة بآية السيف وليس كلك بل هو المنسأ) .

٥ ـ القتال الآن فرض على كل مسلم :

والله سبحانه وتعالى عندما فرض الصيام قال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ ﴾ وفى أمر القتال قـال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِتَالُ ﴾ أى أن القتال فرض وذلك ردًا على من قال إن الفرض هو الجهاد ، ومن هنا يقول إننى قمت بواجب الدعوة فقد أديت الفرض لأن ذلك جهاد .. وإذا خرجت فى طلب العلم فأنا فى سبيل الله حتى أرجع بنص الحديث فبذلك فقد أديت الفرض .. فالفـرض واضح بالنص القرآنى أنه القتال أى المواجهة والدم .. والسؤال الآن : متى يكون الجهاد فرض عين ؟ يتعين الجهاد فى ثلاثة مواضع :

أولاً : إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف وتعين عليهم المقام لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُم الأَدْبَارَ ﴾ .

ثانيًا : إذا نزل الكفار ببلد تعيّن على أهله قتالهم ودفعهم .

ثالثًا : إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم الاستنفار لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِن الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ، إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .. وقال الرسول ﷺ (إذا استنفرتم فانفروا) .

وبالنسبة للأقطار الإسلامية فإن العدو يقيم فى ديارهم ، بل أصبح العدو يمتلك زمام الأمور ، وذلك العدو هم هؤلاء الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين ، ومن هنا فجهادهم فرض عين ، هذا بالإضافة إلى أن الجهاد الإسلامى اليوم يحتاج إلى عرق كل مسلم .

واعلم أنه إذا كان الجهاد فرض عين فليس هناك استئذان للوالدين فى الخروج للجهاد كما قال الفقهاء فمثله كمثل الصلاة والصوم .

والواضح أن الجهاد اليوم فرض عين على كل مسلم ، وبالرغم من ذلك نجد أن هناك من يحتج بأنه يحتاج إلى تربية نفسه وأن الجهاد مراحل ، فهو مازال فى مرحلة جهاد النفس ويستدل على ذلك بقول الإمام ابن القيم .. الذى قسّم الجهاد إلى مراتب :

١ — جهاد النفس .

٢ — جهاد الشيطان .

٣ — جهاد الكفار والمنافقين .

وهـــذا الاستدلال ينبئ من خلفه إما عن جهل كامل وإما عن جبن فاحش ذلك لأن ابن القـــيم قسّـــم الجهـــاد إلى مراتب ولم يقسمه إلى مراحل .. وإلا فعلينا أن نتوقف عن مجاهدة الشـــيطان حتى ننتهى من مرحلة جهاد النفس ، والحقيقة أن المراتب الثلاث تسير معًا فى خط مســـتقيم ، ونحن لا ننكر أن أقوانا إيمانًا وأكثرنا مجاهدة لنفسه أكثرنا ثباتًا .. ولكن من يدرس الســـيرة يجد أنه عندما يتادى منادى الجهاد كان الجميع ينفر فى سبيل الله حتى مرتكبى الكبيرة وحديـــثى العهـــد بالإسلام ، ويروى أن رجلاً أسلم أثناء القتال ونزل فى المعركة فقتل شهيدًا فقال الرسول ﷺ (عمل قليل وأجر كبير) .

ويـــتعين على المسلم أن يعد نفسه للجهاد فى سبيل الله ، والرسول ﷺ يقول (انتدب الله لمـــن خـــرج فى ســـبيل الله لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيل الله وإيمان بى وتصديق برسولى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة) متفق عليه .

ويقول أيضًا (من سأل الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) رواه مسلم والبيهقى عن أبى هريرة (وجاء رجل لرسول الله ﷺ فقال له دلنى على عمل يعدل الجهاد قال : لا أجده ، قال هل تستطيع ؟ إذا خرج المجاهد أن تدخل مصحبك فتقوم ولا تفتر وتصـــوم ولا تفطـــر ومن يستطع ذلك .. قال أبو هريرة إن فرس المجاهد ليستن « يتحرك » فى طوله يكتب له حسنات) .. (البخارى) .

ويقول الرسول ﷺ (للشهيد عند الله ست خصـال.. يغفر له من أول دفعة دم ويـرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن الفزع الأكبر ، ويُحلّى حلية الإيمان ويزوج من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه) (الترمذى) .

وعن فنون القتال قال الرسول ﷺ (الحرب خدعة) ويقول النووى فى شرح الحديث (اتفـق العـلماء على جواز خداع الكفار وكيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل ، ومعلوم أنه لا عهد بيننا وبينهم حيث أنهم محاربون لدين الله سبحانه وتعالى والمسـلمون أحرار فى اختيار أسلوب القتال المناسب على أن تحقق الخدعة ، وهى النصر بأقل الخسائر وأيسر السبل) .

بعـد أن نجـح ساسة اليهود فى تأليب الأحزاب الكافرة على النبى ﷺ ودعوته وأصبح الوضـع خطيرًا ، رسم المسلمون على عجل خطة فريدة لم تسمع الحرب عنها من قبل ، فهم لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة وتلك الخطط أشار بها سلمان الفارسى وهى حفر خندق عميق يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المدافعين والمغيرين فأسلوب القتال ليس وحيًا ولا سنة ثابتة ، ولكن المسلم له أن يعمل عقله ويدبر ويخطط ، والأمر يعود فيه للمشورة .

وقـد صـح فى الحديث الكذب فى ثلاثة أشياء – قال الطبرى إنما يجوز من الكذب فى الحرب المعارضة دون حقيقة الكذب فإنه لا يحل .. هذا كلامه والظاهر هو إباحة حقيقة نفس الكذب لكن الاقتصار على التعريض أفضل والله أعلم (شرح النووى) .

وعن جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير إنذار . روى الإمام مسلم عن بن عدى قال كتبت إلى نافع أسأله عن الدعوة قبل القتال قال فكتب إلىّ : إنما كان ذلـك فى أول الإسلام .. قد أغار رسول الله ﷺ على بنى المصطلق وأنعامهم تسقى على الماء فقـتل مقاتلـيهم وسـبى سبيهم وأصاب يومئذ ، قال يحيى أحسبه قال جويرية أو قال البتة ابنة الحارث .

الشـرح : قال النووى فى هذا الحديث جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة بغـير إنـذار بالإغارة ، وفى هذه المسألة ثلاثة مذاهب حكاها المازرى القاضى ، أحدها يجب الإنذار مطلقًا قال مالك وغيره .. وهذا ضعيف .. والثانى عدم وجوبه مطلقًا وهذا أضعف منه

أو بـــاطل .. والثالث يجب إن لم تبلغهم الدعوة ، وعدم وجوبه إن بلغتهم ، لكن يستحب ، وهـــذا هو الصحيح وبه قال نافع مولى بن عمرو الحسين البصرى والثورى والليث والشافعى وأبـــو ثور وابن المنذر والجمهور .. وقال ابن المنذر وهو قل أكثر أهل العلم .. (مسلم شرح النووى) .. (جواز تبييت الكفار ورميهم وإن أدى إلى قتل ذراريهم) .

عـــن ابن عباس عن الصعب بن جثهامة قال (قلت يا رسول الله إنا نصيب فى البيان من ذرارى المشركين (ذريتهم) قال هم منهم (رواه مسلم) .

الشـــرح : ســـئل رســـول الله ﷺ عـــن حكم صبيان المشركين الذين يبقون فيصاب من نسائهم وصبيائهم بالقتل ، فقال هم من آبائهم أى لا بأس لأن أحكام آبائهم جارية عليهم فى الميراث وفى النكاح وفى القصاص والديّات وغير ذلك والمراد إذا لم يتعدوا من غير ضرورة . (مسلم شرح النووى باب الجهاد) .

عـــن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى النبى ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النسا والصبيان (رواه الجماعة إلا النسائى) .

ويروى أحمد وأبو داود أنه فى إحدى الغزوات من رسول الله ﷺ عثر على امرأة مقتولة مما أصابت القدمة فوقفوا ينظرون إليها وهم يتعجبون من خلقها حتى لحقهم الرسول ﷺ فقال (مـــا كانـــت هذه لتقاتل) فقال لأحدهم الحق خالدًا فقل لـــه لا تقتلوا ذرية ولا عسيفًا (أى أجيرًا) .

وحديث بن عباس السابق فى جواز قتل الذرارى يتناقض مع هذا الحديث حيث إن لكل منهما حالة تختلف عن الأخرى .

عن عائشة رضى الله عنها قالت خرج رسول الله ﷺ فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جـــرأة ونجدة ، ففرح أصحاب الرســـول ﷺ حين رأوه فلما أدركه قال له الرسول ﷺ : أتؤمن بالله ورسوله قال لا فقال ارجع فلن نستعين بمشرك .. قال ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركنا فقال له الرسول ﷺ كما قال أول مرة فرد كأول مرة فقال ارجع فلن نســـتعين بمشرك قالت ثم رجع فأدركنا بالبيداء فقال له كما قال أول مرة أتؤمن بالله ورسوله قال نعم فقال له الرسول ﷺ فانطلق (رواه مسلم) .

الإخلاص فى الجهاد فى سبيل الله ، والإخلاص هو تجريد قصد التقريب إلى الله عزّ وجل من جميع الشوائب .. وقيل هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .. وفى باب تلبس إبليس على الغزاة يذكر الإمام ابن الجوزى (قد لبّس إبليس على خلق كثير فخرجوا إلى الجهاد ونيتهم المباهاة والرياء ليقال فلان غاز وربما كان المقصود أن يقال شجاع أو كان طلب الغنيمة وإنما الأعمال (بالنيات) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال إياكم أن تقولوا مات فلان شهيدًا أو قتل شهيدًا فإن الرجل ليقاتل ليغنم ويقاتل ليذكر ويقاتل ليرى مكانه ، وبالإسناد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به تعرفه نعمه فعرفها فقال هل عملت فيها قال قاتلت فيك حتى قتلت قال كذبت ولكنك قاتلت حتى يقال هو جرىء فقد قيل ثم أمر به فحسب على وجهه وألقى فى النار .. ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .. فقال ما عملت فيها فقال تعلّمت فيك العلم وعلّمته وقرأت القرآن فقال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر بسحبه على وجهه حتى ألقى فى النار .. ورجل وسّع الله عليه فأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها فقال ما تركت من سبيل أنت تحبه أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت به فحسب ليقال إنك جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار (تفرد بإخراجه مسلم) .

وعن غرور الفقيه فإننا نجد فى فقه عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما يسوغ إبعاد الصادق صاحب الخير عن المسئولية إذا كان فيه نوع من حب الظهور والخيلاء سدًا للزريعة وصيانة له من احتمالات الافتتان والجباية على نفسه وعلى الدعوة .

فقد روى أن الراشد الخامس لما ولى الخلافة أرسل إلى أبى عبيد المزجى وكان فقيهًا ثقة فى الحديث من شيوخ الأوزاعى ومالك وممن يستعين به الخليفة سليمان بن عبد المالك فقال له

عمر هذا الطريق إلى فلسطين وأنت من أهلها فالحق بها قيل له يا أمير المؤمنين لو رأيت أبا عبيد وتشيره للخير ، فقال ذاك أحق إلا ثقته كان أبهة للعامة (تهذيب التهذيب ٢-١٥٨) .

ولقـــادة جماعات المسلمين هذا اليوم أن يقولوا لكل داعية يتطلع للسمعة والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة مثل الذى قال له عمر لأبي عبيد .

ويفهم من ذلك أنك قد أخطأت بداية الطريق إلى مدارك فمررت بديار دعوة التواضع والبذل والالتزام الخططى وهذه الطريق إلى ديار أشكالك فالحق بهم .

الـــــرد

١ ـ الإسلام وحقيقته :

الإسلام : يقال فى اللغة أسلم : دخل فى دين الإسلام ، وفى الشرع كما جاء فى الحديث الشـــريف : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان) .

وبهـــذا يظهـــر أن الإســـلام هو العمل والقيام بفرائض الله من النطق بالشهادتين وأداء الفروض والانتهاء عما حرّم الله سبحانه ورسوله .

فالإيمـــان تصديق قلبى ، فمن أنكر وجحد شيئًا مما وجب الإيمان به فهو كافر . قال الله تعـــالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ . أما الإسلام فهو العمل والقول ، عمل بالجوارح ونطق باللسان ، ويدل على المغايرة بينهما قول الله ســبحانه ﴿ قَالَـــت ا عْـــرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِـــي قُلُوبِكُـــمْ ﴾ والحديـــث الشـــريف فى حوار جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ عن الإيمـــان والإســـلام يوضـــح مدلول كل منهما شرعًا ، وهما مع هذا متلازمان ، لأن الإسلام مظهر الإيمان .

متى يكون الإنسان مسلمًا ؟

حدد هذا رسول الله ﷺ فى قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمـــنوا بى ، وبمـــا جئـــت به ، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله) رواه البخارى .

وفى قوله : (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شـــعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن بـــرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة) رواه البخارى .

هذا هو المسلم ، فمتى يخرج عن إسلامه ، وهل ارتكاب معصية بفعل أمر محرم ، أو ترك فرض من الفروض يترع عنه وصف الإسلام وحقوقه ؟

قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . وفى حديث طويل لرسول الله ﷺ قال : (ذاك جبريل أتانى فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، قلت وإن زنا ، وإن سرق قال : وإن زنا وإن سرق ..) رواه البخارى .

هذه النصوص من القرآن والسنة تهدينا صراحة إلى أنه : وإن كانت الأعمال مصدقة للإيمان ومظهرًا عمليًا له ، ولكن المسلم إذا ارتكب ذنبًا من الذنوب بأن خالف نصًا فى كتاب الله ، أو فى سنة رسوله ﷺ ، لا يخرج بذلك عن الإسلام ، مادام يعتقد صدق هذا النص ويؤمن بلزوم الامتثال له ، وفقط يكون عاصيًا وآثمًا لمخالفته فى الفعل أو الترك .

بل إن الخبر الصادق عن رسول الله ﷺ دال على أن الإيمان بالمعنى السابق منقذ من النار، فقد روى أنس رضى الله عنه . قال : كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ ، فمرض ، فأتاه النبى ﷺ يعوده (يزوره وهو مريض) فقعد عند رأسه ، فقال له أسلم . فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده . فقال أبوه : أَطِعْ أبا القاسم ، فأسلم ، فخرج النبى ﷺ وهو يقول : (الحمد لله الذى أنقذه من النار) رواه البخارى وأبو داود .

٢ ـ ما هو الكفر :

فى اللغة كفر الشيء ستره أى غطاه – الكفر شرعًا : أن يجحد الإنسان شيئًا مما أوجب الله الإيمان به ، بعد إبلاغه إليه ، وقيام الحجة عليه ، وهو على أربعة أنحاء :

كفر إنكار ، بأن لا يعرف الله أصلاً ، ولا يعترف به ، وكفر جحود ، وكفر معاندة ، وكفر نفاق ، ومن لقى الله بأى شيء من هذا الكفر لم يغفر له : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وقد شاع الكفر فى مقابلة الإيمان ، لأن الكفر فيه ستر الحق ، بمعنى إخفاء وطمس معالمه، ويأتى هذا اللفظ بمعنى كفر النعمة ، وهو بهذا ضد الشكر .

وأعظم الكفر جحود وحدانية الله ، باتخاذ شـــريك له ، وجحد نبوة رسول الله محمد ﷺ وشريعته .

والكافـــر مـــتعارف بوجه عام فيمن يجحد كل ذلك . وإذا كان ذلك هو معنى الإيمان والإســـلام والكفـــر ، مستفادًا من نصوص القرآن والسنة كان المسلم الذى ارتكب ذنبًا ، وهو يعلم أنه مذنب ، كان عاصيًا لله سبحانه وتعالى معرّضًا نفسه لغضبه وعقابه ، لكنه لم يخرج بمـــا ارتكب عن ربقة الإيمان وحقيقته ، ولم يزل عند وصف الإسلام وحقيقته وحقوقه . وأيًا كانت هذه الذنوب التى يقترفها المسلم خطأ وخطيئة كبائر أو صغائر لا يخرج بها عن الإسلام ولا من عداد المؤمنين ، ذلك مصداق قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

٣ ـ الجهاد :

والجهاد فى سبيل الله أمر جاء به القرآن وجرت به السنة ، لا يمارى فى هذا أحد ، ولكن ما هو الجهاد؟ . فى اللغة أصله المشقة ، يقال جاهدت جهادًا ، أى بلغت المشقة . وفى الشرع : جهـــاد فى الحـــرب ، وجهـــاد فى السلم ، فالأول ، هو مجاهدة المشركين بشروطه ، والآخر هـــو جهـــاد النفس والشيطان ، وفى الحديث (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس) .

فالجهـــاد ليس منحصرًا لغة ولا شرعًا فى القتال ، بل إن مجاهدة الكفار تقع باليد وبالمال وباللسان وبالقلب ، وكل أولئك سبيله الدعوة إلى الله بالطريق الذى رسمه الله تعالى فى القرآن واتبعه رسول الله ﷺ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

هل الجهاد فرض عين على كل مسلم ؟

قـــال أهـــل العلم بالدين وأحكامه إن الجهاد بالقتال كان فرضًا فى عهد النبى ﷺ على من دعاه الرسول من المسلمين للخروج للقتال ، وأما بعده فهو فرض كفاية إذا دعت الحاجة .

ويكـــون فـــرض عـــين عـــلى كل مسلم ومسلمة فى كل عهد وعصر إذا احتلت بلاد المســـلمين ، ويكـــون بالقـــتال وبالمال وباللسان وبالقلب لقوله ﷺ : (جاهدوا المشركين

بأموالكم وأيديكم وألسنتكم) وجهاد النفس هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة دائمًا وفى كل وقت ، وفى هذا أحاديث شريفة كثيرة منها قول الرسول ﷺ : (المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل) . وحديث (بعثت بالسيف بين يدى الساعة) .

وهو حديث صحيح لكن ما مدلوله؟ وهل تؤخذ ألفاظه هكذا وحدها ، دون النظر إلى الأحاديث الأخرى وإلى سير الدعوة منذ بدأت ؟

إن ما قال به هذا الكتيب هو ما قال به المستشرقون ، حيث عابوا على الإسلام ، فقالوا إنه انتشر بالسيف .

ألا ساء ما قالوا : هؤلاء وأولئك ، فإن القرآن قد فصل فى هذه القضية ، وما كان رسول الله إلا مُبلغًا ومنفذًا للوحى ، ولا يصدر منه ما يناقض القرآن الذى يقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ويقول ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ويقول : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ويقول ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ذلك القرآن أصل الإسلام ، والسنة مفسرة له لا تختلف معه ، وحديث بعثت بالسيف مع هذه الآيات ، لا يؤخذ على ظاهره ، فقد جاء بيانًا لوسيلة حماية الدعوة عند التعدى عليها ، أو التصدى للمسلمين ، وإلا فهل استعمل الرسول ﷺ السيف لإكراه أحد على الإسلام ؟ اللهم لا : وما كان له أن يخالف القرآن الذى نزل على قلبه .

وقوله الشريف : (وجعل رزقى فى ظل رمحى) إشارة إلى آية الغنائم وقسمتها ، وإن له رزقًا فى بيت مال المسلمين ، حتى لا ينشغل عن الدعوة بكسب الرزق ، وكان هذا مبدأ فى الإسلام .

قال ابن إسحاق حدثنى يحيى بن عروة بن الزبير قال إذا اطلع رسول الله ﷺ فاقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفًا بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول . قال : فعرفت

ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف . ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح .. ثم استطردت الرواية إلى ما كان بين الرسول ﷺ وهؤلاء الذين غمزوه بالقول ثلاث مرات وهو يطوف حول البيت فى ذات اليوم ، واليوم التالى .

فما معنى هذه العبارة الأخيرة فى قول الرسول حسبما جاء فى هذه القصة : (لقد جئتكم بالذبح) ؟ .

نعود إلى اللغة نجدها تقول : ذبحت الحيوان ذبحًا قطعت العروق المعروفة فى موضع الذبح بالسكين والذبح الهلاك ، وهو مجاز ، فإنه من أسرع أسبابه ، وبه فسّر حديث ولاية القضاء (.. فكأنما ذبح بغير سكين) ويطلق الذبح للتزكية ، وفى الحديث (كل شىء فى البحر مذبوح) أى زكى لا يحتاج إلى الذبح ، ويستعمل لفظ الذبح للإحلال ، أى لجعل الشىء المحرم حلالاً ، وفى هذا حديث أبى الدرداء رضى الله عنه (ذبح الخمر والملح والشمس ..) أى إن وضع الملح فى الخمر مع وضعها فى الشمس يذبحها ، أى يحولها خلاً فتصبح حلالاً .

٤ ـ الحكم بما أنزل الله :

فى القرآن الكريم قول الله سبحانه : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وقوله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ وقوله ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . وفى الحديث الشريف الذى رواه مالك فى الموطأ . (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله) .

فالقرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة هما المرجع فى التشريع الإسلامى فقد اشتملا على العقائد والعبادات والمعاملات ، وعلى أحكام وحكم وعلوم وفضائل وآداب ، وأنباء عن اليوم الآخر وغير هذا مما يلزم الإنسان فى حياته وفى آخرته .

وقد أمر القرآن بالأخـــذ به ، وبما جاء به رسول الله أى سننه ، ذلك قول الله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ وقوله ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّــهَ ﴾ وقوله ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقولـــه ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْـنَا وَأُولَـئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الْكَافِرُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

ذهب الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة كافر محتجين بهذه الآيات الثلاث الأخيرة ، وهذا الـــنظر منهم غير صحيح . ذلك لأننا إذا رجعنا إلى قواعد اللغة ودلالات الحـــروف والأسماء نجد أن كلمة (من) الـــواردة فى تلك الآيات من أسماء الموصـــول ، وهـــذه الأسماء لم توضع — فى اللغة — للعموم ، بل هى للجنس تحتمل العموم وتحتمل الخصوص . قال أهل العلم باللغة والتفســير وعـــلى هذا يكون المراد والمعنى أما من لم يحكم بشىء مما أنزل الله أصلاً ، فأولئك (أى مـــن ترك أحكام الله نهائيًا وهجر شرعه كله) هم الكافرون وهم الظالمون ، وهم الفاسقون وذلك بدليل ما سبق من الأحاديث الدالة على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بها عن إيمانه وإسلامه وإنما يكون آثمًا فقط .

أو أن المـــراد فى هذه الآيات بقول الله : ﴿ .. بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴾ هو التوراة بقرينة ما قبله وهو قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ .. ﴾ وإذا أخذنا هذا المعنى كانت الآيات موجهة لليهود الذين كان كتابهم التوراة ، فإذا لم يحكموا بها كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين ، والمسلمون غـــير متعـــبدين بمـــا اختص به غيرهم من الأمم السابقة ، فقد كانت — مثلاً — توبة أحدهم من ذنب ارتكبه قتل نفسه ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ وحرم هـــذا فى الإســـلام ﴿ .. وَلاَ تَقْـــتُلُوا أَنفُســـكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .. ﴾ وشرع بديلاً لقتل النفس التوبة ، بالاستغفار وبالصدقات .

وبهــذا البــيان يكون مجرد ترك بعض أوامر الله أو مجرد فعل ما حرم الله مع التصديق ، بصــحة هذه الأوامر وضرورة العمل بها ، يكون هذا إثمًا وفسقًا ، ولا يكون كفرًا مادام مجرد ترك أو فعل دون جحود أو استباحة .

وعــلى ذلك يكون تكفير الحاكم لتركه بعض أحكام الله وحدوده دون تطبيق لا يستند إلى نــص فى القــرآن أو فى السنة ، وإنما نصوصها تسبغ عليه إثم هذه المخالفة ، ولا تخرجه بهــا من الإسلام ، ولعل فيما قاله رسول الله وأوردناه فيما سبق من قوله (ثلاث من أصل الإيمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله ، لا نكفره بذنب ، ولا نخرجه من الإسلام بعمل ..) .

لعل فى هذا الرد القاطع على دعوى تكفير المسلم الذى لم يجحد شيئًا من أصول الإسلام وشريعته .

٥ ـ ما السبيل إلى تطبيق أحكام الله غير المنفذة ؟. وهل يبيح هذا قتل الحاكم والخروج عليه ؟ .

نسوق لرسم الطريق والجواب عن هذا الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن عوف بن مالك : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصــلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم . قال : قلنا يا رسول الله : أفلا ننابذهم (أى نقاتلهم) قال : لا : ما أقاموا فيكم الصلاة تصلون عليهم) .

ومثله الحديث الذى رواه أحمد وأبو يعلى قال : (يكون عليكم امراء تطمئن إليهم القلــوب وتلــين لهم الجلود ، ثم يكون عليكم أمراء تشمئز منهم القلوب وتقشعر منهم الجلود فقال رجل : أنقاتلهم يا رسول الله ؟. قال : لا: ما أقاموا فيكم الصلاة) .

وروى الإمــام مسلم فى صحيحه عن أم سلمة هند بنت أبى حذيفة رضى الله عنها عن الــنبى ﷺ قــال : (إنه يستعمل عليكم أمراء ، فتعرفون وتنكرون ، فمن كره ، فقد بــرئ ومن أنكر فقد أسلم ولكن من رضى وتابع . قالوا : يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟. قال : لا : ما أقاموا فيكم الصلاة) .

ومعناه أن من كره بقلبه ، ولم يستطع إنكارًا بيد ، ولا لسان ، فقد برئ من الإثم وأدى وظيفته ، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية ، ومن رضى بفعلهم وتابعهم فهو العاصى .

بهذه الأحاديث الصحيحة وغيرها نهتدى إلى أن الإسلام لا يبيح الخروج على الحاكم المسلم وقتله مادام مقيمًا على الإسلام يعمل به ، حتى ولو بإقامة الصلاة فقط ، وأن على المسلمين إذا خالف الحاكم الإسلام أن يتولوه بالنصح والدعوة السليمة المستقيمة كما فى الحديث الصحيح : (الدين النصيحة . قلنا : لمن يا رسول الله .؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) فإذا لم يُقِم الحاكم حدود الله وينفذ شرعه تامًا ، فليست له طاعة فيما أمر من معصيته أو منكر ، ومعنى هذا أن الحكم بما أنزل الله عليهم ، لا يقتصر على الحاكم فى دولته ، بل يشمل كل أفراد المسلمين رجالاً ونساءً ، عليهم الالتزام بأمر الله فيما أفترض من طاعات ، والانتهاء عما نهى من منكرات .

٦ ـ آية السيف :

وقد بين الكتاب المعروض قول الله سبحانه فى سورة التوبة : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ونقل الكتاب أن هذه الآية نسخت مائة وأربع آية فى ثمان وأربعين سورة ، فهى ناسخة لكل آية فى القرآن فيها ذكر الإعراض ، والصبر على أذى الأعداء .

هذه الآية الكريمة ، كما هو منطوقها ، واردة فى مشركى العرب الذين لا عهد لهم ، حيث نبذت عهودهم ، وضرب الله لهم الأربعة الأشهر الحرم ، وقد فرق القرآن فى المعاملة بين مشركى العرب ، والمشركين من أهل الكتاب من الأمم الأخرى . والأمر بقتال مشركى العرب فى هذه الآية وما قبلها مبنى على كونهم البادئين بقتال المسلمين والناكثين لعهودهم ، كما جاء فى آية تالية فى ذات السورة . ﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

ولقـــد أطلق بعض الناس القول فى أن آية السيف ناسخة لغيرها من الآيات حسبما نقل هذا الكتيب ، ولكن الصواب أنه لا نسخ ، وأن كل آية واردة فى موضعها ، كما أن الأصل فى الأعمال مقدّم على الإهمال .

بـــل إن آيـــة السيف جاء فى آخرها ما يوقف حكم أولها : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فمن آمن وأسلم ، تائبًا بذلك عن الشرك وإقام الصلاة وأتى الزكاة ، امتنع قتالهم وقتلهم .

فالآيـــة موجهـــة إلى المشـــركين الكافرين بأصول الدين ، وغير موجهة فى الأمر بقتال المســـلمين فالاســـتدلال بها على أنها أمر بقتال المشركين وغيرهم فى غير موضعه ، بل يناقض لفظها ، وفى صدد المشركين أجاز القرآن التعاهد معهم ، والوفاء بهذه المعاهدة فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ وقوله ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيـــنَ آمَـــنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ .. ﴾ وقوله : ﴿ .. وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ . فكـــيف إذن يقـــال : إن آيـــة السيف ناسخة لأمثال هذه الآيات ، التى نظمت التعاهد مع المشـــركين وغيرهـــم مـــن أهل الكتاب ، وكيف يمدون حكمها إلى المسلم الذى ترك فرضًا مـــن الفـــرائض عن غير جحود أو فعل موبقة منهيًا عنها تحريمًا والرسولﷺ يقول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا ذلك ، عصموا منى دماءهم وأموالهـــم إلا بحقها) وقد فسّر الرسول ﷺ هذا الحق بثلاث فى قوله : (لا يحل دم امرئ مســـلم ، إلا بـــإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بـــنفس). فكـــيف مع هذا يستباح قتل المسلم الذى يصلى ويزكى ويتلو القرآن باسم آية السيف ؟

٧ ـ الخلافة والبيعة على القتال :

إن الشـــورى هى أساس الحكم فى الإســـلام ، وبهـــذا أمـــر الله رسوله ﷺ فى قوله : ﴿ وَشَـــاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ أى فى الأمور التى تتعلق بأمور الحياة والدولة ، لا فى شأن الوحى والتشريع ، وما يأتى من عند الله . وقال سبحانه : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ وقال ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ .

والحـــاكم فى الإســـلام وكيل عن الأمة ، لذلك كان من شأنها أن تختار الحكام وتعزلهم وتراقبهم فى كل تصرفاتهم ، ويجب أن يكون الحاكم المسلم عادلاً قويًا فى دينه ومقاومته لأهل البغى والعدوان .

ويتفق أهل العلم بالإسلام وأحكامه على أن (خليفة المسلمين) هو مجرد وكيل عن الأمة يخضع لسلطانها فى جميع أمـــوره ، وهو مثل أى فـــرد فيها ، فهو فـــرد عادى ، لا امتياز لـــه ولا منـــزلة إلا بقدر عمله وعدله .

فالإسلام أول من سن تلك الآيات لمبدأ : الأمة مصدر السلطات . والإجماع منعقد منذ عصر الصحابة على وجوب تعيين حاكم للمسلمين استنادًا إلى أحاديث رسول الله ﷺ فى هذا الوضع .

وانـــتخاب الحـــاكم بالطرق المقررة فى كل عصر قائم مقام البيعة التى ترددت فى كتب فقهاء الشريعة فما البيعة إلا أدلاء بالرأى والتزام بالعهد ، وكان المسلمون يبايعون الرسول ﷺ عـــلى الوقـــوف معه وحمايته مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم ، فهو عهد والتزام منهم بحماية الرسول وحماية دعوته ، فقد كان يستوثق منهم لدينه بهذه البيعة .

والقتال فى ذاته ليس هدفًا – كما تقدم – وكما يقضى القرآن والسنة ، وإنما هو وسيلة لحمايـــة الدين والبلاد ، ولم يكن آنذاك تجنيد إجبارى وجيش نظامى متفرغ لهذه المهمة ، حتى إذا ما نظّم عمر بن الخطاب ومن بعده الجيوش ودوّن الدواوين ، لم يعد هناك مجال لهذه البيعة عـــلى القـــتال خـــارج صفوف جيش الدولة ، وإلا كان هؤلاء الذى يتبايعون على مثل هذا خارجين على جماعة المسلمين وحل قتالهم ، والأخذ على أيديهم .

٨ ـ الإسلام والعلم :

جاء فى كتيب (الفريضة الغائبة) تحت عنوان : الانشغال بطلب العلم :

إننا لم نسمع بقول واحد يبيح ترك أمر شرعى أو فرض الإسلام بحجة العلم ، خاصة إذا كان هذا الفرض هو الجهاد ، نترك فرض عين من أجل فرض كفاية ، وحدود العلم : أن من علم فريضة الصلاة فعليه أن يصلى .. إلخ .

ومن كتب هذا لم يقرأ القرآن ، وإذا كان قد قرأه فإنه ممن آمن ببعض الكتاب وأعرض عن بعض .

فلنستعرض بعض ما أمر به القرآن الكريم وتوجيهاته إلى العلم والتعليم :

إن أول نداء فتح الله به على نبيه إيذانًا ببدء الوحى قول الله سبحانه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّـذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

والقـراءة طريق العلم والمعرفة ، ثم يذكر القرآن خلق الإنسان وتكوينه ، ويمن الله عليه بنعمة العلم .

وبالعـلم فى الإسلام يتناول كل ما وجد فى هذا الكون ، فضلاً عن العلم بالدين عقيدة وشريعة وآدابًا وسلوكًا .

والعـلم جهاد ، ففى الحديث الشريف قول الرسول ﷺ (من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

ولقـد ذكـر أمـام الرسول ﷺ رجلان ، عالم وعابد فقال (فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم) . رواه الترمذى عن أبى أمامة .

إن هذه الدعوة الأثيمة إلى التقليل من فضل العلم ، هى دعوة إلى الأمية والبدائية باسم الإسلام ، وفيها تحريض للشباب بالانصراف وهجر دراستهم فى المدارس والجامعات والامتناع عـن استيعاب العلوم علوم الدين ، وعلوم الدنيا ، وهى الدعوة التى أوى إليها بعض الشباب الذين غرّر بهم هؤلاء المفسدون ، ونسى أولئك أن رسول الله ﷺ دعا لعبد الله بن عباس رضى الله عنه بقـوله : (اللهـم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) وفى هذا الرد على الدعـوة للانصراف عن العلوم الشرعية ثم قد روى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال (أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعـلم السريانية) وهذه دعوة من رسول الله لأحد أصحابه ليتعلم لغة أخرى غير العربية وقال زيد بن ثابت أيضًا (أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم لـه كلمات من كتاب يهود . وقـال : (إنى والله لا آمن يهوديًا على كتابى) قـال زيد : (فما مـر بى نصف شهر حتى تعلمته له) .

٩ ـ التعامل مع غير المسلمين والاستعانة بهم :

نقل الكتاب بعض الأحاديث فى النهى عن الاستعانة بالمشرك والتعامل معه وهذا — كما تقدم — من باب الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض ، وشرع الإسلام كل لا يتجزأ ، فلابد حين نستقى حكمًا ونستنبطه من القرآن والسنة أن نستوفى كل النصوص المؤدية إلى الحكم صحيحًا بمعرفة أهل الاختصاص والعلم بالأحكام .

فإذا رجعنا إلى سنة الرسول ﷺ نجده قد استعان فى هجرته بعبد الله بن أريقط وهو مشرك ، وقد اتخذه دليلاً لرحلة الهجرة ، يرشده إلى الطريق ، وقد رافقه حتى وصل إلى المدينة، أليس هذا استعانة من الرسول بمشرك لم يتبع دينه بعد ؟

ولما دخلت بلاد الفرس فى الإسلام ، ودون عمر بن الخطاب الدواوين ونقل عنهم بعض نظمهم الإدارية استعان فى ذلك ببعض خبرائهم وهم على دينهم ، أليس هذا استعانة بغير المسلمين من أمير المؤمنين الذى ملأ الأرض عدلاً ، وكان القرآن يترل مؤيدًا لما اقترحه ورآه فى كثير من أمور الدين والدنيا ؟

فالأصل فى الإسلام التعامل مع الناس جميعًا ، المسلم وغير المسلم ، فيما لا يخالف نصًا صريحًا من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو حكمًا أجمع عليه المسلمون . ويدعو إلى دراسة نفس الإنسان والكون فى قول الله ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ويدعو إلى دراسة التاريخ وأحوال السابقين من الأمم والشعوب فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

ويدعو إلى دراسة علم النبات والزراعة فى قول الله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .

وإلى دراسة علم الحيوان فى قول الله : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .

وإلى دراسة الفلك فى قول الله : ﴿ وَآيَةٌ لَهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾.

وإلى دراسة الجغرافيا فى قول الله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ .

وإلى دراسة الجيولوجيا فى قول الله : ﴿وَمِن الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ .

وإلى دراسة الكيمياء والفيزياء فى قول الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ .

ولو ذهبنا نستقصى أوامر القرآن وحثه على العلم والتعلم وتفضيله العلماء على غيرهم، وأحاديث رسول الله ﷺ فى هذا الموطن لاحتجنا إلى كتاب بل إلى كتب .

وكما بدأ القرآن فى النزول بكلمة العلم وتفضيله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

ولقد كان افتداء الأسارى فى بدر تعليم أولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وهكذا كانت السنة الشريفة مع القرآن تبيانًا وهداية إلى العلم . وهكذا كان شأن العلم فى الإسلام .

فهل بعد هذه المنزلة نغض من شأنه ، ونقول إنه يكفى منه القليل والله يقول : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

حادث الاعتداء على الكلية الفنية العسكرية

بأيدى جماعة الجهاد

فى فجر ١٨/٤/١٩٧٤م روع المواطنون من أهالى منطقة منشية البكرى وكوبرى القبة بأصوات إطلاق أعيرة نارية صادرة من مبنى الكلية الفنية العسكرية أعقبها هرج وأصوات سيارات الإسعاف وشرطة النجدة التى كانت تسرع فى اتجاه الكلية الفنية ، وتساءل المواطنون عن سر هذه الحوادث التى وقعت هذه الليلة وسرعان ما وجدوا الإجابة فى صحف الصباح .

وتبدأ القصة من أكتوبر سنة ١٩٧٣م حيث وفد إلى مصر المدعو صالح عبد الله سرية الفلسطينى الجنسية المفصول من منظمة فتح والمفصول أيضًا من جماعة الإخوان المسلمين بالعراق لتطرفه ، وسبق اتهامه بمحاولة اغتيال الرئيس عبد السلام عارف ، كما كان منتميًا إلى الحزب الشيوعى الأردنى ، وفتحت لـه مصر ذراعيها كطالب ينتمى إلى معهد الدراسات الإسلامية حيث حصل على الدكتوراه فى ١٩٧٢م ، ثم بدأ يمارس نشاطه الدينى داعيًا إلى قيام دولة إسلامية تطبق شريعة الله الواردة فى كتابه الكريم ، وأمكنه السيطرة على عقول كثير من شباب جامعة الإسكندرية بواسطة مساعديه هناك ، وكان اختيارهم يقع على الشباب الأعزب الذى لم يسبق انتماؤه لأى جماعات دينية ، واستمرت الاجتماعات بينهم فى القاهرة تارة وفى الإسكندرية تارة أخرى حيث كان صالح سرية يدعو إلى محاولة تغيير دستور الدولة وقلب الحكومة بالقوة واستقر الرأى على انتهاز فرصة وجود رئيس الجمهورية السيد / محمد أنور السادات وقتئذ مجتمعًا فى مبنى الاتحاد الاشتراكى بالوزراء وأعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية يوم ١٨/٤/١٩٧٤ ووضع الخطة اللازمة لمباغتة كل هؤلاء المسئولين والقضاء عليهم والاستيلاء على الحكم .

واستقر العزم على الاستعانة بمعاونيه أعضاء التنظيم الموجودين داخل الكلية الفنية العسكرية وعلى رأسهم كارم عزت الأناضولى الذى تم الاتفاق معه على مهاجمة الكلية واحتلالها والاستيلاء على الأسلحة والذخائر التى بها ، ثم التوجه إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى بعد ارتدائهم الملابس العسكرية للإيهام بوقوع انقلاب عسكرى ، وذلك لتنفيذ مخططهم والاستيلاء على الإذاعة والإعلان عن قيام الحكومة الإسلامية ، وفى سبيل تنفيذ ذلك تحركت الجماعة المكلفة بالتنفيذ فى الساعة الثانية عشرة من منتصف ليلة ١٧ ، ١٨ /١٩٧٤/٤ بعد تجمعها فى ميدان العباسية وكان قد اختير منها ١٨ فردًا من الأشداء المسلحين بالأسلحة البيضاء وهم جماعة الاقتحام الذين هاجموا قوة حراسة الكلية من الباب الخلفى وذبحوا اثنين من الحرس ، وتمكن الباقى من الصياح بكلمة (حرس سلاح) حيث هبّ أفراد الحراسة الأخرى ، والتحم الطرفان وكان أفراد التنظيم الموجودين بالكلية قد فصلوا التيار الكهربائى وحطموا المصابيح المضاءة فساد الظلام ، وحدث الهرج والمرج حتى تم وصول النجدة من الشرطة العسكرية وسيطروا على الموقف وقبضوا على من بقى منهم حيًا وبعد أن قتل من أفراد الكلية سبعة أفراد ، وجرح حوالى ٢٤ فردًا ، وكان صالح سرية فى هذا الوقت يقف على محطة مترو كوبرى القبة منتظرًا إشارة ضوئية ومعه الهلاوى أمير جماعة الجيزة لينضموا إلى طلال الأنصارى أمير جماعة الإسكندرية ويقودوا الجماعة التى احتلت الكلية لتنفيذ باقى الخطط .

ومن الطريف فى هذا الحادث أن أحد أفراد الجماعة وهو الطالب أحمد الرجال قصد فور علمه بالمخطط ليلة الحادث إلى منزل السيد رئيس الجمهورية وأبلغ نقيب الشرطة بذلك فأخذ يسخر منه ويدعوه للعشاء وهو يتفرج على التليفزيون ، وبعد عدة محاولات أرسله إلى مبنى المباحث العامة حيث قابله عقيد أخذ بدوره يتهكم عليه إلا أنه إزاء إصراره بالتبليغ حوله إلى رئيس المباحث العامة الذى قابله الساعة ١,٣٠ صباحًا حيث كان الحادث قد وقع .

المحـــاكمة

قــدم المتهمون المذكورون للمحاكمة أمام محكمة أمن الدولة العليا فى القضية ٢٦٨٧ ، ١٦٩ لسنة ٧٤ أمن دولة عليا .

وكان عددهم ٩٢ فردًا ، وكانت المحكمة برئاسة المستشار برهان العبد وعضوية كل من المستشارين / عبد اللطيف المراغى ومحمود صبرى .

(أ) **المتهمون** :

١ - صالح عبد الله سريه

٢ - طلال محمد عبد المنعم الأنصارى

٣ - كامل محمود عبد القادر

٤ - حسن محمد هلاوى

٥ - كارم عزت حسن عبد المجيد الأناضولى

٦ - سعد محمد عبد المنعم درباله

٧ - محمود محمد موسى العمراوى

٨ - أحمد صالح عامر

٩ - حسين حسن سليم غنيم

١٠ - محمد شاكر محمد سليمان الشريف

١١ - محمود أحمد محمود عبد العال

١٢ - أحمد مجدى محمد إسماعيل

١٣ - مجدى محمد سليم

١٤ - محمود خلاف

١٥ - كرم محمد عيسى

١٦ - حسين محمد حافظ

١٧ - يحيى عبد العليم إسماعيل

١٨ - محرم محمد أبوزيد

١٩ – محمود دياب أبو زيد

٢٠ – محمد الصاوى محمد على

٢١ – محمد إبراهيم زينون

٢٢ – محمد السيد سليم

٢٣ – محمد محمود عشرة

٢٤ – هانى عبد المقصود الذفرانى

٢٥ – حسن عبد الله السحيمى

٢٦ – مصطفى يحيى محمد

٢٧ – عبد الحليم السيد عبد الحليم

٢٨ – محمد محمد حسن الجندى

٢٩ – أحمد إبراهيم جمال الدين

٣٠ – محمد محمد أبو العينين

٣١ – أحمد أحمد عشرى

٣٢ – جلال شفيق على صقر

٣٣ – محمود فراج عبد الحافظ

٣٤ – مصطفى حسن خالد

٣٥ – وجيه الشنيطى

٣٦ – رمضان فراج عبد الحافظ

٣٧ – خالد إبراهيم سالم

٣٨ – ممدوح جابر موسى

٣٩ – محرم عادل فرج البليسى

٤٠ – طلعت عباس عوض الله

٤١ – محمد السيد جاد الكريم

٤٢ – إبراهيم يوسف سيد زاهد

٤٣ – محمد فراج محمد عبد الكريم

٤٤ – يسرى إبراهيم على رفاعى

٤٥ – أحمد إبراهيم محمد عيسى

٤٦ – السيد محمود أحمد السيد

٤٧ – سعيد حسنى مرسى

٤٨ – محمد محمود شاهين

٤٩ – سعد مصطفى شحات

٥٠ – محمد على خليفه

٥١ – رأفت إسماعيل محمد إسماعيل

٥٢ – عبد القوى محمد عبد الحفيظ

٥٣ – محمد عباس محمد السروجى

٥٤ – محرم عبد الله مرسى

٥٥ – يسرى عامر السيد عامر

٥٦ – حسين سعد الشيوى

٥٧ – أسامة شوقى خاطر

٥٨ – حسين عبد الرازق إسماعيل

٥٩ – أحمد محمود أحمد سيد أحمد

٦٠ – نجيب محمد عبد المنعم

٦١ – محمد نشأت عبد الفتاح

٦٢ – محمود السيد سليم

٦٣ – محمد السيد إسماعيل

٦٤ – إسماعيل خليفة

٦٥ – أحمد محمد منصور

٦٦ – مصطفى يسرى عبد المطلب

٦٧ – عزت يوسف فرجانى

٦٨ – عز الدين عبد الله محمود عبد الله

٦٩ – منصور حامد محجوب

٧٠ – صلاح الدين فضل رزق

٧١ – عبد الفتاح محمود عبد الفتاح الزين

٧٢ – محمد محمود أبو العلا

٧٣ – أسامة محمد سيد خليفة

٧٤ – محمد أمين مجاهد

٧٥ – مصطفى عبد المنعم الصدوتى

٧٦ – أحمد شكرى الرشيدى

٧٧ – نبيل عباس عبد الرازق مصطفى

٧٨ – أحمد محمد سيد خليفة

٧٩ – إبراهيم إبراهيم محفوظ

٨٠ – عبد الرؤوف أمين الجيش محمد

٨١ – حسن حسن بدران

٨٢ – عيد إبراهيم حسن أبو دشيشن

٨٣ – محمود عبد الله رضا

٨٤ – نبيل مختار جاد المولى

٨٥ – محمد أحمد حسن

٨٦ – محمد ياسر سعد مصطفى

٨٧ – محمد على حسن صقر

٨٨ – شريف محمد رشاد النبال

٨٩ – صلاح الدين فهمى حامد

٩٠ – على الشريف عجمى

٩١ – فتحى عبد السلام مبارك

٩٢ – سعيد عبد الله حماد

(ب) الاتهــام :

أولاً : المتهمون من الأول حتى الرابع والسبعين :

حــاولوا تغــيير دستور الدولة وشكل الحكومة فيها بالقوة بأن اتفقوا فيما بينهم وألّفوا تنظيمًا سرّيًا مسلحًا بهدف إسقاط الحكومة القائمة عن طريق القيام بانقلاب مسلّح للاستيلاء على زمام الحكم بالقوة ، ودبّروا لتنفيذ مخططهم عملية الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية للاستعانة بإمكاناتها من الأسلحة والذخائر ووسائل النقل فى اقتحام اجتماع عام للسيد رئيس الجمهوريــة مع أعضاء اللجنة المركزية ومجلس الشعب بهدف تنحية الرئيس وإعلان الاستيلاء عــلى الســلطة ، وبدأوا فى تنفيذ مخططهم بأن تجمعوا بميدان العباسية على شكل مجموعات مســلحة ، وتوجه بعضهم إلى الكلية الفنية العسكرية واقتحموها بمؤازرة أعضاء التنظيم من طلبــتها بعــد الاعتداء على حراسها ، وانتظر الباقون حولها فى انتظار دخولها لإتمام السيطرة علــيها ، وأحبطت محاولتهم نتيجة مقاومة الحراس لهم وضبطهم ، وقد تولى المتهمون الخمسة الأول قيادة هذا التنظيم وقد وقعت نتيجة ذلك الجرائم الآتية :

١ – حاولوا وهم عصابة مسلحة تولى قيادتها المتهمون الخمسة الأول احتلال أحد المبانى العامــة بالقوة وذلك بأن هاجموا حراس الكلية الفنية العسكرية من الداخل والخارج واستولوا على أسلحتهم وذخائرهم وحازوها للسيطرة على مبانى الكلية واحتلالها .

٢ – قتلوا عمدًا ومع سبق الإصرار كلاً من الرقيب إبراهيم محمد إبراهيم والعريف عبد النبى محمد إبراهيم والجنود حسين عبد الله إمام وزينهم محمد زكى ومحمود سليمان ومحمد عبد الوهــاب والى ورشــيد الســيد من جنود الحراسة بالكلية الفنية العسكرية بأن انتووا قتلهم وعقــدوا العــزم على ذلك وأعدوا لهذا الغرض أسلحة (مدى وخناجر) وباغتوهم طعنًا بها فأحدثوا بهم الإصابات الموصوفة بالتقارير الطبية وأوقف أثر الجريمة بسبب لا دخل لإرادتهم فيه هو مداركة المجنى عليهم بالعلاج .

٤ – ســرقوا الأســلحة والذخائــر المبينة بالتحقيقات والمملوكة للقوات المسلحة ليلاً وبطريق الإكراه ، وذلك بأن هاجموا حراس الكلية الفنية العسكرية المجنى عليهم سالفى الذكر وانهالوا عليهم طعنًا بالمدى والخناجر فأحدثوا بهم الإصابات الموصوفة بالتقارير الطبية وتمكنوا

بهـذه الوسـيلة من الإكراه من شل مقاومتهم والاستيلاء على ما يحملونه من أسلحة وذخائر للقوات المسلحة .

٥ – تسـببوا عمـدًا فى انقطاع الخطوط التليفونية التى أنشأها الحكومة لمنطقة عمومية وذلك بأن قطعوا الأسلاك الموصلة لها بالكلية الفنية العسكرية وأتلفوا معداتها على النحو المبين بالتحقيقات .

ثانيًا : المتهمون من الخامس والسبعين وحتى التسعين :

اشـتركوا مع المتهمين سالفى الذكر فى اتفاق جنائى حرّض عليه وأدار حركته المتهمون الخمسة الأول الغرض منه ارتكاب جناية محاولة قلب نظام الحكم بالقوة والعقاب عليه بالمادة ٨٧ ق ع ، وقد وقعت هذه الجناية وكذلك ما ترتب عليها من جرائم نتيجة لهذا الاتفاق .

ثالثًا : المتهمون من الخامس وحتى العشرين :

بصفتهم خاضعين للأحكام العسكرية طلبة بالكلية الفنية العسكرية اتفقوا فيما بينهم على ارتكـاب أفعال ترمى إلى الخروج عن طاعة السيد رئيس الجمهورية وقلب وتغيير نظم الدولة الاقتصـادية والاجتماعـية ومناهضة السياسة العامة للدولة وترويج ذلك فى أوساط القوات المسـلحة ، وذلـك بأن اتفقوا فيما بينهم على ارتكاب جناية محاولة قلب نظام الحكم القائم بالقوة .

رابعًا : المتهمان الحادى والتسعون والثانى والتسعون :

بصـفتهما خاضـعين للأحكام العسكرية نقيب بالقوات المسلحة علمًا بوجود مشروع ارتكـاب أفعال ترمى إلى تغيير نظم الدولة الاقتصادية والاجتماعية ومناهضة السياسة العامة للدولة والترويج لذلك فى أوساط القوات المسلحة وقصرًا فى إبلاغ السلطات المختصة بذلك .

(جـ) الحكم :

وقـد صـدر الحكـم بـالإعدام شنقًا بإجماع الآراء على كل من المتهم الأول والثانى والخـامس ، ولكن خفف الحكم من رئيس الجمهورية بالنسبة للمتهم الثانى ليكون بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وبالأشـــغال الشـــاقة المؤبدة على كل من المتهمين الثالث عشر والرابع عشر والحادى والعشرين والثانى والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين والتاسع والعشرين .

وبالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة على كل من المتهمين السادس والثالث والعشرين والسادس والعشرين والسابع والعشرين والثلاثين والسابع والثلاثين والتاسع والثلاثين .

وبالأشغال الشاقة عشر سنوات على كل من المتهمين السابع والتاسع والعاشر والخامس عشر والسادس عشر والثامن والعشرين والحادى والثلاثين والثالث والثلاثين وبالسجن خمس سـنوات عـلى كل من المتهمين الثانى عشر والسابع عشر والتاسع عشر والعشرين والرابع والثلاثين والأربعين .

اغتيال السادات

فى صبيحة يوم العرض العسكرى المقام بمدينة نصر بمناسبة انتصار القـــوات المسلحة يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفى ذات اليوم ٦ أكتوبر من عام ١٩٨١ وفى الساعة ١٢,٣٥ وأثناء مـــرور بعض عربات المدفعية أمام المنصة الرئيسية فى نفس لحظة إجراء عرض القوات الجوية ، والكـــل يرنو ببصره إلى السماء متتبعًا الدخان الأخضر والأزرق والأصفر المنبعث من خلف الطائــرات إذ بعـــربة المدفعية تنحرف ناحية المنصة التى يجلس عليها الرئيس / السادات ومعه كبار القادة وكبار رجال الدولة والأحزاب ، وعلى بعد ثلاثين خطوة يغادر الملازم أول / خالد أحمـــد شـــوقى الإســـلامبولى من قوة اللواء ٣٣٣ مدفعية مكانه بجوار السائق ، ويتجه بضع خطـــوات تجاه المنصة ، ويلقى بقنبلتين يدويتين على من بها ، اصطدمت إحداهما بسور المنصة وانفجـــرت ، ووقعـــت الأخـــرى على الصف الأول ولم تنفجر ، ويعود سريعًا ليأخذ مدفعه الرشاش من العربة قاصدًا الرئيس وهو يقف فى منتصف المنصة ومعه الملازم أول احتياط عطا طـــايل حميده من مركز تدريب مهنى المهندسين والملازم أول متقاعد / عبد الحميد عبد السلام اللـــذان قفزا من ظهر العربة حاملين معهما بنادقهما الآلية متجهين جميعًا صوب المنصة حيث ألقـــى كـــل مـــن عطا وعبد الحميد قنبلتين انفجرتا قبل المنصة وتناثرت شظاياهما ، وفى هذه الـــلحظة وقف السادات منتصب القامة متعجبًا لما يحدث قائلاً (مش معقول — مش معقول) فى نفـــس الوقت الذى كان بطل الرماية الرقيب حسين عباس على واقفًا على العربة يصوب بندقيـــته الآلية إلى الهدف الواضح ، السادات ، أصابه برصاصة فى الجانب الأيمن من رقبته فى الجـــزء الفاصـــل بين الترقوة وعظمة الرقبة ، وبرصاصة أخرى فى أعلى الساعد الأيمن وكان الثلاثة الآخرون قد وصلوا إلى المنصة حيث أطلقوا وابلاً من الرصاص من يمين ومنتصف المنصة قاصدين اتجاه الرئيس السادات رافعين دبشـــك البـــنادق الآلية إلى أعلى مع إمالة الماســـورة

إلى داخل المنصة صائحين فى نائب الرئيس ووزير الدفاع بالابتعاد ، وأفرغا ما تبقى من ذخيرة السلاح فى صدره وساقه من الجهة اليسرى ، وكان لايزال يترنح من الطلقة الأولى فسقط مضرجًا فى دمائه التى اندفعت من فمه بكثرة لفظ على أثرها أنفاسه ، وقد أصيب الأفراد الثلاثة أثناء محاولتهم الهرب وتم القبض عليهم فورًا ، أما الرابع حسين عباس الذى كان قد أطلق رصاصاته الأولى من العربة فقد نزل عقب نزول الفردين الثانى والثالث وتوجه إلى يمين المنصة حيث أفرغ رصاص بندقيته الآلية تجاه المنصة وخلفها ثم فر هاربًا ، واختفى فى الزحام بعد أن ألقى بندقيته إلى أن قبض عليه يوم ١٩٨١/١٠/٩ . ولم يستغرق الحادث بأكمله أكثر من أربعين ثانية ، وقد أعقب ذلك إطلاق النيران من أكثر من جهة من أفراد الحراسة الخاصة مما أدى إلى إصابة الكثير من الأفراد وقد نتج عن الحادث وفاة الرئيس أنور السادات واللواء حسن علام والمصور محمد رشوان ، والمهندس سمير حلمى ، والأنبا صموئيل والصينى سونج ليو ، والمقدم خلف نصر صالح ، والمدنى سعيد عبد الرؤوف بكر ، كما أصيب ٢٨ شخصًا بجراح مختلفة .

وتتلخص وقائع الحادث فى أن خالد أحمد شوقى الإسلامبولى قد وقع عليه الاختيار يوم ١٩٨١/٩/٢٣ للاشتراك فى طابور العرض العسكرى ليحل محل زميل له شاءت الظروف أن تمنعه من المشاركة فى هذا الطابور ، ولقد توجه خالد بالفعل فى اليوم التالى إلى أرض العرض وحضر (البروفة) وفى يوم الجمعة الموافق ١٩٨١/٩/٢٥ قصد خالد منزل محمد عبد السلام فرج عطية ببولاق الدكرور لزيارته ، ففوجئ بإصابته بكسر فى ساقه من جراء حادث سيارة ، وفى تلك الزيارة ، تجاذبا أطراف الحديث حول الأوضاع السائدة فى البلاد على وجه العموم ، كما تطرق بهما الحديث إلى ما يتعرض له المسلمون من ظلم يحيق بهم وبعلماء الدين ، وفرغا من حديثهما إلى وجوب تمكين شرع الله ، ووجد خالد فى ذلك الحديث فرصة مواتية له فى الكشف عن مكنون صدره وخبيئة نفسه ، فبادر بإبلاغ محمد عبد السلام بأمر تعيينه فى طابور العرض ، وأعرب له عن رغبته فى تنفيذ فكرته والتخلص من رئيس الجمهورية باغتياله فى منصة العرض ، بيد أنه يحول دون تحقيق ذلك الذى يصبو إليه ، حاجته إلى عون

ثلاثة أو أربعة من الأخوة فى الله لمساعدته فى تنفيذها ، وتدبير القنابل والذخيرة اللازمة لضمان نجاحها فرحب محمد عبد السلام بالفكرة وحبذها ووافقه عليها .

وتنفيذًا لما تم الاتفاق عليه حضر المدعو صفوت إبراهيم حامد الأشوح بسيارته إلى منزل محمد عبد السلام ، حيث أقله وزوجته وعبد الناصر عبد العليم أحمد درة إلى منزل خالد الذى يقطن فيه مع شقيقته .. ولما علم زوج شقيقته بحضورهم اعترض على استضافة محمد عبد السلام ارتيابًا فيه خشية أن يكون من بين المطلوب القبض عليهم بيد أن خالد هدأ من روعة ، وبدد من وساوسه وخوفه ، وطمأنه بأنه سيدبر لهم أمر مبيتهم فى مكان آخر صبيحة اليوم التالى .

وما إن أشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشرة مساء تقريبًا وقتذاك ، إذ أرسل محمد عبد السلام تابعه الذى اصطفاه عبد الناصر عبد العليم أحمد درة لاستدعاء صالح أحمد صالح جاهين فأحضره ، وأسفرت مقابلته مع خالد ومحمد عبد السلام عن مكاشفتهما له بما أنتويا عليه ، واتفقا معه على إناطته تدبير الذخائر والقنابل وباتوا جميعهم ما تبقى من سويعات فى ليلتهم بمسكن شقيقة خالد .

وفى اليوم التالى ، قبل عبد الحميد عبد السلام عبد العال على ، صديق خالد وفى نفس الوقت متزوج من شقيقة زوج أخت خالد ويقطن فى الدور العلوى بذات المنزل – قبل استضافة محمد عبد السلام وزوجته وعبد الناصر بمنزله ، وانصرف صالح لتدبير الذخيرة والقنابل المطلوبة . وفى يوم ١٩٨١/٩/٢٨ حضر كل من كرم محمد زهدى سليمان وفؤاد محمود أحمد حنفى وشهرته فؤاد الدواليبى وعاصم عبد الماجد محمد ماضى وأسامة إبراهيم حافظ إلى شقة عبد الحميد وتقابلوا مع كل من محمد عبد السلام وخالد أحمد شوقى ، فعرضا عليهم خطة الاغتيال التى نسج خالد خيوطها ، فوافقوا عليها ، وانعقدت إرادهم على تنفيذ الخطة بالتفصيل التى تم طرحها فى هذه الجلسة على أن تقوم مجموعة الصعيد بإمدادهما بالذخيرة لتنفيذ عملية الاغتيال ، وانفضّ مجلسهم على ذلك ، ثم عاودوا الحضور مرة أخرى للاستيثاق من عزمهما على التنفيذ ، فأكد محمد عبد السلام وخالد ما تم توثيق الاتفاق عليه .

كما التقى خالد فى شقة عبد الحميد أيضًا بكل من عطا طايل حميده وحسين عباس محمد الـذى حضر بناء على تكليف من محمد عبد السلام ، وقد عرض خالد على كل منهما خطته فوافقا عليه ، واتفقا معه على تنفيذها ، كما وافق عبد الحميد عبد السلام على انضمامه إليهم فـيما اتفقوا عليه ، ومشاركته إياهم فى تنفيذ ما هم مقدمون على تنفيذه . ومن ناحية أخرى أوفـد محمد عبد السلام مبعوثه صالح جاهين برسالة شفوية إلى عبود الزمر ، فحواها أن خالد أحمـد شوقى سيقدم على محاولة لاغتيال الرئيس الراحل أثناء العرض العسكرى ، ولقد أبلغ صالح جاهين فحوى الرسالة إلى طارق الزمر ، فنقل الرسالة بدوره إلى عبود الزمر الذى أبدى عدم موافقته ، ولما عاد صالح جاهين إلى محمد عبد السلام برد عبود بعدم الموافقة غضب غضبًا شـديدًا ، وعـبّر عـن غضـبه هـذا بقوله إنه لا ينتظر رأيه ، وأن العملية ستتم ، غير أنه عـاود الاتصـال به مرة أخرى قبل حادثة الاغتيال بأربعة أيام تقريبًا موفدًا عبد الله سالم إلى محمـد عـبد السلام حاملاً لـه رسالة أخرى مؤداها موافقته على الاغتيال ، كما بعث معه توجـيهاته فى شأن دخول الأفراد إلى منطقة العرض وتصوراته إزاء ما يمكن أن يحدث فى حالة نجاح العملية .

وتتمة لما تم الاتفاق عليه بين محمد عبد السلام وخالد أحمد شوقى مع صالح جاهين فيما عهـد به إليه من تدبير الذخيرة المطلوبة ، أحضر صالح جاهين يوم ١٩٨١/١٠/٢ فيما يربو على مائة طلقة ٧,٦٢×٣٩مم إلى خالد الذى أخذ إحدى وثمانين طلقة من بينهما أربع طلقات (خارق حارق) ومعلّمه بعلامة حمراء على المقذوف ، وانصرف صالح بعد ذلك بعد أن أخذ معـه بقية الذخيرة التى أحضرها وفى نفس الوقت أعطى خالد الذخيرة التى أخذها من صالح لعبد الحميد ، فقام بدوره وخبأها فوق سطح المنزل .

وفى مسـاء نفس اليوم ، انتقل محمد عبد السلام من شقة عبد الحميد إلى عيادة أسنان بالزيـتون ، وذلـك بسيارة صفوت إبراهيم حامد الأشوح ، ليتخذها مقرًا لـه لاجتماعاته مع أفراد جماعته ، ولمواصلة اتفاقاته المؤثمة لاستكمال مخططه الإرهابى إذ هيأها صفوت لسكناه بعـد أن تنازلت لـه عنها صاحبتها وهى زوجة شقيقه وأنابته عنها فى إدارتها واستغلالها أثناء غيبتها فى إحدى الدول العربية .

وفى غضون مدة إقامة محمد عبد السلام بعيادة صفوت إبراهيم حامد الأشوح من ١٠/٢ إلى ١٠/٤ سنة ٨١ حقق محمد الخالد مأربه بأن زوده بالذخيرة والقنابل اليدوية التى اعتمد عليها فى تنفيذ خطته ، فأوفد له عبد الناصر يوم ١٩٨١/١٠/٣ ومعه تسع عشرة طلقة ذخيرة ٩مم كان عبد الله سالم قد أحضرها من عبود الزمر ، كما أنه فى مساء يوم ١٩٨١/١٠/٣ طلب محمد عبد السلام من طارق إبراهيم محمد الذى عرفه به عبد الحميد عبد السلام قبل حادثة الاغتيال ببضعة أيام أن يسعى لإحضار القنابل اللازمة ، ولم يتوان طارق لحظة فى تنفيذ ما طلب منه ، فاصطحب معه صلاح السيد بيومى على فى عربة ميكروباس انطلقت بهم بقيادة محمد طارق إسماعيل المصرى صوت بلدة الإخصاص بالخطاطبة محل إقامة أسامة السيد محمد قاسم الذى كان على صلة بهما ، وهناك باتوا ليلتهم ، وفى صبيحة اليوم التالى الموافق الأحد ٨١/١٠/٤ توجهوا جميعهم ومعهم أسامة قاسم الذى أحضر قنبلتين يدويتين دفاعيتين ورشاشًا ومسدسًا وبعض طلقات ٩مم وضعها فى حقيبة بالعربة الميكروباس توجها من بلدة الإخصاص إلى بلدة الحاجر ، وأحضروا قنبلتين يدويتين دفاعيتين أخريين ، وعادوا بالقنابل الأربع إلى القاهرة فأخذ طارق القنابل وأعطاها لمحمد عبد السلام الذى سلمها بدوره هو الآخر إلى خالد شوقى فى ذات اليوم .

وتحوطا من محمد عبد السلام ضمانًا لإنجاح خطة الاغتيال ، كان قد اتفق مع المقدم ممدوح محرم حسن أبو جبل على إمداده بإبر ضرب نار ، وخزن بنادق آلية ، وخزنة رشاش قصير ، ومن ثم فقد طلب من محمد طارق إبراهيم محمد أن يتوجه ومعه صالح جاهين إلى بيت المقدم ممدوح بعد أن أعطى لهما عنوانه فاستقلا سيارة صفوت الأشوح وقصداه ، فأعطاهما ثلاث خزن آلى وخزنة رشاش قصير ، وثلاث إبر ضرب نار ، وعادا أدراجهما إلى محمد عبد السلام وكان ذلك بعد مغرب يوم الأحد ١٩٨١/١٠/٤ فوجدوا عنده كلاً من خالد وعبد الحميد وأسامة قاسم الذى كان يشرح لخالد كيفية استخدام القنابل اليدوية وقتذاك .

وبمجرد أن أخذ خالد إبر ضرب النار وخزن البنادق الآلية ، وخزنة الرشاش والقنابل ووضعها فى حقيبته السمسونايت التى كانت معه ، غادر هو وعبد الحميد عيادة صفوت واتفقا فيما بينهما على اللقاء أمام بوابة المريلاند فى الساعة العاشرة من مساء نفس اليوم وافترقا على هذا الأساس . وفى الموعد المحدد ذهب خالد إلى المكان المتفق عليه ومعه حقيبته السمسونايت

وبها الذخيرة والقنابل اليدوية وإبر ضرب النار وخزن البنادق الآلية وخزنة الرشاش فوجد عبد الحميد فى انتظاره داخل سيارته الفيات مرتديًا زى الجنود ، فقاد خالد السيارة وعرجا فى طريقهما إلى أرض العرض على مقهى بميدان الإسماعيلية بمصر الجديدة ، والتقطا عطا طايل وحسين عباس وكانا يرتديان زى الجنود أيضًا ، وتوجهوا جميعًا إلى أرض العرض ، وعلى مقربة من تجمع آليات وأفراد وحدة خالد ، نزل عبد الحميد وعطا وحسين ومعهم خطاب مزوّر مفاده أنهم ملحقون من اللواء ١٨٨ مدفعية وكان الاتفاق أن يدخل هؤلاء الثلاثة ويسألون عن خالد ، كما أن خالد ترك خبرًا مسبقًا فى وحدته بأن ثلاثة من الجنود الملحقين سيصلون فى تلك الليلة وعقب دخول الثلاثة بربع ساعة تقريبًا لحق بهم خالد فوجدهم فى انتظاره يقفون بجوار خيمته ، فطلب منهم خالد مخالطة الجنود بالوحدة ، بعد أن مزّق الخطاب المزوّر الذى كان معهم والذى سبق أن اصطنعه لهم .

وفى صبيحة يوم الاثنين الموافق ١٩٨١/١٠/٥ عيّن خالد الجناة الثلاثة خدمة على السلاح فى ذلك اليوم ، وفور أن تلقف أمر نزع إبر ضرب النار من أحد الضباط كلّف عبد الحميد بتمييز البنادق الآلية الثلاث التى سيستخدمونها فى عملية الاغتيال ، فقام عبد الحميد بتمييزها عن سواها بقطع صغيرة من القماش دسها فى فوهاتها . وفى الوقت ذاته ترك خالد حقيبته السمسونايت تحت سريره بعد أن أخرج منها القنابل الأربع ووضعها داخل حوزته ، وخصص المتهم الرابع حسين عباس حارسًا على خيمته .

ومن ناحية أخرى فقد حضر أسامة قاسم إلى منزل محمد طارق إبراهيم فى صباح يوم ٨١/١٠/٥ وطلب منه أن يعيره سيارته المسيدس لإحضار باقى القنابل من الشرقية ، فأعارها إياها وانطلق أسامة بالسيارة مصطحبًا معه صلاح السيد بيومى والمدعو صلاح عبد الله إلى الشرقية وهناك تقابلوا مع علاء الدين عبد المنعم محمد إبراهيم وأنور عبد العظيم محمد محمد عكاشة وعلى محمد فراج فأحضر أنور عكاشة ثلاث عشرة قنبلة يدوية وسبع قنابل دخان كان يخبئها فى مقابر بلدته الجديدة مركز منيا القمح .

وعاد أسامة يوم ٨١/١٠/٥ بالقنابل إلى القاهرة ومعه صلاح بيومى وكنيته أبو بسيون وصلاح عبد الله ، وعلاء عبد المنعم ، وأنور عبد العظيم وتخلف على فراج عن السفر معهم ، ولكنه علم من أسامة أنه ستحدث (دوشة) يوم العرض العسكرى .

ولقد تم التحفظ على القنابل فى محل ترزى قريبًا من منزل محمد طارق إبراهيم ، وحوالى الساعة الثانية والنصف من صباح الثلاثاء الموافق ٦/١٠/٨١ قام خالد بمساعدة عبد الحميد بملء خزن البنادق الآلية الثلاث بالذخيرة ، واحتفظ كل من عبد الحميد وعطا وحسين ببنادقهم بعد تعميرها دون نزع إبر ضرب النار منها .

وفى السادسة والنصف ، ركبت الأطقم العربات الأربع الخاصة بكتيبة خالد ، كما ركب عبد الحميد وعطا وحسين العربة التى ركبها خالد وكانت فى اليمين من القطار الثانى لعربات اللواء المواجهة للمنصة ، وجلس خالد بجوار السائق بعد أن أخفى خزنة الرشاش بداخل جوربه ووضع الخوزة وبداخلها القنابل الأربع أسفل كرسى العربة .

وفى الثامنة تقريبًا ، بينما كان الجنود ماضين فى أعمال النظافة للمدافع والعربات أعطى خالد لعبد الحميد قنبلتين يدويتين دفاعيتين احتفظ عبد الحميد بواحدة وأعطى الثانية للمتهم عطا طايل كما خبأ خالد القنبلتين الأخريين فى تابلوه العربة ، وفى نفس الوقت قام بتغيير خزنة الرشاش الخاص بالسائق بخزنة أخرى مملوءة بالذخيرة ووضع الخزنة الفارغة تحت الكرسى . ولقد حدث كل ذلك فى غيبة السائق الذى أرسله خالد لشراء (سندويتشين) كما قام خالد بإعادة ترتيب جلوس أفراد طاقم عربته ، فأجلس عبد الحميد خلفه مباشرة فى صندوق العربة وظهره للمنصة كذلك ، بينما أجلس عطا طايل فى مواجهة عبد الحميد ووجهه للمنصة .

وكانت الخطة التى وضعها خالد لتنفيذ عملية الاغتيال هى أن يجذب فرملة اليد عند اقتراب العربة من المنصة ، ولكن حدث اختلال فى المسافات بين العربات ، فهدأت العربة من سيرها وهنا تمكن خالد من إكراه السائق على التوقف أمام المنصة الرئيسية بتهديده بإطلاق النار عليه إن لم يمتثل لأمره فأوقف السائق العربة ، وأسرع خالد بالنزول منها . حيث تم ارتكاب الحادث بالسرد السابق بيانه .

المحـــاكمة

(أ) المتهمون :

١ - خالد أحمد شوقى الإسلامبولى
٢ - عبد الحميد عبد السلام عبد العال على
٣ - عطا طايل حميده رحيل
٤ - حسين عباس محمد
٥ - محمد عبد السلام فرج عطية
٦ - كرم محمد زهدى سليمان
٧ - فؤاد محمود أحمد أحمد حنفى (وشهرته فؤاد الدواليبى)
٨ - عصام عبد الماجد محمد ماضى
٩ - أسامة إبراهيم حافظ
١٠ - الدكتورعمر أحمد على عبد الرحمن
١١ - عبود عبد اللطيف حسن الزمر
١٢ - صالح احمد صالح جاهين
١٣ - عبد الناصر عبد العليم أحمد درة
١٤ - طارق عبد الموجود إبراهيم الزمر
١٥ - محمد طارق إبراهيم محمد
١٦ - أسامة السيد محم قاسم
١٧ - صلاح السيد بيومى على
١٨ - علاء الدين عبد المنعم محمد إبراهيم
١٩ - أنور عبد العظيم محمد محمد عكاشة
٢٠ - محمد طارق إسماعيل المصرى
٢١ - على محمد فراج على
٢٢ - عبد الله محمد محمد سالم

٢٣ - صفوت إبراهيم حامد الأشوح

٢٤ - السيد على محمد إسماعيل السلامونى

(ب) الاتهام :

أولاً : المتهمون من الأول إلى الرابع :

قـتلوا عمدًا مع سبق الإصرار والترصد رئيس جمهورية مصر العربية الراحل محمد أنور السـادات بـأن بيتوا النية وعقدوا العزم على قتله غدرًا وغيلة أثناء وجوده بالمنصة الرئيسية فى العرض العسكرى يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ لتكريم القوات المصرية الباسلة فى ذكرى انتصارها فى حـرب رمضـان المجـيدة ، إذ اسـتغل المتهم الأول تعيينه مسئولاً عن العناصر المشاركة فى العـرض من الوحدة العسكرية التى يخدم بها فتمكن بطريق التحايل والتزوير من استبدال المـتهمين الـثانى والثالث والرابع بثلاثة من جنود الطاقم الأصلى للعربات قاطرة المدفع عيار ١٣٠مـم ، كما تمكن بإساءة استغلال وظيفته أيضًا من إدخال الذخائر خاصة بالبنادق الآلية تسليح الطاقم وكذا الرشاش القصير تسليح السائق إلى أرض العرض العسكرى ومن الاحتفاظ بإبر ضرب النار خاصة الأسلحة المذكورة ، وذلك على الرغم من التعليمات القاضية بسحب تلك الإبر وعدم تواجد تلك الذخائر أثناء العرض العسكرى .

كما تمكّن من إدخال أربع قنابل يدوية شديدة الخطورة تحتوى كل منها على عدد كبير مـن الشـظايا إلى أرض العـرض احتفظ باثنين منها وسلم الأخريين لكل من المتهمين الثانى والثالث، وأثناء سير العربة قاطرة المدفع التى يركبها وكان جالسًا بالكابينة بجوار السائق بينما كـان الجناة الثلاثة الآخرون يجلسون وسط سائر الطاقم أعلى العربة تمكن من إكراه السائق عـلى الـتوقف أمام المنصة الرئيسية مباشرة وأسرع إلى النزول ملقيًا قنبلة يدوية كما أسرع المتهمان الثانى والثالث بإلقاء قنبلتين أخريين فى اتجاه المنصة فانفجرتا قريبًا منها ، ثم قام المتهمان الثالـث والـرابع بـإطلاق دفعة نيران من بندقيتهما الآليتين ، فأحدث ذلك مفاجأة شديدة للجالسـين بالمنصـة وللقائمين على حراسة الرئيس مما أدى إلى اضطرارهم لخفض رءوسهم وفى ثـوان معـدودات كان المتهم الأول قد اختطف الرشاش القصير من كابينة السائق وقفز الجناة الثلاثة الآخرون فبلغوا جميعًا المنصة الرئيسية حيث كانت لا تبعد عن موقع وقوف العربة

بأكثر من خمسة وعشرين مترًا فقط ، وأمكنهم تصويب أسلحتهم من الاتصال القريب ، سواء بالمواجهة أو من الجنبين صعودًا على السلمين الأيمن والأيسر للمنصة ، وأفرغوا ذخائرهم كلها مـــع التركـــيز عـــلى الموجودين بالصفوف الأولى وخاصة الرئيس الراحل مما أدى إلى إصابته بالإصابات الموضحة بالتقرير الطبى الشرعى والتى أدت إلى وفاته .

وقـــد اقترنت الجناية المذكورة فى نفس المكان والزمان بجنايات قتل عمد وشروع فى قتل عمـــد مـــع سبق الإصرار والترصد لآخرين كانوا بالمنصة الرئيسية وحولها حيث كان الجناة قـــد بيـــتوا النـــية وعقدوا العزم على قتل كل من يستطيعون قتله ممن يعين الرئيس ويواليه . وأصـــيب كـــل مـــن اللـــواء أ.ح/ حسن علام ، وخلفان ناصر محمد (عمانى) ، ومهندس سمـــير حلمى إبراهيم ، الأنبا صموئيل ، محمد يوسف رشوان (مصور) ، سعيد عبد الرؤوف بكـــر ، شانج لوى (صينى الجنسية) بالإصابات الموضحة بالتقارير الطبية الشرعية التى أدت إلى وفاتهم .

كمـــا أصيب كل من السادة المهندس / سيد أحمد مرعى ، فوزى عبد الحافظ ، محمود حســـين عبد الناصر ، ولواء أ. ح/ محمد نبيه السيد ، لواء متقاعد / عبد المنعم محمد واصل ، وماهـــر محمـــد عـــلى ، كرستوفر برايان (أمريكى الجنسية) ، بارك ماكلوسكى (أمريكى الجنسية) ، وعبد الله خميس فاضل (عمانى الجنسية) لوجوفان (صينى الجنسية) ، وينج بينج (صـــينى الجنســـية) ، شـــين فان (صينى الجنسية) ، جوفى ودز (اســـترالى الجنســـية) ، عميد / وجدى محمـــد مسعد محمد ، عميد / معاوية عثمان محمد عثمان ، عميد شرطة مدنية / أحمد محمد سرحان ، عقيد / نزيه محمد على ، رائد / عبد السلام متولى السبع ، رائد / عباس مصـــطفى خليل بركات ، نقيب / محمد إبراهيم محمد سليم ، جعفر على محمد محمود صالح ، برعى محمد عوضين ، م أول / محمد عبد اللطيف عبد العزيز زهران ، رقيب أول / محمد على عـــلى عيد ، عريف / محمد أحمد بدوى شاهين ، بالإصابات الموضحة بالتقارير الطبية وخاب أثـــر الجريمة لأسباب لا يد للجناة فيها إذ أسعفوا بالعلاج وقدر لهم المولى سبحانه البقاء على قيد الحياة .

ثانيًا : المتهم الخامس / محمد عبد السلام فرج عطية :

اشترك بطريق الاتفاق والتحريض والمساعدة مع المتهمين من الأول إلى الرابع فى الجنايات السالف بيانها فى أولاً بعاليه بأن حرّضهم على استباحة الدماء الزكية بتأولات خاطئة للأحكام الشرعية الإسلامية أثبتها فى كتيب وضعه وطبعه أسماه (الفريضة الغائبة) سقاهم سمه وأشرب قلوبهم زيفه فأطاعوه وتلاقت إرادقم الآثمة على تصميم قاطع على اغتيال الرئيس الراحل ومن يحيط به من رجالات الدولة فى المنصة الرئيسية أثناء العرض العسكرى . كما أعانهم على جناياتهم الغادرة بتدبير القنابل اليدوية والذخائر ، فوقعت تلك الجنايات بناء على تحريضه واتفاقه ومساعدته على النحو الموضح تفصيلاً بمدونات التحقيق .

ثالثًا : المتهمون من السادس إلى التاسع :

اشتركوا مع المتهمين من الأول إلى الرابع فى ارتكاب الجنايات المبينة فى أولاً بعاليه بطريق الاتفاق حال كونهم من قادة المجموعات التى تدين بالفكر المنحرف والذى يدعو إليه المتهم الخامس والذى ينادى بقتل ولى أمر البلاد ومن يواليه ، فاتحدت إرادقم وتلاقت عزائمهم على وضع منهاجهم الدموى موضع التنفيذ باغتيال الرئيس الراحل ومن حوله أثناء العرض العسكرى ، فحضروا من بلادهم فى صعيد مصر ، وتقابلوا مع المتهمين الأول والخامس حيث عرض عليهم الأول ، خطته الإجرامية فوافقوا عليها ، ثم عادوا مرة ثانية قبيل يوم العرض العسكرى فتأكدوا من مضى العزم على تنفيذ ذلك العدوان الغادر ، وقد وقعت الجنايات السالف بيناها فى أولاً بناء على ذلك الاتفاق .

رابعًا : المتهم العاشر :

اتفق بطريق التحريض مع المتهمين من الأول إلى التاسع فى ارتكاب الجنايات السالف بيانها فى أولاً بأن قبل الزعامة على جماعتهم الضالة مع علمه بمنهاجهم الآثم الذى يستبيح الدماء الذكية والأموال المصونة .

كما أفتى لهم الفتاوى التى شجعتهم على تنفيذ ما عقدوا العزم عليه فقارفوا جناياتهم الشنعاء بناء على ذلك ، حسبما كشف عنه التحقيق تفصيلاً .

خامسًا : المتهمون من الحادى عشر إلى الرابع والعشرين :

اشـــتركوا بطـــريق الاتفـــاق والمساعدة مع المتهمين من الأول إلى الخامس فى ارتكاب الجـــنايات الموضحة فى أولاً بعاليه وذلك بعد اعتناقهم الفكر المنحرف الذى يدعو إليه المتهم الخامس والذى يحض على قتل رئيس البلاد ومن يواليه . وحينما عرضت عليهم خطة مهاجمة المنصة الرئيسية أثناء العرض العسكرى واغتيال الرئيس ومن معه وافقوا جميعًا وبادروا بتسخير أنشـــطتهم وأوقـــاتهم وإمكاناتهم كلها واضعين أنفسهم تحت إمرة المتهم الخامس لتنفيذ ذلك المخطـــط الإجـــرامى الـــذى كان يتولى قيادته ، فأحضروا القنابل والذخائر التى استخدمها الفـــاعلون الجناة وقاموا بنقل التعليمات وتحقيق الاتصالات وأعانوا المتهم الخامس على التنقل بســـيارتهم والاخـــتفاء فى بيوتهم حيث كان متخفيًا عاجزًا عن الحركة الذاتية لكسر بساقه ، وقـــد وقعـــت الجريمة بناءً على ذلك الاتفاق وتلك المساعدة على التحديد الذى كشف عنه التحقيق تفصيلاً .

سادسًا : المتهمون جميعًا عدا المتهم العاشر :

حـــازوا وأحـــرزوا الأســـلحة والذخائـــر بغير ترخيص قانونى ، كما حازوا وأحرزوا واستخدموا المفرقعات بغرض ارتكاب اغتيال سياسى على التحديد الموضح بالتحقيقات .

(جـ) الحكم :

وقد صدر الحكم بالإعدام بإجماع الآراء على كل من المتهم الأول ، والثانى ، والثالث ، والرابع ، والخامس .

وبالأشغال الشاقة المؤبدة على كل من المتهمين الحادى عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر .

وبالأشـــغال الشـــاقة لمدة خمس عشرة سنة على كل من المتهمين السادس ، والثامن ، والتاسع ، والثانى عشر ، والعشرين ، والثانى والعشرين ، والثالث والعشرين .

وبالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات على كل من المتهمين الثانى عشر ، والتاسع عشر ، والحادى والعشرين .

وبالأشـــغال الشاقة لمدة خمس سنوات على المتهم الثالث عشر ، وبراءة كل من المتهمين العاشر ، والرابع والعشرين .

التقرير الطبى للوفاة

جـــاء بالتقرير أن رئيس الجمهورية وصل إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى الساعة ١٣,٢٠ يوم الثلاثاء ١٩٨١/١٠/٦ وأظهر الكشف ما يلى :

١ — كان سيادته فى حالة غيبوبة كاملة — النبض وضغط الدم غير محسوسين وضربات القلـــب غير مسموعة ، حدقتا العينين متسعتان ولا يوجد بهما استجابة للضوء — فحص قاع العين أظهر وجود أوعية دموية خالية من الدماء — لا توجد حركة بالأطراف تلقائية أو بالإثارة مع عدم وجود الانعكاسات الغائرة والسطحية بجميع الأطراف .

٢ — وجــــود فـــتحتى دخـــول فى الجهة اليسرى من مقدم الصدر أسفل حلمة الثدى اليسرى .

٣ — وجود جسم غريب محسوس تحت الجلد فى الرقبة فوق الترقوة اليمنى .

٤ — وجود فتحة دخول أعلى الركبة اليسرى من الأمام وخروج بمؤخر الفخذ الأيسر مع وجود كسر مضاعف فى الثلث الأسفل لعظم الفخذ اليسرى .

٥ — جرح متهتك بالذراع الأيمن من الأمام أسفل المرفق .

٦ — امفزيما جراحية بالصدر والرقبة وحول العين اليسرى .

٧ — دم متدفق من الفم .

وقـــد تم نقـــل سيادته فورًا إلى قسم الرعاية المركزة لجراحة القلب والصدر بالمستشفى وأجريت له الإسعافات العاجلة التالية :

١ — وضـــع أنـــبوبة قصبة هوائية بعد تفريغ البلعوم مما فيه من دماء متجلطة وبدأ عمل تنفس صناعى بواسطة جهاز التنفس الصناعى .

٢ — تدليك خارجى للقلب .

٣ — إعطاء منشطات القلب اللازمة لمثل هذه الحالات بالحقن داخل القلب مباشرة .

٤ — نقـــل دم مـــن نفس فصيلة سيادته بكميات كافية خلال عدد من الفتحات على الأوردة .

٥ — وضعت أنبوبة داخل القفص الصدرى بالجهة اليسرى لتفريغ الهواء والدم المتجمع .

٦ — تم توصيل سيادته على أجهزة مراقبة القلب على تسجيل مستمر للضغط والنبض ورســـم القلـــب ، وكذلـــك توصيله بجهاز رسم المخ الكهربائى لتسجيل نشاط المخ ودرجة حيويتة .

٧ — لم يستجب القلب للتدليك الخارجى ، تم عمل صدمات كهربائية لمحاولة تنشيطه .

٨ — لما لم يستجب القلب لكل هذه الإجراءات تم فتح التجويف الصدرى الأيسر لعمل تدلـــيك داخلى للقلب ووجد القلب متوقفًا وفى حالة ارتخاء كامل وكان جزء الرئة اليسرى متهـــتكًا بمـــا فيه الأوعية الدموية الكبرى مع تهتك كامل بالرئة وتجمع دموى متجلط داخل التجويف الصدرى .

٩ — استمر عمل التدليك الداخلى للقلب مع إعطاء العقاقير المنشطة واستمرار التنفس الصناعى .

١٠ — فى خلال ذلك تم عمل الأشاعات التالية :

(أ) أشعة على الصدر أظهرت وجود شظايا متعددة داخل الجهة اليسرى من التجويف الصدرى ، وكذلك رصاصة أعلى الترقوة اليمنى مع وجود امفزيما جراحية وكسور بالضلوع وتهتك بالرئة اليسرى .

(ب) أشـــعة على الفخذ اليسرى أظهرت وجود كسر مفتت بالثلث الأسفل من عظم الفخذ .

(جـــ) أشعة على الجمجمة وكانت سليمة .

(د) أشعة على الساعد الأيمن وكانت (عظامه) سليمة .

١١ — فى تمـــام الساعة ٢,٤٠ يوم الثلاثاء ١٠/٦ أظهر رسم القلب عدم تسجيل أى نشاط للقلب وأظهر رسم المخ توقف كامل للمخ عن العمل تأكيدًا لحدوث الوفاة .

واعتبر سبب الوفاة صدمة عصبية شديدة مع نزيف داخلى بتجويف الصدر وهتك بالرئة والأوعية الدموية الكبرى بجدار الرئة اليسرى .

تقـرير الأشعة :

١ — الصـدر : أمفـزيما جراحية متقدمة بجدار الصدر وجذور العنق وجود جسمين معدنـيين ربـاعى الشكل حولهما فتات معدنية متعددة متجهة لأعلى والداخل عبر سرة الرئة اليسـرى ومنتشـرة بالنصف الأسفل من أيسر الصدر وظل معدنى مستطيل (لب رصاصة) بأعـلى الـترقوة الـيمنى ويوجد ظل متاخم للحافة اليسرى للقلب وإعتام بالزاوية الحجابية الضلعية اليسرى مع عدم انتظام الحجاب الحاجز تحتها مما يوحى بوجود هتك بالحجاب الحاجز الأيسر .

٢ — الساق : كسر مفتت بالجزء الأسفل من عظم الفخذ اليسرى .

المعاينة :

١ — مجموعـة مـن ثلاثة جروح حديثة حوافيها منقلبة للداخل العلوى منها على حافة الثدى الأيسر أبعاده ١,٥×١سم نافذًا إلى تجويف الصدر الأيسر ومحدثًا فى مساره كسرًا مفتتًا بالضـلع السـابع والثانى فى مستوى الخط الإبطى الأمامى الأيسر أبعاده ٣×١سم . والثالث أسـفل الثانى بحوالى ٢سم أبعاده ٢,٥×١سم . وقد تعذر استخراج أى من فتات المقذوفات التى وضحت بتجويف الصدر الأيسر .

٢ — جرح نارى فى مقدم وحشية أعلى الساعد الأيمن فتحة دخول مقذوف نارى قطر ١سـم . يمتد منه مسار نفقى تحت الجلد وينتهى بجرح فتحة خروج نفس المقذوف على مقدم وحشية الساعد وسار المقذوف سطحى مع سلامة عظمتى الساعد .

٣ — جـرح نارى أسفل الفخذ اليسرى فتحة دخول بقطر ١سم وجرح فتحة خروج نفـس المقـذوف على مقدم أسفل الفخذ قطر ١,٥×١سم وفى مسار المقذوف كسر جسيم مفتت بأسفل عظم الفخذ .

الملابس :

فانلـــة بيضاء . (جيل) بها ثلاثة ثقوب من الناحية اليسرى الخلفى منها بقطر ١,٥سم والثانى فى نفس مستواه تقريباً على بعد ١,٥سم بقطر ٤×١,٥سم والثالث أعلى الثانى بنحو ٥سم بقطر ٣,٥×٢,٥سم ولم يميز حول الثقوب أية أثار لقرب الإطلاق .

بـــنطلون . شـــوهد بالرجل اليسرى إلى خلف حافة الشريط الأحمر بحوالى ٣سم وأعلى الحافـــة السفلى بحوالى ٤٠سم ثقب نارى حديث مستدير مشرزم الحوافى بقطر حوالى ١سم وأمام هذا الشريط بحوالى وأسفل مستوى الفتحة السابقة بحوالى ٣سم مستعرض مشرزم أبعاده ١,٥×١سم .

ويـــنفس الشـــريط قرب منتصف وإلى أعلى الثقبين السابقين بحوالى ٣سم تمزق شريحى سطحى يتجه من الخلف للأمام وأعلى قليلاً غير نافذ بالنسيج شريحته على الناحية السفلى .

الســـترة . بالـــبدن الأمـــامى الأيسر مجموعة من ثلاث ثقوب نارية حديثة اثنان منهما يـــتجاوران ويقعـــان أمـــام خياطة البدن الأمامى بالبدن الخلفى بحوالى ٢,٥سم وأعلى الحافة الســـفلى للسترة بحوالى ٣٠سم الخلفى منهما صغير أبعاده ٢,٥×١,٥ والثانى الأكبر أبعاده ٣,٥×١,٥ســـم والثالـــث يعلوهـــا بحوالى ٨سم أبعاده ٤×١,٤سم يتجه من أسفل لأعلى والداخل وحوافى الثقوب كلها مشرزمة وحديثة التنسيل ومنقلبة بوضوح إلى الداخل ولم يميز أثار قرب إطلاق ، شوهد بين هذه الثقوب وإلى أعلاها ثلاثة ثقوب صغيرة نافذة بجميع طبقات السترة لا يتعدى أطول أبعادها ٠,٥ سم .

وشـــوهد بـــالكم الأيمـــن أعـــلى مســـتوى الحافة السفلى بحوالى ١١ سم وبوحشية وجهـــه الأمـــامى ثقب زاوى لفتحة خروج أبعاده ١×١,٥سم يقع أعلى الحافة السفلى للكم بحوالى ١٣سم .

الحـــزام . شوهد إلى يسار مشـــبك التوكة بحوالى ١٠سم منطقة ثقب حديث أبعـــادها ٠,٥×١سم تحتها ثقب بالسطح الخارجى فى مقابلة جسم صلب صغير مستقر بين طبقتى الحزام ثبـــت أنه فتات معدنى . شوهد بالوجه الخارجى للحزام إلى يسار المشبط بحوالى ١٨سم تمزق شـــريحى حديـــث منقلب لأعلى واليمين يمتد فى مساحة أبعادها ٤,٥×١,٥سم يقابله بالحافة

العلـــيا للشـــريط المذهب ثقب بجزء من الحافة العليا فى موضعين متجاورين ، وهذان الأثران نافذان من جميع طبقات الحزام ويقع فى مقابلهما الثقبان السفليان النافذان من إصابة السترة .

وشاح القضاء . شوهد به تلوث دموى وفى مقابل منطقة إصابات البدن الأمامى الأيسر مـــن الســـترة مجموعة من خمسة ثقوب حديثة التنسيق منتشرة فى مساحة أبعادها ١٠×٦سم الـــثلاثة السفلى نفذت من الوشاح ولم تنفذ من الطبقة الخلفية ويعلو هذه الثقوب الثلاثة ثقب نـــارى بيضاوى حديث التنسيل أبعاده ٣,٥×١,٥سم نافذ من جميع الطبقات إلى الملابس التى تليه ويعلو الثقب الخامس وهو مرورى مستعرض وغير نافذ شامل للحافة الأمامية للثنية الخلفية للوشـــاح أبعاده ١,٥× ٠,٧٥سم ويقابله أثر مرور بالجزء الخلفى من الثنية . وشوهد ثقب صـــغير نـــافذ بقطر ٠,٥سم مقابل منطقة مقدم الكتف الأيمن وثقب صغير غير نافذ به فتات معدنية بعقدة الفيونكة .

رأى المحكمة من الناحية الشرعية للجريمة

تقـــدم الدفاع بالدفاع بإباحة التجريم فى هذه الحالة بمقولة أنه قامت بالبلاد حالة إفساد دفعـــت بالمتهمين لارتكاب الأفعال المنسوبة إليهم بمقتضى حقهم المقرر بالشريعة فى دفع هذا الإفســـاد ، فخرجت أفعالهم بذلك عن دائرة التجريم بانعدام الركن الشرعى للجريمة وذلك تطبيقًا للمادة ٦٠ عقوبات التى تنص على أنه لا تسرى أحكام قانون العقوبات على كل فعل ارتكب بنية سليمة عملاً بحق مقرر بمقتضى الشريعة ، والمادة السابعة من قانون العقوبات التى تـــنص على أنه لا تخل أحكام هذا القانون فى أى حال من الأحوال بالحقوق الشخصية المقررة فى الشـــريعة الغراء وبمقتضى المادة الثانية من الدستور التى تقرر أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصـــدر الرئيسى للتشريع . واستند الدفاع فيما استند إلى ما قرره المتهم الأول خالد شوقى الإسلامبولى من أنه ارتكب ما ارتكبه لعدم تطبيق شريعة الله والصلح مع اليهود والقبض على علماء المسلمين دون مبرر .

ومـــا قرره المتهم الثانى عبد الحميد عبد السلام من أنه ارتكب ما ارتكبه لتقديم شـــرار القـــوم على خيارهم وإشاعة السخرية من الملتحين ومن المحجبات ، وأنه تطبيق لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُم الْكَافِرُونَ ﴾ وهو ذات ما قرره المتهم الثالث عطا طـــايل والمتهم الرابع حسين عباس إعمالاً لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى التى تعطى الحق فى رد الاعتداء على أى حق من حقوق الله وقد يصل هذا الحق إلى حد القتل .

كمـــا أشار الدفاع إلى أنه احتياطيًا يدفع بالغلط فى الإباحة قياسًا على حكم المادة ٦٣ عقوبـــات مما ينتفى معه القصد الجنائى ويحيل الجريمة المقدم عنها المتهمون من قتل عمد إلى قتل خطـــأ استنادًا إلى حسن نية المتهمين وبحثهم وتحريهم قبل إقدامهم على فعلهم بدليل استنادهم إلى كتاب الفريضة الغائبة وعملاً بقاعدة درء الحدود بالشبهات مما يسقط القصاص عنهم .

ولتقييم هذا الدفع يلزم بادئ ذى بدء أن نشير إلى أن الفعل الرئيسى المنسوب للمتهمين هـــو قـــتل الرئـــيس الراحل / محمد أنور السادات وآخرين ممن تواجدوا فى مكان الحادث ، ويذهب الدفاع إلى أن هذا القتل تم بمقتضى حق تقرره الشريعة الإسلامية ويلزم للرد على هذا الـــزعم أن تعود المحكمة إلى قواعد الشرع الإسلامى المقرر بكتاب الله والسنة النبوية المشرفة

ومـا ذهب إليه أئمة الإسلام وفقهاء الشريعة الإسلامية فى تفسيرهم لما ورد بالقرآن والسنة ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ وحديث رسول الله ﷺ الذى رواه الزهرى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع النبى ﷺ قومًا يتمارون فى القرآن (يتجادلون) فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضًا ، ولا يكذب بعضه بعضًا ، فما علمتهم منه فقولوا وما جهلتم منه، فكلوه إلى عالمه).

ففى صدد ما نبحثه من أمر استباحة دم المسلم ومتى يكون وأين يكون نعود إلى قول رسول الله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وما جئت به . فإذا فعلوا ذلك . عصموا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها) رواه البخارى . فسر الرسول ﷺ هذا الحق بثلاث فى قوله (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) قال تعالى فى كتابه الحكيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وفى حديث لرسول الله ﷺ قال (ذاك جبريل أتانى فقال من مات من أمتك لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة . قلت وإن زنا وإن سرق قال وإن زنا وإن سرق) رواه البخارى .

هذه النصوص من القرآن والسنة تهدينا صراحة إلى أنه وإن كانت الأعمال مصدقة للإيمان ومظهرًا عمليًا له . ولكن المسلم إذا ارتكب ذنبًا من الذنوب بأن خالف نصًا فى كتاب الله . أو فى سنة رسول الله ﷺ . لا يخرج بذلك عن الإسلام مادام يعتقد صدق هذا النص ويؤمن بلزوم الامتثال له . وفقط يكون عاصيًا ، إما لمخالفته فى الفعل أو الترك .

ويتساءل الشيخ جاد الحق مفتى الديار المصرية هل يجوز تكفير المسلم بذنب ارتكبه ؟ ومن له الحكم بذلك إن كان له وجه شرعى ؟ واستطرد مجيبًا مستندًا إلى ما ورد فى القرآن والسنة :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُم السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ وفى حديث رسول الله ﷺ (ثلاث من أصل الإيمان : وعـد منها الكف عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب . ولا نخرجه من الإسلام بعمل) .

ومـن هذه النصوص يتضح أنه لا يحل تكفير مسلم بذنب اقترفه سواء كان الذنب ترك واجب مفروض أو فعل محرم منهى عنه .

وتسوق المحكمة فى مجال إسباغ صفة المسلم على من نطق بالشهادتين قصة أسامة بن زيد والتى قتل فيها أسامة بن زيد أحد الكفار بعد أن قال لا إله إلا الله وبرر ذلك لرسول الله ﷺ بأنه ما نطق بالشهادة إلا خوفًا من السيف فقال له رسول الله ﷺ (هلاّ شققت قلبه) .

ونـرجع هـنا إلى رأى لفضـيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى كتاب « أنت تسأل والإسـلام يجيـب » فى رد عـن سـؤال عما إذا كان يجوز لفرد أو جماعة أن يكفروا فردًا آخر أو جماعة أخرى قال : (أى إنسان مهما كان علمه لا يستطيع أن يجترئ على واحد يعلن أن لا إله إلا الله ويقول عنه إنه كافر .. جائز أن يقول إنه لا يلتزم فى أعماله بأحكام الدين .. أقول لهم هل الذى يشيرون إليه بذلك لا يقوم بتنفيذ أحكام الله إنكارًا أم كسلاً نستمهله حتى آخـر يوم فى حياته ولا نكفره .. وإما إن كان منكرًا لهذه الأحكام فيكون كفره ليس لأنه لا يطيع الأحكام .. وإنما لأنه ينكر هذه الأحكام) .

ويقـول فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة (الإيمان بالقلب والإسلام مظهره . فمن خـرج عن الإسلام فلابد من مظاهر قاطعة فى خروجه على الإسلام ، واتفق العلماء على أنه لا يفتى بردة مسلم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً يحتمل الكفر ويحتمل غيره ، بل روى عن الإمام أنـه قـال : إذا قـال كلمة تحتمل الكفر من مائة وجه وتحتمل الإيمان من وجه فإنه لا يحكم بالكفر) .

والذى يباح دمه هو المرتد ويباح دمه للإمام دون غيره .. لأن إطلاق ذلك للناس يؤدى إلى الفسـاد ويؤدى إلى الاتهام الباطل بالكفر مع التنفيذ بغير الحق ويؤدى إلى التناحر والرمى بالفسوق بعد الإيمان ، وذلك ما ذكره الله تعالى فى قوله ﴿بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ .

ونعــود إلى رأى فضــيلة الشيخ جاد الحق مفتى الديار المصرية فى تفسير ما استند إليه المتهمون من آيات القرآن الكريم فى تكفيرهم للرئيس الراحل محمد أنور السادات واستحلال دمه ، فنجده يقول فى تقريره تفسيرًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الْكَافِرُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الْفَاسِقُونَ ﴾ :

وقــد ذهــب الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة كافر مجمعين بهذه الآيات الثلاث الأخيرة وهــذا الــنظر مــنهم غير صحيح . ذلك لأننا إذا رجعنا إلى قواعد اللغة ودلالات الحروف والأسماء نجد أن كلمة (من) الواردة فى تلك الآيات من أسماء الموصول ، وهذه الأسماء لم توضع فى اللغــة للعــدم ، بل هى للجنس تحتمل العموم وتحتمل الخصوص . وقال أهل العلم باللغة والتفسير وعلى هذا يكون المراد والمعنى (والله أعلم) أن من لم يحكم بشىء مما أنزل الله أصلاً أى مــن ترك أحكام الله نهائيًا وهجر شرعه كله فهم الكافرون وهم الظالمون وهم الفاسقون ، وذلــك بدلــيل مــا سبق من الأحاديث الدالة على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بها عن إيمانه وإسلامه وإنما يكون آثمًا فقط .. وأن المراد فى الآيات بقول الله ﴿ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ هو التوراة بقريــنة ما قبله وهو قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ ﴾ وإذا أخذنا هذا المعنى كانت الآيات موجهة للــيهود الذيــن كان كتابهم التوراة ، فإذا لم يحكموا بها كانوا كافرين أو ضالين أو فاسقين ، والمسلمون غير متعبدين بما اختص به غيرهم من الأمم السابقة .

وبهذا البيان يكون مجرد ترك بعض أوامر الله و مجرد فعل ما حرم الله مع التصديق بصحة هذه الأوامر وضرورة العمل بها يكون هذا إثمًا وفسقًا ولا يكون كفرًا مادام ترك دون جحود .

وعــلى ذلك يكون تكفير الحاكم لتركه بعض أحكام الله وحدوده دون تطبيق لا يستند إلى نــص فى القــرآن أو الســنة .. وإنما نصوصها تطبق عليه إثم هذه المخالفة ولا تخرجه بها من الإسلام ، ولعل فيما قاله رسول الله وأوردناه فيما سبق من قوله (ثلاث من الإيمان ... مــن قال لا إله إلا الله ، لا نكفره بذنب ، ولا نخرجه من الإسلام بعمل) لعل هذا الرد القاطع على دعوى تكفير المسلم لم يجحد شيئًا من أصول الإسلام أو شريعته .

وفى بــاب الصــبر على جور الأئمة وترك قتالهم والكف عن إقامة السيف ساق الإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار ، الجزء السابع ص ١٨١ وما بعدها ساق الأحاديث الشريفة :

عــن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات ميتة جاهلية) .

وعــن بــن مــالك الأشعى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (خيار أئمتكم الذين تحــبونهم ويحــبونكم وتصــلون علــيهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم)، قال : قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم (أى نقاتــلهم) عند ذلك قال (لا .. ما أقاموا الصلاة إلا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية ولا ينزعن يدًا من طاعة) .

وعــن عرنجة الأشجعى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (من أتاكم وأمركم جميعًا على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) .

وجــاء بذات المرجع صفحة ١٨٥ (وقد استدل القائلون بوجوب الخروج عن الحكام ومنابذتهم السيف ومكافحتهم بالقتال بنصوص من الكتاب والسنة فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ولاشك ولا ريب أن الأحاديث السالف ذكرها أخص من تلك العموميات مطلقًا ، وهى متوافرة المعنى كما يعرف ذلك من له أية معرفة بعلم السنة ، فإذا ما طبقنا قواعد الشــرع السابق تفصيلها والتى استندنا فيها إلى كتاب الله وسنة رسوله وآراء أهل الذكر من فقهاء المسلمين على ما نسبه المتهمون للرئيس الراحل محمد أنور السادات تكفيرًا واستحلالاً لدمــه نجــده رحمه الله لم يجحد ما أنزله الله فى كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ ، ولم ينكر ضرورة الحكم بما أنزل الله بدليل نص المادة الثانية من الدستور فى عهده بناء على استفتاء شعبى تم عام ١٩٨٠ أصبحت فيه الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ، وانعقدت اللجان ومازالــت تعمل لتقنين الشريعة الإسلامية وإحلالها محل القانون الوضعى على مستوى مجلس الشــعب والأزهر الشريف ، وأن ما نسبه المتهمون للمجنى عليه من إتيانه أمور مخالفة للدين الإســلامى هى أمور إن صحت فهى تدخل فى باب الذنوب والمعاصى التى لا تخرجه عن ربقة الإسلام .

ونستشهد هنا بمن اتخذه المتهمون مفتيًا لهم فى شئون الدين والشرع الإسلامى وهو المتهم العاشـــر الشيخ عمر عبد الرحمن فقد جاء بأقوال المتهم الخامس محمد عبد السلام فرج عطية بمحضـــر تحقـــيق النـــيابة العسكرية ص ٢٤٤ أنه وكرم فؤاد الدواليبى استفتوا الشيخ عمر بخصوص الرئيس الراحل السادات وحل دمه فأفتى بعدم حل دمه ، وأن كفره كفر دون كفر ، وليس كفرًا بواحًا يخرجه عن ملة الإسلام كالفسق ، وأنه ارتكب معصية أو كبيرة لا تخرجه من ملة الإسلام .

وبهذا يكون ما دفع به الدفاع من إباحة ما ارتكبه المتهمون من جريمة قتل الرئيس السابق أنور السادات مستندين إلى حق مقرر بمقتضى الشريعة وفق المادة ٦٠ عقوبات دفع لا أساس له من واقع أو قانون مما تنتهى معه المحكمة إلى رفض هذا الدفع .

أما الدفع الاحتياطى بالغلط فى الإباحة استنادًا إلى حسن نية المتهمين فلم يتضح أى حسن نية من جانب المتهمين بدليل استفتائهم للمتهم العاشر ورفضهم لفتواه بعدم حل دم المجنى عليه على نحو ما ورد بأقوال المتهم محمد عبد السلام بتحقيق النيابة العسكرية ، كما فات الدفاع أن المـــتهمين لم يقتصروا على قتل الرئيس السابق محمد أنور السادات وحده بل قتلوا آخرين معه تصـــادف وجودهم فى موقع الحادث رغم توقعهم إمكان تعدى آثار الاعتداء إلى غير الرئيس الســـادات عـــلى حد ما ورد بأقوالهم مما تنتهى معه المحكمة إلى رفض الدفع بالغلط فى الإباحة المقدم من الدفاع .

الفصل السادس

قضايا وحوادث هامة .. للمتطرفين

(١) محاولة اغتيال الرئيس / حسنى مبارك

فى الخامسة من صباح يوم الاثنين الموافق ١٩٩٥/٦/٢٦م غادر الرئيس حسنى مبارك القاهرة متوجهًا إلى أديس أبابا عاصمة دولة أثيوبيا لحضور مؤتمر القمة للدول الأفريقية وفى حوالى الساعة الثامنة وصل الرئيس إلى مطار أديس أبابا ، حيث استقبله فى المطار رئيس الجمهورية وكبار المسئولين وكان رجال الأمن المصريون قد أبدوا تخوفهم من إجراءات الأمن فى أثيوبيا فأرسلوا العربة المرسيدس المدرعة والخاصة بالرئيس إلى المطار قبل وصوله وتحققت شكوك رجال الأمن المصريين فى صلابة احتياطات الأمن للرؤساء الأفريقيين لضعف إمكانيات تحقيق الأمن المطلوب للرؤساء الأفريقيين خلال تواجدهم لحضور مؤتمر القمة .

لذلك فقد صمم رجال حرس الرئيس على الاحتفاظ بأسلحتهم رغم محاولة رجال الأمن فى أثيوبيا القيام بتجريدهم من بعض الأسلحة وعلى ذلك فقد غادر ركب الرئيس المطار يسبقه عربة وزير الخارجية وتتبعه عربة الحراسة وعلى الجانبين فردا حراسة من راكبى الدراجات البخارية – وعلى بعد حوالى ٦٠٠ متر من المطار فوجئ أفراد الموكب بعد مرور عربة وزير الخارجية بسيارة تعترض الطريق وتقف أمام سيارة الرئيس ويغادرها شخصان أحدهما ينبطح أرضًا موجهًا مدفعه الرشاش إلى سيارة الرئيس بينما يتجه الآخر نحو ذات السيارة حاملاً مدفعه الرشاش وفى الحال يتصدى رجال الحرس التابعين لسيارة الرئيس إلى الشخصين فيردوهما قتيلين ، هذا بينما كانت تنهمر بعض الطلقات الأخرى من الجانبين ومن أعلى سطح أحد المبانى وفى الحال كانت أوامر الرئيس للسائق بالعودة إلى المطار حيث استدارت العربة المقلة للرئيس صاعدة على الرصيف ومخترقة بسرعة هذا الحصار لتعود به إلى المطار حيث فوجئ الرئيس

الأثيوبى بما حدث – وبعد دقائق أقلعت طائرة الرئيس مبارك عائدة به إلى القاهرة حيث وصل سيادته إلى مطار القاهرة فى حوالى الحادية عشرة صباحًا ونزل من الطائرة سليمًا معافى تحت سمع وبصر حشود الصحفيين المصريين والأجانب الذين حضروا العودة وتأكدوا من سلامته .

وقد اتضح من التحقيقات والتحريات الأولية والتى أذيعت فى كل من مصر وأثيوبيا الآتى :

١ – أن هذه المحاولة قد خطط لها من شهر مارس سنة ١٩٩٥م لاغتيال الرئيس مبارك من جهة إرهابية تزعم أنها إسلامية .

٢ – أن هذا التخطيط قد تم تدبيره بواسطة الدكتور حسن الترابى زعيم الجبهة الإسلامية فى السودان .

٣ – أن رأس الجماعة يدعى حسين أحمد على شميت وهو سودانى الجنسية وله نشاط إرهابى معروف بالسودان وعلى علاقة بجماعات إرهابية فى القاهرة ويساعده صفوت حسن عبد الغنى ، وعبد الكريم النادى ، والعربى صديق وقد قتل من الإرهابيين فى حينه كل من عبد القدوس القاضى ، ومصطفى عبد العزيز محمد تركى وشريف عبد الرحمن عمر ، وعبد الهادى معوض حمزة ، ومحمد عبد الراضى إيهاب .

٤ – أن جميع الأسلحة التى عثر عليها كانت من أصل صينى وواردة من السودان – وقد تم ضبط الكثير من أسلحة مماثلة فى صعيد مصر ثبت أنها واردة من السودان .

٥ – أن الخطة كانت تقوم على اعتراض موكب الرئيس بعد خروجه من المطار وإمطار الموكب بوابل من الرصاص على أن يندفع الموكب مسرعًا إلى الأمام ، حيث يصطدم بسيارة محملة بالمتفجرات وفى ذات الوقت تصوب إلى سيارته المدرعة طلقات أر بى جى لاختراق سيارته وتفجيرها .

٦ – تكلفت هذه العملية حوالى خمسة ملايين دولار وشارك فيها ١٣ إرهابيًا وقتل منهم خمسة وفر الباقون .

٧ – من المعروف أن قادة الإرهاب الذين يرعاهم السودان هم : محمد ضوقى الإسلامبولى ، مصطفى أحمد حسن حمزة ، رفاعى أحمد طه ، عثمان خالد إبراهيم السمان ، أحمد مصطفى نوارة ، طلعت فؤاد طلال ، أيمن الظواهرى ، وعزت ياسين .

٨ – هذه هى المحاولة الثامنة للاعتداء على الرئيس مبارك كانت الأولى عند اغتيال السادات ثم أربعة محاولات باءت بالفشل والسادسة بواسطة أحد الضباط والسابعة أثناء الاحتفال بليلة القدر .

(٢) محاولة اغتيال

الدكتور/ عاطف صدقى - رئيس وزراء مصر

بتاريخ ١٩٩٣/١١/٢٣م تعرض ركب الدكتور / عاطف صدقى لانفجار من إحدى العربات المنتظرة على جانب طريق عبور سيارته أثناء مغادرته منزله صباحًا بمنطقة كوبرى القبة وقد نتج عن الحادث وفاة طفلة عمرها ١٣ عامًا اسمها / الشيماء محمد حسن وإصابة أكثر من ٢٠ شخصًا وإتلاف عدد كبير من العربات وقد تم القبض على الجناة مرتكبى الحادث وقدموا إلى المحاكم العسكرية ، حيث صدر الحكم عليهم فى ١٩٩٤/٣/١٧م بالآتى :

١ - عادل السيد عبد القدوس (إعدام) .

٢ - ثروت صلاح شحاته (إعدام) .

٣ - ياسر على السمرى (إعدام) .

٤ - صلاح السيد سليمان (إعدام) .

٥ - عصام محمد عبد الرحمن (إعدام) .

٦ - أحمد إسماعيل عثمان (إعدام) .

٧ - نور الدين سليمان محمد (إعدام) .

٨ - أمين إسماعيل المصيلحى (إعدام) .

٩ - طارق عبد النبى الفحل (إعدام) .

١٠ - هامى أحمد عبد الله (١٥ سنة) .

١١ - محمدعلى خليل (١٥ سنة) .

١٢ - هانى عبد الله عبد الرءوف (١٥ سنة) .

١٣ - عبد الرحمن حامد (٥ سنوات) .

١٤ - وحيد سعد فكرى المكاوى (٣ نوات) .

١٥ - عمرو حسين (براءة) .

(٣) محاولة اغتيال

صفوت الشريف ـ وزير الإعلام المصرى

حـــاول المتطرفون اغتيال وزير الإعلام أثناء خروجه من منزله بجهة كوبرى القبة وانتهى التحقيق مع المتهمين فى القضية ١١ لسنة ٩٣ إلى الآتى :

أولاً : قرار الاتهام :

١ – انضـــموا لجماعة أسست على خلاف أحكام القانون وتولى الأول والثانى القيادة فـــيها كمـــا قام الأول بإمدادها بالأسلحة والذخائر والمفرقعات والأموال وكان الغـــرض منها الدعوة إلى تعطيل أحكام الدستور والقوانين بأن دعوا لتغيير نظام الحكـــم وإشـــاعة جـــو مـــن عدم الاستقرار بإحداث اضطرابات أمنية وبالتأثير على الاقتصاد القومى من خلال استهداف السياحة باقتراف بعض الجرائم .. على النحو الوارد تفصيلاً بالأوراق وكان الإرهاب من الوسائل التى تستخدم فى تحقيق وتنفيذ هذه الأغراض وذلك بحيازة واستعمال المفرقعات والأسلحة النارية وذلك على النحو الوارد تفصيلاً بالأوراق .

٢ – المتهم الثانى والثالث قتلا عمدًا رائد الشرطة منصور وشرعا فى قتل كل من العقيد شـــرطة عادل حسين سعد والجندى محمد عبد المنعم عبد الرازق والجندى وليد محمد على والرائد سمير فوزى الجندى محمد محمد متولى والجندى بكار عبد الحكيم صديق والجندى أنور محمد على وهناء إبراهيم محمد .

٣ – الشروع فى قتل وزير الإعلام محمد صفوت محمد يوسف الشريف .

٤ – حازوا وأحرزوا أسلحة ومفرقعات .... إلخ .

٥ – أتلفوا عمدًا أموالاً وممتلكات .... إلخ .

ثانيًا : المتهمون :

١ – مصطفى أحمد حسن حمزة « كنيته أبو حازم » .

٢ – حسن رمضان عبد الله شلقانى « وكنيته عاصم » .

٣ – إبراهيم سيد عبد العال .

٤ – أحمد حسين أحمد الحسينى .

٥ – طارق عبد الرازق حسن « وكنيته علاء » .

٦ – أشرف السيد إبراهيم صالح « وكنيته مصطفى » .

٧ – حسام محمود عبد اللطيف « وكنيته خالد / أبو اليسر » .

٨ – حسن محمد محمد السيد .

٩ – أحمد محمد أحمد السيد .

١٠ – أشرف .

١١ – مصطفى .

١٢ – إدريس .

١٣ – أحمد محمد صادق خميس .

١٤ – على مرزوق أحمد عبد العال .

وقد صدرت على المتهمين أحكام مختلفة بالإعدام والمؤبد والسجن .

(٤) حوادث اغتيال

رجال الشرطة والصحافة

وتكررت حوادث الاعتداء من المتطرفين على أفراد الشعب وأفراد الشرطة والصحفيين كمـــا تعـــددت اعتداءاتهم على المرافق العامة والبنوك وكان المجنى عليهم فيها هم الأبرياء من المواطنين .

وقـــد حدث الاعتداء بمحاولة اغتيال الصحفى / مكرم محمد أحمد . واغتيال الكاتب / فرج فوده . ومحاولة اغتيال الأديب / نجيب محفوظ .

كما حدثت محاولات لاغتيال معظم من تولوا وزارة الداخلية وكانت على الوجه التالى :

١ – محاولة اغتيال اللواء / النبوى إسماعيل سنة ١٩٨٦م .

٢ – محاولة اغتيال اللواء / حسن أبو باشا ١٩٨٦م .

٣ – محاولة اغتيال اللواء / زكى بدر سنة ١٩٩٠م .

٤ – محاولة اغتيال اللواء / عبد الحليم موسى سنة ١٩٩٢م .

٥ – محاولة اغتيال اللواء / حسن الألفى سنة ١٩٩٣م .

وقد تحاكم المتهمون فى هذه القضايا وصدرت الأحكام عليهم بالإعدام والأشغال الشاقة والسجن والبراءة .

كما استهدف المتطرفون بعض كبار رجال الشرطة وتمكنوا من اغتيالهم ومنهم :

١ – اللواء / محمد عبد اللطيف مرسى الشيمى .

٢ – اللواء / عبد الحميد محمد أحمد غبارة .

٣ – اللواء / جمال فايق .

٤ – العميد / محمود صالح على الديب .

٥ – العميد / محمد قاسم أحمد طيعمة .

٦ – العميد / ممدوح محمد عبده عثمان .

٧ – العقيد / محمد الأصيل .

٨ – العقيد / نبيب خليل مشرقى .

٩ – العقيد / عصام الزمزمى .

١٠ – المقدم / أحمد كمال على شعلان .

١١ – المقدم / مهران عبد الرحيم سيد مهران .

١٢ – المقدم / محمد عبد العزيز .

١٣ – المقدم / أبو بكر عزمى عبد القادر أبو سالم .

١٤ – المقدم / مصطفى محمود خليل التونى .

١٥ – المقدم / مجدى فايق .

١٦ – الرائد / محمد حسن عبد الشافى البرماوى .

١٧ – الرائد / سمير منصور رياض دميان .

١٨ – الرائد / هيثم محمد إبراهيم مصطفى .

١٩ – النقيب / عبد الرسول عبد السلام إبراهيم .

٢٠ – النقيب / علاء الدين عبد العزيز أحمد .

٢١ – النقيب / محمد السيد محمد أبو ندا .

٢٢ – النقيب / أحمد يعقوب محمد نبيه البلتاجى .

٢٣ – النقيب / عيسى كرم عيسى سعيد .

٢٤ – ملازم أول / يحيى احمد عبد الملك حسنين .

٢٥ – ملازم أول / أشرف ماهر محمد مرسى .

٢٦ – ملازم أول / نبيل إبراهيم أحمد القيعى .

٢٧ – ملازم أول / أمام خطاب أمام خطاب .

٢٨ – ملازم أول / رضا والى .

٢٩ – ملازم / باسم محمد حسين الكاتب .

(٥) قضية ضرب السياحة

(القضية ٦ لسنة ١٩٩٣)

أولاً : قرار الاتهام :

١ – انضموا لجماعة أسست على خلاف أحكام القانون وتولى القيادة بها المتهمون الأول والثانى والتاسع عشر والرابع والعشرين والثامن والثلاثين والرابع والأربعين وكان الغـــرض منها الدعوة إلى تعطيل أحكام الدستور والقوانين والاعتداء على الحرية الشخصـــية للمواطنين والإضرار بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى بأن دعوا لتغـــيير نظـــام الحكـــم بإشاعة جو من عدم الاستقرار بأحداث اضطرابات أمنية وبالتأثير على الاقتصاد القومى من خلال استداف السياحة باقتراب بعض الجرائم عـــلى الـــنحو الوارد تفصيلاً بقرار وتنفيذ هذه الأغراض وذلك بحيازة واستعمال المفرقعات والأسلحة النارية والبيضاء على النحو الوارد تفصيلاً بالأوراق .

٢ – أتلفوا عمدًا أموالاً منقولة .... إلخ .

٣ – شرعوا فى قتل ركاب أتوبيس سياحى .... إلخ .

٤ – شرعوا فى قتل ركاب باخرة سياحية .... إلخ .

٥ – حازوا وأحرزوا أسلحة ومفرقعات .... إلخ .

ثانيًا : المتهمون :

١ – رضوان التونى إبراهيم محمد .

٢ – مصطفى السيد حسانين عبد العال .

٣ – أحمد كامل محمد أحمد يوسف .

٤ – فرحات عبد الرازق محمد .

٥ – أحمد عبد النبى عبده حجى .

٦ – حسين سيد على سيد .

٧ – بسطاوى عبد الجيد أبو المجد .

٨ – سعد أمين أبو المجد محمد .

٩ – أشرف سعيد عبد ربه .

١٠ – دراوى محمد إبريم عبد المطلب .

١١ – أحمد عبد الرحيم رضوان .

١٢ – عبد الهادى الصغير عبد العظيم طايع .

١٣ – أحمد محمد سيف حجاج .

١٤ – أحمد إسماعيل أحمد الشيخ .

١٥ – صلاح رمضان سعيد محسن .

١٦ – محمد عز الدين طه محمد .

١٧ – حمدان قاسم العبد قاسم .

١٨ – صلاح سعيد عبد ربه .

١٩ – عبد الحميد الزمقان على .

٢٠ – هاشم على محمد على خليفة .

٢١ – منصور الألفى حمد مرزوق .

٢٢ – ياسر محمد منصور الصادق .

٢٣ – محمود كامل محمود حسين .

٢٤ – بدرى مخلوف حسين عبد الكريم .

٢٥ – أسامة فوزى سيد حسين .

٢٦ – أبو الفتيان محمد محمد عمر .

٢٧ – ناصر سيد محمود سالم .

٢٨ – عبد السلام قناوى عبد العال .

٢٩ – نصر الدين السيد عبد العزيز طه .

٣٠ – محمد عبد الكريم محمد .

٣١ – عبد البر عبد العزيز طه .

٣٢ – جابر قناوى عبد العال .

٣٣ – ناجح عبد الحميد حسن .

٣٤ – عبد العاطى عباس جربو .

٣٥ – صابر حمزة أحمد .

٣٦ – جمال محمود أحمد حسن .

٣٧ – عادل عبد الإمام أحمد شحاته .

٣٨ – على راضى محمد مسعود .

٣٩ – حمادة إسماعيل بدوى .

٤٠ – سمير محمد الخضرى مهدى .

٤١ – مصطفى عبد السلام أمين .

٤٢ – محمود محمد مدنى .

٤٣ – محمد أبو الحجاج أبو الفضل .

٤٤ – هشام عبد الظاهر عبد الرحمن .

٤٥ – سعد حسن هارون .

٤٦ – حسن مكاوى حسين مكاوى .

٤٧ – فوزى مصطفى على .

٤٨ – أحمد مصطفى محمد المغربى .

٤٩ – أشرف عبد الحميد عز الدين .

(٦) قضية العائدون من السودان

(القضية ١٢ سنة ١٩٩٥)

قــدم ٢٤ متهمًا إلى القضاء العسكرى بتهمة محاولة قلب نظام الحكم فى جمهورية مصر العربــية وتشــكيل جماعــات إرهابية وحيازة أسلحة ومتفجرات والتدريب على استخدامها بالسودان وقد حكمت المحكمة العسكرية العليا فى ١٩٩٦/١/١٣م على المتهمين بالآتى .

أحمد عبد العظيم فواز ، وحجاج جمعة سليم ، وحسنى السيد حسين البحيرى ، وزكريا محمــد على بشير ، وصلاح سعد محمد عوض ، ومصطفى عبد الحميد مصطفى (بالإعدام) وعلى كل من أبو الخير إبراهيم محمد ، وعلى قاسم سيف سالم ، وربيع عبد الغنى خليفة ومحمد على الشرقاوى (بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة) .

وعــلى كل من مصطفى أبو المجد محمد عيد ، وحمدى أحمد الأمين عبد الحكيم ، وخالد عبد القادر عبد الواحد يوسف (بالأشغال الشاقة لمدة ١٠ سنوات) .

وعــلى كل من صابر عبد العزيز مختار السيد ، وعمرو عبد العال أحمد سيد ، وممدوح محمد على عطية ، وعلى سيد أبو المجد (بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات) .

وعلى كل من محمد عبد الكريم بالسجن عشر سنوات .

وبــراءة كــل مــن خميس السيد محمد أحمد ، وأيمن مصطفى عبد الباقى خليفة ، ونجاد إبراهــيم الأمــير بكر ، وأمين أبو المجد محمد أحمد ، وحسن مهنى محمد المهدى ، وأحمد محمد حنفى حامد .

(٧) قضية تفجيرات البنوك

قام المتطرفون بمحاولة الاعتداء بالمتفجرات على بعض المواطنين أثناء ترددهم على بعض البنوك فى القاهرة مما أسفر عن وقوع وفيات وإصابات لبعضهم وقد تم القبض على حوالى ٩٨ وقدموا إلى المحاكمة العسكرية .

أولاً : قرار الاتهام :

١ - انضموا إلى جماعة أسست على خلاف القانون وتولى القيادة بها المتهمون .. إلخ وكان الغرض الدعوة إلى تعطيل الدستور والقوانين والاعتداء على الحرية الشخصية للمواطنين والإضرار بالوحدة الوطنية ودعوا إلى تغير نظام الحكم وكان الإرهاب من الرسائل لتحقيق وتنفيذ أغراضهم .

٢ - اشتركوا فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب جنايات القتل العمد والتخريب والإتلاف وحيازة مواد مفرقعة وأسلحة نارية وذخائر واستعمالها فى نشاطات تخل بالأمن والنظام العام وتزوير محررات رسمية واتحدت إرادهم على اغتيال رجال الأمن وتخريب المؤسسات الاستثمارية والاقتصادية للدولة ، كما قام المتهمون بتنفيذ ٩ حوادث تفجير بنوك عام ٩٥ واغتيال اللواء رؤوف خيرت وكيل النشاط الدينى بأمن الدولة .

٣ - شرعوا فى قتل المواطنين .... إلخ .

٤ - حازوا وأحرزوا أسلحة ومفرقعات .... إلخ .

ثانيًا : المتهمون :

١ - محمود إبراهيم مبروك محمد

٢ - حسام محمد خميس نوير

٣ - محمد فوزى محمد إبراهيم

٤ - محمود عبد السلام عوض

٥ - جمعة السيد سليمان رمضان

٦ - أحمد عبد الفتاح السيد عثمان

٧ - محمد مصطفى إسماعيل متولى

٨ - حسن عبد الراضى عمران أبو الحسن

٩ - سيد عبد الظاهر حسن عبد الرحمن

١٠ - رشدى ثابت عمر بكر

١١ - عطية عبد السميع محمود عطية

١٢ - على سعد الدسوقى نور الدين

١٣ - سيد عطوه عبد المنعم عبد العال

١٤ - أحمد شكرى أحمد حسن

١٥ - أشرف محمد عبد الجود جاد الرب

١٦ - حسن إسماعيل حسن عبد الغنى

١٧ - أحمد أحمد محمود جبر

١٨ - عبد الفتاح السيد عبد الفتاح

١٩ - طارق عبد المنعم أحمد عبد الحميد

٢٠ - السيد مختار أحمد النقيطى

٢١ - محمد محمد السيد شطا حجازى

٢٢ - سعيد عبد الحميد عبد اللطيف

٢٣ - جلال أحمد شفيق محمد

٢٤ - محمد رجب عطية إبراهيم أبو قمر

٢٥ - محمد الأمين عبد العليم ابو الحسن

٢٦ - هشام محمود عبد العزيز

٢٧ - عبد الحميد أبو غنيمة على بخيت

٢٨ - رمضان أحمد حسن جادالمولى

٢٩ - وليد حامد عبد الفتاح

٣٠ - أحمد حسنين محمد حسنين

٣١ - عماد الدين فؤاد عبد الباسط

٣٢ - فتحى محمد السيد عميش

٣٣ - عطية عبد العزيز ابو عيشة سعد

٣٤ - سعد صبرى عبد الحليم الفيومى

٣٥ - جمال السيد محمد عبد الوارث

٣٦ - هشام حسن محمد حسن

٣٧ - هشام على لاشين حسنين

٣٨ - محمد محمد الدحروجى حمزه

٣٩ - حمدى محمد محمد حسن

٤٠ - أحمد زكريا أحمد البحيرى

٤١ - حسن سيد حسن يونس

٤٢ - حسن محمد صالح

٤٣ - عاصم حسن على محمد

٤٤ - عبد الحليم محمد عبد الحليم عبد الحميد

٤٥ - ماجد محمد وهبة محمود

٤٦ - فضل حسن حسن مصطفى

٤٧ - عادل عبد الرازق طه حامد

٤٨ - غالب

٤٩ - محمد السيد خفاجة

٥٠ - عبد الحكيم سيد سيد رضوان

٥١ - وهدان أبو القمصان الكسبانى

٥٢ - رضا جمعة فرج الله مبروك

٥٣ - متولى سليمان عبد المجيد أحمد

٥٤ - ياسر محمد محمد طه

٥٥ - خالد عطا على عبد اللطيف

٥٦ – حلمى يوسف على سليمان

٥٧ – أشرف على عبد العزيز سيد

٥٨ – محمد ثروت عبد الرازق المتولى

٥٩ – محمد محمد عبده بلال

٦٠ – أبو المجد عبد اللطيف أبو المجد عثمان

٦١ – أيمن محمد عبد المجيد زايد

٦٢ – حسن أحمد حسن الهندى

٦٣ – محمد إبراهيم إبراهيم السيد

٦٤ – سيد محمد رجب محمد عبد الرحمن

٦٥ – أشرف محمد عبد الكريم محمد النهرى

٦٦ – جمال على عبد العزيز

٦٧ – حامد رجب عبد الحليم عبد الكريم

٦٨ – فوزى على محمد عبد الرحمن

٦٩ – محمد أحمد على عزب عبد الله

٧٠ – صلاح الدين ياسين محمد أحمد

٧١ – محمد محمد عبد النعيم

٧٢ – رشاد محمود السيد أحمد

٧٣ – محمد محمد شفيق أمين

٧٤ – محمد عبد التواب فيصل العربى

٧٥ – المأمون عبد الرحمن الشرقاوى

٧٦ – محمود محمد مصطفى إبراهيم.

٧٧ – كرم محمد عبد الرحيم حسن

٧٨ – هشام أحمد قاسم دسوقى

٧٩ – محمد خليل خليل الكارتة

٨٠ – ياسر ناجى إمام محمد

٨١ – أحمد عيد أحمد حسين عليوه

٨٢ – هاني علي أحمد أبو سعده

٨٣ – محيي محمد طه أحمد عامر

٨٤ – محمد ناجي محمد السباعى

٨٥ – جيهان إبراهيم عبد الحميد إبراهيم

٨٦ – صباح محمد عبد الرحمن

٨٧ – منى علي عبد العزيز سيد

٨٨ – السندبيسى محمد محمد السندبيسى

٨٩ – طارق علي حسن البحراوى

٩٠ – رضا رمضان مهدى حجازى

٩١ – شعبان محمد إبراهيم بدوى

٩٢ – أحمد مختار محمد محمد حسن

٩٣ – ياسر قاسم محمد محمد

٩٤ – السيد محمود السيد عبد الرحيم

٩٥ – حليمة خليفة عرفة عبد الكريم

٩٦ – كمال علي عبد العزيز سيد

٩٧ – حلمى التابعى إبراهيم الخضرى

٩٨ – محمد حلمى التابعى إبراهيم الخضرى

هذا وقد أصدرت المحكمة العسكرية حكمها على المتهمين فى ٩٧/٩/١٥ بالإعدام على أربعـة من المتهمين وبالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة والسجن على ٦٨ متهم وبراءة متهمين وقد تم التصديق على الحكم من السيد رئيس الجمهورية .

(٨) قضية تنظيم كرداسة

أولاً : قرار الاتهام :

قـــام المتطرفون بمحاولة الاعتداء على الأفراد بجهة إمبابة وحاولوا تفجير سيارة مفخخة فى حـــى خـــان الخليـــلى لإيقاع الرعب فى قلوب السياح ، كما حاولوا الاعتداء على بعض الشخصـــيات الهامـــة والمســـئولين وقد قامت النيابة بتوجيه تهم الانضمام إلى جماعات إرهابية هدفهـــم عرقلة أحكام الدستور ومنع السلطات العامة من ممارسة أعمالهم والإضرار بالوحدة الوطنية محاولين اغتيال بعض الشخصيات الهامة ومحاولة تفجير بعض العربات لإيقاع الرعب فى قلوب المواطنين :

ثانيًا المتهمون :

١ – عادل محمد عبد المجيد على عبد البارى

٢ – أحمد إبراهيم السيد النجار

٣ – عادل على بيومى السودانى

٤ – يوسف عبد الرحمن حسن الجندى

٥ – على عبد العزيز على الفقى

٦ – محمد نصر الدين فرج (محام)

٧ – مصطفى فرحات محمد

٨ – وحيد سعد فكرى همام

٩ – محمد سعيد فرج الصعيدى

١٠ – محمد السيد شعبان

١١ – عاطف شحات عبد العال

١٢ – أسامة محمد إبراهيم

١٣ - يوسف رياض محمد عبد الله

١٤ - ربيع عبد الله محمد

١٥ - أسامة الدين نصر الدين

١٦ - كمال حسين معوض

١٧ - محمد صالح رشوان

١٨ - عبد الجليل محمد إمام

١٩ - عثمان محمد حامد الأمين

٢٠ - على محمد إسماعيل

٢١ - محمد محمدى محمد

٢٢ - أحمد محمود محمد عبد المعطى

٢٣ - الشحات سعيد عمر

٢٤ - مصطفى شحات درويش

٢٥ - أمين محمد عبد اللطيف

٢٦ - أكرم عبد العزيز محمود الشريف

٢٧ - عبد النبي جمعة التوانسى

٢٨ - عبد الرحمن حامد محمود

٢٩ - لطفى كمال لطفى

٣٠ - محمد خضر رزق

٣١ - عماد الدين محمد عيسى

٣٢ - أشرف حسن أبو سريع

٣٣ - أيمن عبد اللطيف عثمان

٣٤ - على عبد الحميد المكاوى

٣٥ - نصر أحمد عبد المجيد

٣٦ - جمال شعيب على

٣٧ - هشام نصر محمد المكاوى

٣٨ - محمد نصر محمد إمام

٣٩ - طارق دياب فرج

٤٠ - حامد محمود عبد الله

٤١ - أحمد نصر محمد إمام

٤٢ - محمد جمعة السيد

٤٣ - ياسر السيد شعبان

٤٤ - عادل محمدى على

٤٥ - أحمد سعيد عبد الجواد

٤٦ - أحمد محمد رزق

٤٧ - عادل محمود الشيخ

٤٨ - علاء فتحى إبراهيم

٤٩ - سلامة محمد الشافعى

٥٠ - ياسر كمال بيومى

٥١ - على محمد عبد العال

٥٢ - أحمد شوقى على

٥٣ - نجاح عبد المنجى إبراهيم

٥٤ - محمد حسن حامد

٥٥ - إسماعيل عبد العزيز على

هـــذا وقـــد أصـــدرت المحكمة العسكرية حكمها على المتهمين فى ١٩٩٧/١٠/١٥م بـــالإعدام على ثلاثة من المتهمين وبالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة والسجن على ٥٣ متهمًا وبراءة ٣١ متهم وقد تم التصديق على الحكم من السيد رئيس الجمهورية .

(٩) قضية تفجير الأتوبيس السياحى
بميدان التحرير

أولاً : قرار الاتهام :

وجهت النيابة العسكرية الاتهام إلى المتهمين بتفجير الأتوبيس السياحى يوم ١٨/١٠/١٩٩٧م بميدان التحرير بأنهم ارتكبوا جريمة القتل العمد والشروع فيه والاتفاق الجنائى على ارتكاب جرائم تخل بالأمن والنظام العام وحيازة وإحراز أسلحة وذخائر ومتفجرات بقصد استخدامها فى أغراض تخل بالأمن وإتلاف أتوبيسات سياحية ومقاومة السلطات .

ثانيًا : المتهمين والأحكام :

١ – صابر محمد فرحات أبو العلا (إعدام)

٢ – محمود محمد فرحات أبو العلا (إعدام)

٣ – أحمد محمد محمد الجندى (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

٤ – حبيب إسكندر عبد الملك (السجن ٥ سنوات)

٥ – مجدى شحاته سعيد عوض (السجن ٧ سنوات)

٦ – مدحت محمد سعيد الكاتب (السجن ٥ سنوات)

٧ – وائل محمد سليم الطويل (السجن ٣ سنوات)

٨ – فتحى عبد العزيز زايد (سنة واحدة)

٩ – بكر إبراهيم محمد على (براءة)

وقد تم التصديق على الحكم من السيد رئيس الجمهورية .

كما أصدرت المحكمة العسكرية العليا أحكامها فى قضية تواطؤ أطباء مستشفى الخانكة مع المتهم الأول السابق ذكره على المتهمين المذكورين بعد بالآتى :

١ – الدكتور / نسيم عبد الملك نسيم « مدير المستشفى » (أشغال شاقة مؤبدة)

٢ – ممرض / عطية جاد إبراهيم جاد (أشغال شاقة لمدة ١٠ سنوات)

٣ – عماد رمزى جرجس عريان (أشغال شاقة لمدة ١٠ سنوات)

٤ – جمال السيد محمد حسن (أشغال شاقة لمدة ١٠ سنوات)

٥ – السيد سالم « عامل البوابة » (أشغال شاقة لمدة ٥ سنوات)

٦ – عبد الفتاح محمد السيد خفاجه (الحبس ٥ سنوات)

٧ – محمد شحاته مصطفى (الحبس ٣ سنوات)

٨ – إبراهيم منصور أبو عدس (الحبس ٣ سنوات)

٩ – حسين أحمد عبد الفتاح الشيمى (الحبس ٣ سنوات)

١٠ – الدكتور / السيد أحمد على القط (براءة)

١١ – الدكتور / محمد عبد المنعم إمام النجار (براءة)

١٢ – المرض / خالد محمود محمد توفيق خفاجة (براءة)

(١٠) قضية الاغتيالات الكبرى

قــام المــتطرفون باغتيال ٢٦ من رجال الشرطة والمدنيين وشرعوا فى قتل ٤٥ شخص غيرهــم وخططوا لهدم المنشآت الاقتصادية والاعتداء على السياح وذلك خلال السنوات من سنة ٩٤ وحتى سنة ٩٧ .

وقد قامت نيابة أمن الدولة بالتحقيق مع المتهمين وإحالتهم إلى محكمة أمن الدولة العليا خلال عام ١٩٩٧م .

أولاً : قرار الاتهام :

١ - القتل العمد

٢ - الشروع فى القتل

٣ - الانضمام إلى جماعة مسلحة أطلقت على نفسها اسم « الجماعة الإسلامية » وكان الغــرض مــنها تعطيل الدستور والإضرار بالوحدة الوطنية ومحاولة تخريب وهدم المنشآت العامة .

٤ - حيازة الأسلحة والذخائر والمفرقعات .

ثانيًا : المتهمون والأحكام :

١ - محمد خليفة (إعدام شنقًا)

٢ - رفعت زيدان (إعدام شنقًا)

٣ - عبد الحميد مرسى (إعدام شنقًا)

٤ - رضوان إبراهيم (الأشغال الشاقة المؤبدة)

٥ - أحمد ضياء الدين (الأشغال الشاقة المؤبدة)

٦ - محمد على البدرى (الأشغال الشاقة المؤبدة)

٧ - محمد حسن عبد الوهاب (الأشغال الشاقة المؤبدة)

٨ – محمد شوقى (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

٩ – أسامة عبد الغنى (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

١٠ – عبد العاطى الشريف (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

١١ – ماجد خلف (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٢ – ثابت على حسن (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٣ – أسامة عبد العزيز (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٤ – على محمود حسن (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٥ – حسن نفادى (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٦ – محمد سلامة (أشغال شاقة ٥ سنوات)

١٧ – ياسر على إبراهيم (أشغال شاقة ٥ سنوات)

١٨ – السيد على إبراهيم (أشغال شاقة ٥ سنوات)

١٩ – خالد عبد اللاه (انقضاء الدعوى لوفاته)

٢٠ – جمال دياب (انقضاء الدعوى لوفاته)

وبراءة ١٣ متهمًا

وقد أصدرت محكمة أمن الدولة العليا الأحكام السابق ذكرها على المتهمين فى ١٩٩٨/١/٢٧م .

(١١) قضية الجماعة الإسلامية

(القضية ٥٩ سنة ١٩٩٧)

قبضت سلطات الأمن على عناصر متطرفة تطلق على نفسها الجماعة الإسلامية وذلك خلال عام ١٩٩٧م وتم التحقيق معهم بواسطة النيابة العسكرية التى أحالت ٦٥ متهمًا منهم إلى المحكمة العسكرية العليا .

أولاً : قرار الاتهام :

نسب إلى المتهمين قيامهم بتشكيل جماعة هدفها الإحاطة بالنظام الأساسى للدولة والتخطيط لضرب المرافق والمصالح العامة للدولة والتخطيط لاغتيال بعض الشخصيات العامة وإلحاق الضرر بالمواطنين المصريين والسياح الأجانب وحيازتهم للأسلحة والذخائر المضبوطة .

ثانيًا : المتهمون والأحكام :

١ – جمال مصطفى أبو رواش (إعدام شنقًا)

٢ – طه عبد الرازق عبد المقصود(إعدام شنقًا)

٣ – محمد محمود أيوب يونس (أشغال شاقة مؤبدة)

٤ – ياسر حجازى سليمان (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

٥ – أحمد عبد الوهاب خليل (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

٦ – عبد الخالق محمد حسين (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

٧ – رزق سالم رزق الجبالى (أشغال شاقة ١٥ عامًا)

٨ – عبد الشكور حسن عبد الشكور (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

٩ – أشرف يوسف على خليل (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٠ – السيد عبد الغنى محمد الحداد (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١١ – محمد حسن محمد حسن (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٢ – محمد عبد الكريم عبد الظاهر محمود (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٣ – إبراهيم أحمد حسن سليمان (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٤ – أحمد أحمد السيد الطويل (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٥ – طه أبو العباس محمد سليم (أشغال شاقة ١٠ سنوات)

١٦ – محمد فؤاد على أحمد (الحبس لمدة ١٠ سنوات)

١٧ – عبد الله عثمان فرج (أشغال شاقة ٥ سنوات)

١٨ – خالد محمد عبد المنعم قنديل (أشغال شاقة ٥ سنوات)

١٩ – وليد عثمان إبراهيم دعبس (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٠ – سامى محمود على الجيزاوى (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢١ – خلف عبد الرؤوف علام الجالس (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٢ – ناجح ميرتى محمود عبد الرحيم (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٣ – محمود إسماعيل عبد النعيم نور (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٤ – جعفر مصطفى عبد الغنى سعد (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٥ – صلاح عزمى محمود أحمد (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٦ – محمد كمال مجاهد أحمد (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٧ – عصام حسنين مرسى شحاته (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٨ – أحمد زكى سيد سليمان أبو حليم (أشغال شاقة ٥ سنوات)

٢٩ – عبد الوهاب حسن حامد (أشغال شاقة ٣ سنوات)

٣٠ – أحمد إسماعيل أحمد مبارك (أشغال شاقة ٣ سنوات)

٣١ – عبد الله محمد عبد الظاهر عبد الحميد (السجن ١٠ سنوات وغرامة ٥٠٠ جنيه)

٣٢ – عمرو على نصر أحمد (الحبس ٣ سنوات)

٣٣ – أحمد محمد عبد الواحد سرس (الحبس سنة)

كما قضت ببراءة عدد ٣٢ متهم آخر .

وقد أصدرت المحكمة العسكرية العليا الأحكام السابق ذكرها على المتهمين فى ١/٢/١٩٩٨م .

(١٢) قضية إحياء تنظيم الجهاد

(القضية ٨ لسنة ١٩٩٨)

قبضت الشرطة على بعض أعضاء تنظيم الجهاد خلال عام ١٩٩٨م فى أحياء مختلفة من القاهـــرة والأقاليم وقدم إلى المحكمة العسكرية العليا عدد ١٠٧ متهم منهم ٦٠ هارب حيث وجهـــت إلـــيهم تهـــم الانتماء إلى جماعات إرهابية غرضها قلب نظام الحكم وتخريب المجتمع وإرهاب وترويع المواطنين وإعداد المتفجرات والشرائك الخداعية واستخدام الطيران الشراعى ضد أمن وسلامة الدولة .

وفى ١٩٩٨/٤/١٨م أصدرت المحكمة العسكرية العليا أحكامها على المتهمين بالآتى :

١ - أيمن الظواهري (إعدام)

٢ - محمد الظواهرى (إعدام)

٣ - نصر فهمى حسين (إعدام)

٤ - عادل عبد السيد عبد القدوس (إعدام)

٥ - على أبو السعود مصطفى (إعدام)

٦ - ثروت صلاح شحاته (إعدام)

٧ - طارق أنور حسين (إعدام)

٨ - عبد الله رجب عبد الرحمن (إعدام)

٩ - عبد العزيز موسى الجمل (إعدام)

١٠ - أحمد بسيونى دويدار (٢٥ سنة)

١١ - هانى محمد السباعى (٢٥ سنة)

١٢ - مرجان مصطفى سالم (٢٥ سنة)

١٣ - أحمد سلامة مبروك (٢٥ سنة)

١٤ - على أمين الرشيدى (٢٥ سنة)

١٥ - ياسر توفيق السري (٢٥ سنة)

١٦ - أحمد مصطفى كامل عجيزة (٢٥ سنة)

١٧ - عادل عبد المجيد (٢٥ سنة)

١٨ - سيد أمام عبد العزيز الشريف (٢٥ سنة)

١٩ - أحمد إبراهيم النجار (٢٥ سنة)

٢٠ - شوقى سلامة عطية (٢٥ سنة)

٢١ - إبراهيم حسين عيد اروس (١٥ سنة)

٢٢ - سيد عبد المقصود عبد اللطيف (١٥ سنة)

٢٣ - أحمد محمود ربيع (١٥ سنة)

٢٤ - محمد مصطفى أبو غربيه (١٥ سنة)

٢٥ - محمد زكى محجوب (١٥ سنة)

٢٦ - محمد شوقى الإسلامبولى (١٥ سنة)

٢٧ - محمود حسين عبد الدايم (١٥ سنة)

٢٨ - عبد الغفور عبد القادر فرحات (١٥ سنة)

٢٩ - عصام عبد التواب عبد العليم (١٥ سنة)

٣٠ - إبراهيم عبد البديع على حسن أمام (١٥ سنة)

٣١ - سعيد سيد سلامة خالد (١٥ سنة)

٣٢ - خالد السيد على محمد (١٥ سنة)

٣٣ - أحمد إسماعيل صالح (١٥ سنة)

٣٤ - عطية عبده عبد الجيد (١٥ سنة)

٣٥ - عصام حافظ مرزوق (١٥ سنة)

٣٦ - السيد فتحى عليوه (١٥ سنة)

٣٧ - أسامة صديق أيوب (١٥ سنة)

٣٨ - نبيل نعيم عبد الفتاح (١٥ سنة)

كما قضت المحكمة بالأشغال الشاقة عشرة سنوات على كل من :

محمد عيد إبراهيم شرف – زكى عزت أحمد – محمد حسين محمد – محمود السيد العقباوى – عبده عبد الله علام هاشم – محمد محمود صبحي – أحمد عبد المقصود العشرى – محمد هشام الحناوى – سيد عجمي مهلهل – محمد مصطفى سيد أحمد – محمد ربيع شعيب – ممدوح السيد ممدوح – محمد عبد المجيد فرج – عبد القادر محمود السيد – بركات فهيم على .

كما قضت المحكمة بالأشغال الشاقة سبعة سنوات على كل من :

هانى إبراهيم الجندى – شريف على إسماعيل الباسل – حارس إبراهيم قناوى – جمال صادق مهدى – مصباح حسنين عزب – خليفة السيد بدوي – صفوت محمد عثمان – علاء عبد الغنى البربرى – السيد عبد الحميد عطية – علاء إبراهيم سرحان – عبد المنعم على البدرى – صبحى محمد الجوهري .

وقضت المحكمة بالأشغال الشاقة خمس سنوات على كل من :

عبد الجواد حامد العباوى – حسين عبد الفتاح – هشام سليمان أباظة – ناجى يونس الخولى – عصام خليل بدوى – ربيع محمد غنيم – أسامة حسن أحمد .

كما قضت المحكمة بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات على كل من :

عبد الحق أحمد فؤاد – ممدوح على زيادى – صبري إبراهيم العطار – محمد محمد السبكري – وليد عبد الكريم درويش – منصور غازي – أحمد سعد شعلان – بركات فهيم على .

كما قضت المحكمة بالحبس سنة مع الشغل على كل من :

أحمد عبد المقصود عبد اللطيف – أحمد محمد حسن – أحمد بيومى عطا الله دياب .

كذلك قضت المحكمة على ٢٠ متهمًا بالبراءة .

(١٣) حادث الأقصر

فى يوم الاثنين الموافق ١٩٩٧/١١/١٧م فى حوالى الساعة التاسعة صباحًا بالأقصر أمام معبد حتشبسوت توقفت سيارة بيجو ونزل منها ستة أشخاص مدججين بالسلام مرتدين زى الأمن المركزى (زى القوات الخاصة) وتوجهوا داخل المعبد ، ويروى لنا شهود العيان الذين كـــانوا فى موقع الحادث ومنهم / سيد أحمد أبو زيد محمد وهو أهم شهود مذبحة الأقصر الذى أصـــابته حالة عصبية وهيسترية بسبب المشاهد البشعة التى شاهدها فى المجزرة ، حيث شاهد ثلاثـــة أشـــخاص معهم خناجر وخزانات السلاح الآلى يهاجمون السياح فتوارى خلف أعمدة المعـــبد وشاهدهم وهم يذبحون السياح بالخناجر دون أن يطلقوا الرصاص ثم بعد ذلك كانوا يطلقون الرصاص على السياح المذبوحين .

كمـــا تـــروى الشـــاهدة / نهلـــة القاضى المرشدة السياحية ، حيث كانت داخل معبد حتشبســـوت وفى الاتجاه الذى كانت فيه كان يوجد حوالى ٣٠ سائحًا وأنها والموجودين معها بالمعبد سمعوا صوت طلقات نارية لم يأبه بها أحد وظن السياح أنه مشهد تمثيلى أو مطاردة فعلية بـــين الشـــرطة وبعض المجرمين ولكن سرعان ما وجدوا شخصًا يحمل بندقية آلية وخلفها فتح السنكى وأخذ يطلق طلقات سريعة عشوائية وكان الناس فى حالة فزع وانبطحوا على الأرض واختبأ بعض السائحين خلف أعمدة المعبد والبعض الآخر نام على الأرض ليوهم الإرهابى بأنه مـــات ولكـــن الإرهابى لم يترك أحدًا إذ كان يقلب الناس ويضربهم سواء بالنار أو بالسنكى وقالت إن هذا الضرب استمر عشر دقائق ولما انتهى من مهمته نادى على زميل لـــه من مكان آخـــر بالمعبد فقال له هه خلصت عندك قال له نعم ، قال له يالابينا – وقالت إنه كان ماشى بيـــتمخطر ومافـــيش حاجه مخوفاه ، وقالت المرشدة السياحية أن عدد هؤلاء الإرهابيين كان لا يتعدى أصابع اليد موزعين فى أماكن متفرقة يرتدون زى غامق ولكنه ليس زى الشرطة .

– ويروى الشاهد حجاج النحاس وهو سائق الأتوبيس الذى اختطفه الإرهابيون بعد أن نفذوا مذبحة حتشبسوت لقد فوجئ وهو داخل معبد حتشبسوت ومعه المرشد السياحى فوجئ بسيارة بيجو خارجة من المعبد تعترض طريقه نزل منها ٦ أشخاص مدججين بالسلام ويرتدوا زى الأمن المركزى وعليه جاكت جينز وعلى جبينهم شريط أحمر مكتوب عليه (سنقاتل حتى المـــوت) فذبحـــوا المرشد السياحى وطلبوا من السائق أن يتوجه بهم إلى وادى الملوك ليقتلوا

ويذبحوا السياح الموجودين فيه بعد أن نفذوا مذبحة حتشبسوت ولكن السائق ضللهم واتجه بهم إلى طريق المستشفى لإبعادهم عن المناطق السياحية ولكن جهاز لاسلكى الشرطة الذى سرقوه من الخفير فراج بعد قتله سمعوا من خلاله ضابط شرطة يصرخ بعبارة الإرهابيون يتجهون إلى المستشفى فضربوا السائق ضربًا مبرحًا ثم فى الطريق قابلوا كمين شرطة فرفض السائق الوقوف ولكن الإرهابيون أجبروه ونزلوا من السيارة وأصابوا الضابط وانتهز السائق الفرصة وهرب وتوجه إلى وادى الملوك لتحذير السياح .

– ويضيف الشاهد أحمد عبد الباسط ويعمل بائع بازار – فيقول أنه تعقب الإرهابيين من لحظة نزولهم من الأتوبيس السياحى بعد أن فر سائقه وأول حاجه عملوها ضربوا ضابط الكمين وقال أنه جرى ورائهم والذى شجعه على ذلك أن أحدهم كان مصابًا بطلقة فى صدره وكان الدم ينزف منه بغزارة لذلك لم يستطيع أن يكمل الجرى وسقط على الأرض فرجع المتطرفون الخمسة بعد أن كانوا قد سبقوا وأطلقوا عليه النيران فى رأسه وتأكدوا من مصرعه واستطرد الشاهد أقواله بأن تقدم هو وأحد ضباط القوات الخاصة وبقية الأهالى وشعر الإرهابيون بالتعب والإرهاب فدخلوا مغارة وتعقبهم الشاهد ببطء نحو المغارة وفوجيء بصيحة جماعية من الإرهابين « لا إله إلا الله » أعقبتها طلقات رصاص جماعية داخل المغارة فدخل ووجدهم ملقين على الأرض يسبحون فى دمائهم بعد أن شكلوا دائرة وضربوا النار فى رؤوسهم « حالة انتحار جماعى » وفجأة أمسك الإرهابى الذى يحتضر بطرف جلباب الشاهد عندما حاول أن يأخذ جهاز اللاسلكى الملقى على الأرض وضغط الإرهابى على زناد سلاحه فأطلق منه رصاصة أصابت الشاهد فى الحوض فغرق فى دمائه ولم يشعر بشيء بعد ذلك إلا فى المستشفى .

وبعد انتقال جثث الإرهابيين الستة إلى مستشفى الأقصر أثبت التقرير الطبى الذى أعده مدير المستشفى عن وجود إصابات قديمة فى أقدام بعض المتطرفين تؤكد اشتراكهم فى عمليات عسكرية إرهابية سابقة بل ويؤكد ذلك أنهم إرهابيون محترفى الإجرام ومن العناصر المدربة جيدًا داخل الجناح العسكرى للجماعة المتطرفة ، وفى التقرير الأمنى الذى وضعه الخبراء الذين فحصوا الجثث فى نفس يوم الحادث جاء فيه أن الطريقة التى استخدمها المتطرفون لشق البطون وذبح الرأس هى طريقة محترفة تستخدم فى الحروب والصراعات الأهلية بهدف إرهاب وتخويف الخصم لا ينفذها بهذه الطريقة إلا من تدربوا عليها على يد قوات عمليات خاصة .

(١٤) حوادث الجماعات الإرهابية خارج مصر

انـــتقل نشاط الجماعات الإرهابية ليزاولوا نشاطه خارج جمهورية مصر كان على الوجه التالى :

أولاً : حدوث انفجار فى المركز التجارى بأمريكا (نيويورك) سنة ١٩٩٣م أسفر عن وفاة ١٥ شخصًا وإصابة مائة آخرين وقد أدين الشيخ عمر عبد الرحمن وحكمت عليه المحكمة الفيدرالـــية بالسجن مدى الحياة لاتهامه بالتخطيط لاغتيال الرئيس حسنى مبارك وبطرس غالى وأحكاما أخرى بالسجن لمدة ٦٥ عامًا .

ثانـــيًا : تعـــددت حوادث الانفجارات وقتل الأفراد من أجانب وصحفيين على أرض جمهورية الجزائر طوال عامى ٩٤ ، ٩٥ مما أسفر عن قتل ما يزيد على العشرين ألف فرد من الأبرياء من مختلف الجنسيات .

ثالـــثًا : تعـــددت حـــوادث الانفجارات فى باريس عاصمة الدولة الفرنسية طوال عام ١٩٩٥م حيـــث وضـــعت العـــبوات الناســـفة فى عدة أماكن « مترو الأنفاق وبعض سلال المهمـــلات » ممـــا أدى إلى وفـــاة وإصابة الكثير من المواطنين وقد حاربت الحكومة الفرنسية الإرهـــابين فقتلـــت الـــبعض مـــثل المدعو / محمد قلقال وقبضت على الكثير منهم وقدمتهم إلى التحقيق والمحاكمة .

رابعًـــا : حـــدوث انفجار كبير قوته ٤٠٠ك فى ١٩٩٥/١١/١٣م بمدينة الرياض بمقر البعـــثة الأمريكـــية أدى إلى وفـــاة ثمانية أشخاص وجرح حوالى ستين شخصا من الأمريكيين والسعوديين ومن الجنسيات الأخرى وقبض على كثير من الأشخاص .

خامسًـــا : اغتيال الدبلوماسى المصرى علاء الدين نظمى من سفارة مصر فى جنيف يوم ١٩٩٥/١١/١٤م حيـــث أطلـــق عليه بعض الإرهابيين الرصاص وهو يركب عربته وأعلنت الجماعة الإسلامية مسئوليتها عن الحادث .

سادسًـــا : اقتحمت سيارة محملة بحوالى ألف كيلو متفجرات سفارة مصر فى إسلام أباد بباكســـتان يـــوم ١٩٩٥/١١/١٩م حيث ألقيت منها عدة قنابل ثم انفجرت العربة بمن فيها

من أفراد حيث انهارت مبانى السفارة بالكامل وأسفر الحادث عن وفاة ١٨ شخصًا : مصريين وباكســتانيين وجنســيات أخرى خلاف ستين شخصًا من الجرحى وتوفى من المصريين هشام أبــو الوفا وأحمد نمير أحمدين ، وحسين محمود فهمى ، ومحمود عبد المقصود ، وأيمن محمد على وقــد أعلنت الجماعة الإسلامية وجماعة العدالة وجماعة الجهاد مسئوليتهم عن الحادث وقبض على الكثير رهن التحقيق .

ســابعًا : أطلــق بعــض الإرهابيين من المتطرفين عدة أعيرة نارية على السفارة المصرية فى صوفيا ببلغاريا وقالت السفيرة مى أبو الدهب أنه لم تحدث أية إصابات .

الفصل السابع

جماعات إسلامية أخرى

١ - جماعة الفرماوية

كان محمد سالم الفرماوى (٨٨) سنة يعمل واعظًا دينيًا لمسجد الجمعية الشرعية بشبرا واختلف مع أعضاء الجمعية سنة ١٩٧٠ لتطرفه فكوّن جماعة مستقلة تعتنق فكره الذى يقوم على عدم الاعتراف بكتب السيرة والمذاهب الدينية والأئمة ورجال الدين وعلى الأخص الأزهر ورجاله وينكر علوم التفسير والفقه والشريعة ويحرم الأخذ بأحاديث الرسول إلا ما كان مؤيدًا بآيات من القرآن خصوصًا الوارد منها على لسان السيدة عائشة لأن رسالة الإسلام نزلت على الرجال وليست على النساء ، وهو يحرم الصلاة فى المساجد لأنها بيوت للشيطان عدا المسجد الحرام والمسجد الأقصى وعدم الصلاة خلف الأئمة ، ولا يعرى رأسه ولا يأكل من الأسواق ويحرم على المرأة العمل والتعليم ، ويحرم على الجميع التجارة والبيع والملكية فالله يملك كل شىء ولا يجوز أن يخلق الفرد لنفسه ملكية خاصة ، ويحرم الزكاة لأن دافعها شخص يستحوز على أشياء مخالفًا بذلك ملكية الله ، كذلك يحرم قراءة وتداول الكتب المطبوعة وأخذ العلم منها لأنها من أفكار الشيطان كما يحرم الالتحاق بالقوات المسلحة والجهاد وينادى بتجنيب المجتمع التعامل مع الناس إلا بقدر الحاجة الضرورية ، لأن الناس جميعًا كفار ، وعلى رأسهم الحاكم لعدم تطبيقه أحكام الشريعة الإسلامية وأن الولاء لله وحده ، ولا يعترف إلا بالزواج العرفى دون الزواج الرسمى ، وهو يحرم قتل الحشرات السامة والضارة لأنها أرواح تسعى حتى ولو كان الثعبان أو العقرب ، ويقول أن الأرض دح وليست كروية إشارة إلى الآية ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ .

ويقول محمد سالم الفرماوى إن مكانته بين الرسل والأنبياء لأنه جاء يكمل رسالتهم وإن ما يقوله إنما هو وحى يهبط عليه فى ساعات فيض فيحرك لسانه بكلمات من عند الله .

وقد كان الفرماوى يبدأ خطبه بكلمة الحمد لله ثم ألغى هذه العبارة وأعلن أن من يبدأ أى خطـــاب دينى بالحمد لله فهو مخطئ ، كما أنه أنكر علوم النقل لأن مؤلفى هذه الكتب قصدوا بالتأليف حجب كتاب الله واستنكر أحاديث الرسول لأنها كانت مسجلة بالكتب وذلك جعلها تحجب كتاب الله .

ويقول إنه يجب التفرغ للعبادة دون العمل ، فالرسول لم يعمل ولم يتاجر للسيدة خديجة وهـــذا افتراء عليه ، وإنما كان متفرغًا للعبادة ، وأن الحديث المنسوب للرسول عن قوله (إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة) حديث مدسوس جعل الناس تتكالب على العمل وجمع الفلوس مع أن الله هو الرازق ، فإذا تفرغ للعبادة سخّر الله كل شىء له دون تعب أو كلل .

وعـــندما ســئل كـــيف تقول فى الآية الكريمة عن الأنعام : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْـــعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ أى المقصود هو العمل لاستغلال هذه المنافع ؟ لا يستطيع الـــرد .

وينكر الفرماوى صلاة الجمعة لأنها فى رأيه لا جمعة ولا جماعة حتى تقام شريعة الله .

كمـــا يـــنكر استشـــارة الطبيب والأخذ بالتطبيب لأن الشفاء من عند الله ، كما ينكر استعمال المواصلات وكل ما ينتمى إلى الحضارة بصلة ، لأنها لم تكن موجودة فى عهد الرسول كما أنه يحض أتباعه على عزلة المجتمع .

وقد بدأ نشاط جماعة الفرماوية سنة ١٩٧٠وضبطوا سنة ١٩٧٥ أثناء تحركاتهم المشبوهة ناحـــية محافظة المنوفية لنشر أفكارهم وقيدت لهم القضية ٢٣٢ لسنة ٧٥ أمن الدولة وانتقلوا بعـــد ذلـــك بجانـــب معسكرات الجيش بالشرقية فتصدى لهم الأهالى وأبلغوا عنهم سلطات الأمـــن حيـــث تعرضـــوا للقـــبض عليهم سنة ٧٧ ، ٧٨ أثناء اجتماعهم فى مركز الحسينية ثم فى روض الفرج وفى سنة ٨٠ قبض على بعضهم بجهة شبرا الخيمة بعد أن حاولوا استغلال موضـــوع الفتنة الطائفية فى القضية ٦٥٥ لسنة ٨٠ كما قبض عليهم أخيرًا فى القضية ٣٣١ لسنة ٨٢ .

الرد على فكر الفرماوى :

هـــذا الرجل لم يتعلم فى الأزهر ولم يقرأ حديثًا أو فقهًا ولا تفسيرًا ليتفقه فى الدين لأنه ينكر هذه الكتب ويقول إنها باطلة ، ثم احتمى وراء ادعاء أنه ملهم يوحى إليه .

(أنـــا فى مرتبة بين الرسل والأنبياء يهبط علىّ فى ساعات فيض فأحرّك لسانى بكلمات مـــن عـــند الله ، وإنـــنى لا أنطـــق عن الهوى ولست مسئولاً عما أقوله فى ساعات الفيض) هكذا قوله .

فهل هذا الرجل يعتبر مصدرًا من مصادر التفسير ؟ إذا كان هو نفسه لم يعترف بالمفسرين المعترف بهم من قديم الأزل ؟ ويردد أن ما لم يـــرد فى القـــرآن فهو باطل لقـــد قـــال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَـــنْهُ فَانْـــتَهُوا ﴾ ﴿ يَاأَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

أفليس أدل على هذه الآيات من وجوب طاعة الرسول ﷺ وأن نأخذ عنه بيانه للقرآن ؟ فكـــيف ينكر بعد ذلك الأخذ بالأحاديث إلا إذا أنكر أيضًا هذه الآيات ؟ وبذلك فهو يناقض نفسه ليخدع البسطاء ويبث فيهم سمومه .

ثم إذا ســـألنا من الذى أقام نظم الصلاة وشعائرها؟ أليس هو الرسول ﷺ الذى قال : (صـــلوا كما رأيتمونى أصلى) وفرض الركعات المختلفة لكل صلاة ، ومن الذى فرض مناســـك الحـــج حيث قال الرسول ﷺ (خذوا عنى مناسككم) ؟ نجده يرد بأن كل فرد يؤدى الشعائر كما يراها صحيحة حسب نيته وهى مقبولة عند الله .

(٢) جماعة السماوية

كان عبد الله أحمد السماوى وشهرته طه السماوى (٣٦ سنة) ينتمى إلى جماعة التكفير والهجرة ، وكان يعيش مع شكرى مصطفى وثمانية أفراد آخرين داخل زنزانة واحدة فى أوائل السبعينيات سميت (المكفرة) لأنهم كانوا يكفرون الناس جميعًا بما فيهم رجال الدين والأزهر .. وبعـد خـروج السماوى من المعتقل استقل بجماعته وازداد تطرفًا عن جماعة التكفير والهجرة وكان جريئًا فى مهاجمة الحكومة فى المساجد وكان يكرر لأتباعه أن من يطيعه سيدخل الجنة لأنه يملك مفاتيحها .

ويقوم فكر السماوى على تكفير الحاكم والمحكوم واعتبار المجتمع مجتمعًا جاهليًا مستندًا على أربع ركائز هى الآيات الكريمة : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ، ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ ، ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ ، ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

وقـد انتهى السماوى بفكره إلى أن العمل فى وظائف الحكومة والقوات المسلحة كفر والالـتحاق بالتعليم كفر ، ويجب أن يكون التهجم على الحاكم علنًا ولو كان من المنابر وأن السـمع والطاعـة لا يكون إلا لولى الأمر العادل بصفته أميرًا ووليًا حيث يقول الرسول ﷺ (أسمـع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) وأنه لا طاعة لولى من الأسرة إذا خالف المبادئ السابقة ذكرها .

وقـد كـان السماوى فى سجنه يُسخّر أتباعه لخدمته وغسيل ملابسه وتدليك جسده وتجهـيز مـا يريد من أكل وخلافه ، ورفض الدخول فى أى مناقشات مع رجال الدين حول أفكاره رفضًا باتًا .

الرد على فكر السماوى :

يقوم فكر السماوى على اعتبار المجتمع مجتمعًا جاهليًا ومعاملة الأفراد على هذا الأساس كما يقوم على تجريم التحاق الفرد بالوظائف العامة والقوات المسلحة والتعليم ،

وقد سبق الرد على هذه الأفكار فى الحوار الذى أجرى بين علماء المسلمين والمعتقلين وفى الرد على فكر جماعة التكفير والهجرة .

(٣) جماعة الشوقيين

وأميرها كان شوقى الشيخ الذى قتلته الشرطة ثم كان أميرها عادل عبد الباقى الذى ترك الجماعة وتاب وتعين بدله الآن كمال توفيق .

وهم جماعة تدعو إلى التطرف والغلو فى الدين ويقرون أن حكام مصر من الكافرين وأن المواطنين المصريين كلهم كفار ويجب محاربتهم والقضاء عليهم بقتلهم بأى صورة من صور القتل .

ويقرون باستحلال أموال كل من ينتمى إلى جماعتهم ولو بالقتل ويحضون على بناء مجتمع إسلامى جديد يقوم على أسس من مبادئ القرآن والسنة وعليهم الفتك بكل من يعارضهم هو وعائلته .

وقد انضم قادة التنظيم إلى الجماعة الإسلامية ثم انفصلوا عنها وقد فضح أمير الجماعة التائب عادل عبد الباقى أغراضهم ، حيث قرر أنهم يتزوجون عدة مرات حتى تصبح الزوجة متزوجة عدة رجال فى وقت واحد ودون انتظار للعدة ولا يعنيهم من العقيدة إلا الجنس والزعامة .

(٤) جماعة الناجون من النار

وهم خليط من الجماعات المختلفة ويجتمعون فى بعض الأحيان ثم ينفضون دون عمل إيجابى سوى المناداة بتكفير المجتمع والحكام وإباحة قتلهم ولا يستقرون على مبادئ معينة هادفة وإنما يلجأون إلى ارتكاب بعض الحوادث الفردية كتفجير القنابل والمفرقعات .

(٥) جماعة طلائع الفتح

وأمير الجماعة الأول هو أيمن الظواهرى الذى يقيم بالخارج ويخطط لهم لارتكاب أفعالهم الإجرامية داخل مصر .

وأمير الجماعة الأول فى مصر هو عبد الحميد محمد عبد الحميد حب الله ، وأمير الجماعة الثانى هو ناجى الخولى .

وقد شرح الجماعة فكرهم فى كتابين « الحصاد المر » ، « العمدة فى إعداد العدة » وقد تناول فكرهم نبذ مبادئ الإخوان المسلمين وجهادهم ومحاربتهم للسلطات بالطريق السلمى .

وقرروا أنه يجب أن تكون هناك فترة انتقال ليتمكن المسلمون من فرض الحكم الإسلامى وأنهم المسئولون عن هذه الفترة التى يحكم فيها الكفار ، حيث يجب إبادة جميع الحكام والتخلص منهم لأنهم لا ينفذون شريعة الله ولا يحكمون بكتاب وسنة رسول الله ﷺ .

كما قرروا أن الحرب قائمة بينهم وبين كل من هو كافر فى نظرهم سواء كان هذا من الحكام أو من الشعب وقالوا أنهم لا يسعون إلى الحكم أو اعتلاء المناصب وإنما فقط يعملون للتمهيد لمن يأتى بعدهم من المسلمين الصادقين .

وقد حوكم أفراد هذه الجماعة فى القضية ١٨ لسنة ٩٣ على الوجه الآتى :

أولاً : قرار الاتهام :

١ – انضموا لجماعة أسست على خلاف أحكام القانون وتولى الأول والثانى والسابع والثلاثين قيادة فيها كما قام الأول بإمدادها بالمفرقعات والأسلحة والذخائر – وكان الغرض منها الدعوة إلى تعطيل أحام الدستور والقوانين والاعتداء على الحرية الشخصية للمواطنين والإضرار بالسلام الاجتماعى بأن دعوا لتغيير نظام الحكم وإشاعة جو من عدم الاستقرار بأحداث اضطرابات أمنية باقتراف بعض الجرائم على النحو الوارد تفضيلاً بالأوراق وكان الإرهاب من الوسائل التى تستخدم لتحقيق وتنفيذ هذه الأغراض وذلك بحيازة واستعمال المفرقعات والأسلحة النارية والبيضاء على النحو الوارد تفصيلاً بالأوراق .

٢ – اشتركوا فى اتفاق وتحريض فى قتل حجى على السيد وقاسم محمد عبد المنعم مع سبق الإصرار والترصد .. إلخ .

٣ – شرعوا فى قتل كل من سعد عبد الهادى مطاوع .. إلخ .

٤ – سرقوا السيارات .. إلخ .

٥ – حازوا الأسلحة والمعدات .

ثانيًا : المتهمون :

١ – عبد الحميد محمد عبد الحميد حب الله .

٢ – فتحى إمام عبد المجيد حزين .

٣ – خويل محمد بركات عبد العليم .

٤ – محمد عبد السلام محمد السيد .

٥ – ياسر كامل على .

٦ – رأفت محمد محمد عثمان .

٧ – محمد حسام أحمد الشريف .

٨ – محمد سمير السيد عيد درويش .

٩ - محمد زين .

١٠ - طارق عبد الفتاح أحمد محمد إبراهيم .

١١ - محمد محمود فؤاد عبد القادر .

١٢ - خالد شحاتة عبد الحليم أبو المجد .

١٣ - عماد علي محمد محمود .

١٤ - حسن محمد إبراهيم حسن .

١٥ - خالد عبد الفتاح حسن مصطفى .

١٦ - محمد علي محمد متولي .

١٧ - حسين طه عمر عفيفي .

١٨ - خليفة عبد العظيم عبد العزيز خليفة .

١٩ - يحيى خلف الله محمد علي .

٢٠ - أحمد محمود محمد قناوي .

٢١ - مدحت عبد اللاه محمد السيد .

٢٢ - سيد محمد علي محمد حرارة .

٢٣ - شريف محمود حسن حمودة .

٢٤ - ربيع أحمد ركابي أحمد .

٢٥ - عمرو مصطفى محمود أحمد .

٢٦ - أحمد محمد محمد يوسف .

٢٧ - رائد عبد السميع علي عمارة .

٢٨ - إبراهيم زين العابدين محمود طلخان .

٢٩ - أحمد شوقي ثابت عبد العال .

٣٠ - ياسر محمود فهمي أحمد خير الدين .

٣١ - شريف محمود شعبان محمود .

٣٢ - علي هاشم محمد عمارة .

٣٣ - أحمد محمد عبد الحفيظ عبد السميع .

٣٤ - محمد أحمد خيرى مأمون الموصفى .

٣٥ - ياسر محمد المأمون عثمان .

٣٦ - أحمد مختار .

٣٧ - مجدى محمد محمد سالم .

٣٨ - محمد على محمد ثابت .

٣٩ - حازم محمد نور الدين حافظ وهدان .

٤٠ - محسن على مرسى شحاتة .

٤١ - عبد الرحيم عبد الغفار مرسى عبد البارى .

٤٢ - عبد المنعم جمال الدين عبد المنعم .

٤٣ - نزار محمود عبد الحميد غراب .

٤٤ - لؤى محمود عبد الحميد غراب .

٤٥ - محمد مصطفى سيد أحمد .

٤٦ - نزيه نصحى راشد .

٤٧ - عادل عوض .

٤٨ - أبو الفتوح عبد الباسط أبو الفتوح .

٤٩ - عادل على عثمان عبد الهادى .

٥٠ - مرجان مصطفى سالم .

٥١ - محمد جلال أحمد .

٥٢ - سيد أحمد حسن عبد الحميد .

٥٣ - عبد الرازق مصطفى عبد الرازق سيد .

وقد صدرت على المتهمين أحكام مختلفة بالمؤبد والسجن لعدة سنوات .

الفصل الثامن

(١)

حوار رجال الدين
حول تطبيق الشريعة الإسلامية

١ – يقول الشيخ محمد الغزالى : هل الدين عقيدة وشريعة ؟ . لم يقل أحد من المسلمين خلال تاريخ الإسلام الطويل إن الإسلام مجرد صلة بين العبد وربه وأنه لا علاقة له بما بين الناس من صلات سواء أكانت هذه الصلات خلقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية .

ذلك أن القرآن الكريم واضح فى أنه نظام شامل لشئون الحياة كلها ، وأنه كما تناول العبادات تناول المعاملات من تجارية واجتماعية ودولية ودستورية ، وهذا بالطبع ليس اكتشافًا يصل إليه رجل ذكى . وإنما هو أمر فى مجال الرؤية العادية لا يغيب عن أحد .

القائل بأن الإسلام عقيدة لا شريعة يستند على أن ما جاء فى الدين من حيث التشريع فهو شرع يتغير بتغير الزمان والمكان ؟ .

السؤال الوارد غريب . فأنا أجد مثلاً أن القرآن فى مجال العبادة يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ ﴾ وفى مجال التشريع الجنائى يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِصَاصُ ﴾ وفى مجال التشريع العسكرى والدولى يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَال ﴾ فكيف أفرق بين هذه الجمل الثلاث ؟ والعجب أن أطول آية فى القرآن هى التى تحدثت عن الديون وكتابتها والعقود والإشهاد عليها وما أشبه ذلك من معاملات . وقد ربط الإسلام بين الإيمان بالله وتنفيذ أحكامه هذه فقال : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ . واعتبر النكوص عن رد الأعداء أو موالاتهم وهم يخاصمون الأمة الإسلامية – اعتبر ذلك ارتدادًا عن تنفيذ أحكام الله . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء ﴾ . ولا أحب أن أسرد القرآن كله أو السنة كلها حتى أكشف عن بديهية لم يتحدث أحد بريبة حولها .

إن ما صنعه الإخوان المسلمون يتلخص فى أمرين . الأول : أنهم حاربوا القوانين الوافدة التى هى جزء من الاستعمار الثقافى والتشريعى ، وطالبوا أن تحل محلها القوانين الأصلية المستمدة من شريعة البلاد . وهذا الذى طلبه الإخوان هو الذى أقر أخيرًا فى الدستور المصرى القائم حاليًا ، وذلك عندما باتت الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع . وهذا لا يخالف الإخوان أحد فيه من المسلمين . أما الأمر الآخر الذى ربما ضاق به البعض فهو اشتباك الإخوان مع الأحزاب السياسية ، أى أنهم تخاصموا مرة مع الوفد ومرة مع القصر . وللوفد أنصاره وللقصر أعوانه .وهؤلاء وأولئك هم الذين تحدثوا عن أن الإخوان يخلطون بين الدين والسياسة والكلمة تستحق التأمل هنا . فإذا كان المقصود بالسياسة موالاة الوفد أو القصر ، فهذه وجهات نظر لا صلة للإسلام بها . أما السياسة بمعناها الذى شرحناه فى صدر هذا الكلام فهى من لب الإسلام ودعوة أن الإسلام عقيدة لا شريعة ظهرت عندما تراءى لفئة أن بعض المتطرفين أو دعاة الإسلام التقليديين قد استغلوا هذا الشعار ، ومن هنا تخوف هؤلاء على الدين من أن يتاجر به وخشوا بالتالى على الدولة دينًا ودولة ؟ .

نحن ذقنا الأمرين ممن تاجروا بالدين ، وممن تاجروا بالدنيا . بل إن الذى رأيناه أن تجار الدين على خساسة ما يصنعون أضعف جانبًا وأوهن قوى من أن يصيبوا المجتمع فى مقاتلة . أما الذين تاجروا بالديمقراطية فلقد زحموا المعتقلات وألحقوا بالبلاد أفدح الأضرار وزعموا أنهم يدافعون عن الحرية ويبشرون بها وهم فى الحقيقة غير ذلك .

ولكن يظل المتاجر بالدين أفدح خطرًا من تجار الديمقراطية أو السياسة . فهو دجال يمارس الشعوذة من أجل الوصول إلى مآرب وأهواء ورغبات شخصية ؟

أنا أكره الدجالين من أهل الدين ومن أهل الدنيا على السواء . ولكنى أسأل نفسى وأسأل الناس هل إذا تاجر أحد بالشعارات العظيمة قررنا الاستغناء عن هذه الشعارات لأن حملتها كذبة ؟ وهل نكفر بالحرية لأن جرائم كثيرة ارتكبت باسم الحرية ، أم أننا ينبغى أن نحدد المراد ونوضح الوسائل ، ونتجمع على مكافحة المنافقين أيًا كان لونهم ؟ هذا ما أريده وما أظن أحدًا يخالف فيه .

أنا رجل درست الإسلام وراقبت حكمه فى عصره الذهبى ، واستخلصت منه مبادئ لا أجد مناصًا من الوقت إلى جانبها . عندما يقول الخليفة الأول : (وليت عليكم ولست

بخيركـــم) . أو عندما يقول : (إن رأيتم خيرًا فأعينونى أو رأيتم شرًا فقومونى) . . أو عندما يقول (أطيعـــونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكـــم) . أو عندما يقـــول : (الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه) .. فماذا أفهم من هذه الكلمات ؟ .

أفهـــم أن الإســـلام جاءنى بحاكم يستمد سلطته منى ، ويجعلنى رقيبًا عليه ، ويمكننى من محاســـبته ومســـاءلته ، ويقول لى ليس حق الطاعة عليك إن انحرفت . وعليه أتساءل : لماذا يستنكر أحد هذه المبادئ ؟ . لماذا لا يقف المرء إلى جوارها ليجهل الحاكم يلتزم بها ، فلا نقبل مـــن أحد أن يقول أنا صاحب القرار ، أو أنا الدولة ، أو يكمم الأفواه ، فلا ننقده إذا نصر بـــاطلاً أو خذل حقًا . إن الإسلام كتاب وسنة يضع الأساس لدولة حرة عادلة مستقيمـــة .. ولا أستطيع أن أترك هذه المبادئ . إذا فرضنا جدلاً أن بعض الناس تاجر بها ، أو كان طالب منفعة فى ظلها . فالمتاجر بالخير فيجب أن يبقى فى الأرض وأن يكثر من حوله الأنصار .

المجـــتمعات التى تقطع يد السارق وترجم الزانى وتجلد شارب الخمر فقد تجدها مجتمعات أبعد ما تكون عن الكمال فى الدين والإنسانية والحضارة ؟ .

يجب أن ندرك بداية النقاط الآتية :

أولاً : قطـــع يد السارق أو جلد الزانى أحكام فرعية فى الإسلام تنبثق من دستور أصلى لابد من صيانته وضمان بقائه . ولا قيمة للفرع إذا كان الأصل غير قائم .

ثانيًا : أن هذه الفروع من شريعة الإسلام قطرة من بحر من التشريعات التى لا حصر لها . ولا أدرى سر إبراز هذه الأحكام بالذات والتعويل عليها حتى تصور البعض أنها الإسلام ، تمامًا كما تصور السيارة بأنها بعض المقاعد الوثيرة أو الأجهزة الإضافية .

ثالثًا : لماذا ينسى الجو الذى يصنعه الإسلام ابتداءًا قبل تنفيذ هذه الأحكام أو المطالبة بها. أكشف هذا وأنا أذكر طرفة لاذعة للحسن البصرى الذى كان يدرس يومًا فى المسجد فسمع ضجة فى الخارج فقال : ما هذا ؟ . قالوا : (لص يقودونه إلى الحاكم) . فقال : (سبحان الله ســـارق الســـر يسعى به إلى سارق العلانية) . هذه الكلمة هى مفتاح الإجابة عن هذا الظن الغـــريـــب بالإسلام وأحكامه . فإن الإسلام ليس من العبث بحيث يهتم بسرقة سلعة أو نعجة

ولا يهــتم بسرقة أصول الثروة الزراعية أو الصناعية فى بلد ما . وأصحاب العقول هم الذين يــبرزون الصغائر ويتعلقون بها ، وينصرفون عن العظائم ولا يفكرون فيها . وأحب أن أسأل الذين يتحدثون عن رجم الزانى وقطع يد السارق : لماذا لم يذكروا أن الفقه الإسلامى يقول إن للقاضــى أن يوقف الحد إذا تاب المجرم . وفى هذا أحاديث كثيرة . وقد قرر هذا المذهب ابن تيمية وابن القيم وغيرهما . وللقاضى أن يوقف قطع اليد إذا وجد أن اللص تاب . لماذا ينسى هذا الرأى الإسلامى ويشتغل البعض إما بالدفاع عن اللصوص وإما بضرورة قطع أيديهم وإن تابوا متجاهلاً هذا الفقه . ثم من قال إن الإسلام يقطع يد السارق الجائع ؟ .

لقد أجمع الفقهاء على أن السارق الجائع لا تقطع يده ، وأن الذى تقطع يده هو السارق المعتدى على حقوق الآخرين إذا تبجح ومضى فى جريمته . إننى أقول بأن إشاعة الأمن ليست أمــرًا ثانويًا أو نافلة وإنما هى ضرورة . ويبقى هناك شىء .. كم يدًا قطعت خلال أربعة عشر قرنًا ؟ . كم حد رجم أقيم فى مصر منذ بدء دخول الإسلام إلى الآن ؟ . أريد لفت النظر إلى تكويــن المجتمع الإسلامى قبل معالجة ما يطرأ عليه من خلل . يجب أن يكون هذا المجتمع غنيًا تتوافر له الضرورات قبل المرفهات ، يجب أن يكون مستقرًا فى أرجائه كلها .

عمل من هذا ؟ . وإلى من نوكل التبعة ؟ .

هذا هو عمل الحاكم الذى يختاره الشعب ليقيم نظام حكم يستريح الشعب إليه ويتنفس ملء رئتيه فى ظله ، فإذا حدث بعد ذلك أن مرض عضو مرضًا معينًا أو مؤذيًا تصرف القضاء بمــا يمــنع الأذى . أمــا تصــوير الإسلام بأنه قطع يد السارق وجلد الزانى مع نسيان ثروة التشريعات الأصلية والفرعية التى تنظم هذا المجتمع فهو نوع من العبث .

دعاة الإسلام « عقيدة لا شريعة » تحركهم مخاوف تستدعيها حكومة مثل حكومة إيران أغرقــت أهــلها فى بحر من الدماء تتضاءل أمامه بحار الدماء التى غرقت فيها شعوب العصر الوسيط التى وقعت فى براثن حكومات دينية مسيحية ؟ .

ســفك الدم فى إيران على هذا النحو يذكرنا بالثورات الفرنسية والروسية التى سفكت فيها دماء كثيرة . وقد قرأنا قراءات متواترة عن حمامات الدم التى أقامها الشيوعيون لشعوبهم وحــروب الإبادة التى حصدتهم . كما قرأنا عن المجازر التى صنعها الثوار الفرنسيون لأعدائهم

ولأنفسهم ، وإذا كان ما نقل إلينا عن الثورة الإيرانية صحيحًا فهو مرفوض من وجهة النظر الإسلامية التى ترى العدوان على فرد واحد هو عدوان على الإنسانية كلها . وأن سفك دم حرام جريمة نكراء .. وأن حقوق الإنسان يجب أن تصان وأن يرفض كل تحد لها أو انتقاص منها .. ومن هنا فإننى أعجب بلجنة العفو الدولية وأتابع تقاريرها بإعزاز حيث أنها تفضح المعتدين وتكشف الأستار عن جرائمهم . إن هذه اللجنة تشبه ما أسس فى الجاهلية الأولى من (حلف الفضول) وكان يعنى وقوف بعض الرجال الكبار إلى جانب المظلوم حتى يأخذ حقه ، وضد المعتدى حتى يرعوى . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (لو دعيت فى الإسلام بهذا الحلف لأجبت) . أى أنه كان يؤيد عقيدته ويناصر أصحابه ويبارك المفكرين فيه ، وأنا باسم الإسلام مع لجنة العفو الدولية فى كل ما ذكرته فى تقاريرها الكثيرة .

ولكن لجنة العفو الدولية قد تخطئ أو تبالغ أو تقع فى هنات اعتمادًا على ما قد تورده بعض التقارير المضللة ؟ .

قد تخطئ اللجنة ، فالخطأ طبيعة الإنسان . ولكن الخطأ القليل لا يهدر الصواب الكثير والنية الحسنة والغيرة على البشرية . وأنا باسم الإسلام أرفض كل حكم – حتى لو رفع راية التوحيد – يفتئت على الإنسانية وحقوقها ويهدر كرامتها وينال منها لأن هذا الحكم يكون منافقًا أو جاهلاً بالقرآن الكريم وحقائق السنة المطهرة .

مقولة أن الإسلام عقيدة وشريعة قد يستأثر الديكتاتور بالكثير من ورائها . ففى ظلها قد يصبح الحاكم الذى لا يرد له قول حيث سيظهر كمنفذ لمنهج الله سبحانه وتعالى . ما هى وجهة نظركم خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار إمكانية أن يخطئ فى التطبيق كحاكم ؟ .

هناك خطأ يقع فيه الكثيرون وهو الخلط بين تعاليم الإسلام وبين بعض الحكام الذين يزعمون أنهم ينفذون الحكم الإسلامى ، وهم فى الحقيقة ينفذون أحكام أنفسهم ويلبون دواعى الشهوة فى دمائهم . وإنى لأتساءل هل كان الحجّاج حاكمًا مسلمًا ؟ . هل كان السلطان سليم فاتح مصر حاكمًا مسلمًا ؟ . هل كان الأمراء الذين استعانوا بالصليبيين ليدعموا نفوذهم فى أنطاكية أو فى القاهرة هل كانوا مسلمين ؟ .

إن التفريط أو الخيانة أو النفاق شيء ، وتعاليم الإسلام شيء آخر ، ولا ننسى أن المسلمين اتفقوا على تسمية الدولة الإسلامية الأولى بالخلافة الراشدة ، ورفضوا تسمية غيرها بهذا الاسم . أى أن الدول الأخرى دول غير راشدة . ولكن عندما نقتبس الأسوة من تاريخنا فلا نقتبسها من استبداد عبد الحميد أو من جور السلطان سليم ، وإنما نستمد الأسوة من رجال السلف الأول أمثال أبي بكر وعمر رضى الله عنهما .

ولكن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقاس عليه . ومن الصعب أن نتأسى بالعهود الأولى وبرجال السلف الأول أمثال أبي بكر وعمر ، وبيننا وبينهم كم من التغيرات الاجتماعية وفترة زمنية تباعد بيننا وبينهم .. بمعنى آخر فإن عنصر القرب الزمنى الذى يحدونى إلى أن أتأسى بهم غير متوافر ؟ .

لا قيمة لهذا القرب لأن صاحب الرسالة أمرنى أن أتأسى بهم آخر الدهر . فقال لى ولإخوتى (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ) فكيف أترك صورة الحكم فى عهد الرسالة والخلافة الراشدة والتقط صورًا لأسرة محمد على أو لأسرة بهلوى أو لأية أسرة أخرى تولت الحكم باسم الإسلام وكانت بعيدة عنه ؟ .

واستطرد الشيخ الغزالى قائلاً كيف يمكن للدين أن يكون دولة ، وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير بينما الدولة تخضع لعوامل التطور وتندرج تحت بند التغيير المستمر ؟ . صاحب الرسالة نفسه يبين أن هناك ما هو ثابت فى الدين فنص عليه ، وما هو متغير فوضع له القواعد والمبادئ . ولنضرب مثلاً : الجهاد مبدأ لنصرة الحق ومنع الفتنة والضرب على أيدى المعتدين . وكان الجهاد قديمًا يأخذ صورة بدائية سائجة بأن ينادى مناد فى العاصمة مثلاً الصلاة جامعة ، فيجيء الناس ويكلفون بالذهاب إلى ميدان كذا . هل يمكن تصور جهاد بهذه الطريقة البدائية اليوم على امتداد الزمن واختلاف الليل والنهار ؟ . بالطبع لا . الأسلحة وربط ميزانيات وعمل ترقيات وما إلى ذلك . أى أن المبدأ باق وتنفيذه متغير . الشورى مثلاً حقيقة إسلامية تجسدت عندما اجتمع الناس وانتخبوا أبا بكر . الآن لابد من تنفيذ هذه الحقيقة لتعرف قوائم الناخبين ويعطى المرشحون حق عرض أنفسهم وتؤلف مجال من المنتخبين تراقب الحاكم وتشير عليه وتجيء بخير منه .

قد يرد عليّ القائلين بأن الإسلام عقيدة وشريعة بتساؤل مؤداه وهل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ويندمج فيها ؟ . ألا يمكن أن تكون الممازجة بين أحكام الدنيا وأحكام الشرع كفيلة بالإساءة إلى شرع الله ؟ .

هذا كلام فيه مغالطة . إذا تحولت الشيوعية إلى دولة وتحولت الثورة الفرنسية إلى دولة وتحولت شتى المبادئ هنا وهناك إلى دول تأخذ لنفسها ولأتباعها ما تريد ، فكيف يقال للدين أنـــت أعظـــم مـــن ذلك ، اختف من ميادين الحياة ولا شأن لك بها ؟ . هذا تفكير يدعو إلى العجب .

إذا كـــان الإســـلام يقيم مجتمعًا كما وصفه الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، وإذا كان الذين فهموا هذا الدين أقاموا الدولة وسيّروا جيشًا يأخذ حق الفقـــير من الغنى الذى أنكره وبخل به ، فهل يقال للدين أنت أكبر من ذلك اقعد فى المسجد ودع الغنى يستمتع بماله ولا تفكر فى أخذه منه فأنت أكبر من إحقاق الحق وإبطال الباطل ؟ .

الداعون إلى أن الإســـلام عقيدة لا شريعة يرون وجوب تنحية الدين بما لـــه من قدسية عن السياسة ؟ .

لابـــد أن تعمل القدسية لإحقاق الحق وإبطال الباطل وعرض مبادئها على الآخرين ؟ . هؤلاء يربأون بالإسلام عن أن يتدنى إلى مرتبة السياسة فى أيامنا هذه خاصة وأنه كثيرًا ما يقال بـــأن السياسة (لعـــبة قـــذرة) وبأن السياسى قد يتحالف مع الشيطان ويلجـــأ إلى المداهنة والمراوغة ؟ .

مـــن القائل بهذا ؟ السياسة التى تتحالف مع الشيطان لا دين لها ، معنى إبعاد الحكم عن الديـــن أنك تباعده عن الخلق والشرف والإخلاص والبراءة . وإنى لأتساءل : ما هو الحرص على أن يكون السياسى لا دين له ولا خلق ولا شرف له ؟ وهل ساسة من هذا النوع هم أمل الإنسانية ومحققو الإصلاح وخادمو الشعوب أم أن هؤلاء جراثيم عفنة يجب أن تستأصل وأن تبتعد الإنسانية عنها ؟ .

ولكن الدولة على نظمها الدائمة التغير عرضة للنقد والتجريح ، كما أنها عرضة للسقوط والهزائم فكيف نعرض الدين لذلك ؟ .

الذى يتعرض هم الأشخاص المخطئون ، أما المبادئ فلا تسقط ، لأننا عندما نتهم حاكمًا ونسـقطه ، فإنما نحاكمه ونسقطه متهمًا بأنه لم يخلص للمبدأ أو لم يقدره حق قدره ، وهذا هو الذى أزرى به . أما المبدأ نفسه فكيف يحاكم ؟ عندما أفصل قاضيًا متهمًا فأنا لا أهين القضاء وإنما أصون القضاء من رجل لم يرتفع إلى مستوى طهره وعدله وشرفه .

ولكن هذا هو الانطباع الذى عكسته ثورة إيران الخومينى بالنسبة للعالم الخارجى ، ذلك أنها أظهرت الإسلام واجهة تبتعد عن السماحة والتحضر والنقاء والدعوة بالتى هى أحسن ؟ . إنــى أشعر بأن الذين يتحدثون عن الإسلام وحده من خلال تطبيق معوج فى بعض البلاد هم أصـحاب غرض وليسوا مخلصين فيما يقولون . وإلا فما الذى أسكت هؤلاء عن سبعين ألف عربى قتلوا وجرحوا من بدء غزو إسرائيل للبنان إلى أن وقعت مذبحة صابرا وشاتيلا . إن هذه المذبحة ليست إلا حلقة من سلسلة من المذابح التى وقعت بين العرب واليهود . ولكن الظروف فقـط هى التى كشفت المأساة الأخيرة . أما المفقودون والضحايا من بدء الغزو إلى الآن فقد أسـدل سـتار كثيف على مصيرهم . وإلى الآن لم يتحدث أحد عن الكتائبيين اللبنانيين . فما الـذى أخرس الألسنة هنا وأطلقها هناك ؟ ثم يجيء سؤال آخر : إن الحروب الدينية لطخت رقعـة أوروبـا قـرنًا من الزمن أو أكثر .. ولا تزال لها بقايا فى أيرلندا . فمن الذى قال إن المسيحية ينبغـى أن تطوى وأن دولة الفاتيكان ينبغى أن تحل لأن الدين يصنع كذا وكذا ؟ . ولا يـزال سفك الدماء فى جنوب أفريقيا يستأصل مئات من الزنوج ، فماذا فعل الناس ضد جـنوب أفريقيا ؟ . إن الدول الكبرى رفضت أن تتخذ ضدها أى إجراء . فهل أخطاء حاكم مسلم فى بلد من البلاد هى التى يراد تضخيمها وحدها حتى يطوى الإسلام كله ؟ . إننى أشعر بأن الأمر كله هنا موضع تساؤل مريب .

هـناك حكومـات دينـية حولت الإسلام إلى حكم أوتوقراطى قام على الديكتاتورية والإكراه ؟ .

وهذه الحكومات ليست إسلامية ، بل الذين ثاروا عليها هم المسلمون حقًا . والوصف الحقيقى لهؤلاء الحكام أنهم مغتصبون .

قـد يقول القائل بأن وضع القوانين العامة للأمة داخل هالة من التقديس ، قد يؤدى إلى وقوعهـا بين يدى حاكم جائر يستغل حصانتها الدينية فى دعم سلطانه والحكم بهواه . وعليه

فليس من صالحنا اليوم أن نغلف قوانيننا بحصانة دينية ، وإلا فإننا نعرضها ونعرض سمعة الدين معها للخطر ؟ .

هـذا السؤال فيه خلط كبير بين التشريعات الاجتهادية والنصوص الدينية .. فالنصوص الدينية موضع احترام ، أما التشريعات الاجتهادية فى الفقه الإسلامى فإن الخلاف فيها لا نهاية ولا حصر له . وقد سئل أبو حنيفة هل ما تقوله هو الحق الذى لا شك فيه ؟ فقال : لعله الباطل الذى لا شك فيه .

إن القضية الواحد تصدر فيها أربعة أحكام باسم الفقه الإسلامى ، وذلك مثلاً : من أكره أحدًا على قتل آخر فما الحكم ؟ . كل ما افترضه العقل هنا قبل به الفقهاء فمنهم من حكم بقتل الاثنين ، ومنهم من منع قتلهما . ومنهم من حكم بقتل الأداة التى نفذت ، ومنم من حكم بقتل المحرّض الذى أكره الآخر على القتل . وليس لاجتهاد من هذه الأربعة قداسة . فلو وضعنا قوانين للعقوبات تنبع من الفقه الإسلامى بطريق الاجتهاد فلن تكون لها قداسة الدين نفسه ، بل ستكون أحكامًا اجتهادية يمكن لمجلس الشعب مثلاً أن يغيّرها وأن يأتى بغيرها وهو مطمئن وغير متهم بالخروج عن الإسلام . ثم إن الأحكام المنصوص عليها قليلة فى الإسلام . فالإسلام مثلاً لم يضع حكمًا محددًا للنصب أو للربا .

يرى البعض أنه فى ظل مقولة الإسلام عقيدة وشريعة قد ينتفى العقل البشرى المناط به التكليف ، ويتساءل هؤلاء : ألا يمكن أن يكون للسياسة الوضعية فى الدول الإسلامية صبغة القوانين الإسلامية من حيث أنها تستهدف نفس الأهداف التى يتطلع إليها الشرع الإسلامى . لا سيما وأننا نعتبر بعض الفقه الإسلامى قانونًا وضعيًا . كما أن الشريعة نفسها قد اعتمدت أساسًا على التعرف والمصلحة والعقل ؟ .

هذا السؤال أكثر مدعاة للغرابة . فإن السائل هنا اعترف بأن أحكام الإسلام تحوى كثيرًا من الجهد البشرى والأوضاع الاجتماعية المتجددة وهذا ما قلناه .

ثانيًا : إذا كان الإسلام قد اعترف بالمصلحة والعقل والعرف ، فما الذى ينكره السائل على الإسلام وتشريعاته إذا كانت تقوم على حماية المصلحة واحترام العقل ورعاية العرف ،

ثم هل جعل هذه الأمور فى سياج من الضمير الدينى وخشية الله هو الذى يراد نفيه حتى يكون مدنيًا لا دينيًا ؟ .

ما الذى يكسبه الناس من إماتة الضمير الدينى على هذا النحو ؟ .

يجب ألا نسىء الظن بهؤلاء ، فهم يرون بأنه عندما نملك العقيدة وهى الأساس فإنها ستضفى كل القيم لإيجاد دستور شريعة وضعية لا تشوبها أية شائبة ؟ . لا أستطيع أن أعترف أبدًا بأن هذه الدعوة كيانًا علميًا ، بل هى جهل شديد بآيات الكتاب وسنة النبى عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الإسلام كله ، والذى أعرفه أنه يوم تموت آية من الكتاب فستموت يقينًا الآية التى قبلها والتى بعدها . وقد قال الله تعالى لأناس من بنى إسرائيل : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وعندما يلغى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِصَاصُ ﴾ فما الذى يمنع من إلغاء ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ﴾ . هذه آية وتلك آية ، وما يجوز على إحداهما يجوز على الأخرى . ولذلك فأنا أنظر إلى فصل العقيدة عن الشريعة على أنه أمر يشكل محاولة لضرب الإيمان بالله واليوم الآخر فى صميمه .

الاعتماد على التشريعات الدنيوية والمدنية الوضعية ليس من الضرورة أن يشكل انفصالاً عن الوحى أو يكون مضادًا له ؟ .

من تجاربنا أن العقائد عندما تحرم حق الحياة فى نظام يرعاها وعندما تحرم حق التوجيه والدفع إلى شتى المسالك والأعمال فإنها تتحول إلى خيال . والإيمان شىء آخر أسمى من خيال وأقوى من الأوهام ، وخصوصًا أن اليهود إلى جوارنا قامت دينًا ودولة . ونرى مناجم بيجين يضع حدود دولته فيسميها الحدود التوراتية . ومن عجب أن الشرق والغرب معًا متفقون على إقامة هذه الدولة وعلى عدم الاعتراف بالبقاء العربى إلا إذا اعترف بهذا الوجود الدولى والدينى لبنى إسرائيل . فبأى حق يجىء من يقول لنا اجعلوا الإسلام عقيدة فقط ؟ .

لا يمكن قيام دولة حضارية بالمعنى المتعارف عليه اليوم إلا إذا تحررت من ربقة الأفكار القديمة خاصة أن هناك من يتخوف دائمًا من الفراد ذوى الرجعية الدينية بالحكم ممن ينادى بعزل المجتمع الإسلامى عن الحضارة وأسبابها ؟ .

لقــد رأيــنا أناسًــا مدنيين وأناسًا دينيين يهتفون بمبادئ عظيمة ، الذين تاجروا بمبادئ عظــيمة، ولكنهم عند التنفيذ يسقطون دون مستواها . وأحب أن أسأل : هل الذين تاجروا بمــبادئ الحرية والإخاء والمساواة كانوا أخطر على الإنسانية أم الذين طلبوا فى هذا العصر أن يكون الإسلام عقيدة وشريعة ؟ .

لــيس كل داعية مبرأ من العيب . فكيف أئتمنه على أن يدعو باسم الإسلام أو على أن يحكــم باسم الإسلام والإسلام منه براء . فكما أنه من الصعب أن نضع فى كل مسجد خطيبًا يؤتمن على دين الله ، فكذلك من الصعب أن نضع فى كل دولة حاكمًا يؤتمن على دين اله ؟ .

حتى فى الدعوة إلى الدين لا أستطيع أن أقول إن كل داعية مبرأ من العيب . فقد يكون مــنافقًا وقد يكون مخادعًا . ولكن هل يترك الناس الدين والأخلاق لأن بعض المشتغلين بالدين والأخــلاق ليسوا على مستوى ما يقولون ؟ . ولكن يجب ألا ننسى أن السياسة دوامة صراع بــين فكر البشر . ولهذا يجب أن تخضع لروح العصر والنظم السياسية الوضعية حتى لا يتهم الإســلام بالعجز عن تمكين الأمم من حقوقها السياسة الكاملة ؟ . ومن قال بأننا نمنعها من أن تخضــع لما تريد ؟ . غاية ما هناك أننى أقول إن الإسلام فى جو الحرية المصونة يكتسح ما عداه من شبهات وترهات . ولكنه يصاب إصابة جسيمة مع الاستبداد السياسى القمعى .

القــول بــأن الإســلام عقيدة وشريعة يفتح الباب أمام استبداد المتطرفين دينيًا للتأويل والمخادعة والمخاتلة وحجب المجتمع الإسلامى عن الحضارة ؟ . ماذا قال التاريخ الإنسانى للعالم الــذى نعــيش فيه عن الحضارة الإسلامية ؟ . هل قال إن الإسلام أوقف سير العقل أو منع الابتكار ؟ . أم أثبت أن أوروبا ظلت فى عصور الظلام إلى أن طلع عليها الإسلام فأنارها . وأن عصر الإحياء الذى بدأ مع أوائل القرن السادس عشر للميلاد نقل أوروبا من ظلمات كانت تعيش فيها إلى عهد آخر . وأن هذه النقلة إنما تمت بعد المعابر الثقافية التى جاءتها عن الأندلس والقسطنطينية والبلقان . أما المتطرفون الصغــار الذين يتكلمون باسم الإسلام ولا فقه لــهم ولا وعى ، فهــؤلاء يجب أن يحاربوا مثلما يحارب الحكام الذين يرفعــون شعار الحرية بينمــا لا وظيفة لهم إلا فتح المعتقلات .

الإسلام عقيدة وعبادة وأخلاق وسلوك .. أما العقيدة فهى المدخل الأساسى للإيمان وأما العبادة فهى إعلان الإنسان عن خضوعه ، وأما الأخلاق فهى انعكاس هذا وذاك على السلوك اليومى للمؤمن .. سواء مع نفسه أو مع غيره .

ولقد تحدث كثير من المؤرخين عن انتشار الإسلام بالسيف ، وكانوا منحازين ضده وغير منصفين لـــه ، والحقيقة أن الإسلام قد انتشر لأنه جاء بحياة أفضل من الحياة التى كانت قائمة يومـــئذ عـــلى الأرض ، وجـــاء بقيم ومبادئ وعدالة أفضل كثيرًا مما كان موجودًا يومئذ فى الســـاحة. ولولا رحمة الإسلام وعدله ، ولولا النماذج المشرفة العليا التى كان عليها المسلمون الأوائـــل لـــولا هذا وذاك ما انتشر الإسلام بسرعته التى انتشر بها .. لأن صراع الحياة يسفر دائمًا عن بقاء الأصلح .. وصدق الله سبحانه وتعالى إذ قال : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ . أدرك المسلمون الأوائل لماذا خلق الله الإنسان وما هى مهمته فى الأرض ، وما هو دوره فى الحياة ، وما هى واجباته وحقوقه ، أدركوا هذا كله بيسر وأدوا دورهم فى الحياة فى ظل هذا الفهم على الوجه الأكمل ، وقدموا للتاريخ الإنسانى صورة لمجتمع يسوده العدل والإخاء والرحمة والتسامح .

يعرف المسلم أن الله خلقه خليفة له فى الأرض ، وأن الله أمره بعبادته والعبادة لا تقتصر على أداء الفروض ، إنما هى تمتد إلى كل لحظة من لحظات الإنسان وهذا يعنى أن عمل المسلم عبادة ، وأن إطعـــامه لأهله عبادة ، وأن سعيه لحل مشكلات الناس وقضاء مصالحهم عبادة ؛ بل إن هدف الشريعة هو تحقيق المصلحة ودفع المفسدة .

وبهذا الفهم الدقيق نجح المسلمون من أسلافنا فى دورهم وبقى علينا نحن أن نفهم دورنا . ولعل أخطر نجاح حققه المسلمون الأوائل كان فهمهم العميق للزمن .. وأهمية اللحظة التاريخية وعلاقة المسلم بالوقت .. وإدراك المسلم لأهمية الأسباب وضرورة العلم .

ويخطـــئ الذين يتصورون أن انتصار المسلمين فى معاركهم ضد الفرس أو الروم نبع من قوة الإيمان وحدها دون بذل الجهد وإعداد العدة ، إن هذا التصور فهم خاطئ لحركة المسلمين وإهـــدار للجهد الذى بذلوه ، إن خالد بن الوليد – مثلاً – كان يستخدم فى حروبه أسلوبًا شديد التعقيد والتقدم عن أسلوب أعدائه ، فكان يفاجئهم من حيث لا يتوقعونه ، وكان يحدد زمـــان المعركة ومكانها بنفسه ، وكان يستغل كل عبقريته العسكرية فى مفاجأة العدو وإرباكه

وتحطيم قوته وسلاحه .. وكان يفعل هذا كله فى وقت خاطف لا يترك للعدو فرصة لجمع شمله أو تنظيم صفوفه .

كـــان هـــناك علم عسكرى إذن عند المسلمين ، وكانت هناك إدارة متقدمة ، وكانت الـــروح المعـــنوية فى ذروة كمالها ، وكان هناك قائد عبقرى يوجه قوته نحو هدفها من أقصر الطرق . كان هذا هو الإسلام كما فهموه . ولقد جاء الإسلام بعقيدة صحيحة فتميزت وسط العقـــائد الفاسدة لعبدة الأصنام ، وجاء بحكم عادل وسط حكم ظالم ، وجاء بنظام للتقاضى لا يتميز فيه الأمير عن الفقير ، وجاء بنظام للأسرة يصلح لتربية أجيال المستقبل ، وجاء بموقف مـــن العقـــل ، فأمر أن يفكر ويبحث وينطلق فى آفاق الكون ، وحدث المسلمين بأن للنتائج أسبابًا وبغير الأسباب لا وصول للنتائج ، وحث الإسلام على العلم وأمر به وجعله جزءًا من العبادة لو صحت فيه النية واتجه فيه القصد لله .

كيف نهدر اليوم هذا كله ، ونتصور أن الإسلام عكوف فى الزوايا أو اختباء فى كهوف الجبال أو هجرة للمجتمع أو تخل عن الحياة ، إن الإسلام براء من هذا كله .

إن أخطر مرض نعانى منه اليوم – ربما أكثر من هذه المفاهيم الخاطئة – هو عدم إدراكنا لعنصر الوقت . عدم إدراكنا لطبيعة الزمن وعناصر القوة فيه . إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَعِـــدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ هل أعددنا نحن القوة ؟ وما هو مفهوم القوة فى عالمنا المعاصر اليوم ؟

لقـــد دخلـــت القوة البدوية إلى المتحف حين تم اختراع الآلة ، ومع التطور الحديث فى عصرنا صارت القوة هى العلم .

هـــل يســـتفيد المجتمع الإسلامى من طالب فى السنة النهائية فى الطب أو الهندسة يترك دراسته ليهاجر إلى الجبال أم يستفيد أكثر لو استمر هذا الطالب فى دراسته وتخرج طبيبًا مسلمًا رحيمًا ينشر الإسلام برحمته فى علاج الخلق ، وما الذى يستفيده المجتمع من مكتشف أو مخترع أو عـــالم أو عـــبقرى قد جلس فى صومعته واعتزل الدنيا فى انتظار مجيء المجتمع الفاضل . إن المجتمع الفاضل لا تصنعه الشعوب بالجلوس فى انتظاره إنما تصنعه بالعمل والجهد والأخذ بحقائق العصر وأسباب العلم .

وهذا ما فهمه السابقون من أسلافنا ، وهذا ما لم يفهمه اللاحقون من الأبناء ، إن خريطة العالم الإسلامى تحدثنا عن حقائق كثيرة محزنة : إن العالم الإسلامى لا ينتج الطعام الذى يأكله ولا يصنع الملابس التى يرتديها ولا يصنع السلاح الذى يحارب به وهذا يعنى خضوع هذا المجتمع بشكل أو بآخر لوسائل من الضغط تهدده فى حياته وفى أمنه .

هل يستفيد مجتمع كهذا من طاقة إنسانية تعتزل الحياة أم يستفيد لو وضعت هذه الطاقة نفسها فى خدمة الإسلام بهدف تطوير المجتمع ؟ .

إن حاجة الدين إلى الدنيا لكى يستقر ويمتد ، كحاجة الروح إلى البدن السوى كى يسمع ويبصر ويمشى .

إن الحياة فرصة ينبغى انتهازها ، وكل لحظة يقضيها الإنسان فى هذه الدنيا يمكن أن يصنع فيها شيئًا ما ، فلا يجوز التجهم لها ، ولا القعود عنها ، ولا العجز عن أسبابها ، ولا الانصراف عن أبوابها ، إن التماوت قبل الموت هرب من وظيفة المرء فى الوجود ، ونكول عن حمل تكاليف الحياة ، وجهالة بأسرار الحكمة العليا ، وهذا التماوت لا يمكن أن يكون دينًا.

إن الدين حركة إصلاح للحياة إذا شردت ، وتوجيه لقواها البدائية كى تعرف ربها وتتقيه، وقد تسربت إلينا جراثيم هذا التماوت مع بعض الفلسفات الانسحابية التى ولدتها أفكار المتشائمين ومشاعر المنهزمين ، ثم انتشر هذا الوباء مع انتشار ألوان معينة من التصوف فى الأمة الإسلامية ، ومع فساد قواعد الحكم ومناهج التربية خلال القرون الأخيرة .

فكانت عقباه أن عاش جمهور المسلمين فوق أرض لا يحسنون استغلالها ، وتحت سماء لا يرمقون آفاقها وفى كون لا تعنيهم أسراره ولا تبهرهم أنواره .

على المسلمين إذا طلبوا وجه الله أن يصححوا موقفهم وأن يصوبوا نظرتهم إلى الدنيا .. ولا يلبسوا الحق بالباطل فيفهموا أن التمكين فى الأرض والإمساك بزمامها بعض الاشتهاء الحرام أو بعض الخروج عن سنن الإيمان .

إن الله تعالى يحدث المسلمين فى كتابه عن البحر الذى سخره لهم لتجرى الفلك فيه بأمره، ووسط ألوف السفن التى تجرى وسط البحار ليست هناك غير سفينة للمسلمين وسط كل ألف سفينة . ويحدثنا الله تعالى فيقول : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

ويسأل الشيخ الغزالى كم صنعنا من آلات الحديد ، إنما النسبة الهزيلة نفسها نسبة الواحد فى الألف .

وانظــر إلى الــزراعة وهى حرفة الشعوب المتأخرة ، إن هناك مساحات هائلة فى بلاد الإسلام لا تزال غفلاً بكرًا ، ما نقصت بركة الله فيها ولكنها تفتقر إلى الأيدى العاملة لتجود بــالخير ، وأين الأيدى العاملة بين أقوام مسخوا دينهم ليعيشوا فى ظله كسالى قاصرين ، نحن الــيوم فى حاجــة إلى المســلم القوى ، نحن فى حاجة إلى مسلم يعرف كيف يعيش فى القرن العشرين ، ويعرف كيف يواجه القرن الحادى والعشرين ، مسلم لا يعيش عالة على الغرب فى ملابسه وطعامه وسلاحه وعلومه وآدابه وفنونه .. إن الإسلام منهج حياة شامل .

وهــو منهج يتفق مع كل عصر كما يقول العلماء ، وهو منهج يرفض التبعية والتخلف وبالتالى .. هو منهج يبحث عن القوة فى كل شىء .

قوة العقيدة .. وقوة العلم .. وقوة العدالة .. وقوة الاقتصاد .. وقوة الخير إلى كل أنواع القوى فى الأرض .. ويربط الإسلام هذا كله باليوم الآخر والبعث والمساءلة والحساب .. أى أن الإنســان فى منهج الإسلام مسئول أمام الله عن عمارته للأرض وقيامه بأمر الخلافة فيها ، وهذه مسألة عامة إلى جوار أنه مسئول عن إيمانه وقيامه بواجباته الدينية وهذه مسألة خاصة .

أى أن الخاص والعام يجب أن يكونا موضع اهتمام المسلم ، وهذا هو الفهم الذى نريده للإسلام وهذا هو المسلم الذى تحتاج إليه الحياة اليوم .

إن المســلم المتعلم .. الواثق .. المنفتح .. والقوى الواعى .. خير كثير من المسلم الذى يعــيش على هامش الحياة ، ولأهمية عنصر القوة فى حياة المجتمعات الإسلامية تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (المسلم القوى خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف) هذا ما تحتاج إليه الحياة اليوم .

وهــذا ما تحتاج إليه المجتمعات الإسلامية فى العالم الثالث . نحن فى حاجة للمسلم الذى يــؤدى حق الخلافة فى الأرض ، وهذا حق لا يؤدى إلا بالعلم والتعلم والجهد الكلى وجهود البارزين والعباقرة .

وأى تقصير فى مجال الخلافة فى الأرض يؤثر على وضع المسلمين العام ويؤدى إلى تبعيتهم واعتمادهم على الآخرين وهذا أمر يؤثر فى استقلال المسلمين ويهدر إرادهم .

إذا اتفقنا على أن القوة مطلوبة فى عصرنا فإن اتفاقنا على تطبيق الشريعة الإسلامية يصبح جزءًا من الاستراتيجية العامة للمجتمعات الإسلامية .

إن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر أمر انعقدت عليه إرادة الأمة بحيث يصبح أى تشكيك فيه أو مزايدة عليه ضربًا من الغفلة أو رغبة فى إثارة فتنة .

إن تطبيق الشريعة يحتاج إلى جهد وعمل ويحتاج إلى الإنسان المسلم الذى يطبق الشريعة تطبيقًا يؤدى إلى تقدم المجتمع والتفاف الناس حولها .

أى أن أسلوب التطبيق هنا بالغ الأهمية ، ولقد شاهدنا تطبيقًا للاشتراكية فى مصر كانت نتيجته انصراف الناس عن الاشتراكية ، كما شاهدنا تطبيقًا للرأسمالية والانفتاح وكانت النتيجة عدم فهم للفكرتين ، وشاهدنا حولنا فى المجتمعات العربية تطبيقات مختلفة للشريعة الإسلامية ، وأحيانًا كان الحاكم يطبق الشريعة كجزء من خطة تكتيكية لصرف الجماهير عن مشاكلها إلى موضوع جديد مثير .

ومن هنا تتبدى أهمية النموذج الذى تقدمه مصر لتطبيق الشريعة ، وأى وقت ننفقه فى التفكيى هلى هذا النموذج هو وقت يضمن لهذا النموذج أن يستمر فى الحياة ويؤتى ثماره .

إننا فى مصر نطبق ٩٠٪ من الشريعة الإسلامية ، إن القانون المدنى كله ليست فيه سوى مادة واحدة خارج الشريعة الإسلامية هى التى تتصل بفوائد البنوك ، وكذلك فى القانون الجنائى أما قانون الأسرة فمشتق بأكمله من الشريعة .

إن تطبيق الشريعة أمر يتطلب بذل جهود فى أكثر من مكان وأكثر من زمان .

إن الشريعة الإسلامية صنعت للمجتمع الإسلامى ، وهكذا ينبغى أن يسير تطبيق الشريعة مع تربية الإنسان المسلم ، وهذا يستتبع وقفة فى التعليم ، ووقفة أكثر من عاقلة مع الأخلاق وثورة فى الإدارة وتفكيرًا علميًا متعمقًا فى الاقتصاد فى ظل ظروفنا الداخلية وفى ظل الدول المحيطة بنا ومن خلال النظام الاقتصادى العالمى الذى نتأثر به تأثرًا بليغًا .

ذلــك لأن الشــريعة الإسلامية تعنى التقدم فى هذا كله ، والأمر بقطع يد السارق فى الشــريعة لا يجــوز إذا كان فى المجتمع من لا يجد قوت يومه .. أو قوت عياله .. وإلا إذا بلغ المجــتمع حــد توفير عمل لكل أفراده ، وإلا إذا أقيم المجتمع المسلم الذى لا يجد الأغنياء فيه مصاريف للذكاة من فرط الرخاء العام . إذا تكامل ذلك كله انطبق حد قطع يد السارق على من يسرق .

إن الاهتمام بتوجيه الإنسان وتنقية القوانين مما يخالف الشريعة هما أمران يواجهان العمل العام ، كما أن تنقية القوانين تحتاج إلى وقت، والعجلة فى هذا كله لا تخدم غير أعداء الشريعة، والــتدرج فى التشريع من مقاصد المشرع ، كما يقول علماء الأصول . المهم أن تصدق النية وتــتجه المشــيئة ويــبدأ العمل الحقيقى لذلك ، وليس الأمر سهلاً ، ولكنه يستحق العناء ، ونلاحــظ هنا أن هذا الجهد سيحتاج إلى اجتهاد وسيحتاج إلى حوار حتى يتم اختيار أفضل آراء العلماء ، وهذا هو الضمان الوحيد لنجاح التطبيق واستقراره .

إن الدســتور المصــرى يحمــل مادة تقول : (الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع) .

وهــذا نــص تلتزم به الدولة ، كما يلتزم به المجتمع ، وإذا جاء واحد وقال : بل نطبق الشريعة غدًا ونطبق الحدود غدًا ، ونقفز على الحكم بالقوة المسلحة وعن طريق الانقلاب ، إذا وقــع هذا كان من حق المجتمع أن يتصدى له ، وكان من حق النظام أن يتصدى له ، على أن تــتم عملية تنقية القوانين من خلال القنوات الدستورية والشريعة ، هذا هو الطريق الطبيعى ، أمــا طــريق الظما والمؤامرات ، فهو طريق مسدود ، وهو لا يؤدى إلى شىء سوى إهدار دم الشــباب الــبرىء المتحمس وتعويق مسيرة الشعب نحو تطبيق الشريعة والعيش فى ظل حياة كريمة.

٢ – يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله : هل الإسلام دين ودولة ؟

تعــبير الصحوة الإسلامية حقيقة من أيام محمد بن عبد الوهاب ، ولكنها لم تأخذ المظهر العلمى السليم إلا بعد ذلك . ذلك لأن محمد بن عبد الوهاب كان مثل السلفيين القدامى .

أما من جاءوا بعده فقد كان من أهدافهم الربط بين الحضارة الغربية والتراث الإسلامى ، وكـانوا ممـن يدعون إلى التحديث ، وكانوا يعتمدون أيضًا على أساس سلفى ، وأساس من النصوص الدينية ، وأساس من التقريب بين الإسلام والحضارة الغربية ، ثم جاء دور حسن البنا وهو قومى . وحسن البنا أنشأ دعوته لتواجه جهود التبشير التى حاولها البريطانيون فى مصر ، ثم جاءت قضية الخلافة بعد إلغاء الخلافة العثمانية فقوت أيضًا من الشعور الدينى ، ودفعت إلى التمسك بمؤسسة الخلافة والدعوة إلى دعوة مؤسسة الخلافة . وبطبيعة الحال دعوة حسن البنا كانـت نقلـة تحـتاج إلى شيء من الدراسة أو البحث . فهو أول من دعا دعوة قوية إلى أن الإسلام دين ودولة ، وهذا يواجه تراثًا قديمًا بأن الإسلام عقيدة وشريعة ، والكتب التى تدرس فى الأزهر إلى الآن تقوم على هذا الأساس .

ومقولة أن الإسلام دين ودولة لها أساس من القرآن فى أن الإسلام دين ، ولكن ليس لها أسـاس فى أن الإسـلام دولة ، فالدولة فى الإسلام أصلاً دولة مدنية ، وليست دولة دينية ، ولذلك حينما نطالب بالدولة الإسلامية على أساس أنها دولة دينية أو الحكومة الإسلامية على أنها حكومة دينية نكون مخطئين دينيًا .

هناك نظام نبوة انتهى بموت النبى صلى الله عليه وسلم وهناك نظام خلافة بدأ بعد موته ، ونظـام الخلافـة بدأ مدنيًا أو دنيويًا ، ولم يبدأ دينيًا ، فلم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم خلـيفة له ، وليس فى القرآن شيء محدد يتصل بنظام الحكم ، ولذلك اختلف المسلمون بعد وفاة النبى الأنصار اتجهوا فى جانب ، والمهاجرون فى جانب آخر ، وبعد جدل عميق اتفق على أن يكـون أبو بكر هو الخليفة / ومعنى ذلك أنه اختير من بين الناس ، وليس على أساس نص ديـنى ، ومـن هنا لا نستطيع أن نقول إن حكومة الخلافة كانت حكومة دينية بالمعنى الذى يطالب به الناس الآن .

وجاء أبو بكر وعيّن عمر ، ومعنى ذلك أن النظام الذى جرى اتباعه فى اختيار أبى بكر لم يجـر اتباعه فى اختيار عمر ، واختلاف النظام يدل على أنه نظام مدنى ، لأنه لو كان نظامًا دينيًا لالتزم به المسلمين .

ومـادام ليس هناك التزام ، إذن فالقضية قضية دولة مدنية ، وليست دينية بطبيعة الحال بعد اختيار عمر .

وعند وفاة عمر اخترع نظام ثالث ، هذا النظام الثالث اختار ستة من الصحابة لم يخترهم لتقييمهم من حيث هم أشخاص ، إنما رأى أن المسلمين قد يقتتلون فى سبيل من يكون الخليفة مـن بـين هؤلاء ، ولذلك جمعهم ليختاروا أحدًا منهم ليكون خليفة ، ومعنى ذلك أيضًا أن القضية لا تزال قضية مدنية ، وليست قضية دينية .

بعد مقتل عثمان لم تكن هناك وحدة سياسية فى العالم الإسلامى ، وبعد مقتل علي لم تكن هناك وحدة دينية ، هناك مذاهب متعددة ، وهناك فرق متعددة ، والرأى فى العملية الإسلامية رأى مختلف .

ونجد فيما يخص تيارات ثلاثة . لا من حيث اختيار الخليفة ولكن من حيث الإبقاء عليه ، أى من حيث الخروج على الخلافة أو الثورة عليها .

عـند المسلمين إمارة تسمى إمارة الاستيلاء ، يعنى من يغلب بالقوة يستطيع أن يستولى ويصبح الحاكم ، وذلك دعوة إلى الفوضى ، وتلك التيارات الدينية الثلاثة وإلى جانبها تيار يخص ابن خلدون بالذات ، أول هذه التيارات تيارات الفقهاء ، وهؤلاء أهل السنة والذين ساروا فى القضية منذ خلافة أبى بكر إلى الآن ، ثم تيار الأدباء والمفكرين ، وهم الذين استقوا معلوماتهم من الفرس ، وهؤلاء حاولوا الحفاظ على الخلافة كأنها نظام ملكى ، ووضعوا نظمًا لتربية الخلفاء وأولادهم .

ثم تـيار الفلاسفة ، وأشهرهم الفارابى الذى يستمد مقوماته فى عملية الحكم وفى المدينة الفاضلة من التراث اليونانى .

وبعـد ثـورة ٥٢ وحـدوث الخلاف الخطير بين عبد الناصر والإخوان المسلمين كان الاعـتقال هو اللبنة الأولى فيما سمى بعد ذلك بالصحوة الإسلامية ففى المعتقل تجادل الإخوان المسلمون وتحاوروا ، وكان الدافع لهذا الجدل هو البحث عن معونة الله فى هذه المحنة التى هم فـيها ، وقـام سيد قطب بإدخال مفاهيم الباكستانيين أو الهنود المسلمين إلى الحوار الداخلى لجماعـات الإخـوان فى مصـر ، وبـدأ يتصدر هذه الحركة ، ومنها جاءت فكرة الحكومة الإسلامية، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، ومثل هذه التيارات القوية ، وجاء مقتل سيد قطب عملاً اعتبره الإخوان من أعمال العنف ، وأنه شهيد ، وقرروا فيما بينهم وهم لا يزالون فى السجن

الأخـــذ بالـــثأر . ولذلـــك كان قتل سيد قطب مؤشرًا إلى أنه أصبح هناك عداوة بين النظام والإخوان عداوة لابد من الانتقام لها .

وحينما جاء السادات وقع فى خطأ هو الذى أدى إلى أن أصبح للجماعة الإسلامية قوتها ولهـــا فاعليـــتها حـــتى قبل أن يأتى الخومينى فى إيران ، فالسادات أراد أن يضرب الناصريين والشيوعيين واعتمد على الجماعات الدينية فى هذه العملية ، ودفعها فى سبيل العنف لأنه وزع عليهم أشياء مما تستخدم فى العنف ، وكان الواسطة فى ذلك محافظ أسيوط السابق ، كان هو الأداة لـــتزويد هؤلاء الناس بالأسلحة ، وهذه الجماعات اختلفت فيما بينها قبل أن تخرج من المعتقل حول طريقة استخدام العنف ، لكنها جميعًا كانت قد تبنت العنف ، وكان الخلاف هل يتم استخدام العنف الآن أو أن المصلحة تحتم تأجيله حتى تقوى شوكة هذه الجماعات : جماعة الجهـــاد هـــم الذين يستخدمون العنف استخدامًا حاليًا ، وجماعة التكفير والهجرة من الذين يرجئون استخدام العنف حتى يكون هناك وسيلة من وسائل العمل ، لقد حدث صراع بينهما وتبادلت كلتاهما تكفير الأخرى ، فالنية كانت مبيتة على العنف ، وأنهم لن يلجأوا إلى الإسلام أو إلى الحـــوار ، وســـاعد عـــلى ذلـــك أدوات استخدام العنف التى وجدت فى أيديهم أيام السادات، ثم جاءت الثورة الإسلامية فى إيران والتى أغرت بأن من الممكن قيامها فى أية دولة إسلامية .

وهـــم حيـــنما ذهـــبوا إلى التكفير واعتمدوا على المسلمين الباكستانيين ، والمسلمون الباكستانيون فى أحكامهم كانوا صادقين ، لأن الحام كانوا إما هنودًا وإما إنجليزًا ، فالتكفير أقيم على مضمون حقيقى . وحتى عندما اعتمدوا على ابن تيمية ، فلقد كان لابن تيمية موقفه من التتار ، وهو أيضًا موقف مماثل ، فالتتار لم يكونوا مسلمين ، والحكم عليهم حكم صادق .

أما الحكم على مجتمع مسلم ، وأركان الإسلام تؤدى فيه ، وأركان الإسلام هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان قائمة وتؤدى فى هذا المجتمع ، وليس من السهل أن يحكم عـــلى المجـــتمع بأنه كافر ومن هنا فالتصور أن المجتمع لابد أن يدافع عن نفسه ، مادام يؤدى أركـــان الإســـلام فلابد أن يدافع عن نفسه ضد هذا العنف ، تأتى بعد ذلك عملية إيران . المذهـــب هناك شيعى ، والإمام له من الحقوق والواجبات أكثر من أى عالم فى الدين من أهل

السنة ، هناك لدى الشيعة كلام الإمام جزء من الدين ، أما أهل السنة فليس لأى مسلم هذا السلطان ، فالإمام الشيعى حينما يوجه المسلمين فى إيران يتجهون إلى حيث يقول ، ومن أجل هذا لا تكون المسألة فى مصر مساوية للمسألة فى إيران .

إن الظاهرة الحالية التى تقترن بالصحوة الإسلامية وهى الجماعات التى تتسم فى فكرها بقدر غير ضئيل من الغلو والتى تكفر المجتمع وتحكم عليه بالجاهلية ، وتهتم بشكل الإسلام أكثر مما تهتم بجوهر الإسلام ، وتهتم بالرموز أكثر مما تهتم بالعقلانية فى فهم الدين الإسلامى ، لا تتميز بالاستنارة ، وإنما تتميز بتيار الغضب ، هم قوم غاضبون للخروج عن الإخلاقيات الإسلامية ، هم قوم غاضبون للتفريط فى القيم الإسلامية ، هم قوم يقفون فى موقع التحدى للنموذج الغربى ، حتى هذه الشكليات التى يتمسكون بها اللحية والجلباب والسواك والاهتمام بالأشياء الرمزية .

لقد كان شكرى مصطفى لا يستخدم الكهرباء ، ولكن كان يشعل مصباحًا ، ولم يكن ينام على السرير بل على الأرض أى يحرم ما لم يكن يستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه كان يستخدم المواصلات والتليفون وباقى أدوات الحضارة ، فهل هذا هو الإسلام ؟

إننا حين نقول الصحوة الإسلامية ، نقصد بالإسلام هنا الإسلام الدين ، وإذا فسرناه بأنه الإسلام الناجم عن التفكير البشرى ، أو عن اجتهاد العقل البشرى ، فإن موقفنا يكون مغايرًا. نحن ملتزمون بالإسلام الدين الذى مصدره الكتاب ، والذى بينته السنة ، أما ما جاء عن غير ذلك ، ما جاء عن التفكير .. تفكير الإنسان المسلم فى قضايا عصره ووضعه ، فهى أحكام يكون التزامًا بها مجرد التزام أدبى ، وليس التزامًا دينيًا ، إذا ما رجعنا إلى القرآن وإلى مسألة الإسلام عقيدة وشريعة نجد أن الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن الشريعة نوعان : نوع هو العبادات ، ونوع آخر هو المعاملات . الإسلام من حيث هو عقيدة يتعلق غالبًا بالغيبيات ، وعلى المسلم أن يؤمن به ويلتزم ويصدق .

حينما نأتى إلى مقولة الإسلام دين ودولة : نجد أن الإسلام دين جاء به القرآن ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ و ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ .

وليس فى الكتاب ما يدل على أن الإسلام دولة بأى حال من الأحوال ، وكلمة دولة فى القـــرآن حينما وردت تسمى الأشياء التى تتداول بين الناس ، ولم تأت الدولة بمعنى الحكم ، والـــذى ورد بمعنى الحكم أو السلطان هو الملك ، والقرآن نفى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون له مُلك أو أن يكون ملكًا .

أن تحكم الملوك باسم الحق الآلهى هذا جاء أيضًا فى القرآن ، ولكن النبى لم يوصف بها : ﴿ وَقَــالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فكون الملوك تستمد ســلطانها أحــيانًا من الله جاء بها القرآن ، ومن أجل هذا هناك أنبياء جمعوا بين النبوة والملك كسليمان وداود ، أما النبى عليه السلام فلم يجمع بين الأمرين ، وظل النبى رسولاً إلى أن توفاه الله ، فإنما هو كان يمارس الأعمال ويدير الحياة فى المجتمعات باسم النبوة والإسلام ، ومن أجل هذا جعل القرآن الكريم طاعة الرسول من طاعة الله .

وعلى هذا الأساس إذا كان نظام الحكم فى الإسلام نظامًا ناجمًا عن اجتهاد العقل البشرى فهو بهذا المعنى نظام علمانى لا يقوم على أساس من النص الدينى حتى نقول عنه إنه نظام دينى ، فهو نظام علمانى بمعنى أنه ناجم عن اجتهادات العقل البشرى ، والمسلمون هم الذين توصلوا إلى نظـــام الخلافة الذى يعتبر امتدادًا للنبوة أو الرسالة إنه نظام بشرى يخالف النظام الرومانى والنظام الفارسى فى ذلك الوقت ، فهو نظام عربى خالص اجتهد فيه العرب المسلمون وأقاموه وأصبح نظامًا للحكم فى البلاد الإسلاميه .

مـــن هذه الناحية نستطيع أن نقول إن الصحوة الإسلامية عندما تطالب بالخلافة ، فهى تدعونا إلى نظام تشريعى أقامه العقل البشرى ، ونحن عندما نقول مصادر التشريع أربعة ، فهى مصادر للتشريع متعددة . قد يكون النص ممثلاً فى الكتاب أو السنة ، وقد يكون الاجتهاد ممثلاً فى الإجماع وفى القياس ، ففى التشريع الاجتهاد ، وهو اجتهاد للعقل البشرى ، وهذا النوع من الاجـــتهاد لســـنا ملزمين به ، هذا يدعونا إلى أن نتحدث عن مذاهب الفقهاء وكتب الفقه ، ومذاهـــب الفقهـــاء فى مـــيدان المعاملات ليست إلا قانونًا وضعيًا .. ليست إلا اجتهادًا من اجتهـــادات هؤلاء الناس ، فنحن حينما نفكر فى الصناعة أو فى الزراعة أو فى التجارة وغيرها لا نستطيع أن نقول إن ما انتهى إليه هؤلاء الفقهاء هو تشريع دينى ، وإنما هو تشريع دنيوى .

وعـــندما ندعو إلى مذاهب الفقهاء فمن حقنا أن نقبل أو نرفض ، لأننا هنا يجب أن نميز بين ما كان مصدره الاجتهاد وما كان مصدره النص ، سواء من الكتاب أو السنة ، وحتى فى نطاق ما كان مصدره النص فهناك خلاف بين العبادات والمعاملات .

العـــبادات حـــق الله لا يمكن المساس به . أما المعاملات فحيث إنها علاقة بين الإنسان والإنســـان أو بـــين الإنسان والأشياء ، فمن الممكن حتى إيقاف النص إذا كان النص يخالف المصلحة العامة ، وقد أوقف النص كثيرًا ، وأقرب ما يكون كمثال قضية الغنائم ، فآية الغنائم معطلة لأن النظام القتالى الموجود فى القرآن قد تغيّر ، وبناء على ذلك فإن نظام توزيع الغنائم الـــذى يترتـــب على هذا النظام القتالى قد تغير أيضًا ، إذن فليكن مبدؤنا هو أن نميز بين ما مصدره اجتهاد العقل البشرى وما مصدره النص ، فإذا كان مصدره العقل البشرى فلنا الحق كل الحق فى أن نغيره ونستبدله ونأتى بغيره ونمارس حياتنا على الأسس التى تتفق ومصلحتنا فى هذا العصر .

إن هناك ثلاثة مستويات للشريعة يخلط الكثيرون بينها : المستوى الأول ما تمثله النصوص القطعـــية فى الكتاب والسنة التشريعية لأن السنة جزئية . سنة تشريعية وسنة غير تشريعية . والمســـتوى الثانى : التفسيرات الفقهية للنصوص التشريعية التى وردت فى الكتاب أو السنة ، المستوى الثالث : الممارسات الفعلية التى حدثت فى التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى الإســـلامى ، والـــتى كـــان يمارسها الحكام المسلمون فى تنظيم المعاملات بين الناس ، بالنسبة للمستوى الأول المتعلق بنصوص الكتابر فإن عدد آيات القرآن الكريم لا يزيد على ستة آلاف أية لم يتعرض منها للمعاملات القانونية إلا ما يزيد قليلاً أو يقل قليلاً عن المائتى آية . وأغلب الآيـــات متعلقة بالعقائد والعبادات بالقصص الدينى ، ولكن القليل جدًا من الآيات هو الذى نظم شئون المعاملات .

إن أغلـــب هذه الآيات يتعرض للحدود وللميراث ولمسائل البيع ، وكلها قضايا كانت توافق حالة المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت ، ولكن المجتمع الإسلامى قد تجاوزها الآن بكثير ، وأصبح هناك كثير من القضايا القانونية الأكثر تعقيدًا والتى تستدعى تنظيمها قانونيًا جديدًا لأنه ليس هناك تنظيم لها فى الكتاب أو السنة .

وحتى آراء الفقهاء أيضًا غير ملزمة منها ما نراه مناسبًا لنا ، ونطرح ما نراه غير مناسب لـنا ، وإذن فـإن الملزم فقط هو ما جاء نصًا فى الكتاب إلا أن يتعارض مع المصلحة العامة ، وبالـتالى فإنه حتى فى نطاق النصوص المتعلقة بالمعاملات فإن من حقنا إذن أن نسأل ما مصدر إلـزامها ، وهل تكون حجيتها نسبية مقصورة على المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت أو أن لها حجية مطلقة ؟ وإذا كان لها حجية مطلقة فما مصدر هذا الإطلاق من الكتاب أو السنة ؟ .

وسـوف نـبدأ بآيات الحدود : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَـالاً مِنْ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَـتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ ﴾ ، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . وعلينا أن نعرف أيضًا أنه لا يوجد حد على الخمر . إنما هناك نهى عـن الخمـر . والذى وضع (حد) الخمر هو الرسول صلى الله عليه وسلم وكان العقاب الضرب بالنعال ، وعندما استفتى عمر عليًا بن أبى طالب حول جزاء شارب الخمر قال على : إذا شـرب هذا وحاول النيل من أعراض المحصنات والغافلات فخذوه حد المفترى وهو الجلد مائـة جلدة . ومن الآيات القطعية التى وردت تنظيمًا للمعاملات فى المجتمع الإسلامى الآيات التى تنظم (الميراث) .

كـيف تعامل الصحابة وكانوا أكثر فهمًا للإسلام منا مع هذه الآيات ؟ وكيف تعرضوا للمسألة النسبية فى ذلك الوقت ؟

لقد أوقف عمر بن الخطاب عام الرمادة (حد) قطع يد السارق ولم يطبقه ، وفى مسائل المـيراث عرضت عليه مسألة تسمى بالحجرية أو الحمارية حيث ذهب إليه أناس لكى يرثوا ، وهـم لا يـرثون وفقًا لقواعد النصوص التى وردت فى القرآن الكريم ، وإنما المنطق يورثهم . وقـالوا له هَـب أبانا حجرًا أو حمارًا يا عمر فورثهم بالمخالفة لقواعد الميراث التى وردت فى القـرآن الكـريم ، والـنموذج الثالـث فهو سهم المؤلفة قلوبهم ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فتجد أن عمر أبطل سهم المؤلفة قلوبهم ، لأن حكمـته انتهـت ، ومن هنا فإنه حتى فى المستوى الأول مستوى النصوص الشرعية المنظمة للمعاملات اليومية فإنى أميل إلى الأخذ بنسبيتها . أى بتفسيرها فى سياق تاريخى محدد .

ومن هذا المنطلق فسرت آيات الحجاب وآيات الميراث وأخذ بفكرة أن الشريعة مقاصد وليست نصوصًا قطعية ملزمة فى كافة العصور .

المقاصد كالنفس والنسل والمال والدين ، ويمكن إقامة مقاصد أخرى كإطعام الجائع وكسوة العارى .. إلخ .

وهذه المقاصد تتغير حسب كل زمان ومكان .

٣ - يقول المستشار سعيد العشماوى .. ما موقف الربا والفوائد بين الشريعة والقانون الوضعى ؟

جاء فى القرآن الكريم ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ سورة البقرة وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تناسئ فى المال ، وتفاضل فى العقود والمطعومات ، فإذا حل أجل استيفاء الدين كان الدائن يسأل المدين : أتقضى أم تربى ؟ أى هل تسدد الدين أم تزيد إلى أجل آخر ، وكان المدين يستسهل التأجيل فيزيد فى المال زيادة كبيرة (الضعف أو ما ماثل) مقابل أجل (ربما كان قصيرًا) وكثيرًا ما كان يتوالى التأجيل والمضاعفة حتى يحل أجل لا يستطيع فيه المدين الوفاء بالدين ، ولا يقبل الدائن تأجيل السداد فيفلس المدين لدين كان فى الأصل قليلاً ، ثم تضاعف عليه بالتأجيل أضعافًا مضاعفة ، ويمكن أن يكون ذلك سببًا فى استرقاقه ، لأن جزاء عدم الوفاء بالدين كان تملك الدائن للمدين ، فيصبح هذا رقيقًا (عبدًا) لدائنه أو لمن يبيعه إليه .

وقد أراد القرآن منع هذا الوضع الشاذ فى مجتمع المؤمنين ، فجاء نص الآية ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ ونتيجة الأخذ بظاهر الألفاظ وعدم إدراك حكمة التشريع ، يرى البعض أن كل بيع حلال ، وكل زيادة فى مال الدين حرام ، والواقع غير ذلك ، فليس كل بيع حلالاً، وليست كل فائدة حرامًا . فالربا فى اللغة يعنى الزيادة المطلقة ، يقال ربا الشىء يربو إذا زاد ، وقد أطلق شرعًا على الكسب الحرام ﴿ وَأَخْذِهِم الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ ولا يقصد بهذا الربا الربا المقصود فى الآية بل المال الحرام مثل قوله تعالى ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

والـــربا المقصـــود بالآية هو ربا (النسيئة) والتفاضل فى العقود والمطعمات ، والقرآن الكريم لم يبين المقصود من الربا المحرم ولا المقصود من البيع الحلال ، وقد نشط الفقه الإسلامى إلى تحديد ذلك استهداء بأحاديث وتصرفات النبى صلى الله عليه وسلم .

ويرى هذا الفقه حظر بعض البيوع (على الرغم من أن ظاهر لفظ القرآن يفيد حل البيع على الإطلاق) لما يراه الفقهاء من أن هذه البيوع تلحق ضررًا بأحد طرفيها مما يتنافى مع روح الإسلام .

مـــن ذلـــك بيع العينة ، وهو بيع بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم شراء المبيع بأقل من الثمن المباع به ، وسمى بيع العينة لحضور النقد ، وكذلك بيوع أخرى مثل المزابنة ، وهو بيع شـــىء جزاف لا يعلم كيله ولا وزنه ولا عدده بشىء مسمى من الكيل أو الوزن أو العدد ، وبـــيع المحاقلة وهو بيع الزرع قبل بدء صلاحه ، وقيل إنه بيع الزرع فى سنبلة بالحنطة ، وقيل المزارعة على نصيب معلوم بالثلث أو الربع أو غير ذلك .

ومـــن البيوع المحظورة اختلاط البيع بالسلف ، وهذا ما كان يعرف فى القانون المصرى ببيع الوفاء ، وحظره القانون المدنى النافذ حاليًا ، وكان قوام هذا البيع أن يبيع المدين إلى الدائن شيئًا (عقارًا أو منقولاً) مقابل قرض يقترضه منه على أن يسترد المبيع فى أجل معين يقدر هو أنـــه ســـوف يستطيع فيه الوفاء بما اقترض ، ثم يحدث أن يسوء تقديره فلا يستطيع الوفاء فى الأجـــل – وغالبًا ما يحدث ذلك – فيصير البيع باتًا مع أن ما اقترضه من مال أقل بكثير من قـــيمة البـــيع ، وقـــد نص القانون فى المادة ٤٦٤ على أنه (إذا احتفظ البائع عند البيع بحق استرداد المبيع خلال مدة معينة وقع البيع باطلاً) .

فالحقـــيقة إذن – على الرغم من ظاهر ألفاظ القرآن أن ليس كل بيع حلالاً ، وكذلك فليست كل فائدة ربًا حرامًا .

فالقـــانون المصرى ينص فى المادة ٢٢٦ على أنه (إذا كان محل الالتزام مبلغًا من النقود وكان معلوم المقدار وقت الطلب وتأخر المدين عن الوفاء به كان ملزمًا بأن يدفع للدائن على سبيل التعويض عن التأخير فوائد قدرها أربعة فى المائة من المسائل المدنية ، وخمسة فى المائة من المســـائل الـــتجارية ، وتسرى هذه الفوائد من تاريخ المطالبة القضائية بها إن لم يحدد الاتفاق

أو العرف التجارى تاريخًا آخر لسريانها ، وهذا كله ما لم ينص القانون على غيره) وينص فى المادة ٧٢ على أنه (يجوز للمتعاقدين أن يتفقا على سعر آخر للفوائد سواء أكان ذلك فى مقابل تأخير الوفاء ، أم فى أية حالة تشترط فيها الفوائد على ألا يزيد هذا السعر على سبعة فى المائة وتعين رد ما دفع زائدًا على هذا القدر .

وكل عمولة أو منفعة أيًا كان نوعها اشترطها الدائن إذا زادت هى والفائدة المتفق عليها على الحد الأقصى المتقدم ذكره تعتبر فائدة مستترة ، وتكون قابلة للتخفيض إذا ما ثبت أن هذه العمولة أو المنفعة لا تقابلها خدمة حقيقية يكون الدائن قد أداها ولا منفعة مشروعة) .

بمقتضى هذه الأحكام تحتسب على الديون فوائد اتفاقية حتى ٧% من أصل الدين سنويًا، فإذا لم يتفق الطرفان على سعر الفائدة كانت ٤% فى المسائل المدنية و٥% فى المسائل التجارية يبدأ سريانها من تاريخ المطالبة القضائية .

هذه الأحكام هى التى يتصور من ظاهرها قيام اختلاف بين النظام القانونى المصرى والنظام التشريعى الإسلامى ، فهل هى تمثل اختلافًا فى الأحكام أو أنها فى الواقع نتيجة طبيعية لاختلاف حدود المكان وتغير أحوال الزمان ؟

إن الأمر يقتضى لجلائه إجراء مقارنة بين نظام الربا ونظام الفوائد على الديون ، وتحدد الخلافات فى أربع نقاط .

أولاً : الربا يقع فى المثليات ، والفوائد تكون فى النقود ، وهى ليست مثليات : ففى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم رواه مسلم (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل يدًا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى .. الآخذ والمعطى فيه سواء بسواء) .

وفى حديث آخر رواه عبادة بن الصامت (الذهب بالذهب تبرها (الخام) وعينها (المضروب) والبر بالبر مدى بمدى ، والملح بالملح مدى بمدى ، فمن زاد أو استزداد فقد أربى . فلا بأس ببيع البر بالشعير والشعير أكثرهما يدًا بيد وأما نسيئه فلا) وفى قول آخر (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد) . وواضح مما سلف أن الأمر يتعلق بمثليات وفى عمليات مقايضة تتم فورًا وفى الحال ، والمقصود

بالمثليات ما يتماثل نوعًا كالحبوب والتمر والفواكه وما شابه ، والمعنى بالمقايضة أنها تتم مبادلة لشيء دون تدخل عنصر النقود كمعيار لتحديد قيمة كل من عنصرى المبادلة .

والمقايضة كانت هى أسلوب التعامل فى مجتمع المدينة حيث نزل التشريع ، فلم يكن فى هذا المجتمع نقود ولم يعرف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سك العملة ، وإنما كان العرب يتداولون العملات الذهبية الخاصة بالروم (ذهب الروم) ، والعملات الفضية الخاصة باليمن (فضة اليمن) ، وهذا التبادل كان يتم على أساس المقايضة أيضًا ، فلم يكن هناك نظام نقدى تصدره الدولة وتقدر فيه قيمة النقود تبعًا لأسباب كثيرة متغيرة كما هو الحال فى العصر الحالى، وكما سوف يلى بيانه ، إنما كما يتم تبادل الذهب والفضة باعتبارها مثليات – أى مواد من عنصر واحد متشابهة متقاربة شأنها فى ذلك شأن الحبوب والثمار والفاكهة .

وفى مجتمع المقايضة تتم غالبًا فى مدينة واحدة تكون أغلب الحبوب والثمار والفاكهة فيها متشابهة متقاربة لتماثل التربة وأسلوب الزراعة وطريقة الرى وما إلى ذلك ، ففى واقع كهذا تكون الزيادة بين المتماثلات ربا ، وتكون الزيادة فى النسيئة ربًا كذلك خاصة مع توافر شروط أخرى .

ويلاحظ فى الحديث الشريف أنه لا بأس ببيع الذهب بالفضة ، والبر بالشعير ، كما أنه فى رواية عبادة بن الصامت يقول : (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم) أى أن المحظور والربا إنما يكون فى المقايضة بين مثليات ، أما إذا اختلف عنصر المقايضة كأن كان ذهبًا وفضة أو برًا وشعيرًا أو ذهبًا وبرًا فلا مجال لإعمال حكم الآية أبدًا ، ولا يكون ثَمَّ ربًا على الإطلاق .

والنقود فى العصر الحالى – حتى وإن كانت ذهبًا أو فضة – ليست هى القيمة ، بل هى رمز للقيمة يتغير من يوم ليوم ومن بلد إلى بلد ، بل وتتغير قيمته فى نفس المكان وفى ذات الزمان باختلاف قدرته الشرائية .

فقيمة النقد الورقى هى فى ضمان جهة الإصدار (الدولة) صرف عدد معين من وحدات معينة (١٠٠ قرش مثلاً) وهذه هى القيمة الاسمية ، أما القيمة الفعلية فهى فيما يمكن شراؤه بهذه الوحدات ، فيوجد ثَمَّ فارق بين القيمة الاسمية (أو القانونية) للنقد والقيمة الفعلية (أو

القـــوة الشرائية) له ، وكذلك الحال فى الذهب والفضة ، فالعملة الذهبية أو الفضية لها قيمة قانونـــية (مائة جنيه أو خمسة جنيهات أو عشرون قرشًا .. وهكذا) وهذه القيمة القانونية فى الغالـــب تكـــون أقل من سعر الذهب أو الفضة فى سوق المعادن وإلا سحبها التجار وبيعت مصاغًا ، ويكون ذلك أكسب لهم ، فالقيمة القانونية للمعادن دائمًا – فى العصر الحالى – تقل عن القيمة الفعلية ، وقوتها الشرائية تختلف من مكان إلى مكان ومن وقت إلى وقت ومن سلعة إلى سلعة فهى بذلك ليست مثليات أبدًا ولن تكون .

إن الـــنقود فى واقـــع الحال هى رمز للقيمة ، وهى ليست القيمة أبدًا ، لأنهـــا لا تُباع ولا تبادل لذاتها ، ولكن للقيمة التى تعبر عنها ، وهذه القيمة تختلف فى سوق النقد وفى سوق السلع تبعًا لعوامل كثيرة جدًا بحيث يندر أن يكون النقد متماثلاً فى رمزه ، ففى الأزمنة السالفة كانـــت الحياة مستقرة غير متحركة ، وكانت البلدان معزولة تتعامل مع بعضها بندرة شديدة وبالمقايضة غالبًا بين أشياء متماثلة الصنف وثابتة السعر ، أما فى العصر الحديث فقد تحول العالم كله إلى قيمة إلكترونية وأصبح سعر عملة كل بلد يتحدد بعناصر كثيرة منها حجم الاستيراد والتصدير ومدى وجود ثروات طبيعية ، وقوة التشغيل فى البلد وحالة التضخم أو الانكماش وإنفـــاق الدولة أو إمساكها .. وما إلى ذلك من عناصر تجعل سعر النقد متغيرًا بين يوم وآخر هذا فضلاً عن أن السلع والخدمات المعروضة يتغير سعرها دائمًا تبعًا لقانون العرض والطلب ، وثمـــن الاستيراد وسعر العملات الأجنبية التى تم بها الاستيراد ، وما إلى ذلك ، ويعنى هذا كله أنه لا يوجد ثبات أبدًا لا فى سعر النقد ولا فى سعر السلع وأن التماثل فيها مستبعد تمامًا .

فالمقايضـــة تتم بين متماثلات ثوابت ، أما التعامل بالنقد فهو تعامل بين عنصرين كليهما مـــتغير غير ثابت ، وبناء على ذلك فإنه إذا أمكن حساب الفارق بين المتماثلات الثوابت فإنه يســـتحيل تحديده بين عنصرين متغيرين ، وإذا كان التعامل فى المثليات يمكن أن يشكل ربًا . فالنقود ليست مثلية ولا هى القيمة ، وإنما هى رمز القيمة يتغير بكل عناصره تغيرًا مستمرًا .

وربما لأقل من ذلك فقد اختلفت الرواية عن الإمام مالك فى الفلوس (النقود) فألحقها بـــالدراهم من حيث كانت ثمنًا للأشياء ومنع من إلحاقها مرة من حيث أنها ليست ثمنًا فى كل بلـــد، وإنما يختص بها بلد دون بلد يضاف إلى كل ذلك أن النقود ليست فى العصر الحالى هى العملات المعدنية والعملات الورقية – ذلك معنى تقليدى تجاوزته الأساليب الاقتصادية الحديثة

ممـــا يعتـــبر نقـــدًا فى الوقـــت الحالى ويأخذ حكم النقد فى أنه رمز للقيمة وله قوة شرائية : الاعـــتمادات الماليـــة وخطابات الضمان والشيكات بأنواعها وسندات الخزانة والتسهيلات الائتمانية وما إلى ذلك وكثير من هذه عبارة عن إجراءات حسابية ومقاصات متوالية فلا هى مقايضة ولا هى نقد تقليدى وبالتالى فهى بعيدة عن فكر المثلية .

ثانيًا : الربا يقع بين شخصين ملحوظ فيه كل منهما ، ويستغل فيه الدائن شخص المدين والفائدة تقع بين مال ومال أو بين نظامين ماليين :

فى مجتمع المدينة يقوم التعامل بالمقايضة بين شخصين ، فإذا كان ثم تداين فإن العلاقة بين الشخصين لابد أن تكون قائمة ، وأن يكون شخص كل منهما ملحوظًا عند التعاقد ، فالدائن يعنى بأن يكون على معرفة تامة بالمدين حتى يعرف أين يضع ماله ، وأن التعامل كان يتم على أساس الثقة الشخصية والمدين كان لابد أن يكون على معرفة تامة بالدائن ليضمن ما يحدث له إن تخلـــف عـــن سداد الدين ، إنها فى الواقع علاقة بين شخصين ، وقد أراد القرآن أن يقيم العلاقـــات بين المؤمنين فى المجتمع الناشئ بالمدينة على أساس التقوى والفضل ، لا على أساس اســـتغلال الحاجة . فمثل هذا الاستغلال كان قمينًا بما يزلزل المجتمع فى بداية تكوينه وأن يقيم حواجز من العداء بين المؤمنين ، أما نظام الفوائد على الديون فالملاحظ فيه المال لا الشخص ، أى أنـــه يتم بين مال ومال لا بين شخص وشخص وكم التعامل بين المؤسسات (شركات أم هيـــئات أثم مصـــارف أم دول) يستغرق حوالى ٩٨٪ من الائتمان العالمى . فالعلاقات هنا معـــنوية محضة ، ولا دخل للأشخاص فيها ، وحتى عندما يكون التعامل بين شخص ومصرف فـــإن قـــدرة الشخص المالية تكون هى الملحوظة أساسًا وغالبًا وذمته المالية هى التى يتم معها التعامل ، وقد يحدث ذلك دون أى اتصال شخصى بين التعامل والمصرف ، وإنما بمجرد تبادل الأوراق والمستندات والتوقيعات وما إلى ذلك .

ثالثًا : فى الربا يؤخذ الدين أضعافًا مضاعفة فى آجال قريبة ، أما نظام الفوائد على الديون فالفائدة محددة .

فى الـــربا يستغل شخص حاجة شخص آخر إلى طعام أو مأكولات أو ما شابه ليضاعف عليه الدين ، وقد تستمر المضاعفة عندما يسأل الدائن المدين أتقضى أم تربى هل تفى بالدين أم تزيده إلى أجل معين ؟ وإذا كان المدين يستسهل التأجيل عادة فإن الدين كان يتضاعف أضعافًا

مضــاعفة فى أجل أو آجال قريبة ولذلك فقد جــاء فى القــرآن الكريم ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَــأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ سورة آل عمران ، فالربا استغلال شخصى لحاجة شخص يضــاعف علــيه فيه الربا أضعافًا مضاعفة حتى ليعجز عن السداد ، فتكون الطامة ، أما نظام الفوائــد على الدين فالفوائد فيه محددة بالقانون بحيث لا يمكن أن تزيد عما قدره القانون وإلا كانــت جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات مع إنزال الفائدة إلى الحد المقرر قانونًا ، وفى مثل هذا النظام لا يتضاعف الدين ، وإنما يصل إلى ضعفه بعد عشرين سنة إن كانت الفائدة ٥% وبعــد ١٠ ســنوات إن كانت الفائدة ١٠% وهى فترة تحدث فيها من المتغيرات فى أسعار العملة وظروف الحياة ما لا يجعل الضعف شيئًا له قيمة بالقياس إلى طول المدة خاصة مع ما هو ملحوظ – فى العصر الحالى – من ازدياد التضخم العالمى بما يعنى نقص قيمة النقود أو القدرة الشرائية لها دائمًا مما أدى فى بعض الحالات إلى أن تنقص قيمة الدين فى فترة وجيزة إلى الربع أو إلى النصف .

ويضــاف إلى ذلك أن صاحب المال يقتضى – فى العصر الحالى – أرباحًا أزيد بكثير من النســبة القانونــية للفوائد فيما لو وضعها فى أحد الأوعية الادخارية أو استثمرها بأى طريقة كانت بنفسه أو عن طريق مصرف أو شركة .

وفى ظروف القرية أو مجتمع المدينة يمكن معرفة مدى حاجة شخص ما بل ومدى ملاءمة كل فرد – فإنه لا يمكن تتبع كل شخص ومعرفة مدى ملاءمته ومقدار حاجته إلا لمن له معرفة تامة بأحواله وتداخلت الحاجات مع حاجة ، وقد تكون ترفًا وكذلك الثلاجة والتليفزيون وما شــابههما ، وإذا قــيل لشخص إن ذلك ترف فقد يحتج بأنه فى الظروف المعاصرة حاجة ، وقد يكون محقًا . كذلك فإنه أصبح من الصعب تحديد الذمة المالية لشخص وما إذا كانت دائنة أم مدينة قبل إجراء فحوص لكثير من الأوراق والحسابات ، ربما فى بلدان عدة . وبعض الناس هو فى الحقيقة بالحساب مفلس بينما هو بالائتمان وغيره موسر جدًا ، وهكذا فالدولار الأمريكى– عــلى سبيل المثال – له قدرة شرائية عالية عالميًا – فى الوقت الحالى ، مع أن ميزان المدفوعات الأمــريكى به عجز ٢٠٠ مليار دولار ويدل هذا على أن فكرة اليسر والعسر قد تغيرت فى الزمن الحالى وأصبحت ذات مدلول آخر .

وعـــندما يقترض شخص لشراء سلع استهلاكية معمرة كالسيارة والثلاجة وما شابه ، وهـــو الحال فى أغلب القروض للأشخاص ، فإنه من الصعب أن يقال إنه فى حاجة ، وإنه قد حدث استغلال لحاجته ، وعندما يقترض شخص أو شركة أو هيئة للتجارة أى للاستغلال فإن ذلـــك عـــلى اليقين ليس شكلاً من أشكال الحاجة . إن المشرّع يضع سن الواحدة والعشرين كقريـــنة عـــلى بلوغ سن الرشد المالى لصعوبة تتبع حالة كل فرد على حدة وهو يضع نسب الفائدة كقرينة على أنها تعويض للدائن لا تعتبر استغلالاً للمدين بحال .

وفى الظـــروف المعاصرة ومع تشعب الإجراءات القضائية وطولها فإن الدائن يكون هو المضحى فى علاقة المديونية ، وهو الطرف الذى تنبغى حمايته لما هو ملاحظ من صعوبة حصوله عـــلى مالـــه إلا بعد الالتجاء إلى إجراءات قضائية تكلفة مالاً ووقتًا وجهدًا ، وقد لا يستطيع بعدهـــا التنفـــيذ للحصول على ماله ، وليس غريبًا فى مثل هذه الظروف أن يقال (إن المدين أقوى من الدائن) .

رابعًا : التنفيذ فى الربا يقطع على شخص المدين باسترقاقه أما فى نظام الفوائد فيتم على المال فقط دون الشخص :

فى الجاهلية وفى صدر الإسلام كانت القاعدة بيع من أعسر للوفاء بدينه ، فإما أن يسترقه الدائـــن أو يبـــيعه إلى آخر ، ويستوفى ثمنه ، وقد قال بعض العلماء إن هذا الحكم قد نسخ لما نزلـــت الآيـــة ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ . غير أن ذلك اجتهاد منهم فحسب ، لأنه قيل فى أسباب نزول هذه الآية إنها نزلت بسبب مديونية بنى المغيرة المخزوميين لقبيلة ثقيف ، وفى حالة مديونية قبيلة لقبيلة فإن الحكم بالاسترقاق يكون صعبًا هذا فضـــلاً عـــن أن الدائنين فى هذه الحالة قبلوا حكم القرآن وارتضوا رؤوس أموالهم ولم يطلبوا التنفيذ على أشخاص مدينيهم ليصدر عن النبى حكم يعتبر أنه نسخ للقاعدة التى كانت سائدة والتى روى أنه صلى الله عليه وسلم طبقها بالتنفيذ على شخص المدين الحر وبيعه رقيقًا للوفاء بدينه .

أما فى العصر الحالى فلا يجوز التنفيذ على شخص المدين أبدًا ، وإنما يتم التنفيذ على ماله فقط ، وفى ذلك من المخاطر ما أشرنا إليه من قبل ، فالقرآن حين حظر الربا حظر نظامًا يؤدى

بأغلـــب المدينين إلى الرق نتيجة استغلال حاجتهم ومضاعفة الدين عليهم أضعافًا مضاعفة ثم التنفيذ على أشخاصهم بالبيع عند العجز عن الوفاء وهو أمر شبه متيقن فى مثل هذه الحالات .

أمـــا نظـــام الفوائد على الديون فهو نظام يختلف عن الربا من كل جانب على ما سلف البـــيان فمع أن القرآن ينص على أنه ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ فليس كل بيع حلالاً وكـــل فائدة ربًا وأن الله سبحانه لم يفصل المقصود بالبيع والمقصود بالربا ليترك للناس الحق فى بيان ذلك تبعًا لظروف أوقاتهم ومجتمعاتهم وبغير أن يتعللوا بالحرف أو يتمسكوا بالشكل .

أما بالنسبة لعقد التأمين :

فلم يتضمن القرآن أية ولم تتضمن السنة النبوية أى حديث مباشر عن عقد التأمين ذلك لأن هـــذا العقـــد لم يكن معروفًا وقت التنزيل ولا فى حياة النبى ، وإنما أسفرت عنه الظروف الاقتصادية التى جدت بعد عصر النهضة الصناعية ، ويرى بعض الفقهاء أن عقد التأمين محظور إسلاميًا لأنه من عقود الغرر (أى عقود الخطر) إذ هو مقامرة تلحق ضررًا بأحد الأطراف ، فالمستأمن لا يعرف كم قسطًا سوف يدفع ، والمؤمن لديه لا يعرف متى سيحل أجل سداد قيمة الـــتأمين والمؤمن له (المستفيد) لا يعرف متى سوف يستحق هذه القيمة أى أن كل الأطراف على جهل بوقائع تنفيذ العقد التى تحدث تبعًا لأمور خارجة عن إرادتهم (فى الغالب) ومن ثم فهـــم يقامرون والمقامرة مأمور باجتنابها من القرآن تبعًا للآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ .

غير أن هذا التعليل لا يصمد للتحليل ، فلا يوجد فى الإسلام محظورات بذاتها إنما ترتبط الأحكام بالعلل ، ويدور الحكم مع العلة وجودًا وعدمًا ، وعلة حظر عقد التأمين أنه عقد غرر أو خطر أو مقامرة يلحق ضررًا بأحد أطرافه ، وواقع الحال أن عقد التامين نشأ نتيجة تطورات اقتصادية كثيرة ، وهو لا يلحق أى ضرر بأى طرف من أطرافه ، فلا المستأمن يضار ولا المؤمن لديه يصيبه عنت ولا المستفيد (المؤمن له) يخسر شيئًا ، إنه عقد يكسب كل أطرافه منه كأثر للـــتطورات الاقتصـــادية التى أدت إلى هذه النتيجة التى لا يدركها من يتصور أنه عقد يلحق ضـــررًا بأحد أطرافه ، وإذا كان الواقع أبدى من النظريات المجردة فإن هذا الواقع يشهد بأن نظـــرية الضرر من عقد التأمين فى غير محلها ، ولا أساس لها على الإطلاق ، ويلاحظ أن كل معاشـــــات الـــتقاعد الـــتى تصرف للعاملين ومنهم رجال الفقه الإسلامى وشاغلو المناصب

فى المؤسسات الدينية هذه المعاشات هى فى واقع الأمر عقود تأمين ، لأن من يدفع أقساط المعاش لا يعرف كم قسطًا سوف يدفع والمؤمن لديه (حكومة أو هيئة) لا تعرف متى سوف تحل أقساط المعاش ولمن سوف تدفعها للعامل أم لورثته وإلى متى ستظل تدفع .

فالقول بتحريم عقد التأمين وهو قول محل نظر كبير يلحق بالمعاشات كذلك ويرى أن يحظرها جميعًا ليترك الناس لما كانوا عليه قبل تقريرها وتعميمها ضياعًا بلا موارد ولا أمان ويجعل الموت أو العجز كارثة لا يخفف منها تكامل اجتماعى فى صورة عقد للتأمين يفيد الجميع ولا يلحق ضررًا بأحد .

(٢)
حوار مع المثقفين

حجاب المرأة :

وقد دار حوار بين الحاضرين انتهى إلى أن ستر المرأة يكون بثلاث طرق أولها الخمار وهو الـــزى الذى يغطى رأس المرأة فقط وشعرها وثانيها الحجاب وهو الذى يرتدينه معظم النساء الآن ويخفى رأس المرأة وشعرها ولا يظهر إلا وجهها وكفيها .

والحجاب فريضة فقد جاء فى الآية (١٣) من ســـورة النور ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِـــنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ أى المقصود بهذه الآية أن تســـدل المرأة خمارها الذى يغطى رأسها إلى صدرها حتى لا يظهـــر للعامـــة ، ثم جـــاء فى الآية (٩٥) من سورة الأحزاب ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وقد جاء فى تفسير القرطبى أن النساء شكون للنبى صلى الله عليه وسلم من أنهن أثناء خروجهن لقضاء الحاجة خارج المساكن كن يتعرض لإيذاء بعض الفجار لعدم معرفة الحرائـــر من الجوارى وأن فرض هذا الزى كان بغرض التفرقة بينهن حتى أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى جارية تقنعت ضربها بالدرة محافظة على زى الحرائر .

ويتبين من ذلك أن الحكم يدور مع العلة ويزول بزوالها ولا محل الآن للتفريق بين الحرائر والجوارى وبالتالى يزول الحكم بزوال العلة .. والثالث هو النقاب وقد شرح فى كتاب «أصل النقاب» للدكتور الفنجرى أن علم الاجتماع وأصل التاريخ يقرر أن النقاب عادة قديمة جدًا تعـــود إلى مـــا قبل ظهور الديانات وقد ظهر فى عصر الأشوريين والبابليين والفرس ولم يكن الـــنقاب مقصورًا على النساء بل كان الفرسان من الرجال فى الجاهلية يلبسونه وحتى الآن فى قبائل الشمال الأفريقى يستعملونه .

وعـــندما جاء الإسلام كان النقاب معروفًا فى جزيرة العرب ولكن الإسلام لم يأمر به ولم يجعله فرضًا ولم تلبس المرأة المسلمة النقاب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه ولا فى العصر الأموى أو العباسى — ولم يظهر النقاب إلا مع بداية انهيار الدولة الإسلامية وظهور المماليك .

وعـــندما جاء حكم الأتراك العثمانيين كان من تقاليدهم حبس المرأة فى الحرملك وكان الحكـــام يبطشون بمن يخالف تقاليدهم وأصدر السلطان « سليمان بن سليم » فى سنة ١٥١٧ فـــرمانًا قـــرر فيه أن كل امرأة تسير كاشفة وجهها فى الطريق بغير نقاب تعاقب بقص شعرها بالموس وتمتطى حمارًا بالمقلوب تسير به فى الطرقات .

اللحية :

ونـــاقش الحاضرون موضوع الالتزام بتربية اللحى للمسلم مصداقًا لقول الرسول صلى الله علـــيه وســـلم : « أعفوا اللحى وهذبوا الشارب » .. وحدد المسلمون والمفسرون إطلاق اللحية بألا تزيد على قبضة اليد تحت الذقن وقد استقر الرأى على أن هذا الحديث ليس أمرًا أو فرضًا وأن اللحية ليست علامة إسلامية إطلاقًا فهى تنسب إلى مرحلة تاريخية فى حياة العالم كله وليست بنت دين معين ولا الدين الإسلامى .. وحتى أول القرن الحالى كان إطلاق الرجل للحيته هو الأساس وكان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه والمسلمون يطلقون لحاهم ويحاربون الأكاسرة والرومان والبيزنطيين الذين كانوا يطلقون لحاهم أيضًا حيث كانت اللحية للجمـــيع وكـــان صلاح الدين الأيوبى ومن معه يطلقون لحاهم والصليبيون الذين يحاربوهم يطلقـــون لحـــاهم وكـــل الأباطرة والملوك وزعماء العالم من الصين إلى أوروبا ورجال الدين والشيوعيين مثل كارل ماركس ، ولينين وحتى القرن التاسع عشر كانوا يطلقون لحاهم ثم بدأ عهد اللحى ينقرض مع بزوغ القرن التاسع عشر وبقيت اللحية رمزًا لرجال الدين فقط وإن كانـــت تعرضت للتهذيب دون إلزام أحد بها لأنها ليست بنت عقيدة أو دين معين وإنما كان المقصود بها عمومًا رمز الفضيلة والوقار .

وقـــد دعت الحضارة الحالية إلى حلاقتها والتخلص منها ليكون الشخص مقبول الشكل مهـــندمًا ، وما تربيتها الآن إلا لغرض كأصحاب شركات توظيف الأموال للتيسير بها لإخفاء نواياهم الخبيثة لاستغلال الأفراد والتغرير بهم باسم الدين .

رأى المستشار سعيد العشماوى : (الحجاب ليس فريضة)

أولاً : آيـة الحجـاب : الحجاب هو الستر ويحجب أى يستر والآية التى جاءت عن حجاب النساء تتعلق بزوجات النبى صلى الله عليه وسلم وحدهن وتعنى وضع ساتر بينهم وبين المسلمين .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِـنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّـبِيَّ فَيَسْـتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَـابٍ ذَلِكُـمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (آية ٥٣ – الأحزاب)

وهذه الآية تتناول ثلاثة أوضاع :

أولهـا : ستصرف المؤمنين عندما يدعون إلى طعام عند النبى صلى الله عليه وسلم حيث كانت زوجة النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش تولى وجهها إلى الحائط مما كان يثقل على النبى صلى الله عليه وسلم .

ثانـيها : أن عمر بن الخطاب قال للنبى صلى الله عليه وسلم إن نساءك يدخلن عليهن البر والفاجر فلو أمرقمن أن يحتجبن ثم نزلت الآية السابقة .

ثالـثها : أن الآية نهت عن عدم الزواج بزوجات النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وهـذا الحجاب أو الساتر ، الذى أشارت إليه الآية خاصة بالستر بين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين بحيث أن حدث كلام بينهما أن يكون ذلك وبينهما سترًا فلا يرى أى مـنهما الآخـر وهـذا الحجاب قصد به النبى صلى الله عليه وسلم زوجاته فقط ولا يمتد إلى ما ملكت أيمانهم كالجوارى ولا إلى باقى المؤمنات .

ويروى أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى خيبر تزوج من صفية بنت حـيى فقال المؤمنون إن حجبها يعنى أنها من أمهات المؤمنين (أى من زوجاته) وإن لم يحجبها

فهـــى ممن ملكت يمينه (أى من الجوارى) فلما ارتحل فرض عليها الحجاب فقال المؤمنون إنها زوجة له ومن أمهات المؤمنين .

ثانيًا : آية الخمار : وهى :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ (آية ٣١ – النور) .

وســـبب نـــزول هذه الآية هو أن النساء فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كن يغطين رءوســـهن بالخمار ويسدلانه من وراء الظهر فيبقى أعلى الصدر والعنق ولا ساتر لهما فأمرت الآيـــة المؤمـــنات بأن يسدلن الخمار على الجيوب فتضرب الواحدة منهن بخمارها على جيبها أو جلبابها لستر صدرها وكان هذا اللباس للتمييز بين المؤمنات وبين غيرهن من النساء فالعلة هنا كانت تعديل عرفى سائر بينهم تابع للوقت الذى كانت فيه عادات معينة تختلف عن عاداتنا الآن كما كان الحديث الخاص بالرجال (أحفوا الشوارب وأطلقوا اللحى) مقصودًا به التمييز بـــين المؤمنين وغيرهم الذين كانوا يطلقون الشوارب ويحفون اللحى وهذا توجيه وقتى خاص بزمن وظروف خاصة لا وجود لها الآن .

ثالثًا : آية الجلابيب : وهى :

﴿ يَاأَيُّهَـــا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ ﴾ (آية ٥٩ – الأحزاب)

وكـــان ســـبب نـــزول الآيـــة خروج المؤمنات لقضاء الحاجة بالصحراء فكن يتعرضن لمعاكسات بعض الفجار فكان القصد هو أدناء المؤمنات لجلابيبهن حتى يميزوا عن غير المؤمنات فلا يتعرضن للمعاكسات .

ولا شك أن المقصود بالجلابيب هو الثوب الذى يستر جميع البدن غير الخمار والحجاب حتى أن عمر بن الخطاب عندما رأى إحدى الجوارى تدنى جلبابها ضربها بالعصى قاصدًا المحافظة على زى المؤمنات وقد قرر بعض العلماء أن هذا الزى فرض فى هذا الوقت للتمييز بين نساء المؤمنات والجوارى والذى لا مبرر لـــه الآن لانعدام الجوارى واختلاف الزى ويظهر من تعدد

الحكـم فى الآيـات السابقة أنها قصدت ظرفًا معينًا وزمنًا محددًا فكانت الآية تخص كل حالة بحالـتها وأن هذه الحالات انتفت الآن فلا مبرر للتمسك بهذه الأزياء بعد فوات هذه الأجيال المتعاقبة .

رابعًا : الأحاديث :

يـروى عـن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا يحل لامرأة تؤمن بالله والـيوم الآخر إذا بلغت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى ما هنا) وقبض على نصف الـذراع كما روى عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : (يا أسماء إن المرأة ، إذا بلغت المحيض لا يصلح أن يرى لها إلا هذا) أشار إلى وجهـه وكفـيه ويلاحظ على هذين الحديثين أنهما من أحاديث الآحاد للاسترشاد وأنهما لا ينشـئان ولا يلغيان حكمًا شرعيًا – ويلاحظ أن الحديثين متناقضان فالأول جاء بالسماح لنصـف الذراع بينما الثانى بصيغة الصلاح والفرق كبير بين الاثنين ذلك أن الحلال والحرام يدخـل فى نطـاق الحكـم الشرعى فى حين أن الصلاح يتعلق بالأفضل والأصلح فى ظروف اجتماعـية معينة ومع هذا الاختلاف البين بين الحديثين فإنهما يثيران مسألة وقتية الأحكام أى توقيت الحكم فى حديث شريف معين لوقت بذاته وعصر محدد حتى أن بعض الفقهاء يرى أن ما صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم من تشريعات يفيد أنه تشريع زمنى روعى فيه ظروف العصـر فقد يأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالشىء أو ينهى عنه فى حالة خاصة لسبب خاص ففهـم الناس أنه حكم مؤبد بينما هو فى الحقيقة حكم وقتى وقد كان لعدم الفصل بين النوعية من الأحكام المؤبدة والأحكام المؤقتة أثر كبير فى الخلاف بين الفقهاء وليس أدل على ذلك بما ورد فى القـرآن الكـريم من إلغاء بعض الآيات أو تعديلها طبقًا للظروف والملابسات كإباحة الخمر ثم تحريمها وجلد الزانى ثم رجمه ... إلخ .

فالأحكـام تخـتلف من عصر إلى عصر ومن ظروف إلى ظروف ولا يمكن مع الحضارة وسـريان الأجيال أن تكون الأحكام الصادرة منذ آلاف السنين مؤبدة غير قابلة للتعديل أو التغيير .

إن الحجاب الحقيقى هو منع الناس عن الشهوات وحجب الذات عن الآثام دون أن يرتبط ذلك بزي معين أو لباس خاص غير أن الاحتشام وعدم التبرج فى اللباس والمظهر أمر مطلوب يقره كل عاقل وتتمسك به أى عفيفة .

رد فضيلة المفتى على الرأى السابق :

وقد رد فضيلة المفتى على ما جاء بالفرض الأول بأن الساتر والحجاب خاصًا إلى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فقط قرر أن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ يعنى أن الحجاب والستر غير مختص بزوجات النبى صلى الله عليه وسلم فقط وإنما يعم جميع المؤمنات .

وعن الخمار فقد قال تعالى :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ .

فأمرت الآية بستر العنق والصدر – وقرر أن جملة (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) تقصد بها أن المؤمنات لا يبدين زينتهن إلا الوجه والكفين كما شرعها النبى صلى الله عليه وسلم عدة مرات للمؤمنات مثل أسماء بنت أبي بكر حيث أن هذه الآية السابقة ذكرها هى إحدى الآيات على التستر والاحتشام وفى النهى عن إبداء أى شيء من الزينة سوى الوجه والكفين .

ويتناول فضيلة المفتى آية الجلابيب فقال إنها نزلت لتضع فرقًا بين الحرائر والإماء ولتميز بينهن فلا يتعرضن الحرائر للإيذاء .

وأنه إذا قيل بزوال هذا الحكم لانتفاء العلة يكون هذا خطأ لأن هذه الآية توجه النبى صلى الله عليه وسلم بأن يأمر زوجاته وبناته والمؤمنات بالتستر والاحتشام لأن ذلك أدعى لصيانتهن من أعين الفجار والمنافقين .

أما عن أحاديث السيدة عائشة التى قيل عنها أنها من أحاديث آحاد التى لا تفرض حكمًا شرعيًا ولكنها للاسترشاد .

فقد قرر فضيلة المفتى أنها حجة ويجب العمل بها كما نصت على ذلك كتب التفسير .

وقد تناولت المحكمة الدستورية العليا قضية حظر ارتداء النقاب فى مدارس البنات طبقات لتعليمات وزير التعليم وقال أنه لم يرد فى القرآن الكريم أو السنة النبوية دليل شرعى على ارتداء النقاب وأن المرأة كانت تتجمل بارتداء النقاب وأنه ليس أداة لصون المرأة وعفافها بل هو أداة إغراء وفتنة وأن الدين الإسلامى قد حض على ارتداء المرأة للجلباب والخمار فقط وقد حظر الرسول صلى الله عليه وسلم النقاب على المرأة المحرمة فى الحج أو العمرة وقال : (لا تنقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين) وقال بإباحة ظهور وجه المرأة وكفيها . (الأخبار ١٩٩٦/٢/٦ م) .

تطور الزمن

فى حديث معروف للرسول (ﷺ) (يظهر على رأس كل مائة عام من يجدد الله على يديه للأمة دينها) .

أى لابد وأن تتمشى أحكام الدين الإسلامى مع تطور العصور والتقدم والعلم والحضارة ولا تظل جامدة ومخلفة .

إن الحكم المفروض يدور مع العلة ويزول بزوالها ويتغير من عصر إلى عصر طبقًا لظروف وأحوال كل مجتمع بحيث لا يغير الأساس الذى بنى عليه فكثير من الآيات قد تعدلت مع الزمن وما نزال فى عهد الأوائل عند نزول الوحى قد تعدل فى حقبة لا تزيد عن عشرين عامًا .

أولها آية شرب الخمر فى الآية ٦٧ من سورة النحل ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ وفى الآية ٢١٩ من سورة البقرة ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ إلى أن جاءت الآية ٩٠ من سورة المائدة وقالت ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وثانيها حالة الزنى فى الآية ٢ من سورة النور ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ ثم جاء فى الحديث عن الرسول (ﷺ) رجم الزانى والزانية حتى الموت .

وثالـــثها الأحكـــام المفروضة على الجوارى والرقيق وهى غير قائمة الآن لعدم وجودها وزوالها حيث كانت الآية ٣ من سورة النساء ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ .

ورابعها وقد أضاف الرسول (ﷺ) إلى آية التحريم ١١٥ من سورة النحل قوله : وحرم علـــيكم آكل كل ذى ناب وذى مخلب كما أضاف قوله (أحلت لكم ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال) وهذه كلها تعديلات .

خامسها عندما حرم الرسول (ﷺ) استعمال اليد اليسرى عند الأكل والآن أصبح المتبع عـــند الأكل استعمال اليد اليسرى لزوال السبب واستعمال اليد اليسرى فى الاستنجاء عند قضاء الحاجة وهكذا كان لابد وأن تتطور الأحكام مع تطور الزمن حيث نادى الله رسوله فى أول القرآن بكلمة (اقرأ) أى تطور وتعلم وتحضر مع الزمن .

المراجع

١ – القرآن الكريم والتفسيرات .

٢ – الأحاديث النبوية الشريفة .

٣ – صحيح مسلم .

٤ – صحيح البخارى .

٥ – رياض الصالحين – الإمام زكريا يحيى بن شرف النوْوى .

٦ – تاريخ الإسلام – دكتور/ حسن إبراهيم .

٧ – فى نزول القرآن – دكتور/ محمد خليفة .

٨ – الفتنة الكبرى – دكتور/ طه حسين .

٩ – عبقرية عمر – عباس محمود العقاد .

١٠ – عبقرية محمد – عباس محمود العقاد .

١١ – الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة – عبد الله الأمين .

١٢ – ملفات قضية التكفير والهجرة ٦/٧٧ أمن الدولة .

١٣ – ملف قضية الجهاد ٧٤/٢٦٨٧ أمن الدولة .

١٤ – ملف قضية اغتيال السادات ١٦٢ لسنة ١٩٨٢ .

المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقـــدمة	٧
الفصل الأول : الصراع على السلطة بعد وفاة الرسول واغتيال الخلفاء الراشدين	١١
الفصل الثانى : أولاً : الفرق الإسلامية	٦٣
١ – الشـــيعة	٦٣
أولاً : الجعفرية الاثنى عشرية	٦٧
ثانيًا : الإسماعيلية	٧٨
غلاة الشيعة	١٠١
(أ) الإسماعيلية	١٠١
(ب) النصــيرية	١٠١
(جـ) الدروز	١٠٨
(د) اليزيدية	١١١
(هـ) الباطنية	١١٣
(و) السبئية	١١٨
(ز) الكيسانية	١٢١
٢ – أهل السنة	١٢٢
٣ – المعتــزلة	١٣٣
٤ – الخـــوارج	١٦٨
٥ – الأشاعرة	١٧٦
٦ – الصـــوفية	١٨١
٧ – المرجـــئة	١٨٨
٨ – الأباضية	١٩٧

الموضـــــوع	الصفحة
٩ – الزيــدية	٢٠٢
١٠ – المذاهب الفقهية	٢٠٤
الفصل الثانى : ثانيًا : الفرق الإسلامية الحديثة	٢١٩
١ – الوهــابية	٢١٩
٢ – السنوسية	٢٢٥
٣ – المهــدية	٢٣٣
الفصل الثالث : ١ – تنظيم جماعة الإخوان المسلمين	٢٤٥
٢ – كتاب معالم فى الطريق والرد عليه	٢٧٧
الفصل الرابع : ١ – تنظيم جماعة التكفير والهجرة	٢٩٥
٢ – فكر الكتاب والرد عليه	٢٩٨
٣ – حادث اغتيال الدكتور الذهبى	٣٢٣
الفصل الخامس : ١ – تنظيم جماعة الجهاد وكتاب الفريضة الغائبة	٣٣٩
٢ – الـــرد	٣٥٦
٣ – حادث الاعتداء على الكلية الفنية العسكرية	٣٦٩
٤ – اغتيال السادات	٣٧٨
الفصل السادس : قضايا وحوادث هامة .. للمتطرفين	٤٠١
الفصل السابع : جماعات إسلامية أخرى	٤٣٧
الفصل الثامن : حوار رجال الدين حول تطبيق الشريعة الإسلامية	٤٤٧

جذور الفتنة فى

الفرق الإسلامية

منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات

بدأت خلافات المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ فى السياسة وليس فى الدين ، وتركزت الخلافات وما أدت اليه من صراعات فى موضوع الخلافة وأصول الحكم وفلسفته بالذات . . لم يختلفوا على أن « لا اله الا الله وان محمدًا رسول الله » ولا على الايمان بالغيب والملائكة والجزاء ، ومن سبق من الأنبياء والرسل وما نزل عليهم من الصحائف والكتب والألواح ، كما أنهم لم يختلفوا على الصلاة والصوم والحج إلى بيت الله الحرام . . وحتى الخلاف الذى حدث حول الزكاة على عهد أبى بكر والذى أدى إلى الحروب التى سميت بـ « حروب الردة » حتى هذا الخلاف كان سياسيا لا دينيا ، والحرب والصراع من حوله دار بين « أهل القبلة» .

وكان أول ما حدث من خلاف بين المسلمين بعد رسول ﷺ اختلافهم فى الامامة . . ولم يحدث خلاف غيره فى حياة أبى بكر وأيام عمر . إلى ان ولى عثمان ابن عفان ، وانكر قوم عليه فى آخر أيامه أفعالا . . . ثم بويع على بن أبى طالب فاختلف الناس فى أمره ، فمن بين منكر لامامته قاعد عنه ، ومن مؤيد لامامته معتقدا لخلافته . . ثم بدأ الخلاف أيام على مع طلحة والزبير وحربهما اياه ، ثم تلاه الصدام الدموى مع معاوية ومن والاه .

وبين دفتى هذا الكتاب دراسة وثائقية محققة عن جذ
الرسول ﷺ حتى عهد السادات ، فبالاضافة للمذاهب والفر
الكتاب راح المؤلف يرصد ويتابع ظاهرة الفتنة حتى حواد
والتكفير والهجرة وغيرهما وحادثة اغتيال السادات وما تلى ذلك

إن الروح العلمية وأسلوب الحياد الذى اتبعه المؤلف
والمسائل الشائكة فى هذا الكتاب بجعله كتابا جديرًا بالاقتناء

الناشر